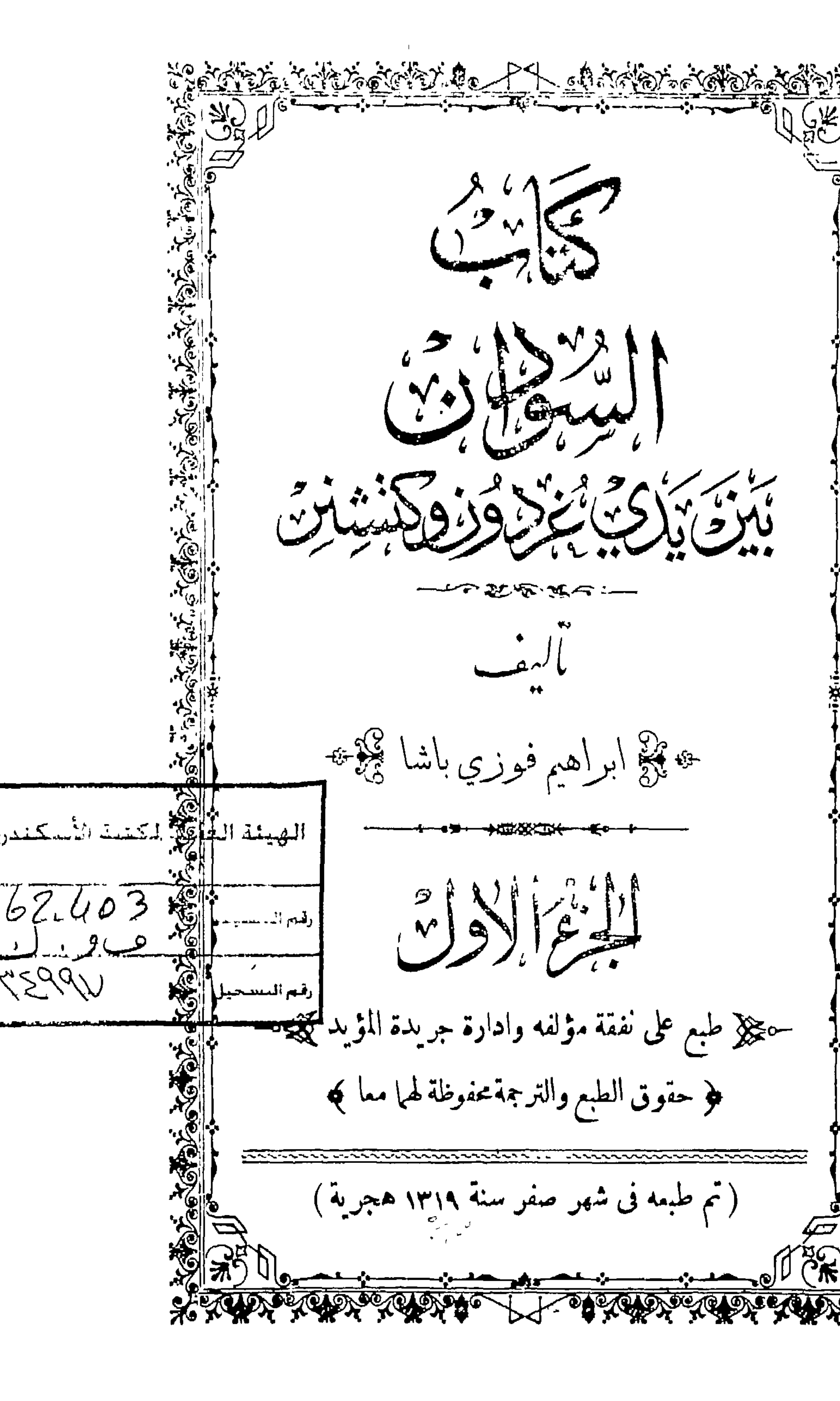


كتاب
السودان
بين يدي غردون وكتشنر

تأليف

ابراهيم فوزي باشا

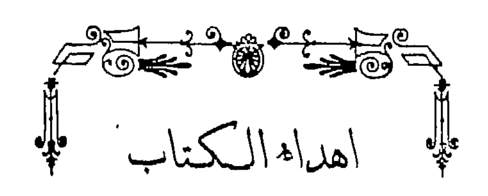
الجزء الاول

طبع على نفقة مؤلفه وادارة جريدة المؤيد

(تم طبعه فى شهر صفر سنة ١٣١٩ هجرية)

﴿ فهرست الجزء الاول من كتاب « السودان بين غردون وكتشنر » ﴾

« تمت »



اهداء الكتاب

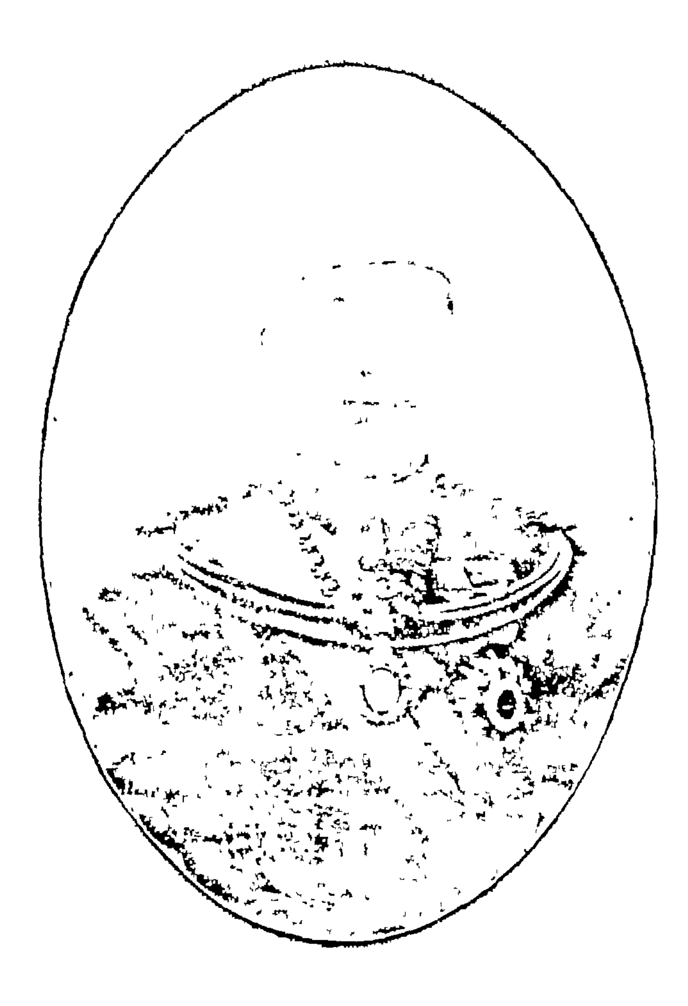
﴿ الى سدّة مولاى وولى نعمتى الخديو المعظم ﴾

عباس باشا حلمي الثاني

الافخم

« هذه يامولاي معلومات ومشاهدات شخص من رعيتك قضى »
« في السودان أكثر عمره بين ضابط صغير . وقائد كبير . وسجين »
« أسير . رأى كل ضروب الرخاء والشقاء . خلال المدة التي قضاها »
« في تلك الارجاء. وهى حوالى الثلاثين سنة ماتسنت لمصري غيري . »
« ولذلك رأيت أن أجملها بين دفتي كتابي هذا الذى سميته « السودان »
« بين يدى غردون وكتشنر » لان جميعها عبارة عن مقدمة ونتيجة »
« انطوتا في معنى هذا الاسم فتقبل يامولاي هذه الخدمة التى قام بها »
« جهدالمستطاع عبد من أخلص مخلصي رعيتك لسدتك.لم ينس في كل »
« أطواره واجب ولاء عبوديتك. (ابراهيم فوزي) »





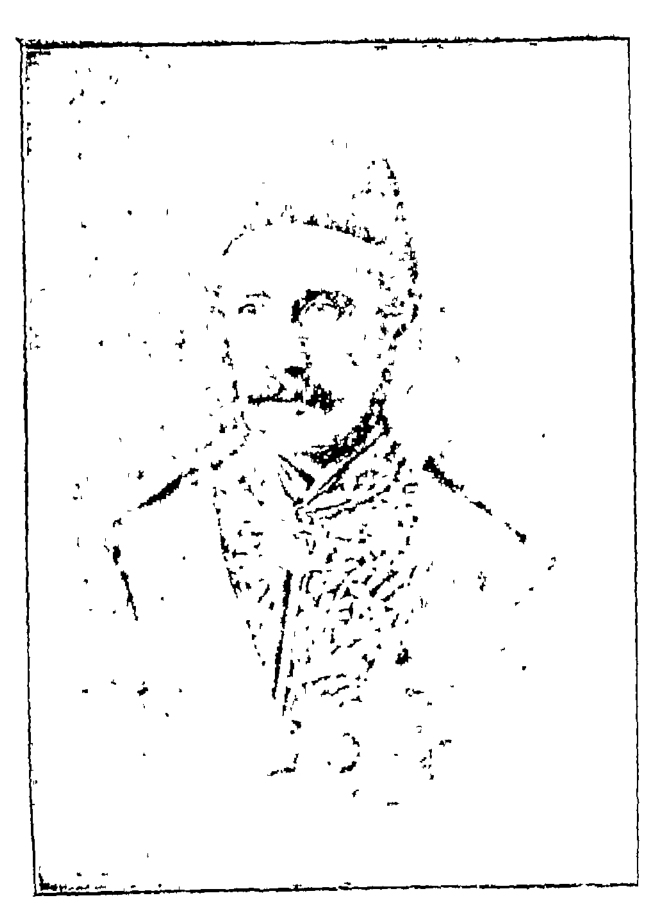
﴿ مولانا الخديو المعظم عباس حلمي الثاني حفظه الله ﴾

مقدمة الكتاب



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

« أما بعد » . فلما كنت أول من رفق غردون باشا فى خدمة السودان وآخر من ودعه عند الرمق الاخير من حياته فى عاصمته. وأول أسير مصرى مسجون افتكه كتشنر باشا. وآخر من عاد من أسرى المهدوية الى وطنه . وكانت حوادث السودان في غضون هذه المدة التى انقضت بين أول عمل قام به غردون باشا الذى فيه قبر. وآخر عمل من كتشنر باشا الذى طار به ذكره ونشر . من أجل حوادث الزمان اعتبارا . وأعظمها ادكارا. منها يعرف الانسان كيف يخطيء الحاكم في حكمه . وكيف يقضي على سلطانه بظلمه . وكيف يطوي سجل النظام . وتقوم مقامه فوضى الاحكام في الانام. وكيف تعمي الجهالة صحبها. وتغري الضلالة ربها. بل كيف يقدم الرجل العظيم نفسه فداء لمقاصد قومه. وكيف تدخر الاقدام الراسخة في سياسة الامم هذا الفداء العظيم ليومه.



غردون فادى مصلحة قومه بنفسه

كل شيء من علو السياسة وسقوطها. وآيات رفعة الامم وهبوطها. مجتمع بين دفتي تاريخ السودان. كما يجتمع النور والظلام في الليل الحالك. توقد فيه النار منارا للسالك ودليلا للحيران. لذلك رأيت من واجب قومي وأمتي بل ومن حق على نفسي أن

أضع هذا الكتاب مشتملا على كل ما وقفت عليه أو اتصل بي من حوادث الاقطار السودانية في خلال المدة التي اشرت اليها. وذقت طعوم السراء والضراء بين يديها. ولم أكتف في سرد الوقائع بما بقي في خاطري من رسومها بل استعنت بجماعة من كبار موظفي الحكومة السودانية الذين كانوا قبل دولة الدراويش الدائلة متفرقين في أقسامها ليكون لنا على كل واقعة أو حادثة ومن كل جهة شاهد رؤية في الاكثر . وكذلك قد اطلعت على أكثر ما كتب سلاطين باشا ومسيو نيوفيلد وغيرهما ممن شاركوني في مشاهدات حوادث السودان ومصائبه واستأنست فيما غاب انظاره عني بشيء من المنشورات التي ثبتت بالتواتر روايتها كما ثبت في نفسي من قبل مغزاها

وبالجملة فاني لم آل جهداً في تحقيق كل واقعة تكلمت عنها وحادثة رويتها ومقصد بينته. ولغز حللته. حتى صرت بعد ذلك أعتقد اني وفيت التاريخ حقه كما يستطيع عاجز مثلي قليل البضاعة من الكتابة

وبعد ان وضعت مسودات الكتاب بالتفصيل والاسهاب. استعرت قلم بعض الكتاب الفضلاء في تهذيب ألفاظه وتنقيح عباراته وحذف المكرر منه وترتيب وقائعه على ما يناسب الموضوع زمانا ومكانا فجاء بحمد الله كما يراه القارئ وله الحكم فيه تخطئة أو تصويبا. على أنه لا يبعد أن يطلع عليه من يكون روى واقعة على غير ما رويت أو شاهد حادثة يعتقد أنها على خلاف ما شاهدت لكنني أعذره من أول الامر كما ينبغي له أن يعذرني فحوادث السودان ككل حوادث الثورات وعواصف الاضطرابات لها عند كل واقف بينها مهب ريح وفيها لكل ناظر وجه يتجلاها فيه. لكن هذا الاختلاف لا يغير من حقيقة الحادثة عند من نظر اليها من الجهة التي اطلع عليها كذلك كتابي هذا قد تضمن حقائق الحوادث من الوجه الذى شاهدتها عليه

ومن يزعم أنه رافق الطيب الذكر غردون باشا كما رافقت. وعرف مقاصده كما عرفت. وشاهد من دولة المهدي ماشاهدت. وكابد من اضطهادات التعايشي ماكابدت. فليكتب للقراء كما كتبت. وليقل انك أخطأت وما أصبت. والا فأنا قد أصبت وما اخطأت فيما خططت وبه عليه توكلت «ابراهيم فوزي»



﴿ ابراهيم فوزي باشا ﴾

كتاب خصوصي من شقيقة غردون باشا

من غريب الصدف اننا يوم شرعنا فى طبع هذه المقدمة ورد لنا الكتاب الآتى

سوتها مبلتون فى ١١ مايو سنة ١٩٠١

عزيزي فوزي باشا

انا شقيقة المرحوم الجنرال غردون باشا وكنت متشوقة منذ زيارة (هيرنيوفيلد) أن اكتب لك

وقد استلمت أخيرا نسخة من جريدة اجبسيان غازيت وفيها خلاصة محادثة معك وهي وان كانت محزنة الا أنها مفيدة ولذيذة

اني أشكرك من صميم قلبي على علو شرفك الذي أبديته وتبديه لذكرى المرحوم غردون مع الصدق والاخلاص اللذين خدمته بهما حال حياته وبعد مماته

وعندي كتاب نيوولد وأعرف منه تاريخك ويمكنك أن تعرف مقدار اهتمامي بكل شيء يتعلق بتلك الحادثة المؤلمة وبنهايتها المحزنة ولذلك أحب أن اسمع منك كل ماتقدر أن تقوله لى عن رئيسك وصديقك

هل عندك صورة غردون والا فانا أرسلها لك ان كنت تريدها وأؤمل أن هذا الكتاب يترجم لك كما أنى أحب أن أعرف كل شيء عن أصدقاء أخى الذين خدموه بالاخلاص فى مدة حياته . هل الاسنانى حي حتى الآن

آمل أن يصلنى منك خبر ولا زلت (المخلصة المحبة)

هيلين موفيت

وقد وضعنا صورة هذا الكتاب في مقدمة كتابنا ليكون شبه سؤال جوابه في خاتمة هذا الجزء التي وان تكن خاتمة محزنة الا أنها مفيدة ولذيذة

(ابراهيم فوزي)

تعيين الكولونيل غردون

حاكما على خط الاستواء

لما مهدت انكلترا أمر التداخل فى شؤون السودان واقنعت المرحوم اسماعيل باشا الخديو الاسبق بتعيين غردون في وظيفة سامية به فاقتنع أصدر أمره في أواخر سنة ١٢٩٠ هـ (يناير سنة ١٨٧٤) بانتدابه لمأمورية سامية فى أعالى النيل وكان السير صموبل بيكر مأموراً لخط الاستواء خاضعا لحكمدارية عموم السودان فتم الاتفاق على أن يخلفه غردون فى وظيفته ولكن ليكون الخلف مستقلا فى أعماله وقد كان ومنح مائة الف جنيه من الخزينة المصرية نفقة لحملته الابتدائية وكان غردون قد حضر قبل تعيينه بنحو شهرين الى مصر فلما تم تعيينه وتلقى الاوامر من المرحوم الخديو الاسبق شرحا لبعض الاوامر التى تلقاها من خارجية انكلترا كما يعلم هذا بالبداهة توجه الى السودان فوصل مدينة الخرطوم حيث كان المرحوم اسماعيل باشا أيوب حكمداراً لعموم السودان فاستقبله بابهة عظيمة واستعرض له فرقة من العساكر لاداء تحية القدوم واطلقت له المدافع فأكبر الناس شأن هذا القادم وعلموا أنه ليس كبقية حكام الاقاليم. وبديهى ان اسماعيل أيوب باشا لم يستقبله هذا الاستقبال الفائق محاباة وتبرعا من قبيل المجاملات الشخصية بل لا بد ان تكون أوامر الخديو قد سبقت غردون الى الخرطوم فكان من الحكمدار انفاذها

وهو ما دخل بسببه شيء في نفس الحكمدار العام من هذا المأمور الجديد الذى سينازعه في سلطته من جهة ويكون كرقيب عليه من جهة أخرى

وقد أقام غردون في سراي الحكومة الكائنة في ضاحية المدينة من الجانب الشرقى المشهورة بقصر راسخ بك

مرافقة مؤلف هذا الكتاب
﴿ للكولونيل غردون في الخدمة ﴾

وبعد ثلاثة ايام من وصول غردون باشا طلب من حكمدار عموم السودان فرز أربعة بلوكات من عساكر الجهادية أبناء العرب مسلحين باسلحة رامنتون وان يكون ضباطهم من المعروفين بالخبرة العسكرية والنشاط والاقدام فاجابه الحكمدار الى طلبه ولكنه لم يحسن انتخاب العساكر والضباط ولا أعطي الاسلحة من الطرز الجديد المطلوب . وفضلا عن ذلك فان اكثر الضباط امتنعوا عن قبول هذه المأمورية لبعد الشقة ولعلمهم بما يقاسون من عذاب السفر ومكافحة الاقوام المتوحشة التى يقصد غردون اخضاعها لسيطرته . ويقال ان الخديو الاسبق لم يكن مع ذلك مرتاحاً لتعيين غردون في مأمورية بالسودان خيفة ان يكون من ورائه تنفيذ مقاصد انكلترا التى كانت لاتخفى عليه فعينه وهو كاره وأراد أن يحدث فى طريقه العراقيل فاوعز الى اسماعيل أيوب باشا سرا بما أوعز حتى اذا حصلت حركة ضده فى السودان اعتذر اسماعيل باشا بها وتخلص من ورطة ما يتوقعه . ولكن لست آخذ على مسئوليتي تحقيق هذه الرواية التى كان يصعب على مثلي وقتئذ تحقيقها

وكنت انا اذ ذاك ضابطا صغيراً أوشبه ضابط برتبة الاسبران (وكانت هذه من رتب الجيش فوق الصف ضابط وتحت الملازم الثاني) فاظهرت رغبة شديدة في مصاحبة غردون فاحتقر اسماعيل أيوب باشا مني هذه الرغبة

. وكان أحد المستخدمين من أصحاب غردون حاضراً خلال الفرز وشاهد ما كان مني ملاحظا ما كان من الحكمدار العام فلما عاد الى مقر غردون أخبره بسوء انتخاب العساكر والضباط وذكر له قصة انتهار الحكمدار العام لي عند ما أبديت رغبتي فى السفر الي خط الاستواء فلم يكن منه الاان بعث شكوى تلغرافية الى الخديو الاسبق قائلا ان اسماعيل باشا أيوب يعرقل مساعيّ ويضع فى سبيل نجاح مأموريتي العقبات. وهو لذلك انتخب أسوأ العساكر وأردأ الاسلحة عدة لى في مأموريتي. فورد فى الحال الرد الي اسماعيل أيوب باشا بتوبيخ شديد يأمره فيه أن يجيب طلب غردون فى كل ما يطلب حتى لو أمرك أن تصحبه وجب أن تمتثل أمره فوقع هذا فى نفس الحكمدار العام أسوأ وقع ووصلت صورة هذا التلغراف الى غردون باشا من قبل المعية السنية ليحيط علما بما كان من صدور الامر الجديد لحكمدار السودان حسب رغبته. ولا يبعد أن كتابة نص التلغراف على هذه الصورة كان بطلب من الوكالة الانكليزية فى مصر كما جرت العادة في مثل ذلك

والذى كان من اسماعيل أيوب باشا بعد ذلك أن دعانى اليه وطيب خاطري بكلام لطيف قائلا انما كان انتهارى لك شفقة عليك. ثم علمت ان الكولونيل غردون طلبنى منه بالاسم فاشار عليّ أن أتوجه له فى سراى الشرق وان أذكر له عرضا ان الذي أبلغه خبر معاكسة الحكمدار العام له مبالغ أو مخطىء فى النقل

وعلى ذلك ذهبت الى سراى الشرق وتقابلت مع الطيب الذكر غردون فرأيت منه رجلا حليما شفوقا كريم الاخلاق متواضعا فى حديثه وحركاته وسكناته مع مخايل شرف النفس وعلو الهمة وبعد أن سلمت عليه فأحسن لقياى خاطبنى قائلا « اذا كنت أنت الاسبران ابراهيم فوزى الذى رغب

مصاحبتنا ولقى من الحكمدار الاساءة من اجلنا فقد فوضت اليك أمر فرز الاربعة بلوكات وضباطهم وأسلحتهم» فاجبته يامولاى أنا الذي رغب خدمة بلده بمرافقتك . وعندئذ أعطاني أمرا للمرحوم أسماعيل أيوب باشا بمضمون ماقال فاستلمت الامر وتوجهت الى الحكمدار وسلمته المكتوب فأحسن مقابلتي وأمرني بالتوجه الى القشلاق لمباشرة فرز العساكر وضباطهم وأسلحتهم من نوع الرامنتون حسب رغبة الكولونيل غردون ففعلت وأخذتهم الي سراي الشرق حيث استعرضهم فاعجب بمرآهم وتناسب أعضائهم وحركاتهم وجودة أسلحتهم وخاطبنى أمام الجميع بعبارات الشكر والامتنان كما أنه خاطب الضباط والعساكر بما طيب خواطرهم وأطلق وجوههم بالبشر

ثم أمرنى أن أجهزهم جميعا للسفر الى جهات خط الاستواء ماعدا نحو ٥٠ نفرا يبقون بمعيته بصفة حرس خصوصى له

وعلى ذلك أعددنا أربعة وابورات لسفر العساكر المذكورة وهى (بردين) و(تلحوين) و(الصافية) و(المنصورة) وانزلناهم فى الوابورات التى سافرت الي مقصدها فى شهر شعبان سنة ١٢٩١ [1]

أما أنا فقد تاخرت حسب أمره لاكون قومندانا على حرسه . وبعد بضعة أيام صدر أمره باعداد الوابور الرفاس المسمى (خديو) ليركبه ونحن فى معيته وقد كان وسرنا على بركه الله في النيل الابيض فوصلنا (فشوده) بعد

(١) جاء في العدد ٦٩٦ من جريدة الجوائب الصادرة فى يوم الاربعاء ٢٧ ربيع أول عام ١٢٩١ هجرية تحت عنوان مصر ماياتى .

ذكر في ايجبت المطبوع فى الاسكندرية ان الكولونيل غردون الذي عينه الخديو المعظم والياً على خط الاستواء خلفاً عن السر صاموئيل باكر أرسل رقيما من الخرطوم بتاريخ ١٤ مارس الى حضرة سعادتلو خيري باشا مهر دار الجناب الخديو قال فيه

قطع مسافة سبعة أيام. وهناك قابلنا مديرها المرحوم يوسف بك حسن كرده بالحفاوة اللائقة كما كان لغردون مثل ذلك عند وصوله الى الخرطوم وأزيد. وشاهدنا ماوصلت اليه وقتئذ من درجة العمران والتقدم فى الحضارة بعناية الحكومة وعلمنا أن أهاليها من العبيد الشلك والنوير والدنكا آمنون مطمئنون

وبعد أن أقمنا بفشوده يومين تابعنا المسير الى محطة (سبت) وهى المحطة الكائنة على مقرن نهر سبت الآتى من بلاد الحبشة وتبعد هذه المحطة عن فشوده نحو ١٨ ساعة بسير وابور البخار وهى أول جهات خط الاستواء من الشمال

ولما القينا عصا التسيار هناك حيث العساكر كانت سبقتنا اليها عزم غردون على وضع أول حجر من أساس أعماله في وظيفته فلما مضى الليل وجاء

وصلت الي الخرطوم فى ١٢ مارس ولقيت من حضرة اسماعيل أيوب باشا حاكم السودان من الاكرام والالطاف مايستحق الذكر وقد فعل لمساعدتى كل مافى وسعه أن يفعله اما اعتناءه بالعساكر فجدير بالثناء فقد راقني أحوالهم وأحوال مأواهم ومستشفاهم وهيئتهم وانتظامهم وكذلك اعتناءه بالمكتب وما يتعلق به وقد شاهدت هذا المحل فوجدت فيه نحو مائتي تلميذ ورأيت أن معلميهم يعتنون بتعليمهم وتهذيبهم على أحسن منوال فراقني أن أرسل الى الجناب الخديو انموذجا من خطهم ولا بد من أن الحاكم الموما اليه قد أرسل الي جناب الخديو الخبر السار عن فتح الخليج في قوندوكورو (كوندكرو) مما سرني غاية السرور لعلمي بأن جنابه الرفيع يحسبه من الامور المهمة وهو فى الواقع مفتاح الموقع فأرجو اني عن قريب أتوجه الى قوندوكورو فان كل مالزمني من لوازم السفر قد حصل بهمة الحاكم المشار اليه فشكراً له علي ذلك ولست أقدر الآن على الحكم على الباخرة الكبيرة الراسية اذ لابد لى قبل الحكم عليها من رؤية البحيرة وفى عزمي أن أستصحب معى رجالا لانشاء سفن شراعية عند الوصول الي طوبو ويترجح عندى انه مع بذل الهمة والعناية يتيسر لنا مجاوزة الشلالات فالمرجو من جنابكم أن تصدروا لنا اذنا من الحضرة الخديوية الى الحاكم المشار اليه عند انهاء السفن في تسييرها الى البحيرة ولا بد لى من التلبث فى قوندوكورو وطالبهودون التوغل فى السير وحيث ان جناب الحاكم قد بذل أقصى مجهوده فى فتح الجنوب فأعظم المسرات عندى أن أكون أول قادم اليه

الصباح أمر بلوكات العساكر وجماعات الاهالى بحفر خندق لمحطة سبت وقرر للعمل أجرة فوق مرتبات العساكر لهم وللاهالي مثل ذلك فلم يمض أسبوعان حتى تم ماأراد وشيدت عليه الطوابي كما رسمها ثم أنشأ مركزا للحكومة فيها ناط به أحد الضباط الذين معنا وهو اليوزباشي محمد أحمد أفندى بجعله محافظا على محطة (سبت) تاركا له البلك الذي تحت قيادته وأمره بحسن المعاملة والرفق بالاهالي وشدد عليه في منع الاتجار بالرقيق وعدم مروره عليه ثم تركنا هذه المحطة قاصدين جبل الرجاف وكند وكرو حيث يقيم المرحوم رؤف بك (باشا) حاكما على تلك الجهة خلفا للسير صموئيل بيكر باشا . فلما وصلنا في سيرنا الى مدخل (بحر الزراف) الذى يستقي من

وأرجو أن انشاء السفن يتم بعد خمسة أشهر أو ستة وأول فرض واجب على حسب ماتلقيته هو ادخار المؤنة وهو من صعاب الامور التي تقتضي حضوري في تلك الجهة ثم انى بحسب أمر الخديو أعلنت هذه الاوامر الآتية .

بمقتضى مافوض الى الخديو المعظم من ادارة حكومة البحيرات الكائنة بخط الاستواء أعلن أولا . ان التجارة فى العاج خاصة بالحكومة . ثانياً أنه لا يسوغ لاحد أن يأتى الى هذه النواحى من دون تذكرة من حاكم السودان العمومى وهذه التذكرة انما يعمل بها بعد النظر فيها من حكومة قوندوكورو وغيرها . ثالثاً أنه لا يسوغ لاحد أن يجمع رجالا متسلحين داخل هذه الجهات . رابعاً ان جلب السلاح والبارود ممنوع . خامساً ان كل من يخالف هذا المرسوم يجرى عليه الجزاء بحسب القوانين العسكرية انتهي ثم ورد خبر بالتلغراف بتاريخ ٣ صفر من حضرة حاكم السودان الى حضرة خيري باشا مضمونه انه في صباح هذا اليوم سافر الكولونيل غردون الى قوندكورو في سفينة مخصوصة بعد ان أحضر له كل مايلزمه وهو ممنون لفضل الخديو وشاكر له ثم ورد خبر آخر بتاريخ ٢٠ صفر مضمونه ان الباخرة المخصوصة التي سافرت بعد فتح الشلالات قد رجعت الي هنا وبشرت ببلوغ الارب وفى غد أرسل المحررات التي أرسلها الجردون لهذا العمل والتي حررها أيضاً الكولونيل المذكور عند ملاقاته الباخرة المذكورة

ميعة (أي بركة) كبرى تسمي (بحيرة السنيورا) ألقينا مراسينا عنده وركب غردون ونحن معه وابوره الخصوصي سائراً فى ذلك النهر نحو عشر ساعات لاختبار الطريق هل هي سهلة أو فيها من العقبات ما يمنع وصولنا الى أعالي خط الاستواء فلما قطعنا هذه المسافة وجدنا النهر مسدوداً بالاعشاب الكثيفة فعدنا الى مرسي الوابورات أي الى مدخل بحر الزراف وحولنا مسيرنا الى جهة خط الاستواء من جهة طريق البحر الابيض وما زلنا سائرين حتى وصلنا الى تلك البحيرة وفيها من الجانب الغربى مدخل لبحر الغزال ومدخل آخر لخط الاستواء موصل الى جبل الرجاف فوقفنا عند ذلك المدخل حيث أمر غردون بقطع أخشاب لوقود الوابورات بدلا عن الفحم ثم سرنا نحن على وابوره الخصوصى للاستكشاف داخل بحر الغزال فقطعنا مسافة ثلاثة أيام وصلنا فى نهايتها الى مشرع يقال له (مشرع الرق) وهو متصل بمشارع بقية البحار الموجودة ببحر الغزال لغاية مديرية (شكا) ولكن كان من المتعذر تجاوز هذا المشرع لانسداد النهر بالاعشاب الكثيفة الملتفة والحشائش المشتبكة من الشاطئ الى الشاطئ

على انا لم نحاول اجتياز هذه العقبة الجديدة بل بقينا فى مرسي المشرع السالف الذكر وأمر الكولونيل غردون أصحاب المشرع أن يحضروا بين يديه رؤساء الاهالي في تلك الجهة فأحضروهم وقابلهم مقابلة حسنة ووزع عليهم الهدايا استمالة لقلوبهم ففرحوا وامتنوا وأظهروا تمام الاخلاص للحكومة الخديوية كما انهم أحضروا لنا الاخشاب اللازمة وعدنا بعد ذلك الى البحيرة حيث اجتمعنا بوابوراتنا والعساكر وقمنا جميعا قاصدين مدخل البحر الموصل الى جبل (الرجاف) ولكن لم نلبث فى سيرنا يومين حتى وقفت الغابات

الـكثيفة والحشائش الملتفة سـداً منيعا في طريقنا وقد حاولنا كثيراً أن نفتح الطريق فلم نفلح ولذلك أمر الـكولونل غردون أحد الوابورات بالرجوع الى الخرطوم ليأتينا بالآلات التى تستعمل عادة لقطع حشائش النهر وقد كان وجاءتنا الآلات وباشرنا فتح الطريق مدة أربعين يوما حتى تمكنا من اجتياز الوابورات ونال العساكر مانالهـم في هـذه الدفعة من العناء والتعب الذي لامزيد عليه حيث الامطار كانت تنساب عليهم ليل نهار كأفواه القرب ولذلك كافأهم الـكولونيل غردون بصرف مرتب ثلاثة أشـهر فوق مرتباتهـم وأجرتهم

وبعد ان تم فتح الطريق سرنا في النهر مسـيرة يومين وصـلنا بعدها بحيرة كبيرة جداً تسمى (ميعةشانبيه) وعليها مشرع كبير يسمى (غابةشانبيه) كان كبار التجار مثل أبو عمورى وكوچك على وغطاس وغيرهم ينزلون فيه للاتجار بسن الفيل فلما وصلنا الى هذا المشرع استقبلنا شيخه وهو رجل أسود دنكاوى مسن اسمه الشيخ الحداد استقبالا حسناً ونزلنا جميعا في أرضه حيث أقمنا الخيام وأرسينا الوابورات تجاهنا وبعد استراحة يومين رسم الـكولونيل غردون محل خندق وأمر العساكر بحفره فتم لهم ذلك فى مدة عشرين يوما وأنشأ هناك مركزاً ترك به اليوز باشي مصطفى افندي فتحى ببلوكه وسماه مأمور جهات (شانبيه) وشدد عليه الاوامر فى معاملة الاهالي بالرفق وبمنع تجارة الرقيق منعاً باتا كما انه أبلغ رؤساء هاته الجهات انهـم صاروا تابعين لسلطة الحـكومة الخديوية وان ذلك المأمور الذى يتركه عليهم يمثل شخص الحـكومة فواجب عليهم أن يطيعوه

وبعد ان وطد نفوذ الحكومة فى هذه الجهة اقلعنا بوابوراتنا قاصدين

(الرجاف) فررنا فى طريقنا على محطة كبيرة تسمى محطة (بور) والفينا بها نحو أربعمائة من العساكر باسلحتهم مأجورين للتجار فاستقبلونا بالفرح ولبثنا عندهم خمسة أيام ثم أبلغ الكولونيل غردون رئيسهم بانهم صاروا تابعين للحكومة وأن يقدموا له كشوفا بالاسلحة والجبه خانة والموجودات التى لديهم مما قررت الحكومة احتكاره لنفسها فاحضروها وتم بعد ذلك تشكيل مديرية سميت (مديرية بور) كما كان وعين على المديرية وكيلا لها رجلا اسمه (آدم افندى عامر) وهو ضابط سودانى كان من رجال حملة بيكر باشا ومقيما فى هذه الجهة ثم قمنا قاصدين جبل الرجاف وكندكرو حيث يقيم رؤف بك باشا كما أسلفنا وقد وصلنا هاته الجهة بعد عشرة أيام سفراً فى البحر من (بور) وقابلنا رؤف بك بالعساكر المقابلة المعتادة في مثل هذا المقام وبعد الاستراحة هنيهة من الزمان أخذ الكولونيل غردون يسأله عن أعمال حكومته وأحوال الرعية فاخذ المرحوم رؤف بك يقص عليه أحاديث محارباته مع أهالى البلاد حتي قال اننا منذ ثلاث سنوات لم يستقر لنا بالسلم قرار فاجابه غردون بقوله وأنا يظهرلي أن كل هذه الاضطرابات والحروب ناشئة من سوء ادارتكم وعدم معاملتكم اياهم بالرفق والعدل وسترى أن كل هاته العساكر والضباط الموجودة لديك سترسل الى مأموريات أخري ولا يبقى بدلها غير مئة من العساكر يستتب بهم الامن العام تمام الاستتباب قال رؤف بك ان هذا لا يمكن أن يتم لان مئة نفر اذا تركوا وحدهم هنا لا يلبث العبيد ان ينزلوا عليهم فيقتلوهم عن آخرهم فقال الكولونيل غردون الآن حققت قول السير صموبل بيكر فيك وما كنت أعهد ضابطا حائزا لرتبة الميرالاي يكون مثلك

بهذا الجور وهذا الضعف وسترى أنه يكفي لهذه المديرية خمسون رجلا بدل مئة وفي الحال أمر أن يحضر لديه مشايخ القرى ورؤساء القبائل وكانوا حاضرين في مركز الحكومة بجاوه وأخذ يخاطبهم بالفاظ لينة وكلام لطيف وأحسن عليهم بالكساوى الحمر والسيوف حتى انطلقت وجوههم بشرا وفاضت صدورهم سرورا ثم قال لهم بعد ذلك اني تارك بين ظهرانيكم خمسين نفرا فقط من عساكر الحكومة لحراسة رايتها وتشخيص سلطتها وانتم المسؤولون بعد ذلك عن كل شيء يحدث في البلاد فاجابوه اننا عبيد الحكومة ومادمنا لا يهضم لنا حق ولا يقع علينا ظلم فلا يجمل بنا أن نقوم في وجه الحكومة ولا نحدث أقل تشويش وستسمع عنا كل خير ومحمدة

أما الباعث الحقيقي للكولونيل غردون على تقليل العساكر الى هذا الحد فوجهان

أولهما بعد الشقة وتعذر نقل اللوازم والمهمات للجيش. والثاني الانتفاع بهاته العساكر في نقطة (اللادوه) المحتاجة كثيراً الى العناية والحذر

عزل رؤف بك وتعيين الطيب بك عبدالله بدله

وبعد أن انفضت حفلة مشايخ القبائل والقرى التفت الكولونيل غردون الى رؤف بك وقال له انك لا تصلح لوظيفتك هنا فعليك بالسفر الى القطر المصري وعين في الحال بدله القائمقام الطيب بك عبد الله وكان هذا بكباشي أول الالاي وهو رجل سوداني من قبائل العبيد مثل الذى عين لمديرية (بور) ثم أمر الوابورات بنقل العساكر الي جهة (اللادوه) ثم تراآى له ان ينقل الطيب بك عبد الله مديرا الى اللادوه وعبد الله أغا

الدنسوي مديراً للرجاف وهذا الثالث من ضباط الجهادية السود أيضاً

وبعد أن قرر مباديء النظام في هذه الجهة بارحناها قاصدين الجنوب ومعنا نحو ستمائة عسكري من أولاد العرب والسودان ومررنا في طريقنا على شلال أمامه جزيرة عالية جدا فيها أشجار كبيرة فاستحسنها الكولونيل غردون لبناء مستشفى للمرضى لانها قريبة للرجاف بينها وبينه نحو ثلاث ساعات وقد رتب لها سفنا صغيرة (فلايك) ربطها باسلاك من الشاطئين ليسهل اجتياز النهر الى الجزيرة من الشاطئين لكل انسان وأمر ببناء منازل للعساكر فشرع الاهالي في بنائها بالفعل ولبثنا نحن في هذه الجهة ثلاثة أيام لم نشعر بعدها الا بالعبيد قد هجموا علينا محاربين فانتشب القتال بيننا وبينهم نحو خمس ساعات انهزموا عقبها شر هزيمة فلما علموا أن لا فلاح لهم بمحاربتنا طلبوا الامان فامناهم ثم سلموا طائعين فعفا عنهم (غردون) بعد ما أخذ عليهم العهود والمواثيق وذلك بان حلفوا بالكجور وهو كامام يعتقدون فيه أنه وسيط بينهم وبين الاله يدعون به فيستجاب لهم ان لا يعودوا مرة أخرى لمثل ما فعلوا وبعد أن تم الامر على ذلك واستقر السلام في هذه الجهة قمنا بعد اقامة نحو ثلاثة أسابيع فيها قاصدين البحيرة الكبرى التي أمامنا فسرنا مسافة عشرين ساعة مضت علينا في أمطار تنزل من فوق كالسيول المنهمرة حتى وصلنا شلالا يسمي (شلال متي) وهو اكبر من الشلال السابق كثيراً والماء يحدر عنه بدوي شديد يصم الآذان ولم يكن أحد منا يسمع كلام الآخر عند ما اقتربنا منه ولذلك ابتعدنا عنه قليلا ونصبنا خيامنا حيث رأى (الكولونيل غردون) لزوم انشاء محطة هناك وقد بعث في طلب مشايخ البلاد والقري فلم يجبه أحد. ولذلك أمر العساكر ان يشتغلوا

بالبناء والحفر كما أراده ثم أنشأنا زريبة أمامها خندق لاننا توقعنا الشر من أهالي هذه الجهة وقد كان الذي توقعناه فاننا بينما كنا نعمل عملنا لم نشعر إلاّ وقد دقت الطبول وصاحت الابواق وتبعت ذلك حركة مزعجة من جموع كثيرة تحاول الهجوم علينا فسارعت العساكر للتأهب والاستعداد داخل الزريبة وانتظرنا حتى كان بيننا وبين أولئك المهاجين مرمي الرصاص ولكننا أمسكنا عن اطلاق النيران حتى يبدؤا بالعدوان فلما رمونا بالنبال والنشاب السامة رميناهم بنيران حامية لم يحتملوها فرجعوا الى الوراء ثم عادوا فصدنا وتقهقروا ثم عادوا الثالثة فحملنا عليهم حملة منكرة ارتدوا بها مكسورين ولكن أسهمهم قد أضرت بالعساكر كثيراً حتي لو أن سهما منها أصاب رجلا بين ظفره ولحمه لما نجا بعد ذلك

وفى اليوم التالي لهذه المحاربة حضروا بأولادهم ونسائهم يحملون النيران فى أيديهم ليلقوها على الزريبة كي تحترق وقد زحفوا علينا بسرعة غريبة وظللنا نحن نطلق النيران عليهم لنمنعهم من الوصول الى الزريبة فلم يرجعوا وتمكن بعضهم من الوصول اليها والقوا النيران عليها ولكن أخشاب الزريبة كانت رطبة فلم تحترق وتضاعفت خسائرهم فلجأوا الى الفرار وهجروا ديارهم نازحين الى جبل (متي) القريب من الشلال للاستعانة بشيخه فما كان من الكولونيل غردون الا ان أمر المرحوم عبد العزيز بك لينان (نجل المرحوم لينان باشا) أن يقتفي أثرهم بستة بلوكات من العساكر مسلحة بالرامنتون وأعطاه الذخيرة اللازمة وساروخا حربيا فقام عبد العزيز بك بالقوة التى معه واجتاز النهر الي البر الشرقى وصار مع العساكر صاعداً الجبل ولكنه أخطأ اذ ترك بعض الجبه خانة وأخذ بعضها قائلا إن ماأخذ العساكر فى جعابهم كاف لحين

العود ثم لم يلبث أن التحم القتال بينه وبين سكان الجبل واللاجئين اليه فانتصر عليهم بعد نصف ساعة قتالا ثم امتلك الجبل بكل مافيه وللقضاء المحتم صاح أحد العساكر عليه قائلا يابيك قد فرغت الجبه خانه فأخبر بعض التراجمة السود اخوانهم من سكان الجهة بهذا السر فثارت الاهالى مرة ثانيـة على العساكر وحاصروهم حصاراً شديدا قطعت النيران في أثنائه ثم هجموا عليهم هجمة واحـدة أفنوهم بهـا عن آخرهم وقـد مثلوا بعبد العزيز بك تمثيلا فظيما سيأتى بيانه

وقد تمكن شخص بروجى أسود من الهرب وعاد الينا فاخـبرنا بهذا الحادث المشؤم ولما رأى الكولونيل غردون ماأصاب العساكر طلب مددا من الجهات الشمالية فجاءتنا فى نحو عشرة أيام ستمائة نفر جرد منهم الكولونيل غردون ومن العساكر الذين كانوا لدينا حملة تحت قيادته اجتازبها النهر وعند ماوصلنا أسفل الجبل قسم العساكر الى أربع فرق جعل على كل واحدة منهـا قائدا وكان هو القومندان العام وبذلك امتلكنا الجبل من الجهات الاربع وصعدنا بالتدريج فلما شـعروا بنا صاروا يرمونا بالنبال والنشاب فأحدثوا بنا اضرارا كثيرة لاشرافهم علينا من فوق وكان القائد العام ينتقل بيننا من مـكان الى مكان مشجعا مستنهضا حتى صعدنا لاعلى قمة الجبل وتمكنا من قهرهم فقتل من قتل وأسر من أسر والذين بقوا على قيد الحياة طلبوا الامان فأمنهم غردون وأبطل اطلاق النيران عن الاهالى بالكلية وهناك رأينا جثث القتلي من عساكرنا محروقة بالنار ماعـدا جثة عبد العزيز بك فقد رأيناها مصلوبة على جذع شجرة قد انغرست في جسمه نحو خمسمائة نشابة لاتزال مغروسـة فيه فسألنا الاسري عن سبب ذلك فقالوا اننا أمسكناه حيا واوثقناه بجـذع

هذه الشجرة وأمرنا أولادنا الصغار الذين يتعلمون رمي النشاب أن يرموه به فصاروا يرمونه حتى مات كما ترونه . قالوا ولكن روحه لم تفض الا بعد ثمانية أيام من صلبه مع استمرار رميه بالنشاب كل يوم فأثر ذلك فينا تأثيرا شديدا وحاولنا أن نخرج من جسمه السهام فتعذر علينا ذلك الا بتمزيق الجسم ولذلك اختار الكولونيل غردون تكسير أيدي النشاب الخشبية بالمنشار مع بقاء أسلحته فيه ودفنه على هذه الحالة وقد كان ذلك

وبعد ان وطدنا نفوذ الحكومة بين أهل الجبل وأقمنا بين ظهرانيهم عدة أسابيع قمنا قاصدين البحيرة الكبرى وبعد مسيرة يوم وصلنا جهة يقال لها اللابودية بها شلال عظيم جداً وأرضها منحطة ولذلك بعد ان عزمنا على انشاء المحطة بها اخترنا ان تنشأها على ربوة عالية بينها وبين الشلال مسيرة ساعة من الزمان وقد حضر لنا أهالى هذه الجهة طائعين مسلمين قيادهم لنا باسم الحكومة الخديوية وساعدونا على حفر الخندق وبناء الاستحكام الذي انشأناه وبعد انجازه عين الكولونيل غردون لهذه المحطة مأموراً تاركا معه شرذمة من العساكر ثم قمنا سائرين فى وجهتنا وبعد مسيرة يومين من مغادرة شلال اللابودية صعدنا جبالا مملوءة بالعبيد السود وأراضيها خصبة كثيرة المواشي من بقر وغنم وغيرها فلما رآنا السكان كانوا يسارعون الي قمم الجبال فيصعدون عليها ويقذفوننا بالحصى ويشتمون ويسبون ومحصل سبابهم (رجعوا يا ترك الى حيث جئتم ارجعوا أيها الجائعون الذين أتيتم لتأكلوا أبقارنا وأغنامنا ارجعوا الى بلادكم فلا تزاحمونا فى أرزاقنا) وقد خاطبناهم نحن باننا ماجئنا الاّ للتفرج على بلادهم والسياحة الى البحيرة الكبري فسألنا بعضهم ولماذا انشأتم المحطات وأقمتم الحصون وحفرتم الخنادق وتركتم النقط العسكرية

فى طريقكم ثم قالوا (اذا كنتم تريدون ان تقيموا بيننا مراكز ومتاريس فلا بد ان نهاجمكم ونقلتكم عن آخركم وأما اذا كنتم تريدون البحيرة الكبري فهاهى الطريق أمامكم مفتوحة)

أما نحن فقد ظللنا سائرين وعن كلامهم معرضين ومازلنا كذلك حتى وصلنا الي البحيرة وتسمي هنالك البركة او الميمة العظمى ونعنى بها (نيانزا) ولما أقبلنا عليها شاهدنا صحراء متسعة جدا مكتظة بالاشجار وانواع الخضرة وفيها نوع من النبق كبيض الدجاج فى حلاوة العسل مع طيب الفاكهة فحططنا رحالنا ونصبنا خيامنا للمبيت على شاطىء البحيرة وبتنا ليلتنا محترسين محاذرين من هجوم العبيد علينا ولكن لم ينتصف الليل حتي هاجمنا سيل نزل علينا من الجبال بقوة تيارٍ جارفٍ شديد فاخذ ما كان معنا من المؤنة والامتعة وألقاها فى البحيرة وصرنا في حيرة شديدة حتى الصباح فوجدنا كل ما كان معنا قد ذهب طعمة للبحر الا الجبه خانة فاننا كنا احتطنا لها من أول الامر فوضعناها على أشجار عالية فلم يمسسها ضرر

وما طلع النهار حتي أغار علينا العبيد بقوة هائلة ظانين ان السيل قد أخذ منا الجبه خانة ولذلك لم نزل نطلق عليهم النار حتى لجؤا الى الفرار واكتسبنا منهم فى هذه الواقعة نحو مائة رأس من البقر وخمسمائة من الغنم وصار طعامنا بعد ذلك اللحم والنبق بلا كسرة خبزٍ ثم استولينا على عشر مراكب من سفن العبيد استعملناها فى خدمتنا وفى استكشاف شواطئ البحيرة

وفى ذات ليلة ركبنا هذه السفن وسرنا بالمجاذيف للاستكشاف فقامت علينا زوبعة ذهبت بنا كل مذهب في البحيرة وقد خشينا الغرق الا أن الله عز وجل قد نجانا منه وجمعنا بعد انقضاء الليل في هذا التيه على بر السلامة

في نقطة يقال لها (ماقنقوه) ومن فضل الله جاءنا أهلها متوددين واستضافونا فاسترحنا عندهم واكلنا وشربنا مسرورين من حسن معاملتهم وفي خلال ذلك سأل الكولونيل غردون مشايخ الجهة عن أحوالهم فقالوا نحن فى فوضى يأكل القوي منا الضعيف ويحكم العزيز الذليل فقال لهم غردون هل ترضون ان يأتيكم حاكم مثلي بقوة كبيرة وسلطة قادرة على توطيد الامن بينكم ودفع القوى عن الضعيف فقالوا اننا من الفريق المهضوم الجانب المظلوم الضعيف ولا ريب اننا نرضي بكل سلطة تأتى الينا لتساوي بيننا وبين ظالمينا ثم سألهم الكولونيل غردون أي فريق بينكم الاقوياء المتسلطون عليكم فقالوا له قبيلتا (أريونجا وبكريك) ولو طلبت مشايخ هاتين القبيلتين ما أجابوك ولا خضعوا لك

فقال لهم نحن الآن نطلبهم للحضور من قبيل التجربة وارسل لهم فابوا وقابلوا الرسل بالسباب والشتائم

أما نحن فقد اخترنا ان نرجع الي جهة (الدفليه) التى هى في البر الغربى للبحيرة وهى الجهة التى اخترناها نقطة للحكومة ولذلك عدنا بعد يومين فرأينا عساكرنا فى أشد القلق علينا لانهم ظنوا ان العاصفة التى هبت قد أغرقتنا فى البحيرة

وبعد اقامة نحو عشرة أيام في تلك الجهة قمنا قاصدين مديرية العموم التى مقرها (اللادوه) وقد تركنا في الدفليه نقطة عسكرية تحت قومندان ومأمور الجهة وقد مررنا فى عودتنا على كل المحطات التى انشأناها فوجدناها في أمن وسلام ولما وصلنا اللادوه اخذ الكولونيل غردون يخابر المعية السنية فى القاهرة والحكمدارية فى الخرطوم بطلب ما يلزمه من الوابورات والمهمات وسأل ترقى كثير من الضباط الذين معه فكان نصيبي من ذلك رتبة اليوزباشي

وبعد اقامة نحو الشهرين في اللادوه قام الكولونيل غوردون وانا في صحبته قاصدا الخرطوم وشاهدنا ثمرات أعمالنا فى عودتنا من فرح أهالى كل جهة مررنا عليها وسرورهم بما صاروا فيه من الامن والرغد وحسن النظام الى ان وصلنا الخرطوم وقوبلنا فيها بما يقابل به الفاتح الظافر

وعقب وصولنا الي مدينة الخرطوم وكان ذلك فى أوائل سنة ١٢٩٢ هجرية اتفق الكولونيل غردون واسماعيل باشا أيوب الحكمدار على قسم الوابورات والصنادل ودار الصناعة وعمالها قسمين. أحدهما يكون لحكمدارية عموم السودان. والثانى لحكومة خط الاستواء وعرضا عن ذلك للمعية السنية فصدر أمر الخديو لحكمدار السودان بتنفيذه وقد كان ذلك فأخذنا نصف عمال الترسانة ونصف عددها وآلاتها وأرسلناها معهم الي بحيرة (نيانزا) حيث أمر الكولونيل غردون بانشاء دار صناعة في محطة الدفليه على شاطئ البحيرة الغربى ثم كان نصيبنا من الوابورات (بوردين وتلحوين والصافيه والمنصوره وانبابه ونمرة ٩ ووابور الرفاس ووابور الاسماعيلية)الذي كانت أدواته فى المخزن لاصلاحه وأخذنا أيضاً نحو أربعين سفينةً بين كبيرة وصغيرة وخمس شلبات كبار وضعنا فيها كل ما يلزمنا من التمبينات والمهام وجميع ما يحتاج لخط الاستواء

ذكر انشاء ديوان خط الاستواء في الخرطوم

وبعد ترحيل الوابورات المذكورة والامتعة والادوات رأي الكولونيل غردون ان ينشيء ديوانا خاصاً باعمال خط الاستواء منفصلا عن حكمدارية السودان ورتب له الكتاب والموظفين وأوجد له الدفاتر اللازمة وسماه

(ديوان خط الاستواء فى الخرطوم) وعين عليه رئيساً على افندى سراج المشهور (بتهته) بعنوان (ملاحظ أشغال خط الاستواء)

ومن ذلك التاريخ صارت حكومة خط الاستواء قائمة بنفسها وسمى الكولونيل غردون حكمدارا لعموم خط الاستواء وصارت واردات خط الاستواء من سن فيل وريش ومسك ترسل من فوق لرئيس ديوان خط الاستواء في الخرطوم وهو الذى يؤدي حسابها ويرسلها حسب الاوامر التى تصدر له من الحكمدار

وبعد ان أتم الكولونيل غردون ترتيب ديوانه الجديد فى الخرطوم عدنا الى جهة خط الاستواء. وسرورا بنجاحه التمس لنا الاحسان علينا برتبة صاغول أغاصى فلم يكن بينها وبين رتبة اليوزباشي غير شهرين أو ماحوالي ذلك

ثم سافرنا على بركة الله بوابور (تلحوين)فلما وصلنا الى جبل اللادوه وكان عمال الترسانة قد وصلوا اليها وانتظرونا بها أمرهم بفك وابور الحديو ونقله قطعاً الى ترسانة البركة (دار صناعة) بالدفليه وتم ذلك فى نحو أربعة أشهر وفى خلال هذه المدة كان بناء الترسانة جاريا على قدم وساق ولما تم اصلاح وتركيب الوابور ركبناه وسرنا به فى لجج البركة نستكشف جهاتها حيث كان الاهالي يقفون على شواطئها كلما اقتربنا من واحد منها صفوفا معجبين مندهشين من رؤية الوابورات اذ لم يكونوا رأوا السفن البخارية من قبل وكان يزيد عجبهم كلما شاهدوا ضخامته ويتحيرون فى كيفية نقله مع جسامته الى البركة

وفي اثناء سيرنا وصلنا الى جهة (ماقنقوا) التي كانت فيها واقعة المرحوم عبد العزيز لينان فاستقبلونا استقبالا حسنا وهناك ألقينا مراسينا

ونزلنا الى البر وأمر الكولونيل غردون أن نباشر انشاء محطة بها فأخذنا نعمل ذلك وكنا قد أحضرنا معنا مدافع وجملة آلات ومهمات حربية فاخرجناها الى البر واطلقنا واحداً وعشرين مدفعاً اعلانا بفتح هذه الجهة

وما سمع الاهالى أصوات المدافع حتى أطبقوا علينا جموعا كثيرة وكلهم شاكو السلاح من الحراب والنشاب كانهم قادمون على حرب

وقد توجس الكولونيل غردون خيفة من حالهم هذه فامر العساكر ان تكون على التأهب والاستعداد للطوارئ ثم فكر فى حيلة نافعة هي أن دعا مشايخهم وأعيانهم اليه فادخلهم معنا داخل الزريبة التي كنا انشأناها حتى لا يتهجم علينا الاهالى. ولكي لا يتوهموا انهم رهائن عندنا أخذ يوزع عليهم الاعطية من ملابس وسيوف وزجاجات خمر ففرحوا واطمئنوا كثيراً وسألهم عن تجارة السن عندهم والقيم التى يتبادلونها فيها فقالوا انها النحاس الاصفر وانواع الخرز والودع الابيض وكان منها كثير فى مخازن السر صمويل بيكر باشا وكنا أحضرنا جانباً منها معنا فلما راؤها أعجبتهم كثيرا

ولما وثق الكولونيل غردون بهم أذن لهم فى الانصراف الي منازلهم فانصرفوا شاكرين وبعد قليل أرسلوا لنا عددا وافرا من البقر والغنم هدية لنا فاعطاهم الكولونيل غردون جانبا من الودع والخرز مقابل هديتهم ففرحوا به فرحا شديدا ثم أخذوا يتواردون علينا بالكميات الوافرة من السن وهو يعطيهم قيمتها من تلك البضائع الرائجة عندهم حتى اجتمع في مخزن الحكومة فى مدة عشره أيام نحو الخمس مائة قنطار وقد كثر التردد من الاهالى على مركزنا ومن عساكرنا بينهم وكانوا بعد ذلك من أصدق رعايا الحكومة وبواسطتهم جرت فتوحات كثيرة فى تلك الجهات وتمت المواصلات بين هذه

المحطة وبين محطة (الدفليه) بواسطة الوابور الذي معنا وبواسطة جملة سفن شراعية انشئت خلال ذلك

وبعد أن اطمأن الكولونيل غردون على مركز الحكومة الذى شيدناه فى جهة (ماقنقوا) عدنا الى محطة الدفلية ثم توجهنا الي محطة اللادوه مركز العموم وكان قدتم صعود النيل فركبنا الوابورات الصغيرة التى معنا وعدنا ثانيا بطريق البحر تارة والبراخري الى جهة الدفليه كى نرتب الوابورات الصغيرة والسفن بين كل شلال وآخر حتي تكون الملاحة متصلة بين اللادوه والدفليه تماما

أما الوابورات الصغيرة المذكورة فقد كانت الحكومة أرسلتها لنا قطعا داخل صناديق فركب بعضها بالخرطوم وبعضها حمل الي بركة (نيانزا) وصار تركيبه هناك في الترسانه كما أنشئت الشلبات الجديدة والسفن الشراعية الكبيرة وبالجملة فقد صارت الملاحة بين البحر الابيض وبين بحيرة اليانزا سهلة من كل وجه وأمكن التجار الارباويين والسياح التردد بينهما كما سهل نقل الجنود والمهمات واللوازم الحربية كلما أريد ذلك

وبعد أن عدنا الي الدفليه أخذنا أهبتنا من الذخائر الحربية والمؤنة الى ماقنقوا الشرقية (البركة) حيث استأجرنا نحو ألفي عبد منها لحمل هذه الذخائر والامتعة ورحلنا حملة الى جهة يقال لها (فاتوكه) وهي من بلاد (كبريكا وأريونجا) والاول بمنزلة وال والثانى بمنزلة السلطان على بلاد فاتوكه المذكورة وعند وصولنا اليها قابلنا مشايخها وأهلوها بالعداء على بركة مياه فحاربنا هم نحو أربع ساعات فقتل منهم عدد كبير جداً ومن لم يمت منهم فرهاربا وبذلك استولينا على البركة وأخذنا في انشاء محطة على شاطئها ورفعنا علم الحكومة وأطلقنا المدافع اعلانا بفتحها ومكثنا في الاستحكام الذي اقمناه نحو شهر من

الزمن كمحصورين نخابر الاهلين بالتسليم والطاعه فيأبون

فلما مللنا الاقامة عزم الكولونيل غردون على مهاجمتهم . ففي صبيحة يوم أخذ معه خمسة بلوكات مسلحة بالرامنتون وترك بلوكا واحداً لخفارة الاستحكام وتوجه اليهم فى غلس الظلام فلم تكد العين تقع على العين حتي أصلتهم جنودنا ناراً حامية فلم يصبروا عليها وولوا الادبار وامتلكنا ذراريهم وقراهم بجميع مافيها من ماشية ودواب وأثاث فأخذنا هذه الاسلاب كلها وعدنا الى المركز على البركة ومن جملة ماأخذنا عدد كثير من نساء وأولاد المشايخ والاهالي وكان وجود هؤلاء معنا داعية الى عودة المشايخ والاعيان الى طلب العفو عنهم على أن يكونوا عبيداً للحكومة عوناً لها على أعدائها

فلما جاءت رسلهم الى الكولونيل غردون عصر يوم الواقعة المذكورة قبل منهم توبتهم وأخذ عليهم العهود والمواثيق (وهم يعتقدون فى الله فقط) على ماقالوه وسلمهم الاسري والابقار والاغنام على أن يرسلوا مشايخهم وأعيانهم فجاؤا طائعين وعلامة الخضوع أنهم كانوا يضعون التراب في أفواههم كعادتهم ثم اتفق معهم على أن يسيروا به الى جهة (مرولي) من أراضى الملك أمتيسه وأن يأتوا له بالرجال ليحملوا الامتعة والذخائر الحربية بالاجرة فأجابوه سمعاً وطاعة ولكنهم قالوا ان أمتيسه ملك جبار عظيم السطوة شديد الباس كبير القوة وعنده الاسلحة النارية والمدافع ونخشي أن يعرف منا اننا نحن أدلاءكم اليه فيرسل لنا بعدئذ قوة من رجاله يسفكون دماءنا وينهبون اموالنا ويهتكون أعراضنا فقال لهم الكولونيل غردون لابأس عليكم فأنتم الآن رعية الحكومة المصرية ومن واجباتها أن تحفظكم من أعدائكم وتؤمنكم فى دياركم وانا ذاهبون اليه ندعوه وقومه الى طاعة الحكومة الخديوية فان

امتثل والاّ أخضعناه بالقوة

الملك أمتيسه وأمره في بلاده

وعلى ذلك جردنا حملة قوية كثيرة العدد والعدد ولم نترك في مركز فاتوكه سوي بلوك واحد بضباطه وسرنا على بركة الله الى جهة (مرولى) وهي تبعد عن المركز الذي كنا فيه مسيرة ثلاثة أيام فى البحر وكلما أتينا بلدا في طريقنا وجدنا أهلها قد هجروها ولم نعثر الا على شيخ طاعن فى السن ضعفت رجلاه عن الانتقال به وكأنهم غفلوا عنه فلم يحملوه معهم فسألناه عن فرار الاهالى من وجهنا فأجاب انهم فروا حتي لا يقابلوكم بلا اذن من الملك أمتيسه وأنتم فى مروركم لا بد أن تحتاجوا الى شىء من الطعام أو الى شربة ماء على الاقل فاذا بقوا في ديارهم لا يبعد أن يجيبوكم الى ماتسألون ولو بالدراهم وهذا مما يغضب الملك ويوجب نقمته عليهم كما حصل فى أمر السياح الذين كانوا آتين من بلاد الزنجبار فقال له الكولونيل غردون اذن الاهالي غير ملومين على مهاجرتهم من بلادهم ثم التفت الى الرجل وقال انا صرنا نخشى عليك السوء من ملكك لانك قابلتنا وجاوبتنا على سؤالنا فماذا تفعل اذاً. فقال الرجل أما أنا فستري مني ماذا أصنع ثم قبض بيده على حربة صغيرة وقال هاأنا ألوذ بكم فاعتبرونى واحداً منكم وقد صرت أخشى أن يتم عليّ الحجر والمدر والشجر الى الملك الذي له من كل شيء واش ورقيب . فضحك غردون وقال قد بالغت أيها الرجل فكيف تصل سطوة أمتيسه الي هذا الحد وكيف يكون له من كل شيء رقيب عليكم . فقال الرجل لان جميع الاشجار التي ترونها لابد وأن تكون مخبئة العدد العديد من أعوان الملك

أمتيسه وأرى أن أخباركم واصلة اليه أوّلا فأوّلا عن كل حركة وسكون فاذا شئتم نجاتي فاحملوني معكم واحسبوني منكم أنى سرتم فقبله الكولونيل غردون وأكرمه وأمر بحمله على عنقريب من الخشب فوق أكتاف الرجال وظل معنا الى أن فتحنا مديرية مرولي

كيفية فتح مرولي

لما وصلنا الي أول بلاد هذه المديرية من حوزة الملك وشرعنا فى بناء مركز نتخذه محطة أولي لنا أخذ العبيد يناوشوننا القتال حتى يشغلونا عن تشييد المحطة وظللنا على ذلك زمناً طويلا فلا هم مجتمعون لقتالنا بانتظام ولاهم تاركونا لنهيء لنا مركزا نقيم فيه مطمئنين

ثم بدا للكولونيل غردون أن يخابر أمتيسه فعاتبه على فرار الاهالى من وجوهنا وتركهم بلادهم حتي لا نستعين بهم على قضاء حوائجنا ثم أخطره باننا آتون باسم الحكومة المصرية وهى قوية السلطان شديدة البأس لا تريد من هذه البلاد الا أن تعمم فيها المدنية والعدالة وتفتحها لخير التجارة التي بها يتبادل الناس منافعهم فان كان الملك أمتيسه يريد لبلاده خيراً صافى الحكومة المصرية واستظل تحت ظل علمها الوارف والا أتته بجنود لاقبل له بها وأرته من قوتها واقتدارها مايدك الجبال الرواسى ويرغم أنوف الجبابرة . وهاأنا مقيم بمرولي انتظر منكم الرد بما تستصوبون

فلم تمض أربعة أيام حتى حضر رسول من عند الملك أمتيسه يلوم غردون على تهديده الملك من حيث لا يعلم كنه قوته وهو في بلاده وقادر على أن ينزل به وبمن معه البلاء العظيم فلا تنفعه قوّة الحكومة المصرية اذا استنجد بها

مهما كانت عظيمة. ثم سأل الكولونيل غردون عن سبب مجيئه الي بلاد الملك أمتيسه لينازعه فيها قائلاعن لسان ملكه اننا راضون عن حالتنا وما بثثنا لكم الشكوي أو العوز لحاجة ونحن في غنى عن مدنيتكم التى تسلبنا نعيمنا واستقلالنا الذى نحن فيه

وبعد مخابرات دارت على هذا النمط اذن الملك أمتيسه للكولونيل غردون أن يشيد المحطة التى يريد تشييدها فى مرولي وأذن للاهالى أن يعودوا الى بلادهم وأن يتبادلوا مع العساكر البيع والشراء . وكان ذلك سببا في زيارة مشائخ وأعيان البلاد للكولونيل غردون فأهداهم الهدايا الفاخرة وخلع عليهم الخلع النفيسة حتي استمالهم كثيرا لجانبه واستعان بهم على حفر الخندق واقامة الاستحكام اللذين اراد انشاءهما وبعد أن أتم بناء المحطة بكل لوازمها رفع عليها العلم المصري وأطلق ٢١ مدفعاً اعلانا بفتح هذه المديرية وكان الملك أمتيسه يتظاهر له تجاه كل ذلك بالمحبة والوداد ويقول انا نكون يداً واحدة وأستمد قوتي من الحكومة المصرية فى بسط سلطتي على الرعية وتأمينها واسعادها

وكان الكولونيل غردون أرسل الى مصر ليستحضر للملك أمتيسه عربة يركبها — وهي التى كان يركبها التعايشي في أيام دولته كما سيجيء ..

أما أراضي مديرية مرولى فهى من أخصب الاراضى الافريقية وكانت بلادها عامرة وأهاليها متقدمين في الزراعة وماشيتها من البقر والغنم كثيرة وملابس أهليها منسوجة نسجا دقيقاً من لحاء أشجار هناك يقشرونها ويدقونها دقا يصيرها أشبه شيء بالتيل في خيوطه الدقيقة. وألبستهم الازر يلفونها لفافي أوساطهم ليستروا بها انصافهم السفلي

أما الملك أمتيسه نفسه فكان يلبس القباطي الحريرية من صنع الزنجبار وعلى

رأسه عمامة كعمائم أهل مكة وفى رجليه الجوارب والنعال الحمر ويسكن بناء منظما وكان عنده شاب أصله من ابناء جلسه ولكنه تربي في زنجبار فعرف اللغتين الانكليزية والعربية فوق لغته الاصلية واسمه (مفتاح) فاتخذه ترجماناً له ولكثرة ما كان يأتيه السياح من جهة الزنجبار عرف الاخذ والعطاء ومبادلة الهدايا والسؤال عن الاحوال العمومية ·

لذلك كان الملك أمتيسه أقوي حكام مجاهل أفريقيه وكان أهله على درجة من التقدم نوعا عن أهالى الجهات الاخرى وقد أحسنوا زراعة الكروم خلاف مايخرج عندهم من أشجار الفواكه اللذيذة العديدة فى غابات شاسعة يمشي المسافر فى ظلها أياما طويلة لا يكاد ينتهى لآخرها

ولما استقرت قدمنا في بلاد الملك أمتيسه وتبادل الكولونيل غردون معه مخابرات المودة خطر على باله أن يدعوه للاسلام لانه دين الحكومة المصرية الرسمي لان الملك أمتيسه وقومه مجوس يعبدون الاصنام والتماثيل فأجابه بالقبول وطلب منه أن يرسل اليه علماء لتعليمه وقومه أحوال الدين الاسلامي ففى الحال أرسل الكولونيل غردون له اثنين من أئمة الاورط واثنين من الحلاقين ليجريا لهم طريقة الختان فاستقبلهم الملك (أمتيسه) بالحفاوة والاكرام ثم ضرب موعدا لمقابلة الامامين فتوجها اليه وقابلاه ولكن قد وجدا عنده أربعة من القسوس وأصلهم من المبعوثين البروتستنت جاؤا اليه من ناحية الزنجبار فجعل هؤلاء عن يمينه والآخرين عن شماله وأخذ يسأل كل فريق عن أصول دينه وكأنه لما تحقق بالسؤال من الامامين أن غردون مسيحى دينه دين هؤلاء القسوس اختار الدين المسيحى وكتب الى غردون يستشيره فى دخوله فى النصرانية بعد ماترك ذينك الفقيهين ورفيقيهما الحلاقين أياما عديدة مهملين

لا سائل عنهم حتي كانوا يمكثون الوقت الطويل بلا قوت يكاد يقتلهم الجوع فاضطروا أن يرجعوا من حيث أتوا

ويظهر من ذلك أن (الملك أمتيسه) كان منافقا ينظر الى مصلحة نفسه ويستعمل كل غش وتدليس في طريق الحصول عليها فانه كان يرغب فى الدين الاسلامي قبل ان يتحقق من مسيحية غردون فلما عرف انه نصرانى عول عن رغبته الاولي واعتنق النصرانية دينا . ولذلك كانت عنده الرايتان المصرية والانجليزية فاذا حضر سياح من الانجليز ادعي انه خاضع لسلطة الانكليز ورفع الراية الانجليزية واذا حضر أحد من قبل المصريين رفع العلم المصرى بحجة انه تابع للحكومة المصرية ولكن انتهى أمره لرفع العلم الانجليزي دائما

ولذلك تركه الكولونيل غردون على حاله واعتبر (مديرية مرولى) آخر حدود السلطة المصرية وكانت هذه المدينة مركزا للمديرية المسماة باسمها وأول من عين لها القائممقام محمد ابراهيم بك وأصله من مواليد السودان وشهرته ابن جميه

وبعد تأسيس المديرية على هذا الاعتبار رجعنا الى مركز (اللادوه) وكانت طريقنا آمنة مطمئنة وفرح أهالى اللادوه بعودتنا فرحاً عظيما وخصوصاً لفتوحنا البلاد الكثيرة حتى صارت مدينتهم عاصمة لقطر شاسع كثير الخيرات والبركات يأملون ان يكون لها مستقبل عمران عظيم كعواصم الممالك الكبري وتخلص هؤلاء الاهالي من سلطة التجار أصحاب الكبابين (الشركات) المستبدين. وعقب أن وصلنا الى اللادوه ببضعة أيام جاءت الاخبار من (اللاتوكه) وهى جهة بينها وبين (كندكرو) مسافة اثني عشر يوما بان زرائب السيد أحمد العقاد وجماعة من التجار الآخرين مضايقة من العبيد مضايقة شديدة وقد

اشتد الحصار عليهم وقلّ زادهم وعندهم تجارة واسعة وأموال كثيرة ويطلبون النجدة في أقرب وقت والا وقعوا فى الاسر والقتل ونهب ما لديهم فاضطر الكولونيل غردون ان يجهز حملة يبعث بها الى تلك الجهة تحت قيادة الصاغ محمد اغا عبد الكافى وأصله من ضباط الجهادية السود فسار الي (اللاتوكه) فى طريق كلها جبال وعرة يسكنها همج العبيد الذين كانوا يتعرضون له فيقاتلهم ويظفر بهم باسلحته النارية ومازال كذلك حتي وصل الى الجهة التي يقصدها ورأي هناك وكيل السيد احمد العقاد واسمه طه بن محمد ومعه مصريون نخلصهم من الورطة التى كانوا فيها وجاء بهم وبأمتعتهم وبضعة آلاف حمار من حمر اللاتوكه هى ذات ألوان خضراء تمشي الهوينا كما يمشي البقر وتدر البانها كما تدر البقر وهم يستعملونها لذلك لا للركوب والحمل وعادوا بجميع ذلك الى (اللادوه) وقد أخذ العجب منا كل مأخذ لرؤية هذه الحمر الغريبة فى شكلها ومعيشتها ورأى الكولونيل غردون ان يوزعها على الضباط والعساكر فأشار ان تدرب شيأ فشيأ بالركوب والحمل وقد دربت حتى أمكن استعمالها لذلك بكل صعوبة ثم رأى ان يترك نقطة (اللاتوكه) فلا تكون تابعة للحكومة المصرية لبعدها وقلة خيراتها

ولما رأي الكولونيل غردون أن جهات خط الاستواء الشاسعة صارت فى قبضة الحكومة المصرية مع ترامى اطرافها وقلة الجنود الذين عنده اختار ان يضم الى قوته بعض العبيد الذين كانوا عساكر مأجورين لزرائب التجار وقد قبلوا ذلك فاخذ منهم ألفى عبد انخرطوا في سلك عساكرنا وصاروا بعد ذلك أحسن الجنود دربة ونظاماً ولكن كان يراعى في اقامتهم بعدهم من مراكزهم الاصلية فالذي أصله من جهة الغرب يبعث به الي نقطة فى الشرق

والعكس بالعكس مراعياً فى ذلك تخالف الاميال ونفرة القبائل التي كانت مستحكمة عملاً بقاعدة احكم كل جهة باعدائها وهكذا كلما احتاج الي عساكر يرسلها الى جهة ينتخبهم من أعدائها لتتأيد سلطته بذلك على الجميع

تعيين المؤلف مديراً البور والغربية

وبعد مضى بضعة أسابيع على عودتنا من جهة (مرولي) أصدر غردون أمراً بتعييني مديرا عمومياً على مديريتي بور والغربية وهما من اكبر مديريات خط الاستواء وقد أعلن هـذا التعيين فى خطبة القاها على مجمع من الضباط وكان تاريخ تعييني هذا تاريخ ترقيتي الى رتبة البكباشي فى أوائل سنة ٩٤ هجرية وبعد ان استلمت الاوامر وكل ما يلزمني من قوت وذخيرة قمت على وابور (المنصورة) الى مقر وظيفتى

وقد بقيت في هذه الجهة نحو ثلاثة أشهر أعمل طبق الاوامر التي كان يصدرها لى مدير عموم خط الاستواء الكولونيل غردون الذي ظل هذه المدة يغدو ويروح بين شمال القطر وجنوبه وشرقيه وغربيه

وفى خلال هذه السنة بعث لى أمراً بالنزول الي القطر المصرى فى صحبته وعين بدلى القائمقام الطيب بك الذى سيأتي الكلام عنه . وقد كان ذلك وعدنا على بركة الله الى القاهرة وقابل الكولونيل غردون يوم وصولنا المرحوم الخديو الاسبق وكنت معه فى هـذه المقابلة فأنعم علي برتبة القائمقام وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ١٢٩٤ لان الكولونيل غردون أحسن الشهادة فى حقي كثيراً

وبعد هذه المقابلة عدنا الى قصر النزهة حيث كان غردون نازلا وظل

عشرة أيام في القاهرة ثم غادرها الي انكلترا . وكنت أخذت اجازة منه أن أقيم في مصر مدة الثلاثة الأشهر التى عزم على قضائها في أوروبا الا أنه بعد مضي شهرين ورد لى منه وهو فى انكلترا تلغراف أن أبارح القاهرة قاصدا عموم خط الاستواء بصفة وكيل حكمداره العام فصدعت بالامر

تعيين غردون حكمدارا لعموم خط الاستواء

ولم أكد أصل الى بربر فى طريقي حتى علمت من وكيل مديريتها بصدور أمر عال من الخديو يعين به الكولونيل غردون حكمداراً عاما لجميع البلاد السودانية المصرية ولسواحل البحر الاحمر وبذلك فصل اسماعيل باشا أيوب من وظيفة حكمدارية السودان . ثم علمت أيضاً بورود تلغراف للمديرية يفيد عودة غردون باشا الي مصر وقصده مباشرة مصوع . ثم حصلت المخابرة بيني وبينه بالتلغراف فأشار عليّ أن أبقى بالخرطوم الي حين وصوله . وقد كان ذلك فانني بارحت بربر قاصداً الخرطوم وهناك انتظرت الكولونيل غردون حتي وصل اليها واستقبل الاستقبال اللائق بل الفائق من كل وجه وأكثر من الاعطية والانعامات على مشايخ القبائل والاعيان مما لم يروه قبل من حكمدار . وكان فرمان تعيينه يمنحه السلطة المطلقة التي يتصرف بها على مايراه موافقا لعمارة السودان وتنظيم أحواله الخ

وعلى أثر ذلك صدر أمره بتعييني باشمعاوناً لحكمدارية عموم السودان وكانت هي الوظيفة التالية لوظيفة وكيل حكمدار عموم السودان

وفي ذلك الحين صدر أمر خديوي بضم جهات بحر الغزال الى أملاك الحكومة المصرية وكانت لاتزال فى سلطة أصحاب الكبابين (الشركات)

مديريات بحر الغزال

﴿ تعيين المؤلف مديرا لبحر الغزال — وبداية حوادث ادريس أبتر ﴾

حضر الي الخرطوم على أثر تعيين غردون حكمداراً لعموم السودان وخط الاستواء وسواحل البحر الاحمر من جهة بحر الغزال رجل اسمه « ادريس أبتر » وهو دنقلاوى الاصل اشتغل بالتجارة مجتهدا فأثري وصار من رؤساء الكبابين . وطلب مقابلة غردون فأجيب طلبه وأخذ يقص على مسامعه من أعمال سليمان بن الزبير باشا — وكان رئيس قومبانية أيضا — ماهيج أعصابه من أعمال الظلم والقسوة والسلب والفتك والهتك الخ وحسن له ضم جهات بحر الغزال الى سلطة الحكومة الخديوية وذكر له من خيراتها ماحرك أمياله نحوها ولذلك سأل السدة الخديوية اصدار الامر الذى أشرنا اليه قبل فصدر ثم عقد مجلسا من كبار ضباط الجهادية هناك لانتخاب مدير لعموم بحر الغزال فاستقر رأيهم على تعييني مديرا لها وقد أسر الىّ غردون وقتئذ ان سليمان بن الزبير باشا طامح الي الاستقلال ببحر الغزال وانه يجند حوله جنوداً ويستطيل على الشركات التجارية هناك حتى أوجس التجار منه خيفة ولهذا رغب أن أستصحب معي قوة كبيرة وبعض المدافع والذخائر الحربية والاسلحة الكافية فاستصحبت ستة بلوكات بضباطهم وعددهم وأخذت جملة فصائل من الباشبزوق بأسلحتهم ومدفعين جبليين وساروخين حربيين وبلوكين من الفرسان وسرنا هكذا على ثلاث وابورات وخمس عشرة سفينة شراعية قاصدين بحر الغزال بطريق البحر الابيض ولما وصلنا الي فشوده أخذنا من جندها ثلاثة بلوكات من الجهادية أيضا وتابعنا سيرنا حتي وصلنا الي مشرع

يقال له (مشرع الرق) على الشاطىء الغربى من بحر الغزال وهناك تعطل سير السفن بسبب الغابات الكثيفة التى تسد البحر في نقط كثيرة منه فطلعنا الى محطة المشرع وهى صحراء واسعة فأقمنا بها زريبة من الشوك مربعة الاضلاع ونصبنا بها الخيام ورفعنا عليها علم الحكومة اعلانا بفتح هذه الجهة ثم أرسلنا رسلا الي مشايخ القبائل فحضروا وأعلمناهم بدخولهم فى ولاية الحكومة فأظهروا الخضوع والسرور وتبادلوا البيع والشراء مع العساكر

ثم كتبنا منشوراً الي جميع الجهات اعلانا لوكلاء الكبابين (الشركات) والاهالي بصيرورتهم من رعايا الحكومة المصرية وأن يحضر أولئك الوكلاء والاعيان الي مركز (مشرع الرق) ولم تمض أيام قلائل حتي حضر قناوى بك أبوعمورى ونظاره (وكلاؤه) ومشايخه على القبائل طائعين وحضر أيضا وكلاء الخواجا غطاس وهو من مشاهير التجار وأصحاب القومبانيات الكبيرة وهكذا أخذ رؤساء التجار يفدون واحداً بعد آخر اظهاراً لطاعتهم وسرورهم بامتداد سلطة الحكومة المصرية عليهم وكنا نأخذ من رجالهم الاسلحة وحصة الحكومة من أنواع التجارات المحتكرة لها كالريش والصمغ وسن الفيل ومقدار هذه الحصة كان مقدرا بثلاثة أخماسها الا أنهم كانوا يظهرون التضرر من قلة ماتتركه الحكومة والتمسوا فى نظير ذلك ان تعفيهم الحكومة من أجرة نقل بضائعهم على مراكبها بين بحر الغزال والخرطوم

وقد استلزم الحال أن نتوجه الى أماكن هذه الشركات التجارية واحداً بعد آخر لقسم حصصها وضبط نصاب الحكومة منها واستصدرنا أمراً من حكمدار عموم السودان باجابة ما التمس أولئك التجار فصدر الامر بذلك

وفى خلال ذلك تبينت من أمر (ادريس أبتر) انه رجل غير مستقيم

مثير للفتن ذو سوابق سيئة بينه وبين جميع التجار فرأيت أن أزجه فى السجن لأتدارك ما كنت أتوقع من شروره

بلاد نمنم

ومما يتصل ببحر الغزال بلاد النمانم وبلاد (القورقرة) التى تكثر فيها البيغاء ذات الذنب الاحمر

ولذلك أخذت أتنقل من مشارع التجار حتى وصلت الى تلك الجهات وأهالى النمنم حمر الالوان نحاسيون عراة الاجساد غير أن نساءهم يسترن عوراتهن بالحشائش الخضر التى يغيرنها كلما جفت وكل مايملكون من انواع الحيوانات وطيور الدجاج التي تفوق العد على قدر مايناسب حال كل منهم وكذلك الكلاب ولحمها عندهم أنفس مايأكلون وهو طعام امرائهم ولذا كانت قليلة عندهم

واراضيهم واسعة خصبة تنبت قصب السكر والذرة والموز ينبت وحده فى غابات شاسعة لكثرة نزول الامطار هناك

وفى طرف من هذه البلاد جبل يسمى (جبل الدنبو) لاهليه رجالا ونساء شغف كبير بالغناء يضربون الالحان على السفافير وهى ضرب من الناى باتقان عجيب ومن عادتهم أن ينزلوا في رأس كل عام وقت الحصاد ويمروا على البلدان وأجران المحاصيل للتسول بغنائهم فيجمعون قوت عامهم ويعودون الى بلادهم وهم يصطادون الوحوش والطيور والفيلة لاكل لحومها وهم أنعم أهالى تلك الجهات مراسا وأضعفهم جانبا لايعتدون على أحد كما لايعتدى أحد عليهم

وقد سألت عن الذين يأكلون لحوم البشر منهم فعلمت أنهم أهل قبيلتين فقط من بلاد النمنم وليس ذلك من عادة القبائل كلها وأن أكل الانسان عند تينك القبيلتين ليس دائما وفى كل حال بل اذا مرض أحدهم وغلب اليأس من شفائه أسلمته قبيلته الي الاخري لتأكله كما تفعل الثانية بمريضها مع الاولى ومن ذلك يتبين ان اكل لحوم البشر فى بلاد نمنم ليس غذاء عاديا لهم كما يتوهم البعض بل هي طريقة اتخذوها لبيان معزة أحدهم عند الموت ويرونها اسمي شأنا من دفن الانسان فى القبر أو احراقه بالنار مثلا. ويرون فى ذلك راحة لهم من عناء انشاء المقابر واحتياطاتها الصحية

أما سكان قورقورو وهي من ذلك الاقليم أيضاً فهم بيض الوجوه صفر الشعور زرق العيون كانهم أوروبيون يعيشون فى القارة الاوروبية ولكنهم يخالفونهم فى زيادة الشقرة فى اللون حتي ان الراءي ليستغرب وجود مثل هؤلاء الناس في وسط القارة الافريقية وعلى القرب من خط الزوال

وفى هذه البلاد حيوان يسمى (البعام) أشبه شيء بالانسان في صورته وقامته يستأنس كالقردة وله شعر مسترسل خلف ظهره وعلى جانبيه فائق فى طوله جميل في منظره يتغزل به السودانيون كما تتغزل العرب فى عيون الجآذر والغزلان

وتجاور أهل قورقورو قبيلة تسمى (تيكتيكه) أهلها أقصر ما رأيت قامات وهم على غاية من الوحشية فى معيشتهم ونفورهم من غير ابناء قومهم

وبعد ما تجولت فى هذه المديرية زمنا أصابنى مرض شديد اضطررت معه الى الاستئذان فى العودة الى الخرطوم فعدت وأخذت معي ما جمعت من سن الفيل وريش النعام ولكن عند وصولى اليها كان الكولونيل غردون قد ذهب

الى سواكن فاستأذنته تلغرافياً فى اعطاء الشركات مايخصها من تلك السلع فاذن لى وبلغت قيمة ماخص الحكومة مما جلبت اليها مئة الف جنيه أودعت بخزينة المالية بالخرطوم

شأن ادريس ابتر بعد ذلك

تقدم لى الكلام على ادريس ابتر وزجى اياه في السجن لما تبينته من حاله فلما عدت الى الخرطوم جلبته معي اليها مخافة أن يكون في بقائه هناك ما يجلب الشرور والمفاسد

وكانت عنده في بحر الغزال كمية وافرة من سن الفيل أخذناها منه كما أخذنا مثلها من الشركات الاخرى ونقدناه ثمنها بعد عودتنا الى الخرطوم. والمال كما يقال أقوي شفيع للانسان فى كل حال اذ تمكن ادريس ابتر لوجود المال معه من استمالة قنصل المانيا بالخرطوم اليه وبالفعل خابر القنصل الكولونيل غردون تلغرافيا بان ادريس ابتر قد سجن ظلما وانه برئ من كل مانسب اليه والقنصل المذكور كان من أخص اصدقاء الكولونيل غردون ويثق به ثقة عمياء ولدى عودة الكولونيل غردون من سواكن ذهبت للقائه خارج المدينة على احدي البواخر ومعي الفريق عثمان رفقى باشا القائد العام للجنود السودانية وقتئذ فأول كلام فاتحني به رغبته في عودة ادريس أبتر الي بحر الغزال فاخذت اشرح له بأدلة ما عساه يقع من عودة هذا الرجل وبينت له باسهاب أعماله السيئة الماضية فلم يكترث بشيء من ذلك وأصر على ارجاعه وكان خطابه لى بالفاظ الاستعطاف لا الامر حتى انقطع حديثنا بالوصول الي المدينة والاشتغال بما أعد له من الاستقبال الرسمى وعلى أثر وصوله الي سراي الحكمدارية طير رسالة تلغرافية الى

الجناب الخديوي بالقاهرة التمس فيها الاحسان عليّ برتبة الامير الاي والوسام المجيدي الثالث اه وما مضى يومان حتى جاءت الاجابة من لدن الحضرة الفخيمة الخديوية وكان ذلك فى شهر محرم سنة ١٢٩٥ هجرية

استقالة المؤلف

(من مديرية بحر الغزال)

« وتعيينه حاكما على مديريات خط الاستواء وتعيين ادريس أبتر بدله »

ذكرت ماألمّ بصحتي من الانحراف بسبب سوء تأثير هواء بحر الغزال عليها فلما رأيت اصرار غردون على الصفح عن ادريس أبتر واعادته الى بحر الغزال رأيت الفرصة مناسبة لان أستقيل محتجاً باعتلال صحتى والظاهر ان غردون رأى في هذه الاستقالة أيضا فرصة مناسبة لارضائي وارضاء ادريس ابتر معاً فقبل استقالتى وعينني في الحال حاكماً عاما على أقاليم خط الاستواء بدلا من براوت بك الاميركاني الاصل الذى كان حاكماً عليها قبل ذلك . ثم أصدر أمره بتعيين ادريس أبتر مديراً على بحر الغزال والتمس له من الجناب الخديوي الرتبة الثالثة

ثم أمرت بمبارحة الخرطوم فأخذت فى أهبة السفر وعندئذ استدعانى الكولونيل غردون للتوفيق بيني وبين ادريس ابتر فأصلح ما بيننا. ويقيني أن مغبة تعيينه ستكون وبالا على بحر الغزال ومع ذلك قد محضته النصح فى أمور كثيرة أخصها أن يكف عن مناوأة سليمان بن الزبير وأوضحت له صعوبة عمله اذا لم يكن معه على صفاء

وبعد ذلك بارحت الخرطوم قاصداً مقر وظيفتي على وابور (الاسماعيلية)

وسافر هو كذلك الي مقر وظيفته على وابور (الصافية) وظللنا سائرين معاً حتى وصلنا الى بحيرة تدعى (ميمة السليوره) وهى التي بها مدخل بحر الغزال من الجهة الغربية وطريق خط الاستواء بالجهة الجنوبية وهناك افترقنا بعد ما كررت له النصيحة السابقة وما زلت سائرا في بحر خط الاستواء حتى وصلت الي (اللادوه مركز عموم الاقاليم الاستوائية) وهناك أصدرت منشوراً عمومياً أبلغهم به الاوامر الجديدة بتعييني مديراً على تلك الاقاليم وقومنداناً على عساكرها وبالاعمال اللازمة لاستتباب الامن العام وسعادة البلاد

ثم رأيت أن لا اطيل الاقامة في مركز وظيفتي قبل أن أمر على مراكز المديريات لتفقد حالة العمال والاهالى وهكذا سرت أنتقل من جهة الى جهة مدة أربعين يوما ثم عدت الى اللادوه ثانية وأقمت بها نحو خمسة عشر يوما قمت بعدها متابعاً المرور شمالا قاصداً مديريتي (بور وسبت) وبينما كنت سائرا بوابور الاسماعيلية في مروري هذا شمال مديرية (بور) قبل أن أدرك محطة (شانبيه) بنصف ساعة اذ سمعت لغطاً كثيراً من العساكر الذين معي فسألتهم عن سببه فأخبروني ان أناسا سائرين على الشاطىء حاملين راية حمراء يستغيثون بنا وهم يطلقون بنادقهم فى الهواء استلفاتا لنا فقمت وأخذت منظارى بيدى وتحققت من أمرهم فأمرت برسو الوابور وانتظارهم وبعد هنيهة وصلوا الينا واذا بادريس بك أبتر مدير بحر الغزال مقبلا علينا فاندهشت لرؤيته في هذا المكان وسألته عن سبب قدومه فأخبرني ان سليمان بن الزبير قد هجم على مركز المديرية وأخذ كل ما فيه من الاسلحة والذخائر فاستفهمت منه عن السبب الذي حمله على فعله هذا مع انه أقام فى هذه المديرية سنة كاملة لم يقدم في خلالها على مثل هذا الامر فأنكر إدريس بك السبب الحقيقي قائلا

انه أقدم على هذا الامر من تلقاء نفسه ولا أعلم له من سبب ورجانى اعطاءه عساكر لمقاومة عصيانه ورده عن طغيانه فقلت له لابد أن تكون أنت السبب في عصيان هذا الرجل ثم استفهمت عن حقيقة ماجرى من القاضى والضابط اللذين اصطحبهما معه ادريس بك فحاولا أولاً مداراة مديرهم ثم رأيا أن لاسبيل الى المداراة ولا مصلحة فيها فأقرا بما كان. وهو أن ادريس أبتر لما وصل الى زريبة شركة المعلم غطاس أدب له مستخدمو الشركة وجلهم من الدناقلة بنى جلدته مأدبة حوت كثيراً من أنواع المسكرات فلما لعبت بعقله بنت الحان أخذ يقول انه تعين مديرا رغماً عن ابراهيم بك فوزي وانه أنفق فى هذا السبيل ألف جنيه للقنصل فريدريك الذي تقدم لنا ذكر شانه معه ولا بد من استعاضته بتوزيعه علي موظفي المديرية ثم لابد من تجريد حملة عسكرية لقهر سليمان بن الزبير وتخريب زريبته وقتله وصار يتفوه بألفاظ السباب والشتائم فى حق ابن الزبير فلما بلغ ذلك سليمان بن الزبير قام هاجما على مركز المديرية وكان منه ما كان مما أخبر به ادريس أبتر وكان ذلك قبل وصول ادريس أبتر الي مركز المديرية فلما نمى اليه الخبر اعتصم بالفرار لينجو بحياته وكان من أمر اجتماعه بنا في الطريق ماذكرناه

وعلى أثر ذلك أرسلت ادريس أبتر الى غردون مخفوراً بعشرة من العساكر وواحد من الضباط وكذلك أرسلت له الاوراق التي باشرت فيها التحقيق وفيها «ان ادريس ابتر كان قد أخذ العهد على أولئك الذين قصدوا مدارته فى أول الامر بكتم ماحصل منه ثم عادوا الي الاعتراف بالحقيقة» وما بلغ ادريس ابتر الخرطوم حتي زجه غردون باشا فى السجن

تعيين جسي باشا مديراً علي بحر الغزال

وبعد أن زج ادريس أبتر فى السجن أصدر غردون باشا أمرا بتعيين جسى باشا وهو ايطالى الاصل مديرا على بحر الغزال وعهد اليه اخضاع سليمان ابن الزبير ومقاومة عصيانه ولدى وصوله الى بحر الغزال بدأ بمطاردته وحشد عشرة آلاف جندى لمقاومته وجرت بينهما وقائع عديدة كان النصر فى جميعها حليف جنود الحكومة وفر سليمان بن الزبير الى برية بين بحر الغزال ودارفور تدعى (حفرة النحاس)فتأثره جسى باشا حتى أدركه وليس معه أكثر من أربعمائة مقاتل من العبيد الباز نجر خارت قواهم ولم يعودوا قادرين على مداومة القتال وكان رابح الذى قيل انه مملوك الزبير باشا من ضمن أولئك الباذ نجر فاستمال اليه نحو نصفهم وزين لهم الفرار والالتجاء الي الفلوات الواقعة بين دار فور وبحر الغزال ريثما يتناسي الناس أمرهم فيعودوا الى أوطانهم بعد انطفاء جذوة غضب رجال الحكومة على تجار الرقيق فاطاعوه وفروا الى جهة الجنوب الغربى من حفرة النحاس وقبل أن يبتعدوا عن معسكر ابن الزبير بعشرة أميال انقض عليه جسى باشا وقبض على من فيه وقتل ابن الزبير واثنين وعشرين رجلا من أشهر النخاسين الذين معه[1] ولم

---

(١) جاء في العدد ٩٨٤ من جريدة الجوائب بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٢٩٧ نقلا عن الجرائد المصرية . وقد قال أحد مكاتبى التيمس ان الاخبار الواردة من غردون باشا عند ما كان فى دارفور تفيد ان القائمقام جسي انتصر أخيراً على تجار الرقيق فى اقليم بحر الغزال كما انتصرت الانكليز على الزولوس وذكر المسترجسي خبر نصرته بالايجاز. وفحواه انه لما هجم سليمان أحد زعماء العصاة هزمه المسترجسي واقتفى أثره مدة أميال فانقلب سليمان الى حصنه ولم يمكن المسترجسي أن يستمر مقتفياً أثره بسبب عدم وجود المؤنة معه فمكث لغاية ٢٨ ابريل الي أن أتته الذخيرة الكافية فشرع في

تعثر الحكومة على شيء يذكر من أسلابه وغاية ماغنمته لايتجاوز سبع قناطير من سن الفيل ونحو خمسة آلاف من الريالات المجيدى واستولت على سندات بقيمة عشرين الف ريال بمواعيد مختلفة يؤديها بعض تجار الرقيق لابن الزبير وعثر على أوراق دلت على ان أسباب العصيان كانت مدبرة بينه وبين والده ويقصد هذا من ذلك أن تكلفه الحكومة باخضاع ابنه حيث يبلغ أربه من العودة الي بحر الغزال

ثم عاد جسى باشا الى مقر وظيفته وقتل خلقاً كثيرين من النخاسين والذين لهم علاقة بابن الزبير ومكث مديراً على بحر الغزال سنة كاملة ثم استقال لاعتلال صحته فاقيل وسار من بحر الغزال الي الخرطوم فسوا كن حتي ادركته المنية بالسويس قبل ان يبلغ القاهرة وخلفه فى وظيفته (موسي باشا شوقي) من الضباط المصريين فاستقر قدمه فيها لخلوها من النخاسين الذين هم مصدر كل الشرور والفتن . أما رابح فانه من أولاد العساكر السود

الاقدام والهجوم وكان معه نحو ١٠٠٠٠ نفر فانتهز سليمان الفرصة وجمع ٣٠٠٠ نفر من الرقيق غير ان جسي أعتق بعض أنفاره مكافأة لهم علي خدمهم ثم حصلت مناوشات انتصر فيها جسى وفى ٥ مايو حصلت ملحمة عظمى انهزم فيها العدو شر هزيمة فعزم جسي على أخذ القلعة بالهجوم ففاز بذلك وهرب سليمان نفسه ومعه نفران وترك جميع الذخائر والمكاتبات التي يستفاد منها خيانة أبيه زبير باشا وكذلك ترك ألف جنيه من ريالات فضة و٦٣٠ رطل عاج وكيس ذهب وحوالات كانت مع التجار المصريين لشراء الرقيق والعاج وريش النعام يبلغ مقدارها نحو ٢٠٠٠٠ ريال أي ٤٠٠٠ جنيه وغير ذلك من المواد والمهمات وأصدر جسي أمراً بقتل كل من يتعدي علي أحد من الاهالى وشنق تسعة من كبار المذنبين عبرة ليعتبر بها باقى تجار الرقيق وقتل ثمانية من الزعماء فى الوقعة الاخيرة وفي عزم جسي تجريد الاهالي من الاسلحة بدون فرق وطرد جميع تجار الرقيق

الذين يسمونهم في اصطلاح العساكر (غلمان الجهادية) ولم يكن مملوكا للزبير باشا ولا لغيره قاده الطمع وحب التكسب الى الانتظام في سلك تجار الرقيق فانتظم في حملة أبي عموري التاجر وكان حليفا للزبير باشا ثم لابنه من بعده ومدة الحرب بين جسي وابن الزبير لم تبلغ أسبوعين كان يدعوه جسي باشا في خلالهما الى الطاعة والابتعاد عن سبل العصيان

فصل المؤلف

﴿ من مديرية خط الاستواء وتعيين أمين باشا بدله ﴾

وبعد عودتي من الرحلة التي لقيت فيها ادريس ابتر جاءني سائح اسمه الدكتور (ينكر) يطلب مني ان اجمع له مائة شخص من الاهالي يحملون أثقاله مدة تجوله في انحاء خط الاستواء وكانت العادة المتبعة عندنا اذ ذاك ان نسمح بمثل ذلك لكل سائح على شرط ان يؤدي أجرة كل شخص ثلاثة غروش من العملة الصاغ عن كل يوم وان يدفع لكل شخص أجرة ثلاثة شهور سلفاً وان يكون مكلفاً بلوازمهم اليومية من الطعام فعرضت عليه هذه الشروط فاكبرها وادعى ان لديه أوامر من غردون باحتساب كل نفقات سياحته على جانب الحكومة فطلبت منه الرقيم الصادر من غردون فلم أجد عنده شيئاً من ذلك وأخيراً دفع أجرة شهر واحد لكل حمال من الذين جمعناهم له وتعهد بدفع الباقي عند عودته وبعد ثلاثة شهور عاد من سياحته وامتنع عن دفع ما بقي في ذمته من أجرة الحمالين وبعد محاورات كثيرة دفع لهم أجرة الشهرين الباقيين ثم أخذ في أهبة السفر ومعه شيء كثير من العاج فاخبرته باحتكار الحكومة هذا الصنف ومنعها الاتجار به وحمله الى الجهات

الشمالية وأفهمته ما تقضى به الاوامر من ضبط ما معه وأخذه لجانب الحكومة فامتنع أولا ثم رضخ ثانياً وكان كثير الالفة والتودد الى طبيب الحكومة الدكتور شنيتزر الذى سمي نفسه بعد باسم (محمد أمين) ثم صار حاكما على أقاليم خط الاستواء باسم أمين باشا

وفى غضون اقامة هذا السائح بخط الاستواء نقل الىّ كثير من تجار الاوروبيين هناك أنه مصمم على الوشاية بي عند غردون وانه لابد من ان وشايته ستفضى الى فصلى وانه يرشح أمين افندي طبيب الحكومة لولاية الحكم على أقاليم خط الاستواء بعد فصلى

على أني لم اكترث بهذا القول وعددته من قبيل الهوس وخصوصا ماذكر من أمر أمين افندى الطبيب لاني وسائر من معى من الموظفين نعتقد فيه فقدان الروية وعدم الحذق حتي فى صناعته التى انقطع لها ودرسها فكيف يكون شأنه اذا عين بوظيفة حاكم لاقاليم لخط الاستواء ادارتها عسكرية ومدار عملها على الحركات العسكرية والمهارة الحربية ثم غادر الدكتور (ينكر) خط الاستواء على احدى البواخر فكتبت الى الكولونيل غردون أعلمه بكل ماوقع بيني وبين الدكتور (المذكور) وشرحت له ماعلمته من أولئك التجار من نواياه ونوايا أمين افندي الطبيب ولما وصلت الباخرة الى مكان يدعي (شبشه) يبعد عن الخرطوم بنحو مائة ميل أصابها خلل أوقف متابعة سيرها فخرج السائح منها واستأجر نوقا وصل على ظهورها الى الخرطوم وقابل الكولونيل غردون وألقي عليه ماشاء من الاكاذيب والوشايات فاحتدم غيظا جريا على عادته حيث كان من طباعه أن يصغي لكل واش سبق غيره بالشكوي اليه من غير أن يتحرى صدقه ويقف على كنه قصده

وبعد بضعة أيام أصلح خلل الباخرة فاستأنفت سيرها الي الخرطوم وبعد وصولها ذهب صاحب البريد ليسلمه للكولونيل غردون فامتنع من استلامه وأصدر أمراً بفصلي من مديرية خط الاستواء وتعيين أمين افندي الطبيب وكيلاعنى حتي تصدر أوامر أخري . ثم غادرت خط الاستواء قاصداً الخرطوم حيث أصدر الكولونيل غردون أمراً بتعيينه حاكماً عاما على أقاليم خط الاستواء فوقع ذلك موقع الدهشة والاستغراب لدى الموظفين الذين لايعرفون لهذا الرجل أهلية ادارية أو عسكرية تبوئه هذا المنصب الخطير وأيقن الكل بأن الدكتور (ينكر) هو الذي مهد له هذا السبيل وبوأه هذا المنصب

ولا غرابة في ذلك فان الدكتور شنيتزر قدر على اخفاء دينه وتسمى بمحمد أمين فليس ببعيد علي منافق كهذا استمالة مثل الدكتور ينكر مادام عالمين من الكولونيل غردون الاصغاء لكل مبادر بالوشاية ولو كان ذا قصد سيء

قصة الافيال في خط الاستواء

ومن الاعمال التى تدل على جهالة أمين افندى وبعده عن أصالة الرأي بعد السماء من الارض ان الكولونيل غردون كان اشترى من أفيال الهند الداجنة عدة وجلبها الى خط الاستواء ولما عينت حاكما على خط الاستواء سلمها اليّ وأمرنى أن أقيم لها زريبة من الشوك علي بعد ألف ومائتى متر من مدينة (اللادوه) وكنا فى غداة كل يوم نخرجها من الزريبة ونسرحها في الفلاة تقتات بالحشائش وتختلط بالافيال الوحشية وفي أصيل النهار تعاد الي الزريبة فيتبعها منها بضعة أفيال أو أزيد بعد ادخالها في الزريبة فيقتل

العساكر الافيال الوحشية رميا بالنبل فتأخذ الحكومة أسنانها وتأكل العساكر لحومها اذ هي لذيذة جداً ومحبوبة عندهم وبذلك تقتصد الحكومة ثمن اللحوم التي تجريها علي العساكر . وفضلاعن ذلك فان الاقاليم الاستوائية لا توجد بها دواب للحمل ونقل الأثقال من مكان لآخر فكانت هذه الافيال تؤدي وظيفة الحمل فى زمن الحروب ونقل الذخائر من أهم حوائج الجند اذ يحمل الواحد منها اكثر من حمل خمس من الابل

وغير هذا وذاك انى لما غزوت بعض البلاد لادخالها فى طاعة الحكومة وحملت الأثقال على تلك الافيال كان الاهلون فى كل جهة مررنا بها يقابلوننا بالاعجاب ويتساءلون كيف أخضع هؤلاء الناس الفيل الذى هو أكبر حيوان وكيف ذللوه لارادتهم وقادوه كما تقاد الشاة ولما وصلت الي بلاد العصاة لم يقابلونى بغير تقديم الطاعة والتسليم هم وملوكهم وصرحوا لى بأنهم لا يستطيعون قتالي وقتال جنودى الذين ذللوا الافيال وكان ذلك شأني مع كل بلاد غزوتها بالافيال وأطلق الجنود اسم بلادالافيال وقبائل الافيال على كل بلاد وقبائل دانت بطاعة الحكومة رهبة للافيال وأطلق الاهلون عليّ اسم (الحاكم صاحب الافيال) وبعد مبارحتى خط الاستواء خيل لامين افندي باشا أن يذبح الافيال الداجنة ليتحقق الفرق بين لحومها ولحوم الافيال الوحشية ولاجراء تحليلات كيماوية وقد فعل فانظرالي هذه السخافة

وكان فى خط الاستواء ثيران من البقر تبلغ الالفين ذللت بأزمة حتى صارت قابلة لحمل الأثقال والركوب كالجمال فذبحها كلها ولو كانت الافيال والثيران باقية لما هلك اكثر الذين رافقوه مع المسترستانلى الرحالة عند مغادرته خط الاستواء كما سنذكر ذلك في موضعه ان شاء الله

ذكر ماحصل للمؤلف من الكولونيل غردون وسفره لمصر

ولما وصلت الخرطوم قصدت سراي الحكومة والتمست مقابلة الكولونيل غردون فلم يأذن لى بمقابلته فعدت الى منزلى وأنا مصر على مغادرة السودان وعدم قبول أى خدمة فيه بعد الاهانة التى لحقتني من السائح الذي نسعي بالوشاية فيّ عند من لم يتحر الحقيقة ولم يعتقد فى الاوروبيين انهم بشر يجوز فى حقهم الكذب والخيانة والغرض فعرضت اليه ألتمس التصريح لى بالشخوص الى مصر فاستدعانى وخاطبني بأنفة قائلا أنت تريد السفر الى مصر قلت نعم قال ولماذا قلت انى مكثت سبع سنوات هنا وأود العودة الى وطني لتبديل الهواء والفرار من وجه السياح الكذابين مثل (ينكر) فقال أهو كذاب قلت نعم ولو أطلعتنى على سعايته بي عندك لاظهرت لك كذبه واني ماعاملته الاّ بما لامندوحة لى منه وهى واجبات وظيفتى وختمت حديثي باعادة الالتماس بالتصريح بالسفر الي مصر على نفقة الحكومة فقال قد أذنت لك وأمر بكتابة الاوامر بسفرى على نفقة الحكومة ثم طلبت منه كتابا الى الحربية المصرية مؤذنا باحالتي عليها فأعرض عن الاجابة فألححت في الطلب وصمم على الرفض فانصرفت عنه وهو مفعم من الغضب وأنا مفعم من الغيظ والكدر وما مضت أيام حتى غادرت الخرطوم وما زلت سائراً حتى وصلت القاهرة

ذكر ماوقع للمؤلف مع شاهين باشا ناظر الحربية

وفى ثانى يوم وصولى لمصر ذهبت لديوان الحربية لابسا الملابس الرسمية حيث قابلت شاهين باشا ناظر الحربية والبحرية المصرية فتمثل لى واقفا ببشاشة وطلاقة وجه وبعد تناول القهوة سألني وأمارات الدهشة والاستغراب بادية على

وجهه أأنت حائز لرتبة أمير ألاي فقلت نعم فقال ومن أين قدمت فأجبت من السودان فقال ما اسمك قلت ابراهيم فوزى فقال هل عندك كتب من حاكم السودان قلت كلاَّ فقال وبماذا نعرفك فقصصت عليه ما كان من امتناع حاكم السودان من اعطائى كتابا فقال ولاي شيء كان ذلك قلت لا أعلم ثم سألني عن براءة الرتبة التي أنا حائز لها فأجبته بأن لدي البراآت من رتبة الملازم ثانى حتى رتبة الاميرالاي فقال أود الاطلاع عليها وعند ذلك لم أتمالك كظم غيظى حيث قلت له أتظن بأنني مختلس هذه الرتبة فان كان كذلك فان لديك الفريق عثمان رفقي باشا الذي كان قائداً عاماً لعساكر السودان فسله عني ينبئك اليقين واذا شئت فان معية الجناب الخديوي تخبرك بما يجعلك فى غنى عن توجيه هذه الاسئلة اليّ ثم انصرفت عنه وهو يلاطفني ويرجونى أن أقابله فى الغد

مقابلة المغفور له خديو مصر اسماعيل باشا

وبعد انصرافى عن ناظر الحربية ذهب هو الي سراي عابدين العامرة وتشرف بمقابلة الجناب الخديوى وقص على مسامعه الكريمة حديثي فأمر ناظر الحربية باستدعائى بين يديه فى الغد لمقابلة سموه وفى الغد ذهبت الى ديوان الحربية كما أمرت ولما دخلت على الناظر كان أول خطاب وجهه الى «أأنت جئت» كأنه يرتاب فى مجيئى ثم قال. بعد ساعتين نتشرف بمقابلة الجناب الخديوى المعظم فاظهرت السرور وبعد انقضاء الساعتين ركبت معه عربته ولما مثلت بين يدى الخديو قابلني بالبشاشة والاكرام وكان ناظر الحربية قد سبقني الى ذلك وبعد الجلوس سألني عن اسمي فقلت ابراهيم فوزي الذي قابل

سموكم مع الكولونيل غردون وأنا يومئذ حائز لرتبة الصاغقول اغاسي وقد أحسن سموكم على برتبة البكباشي في غضون تلك المقابلة وقد تنازل سموكم بابلاغي ممنونية الكولونيل غردون مني وثناءه على بالنسبة لما كان مني من الخدم التي أديتها في فتوحات خط الاستواء وتنازل سموكم أيضا وخاطبني بالفاظ التشجيع والوعد بالترقي اذا ظللت على النهج الذي أوجب ثناء الكولونيل غردون على

فالتفت سموه الى ناظر الحربية وقال له لو رأيت الكتب التي وردت على من الكولونيل غردون باللغتين العربية والفرنسوية بالثناء على هذا الرجل لعلمت انه مستحق لرتبة الفريق مثلك فاعتذر ناظر الحربية وأمره الجناب الخديري بمعاملتي اسوة امثالي فانصرفت بعد اسداء الشكر للحضرة الفخيمة الخديوية وانصرف معي ناظر الحربية وفي نفسه شيء مني فدعاني لركوب عربته للعودة الى نظارة الحربية وبينما نحن سائرون لمحت منه امتعاضاً على الكولونيل غردون لانه يكيل الرتب جزافا فانكرت عليه ذلك وقلت له بلغني انك لما كنت حائز الرتبة أميرالاي كنت أصغر سنا مني فقال كلاّ فانني لما رقيت الى رتبة اميرالاي كان سني اثنين وثلاثين عاماً فقلت له وما تحسب سني قال عشرين سنة أو اكثر بقليل فقلت ان عمري ثلاثون سنة وقد نلت الرتب باستحقاق حيث كابدت مشقات وقاسيت صعوبات في فتح بلاد جديدة وانتهى الحديث بيننا بالوصول الى الديوان حيث أمرني بالتردد عليه ريثما يجد لي وظيفة تليق بي فكنت متردداً نحو شهرين لم يعرض على ناظر الحربية وظيفة تليق أولا تليق بي

قدوم الكولونيل غردون مصر واستقالته

وفى أواخر سنة ١٢٩٦ هجرية قدم الكولونيل غردون الى مصر لمقابلة الخديو فتوجهت لزيارته بقصر النزهة بشبرا حيث كان نازلا فيه ضيفاً على الحكومة المصرية فقابلنى بفتور وكان معه ضابطان أوربيان كانا موظفين بخط الاستواء حينما كنت مديرا. ولما رأيت منه هذا الفتور استأذنته بالانصراف فخرجت وأنا مصمم على عدم العود الى زيارته وبعد خروجي انكر عليه الضابطان ما قابلني به من الجفاء وكانا قد بارحا خط الاستواء لتبديل الهواء في الباخرة التى سافر عليها الدكتور ينكر وغادرا الخرطوم الى القاهرة فاوروبا قبل ان يقفا على شيء من أمري ثم انهما كانا عائدين من أوروبا ولما رأيانى مع الكولونيل غردون كانا يظنان انني قدمت معه كالمرة الاولى والضابطان المذكوران يدعى احدهما الكولونيل (مارنو بك) والثاني الكولونيل (ملسون بك) فسألا الكولونيل غردون عن سبب هذا الجفاء فقص عليهما كل شيء من أمر ينكر فاكدا له تزييف كل ماوشى به ينكر وقصا عليه الحقيقة من أولها الى آخرها فلم يقتنع حتى أطلعاه على مخاطبات من السائح ينكر والدكتور أمين تدل على انهما كانا يلحان عليهما ليوافقاهما على دسائسهما ووشاياتهما عليّ فابيا ترفعاً وأنفة من مثل هذه الدناآت وعقيب ذلك ارسل الى الكولونيل غردون وبالغ فى الاعتذار ورجانى ان اعتقد بان منزلتى لديه صارت أجل وأرفع مما كانت عليه وانه يتأسف كثيرا على مالحقنى من الاهانة فيما مضى فقبلت عذره واكدت حفظ الوداد فكتب في الحال الي نظارة الحربية والي المعية السنية رسالتين يثني عليّ فيهما ويسألهما توظيفي بوظيفة لائقة

ولما وصل كتاب الكولونيل غردون الي المعية السنية أمر الجناب الخديوي ناظر الحربية بتوظيفي فاعتذر بعدم وجود وظيفة لائقة فامر باحالتي على الاستيداع بنصف الراتب الذى هو خمسة وعشرون جنيها

ولم تمض ثلاثة أيام علي احالتي على الاستيداع حتي استدعاني الكولونيل غردون وعينني بوظيفة قائد عام لجنود السودان الشرقي فاخذت فى الاهبة للسفر لمقر وظيفتي

وبينما أنا كذلك اذ بلغني ان الكولونيل غردون قد استقال من وظيفته وأقالته الحكومة الخديوية فاسرعت وسألته ان يتوسط لي في قبول الاقالة من هذه الوظيفة ففعل وقبلت وساطته وصدر الامر بعودتي الي الاستيداع

أما الاسباب التي بنيت عليها استقالة الكولونيل غردون فلم أقف على شي منها وغاية ماعلمته من أخبار الصحف وقتئذ أن الخلاف الذي كان قائما بين مصر والحبشة فى مسألة تحديد التخوم لم يعمل فيه الكولونيل غردون بما كانت تجنح اليه الحكومة الخديوية من حسم الخلاف بالطرق الودية وملافاة الشحناء بالمخابرات السلمية بل كان يود غير ذلك وكانت حالة الحكومة الخديوية اذ ذاك فى ارتباكات داخلية لايجهلها القارئ وهي التي بدت طلائعها قبل استقالة المغفور له الخديو اسماعيل باشا ويقرب من العقل تصديق هذه الرواية

وقررت الحكومة منحه عشرين الف جنيه مكافأة له على خدمه التى اداها بالسودان فاعتذر عن قبولها وأظهر شمما اذ قال انى ماخدمت الحكومة الخديوية لانال منها مكافأة بل كان قصدى خدمة المدنية ونفع النوع البشري وغاية مايمكنني قبوله هو مرتب شهرين باق لي لم أقبضه حتي الآن فدفعت

له الحكومة مرتب الشهرين فوزعه على الخدام والطهاة الذين كانوا يتولون خدمته في قصر النزهة ولم يدخر منه غير نفقة وصوله الي بلاده ثم بارح القاهرة الي الاسكندرية فلوندره

تعيين محمد رؤف باشا حاكما علي السودان

وبعد استقالة غردون باشا عينت الحكومة خلفا له امير محمد رؤف باشا الذي جعل ادارته قاصرة على الغاء أكثر الحاميات اقتصادا للنفقات وأنزل مرتبات الموظفين الي النصف ورافقه ضباط مصريون روى لنا واحد منهم هو القائمقام اسكندر بك محمد أنه سمعه يقول لم يحسن الجناب الخديو بتوليتي على عموم السودان لانني أعرف من نفسي عدم القدرة على ادارة شؤن هذه الاقاليم وكان الاحسن أن يعينني مديرا على اقليمي « بربر ودنقله » فقط وفي أيامه ظهر المهدي وكان من أمره ماناتي على شرحه

ذكر وظائف المؤلف بعد ذلك

وفى أوائل سنة ١٢٩٧ تعين المرحوم عثمان رفقي باشا ناظرا للحربية المصرية فعينني فى وظيفة مامور عمليات اقليم الغربية بمرتب خمسين جنيها مصريا في الشهر غير نفقات السفر وبعد انتهاء العمليات عينت ماموراً لتعداد النفوس باقليم الجيزة ثم عدت الي الغربية لفرز انفار القرعة ثم انتدبت لتحقيق مسألة دعوي جماعة من الضباط على دولة البرنس ابراهيم باشا أحمد بانه غصب منهم تفتيش الزنكلون من أعمال الشرقية وبعد مباشرة التحقيق ظهر كذبهم وفساد دعواهم ثم فصل عثمان رفقي باشا من نظارة الحربية وعين خلفا له محمود سامي

(باشا) البارودى وبدت حوادث العرابيين

وفي ابان ذلك أرسلت حكمدارية السودان الى المعية السنية تلغرافا تخبرها باول حادثة جرت لها مع المهدي فامرت الحكومة بحشد أربعة طوابير نصفها من السودانيين والنصف الآخر من المصريين وتاليف الاى منهم لارساله الي السودان وتعيين المؤلف أمير ألاى عليه وبعد حشد الجنود أخذنا فى تمرينهم على اطلاق النار بضواحى العباسية ثم بعد ثلاثة شهور أرسلت الحكمدارية تلغرافا الى المعية السنية تقول فيه إن ميزانيتها لا تحتمل نفقات هذا الألاى وانها انتدبت لقتال المهدي يوسف باشا الشلالى وجعلت تحت إمرته جنوداً نظامية وباشبوزق وأكدت لها قدرته على مقاومة العصاة وإخضاعهم وأنه لابد أن يقضي القضاء الاخير على دعوة المهدى قبل أن تشب من طوقها. ولما كنت عارفا بيوسف باشا المذكور التزمت أن أعرف المعية عنه بانه كان نوتيا ثم صار نخاسا من الذين كانوا ببحر الغزال ولم يكن عسكريا ولا اداريا قط فلم تلتفت لاقوالى وصدرت الاوامر بحل الألاي وكان من أمر يوسف باشا مايجيء ذكره في حوادث المهدوية وأضيف طابورا السودانيين الي لواء عبد العال حلمي (باشا) وقتئذ والآخران الي ألوية المصريين ثم عينت بوظيفة باشمعاون نظارة الحربية ومكثت بهذه الوظيفة حتى اطلاق الدونانمة الانكليزية القنابل على الاسكندرية ثم عينت أمير ألاي على أحد الالايات التى جندت وقتئذ وهو الألاى الاول من الفرقة الثالثة وكانت اقامة هذا الالاى بثغر رشيد ثم أمرنا بالتوجه الى أبوقير وعسكرنا بها الى مابعد واقعة التل الكبير

ذكر ما وقع للمؤلف مع العرابيين

لا أتوخي فى هـذا المقام شرح حادثة العرابيين بل أبين للقاري ما لحقنى من السجن والمحاكمة لدخولى فى زمرتهم فاقول

لما انهزم عرابي فى واقعة التل الكبير وتأثره الانكليز أرسل الينا تلغرافا بابو قير ينبئنا بهزيمته وانكساره النهائى ولم نلبث أن جاءنا بعد ذلك تلغراف من المغفور له توفيق باشا الخديوى السابق يخطرنا فيه بالقبض على عرابي وزجه فى السجن . ويامرنا بالتوجه الى كفر الدوار وبتسليم الاسلحة والذخائر لقائد الجنود الانكليزية هناك فامتثلنا وذهبنا الي تلك الجهة فوجدنا بها الجنرال (وود) الذي صار بعـد ذلك سردارا للجيش المصرى وعنـد ما أبصرنا أمر جنوده باخذ الاهبة والحـذر فتقلدوا الاسلحة ولذلك تركت عساكرى وذهبت بنفسي الى مكانهم عند قنطرة المحمودية و معى فارسان فقابلنا الجنرال (وود) وسألني عن نفسى فقلت له الميرالاي ابراهيم فوزى قائد الألاى الاول من الفرقة الثالثـة فقال وماذا تقصد الآن فاخبرته بتلغراف الخديو فقال أأنت خاضع له قلت نعم فقال ترجل عن جوادك وسـلم سيفك ففعلت فرد الي السيف وأمرني بالعودة الى عسكري لامر بهـم فى وسط صفوف عساكره ونجري تسليم الاسلحة والذخائر عند محطة كفر الدوار وانصرف العساكر الى بلادهم فرجعت الي عساكري وألقيت عليهم التعليمات المذكورة واكدت عليهم بلزوم الادب وقلت لهم فى عرض كلامى اذا لم تكونوا شجعانا بواسـل في بداية الحرب فكونوا مؤدبين فى نهايتها فاطاع العساكر أوامرى واجتازوا صفوف الجنود الانكليزية بكل هـدو وسكينة وكانت الجنود الانكليزية تؤدي وقت

مرورنا التحية العسكرية حتى جاءنا أحد ياوران الجنرال وأمرنا بوضع الاسلحة والذخيرة في عربات السكة الحديدية ثم انصرف العساكر الى بلادهم وتلطف الياور فى سؤالنا تسليم سيوفنا وأسلحتنا الخصوصية ورايات الالوية ففعلنا

وعقيب ذلك ساقونا وجميع الضباط وكانوا نحو مائتى ضابط الى سراي الرمل بصفة مسجونين وخفراءنا من الجنود الانكليزية وكانت معاملتهم لنا حسنة سيما تقديم الاغذية النظيفة والشاى والقهوة وبعد انقضاء أسبوع جاءنا الفريق اسماعيل كامل باشا ومعه ضباط من المعية فاطلقوا اصفار الضباط وأبقوا كل حائز لرتبة القائمقام فما فوقها وبعضا من الحائزين لرتبة البكباشى وأبلغوهم جميعا خبر تجريدهم من رتبهم وألقابهم ونياشينهم وأنهم كسائر افراد الاهلين. ثم ساقونا الى الاسكندرية فسراي رأس التين وبها وجدنا المغفور له الخديو توفيق باشا واقفا على شرفة مطلة علينا وعلامات الاسف ظاهرة عليه حيث كانت الجنود الانكليزية محيطة بنا احاطة السوار بالمعصم

ذكر السجن المظلم

وبعد وقوفنا تحت الشرفة بسراى رأس التين جاءنا عثمان باشا عرفى محافظ الاسكندرية وقادنا الى سجن باب شرقى بالاسكندرية وأدخلنا من سرداب لايسع اكثر من شخص واحد الى سجن مظلم لانرى فيه نور النهار ولا يبصر بعضنا بعضا من شدة الظلام وفي هذا السجن حشرات من نوع البراغيث والبق تتسابق على انتزاف دمنا ولشدة تراكم بعضها على بعض نحس بحمل ثقيل فوق جسمنا فضلا عن الآلام التي نتكبدها من امتصاصها حيث يستحيل معها أن يزور الكرى اجفاننا. وبتنا تلك الليلة ولا فراش لنا غير الارض التي

تثور منها الحشرات وغطاؤنا السقف الذي يمطرنا الكثير منها وزد على ذلك الظمأ فاننا قضينا تلك الليلة نستغيث ونطلب جرعة ماء فلا نجدها حتي مطلع الشمس فدخل علينا الخفراء وكانوا ايطاليين لايعرفون كلمة واحدة من اللغة العربية كما أننا لانعرف مثلها من لغتهم والمكالمة بيننا بالاشارة والايماء وبعد مضي ليلتين في هذا العذاب جاءنا خبر قدوم خدامنا حاملين فرشنا واغطيتنا وبعض ملابس فتناولها الخفراء وألقوها بين ايدينا بغير تمييز فأخذ كل واحد منا يميز فرشه وملابسه

وأما الغذاء فان الخفراء حينما يأتيهم الخادم بطعام ويخبرهم باسم سيده يدفعونه لآخر ولسنا نعلم لذلك سببا سوي الاهمال وعدم الاعتناء ولم ندفع ضرر هذه المسألة الا بالاتفاق بيننا على تادية ثمن الاغذية من جيبنا حيث صار المتعهد يؤدي لكل واحد غذاءه دون أن يلحقه حيف وبعد خمسة وعشرين يوما غادرنا السجن الى مصر وقد حملنا على عربات العفش ولما وصلنا المحطة وجدنا شرذمة من العساكر المصرية تنتظر قدومنا بها فاحاطت بنا حتى أوصلتنا سجن الضبطية حيث وجدنا به عرابي (باشا) ورفقاءه وكل الذين وقعت عليهم تهمة معاضدته وما تقابلت الوجوه ببعضها حتي أقبل بعضنا على بعض نتلاوم متخاذلين كما هو شأن المخذولين وبعد ثلاثة أيام نقلنا الى الدائرة السنية وسجنا فرادي حيث كان خفراؤنا من الجراكسة فانتقموا منا شر انتقام وكانوا يهينوننا بالدفع واللطم والشتائم القبيحة وغير ذلك من انواع سوء المعاملة حتى أنه لم يكن يؤذن للواحد منا بالذهاب الى المرحاض الا بعد اللتيا والتي ويقفون بالباب ويدعونه للخروج قبل قضاء الحاجة وان لم يبادر بالاجابة يلجون عليه ويخرجونه مسحوبا على وجهه. وقد اتصل نبأ هذه المعاملة السيئة برجال الاحتلال فقاموا وقعدوا وشددوا النكير على الخفراء وحالوا بينهم وبين متابعة هذه

النظائع وانتدبوا واحدا من ضباطهم صار يمر على السجن كل يوم ويسأل المسجونين فردا فردا عن راحتهم ويتولى بنفسه قطع أسباب الشكوى واذا أبلغه مسجون شكوى من أحد الخفراء عاقبه عقاباً صارما

وفى غضون ذلك قبض على عدد ليس بقليل من العلماء الازهريين بتهمة موالاة العرابيين وسجن كل واحد منا مع واحد منهم وكان حبسي مع واحد منهم يسمي الشيخ احمد عبد الغني وكان فاضلا وكنت حسبت انني أجد منه أنيسا يسري عني بحديثه الهموم فنقضي معا وقتنا بشيء من التسلية لكنه لم يكن ذلك لانه كان يقضي اكثر أوقات الليل والنهار نائما لا يكاد ينتبه الالاداء فريضة الصلاة أو تناول الطعام فعتبت عليه يوما وطلبت منه أن يقلل من نومه فاعتذر بانه مادام متكدرا فلا يفارقه النوم فتعجبت من هذه العادة التي فطره الله عليها وتمنيت أن أكون مثله فى هذه الحالة

وكنا في كل يوم نساق للاستنطاق وكان صاحبي الشيخ احمد عبدالغني يدافع عن نفسه دفاعا كانت نتيجته سرعة الافراج عنه فبقيت بعده منفردا أتمني رفيقا بدله ولو كان نواما مثله آنس برؤيته وأسمع ترديد أنفاسه. وبعد ذلك ببضعة أسابيع أفرج عني بالضمانة بعد استيفاء المجلس أسئلتي

مسألة احراق الاسكندرية

وبعد خروجي من السجن أخذت الي الاسكندرية لاستنطاقي عن حادثه الحريق التى حدثت بها فذهبت اليها وتوجهت الي المجلس الذي شكل بها لتحقيق هذه المسألة تحت رئاسة محمد رؤف باشا حيث ادعى القائمقام سليمان داود بك أن (عرابى) أرسلني اليه يأمره باحراق الاسكندرية فاظهرت كذبه فى ذلك

وبينت للمجلس الحقيقة وهى أن سليمان داود بك أحرق الاسكندرية من تلقاء نفسه وان عرابى لما بلغه هذا الخبر أرسلنى اليه ومعي القائمقام نسيم بك الطوبجي قبل غروب الشمس بساعة وقال لنا قولا له ان هذه المدينة مصرية وفيها نزلاء أجانب وليست انكليزية حتى يجوز لنا احراقها انتقاما من فعل مدرعاتهم باستحكاماتنا وقال ادعواه ليحضر بلوائه الى باب شرقى فلما ذهبنا اليه وجدناه واقفا فى ساحة المنشية يملأ الطلمبات بزيت البترول ويقذفه على المدينة ويأمر عساكره بنهب مافى المنازل ولما أبلغناه الاوامر كان جوابه لنا « انى أرفض سماع هذه الاوامر ولا أفعل غيرما فى ارادتى » وختم كلامه بقوله « يرى الحاضر مالا يرى الغائب » فتركناه وعدنا لعرابي فاخبرناه فاستشاط غيظا وأرسل اليه جماعة من الضباط وأمرهم بنصحه فان لم يرضخ للامر طوعا رضخ كرها فخاف العاقبة وترك الاسكندرية ولحق بعرابى فى باب شرقى فعنفه واكثر من لومه وبعد ان أخذ المجلس أقوالي واجهنى به فاعدته فى وجهه فانكر فجىء بالقائمقام نسيم بك فأيد ما قلته ثم استشهد بضباط آخرين من ضباط لوائه قال انهم سمعوا مني ومن نسيم بك ابلاغه أوامر عرابي بحرق الاسكندرية فجىء بهم فشهدوا عليه مؤيدين كل أقوالنا ولم يكتف بهؤلاء حتي استشهد بغيرهم فشهدوا عليه لا له وأخيراً حكم عليه بالاعدام شنقاً

تجريد المؤلف من رتبه وألقابه

وعلى أثر ذلك أشخصت من الاسكندرية للقاهرة كما أمرني المجلس وبعد عشرين يوما أقمتها فيها صدر أمر عال بالتصديق على بعض الاحكام الصادرة

على الضباط والتعديل فى بعضها فكان نصيبي من هذا الامر التجريد من كل رتبي وألقابي ونياشيني التى احرزتها بالمتاعب والمشقات واقتحام الاهوال في فتوحات خط الاستواء وبيد الله كل شيء واليه مصير كل شيء ولا حول ولا قوة الا به

تاريخ السودان القديم

أورد فى هذا الباب طرفا من تاريخ السودان القديم نقلا عن مصادر يتعذر ايرادها فى مثل هذا الكتاب اذ لا يوجد تاريخ لهذه البلاد لما كانت عليه من البداوة فسكانها الاقدمون زنوج يطلق عليهم اسم (النوبة) وفى القرون الوسطي دخلها أعراب من صعيد مصر واختلطت أنسابهم بالنوبة وقامت منهم دولة عربية اخضعت لسلطانها كل السودان المصرى عدا كوردفان ودارفور وتدعي هذه الدولة بدولة (الفون) نسبة الى مؤسسها وكان مقرها بمدينة سنار التي تبعد عن الخرطوم مسيرة عشر مراحل جهة النهر الازرق

وروى لنا شيخ من السودان ان العرب الذين استوطنوا السودان انتشر الجهل بينهم بعد انقراض جيلهم الاول وأصبحوا لا يعرفون من الاسلام غير الشهادتين فكانت المرأة اذا طلقت في الصباح تزوجت بآخر قبل المساء وحكى لنا ان شاعراً ينظم القصائد باللغة العامية دخل على أحد ملوك الفون فانشده قصيدة مدحه فيها وجاء فى آخرها ذكر (طه) صلى الله عليه وسلم فانكر الملك هذا الاسم وسأله مستفهما أمن الصحابة طه هذا فسكت الشاعر فاعاد عليه السؤال قائلا كيف لا تعرف طه فقال أظنه من صغار الصحابة لانني أعرف الاكابر كعلى وعمر وأبى بكر وقس على ذلك من أمثال هذه الجهالة

وأما مظالم هذه الدولة فحدث عنها ولا حرج فان الملك وسائر قواده وذوى قرابته لهم ان يأخذوا كل بنت حسناء ويتمتعوا بها كموطوءة بملك اليمين ولا يمكن ان يقل عدد المحظيات فى بيت الملك عن الآلاف ومن دونه عن المائتين

وكانت البلاد الواقعة وراء سنار غنية بكثرة معادنها الذهبية ويجبى الى اولئك الملوك من خراجها القناطير المقنطرة فيصنعون منها الحلي التي من بينها شكل على هيئة راس (سفنكس) الذى هو من قدماء المصريين ويسمون هذا الشكل « دجاجه » وكان أهل الطبقة العالية من النساء لا يلبسن نعلاً الا من الذهب ولا ينمن الا على أسرة من التبر

وكانت البلاد منقسمة الي مقاطعات ولكل مقاطعة منها وال يجبي الخراج بغير حد معلوم. وقد حدث فى بعض السنين ان الملك صادر كل محصولات البلاد فوقعت فى مجاعة بلغ فيها ثمن اوقية الذرة مثلها من الذهب وما حال الحول حتي هلك من الناس مايربو على ثلاثة ارباع السكان

ومن عوائد هؤلاء الملوك ان لا يدخل عليهم أحد وعلى راسه قلنسوة أو عمامة بل يدخل مكشوف الراس حافي الاقدام حاسرا ملابسه الى مافوق سرته ويجثو على ركبته ويقول « ما نجل » اى ملك الملوك ويرددها حتى يأمره الملك بالجلوس فيجلس على الارض جاثياً على ركبتيه وهذه التحية واجبة على كل أحد للملك وسائر افراد اسرته من ذكر أو انثى

وكان من عوائد بنات الملوك أن يخرجن مكشوفات الوجوه كالافرنج وخلفهن المئات من الجواري بحلى كحلى سيداتهن تحمل كل واحدة على راسها طبقا من الخوص فيه من ضروب الزينة كالذي عليها وعلى مولاتها ومن

أشهر ملوك هذه الدولة الملك (العجيب بن الما نجلك) وتسمي هذه الدولة باسم الزرقاء لان ملوكها كانوا يلبسون قلنسوة سوداء لها قرنان طويلان

ثم دالت هـذه الدولة بعد أن مضي عليها قرنان وقامت دولة الهمج وهم مماليك (الفون) ثاروا على مواليهم ونزعوا الملك من أيديهم وكانت دولتهم شبيهة بسابقتها الا أنهم أبطلوا الولاة ومنحوا كل شيخ قرية أو رئيس قبيلة سلطة مطلقة يحكم في قريته أو قبيلته بما يشاء بشرط أن يؤدي للملك كل مايفرضه عليه من الخراج فى كل عام فاغـترف أولئك المشايخ من المظالم والمغارم مالا يحصي . ومن انواع هذه المظالم أن شيخا من مشايخ قرى الجمليين قبض على عشرين رجلا من رعاياه بتهمة انهم سعوا به عنـد الملك فلما أوقفوا بين يديه قال لهم من لم يتمخض منكم كما تتمخض المرأة ويلد بيضة كبيضة الدجاجة ضربت عنقه وبعد هنيهة ضرب اعناقهم بعد أن تمخضوا ولم يلدوا بيضا

وأمثال هذه الافعال الوحشية كثيرة يضيق المقام دون ايرادها وآخر ملوك هذه الدولة (عدلان بن ادريس) الذي سيأتي ذكره وانه اسلم سيفه الي الامير اسماعيل باشا بن محمـد على باشا . وقبل الختام نورد نكتة للملك عدلان ابن ادريس وهى أنه كان يدمن الخمر فى نهار رمضان وكانت له وصيفة اسمها (تام زينه) فاذا جلس فى مجلسه والناس حـوله دعاها وسألها أغربت الشمس فتجيبه غربت شمسك وشمس رعيتك لم تغرب فيتناول الكأس منها ويشربه وقد صدق هذا الفأل عليه وغربت شمس ملكه والدوام لله

ضم السودان الي مصر

قضى ساكن الجنان محمـد على باشا محي الديار المصريه لبانتين من فتح

السودان بل تخلص من ورطتين كبيرتين فقد علمت من شيخ ذي منصب معاصر لمحمد علي باشا أن دولة أوروبية كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل فاهتم لهذا الخبر اكبر اهتمام واستشار كثيرا من المهندسين الاوروبيين الذين جاء بهم من بلادهم الى هذا القطر فاقروا بالاجماع على أن وقوع منابع النيل تحت براثن هـذه الدولة مما لا تحمد مغبته حيث تصير حياة مصر في يدها فصمم على انفاذ حملة الي السودان وكانت جنوده من الترغير النظاميين وكان يقاسي أهوالا من عـدم انقيادهم له فيما كان يتوخاه من انشاء جنود نظامية على الطراز الاوروبي فعول على انفاذهم الى مجاهـل السودان ليستريح من مشاكستهم وهناك احدي الخطتين اما الموت أو الظفر. فان كان الاول لا يعدم من جنوده الذين ينظمهم على الشكل الاوروبي عوضاً عن هؤلاء وان كان الثاني فيكون قد أمن الخطر التي يتهدد حياة بلاده.وظلّ أولئـك الفاتحون يجنون خيرات البـلاد المفتوحة بايديهم وانطلقت يد العزيز يجند كيف يشاء ويدرب الـكتائب وينظمها بلا معارض ولا عذول

هذان هما السببان اللذان وجها عزيمة المغفور له محمد علي باشا الي فتح السودان فهيأت المقادير له قضاء اللبانتين و التخلص من الورطتين فوفد عليـه زعيم قرية من قري الجمليين باقليم بربر اسمه (بشير بن عقيد) وقريته اسمها (العقيدة) في الضـفة الغربية من النيل شمالي قرية (شندي) بنحو عشرين ميلا فاستقبله بالاكرام وعرض هذا الزعيم على محمد علي باشا انفاذ حملة لفتح السودان وقص عليه سبب قدومه وهو ان زعيما يدعى (الملك نمر) وشي به عند الملك فارسل اليه يستقدمه فاعتذر فارسـل خلفه شرذمة من رجاله وأمرهم بضرب عنقه

عند وقوع بصرهم عليه فقر منهم ولجأ الى مصر فاخذ محمدعلى باشا في الاهبة وسير الحملة وجعل قيادتها لابنه الامير اسماعيل فغادرت القاهرة فى أواخر عام خمس وثلاثين بعد الالف ومائتين من الهجرة فاجتازت اقليم دنقله من الشمال بدون مقاومة وفي جنوب هذا الاقليم تألبت قبيلة الشايقية وحاربت الجيش المصرى فرجعت مقهورة وسار الجيش الى الجنوب فقابله سكان اقليم (بربر) بالخضوع واجتاز النهر الى جزيرة الخرطوم فاعجب الامير منظر الخرطوم وموقعها بين النيلين وكتب الى والده بما أحرزه من النصر ثم زحف قاصداً (سنار) ولما دنا منها كتب الى الملك عدلان بن ادريس يدعوه الى التسليم ويحذره سوء العاقبة فكتب اليه الملك كتابا يقول له فيه «ان مدينة سنار محروسة بالخيول الرومية. وفيها شبان يحبون القتال بكرة وعشية. فلا تغتر بانتصارك على الشايقية. بل تيقن اننا نحن الملوك وهم الرعية.» وما وصل الكتاب الي الامير اسماعيل حتي زحف بخيله ورجله عليه فالتقي الجيشان فى وسط غابة «ابى سقرة» ولا سلاح لدى السودانيين غير الحراب والسيوف فاصلتهم العساكر المصرية ناراً حامية فانهزموا وتأثر الامير اسماعيل بمن معه المنهزمين حتى دخلوا مدينة سنار فقصد الامير دار الملك فالفاه جالساً فى إيوانه فدخل عليه فوقف خاضعا بين يديه وصافحه وأسامه سيفه علامة على الطاعة والخضوع وأجلسه على فراشه وجلس على الارض كواحد من الناس وكان يلتفت الى من حوله من اتباعه ويقول لهم «هكذا أراد الله فلاراد لقضائه» وبعد هنيهة قام اليه الامير اسماعيل وادناه منه واجلسه بقربه وحفظ له حرمته ولم يسلبه شيأ غير الامر والنهى وحذا حذو الامير فى اكرام هذا البيت كل الذين تولوا الحكم على السودان

فتح كردفان

وبعد استيلاء المصريين على سنار أنفذ الامير اسماعيل صهره الدفتردار بجيش لفتح كردفان ودار فور وكان فيها قائد من قبل سلطان دارفور يدعي (المقدوم مسلّم) فجمع لقتال المصريين سبعين ألف مقاتل من أهل دارفور فتلقاهم الدفتردار ومن معه بنيران حامية فانهزموا وهم وجلون من فرقعة المدافع واكثرهم يظنون أن الله أرسل الرعد والصواعق تحاربهم مع المصريين وأخذوا يكررون الآية (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) واستولى الدفتردار على كوردفان وأخذ في الاهبة للزحف على دارفور ففاجأه نبأ مقتل الامير اسماعيل فى (شندي) فعدل عن متابعة الزحف وقصد شندي محل الواقعة وكان ذلك فى أواسط سنة ١٢٣٧ هجرية

مقتل الامير اسماعيل باشا

بعد اتمام فتح مدينة سنار واعلان ضمها لاملاك الخديوية المصرية عاد الامير الى شندي ليجمع المال لنفقة اتمام فتح السودان الغربي فنزل ضيفاً عند زعيم شندي (الملك نمر)

وهنا أبسط للقاريء حقيقة أرى من الواجب عليّ تقريرها فان الاقوال تباينت في ايضاح السبب الذي من أجله قتل الملك نمر الامير اسماعيل باشا. فروي بعضهم ان الامير رأي امرأة هى أخت هذا الزعيم فسأله عنها فقال انها احدي جواريّ فقال له ممازحاً أطلب منك مائة مثلها فلم يحمل الزعيم هذا القول على المزاح بل ظن ان الامير انما يود التطاول لهتك عرضه فأضمر له الشر وفعل مكيدته التى تراها فى هذا المقام

على ان هذه الرواية لا تخلو من انتقاد لان المطلع على اخلاق وعوائد اعيان السودان يرى انهم من الرفيع الي الوضيع لا يأنفون من تقديم الجوارى لاى ضيف ولو وضيعاً فضلاً عن حاكم ذى مقام سام كالامير اسماعيل باشا وبذلك يمكنني ان اؤكد فساد هذه الرواية وبعدها عن الحقيقة بعداً شاسعاً. وهنالك رواية أخرى اوردها هنا لانني اعتقد قربها من الحقيقة ان لم تكن هي الحقيقة عينها على ان السبب الذي أدى الى هذا الاختلاف هو أن الامير وسائر الذين كانوا يرافقونه ذهبوا ضحية تلك المكيدة ولم يفلت منهم أحد ولا ريب ان كل رواية عن هذا السبب يرجع اسنادها الى قاتليه ولا ريب أيضا انهم لا يقولون الا ما يبرر فعلتهم ويختلقون اسباباً تمحو عنهم عاراً ارتكبوه بقتل الامير فى ضيافتهم وليس معه غير نحو عشرين مملوكا من الجراكسة خدامه الخصوصيين

أما الرواية التى أشرت الي أنها القريبة من الحقيقة فهى ان (الملك نمر) عرض على الامير اسماعيل باشا اموالاً طائلة وسأله أن يبعد عنه (الملك بشير بن عقيد) الذي تقدم لنا ذكر وفوده الى مصر ومرافقته الامير فيها وقد ذكرنا ان الاسباب التى أدت الى فراره هي احنة بينه وبين الملك نمر وانه سعى به الى الملك الذى ارسل فى طلبه ففر من وجه طالبيه. وفى رواية وان يمكنه من قتله فغضب الامير عليه وانتهره فصمم على اغتيال الامير والغدر به قبل ان تأتي رجاله لانه كان يخشي ان يلحقه مكروه من الامير بعد ذلك فجمع قدراً كبيراً من البوص حول الغرفة التى ينزل فيها الامير وفى منتصف الليل أضرم النار فمات الامير من الاختناق بالدخان وفى غداة النهار أخرجت جثته وليس بها أثر من النار وجردت من ملابسها وأخذ النسوة يهينونها بالضرب والبصق والسحب على الارض وفي آخر النهار

أخذها رجل من التجار وكان الفساد قد دب فيها فطلاها بالصبر وخبأها فى بيته وبعد اسبوعين جاءت الاخبار بقرب وصول الدفتردار وأخذ الملك نمر فى الاهبة للفرار من وجه الدفتردار الذي قتل من عشيرة الملك نمر مايربو على عشرين ألف رجل وسبا من الصبيان والنساء مايزيد على هذا العدد وأرسلهم الى القاهرة ولا تزال ذراريهم موجودة بجهة (حوش الجاموس) وفى كثير من البيوتات القديمة . وتأثر الدفتردار الملك نمر وقتل من رجاله خلقاً كثيرا وانتهي الامر بالتجاء الملك نمر الى بلاد الحبشة وبقى فيها حتي مات حقيراً ذليلا

وهبت ثورة من حزب ضد الملك يعرف باسم (الشفاتيه) فقتل عمر ابن الملك نمر واستأمن بقية أولاده الحكومة فأمنتهم وأذنت لهم بالاقامة فى جهة الصوفي عند نهر (أتبره) ويقال ان تصدى حزب الشفاتيه لقتل ابن الملك نمر واضطرار أولاده لمفارقة الحبشة والسكنى فى بلاد الحكومة كان بدسيسة من حكام السودان ليرتاحوا من مفاسدهم لانهم كانوا يوالون الغارة على بلاد الحكومة وينهبون ويسلبون ويعثون في الارض الفساد وبموتهم انقطعت هذه المفاسد واستتب الامن وعادت السكينة وانقطعت القلاقل

شخوص محمد علي باشا الي السودان

وعلى أثر المذابح التى أتاها جنود الدفتردار في شندى تمكن الرعب والفزع من قلوب السودانيين وعول كثير منهم على الهجرة ومغادرة البلاد التى وقعت تحت سلطة المصريين فشخص المغفور له محمد على باشا الى السودان ليتدارك الحالة قبل اتساع الخرق وتعذر رتقه فسافر على طريق النيل فوصل

الى الخرطوم وتعداها الى ماوراء سنار وعاد بقناطير مقنطرة من التبر وتمكن بحكمته من اعادة الامن الى ربوع السودان وبدل ماخالج أفئدة السكان من الرعب بالامن والاخلاد الى السكينة اه

ولاة السودان

في اوائل سنة ١٢٣٨ هجرية اسندت حكمدارية السودان الي المرحوم عثمان بك فعمل لتسكين خواطر الاهلين واجتهد فى تأمينهم واعانهم على حراثة أراضيهم ليتسنى لهم الخلاص من مخالب القحط الذى كان فاشيا في السودان عامئذ وشرع في تعمير مدينة الخرطوم وجعلها عاصمة السودان المصرى وكان مركز الحكومة منذ الفتح فى مدينة (ولد مدني) التي تبعد عن الخرطوم مسيرة أربعة أيام على ضفة النيل الازرق وهي ذات هواء جيد بالرغم عن كثرة نزول الامطار بها ولا تزال تلك المدينة موطناً لكثير من المصريين

وفى سنة ١٢٣٩ خلف (موحو بك) عثمان بك فى الحكمدارية ولا بد ان يلاحظ القارئ ان مدة عثمان لم تطل اكثر من سنة مع العلم بأن مدة الذهاب والاياب بين مصر والخرطوم تستغرق نصف سنة على الاقل فتكون مدة الاقامة ومباشرة الاعمال هو النصف الباقى فنقول له ان أولئك الولاة كانوا على الدوام طامحين للاستقلال بالسودان وساكن الجنان محمد على باشا كان كثير الحذر منهم ولذلك كان يبادر بعزل كل من ارتاب في نواياه وقليل منهم من لم تكن نواياه غريبة وقد وجه موحو بك همته الى اتمام عمارة الخرطوم فشاد فيها القشلاقات لاقامة الجنود وأسس بناء دور الحكومة وغرس الاشجار الظليلة فى السبل

تستظل بها السابلة وحفر الآبار في الطرقات المعطشة ليستقي منها ابناء السبيل ولا تزال هذه الآثار باقية ومنسوبة الى (موحو بك) رحمه الله وجزاه الجزاء الحسن

وخلفه خورشيد باشا سنة ١٢٤١ هجرية وكان ذادين وورع واستقامة شيد المساجد وأحسن الى العلماء وكان يخرج فى كل ليلة متنكرا يتفقد حال الجنود والرعية وفى ذات يوم خرج على عادته آخر الليل فعثر على أمة تصنع رقاقاً من خمير الذرة يسميه السودانيون (القرف) فدخل عليها وسألها عن هذا النوع فاخبرته فطلب منها شيأ منه فجهزته له مع اللبن فأكله واستلذه فما زالت تعرض عليه وهو يأكل حتى رأي انه كاد يستنفد ماعندها فامتنع وهم بالانصراف بعد أن سألها عن مولاها وكان ذلك فى شهر رمضان فاستدعاه من الغد ليستسمحه من طعامه فاظهر له مزيد السرور والفرح من هذه الضيافة التى لم يكن يتوقعها وبقى خورشيد باشا حاكما على السودان مدة اثنتى عشرة سنة أي الي سنة ١٢٥٣ حيث خلفه المرحوم أحمد باشا ابو ودان فافتتح السودان الشرقى وطارد عصائب اللصوصية من قبائل (البارية) وأسس مدينة (كسلا) وحصنها وكان مشهورا بالشدة على المفسدين وأهل السودان يطلقون عليه اسم (المنصور) وفى أيامه انقطع دابر الفتن والقلاقل وأنشئت سبع مديريات في السودان

وفى أواخر سنة ١٢٥٧ هجرية عزل أحمد باشا ابو ودان وخلفه احمد باشا المنيكلي فسار علي سيرة سلفه الا انه اعتنى بتأسيس أطيان تكون ملكا للحكومة يزرع فيها قصب السكر فنجحت ولكنها اهملت ممن خلفوه وحاول انفاذ كثير من المشروعات الزراعية ومنها زراعة النيلة لكن من الاسف أن أعماله قوبلت بعدم الاكتراث ممن خلفه

لمزاولة صناعة المراكب كي يتحصل منها على مال يتزوج به ابنة عم له تدعى فاطمة بنت حاج فامتنع أولا ثم رضخ بعد الالحاح وذهب الى مدينة الخرطوم واقترن بها وفي ليلة دخوله اجتمع النسوة والرجال ليرقصوا مختلطين كعادة السوادانيين فقام بينهم ومنعهم من الرقص وابان حرمته فانصرفوا غضابا منه وكان فى كل معاملاته يظهر الورع والتقوى والزهد والتقشف وعلى أثر اقترانه بابنة عمه انقطع عن العمل فكان أخواه يحرضانه عليه ويستعينان عليه بزوجته التي كانت تهجره ليقبل نصحها ويسير طوع ارادتها فلم يكترث بشيء من أقوالها ولم يتأثر من هجرها واخيرا جاءته في يوم من الايام وهو يقرأ في المصحف الشريف فأمسكته منه وألقته في الارض فاستشاط غيظا وطلقها فى الحال وخرج من منزلها وافتتح مكتبا لتعليم الغلمان القرآن الشريف ثم أبطل المكتب ولحق بجزيرة (آبا) في البحر الابيض علي مسيرة عشر مراحل من الخرطوم جهة الجنوب وكان بها رجل من قبيلته يدعى أحمد شرفي فتزوج ابنته وكان يقوم بكل ضرورياته من حرفته التي هي صناعة المراكب الشراعية أيضا وكان أستاذه الشيخ محمد شريف نازلا بمكان يدعى (المرابيع) لا يبعد عن هذه الجزيرة الا بضعة أميال

وفي أوائل سنة ١٢٩٥ وقع نفور عظيم بينه وبين أستاذه بسبب انه كان يري منه الميل الى دعوي المهدوية وكثيراً ما كان هو يحرضه على دعواها فأصدر الاستاذ منشوراً الى اتباعه يبلغهم فيه انه عزل محمد احمد المتمهدى من الخلافة وأبعده عن طريقته وذكر فيه عيوبه وطموحه الي الدعاوي الكاذبة توصلا الى الملك والرئاسة فكبر الامر علي محمد احمد وكاد مريدوه ينفضون من حوله لولا أنه ذهب الي رجل مسن يدعى الشيخ القرشى من تلاميذ الشيخ احمد

بقصد اخضاعها فلم يفلح فى أكثر غزواته وأخيراً رمى بأنه طامح للاستقلال وبقي الى سنة ١٢٨٠ حيث توفي بالخرطوم ودفن بها ويقال ان بعض الموظفين دسوا له السم لما آنسوا منه الرغبة فى الاستقلال وهو أول من وضع الضرائب علي الاهلين وقسم الخراج الى قسمين. قسم على العقارات. وقسم على الاشخاص اما ضرائب العقارات فكانت مخصوصة بالبلاد الواقعة شمال الخرطوم. واما ضرائب الاشخاص فهي مخصوصة بسائر البلاد السودانية لانهم صالحوه على ذلك وفرض ضريبة سنوية على القبائل الرحالة وتعين بدله عثمان بك جركس

وفى سنة ١٢٨١ عزل وخلفه جعفر باشا صادق وفي ايامه ثار اللواء الرابع من الجنود السودانية بمدينة (كسلا) وقتلوا ضباطهم ونهبوا المدينة وقتلوا كل ابيض واحتلوا مواقع المدينة من الحصون المحيطة بها واستفحل امرهم فانفذ المغفور له الخديو اسماعيل باشا المرحوم جعفر مظهر باشا ومعه آدم باشا السودانى فتمكنا من قهر العصاة والقبض عليهم واستئصال شأفتهم واصدر الخديو دستورا بمنع تأليف قوة من الاسلحة الراكبة من السودانيين وان لا يعلمو فن اطلاق المدافع (الطوبجية) وان لا يحتلوا مواقع منيعة وأن لا يرقى منهم ضباط عظام. وبعد معاقبة الثوار عاد جعفر مظهر باشا الى الخرطوم واسند اليه منصب الحكمدارية فرفع كثيرا من المظالم وسعي فى نشر العلوم بين الشعب ورفع منزلة العلماء واجرى عليهم المرتبات ولا غرو فالفضل يعرفه من الناس ذووه اذ كان عالمًا تقيًا ورعًا فارق الخرطوم وعليه دين يربو على الالف جنيه لان راتبه لم يقم بحاجاته لكثرة انفاقه على الفقراء والمعوزين ومن كرمه الحاتمي أنه كان يدعو لتناول الطعام على مائدته الفاخرة اكثر من مائة شخص جلهم من العلماء فى كل غداء وعشاء ولا يزال

السودانيون يذكرون له هذه المبرات ويتبركون بسيرته في اكثر الاوقات وهم مجمعون على ان ايام ولايته كانت غرة في جبهة السودان رحمة الله عليه . وخلفه ممتاز باشا فى سنة ١٢٨٨ فارتكب من المظالم شيئاً لم يسبقه اليه احد حيث أحل الظلم لنفسه وحرمه على من دونه وأوعز الى الاهلين أن يطالبوا الحكام والمأمورين بالرشاوى التي تناولوها منهم منذ ضم السودان لمصر ومن امتنع من أولئك الحكام أوقع به البلاء وضربه أكثر من خمسمائة جلدة ولم يمض سوى أيام قليلة حتي اجتمع عنده من المال شيء كثير ثم سافر الي سنار فعاد منها بما يقرب من خمسمائة ألف ريال وفي آخر الامر ظهر سوء عمله فسجن حتي توفى ولم يحسن في شيء مدة توليته غير تعليم الاهلين زراعة القطن

وفى مستهل سنة ١٢٩٠ خلفه في وظيفته اسماعيل أيوب باشا فتضاعفت المظالم وتوالت المصائب على السودان وبالرغم عن حنكته فى الادارة كان ذا شغف شديد بجمع المال فزادت الضرائب فى عهده حتى أصبح من المتعذر احتمالها ومن هاته المظالم تمكن في نفوس الاهلين الجنوح الى الثورة والعصيان

وخلف غردون باشا اسماعيل أيوب باشا وقد تقدم لنا ذكره فسعي في إزالة المظالم فلم يفلح لانه كان بسبب جهله باللغة العربية منقاداً الي كاتب أسراره التهامي بك وكان ظالماً يفوق اسماعيل أيوب باشا بمراحل فكان يقلب الحقائق لغردون باشا ويحسن القبائح وزاد الطين بلة ماجاء به غردون من تحرير الارقاء ومنع الاتجار بهم فان الاهلين عجزوا عن تحمل هذه المصيبة وباتوا آيسين من اصلاح معيشتهم لاسباب كثيرة . منها ان الاتجار بالارقاء معين ثروة كبيرة لهم . ومنها ان أهالي السودان لم يتعودوا فلاحة أراضيهم بأيديهم كما ان نساءهم لايخدمن خدما بيتية بأيديهن فكانت مفاجأتهم بأمر تحرير

الارقاء سيئة المغبة وكان مما لاريب فيه استياؤم من هذا الامر وخصوصاً ان القائمين بتحرير الارقاء كانوا أوروبيين ولشدة كراهتهم لهذا الامر حملوه على سوء القصد وظنوه اضطهادا من المسيحيين للمسلمين وقد سمعت واحداً من المشايخ كان يفهم من حوله أن مسألة تحرير الارقاء لم يكن لها أصل من القوانين بل هى اضطهاد دينى كالذى حل بمسلمي الاندلس فقصدت مراجعته في هذا القول فصمت وتظاهر بعدم المعرفة ولما انصرفت عنه قال لمن حوله وهذا كافر أيضاً

وفى مدة حكم اسماعيل أيوب باشا اختلت النظامات التى كانت تسير عليها المجالس التي تأسست في سنة ١٢٦٦ وتلاعب بها حيث جعل كل أعضائها من رجال السودان الجهلاء الذين لايعرفون غير تجارة الصمغ والمنسوجات وعهدت الرئاسة الى رجال لا يفقهون كلمة من الكلمات التي تتركب منها جمل القانون وفى اكثر الاوقات يكونون أميين والقضايا لا يفصل فيها مع طول المدة فيظل الخصمان يتناظران بالرشوة حيث يحرص المجلس ويشدد على الخصم في الاستنطاق فيحذو حذو خصمه ويقدم المال فينقلب التشديد علي الآخر وهكذا حتى يملّ الانفاق فيتصالحان

وأما الحكام الاداريون فان أغلبهم من أهل البلاد وهم علة كل خراب وأصل جميع المظالم فقد كانوا يشترون الوظائف بالاموال ولذلك لايرون بدا من اعتياض ماأنفقوه أضعافا مضاعفة ولا ريب ان من فوقهم من الحكام لايصغون لشكوي من أوائك الظالمين ماداموا قد تناولوا رشوة باهظة منهم

وساءت تصرفات المأمورين الى حد أن المطالب باداء الضريبة يجوز

ضربه خمسمائة جلدة أو يؤدي ولو بضعة قروش ويتفننون في طرق التعذيب حتى ابتدعوا مسألة (القط) حيث يوثق الرجل كتافا ويدخل قط في سراويله فضلا عن تطاول أولئك الظلمة على أعراض الناس فيقبضون على كل امرأة حسناء عجز وليها عن اداء الضريبة ولهذه الاسباب امتلأت قلوب السودانيين بالضغينة وباتوا ولا هم لهم غير تدبير ثورة يتهيأ لهم بها الخلاص من هذا النير فاغتنم محمد أحمد المتمهدي هذه الفرصة وادعى المهدوية فقوبل بالتصديق والرضى من كل انسان حتى ان بعض المشايخ قال له أعاهدك سواء صدقت في دعواك أو كذبت مادمت على عداء الحكومة وحربها

ترجمة المتمهدي

ولد محمد احمد المتمهدى فى جزيرة (الخناق) الواقعة جنوب مدينة (العرضى) قاعدة اقليم دنقلة من أبوين دنقلاويين (بربريين) من قبيلة تدعي الخناقية تسكن هذه الجزيرة وكان أبوه يدعى عبد الله بن فحل وصناعته النجارة ينشىء السفن الشراعية ويصنع آلات السواقى وكان مولده فى سنة ١٢٥٠ هجرية وله أخوان يدعيان محمدا وحامدا كانا نجارين كابيهما وأخت انثى تدعي آمنة واسم أمه (جاره) وفي هذه السنة أجدبت بلادهم بسبب انخفاض النيل فهاجر أبوه واخوته وهو رضيع لم يبلغ عمره ثلاثة شهور واستوطنوا قرية تدعي (كررى) شمال أم درمان نحو خمسة عشر ميلا ولم يحل عليه الحول حتى مات أبواه وتركاه يتيما تحت كفالة اخويه اللذين ذكرناهما. ولما بلغ السابعة من عمره كانا يصطحبانه معهما ليعلماه صناعة المراكب ففي يوم رأي غلمانا ذاهبين الى الكتاتيب وبايديهم الالواح فرغب فى ان يكون منهم فعنفه اخواه وحسنا له صناعة

تستظل بها السابلة وحفر الآبار في الطرقات المعطشة ليستقي منها ابناء السبيل ولا تزال هذه الآثار باقية ومنسوبة الى (موحو بك) رحمه الله وجزاه الجزاء الحسن

وخلفه خورشيد باشا سنة ١٢٤١ هجرية وكان ذادين وورع واستقامة شيد المساجد وأحسن الى العلماء وكان يخرج فى كل ليلة متنكرا يتفقد حال الجنود والرعية وفى ذات يوم خرج على عادته آخر الليل فعثر على أمة تصنع رقاقاً من خمير الذرة يسميه السودانيون (القرف) فدخل عليها وسألها عن هذا النوع فاخبرته فطلب منها شيأ منه فجهزته له مع اللبن فأكله واستلذه فما زالت تعرض عليه وهو ياكل حتى رأي انه كاديستنفد ماعندها فامتنع وهم بالانصراف بعد أن سألها عن مولاها وكان ذلك فى شهر رمضان فاستدعاه من الغد ليستسمحه من طعامه فاظهر له مزيد السرور والفرح من هذه الضيافة التى لم يكن يتوقعها وبقى خورشيد باشا حاكما على السودان مدة اثنتى عشرة سنة أي الي سنة ١٢٥٣ حيث خلفه المرحوم أحمد باشا ابو ودان فافتتح السودان الشرقى وطارد عصائب اللصوصية من قبائل (البارية) وأسس مدينة (كسلا) وحصنها وكان مشهورا بالشدة على المفسدين وأهل السودان يطلقون عليه اسم (المنصور) وفى أيامه انقطع دابر الفتن والقلاقل وأنشئت سبع مديريات في السودان

وفى أواخر سنة ١٢٥٧ هجرية عزل أحمد باشا ابو ودان وخلفه احمد باشا المنيكلي فسار علي سيرة سلفه الا انه اعتنى بتأسيس أطيان تكون ملكا للحكومة يزرع فيها قصب السكر فنجحت ولكنها اهملت ممن خلفوه وحاول انفاذ كثير من المشروعات الزراعية ومنها زراعة النيلة لكن من الاسف أن أعماله قوبلت بعدم الاكتراث ممن خلفه

لمزاولة صناعة المراكب كي يتحصل منها على مال يتزوج به ابنة عم له تدعى فاطمة بنت حاج فامتنع أولا ثم رضخ بعد الالحاح وذهب الى مدينة الخرطوم واقترن بها وفي ليلة دخوله اجتمع النسوة والرجال ليرقصوا مختلطين كعادة السوادانيين فقام بينهم ومنعهم من الرقص وابان حرمته فانصرفوا غضابا منه وكان في كل معاملاته يظهر الورع والتقوى والزهد والتقشف وعلى أثر اقترانه بابنة عمه انقطع عن العمل فكان أخواه يحرضانه عليه ويستعينان عليه بزوجته التي كانت تهجره ليقبل نصحها ويسير طوع ارادتها فلم يكترث بشيء من أقوالها ولم يتأثر من هجرها واخيرا جاءته في يوم من الايام وهو يقرأ في المصحف الشريف فأمسكته منه وألقته في الارض فاستشاط غيظا وطلقها في الحال وخرج من منزلها وافتتح مكتبا لتعليم الغلمان القرآن الشريف ثم أبطل المكتب ولحق بجزيرة (آبا) في البحر الابيض علي مسيرة عشر مراحل من الخرطوم جهة الجنوب وكان بها رجل من قبيلته يدعى أحمد شرفي فتزوج ابنته وكان يقوم بكل ضرورياته من حرفته التي هي صناعة المراكب الشراعية أيضا وكان أستاذه الشيخ محمد شريف نازلا بمكان يدعى (المرابيع) لا يبعد عن هذه الجزيرة الا بضعة أميال

وفي أوائل سنة ١٢٩٥ وقع نفور عظيم بينه وبين أستاذه بسبب انه كان يري منه الميل الى دعوي المهدوية وكثيراً ما كان هو يحرضه على دعواها فأصدر الاستاذ منشوراً الى اتباعه يبلغهم فيه انه عزل محمد احمد المتمهدى من الخلافة وأبعده عن طريقته وذكر فيه عيوبه وطموحه الي الدعاوي الكاذبة توصلا الى الملك والرئاسة فكبر الامر علي محمد احمد وكاد مريدوه ينفضون من حوله لولا أنه ذهب الي رجل مسن يدعى الشيخ القرشى من تلاميذ الشيخ احمد

الطيب جد الشيخ محمد شريف فأدخله في سلك الطريقة وجدد له اجازة الخلافة وكان الشيخ القرشي هذا بالغاً من العمر نحو تسعين عاما فاقدا للقوي المميزة ويؤكدون انه ذو يد مع المهدى في تدبير الدعوى وانه مهد له انتحالها بما أخذ يتكلم به عنه من الشهادات الحسنة وانه يعلم ذلك بطريق الكشف والاطلاع على الغيب وأشار عليه بالسياحة في انحاء السودان لاستطلاع أفكار الناس وأخذ العهود عليهم بنصرته وموازرته اذا صدع بدعوته ففعل ووجد من قلوب سكان كوردفان المملوءة بكراهة الحكومة ماقوى أمله بالنجاح

حادثة الغلام بكوردفان

ثم عاد المتمهدى من الحلاوين محل اقامة أستاذه الجديد الشيخ القرشي الى محلته بجزيرة آبا والحلاوين اسم لقرى عديدة على ضفة النيل الازرق على بعد ست مراحل من الخرطوم جهة الجنوب وسكان هاته القري يطلق عليهم اسم (الحلاوين) وهم عرب تناسلو من قبيلة عربية تسكن في جنوب سنار تدعى (جهينة) وسناتي علي ذكر شيء من أخلاق وعادات هذه القبيلة بعد اذهي من أكبر أنصار المتمهدى ومنها داعيته محمد بن البصير ولنعد الى ذكر المتمهدى بعد عودته الى جزيرة آبا فانه شخص الى اقليم كوردفان فصادف نجاحاً عظيما من الاهالى الذين عاهدوه على موازرته ونصرته ثم عرج على الابيض عاصمة كوردفان فنزل ضيفا علي أحد المشايخ الدناقلة

وفى ذات يوم سمع ضوضاء الطبول والموسيقات بمنزل بجوار منزله ورأى من الناس الدهشة والاستغراب فسأل عن الاسباب فقيل له ان فلانا النخاس يريد ان يتزوج بغلام اسمه (قرفه) فلم يصدق واخيراً دعي اثنين من

أتباعه وذهبو الى محل البدعة فوجدوا المدعوين والموائد ممدودة والموسيقي تصدح والدفوف السودانية (الدلوكه) تعزف وجئ بشخص يلبس عمامة وطيلسانا كالعلماء فاجري صيغة العقد ودخل النخاس بالغلام فامسك المتمهدى سيفه وهم بضرب عنق النخاس وكل من قابله من أولئك الفسقة الضالين فامسكه صاحباه وحملاه الى منزله فاجتمع معه جماعة من المشايخ وذهبوا الى محل الحكومة يشكون اليها أمر هذه المنكرات فقوبلوا بالاهانة والازدراء وقال لهم مامور الضبطية (الدنيا حرية) فجاءت هذه الحادثة من الاشياء التي يتمسك بها المهدى على فساد وكفر رجال الحكومة فعاهده كثير من أعيان ووجوه المدينة بالطاعة لاول اشارة تبدو منه وقفل راجعاً الي جزيرة (آبا) وبالبحث واجراء التحقيق من رجال الحكومة تحقق ان المسألة العوبة لم يكن لها أثر من الحقيقة

وفاة الشيخ القرشي وتشييد قبة علي ضريحه

تقدم لنا القول بان الشيخ القرشي من الذين ساعدوا المهدي على دعواه بما نطق به من الشهادات المسندة الي الكشف والاطلاع على المغيبات في حقه وانه هو الذي اشار عليه بالسياحة في البلاد ولدى عودته الى جزيرة آبا وافاه نعي هذا الشيخ وانه ترك وصية قال فيها «ان زمن ظهور المهدى المنتظر قد حان وان الذى يشيد على ضريحي قبة ويختتن أولادى هو الامام المهدى المنتظر» فلما سمع المتمهدى ذلك طار فرحا وجمع نحو ثلثمائة رجل من أتباعه وذهب معهم الى الحلاوين وشيد القبة من اللبن الاخضر وختن أنجال الشيخ القرشى بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها

ذكر اجتماع عبد الله التعايشي بالمتمهدي

لا نورد في هذه السطور شيئاً من ترجمته وذلك لنأتي بها عند افضاء الخلافة اليه وانما نذكر هنا طرفا من اجتماعه به نقلا عن الاستاذ الشيخ محمد شريف نور الدايم قال «في سنة ١٢٩٥ جاءني رجل من البقارة يروم سلوك الطريقة السمانية على يدى فلقنته أورادها ومكث ملازما لخدمتى واخبرني انه جاء مع والده من بلاد (السكاكة) جنوب مقاطعات دار فور قاصدين الاقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج وانهما فقيران لا يملكان غير عجل من البقر ذللاه بزمام وامتطياه على مألوف عادة أهالي تلك البلاد ولما وصلا الى بلاد الجمع من تخوم كوردفان الشرقية مات أبوه ولحق به العجل فأقام بمنزلي نحو عامين فكان اكثر كلامه معي قوله انك المهدى المنتظر من ارتاب في ذلك فقد كفر فكنت انهاه عن هذا القول ولا ينتهى وفى ذات يوم قلت له انا لست مهديا وأبغض شيء الى سماع هذه الكلمة التي لا يسير بها غير تلميذى الذي طردته محمد أحمد وقلت له على سبيل السخرية والازدراء اذا كنت ممن يتوقعون ظهور المهدية فعليك به وفى اليوم التالي سألت عنه فلم أجده وأخيراً علمت أنه لحق بمحمد أحمد المتمهدي وهو في الحلاوين يشيد قبة الشيخ القرشي وانه حينما وقعت عينه عليه خر على الارض مدعيا انه أغمى عليه وبعد حين رفع رأسه فسأله الحاضرون عن سبب اغمائه فقال نظرت أنوار المهدية على وجهه فصعقت من شدة تأثيرها على حواسي ومن ثم صاحبه وعاد معه الى جزيرة آبا وكان الدنقليون أقارب المتمهدى يضطهدونه ويزدرونه وهو يقابلهم بالحلم والصبر حتى أفضت اليه الخلافة فانتقم منهم شر

انتقام» هذه قصة اجتماع عبد الله التعايشي بمحمد احمد المتمهدي ومنها يعلم أنه ذو دهاء وحيل ومكر وخداع وسنأتي على ترجمته وبقية أعماله في غير هذا المكان

دعوة المتمهدي سرا

وبعد عودة المتمهدي من الحلاوين أخذ يدعو الناس للمهدية سراً وبايعه على الطاعة خلق كثير من قبائل الاعراب النازلين حول جزيرة آبا منهم قبيلتا دقيم وكنانة وكان سبب اقبال هاتين القبيلتين على دعوته هو الخليفة (على بن حلو) الذي لقبه بخليفة الفاروق وكان دقيمياً صاحب محمد احمد المتمهدي وكان يستخلفه على محلته بجزيرة آبا كلما سافر الى مكان وكان في أول عهده يعلم الصبية القرآن الشريف

وقبيلتا دقيم وكنانة يقال لهم (البقارة) وهذا الاسم يطلق على كل قبيلة ماشيتها من البقر ورجالهم معروفون بالشجاعة وقوة الباس وعاداتهم تقرب من عادات قبائل كوردفان حيث لا تتزوج البكر قبل ان يكون لها أولاد من الزنا يعينون أخاها وكل ولد من هذا القبيل يدعى (عينة خاله) ونساؤهم مشهورات بالتربص في السبل وقطع الطرق على المارة لا لاخذ المال بل للفسق ومن امتنع من الرجال أمسكوه من مذاكيره حتى تفيض روحه أو يقع مغشياً عليه وقد أبطلت المهدية هذه العادة منهن فذهبت كأن لم تكن

وعاهده كثير من موظفي الحكومة السودانيين على موافاته بالاخبار واجتمع حوله زهاء ثلاثة آلاف رجل من الاعراب وعمال الحكومة لاهون

عنه وانبرى لتكذيبه أناس من نفس اتباعه ومريديه فأخذوا يبلغون مأمور المركز حقيقته فيردهم عنه لانه سوداني من قبائل الاعراب التي دخلت في دعوته وأخيراً رفع أولئك المبلغون العرائض الى الحكمدار محمد رؤف باشا الذى أحال النظر فيها على (الطيب بك) مدير فشوده فسافر من مقر وظيفته على باخرة حتى بلغ جزيرة (آبا) فامسك المتمهدي وزجه في السجن فقام اتباعه وقدموا للمدير رشوة مائة أردب من القمح وسفينة شراعية تحمل هذه الرشوة فاطلقه وهدد الذين أبلغوا الحكمدار وتوعدهم بكل مكروه اذا عادوا لمعارضته. وقال المهدي للمدير في غضون التحقيق ان الخضر عليه السلام هو الذي بشرني بالمهدية فقال المدير للمبلغين اتركوا صاحب الخضر وقفل راجعاً الى فشوده والمدير هذا هو الذي ذكرنا انه عين مديراً في أحد أقاليم خط الاستواء بدل المرحوم محمد رؤف بك (باشا)

ظهور دعوة المهدي

قلنا انه كان يدعو الناس سراً الي أوائل سنة ١٢٩٨ ثم كان من أمره مع مدير فشوده ماقوي عزيمته فأرسل الي جميع الذين عاهدوه بالطاعة منشوراً ختمه بخاتم نقش فيه محمد احمد عبد الله قال في طالعته بعد البسملة والحمدلة

«جاءني النبي صلي الله عليه وسلم في اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والاقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدى صلى الله عليه وسلم وأجلسني على كرسيه وقال لي أنت المهدي المنتظر ومن شك في مهديتك فقد كفر وان الترك كفار وهم أشد الناس كفرا لانهم ساعون في اطفاء نور الله ويأبي الله الا أن يتم نوره ولوكره الكافرون وأخبرني صلي الله عليه وسلم

بأن النصر يسير بين يديّ أربعين ميلا وانه صلى الله عليه وسلم يحضر بذاته الكريمة امام جيشي ومعه الخلفاء الراشدون وأن الله تعالى أيدني بالاولياء والشهداء والصالحين من لدن آدم عليه السلام الى زماننا هذا ومؤمني الجن يجاهدون معي ولا يهزم لي جيش وان الله ناصري ومؤيدي على كل من حاربني من الثقلين وان أصحابي كأصحابه صلى الله عليه وسلم وعامتهم اكبر مقاما في دار الخلد من الشيخ (عبد القادر الجيلي) وختم منشوره بالحض على الهجرة اليه ومغادرة الخرطوم للحاق به والجهاد معه وأرسل نسخا عديدة من هذا المنشور الي أناس في الخرطوم منهم الشيخ الامين الضرير رئيس العلماء بالسودان فاطلع عليها الحكمدار محمد رؤف باشا الذي انتدب (أبا السعود بك العقاد) أحد معاونيه وأصحبه جماعة من الدنقليين سكان الخرطوم وأنفذهم رسلا اليه يدعونه الي الطاعة ويحذرونه الفتنة ويبلغونه أوامر الحكمدار بدعوته الى الحضور عنده فذهبوا على الباخرة (الفاشر) فلما وصلوا الي جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان المهدى يتعبد في سرداب في الارض فامتنع من مقابلتهم أولا ثم اذن لهم بلقائه فدخلوا عليه والسيوف مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فاجابهم بما أوردناه من منشوره فقال له أبو السعود بك ان الحكمدار يدعوك الى الحضور عنده فقال لا أذهب فقال له يا سيدي أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فقبض على سيف كان على فخذه الايسر وكشر أنيابه وقال أنا ولي الامر الآن على سائر الانس والجان فاستأذن الرسل وهمّ الناس بضربهم لولا ان شدد عليهم في الكف عنهم وقفلوا راجعين الى الخرطوم

واقعة جزيرة آبا

ولما عاد الرسل الى الخرطوم وقصوا على الحكمدار نتيجة مأموريتهم صمم على ارسال قوة عسكرية تقبض عليه فانتدب بلوكين من المشاة المنظمين معهم مدفع من الطراز الجبلي وعين ضابطين من رتبة الصاغقول اغاسي (ابراهيم افندي علي وعلى افندي عزمي) وسير معهما أبا السعود بك العقاد وقال لكل واحد منهم انت قائد الحملة فسافروا على باخرتين في أوائل شهر رمضان سنة ١٢٩٧ فوصلوا الى جزيرة آبا قبيل غروب الشمس

هذا ما فعلته الحكومة أما المهدى فان اكثر الناس تفرقوا عنه ولم يبق معه غير نحو أربعمائة رجل جلهم من الدنقليين أقاربه على أثر عودة الرسل عنه لانهم أيقنوا بان الحكومة لا بد ان تخضعه بالقوة

ولما القت الباخرتان مراسيهما بالجزيرة هبط الجنود الى الشاطئ وأخذوا فى الاهبة والاستعداد للزحف على محلة المهدى وكان السير متعذراً عليهم بسبب الاوحال المجتمعة من الامطار اذ كان الفصل صيفاً فبدأ الضابطان فى العمل هذا يأمر الجنود والآخر ينكر عليه هذا الامر ويقول له أنا الرئيس وأنت المرؤس فيحتدم غيظاً ويجاوب زميله بالشتم ويقول لا بل انا الرئيس فتحاكما الى أبي السعود بك معاون الحكمدار فكان حكمه أنه الرئيس على كليهما فازداد الاشكال عقدةً ومكثوا على هذه الحال الي ما بعد نصف الليل فداهمهم المهدى بمن معه من المقاتلة ففتك بهم ولم يفلت منهم غير بضعة اشخاص منهم أبو السعود بك وقتل الضابطان وغنم المهدى اسلحتهم وذخيرتهم وترامت الاخبار في انحاء السودان بغلو كثير فيها واعتقد البسطاء انها من الاعاجيب السماوية

بل من الكرامات التي خص بها ٠ وعاد أبو السعود بك بالباخرتين ووقع الرعب في قلوب السكان وأيقن الكل ان أولئك الجنود الابرياء ذهبت أرواحهم ضحية سوء تصرف الحكمدار وقلة رويته وهجر الخرطوم عدد كبير من السودانيين ولحقوا بالضواحي

حملة علي بك لطفي

ولما وصل أبو السعود بك الي الخرطوم كان نبأ الفتك بالبلوكين قدسبقه اليها بالتلغراف فأرسل الحكمدار الى العلماء والاعيان وقص عليهم ماذكرناه من أمر المهدي فأشار عليه الشيخ شاكر الرئيس مفتي الاستئناف بان يتوجه بنفسه علي البواخر الى جزيرة آبا ولا يكل أمر هذه الفتنة لغيره فزجره الحكمدار وأغلظ عليه القول.ويروي عن بعض الحاضرين انه قال له أتريد أن تترمل امرأتي ويفقدني أولادي ثم ان الحكمدار عين القائمقام علي بك لطفي الشهير (بابي كوكه) ومعه بلوكان من المشاة ومدافع وسواريخ ليخفر جزيرة آبا ويمنع وصول الامداد اليها من ضفتي النيل.وقد يندهش الانسان من هذه الاعمال الخرقاء وتدركه الحيرة من عمل الحكمدار هذا . اذ كيف يعقل أن باخرتين تقومان بحراسة جزيرة يزيد طولها عن خمسة عشر ميلا وما هي الفائدة من هذا الحصر . وأغرب من هذا وذاك أن المتمهدي قام بين أتباعه وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يصنع من (الطرور) أو (العمبج) وهو نوع يشبه الفلين لخفته وطفيانه على الماء شبه مراكب يجتاز بها النيل الى الضفة الغربية وان الله سيأخذ على ناصية الترك الكفار فلا يستطيعون ايصال الاذي الينا حتى نبلغ مأمننا من الشاطئ الغربي ومن هناك

نتوجه الي دار هجرتنا بجبال (ماسة وقدير) وهي دار هجرة الانبياء كلهم الي نبينا محمد صلوات الله عليه وعليهم فطير القائمقام على بك لطفى رسالة برقية الى الحكمدار يخبره بما عزم عليه وسأله أن يأذن له بتدمير سفنهم بالقنابل وسط لجة النهر فكان جواب الحكمدار له (اياك أن تعترضهم وقد خابرت محمد سيد باشا مدير كردفان وأمرته بالحملة عليهم براً. وبين كوردفان والمكان الذى يهبط اليه المهدي من الضفة الغربية مسيرة أكثر من عشر مراحل فاجتاز المهدي النهر والجنود تنظره ولا تستطيع ايصال السوء اليه فجاءت هذه المسألة كرامة ثانية له ولكنها نتيجة عمل الحكمدار ويعتقد كثير من الناس بسبب هذه الحادثة ان الحكمدار مصدق بمهدية محمد أحمد. أما نحن فلا نصدق ذلك بل نجزم بصحة ماقاله عن نفسه من عدم القدرة على ادارة بلاد واسعة كالسودان كما أثبتناه فى مبحث توليته على السودان

ولما هبط المهدى الى الشاطىء التف حوله كثير من رجالة دقيم وكنانة وقدموا له الاقوات وبايعوه على الطاعة والجهاد في سبيل الله وهذا نص البيعة « بايعنا الله ورسوله وبايعناك علي طاعة الله وأن لانسرق ولا نزنى ولا ناتى ببهتان نفتريه ولا نعصيك فى امر بمعروف ونهى عن منكر بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله » ويبلغ عدد الذين رافقوه نحو عشرة آلاف مقاتل سلاحهم السيوف والرماح وجلهم فرسان. أما محمد سعيد باشا مدير كوردفان فانه سار بقوة كبيرة ولم يقابل المهدى ولم يقف له على أثر وذلك لان الجهة التي كان بها المهدى واقعة فى الجنوب الشرقي من الابيض قاعدة كوردفان وتبعد عنها بعشر مراحل ووجهة سير المهدى كانت الى الجنوب الغربى فادراكه اذاً من المستحيلات وغاية الامر ان مدير كوردفان انضم الى

على بك لطفي واتحدا ودخلا جزيرة آبا وقبضا على أناس أبرياء لم يكن لهم علاقة مع المهدي ونكلا بهم شر تنكيل وقفلا راجعين هـذا الي الخرطوم وذاك الى كوردفان وسار الرجل الى قدير وتوغل فى وسط الجبال

ذكر جبل ماسة وقدير

يوجد في الشمال الغربي من فشوده جبل لا يزيد ارتفاعه عن علو جبل المقطم وشكله كزاوية مستديرة مع فرجة من جهة الشرق وفى داخل الدائرة بركة يجتمع فيها ماء المطر يسمي هذا الجبل بجبل (القدير) ثم حذفت اداة التعريف فصار جبل قدير. ولم يكن اسم (ماسة) معروفا لهذا الجبل قبل ظهور دعوة المهـدية وانما اتفق ان المرحوم الشـيخ حسن العدوى من أشهر علماء المالـكية بالازهر الشريف ذكر فى كتابه مشارق الانوار « ان المهـدي المنتظر سـتكون هجرته الى جبال ماسة » فادعي المهدى ان ماسة اسم لجبل قدير مع ان كل السـكان ينكرون هذا اذ لم يعرف به قبل هذا الوقت وبالنسبة لمـا للشيخ حسن العدوى من الشهرة فى بلاد السودان راجت حيلة المهدى عنـد كثير من من البسـطاء وعدوها من الآيات الدالة على صـدق دعواه

ويحيط بجبل قـدير جبال كثيرة سكانهـا من السـود يطلق عليهم اسم (النوبة) وبلادهم خصبة وفيها الماشية من البقر والغنم بكثرة والخنازير وهي أحب مايؤكل اليهم والخنزير الواحد يعدل ثلاثة من البقر وفى هذه البلاد النحل بكثرة والعسل يكاد يضارع الماء كثرة ويسكن في سفوح هاتيك الجبال قبائل من الاعراب حلفاء للنوبة وبينهم صلات المصاهرة واعراق القرابة وبعض الاعراب استوطنوا الجبال وتشبهوا بالنوبة فى كل اخلاقهم واطوارهم

وقوبل المهدي في مسيره الى جبل قدير بمقاومات كثيرة أكثرها من النوبة.والاعراب، تذبذبوا بين النوبة والمهدى وانتهي الامر بفوزه على جميع الذين ناهضوه ولما وصل الي جبل قدير أظهر السكان تخوفهم من بقائه بين ظهرانيهم وحاربوه فظهر عليهم ونزل بجيشه داخل دائرة الجبل واقام حرسا من أتباعة على الفرجة الشرقية وأخذ يدعو السكان للاسلام لانهم لادين لهم والاعراب يزعمون انهم مسلمون وأكثرهم لايعرف الشهادتين فضلا عن غيرهما

ذكر جبال تقلي

فى الشمال الغربى من جبل قدير جبال تبلغ المائة متدانية من بعضها يطلق عليها اسم جبال تقلي وسكانها عنصر يعرف بهذا الاسم متناسلون من قبائل العرب والنوبة ولغة اكثرهم العربية وكلهم يخضعون لملك يدعونه (الملك) وبلادهم خصبة وفيها معادن التبر وقد حاولت الحكومة اخضاعهم فلم تفلح وفى الايام الاخيرة استمالت ملكهم (ناصر) فسافر الى مصر ليقدم خضوعه للمغفور له اسماعيل باشا خديو مصر فاجتمع قومه وملكوا عليهم ابن اخيه وحالوا بينه وبين العودة الي بلاده فاقطعته الحكومة أرضا بجهة (ممتوق) من أعمال الخرطوم فبقي بها حتى أدركه الموت وبقيت هذه المملكة مرتجة الابواب فى وجه الحكومة فحاول المهدى ايقاعها فى قبضته بحيلة دعوته فلم يفلح حيث تصدى لتكذيبه واظهار افترائه على الله ورسوله علماؤها سيما القاضى وحصل اجتماع بين المهدي والملك فسأله الدخول في دعوته فاعتذر من ذلك عملا بنصائح العلماء وسيأتي أن المهدي قتل هذا القاضى وظفر التعايشي بهذه

المملكة وخربها ثم لمت شعثها وعادت كما كانت

حملة راشد ايمن بك علي المهدي

كانت الحكومة عزلت الطيب مدير فشوده الذى ذكرنا قصة اطلاقه المهدى وخلفه فى وظيفته المرحوم راشد أيمن بك وكان ذلك قبل واقعة (آبا) ببضعة شهور

فلما وصل المهدى الى جبل قدير الذي يبعد عن فشوده بنحو ثمان مراحل جهة الغرب والطريق اليه كثيرة الوعر والغابات قام راشد من تلقاء نفسه وسار بحملة الى جبل قدير ومعه (كيكوم بك) زعيم قبائل (الشلك) فنهض اليه المهدى وفتك بجنوده وكانوا يزيدون عن ثلاث فصائل (بلوكات) وغنم اسلحتهم وذخيرتهم وجاءت هذه المسألة ضغثا على إبالة حيث زادت فى قوة المهدي فاصبح لديه من الاسلحة النارية ما يزيد عن الف بندقية من طراز رامنجتون وقتل راشد بك المدير وكيكوم بك زعيم قبائل الشلك

ذكر من لحق بالمهدي من مشايخ كوردفان

قلنا ان المهدي لقي من سكان إقليم كوردفان لما زارهم ما قوي عزيمته على ادعاء المهدوية وقد أخذ عليهم العهود والمواثيق بنصرته والقيام بدعوته وقت الحاجة. ولما شخص الي (قدير) وترامت أخبار انتصاراته على جنود الحكومة فى جزيرة آبا وعلى الذين اعترضوا سيره من سكان الجبال قبل أن يصل جبال قدير ثم كان من أمره الانتصار على حملة راشد بك مدير فشوده رفع أهالي اقليم كوردفان رؤسهم للفتنة وهرع ألوف منهم الى قدير ليبايعوا المهدى

ووفد اليه كل من الشيخ(نواى)زعيم قبيلة الحوازمة التي تسكن بين دارفور وكوردفان وماشية هذه القبيلة من البقر ولذا يطلق عليها اسم(البقارة)وهي كسائر قبائل السودان الغربى في القوة والشجاعة والميل الى الهياج والحروب ووفد عليه (اسماعيل بن الامين دلندوك) زعيم قبيلة (القديات) التي هى كالحوازمة فى الاخلاق والعادات ومع كل واحد منهما مائتا فارس من قومه وبايعاه على الطاعة وقال له الشيخ نواى أبايعك على المهدية وان لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها

واقعة جبل الجرادة

جبل الجرادة واقع في الشمال الشرقى من جبل قدير ويبعد عنه بنحو ١٥ ميلا وسكانه خليط من اعراب ونوبيين كانوا قد امتنعوا من مقابلة المهدي والدخول فى دعوته لما احتل جبل قدير وقد أظهروا عداءهم له وتحفزوا للوثبة عليه فعاجلهم بعد انهزام راشد بك وزحف عليهم وأصلاهم حربا دارت دائرتها عليهم وأباح أموالهم غنيمة لانصاره ثم صفح عنهم ورد اليهم أموالهم بعد ماأذعنوا له بالطاعة وانتظموا فى سلك اتباعه . ثم تابع غزواته في سكان الجبال وكثرت عنده الاقوات

تعيين عبد القادر باشا حلمي حاكماً للسودان

وفي ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ فصل محمد رؤف باشا من الحكمدارية وخلفه عبد القادر باشا حلمي حيث جعلت له وظيفة لم تكن معروفة قبل وهي اعتبار حاكم السودان كاحد نظار الحكومة الخديوية ويدعى ناظر

وحكمدار عموم السودان

وبعد عشرين ليلة مضت غادر محمد رؤف باشا الخرطوم قاصداً مصر وناب عنه في ادارة شؤن الحكمدارية وكيلها ججلر باشا الالماني

حملة يوسف باشا حسن الشلالي

تقدم لي القول اني كنت بمصر لما أرسلت الحكومة حملة الي المهدي تحت قيادة يوسف باشا حسن الشلالي حيث عرفتها حقيقته وأنه رجل نوتي جاهل بالفنون العسكرية لجهله بالكتابة والقراءة فلم تلتفت لنصحي بناء على الشهادات الحسنة التي شهدها له وكيل الحكمدارية ججلر باشا وانه تعهد للحكومة بالقبض على المهدي فجردت الحكومة ستة آلاف جندي تحت قيادته منهم نحو الثلث من الجنود النظامية وضابط برتبة قائمقام واثنان برتبة بكباشي واثنان من مشاهير السناجق قواد للجنود غير النظامية (الباشبوزق) فشخص من الخرطوم في منتصف جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هجرية على عدة بواخر قاصداً فشوده ومنها الى جبل قدير فلحقه فى الطريق عبد الله ابن دفع الله ومعه نحو الف مقاتل من متطوعى كوردفان وانضم اليه وتابعوا سيرهم حتى فشوده ومن هناك ارسل القائد العام بكتاب الى المهدي يدعوه فيه الى الطاعة ويحذره مغبة العصيان وعرض فى خطابه بشيء كثير من الشتائم التى لا تليق فرد عليه المهدي بكتاب مشهور ننقله هنا ليطلع القارئ عليه اتماما للفائدة وهو بنصه

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المنتقم القهار . والصلاة على سيدنا محمد وآله الاخيار مع السلام. وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن السيد

عبد الله الي يوسف حسن الشلالى ومن معه من الجموع وصل الينا كتابك وصار معلوما لدينا وقوفكم على الانذار. ومجاهرتكم بالانكار. وكان قصدنا أن نضرب عن افادتكم صفحا . ونطوي دون اجابتكم كشحا . ولكن أردنا أن نبين لكم غلطكم فيما ادعيتموه بالبراهين السواطع. أما قولك إن إرسال الطلائع ينافى دعوي المهدية لان علم الغيب ضرورى لها فنقول لك هذا جهل منك بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام فانه كان يرسل الطلائع كحذيفة اليماني وبلال والزبير بن العوام فلم يكن ذلك منافيا لرسالته صلى الله عليه وسلم فكيف يكون منافيا لمهديتنا . وقلتم انا قتلنا جملة من المتوطنين بهذا المكان ظلما وعدوانا فهذا كذب صريح لانالم تقتل الا أهل جبل الجرادة بعد أن كذبونا وحاربونا وقد أخبرنى النبي صلى الله عليه وسلم بان كل من شك فى مهديتي كافر ودمه مهدور وماله واولاده غنيمة للمسلمين ولما انقاد من بقى منهم لحكمنا رددنا عليهم أموالهم من أيدى اصحابنا مع انها حلال لهم. وقلتم انا قتلنا العساكر غدرا في الوقعتين (آبا وراشد بك) وهو قول باطل لاننا مابدأناهم بالقتال بل هم الذين بدؤنا بالقتال ولما اجتمعت أرواحهم في الدار الآخرة شكونى الى الله عز وجل وقالوا ياربنا إن المهدي قتلنا بغير انذار فقلت ياربي أنذرتهم فلم يسمعوا لي واتبعوا ساداتهم وعلماءهم وشهد علي صحة قولى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال ان المهدى أنذركم فلم تسمعوا له واتبعتم سادتكم وعلماءكم فاضلوكم السبيل وأمر بهم فسيقوا الى جهنم. وقلتم ان هؤلاء العساكر ما أرسلتهم الحكومة لحربنا بل ليقفوا على ماعندنا من الادلة وهو باطل ايضاً لان الحكومة لوكانت تقصد ذلك لما أرسلت العساكر الاغبياء وأعطتهم السلاح النارى بل كانت أرسلت العلماء وأهل الدراية بهذا الشان

وقولكم قوموا وتجهوا الى مكة المكرمة محل المهدية فنقول لكم اعلموا ان توجهنا اليها يكون بامر النبي صلي الله عليه وسلم فى الوقت الذي يختاره الله فانى عبد مأمور وقد أجلسني صلي الله عليه وسلم على كرسيه وقال لى أنت المهدي المنتظر ومن شك فيك فقد كفر وقال لى ان الترك كفار وهم أشد الناس كفراً لانهم ساعون في اطفاء نور الله ويابى الله الا ان يتم نوره ولوكره الكافرون

وقلتم اطلبوا من الله اظهار كرامه تدل على مهديتكم فاعلموا اننا لا نطلب ذلك لقوله تعالى «ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر» ومع ذلك قد اظهر الله كرامة لمهديتنا حيث وجد اسمنا منقوشا على ورق الاشجار وبيض الدجاج ونحن لانطلب من الله اظهار كرامة لمهديتنا بل نقف معه عند حد عبوديتنا فان أظهر لنا كرامات كانت بمشيئته ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالي ونجهلها

وقلتم مااتبعنا غير الجهلاء وأراذل البقارة فاعلم ان أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانو كذلك وقد قال تعالى حاكياً عن قوم نوح « وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا » الآية ولا بد ان يجعلك الله ومن معك غنيمة للبقارة

وقلت لا تغتر باسماعيل الامين ونواى فاعلم انى منصور على كل من ناوانى من أهل الثقلين وقد أخبرني النبي صلى الله عليه وسلم بانه يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى وان عزائيل ملك الموت عليه السلام يحمل راية سوداء أمام جيشي

وقلتم إنكم امسكتم أربعة رجال من طليعتنا وأرهقتموهم تعذيباً فاعلم أنهم مأجورون على ذلك ولا بد ان يوقعكم الله بايدينا وتذوقوا العذاب بما صددتم عن سبيل الله

وقلتم ان افندينا ولى النعم أمركم بعدم محاربتنا حتي نتعدي الحدود وهذا قول لا يفوه به غير ضعفاء العقول لاننا تعدينا حدودكم وخالفنا مقصودكم من يوم قتلنا عساكركم بآبا وبعد هذا ليس بيننا وبينكم خطاب غير الحرب والطعان والسيف والسنان والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردي ولعنة الله على من كذب وتولي اه

هذا ما كتبه المهدى الى يوسف باشا وقد وقفنا عليه فى المجلد الاول من مجموعة منشورات المهدى التى طبعت بالخرطوم بعد سقوطها فى قبضة المهدي ولم نقف على صورة الكتاب الذى بعثه له يوسف باشا

وزحف يوسف باشا بحملته من فشوده فى العشر الاخيرة من شهر جمادي الآخرة وانضم اليه جنود من حامية فشوده واحصي المهدي من معه من المقاتلة فكانوا اثني عشر الف مقاتل وزحف بهم للقاء يوسف باشا فى الطريق وبات المهدي عند سفح جبل الجرادة والحملة تبعد عنه بمسافة عشرة أميال فلما أصبح كتب منشوراً وزعه بين اتباعه يقول فيه

ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبرني بان جميع أصحابي الذين باتوا بسفح جبل الجرادة باتت أرواحهم في الجنة ومن دخل الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى (وماهم منها بمخرجين)

وفى اليوم التالى زحف على الحملة وكانت قد أحست بزحفه عليها فتحصنت داخل زريبة من الشوك وبدأ الهجوم عليها من جهة الجنود النظامية فتقهقر بخسارة عظيمة وقتل أخوه حامد وجماعة من مشاهير رجاله الذين ساعدوه على دعواه ومنهم الشيخ آدم بن الاعيسر وأصله من بلاد (فلاتة) بالسودان الغربى وكان صهر المهدي على ابنته زينب وانهزم الدراويش راجعين

الى الجرادة ووقع بقلوبهم رعب شديد فاخذ أحمد بن سليمان أمين بيت المال بلجام دابة المهدي وحوّله راجعاً الي الجرادة فوجم المهدى لشدة ما أصابه من الذهول حتي أدركه الخليفة محمد شريف الذي لقبه بخليفة الكرار وسأل احمد ابن سليمان الى أين تذهب بالمهدى فقال الى الجرادة لنحشد جيشا آخر نعود به الى الحرب فصفعه وأمسك بلجام الدابة وقال للمهدى نذهب ياسيدى لنموت وأخذ يكررها ويقول نذهب لنموت والذين كانوا حوله يقولون انه كان فى ذهول صيره لايعي شيأ

ولما اتى محمد شريف ماأتاه انتبه المهدى كانه أفاق من سبات وأدرك انه اذا رجع الى الجرادة مهزوماً وثب عليه سكان الجبال سيما أهل الجرادة نفسها واغتنموا فرصة ضعفه وقضوا عليه وعلي دعوته القضاء الاخير فوطن نفسه على اقتحام المربع ليموت أو ينتصر فتراجع عليه المنهزمون وزحف امامهم تحت نار حامية حتى دنوا من الزريبة فنزل عن راحلته واستقبل القبلة وصلى ركعتين وما كاد يفرغ من الصلاة حتى رأي انصاره اقتحموا المربع وولجوا في الزريبة وقتل صاحب رايته أبو هداية وكان دنقليا من أقاربه وقتل القائد يوسف باشا موليا وكان أراد الفرار بشخصه من جهة الشرق راجعاً الي فشوده فلم يتم له وبعد ذلك دخل المهدي الزريبة وأمر برؤس يوسف باشا ومشاهير القواد فنصبت حول الزريبة وأقام ثلاثة أيام مشتغلا بجمع الغنائم ثم عاد الى محاته بجبل قدير ونجا نحو مائة جندى ولحقوا بفشوده فاخبروا بما شاهدوه وقد استنتجنا من أقوالهم ان جهل القائد بالفنون العسكرية كان السبب القوي فى هلاك الحملة

علي أن يوسف باشا المذكور كان قبل هذه الحملة مديراً لسنار فاحدث فيها من المظالم شيئا لم يسبقه اليه احد وذلك انه قبض على سكان قريتين وباعهم واولادهم ارقاء فعزله رؤف باشا وابقاه فى الخرطوم ريثما تتم التحقيقات ويساق الي المحاكمة وبعد عزل رؤف باشا عهد اليه ججلر باشا وكيل الحكمدارية قيادة هذه الحملة التعيسة

ذكر ترتيب جيش المهدي بعد ذلك

ولما ظفر المهدي بحملة يوسف باشا رتب جيشه على ثلاث فرق فالفرقة الاولى مؤلفة من قبائل السودان الغربى ورايتها سوداء وقائدها الخليفة عبد الله التعايشى . والفرقة الثانية رايتها خضراء وقائدها الخليفة على بن محمد حلو وهى مؤلفة من القبائل التي تسكن ضفتي النيل الابيض والقبائل التي تسكن الجبال التي حول جبل قدير والفرقة الثالثة من قبائل السودان الاوسط.أي أقاليم الخرطوم وبربر ودنقله وسنار وجعل قيادتها الى ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد الذي لقبه بخليفة الكرار ولقب التعايشي بخليفة الصديق والخليفة على بخليفة الفاروق وجعل القيادة العامة لاخيه محمد عبد الله ولقبه بامير جيش المهدية وأسند القضاء بين الناس الى الشيخ احمد بن جباره أغا واصله ضابط فى الجيش المصرى القديم سوري الاصل له من الاولاد اكثر من سبعة ذكور لحق بالمهدي اكثرهم وصاروا من أمرائه وخواص دولته وسنأتي على شيء من سيرتهم بعد ولقبه بقاضى الاسلام وعقد له راية على ذوي قرابته ومواطنيه وجعلها تابعة لفرقة الخليفة محمد شريف وانتدب أحمد ابن سليمان أمينا لبيت المال وهو من قبيلة تدعى (المحس) بمديرية دنقله وبالغ

في مدحه حتي انه كتب اليه يقول ان انتدابه لهذه الامانة كان من الله ورسوله وان اسمه مكتوب تحت ساق العرش احمد بن سليمان أمين الله ورسوله ومهديه وكان مقربا لديه لوقوفه على دخائل اسراره وكان المهدى يمنع أهل بيته من الطبخ والخبز مبالغة فى الزهد ويمنع ان توقد في بيته نار لهذا الغرض وكان احمد بن سليمان يصنع له في منزله الاطعمة الفاخرة ويبعثها له فيأكل منها وكان بعض جهلة الاعراب يظنون ان المهدى يعيش بلا أكل وفى آخر الامر ظهر أمره مع أحمد بن سليمان ظهور الشمس فى رابعة النهار وكان يختار له النساء ويبعث بهن اليه وبالجملة فقد كان صاحب سره ومشيره في كل شيء وسيأتى ذكر قتله في أيام التعايشى وذكر ما افشاه من الاسرار المهمة

ذكر تحريم الدخان

أصدر المهدى وهو فى (قدير) منشوراً قال فيه بحرمة الدخان وتغالى فى تحريمه حتى قال اذا وقع رجل على أمه فى جوف الكعبة كان سخط الله عليه أخف من سخطه على مستعمل الدخان ووضع حداً لمن يستعمله ثمانين جلدة وحبس سبع ليال ولم نعلم لذلك من سبب دعاه الى هذه البدعة ووضع حد على شيء لم يعرف تحريمه قطعا من جهة الشريعة الغراء وقضى مرة على مدخن بمصادرة أمواله وأخري باسترقاقه وبيعه كما تباع الارقاء. وعقابه على شرب الخمر لا يختلف في شيء عن عقاب مستعملي الدخان. أما القاعدة التي سار عليها التعايشى بعده فهي مصادرة أموال وسبي ذراري السكيرين والمدخنين على السواء مع عقوبة الجلد

وأعلن المهدى ابطال تقليد الأئمة الاربعة وقال انه مجتهد وأخذ يكتب

المنشورات متضمنة كثيراً من أحكام العبادات والمعاملات وكان يسمى الزمن الذي قبله زمن الجاهلية أو الفترة

(ونقل) لنا بعض مشايخه انه كان مكبا على مطالعة كتاب إحياء علوم الدين تأليف حجة الاسلام الغزالي وقد أيد ذلك مطابقة بعض مشتملات منشوراته لما في هذا الكتاب. وكتب منشورا يحث فيه الامراء والقضاة على قطع يد السارق قال فيه مانصه (تقطع يد السارق وان لم يبلغ ماسرقه نصابا بل أقول لكم اقطعوا يده ولوكان ماسرقه أقل من بيضة دجاجة لابارك الله فى والٍ تركه ولا فى أمير استهان به)

ذكر من لحق بالمهدي من اعيان السودان الاوسط

ما كاد المهدى يصل الى جبل قدير حتى لحق به كثير من أعيان السودان الاوسط وبعد ان بايعوه على الطاعة وحرب الحكومة كتب لبعضهم بالولاية علي جهات من بلادهم وأمرهم باشهار الحرب وكان من هؤلاء المهدى ابن أبي رؤف زعيم قبيلة (جهينة) التى تسكن جنوب سنار وهى قبيلة كبيرة رحالة ماشيتها من الابل ورجالها معروفون بالجبن والكسل وغالب أفرادها ذوو قامات قصيرة كالاقزام ومن الامثال السائرة في السودان (ان كل عشرة من جهينة لا يصرعون رجلا واحداً) فكتب له المهدى عهدا بالامارة على قومه ومحاربة رجال الحكومة وطردهم من بلاده .

ومنهم أحمد بن المكاشفي أذن له بمبايعة الناس له ودعوتهم له وسيأتى الكلام على ترجمة احمد بن المكاشفى . ومنهم الشيخ مضوي المحسي وأصله من قرية (العيلفون) القريبة من الخرطوم وكان طالب علم بالازهر الشريف ثم عاد الى

السودان وهجر مسقط رأسه واستوطن فى قرية بجنوب سنار ثم لحق بالمهدي منها فكتب اليه عهداً أن يبايع له ويجمع سكان القرى حوالي الخرطوم على طاعة المهدي وحرب الحكومة. وغير هؤلاء كثير لم نذكرهم فراراً من التطويل وقد أصدرت الحكومة الاوامر بمصادرة أملاك كل الذين لحقوا بالمهدى من الاهالي ولكن الحكام أساؤا التصرف وجعلوا أوامر الحكومة وسيلة لملء جيوبهم بالاموال كما سنبينه فى حادثة سنار

واقعة عامر بن المكاشفي مع سنار

بالقرب من مدينة سنار قرية المكاشفى والد عامر هذا وأحمد الذى ذكرنا نبأ لحاقه بالمهدى ووالدهما المكاشفى كان شيخا معتقداً وأصله من قبيلة (الكواهلة) التى تسكن حوالى سنار وتعيش بالبان الماشية والزرع ورجالها مشهورون بالكرم والشجاعة وعددهم قليل كماشيتهم وفى أواخر شهر جمادى الاولي علمت المديرية بشخوص أحمد بن المكاشفى الى المهدي فارسلت مندوبا لمصادرة أمواله فلم يعثر له على مال فامسك أخاه عامراً واوسعه ضرباً واهانة ولم يطلق سراحه حتى افتدى منه بالف ريال هى كل ما يملكه من عقار وماشية فبلغ الخبر ناظر القسم محمود سعد الله فاحتدم غيظاً وقال كيف يدفع هذا القدر لمندوب المديرية وانا ناظر القسم فذهب الى القرية وقبض على عامر وبالغ فى ضربه وتعذيبه حتى اجتمع جماعة من مريديه ودفعوا له مائة وخمسين ريالا ووعدوه بمثلها بعد أسبوع ثم ان عامراً لما رأي ذهاب كل ما يملكه وانه أصبح فقيراً عزم على مهاجرة دياره واللحاق بالبادية لان له أصدقاء ومريدين فيها من اعراب جهينة فتصدق عليه أناس من أهل القرية

ببعض دواب يحمل عليها نساءه وأولاده نخرج من القرية وانتهي الخبر الى محمود سعد الله ناظر القسم فاقتفي أثره بنحو عشرين راكباً من عبيده فادركوه عند حى اعراب وأمسكوا نساءه وبناته والحقوا بهن العار على مرأى منه ومن سكان الحي وسلبوا ما معهن من الحلى وقطعوا آذانهن وهو موثق كتافا امامهن وسلبوه والنساء الملابس وتركوهم عراة كيوم ولدتهم امهاتهم وانصرفوا بالدواب وما عليها وكان عامر لا يفتر عن تلاوة الآية (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) وما بارح مكانه حتى تألب حوله نحو ألف مقاتل فادعى انه وزير المهدي ونسل اليه الناس من كل حدب وبايعوه على طاعة المهدي ومحاربة الحكومة وزحف فى اليوم التالي على مدينة سنار فى ستة آلاف مقاتل والتقى فى طريقه بمندوب المديرية الذي أخذ منه الالف ريال ومعه أحد الصناجق المدعو محمد أغا النمر تلب فقصد الايقاع بهما ففرا وأعلما المدير بأمره ولم يكن عالما بشيء من ذلك فارسل يعلم الحكمدارية على جناح البرق فورد عليه الخبر بارسال اثنين من أعيان سنار بكتاب له فانتدب محمد عبد القادر الفادنى متعهد طلبات أقوات الحامية ومعه آخر من أعيان سنار كان صديقاً حميما لعامر بن المكاشفي وسلمهما المدير كتاباً مملوءاً بالتهديد والوعيد واليك ماقالاه بعد عودتهما وأرسل الي الحكمدارية بالتلغراف

لم نبتعد عن منازل المدينة أكثر من ميل واحد حتى قبضت علينا طليعة العدو واوسعتنا ضربا وانزلتنا عن دوابنا ومزقت ملابسنا وساقتنا الي (الديم) أى المعسكر والسيوف مسلولة حولنا وأوقفنا بين يدي عامر بن المكاشفي فرايناه فى حالة جنون ولا يتكلم الا بالآية الشريفة «أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير» وسيفه موضوع على فخذه الايسر

فقبض عليه وقال لنا ماالذي جاء بكما فقلنا سمعنا بخبرك وجئنا بايعك فقال احسنتما ودنونا منه وبايعناه ولشدة ما اصابه من الذهول قال لصاحبي مااسمك مع أن المعرفة قديمة بينهما وكان منذ بضعة ايام ضيفا بمنزله وبعد هنيهة قلنا له ان المدير اعطانا كتابا لك فصاح باعلى صوته مزقوا كتاب الكافر فتناوله اتباعه من أيدينا ومزقوه وقال لنا فى الغد ادخل المديرية فرجوناه أن يكتب لنا أمانا ففعل وأمرنا بالانصراف الى منازلنا فانصرفنا اه وكانت المدينة خلوا من التحصين وليس بها سوى ثكنة يقيم بها نحو مائة جندي ومدفع من الطراز الجبلي وفي الغد خرج المدير للقائه خارج المدينة بمائة جندي فانقض عليهم بمن معه وقتلهم ووقف محمد اغا النمر تلب عند المدفع حتى قتل ونجا المدير ووكيله ولحقا بسفينة في البحر ودخل المدينة عامر بن المكاشفى وقصد دار محمود سعد الله فقتله وانتهب مافيها ودخل دار المديرية ووقف علي باب الخزانة وكان بها نحو مائتي ألف جنيه وقال اكسروا الاقفال فتقدم اليه رجل من أعيان مديرية المنيا كان منفياً هناك اسمه الشيخ مصطفى أبو اسماعيل وقال له انها صارت لك فلا تتلف الاقفال بل اجعل عليها حراساً فاستحسن قوله ووضع عليها حارساً مسلحاً بحربة طويلة وذهب الى سلاملك المديرية وبينما هو صاعد عليه فاجأته رصاصة لم يعرف المكان الذي جاءت منه فأصابت احشاءه ووقع مغشياً عليه فاحتمله أصحابه وعادوا به الي معسكرهم وتراجع المنهزمون وعاد المدير ورتب الاهالي بكيفية دافعوا بها عن أنفسهم اذحولوا رؤس المنازل الى متاريس والذي ساعدهم على الدفاع ان عامر بن المكاشفى كان يقول لقومه لاتحاربوا بالبنادق لانها سلاح الكفار ومكث العدو يهاجم المدينة ويضيق عليها الحصار ثمانية أيام حتى وصل اليها السر سواري صالح

الملك بمائة وخمسين جندياً فدخلها بعد حرب خسر فيها العدو نحو ألف نسمة وغادر ججلر باشا الخرطوم على باخرتين ومعه السر سوارى عثمان بك الدالي والملك يوسف لانقاذ سنار

واقعة الشريف احمد طه

بينما كان ججلر باشا سائراً مجدّاً لامداد سنار اذ سمع الصياح من الضفة الشرقية فألقت البواخر مراسيها ثم وجد عمال الحكومة فأخبروه برجل يدعى (الشريف احمد بن طه) جمع نحو خمسة آلاف مقاتل وعسكر بهم عند أبو حراز وهى منتصف الطريق بين الخرطوم وسنارفأرسل اليه السر سواري الملك يوسف بكتاب يدعوه فيه الى الطاعة فقتله وجنوده واتصل بججلر باشا ان الاهاين متحفزون لخلع طاعة الحكومة فمكث بأبو حراز وأرسل تلغرافا الى القضارف يطلب طابوراً من الجنود النظامية لان الجنود التى بالخرطوم قليلون جدا وبقاؤهم بها لحراسة المدينة ضرورى وأنفذ السر سواري عثمان بك الدالي الى نقطة (فداسى) ليمنع الناس من اللحاق بالعصاة وجاء الشيخ عوض الكريم أبو سن زعيم قبيلة الشكرية بنحو ألفين من قبيلته ومعه الشيخ محمد الفيل شيخ طريقة المركيين وحاصروا العصاة . ولما وصل الطابور الي أبو حراز كان عبد القادر باشا حلمي قد وصل الي بربر فابلغ الحادثة بالتلغراف فتوجه الي المحطة وأخذ فى الاستفهام عن مركز العدو فأخبر به فرسم كيفية الهجوم عليه ورتب القوة كأنه يقودها بشخصه وتقدمت نحو العدو الذي قابلها ببسالة شديدة فأوقعت به وقتل الشريف أحمد بن طه وحملت رأسه الي الخرطوم وتابع ججلر باشا مسيره الى سنار فوجد العدو قد

بعد عنها مسيرة مرحلتين فشرع فى تحصينها وخندق عليها وأرسل حملة على العدو فشتت شمله وعاد الى الخرطوم بعد ان ترك بها حامية تقوم بحراستها

ولما اتصل بالمهدى خبر قتل الشريف احمد بن طه استاء وكتب الى الشيخ عوض الكريم ابي سن والشيخ حمد النيل كتابا قال فيه (قتلتموه خذلة للدين ونصرة للكافرين فاعلموا أن ثأره بعد حين) وقبيلة الشكرية هذه قبيلة كبيرة رحالة تسكن شرق الخرطوم بين النيل الازرق ونهر اتبره وما شيتها من الابل وهي كقبيلة جهينة الا أن رجالها معروفون بالشجاعة وقد بقيت هذه القبيلة على ولاء الحكومة وسيأتى ذكر رؤساها الذين ماتوا في سجن التعايشى وما آل اليه أمرها من الاضمحلال والفناء.والشيخ حمد النيل من أسرة تدعى (العركيين) واجداده معتقدون فى السودان ومعروفون بالصلاح منذ ثلاثة قرون تقريبا وقد صادر المهديون ماله ومات حقيرا ذليلا فى اسرهم انتقاما منه حيث ساعد الحكومة فى قتل الشريف احمد بن طه

ذكر وصول عبد القادر باشا حلمي الخرطوم

قدم عبد القادر باشا حلمي الخرطوم وقلوب السكان مملوءة بالخوف لقلة الجنود في الخرطوم وخلو المدينة من كل تحصين ووجود كثير من عصابات الاشقياء حول المدينة متحفزين للوثبة عليها طمعا فى السلب والنهب وكان السكان يقضون الليل في حراسة انفسهم فوق أعالي المنازل حذرا من أن ياخذهم العدو على غرة كاخذه سنار

ولما وصل عبد القادر باشا الخرطوم قصد ظاهر المدينة فوجد الميرالاى حسن بك حلمي ومعه نحو خمسمائة جندى وثلاثة مدافع من الطراز الجبلي

وقد نصبوا لهم سرادقا وصفوا المدافع في رحبته وليس حولهم متاريس ولا شيء من معدات الدفاع فسأله ماذا تقصد بهذا العمل فقال الدفاع عن المدينة فضحك عبد القادر باشا وأمر بالسرادق فقوض ورتب عسسا لحراسة المدينة وأخذ فى جمع عدد من الارقاء وأنشأ ثلاثة طوابير منهم وكان يباشر تمرينهم على الحركات العسكرية بنفسه فى كل غدو ورواح واختبر كل الضباط الذين كانوا فى الخرطوم فلم يجد فيهم كفاءة ولا أهلية لما يشغلونه من الوظائف حتى أن ضباط الطوبجية كانوا لا يعرفون اطلاق المدافع الا اذا كانت من النوع الذى يطلق في أيام الاعياد والمواسم

وشرع في تحصين المدينة وخندق عليها ووضع على الابراج الحراس فذهب كل خوف من قلوب السكان وتوطدت السكينة وانتشر الامن حوالي الخرطوم

وكان فى حدود الحبشة نحو ستة طوابير من الجنود النظامية فاستدعاها للدفاع عن البلاد

ذكر تدبير مكيدة لقتل المهدي

لما وصل عبد القادر باشا الخرطوم كان المهدي قد تقوت شوكته فى جبل قدير فاتفق عبدالقادر باشا مع شخصين من أهالى كوردفان مشهورين بالشجاعة والمخاطرة فى سبيل احراز المال يدعي أحدهما (عبدالله بن ابراهيم) والآخر (أحمد بن الحسين) ودفع لهما ثلاثة آلاف ريال ووعدهما بثلاثين الف ريال مجيدي يقبضانها أو ورثتهما على ان يذهبا الى المهدى في جبل قدير ويقتلاه رمياً بالرصاص فاذا نجوا من شر الاعداء قبضا المال وان وقعا فى أيديهم قبض

المال ورثتها وقد كتب صك بينهما وبين محمد سعيد باشا مدير كوردفان بالنيابة عن عبد القادر باشا الحكمدار وكان ممن حضر هذا التدبير (الياس باشا أم برير) أحد تجار كردفان وكان هواه مع المهدى وذهب الرجلان مصرين على انفاذ هذا العزم فارسل الياس باشا راكباً سبقهما بكتاب الي المهدي أوقفه فيه على ما دبره عبد القادر باشا لاغتياله فاخذ حذره ولما بلغه قرب وصول الرجلين من معسكره قام بين أصحابه خطيباً وأخبرهم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بامر الرجلين وما اتفقا عليه مع الكفار وأمرهم بلقائهما وإخبارهما بان المهدى عالم بما جاءا به فلما فعلوا اندهش ذانك الرجلان ولم يداخلهما شك في ان الامر كما هو وان المهدى علمه من هذا الوجه واعتقدا صدق مهديته وألقيا ما بايديهم من السلاح وقصداه تائبين من ذنبهما وعاهداه على الاخلاص له وبايعاه بيعته المعلومة وصارا من خيرة انصاره واكابر قواد جيشه . والعامة تبالغ فى رواية هذه القصة وتزعم أن الرجلين اطلقا الرصاص على المهدى فلم يصبه وخضعا له عند رؤيتهما هذه المعجزة والحقيقة هي التي أوردناها وسيأتى ذكر قتل الياس باشا صبراً في سجن التعايشى

ذكر حوادث كوردفان

وفي غضون اشتغال الحكومة بامر الشريف أحمد بن طه وعامر بن المكاشفي قام بدعوة المهدي فى كوردفان رجل اسمه عبد العزيز بجهة (دار حمر) وكان المهدي أرسله بكتاب الى ابراهيم بن اسماعيل منعم شيخ قبيلة حمر وابنه اسماعيل

وقبيلة حمر هذه قبيلة كبيرة تسكن في المنطقة التي بين كوردفان ودارفور

وهى رحالة في أوقات معلومة من السنة وتنزل القري فى إبان الزرع واكثر بلادها لاماء فيها ويقضون حاجتهم من الطبخ والخبز بماء البطيخ وكل من عطش اكل منه وفى بعض الجهات يخزنون ماء المطر فى جوف أشجار عظيمة تسمي (التبلدى) وعوائدهم كعوائد من ذكرناهم قبل من قبائل كوردفان ويكثر فى هذه البلاد ريش النعام لان الاهلين يقتنونه بكثرة في منازلهم ولذا يكثر تردد التجار على بلادهم للحصول على هذا الصنف

ولنرجع الي ذكر عبد العزيز داعية المهدي فنقول. انه قوبل بالاجابة والتفت قبيلة حمر حوله وأول عمل أتاه انه هجم على البكباشي نظيم افندي مأمور تحصيل الاموال الاميرية بهذه الجهة على غرة وسلب كل مامعه من هذه الاموال وجرده من كل شيء حتى من ملابسه وقال له اشهد أن الله واحد وان المهدي المنتظر حق ففعل وكان في قلة من الجنود ولم يستطع الدفاع عن نفسه . وكان هذا الداعية جاهلا ابتدع من عندياته مسألة هذه الشهادة وكان يقول ان الشهادة لمحمد رسول الله قد ابطلت والغيت

ثم ان البكباشي نظيم جاءه اثنان من شيوخ حمر وحملاه الى بلدة ابو حراز التي تبعد عن الابيض عاصمة كوردفان بنحو أربعين ميلا وهناك جمع جنوده المتفرقة وتحصن بداخل زريبة من الشوك . وعاد عبد العزيز الى جبل قدير حيث استدعاه المهدي ليؤدي ما عنده من الاموال التي انتهبها من نظيم افندى . ثم عزله وخلفه عبد الله بن النور فغادر جبل قدير ومرّ على نقطة (فوجة) بين دار حمر ودارفور فقتل من فيها من الجنود وقتل عمال التلغراف وقطع الاسلاك ثم قصد أبو حراز وناهض البكباشى نظيم أفندي فلم يظفر به وتقهقر من وجهه حتى بلغ الابيض بعد عناء شديد ووقعت بلاد

حمر كلها في قبضة المهدوية

وتقدم عبد الله النور الى البلاد الواقعة شرق الابيض وقصد نقطة اسحف التي تبعد عن مركز (باره) بنحو خمسة عشر ميلا وكان بها الصنجق محمد أغا ياسين المشهور (بشبوا) ومعه النوربك عنقره من نخاسي بحر الغزال فداهمهما عبد الله النور ففر النوربك عنقره وترك امتعته ونساءه وتقهقر محمد أغا ياسين بمن معه حتي وصل الى نقطة باره وغنم عبد الله النور طبلاً حربياً كبيراً كان عند النور عنقره من أحد ملوك دارفور وقت فتح تلك البلاد وقد ظل هذا الطبل موجوداً عند المهديين حتى سقوط أم درمان . والتقي عبد الله النور ودراويشه بشرذمة من الجنود المصرية كان انفذها مدير كوردفان تحت قيادة نظيم افندي واشتبك معها بحرب اسفرت عن انتصار الجنود وهزيمة الدراويش وخسارتهم الفا وخمسمائة قتيل ثم رأي قائد الحملة ان لا فائدة من هذه الحرب ما دام الاهلون كلهم مع العدو محاربين الحكومة مظهرين عدم طاعتهم لها فصدر الامر لها بالعودة الى الابيض

واقعة البركة بكوردفان

اجتمع نحو مائة الف مقاتل من قبائل البديرية رئيسها عبد الصمد ابن أبي صفية ومن قبيلة حمر وغيرهم في جنوب مكان يدعى (البركة) وبينهم وبين الابيض مسافة خمسين ميلاً وجعلوا يوالون الغارة على اطراف المدينة وينهبون الماشية فارسل لهم محمد سعيد باشا مدير كوردفان حملة تحت قيادة البكباشي نظيم افندي مؤلفة من طابور من المشاة النظاميين وانضم اليها أربعة الوية من الجنود الباشبوزق والمتطوعين المعروفين باسم (كبابين)

أى شركات كما تقدم لنا ذكرها فى خط الاستواء وبحر الغزال وسارت الحملة فكمن لها العدو فى الطريق ليحولوا بينها وبين الماء وناوشوها القتال ثم هجموا على أحد جناحيها فولجوا منه واشتغلوا بالنهب والسلب وقبضوا على الذخيرة فتمكن القائد من اعادة النظام بين الجنود وساربهم غير ملتفت الى شيء حتى بلغ مكان الماء فحصنه واستراح هو وجنوده من وعثاء السفر وتجمع العصاة حوله فهاجمهم في الغلس وقتل منهم اكثر من ألفى مقاتل واسترد كل ما أخذوه منه لدى هجومهم عليه فى الطريق

وقتل من قواد الجنود غير النظاميين بشير أغا الازيرق وسيف النصر أغا قائد المغاربة ومن قواد المتطوعين واحدا وعادت الحملة الى الابيض

ذكر واقعة الطيارة

(الطيارة) مدينة تجارية واقعة على مسافة مائة ميل جنوب الابيض عاصمة كوردفان يقصدها التجار لابتياع الصمغ الذي هو من محصولات البلاد الواقعة بين الابيض والنيل الابيض وهى قاعدة مركز الطيارة وسكان هاته البلاد قبيلتا (الجمع والجوامعه) والاولي يطلق عليها اسم (بقاره) لان اكثر ماشيتها من هذا النوع والثانية تنزل القري وتشتغل بالزرع والضرع معاً وكلتاهما مشهورتان بالشجاعة والاقدام مثل سائر قبائل كوردفان وعاداتهم متشابهة ويكثرون من شرب المسكرات والفاحشة شائعة بين نسائهم حتي ان الرجل يبصر ابنته وأخته وسائر محارمه يباشرن الفاحشة بلا مبالاة ولا استحياء وانما العيب ان تزني المرأة بعد ان تتزوج ومن اكبر العار ان تتزوج قبل ان تلد اكثر من ثلاثة أولاد ذكور تدفعهم لاكبر اخوتها ليعينوه على

حراثة ارضه أو رعاية ماشيته وهؤلاء الاولاد يسمونهم (عينة خالهم) كما سبق ذلك ولا عيب فى ذلك كله عندهم وبعد ان تتزوج المرأة تحرص على الوفاء لزوجها وتعف عن الزنا. وقد أبطل المهديون هذه العادة وأقاموا الحدود الشرعية على مرتكبيها فبطل التظاهر بها وان ارتكبت خفية

ودخل هاتان القبيلتان فى دعوة المهدي وخلعتا طاعة الحكومة على يد رجل يدعي (المنه) كان يعلم الصبيان القرآن في احدى القري وكان متظاهراً بالصلاح على جهل كثير فكتب اليه المهدى يمده بالخلافة فاجتمع حوله من قبيلتي الجمع والجوامعة ما يربو على خمسين ألف مقاتل هجم بهم على مدينة الطيارة وكان بها نحو خمسمائة جندى تحت قيادة اليوزباشي محمد افندي شافعي ونحو عشرة آلاف من التجار فقتل العساكر كلهم ولم ينج من التجار الانحو عشرين نسمة وبقربطون نحو ألف امرأة حبلي وقتل الاطفال شر قتلة حيث كانوا يقذفونهم فى الجو ويتلقونهم بالرماح وأحرق بضائع التجار ولم يسلم محل تجارى فى كل انحاء السودان من خسارة بالغة فى واقعة الطيارة لانها المدينة الوحيدة التي يقصدها تجار الصمغ من كل مكان للحصول عليه . وكان من الذين نجوا من هذا الخطب رجل من (شنقيط) فسأله سائل عما شاهده فقال جاء فى الحديث الشريف ما اجتمع ثلاثة من أمتي الا وفي أحدهم الخير وقد رأيت عشرة آلاف من الجمع والجوامعة يجتمعون على قتل صبي وكلهم يحرض على قتله ولا يقولون الا شراً — كانهم ليس فيهم ثلاثة من أمة محمد — وكانت هذه الواقعة فى شهر رمضان سنة ١٢٩٩ وكانت المديرية ارسلت مائتي جندى من الباشبوزق وبلوكا من المشاة النظاميين ومعهم مدفع من الطراز الجبلي لتعزيز حامية الطيارة وبينما كانت هذه الحملة سائرة فى طريقها

اذ وثب عليها رحمة بن نوفل شيخ قبيلة الجوامعة فى الفين من قومه فثبت الجنود وانتشبت الحرب ثمان ساعات أسفرت عن هزيمة الجوامعة وانتصار المصريين وفقد العدو عدداً كبيراً من جيشه وأرسل الشيخ رحمه يستصرخ قومه فتألب منهم اكثر من خمسة آلاف وأحاطوا بموقع الحملة وفي الغد بدأوا بالهجوم عليها من الامام والخلف وساعدتهم وعورة المكان وكثرة الانخفاض والارتفاع فى أرض تلك الجهة فانقضوا على الجنود وذبحوهم عن بكرة أبيهم وغنموا كل ما معهم من الاسلحة والذخيرة وكانت هذه المذبحة بعد مذبحة الطيارة بليلتين ولم تقف المديرية على شيء مما أصاب الطيارة الا بعد هلاك الحملة حيث اتصل بها الخبران معا

ذكر زحف المهدي من جبل قدير الي الابيض

لما رسخت قدم المهدى في جبل قدير وتغلب على كل الذين ناهضوه اجتمع عليه خلق كثير من الاعراب سكان تلك الجبال وكان ما ذكرناه من أمر انتشار دعوته في اقليم كوردفان عدا الابيض عاصمة الاقليم وبعض المراكز التى تحتلها حاميات الحكومة وكان تجار كوردفان كلهم يكاتبونه ويستحثونه على القدوم اليهم وفى مقدمة أولئك التجار (الياس باشا أم برير) وكان شديد الكره للحكومة كثير الميل لجهة المهدى وقد ذكرنا انه اطلعه على خبر المكيدة التي دبرها عبد القادر حلمى باشا لاغتيال حياته

ولما ظفر المهدي بحملة يوسف باشا الشلالى جمع كل ما غنمه من الساعات والاشياء ذات القيمة وأرسلها الى الياس باشا فباعها وأرسلها ثمنها له . وانني أرى اتماما للفائدة اثبات ترجمة هذا الرجل فاقول هو من قبيلة الجمليين

التي تسكن اقليم بربر من احد أفخاذها المدعو (النفيعاب) سافر الى كوردفان في العهد القريب من فتحها فاثري من التجارة وكان له تداخل مع الحكام وميل منهم له بما يقدمه لهم من الرشا فاطلقوا يده حتي انه كان يقتل وينهب أموال الناس وفى الايام الاخيرة بذل مالا طائلا لاحد الحكام فعينه مديراً على اقليم كوردفان فارخي العنان لنفسه وأصاب من الاموال وارتكب من المظالم ما أوجب عزله قبل مضي شهرين على ولايته وقد شق عليه العزل فسعى مجداً ليعود الي المنصب فلم يفلح وفقد وراء هذا السعي جلّ ثروته ولما أدركه اليأس على نفسه بمساعدة المهدى عساه أن ينال منه ما لم ينله من الحكومة فخاب ظنه وانتقم الله منه بعبد الله التعايشي حيث قتله صبراً ونفى أولاده وقتلهم مثله (ومن أعان ظالماً سلط عليه)

وكان بين الياس باشا وبين احمد بك دفع الله من تجار كوردفان عداوة شديدة لانه يشاطره النفوذ وأحمد بك من قبيلة الجمليين أيضا وكان شديد الولاء للحكومة وسيأتي ذكر قتله مع مدير كوردفان وكان ذا شهامة وشجاعة رحمه الله يمحض الحكومة النصح ويحذرها من الياس باشا فكانت تقابل أقواله بعدم الاصغاء نظراً لما اشتهر بينهما من العداوة

ولما أحس عبد القادر باشا بنوايا المهدى عن كوردفان أخذ يطلب من الحكومة الامداد لحشد جيش جرار في كوردفان يستطيع مقاومة المهدى واخماد الثورة التي عمت البلاد وكانت الحكومة اذ ذاك واقعة فى الفتنة العرابية ومن جهة أخرى فى الازمة المالية المعروفة فى ذلك العهد فلم تجبه ولكنه مع ذلك لم يترك حيلة بل جند كثيرا من الصناجق الباشبوزق وسيرهم الي كوردفان وبعث بطابور من الجنود النظامية سيأتي خبر الفتك به في الطريق

قبل بلوغه الابيض واجتمع تجار كوردفان بايماز الياس ورفعوا عريضة الى عبد القادر باشا يسألونه عزل محمد سعيد باشا مدير كوردفان وتولية الياس باشا بدله وكان قصدهم من ذلك أن يسلم المديرية الى المهدى بغير مقاومة متي صار الآمر الناهي عليها فادرك عبد القادر باشا الحيلة واجاب طلبهم وعزل محمد سعيد باشا وولي بدله على بك شريف وكيل المديرية وبعد بضعة ايام اعاد محمد سعيد باشا لانه كان لايري فى على بك شريف كفاءة عسكرية لمقاومة تيار المهدى

ولما وطن المهدي عزمه علي الزحف ارسل دعاة كثيرين حوالى الخرطوم ليشغلوا عبد القادر باشا عن امداد كوردفان وقد أفلحت سياسته حيث اشتعلت نيران الحروب واضطر عبد القادر باشا الي العدول عن الاهتمام بامر كوردفان وانقطع ارسال المدد اليها وماتم له الانتصار على أولئك الدعاة الا بعد أن تم للمهدي الاستيلاء على عاصمة كوردفان والقضاء الاخير علي سلطة الحكومة فيها وسيأتي تفصيل ذلك على حدة

نعود الى المهدى فنقول انه ترك اثقاله ونساءه في جبل قديرو ووكل حراستهم الي عمه السيد محمود بن عبد القادر

على ان المهدي لم يكن واثقاً بالغلبة على كوردفان لقربها من الخرطوم وكانت عزيمته متجهة الى الزحف على دارفور واخضاعها حيث يتخطاها الي جهات السودان الغربى كممالك بورقو وبورنو وأبو ريشه وغيرها من تلك الجهات وبالفعل كانت دعوته قد بلغت ديار (فلاته) من نواحى (تمبكتو) ولكن الياس أم برير كان يقلقه بكثرة الحاحه عليه بالقدوم الى كوردفان ويوقفه على مافيه الحكومة المصرية من الفوضي بسبب الفتنة العرابية فتقدم نحو كوردفان

وترك أثقاله بجبل قدير ليعود مخفاً اذا قدرت له الهزيمة والفشل

ذكر وصول المهدي الي كابه

(كابه) منهل جنوب البحر الابيض بمسافة عشرة أميال وماؤه من الامطار تجتمع فى مكان منخفض ويقصده الاعراب لسقي ماشيتهم وهو أقرب منهل الى الابيض فى طريق المهدي وقد استقبله فيها خلق كثير من أهالى كوردفان ومعه من المقاتلة مائتا ألف أو يزيدون منهم نحو ثلاثين ألف فارس وما كاد يصل الي كابه حتى بعث رسولين بكتاب الي محمد سعيد باشا مدير كوردفان ومن معه من ضباط الحامية وجميع سكان الابيض يدعوهم فيه الي التسليم ويحذرهم من بطشه وفى ذلك الكتاب ما فى غيره من الدعاوى التي ينتحلها لنفسه ككفر من لم يصدق بمهديته وغير ذلك مما تقدم لنا ذكره وكنقش اسمه على ورق الاشجار وبيض الدجاج فدخل الرسولان علي محمد سعيد باشا ودفعا له الكتاب وجلسا بجانبه بغير اذن وأخذا يسبانه ويتوعدانه بكل مكروه حتى قالا له ان خيل المهدي لابد أن تطأ موضع قدميك وتروث على بساطك هذا. وما وقفت سفاهة ذينك الرسولين عند هذا الحد بل تناولا شخص الجناب الخديوى فاستدعى المدير كل الضباط ووجوه السكان وقرأ عليهم كتاب المهدى فكان جواب الضباط انا لا نسلم لهذا الشقي وفينا قطرة دم ووقف احمد بك دفع الله التاجر الذى تقدم لنا ذكره وقال كما قال الضباط وزاد عليهم انه أقسم بالوفاء. أما الياس باشا أم برير وسائر التجار فانهم سكتوا ولم يفوهوا بكلمة والرسولان مسترسلان فى ميدان السفاهة والشتائم مما هيج غضب الضباط الذين ألحوا على المدير بقتلهما فأمر قومندان الجنود اسكندر بك محمد بقتلهما

رمياً بالرصاص ففعل وأخـذ المدير في اتمام حفر الخندق واعداد مايلزم من المعاقل والطوابي ومعدات الدفاع . ومكث المهدى أياما ينتظر عودة رسوليه ثم علم بقتلهما فأرسل ألف فارس تفرقوا فى أطراف المدينة يرفعون أصواتهم بدعوة الناس الى اللحاق بالمهدى فى كابه فخرج اليهم محمدين بن العريق من التجار وكان رئيس المجلس المحلي واشتغل المدير بأعمال الدفاع

ذكر استحكام الابيض

مدينـة الابيض كبيرة وسكانها يزيدون عن مائة ألف نسـمة وكانت الحكومة خندقت عليها ولـكن رأى محمدسعيد باشا ان هذا الخندق لايقوم بحراسته أقل من ستين ألف جندى وبداخل هذا الخندق خندق آخر يحيط بالاماكن الاميرية ومنازل الضباط وأعيان المصريين وقد أعدت الحكومة منازل لالياس باشا وغيره من التجار داخل الخندق الصغير وشددت عليهم فى نقل أمتعتهم الي المنازل التي أعدت لهم ففروا ولحقوا بالمهدي فى كابه عدا أحمد بك دفع الله وابراهيم بن عدلان وهاهى أسماء أولئك التجار الذين كانوا سببا في اغارة المهدى على كوردفان بل كانوا السبب فى شـقاء السودان كله وسفك دماء مئات الالوف من البشر لان المهدي كما قدمنا كان لايبتغى غير طريق الى السـودان الغربى وقد انتقم منهم كما انتقم من الياس باشا وسيأتي ذكر ذلك في مكانه وهم (الياس باشا أم برير . محمـدين بن العريق . الحاج بان النقا) ولحق بهم من مستخدمى الحكومة (الريح حامد) باشكاتب المجلس المحلى ومن قواد الباشبوزق (طه بن الجعلى) و (ابن ناى الله) و (ابن الحسين)

ذكر هجوم المهدي علي الابيض

لما لحق الياس باشا ومن معه من التجار بالمهدي فى كابه حرضوه على الهجوم على المدينة فامر أخاه محمد بن عبد الله قائد جيشه ان يزحف بالجيش بعد منتصف ليلة الجمعة لست ليال بقين من شهر شوال عام ١٢٩٩ هجريه وأن يبتدئ بالهجوم في الغلس وخطب المهدى على الناس وحثهم علي الجهاد وقال لهم ان نيران البنادق لا تصيبكم وانها تحول ماء كما تحولت نار الخليل برداً وسلاما فزحفوا واستاقوا غزلان الفلاة وغيرها من الحيوانات امامهم وفي الغلس بدأ هجومهم فوقف لهم الجند وقفة الاسود وأصلوهم نيراناً حامية حتى انتصف النهار وتكاثف الدراويش على الخندق مما يلي الجبهخانات فولجوا وتقهقر الجنود بانتظام وحالوا بينهم وبينها ثم عادوا الى مواقفهم الاولي من الخندق بعد ان قتل كل الذين ولجوا الخندق وفى منتصف النهار تمت الهزيمة علي العدو وخسر اثني عشر ألف قتيل عدا المجروحين حيث كانوا يبلغون ثلاثة أضعاف هذا العدد وسقط محمد بن عبد الله شقيق المهدي وقائد جيشه قتيلين وقتل يوسف شقيق عبد الله التعايشي وقتل قاضي المهدية أحمد بن جباره وقتل الشيخ الامين أحد مؤسسي دعوة المهدية وانفض الاعراب من حول المهدى وارتابوا فى صدقه بعد اخباره لهم ان نيران البنادق تحول ماءا ولحقوا بديارهم ولم يعودوا الي معسكر المهدى بكابه . وقد وقعت هذه الهزيمة اسوأ موقع عنده ولم يبق حوله غير نفر قليل من ذوي قرابته والذين لحقوا به من مدينة الابيض فصمم علي العودة الي جبل قدير أو الاعتصام بجبال دارفور وأوديتها السحيقة فاشار عليه الياس باشا بالدنو من الابيض ومحاصرتها

لانها فى حاجة عظيمة الى القوت وأوعز اليه بان يكتب منشوراً الي جميع الفارين يخبرهم بان الذين ماتوا احياء فى الجنة وسيلقاهم أهلوهم فيها وان النبي صلى الله عليه وسلم وعده ان لا يقع لانصاره مكروه حتى يفتح الله عليهم المدينة وانه قد اباح لهم الغنيمة يأخذونها دون بيت المال فتراجع كثير من المنهزمين فزحف فى اليوم الثالث وعسكر فى جهة (عـد العود) التي تبعد عن حصون المدينة بنحو خمسة آلاف متر وأقام المتاريس حول المدينة وضيق عليها الحصار وسنعود الى تتمة ذلك

حملة علي بك لطفي

فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٩٩ انفذ عبد القادر باشا حلمى طابوراً من الجنود النظامية تحت قيادة القائمقام على بك لطفى لتعزيز حامية كوردفان حيث انتهت اليه أنباء تقدم المهدى نحوها وكان مع الطابور نحو الفين من الجنود الباشبوزق تحت قيادة افراد من عمد القرى المجاورة للمدينة وقصد عبد القادر باشا من تجنيد الباشبوزق ان يكونوا على الدوام فى طليعة الجنود يستكشفون العدو وينبهون الحملة علي كل كمين فى طريقها ولولا ذلك لم تكن فائدة لاولئك الجنود الذين يجهلون النظامات العسكرية وفى كثير من الوقائع كانوا السبب الاعظم فى فشل الجنود بما يأتونه من الحركات التى لا تنطبق على الفنون العسكرية وما كادت الحملة تبلغ حدود كردفان حتى تألب لمناوأتها قبائل الجمع والجوامعه فاضطرت الى تشكيل قلعة تدافع بها الهاجمين وهى سائرة فى الطريق التي يكثر فيه الماء وهو منحرف لجهة الشمال وينتهى سيره عند نقطة (باره) وبعد بضعة أيام وصلت الحملة الى مكان يقرب من باره يدعى (كوا)

والجنود على آخر رمق ففقدوا به الصبر لانهم لم يذوقوا النوم والراحة منذ وصلوا حدود كوردفان وهجمات العدو متوالية عليهم ليلا ونهار وكان العدو قد تجمع منه زهاء ثلاثين الف مقاتل وثبروا على الحملة وبالرغم عما ابدته الجنود من الصبر تمكن العدو من الولوج في المربع وقتل القائد والجنود كلهم الا كوكبة تزيد على المائه قادها اليوزباشي السيد أفندي الفوال وتمكن بها من الوصول الى باره وكان لعبد القادر باشا عيون يسيرون خلف الحملة وهم الذين أبلغوه خبر القضاء عليها حيث أذاع عكسه تسكينا للخواطر وتطمينا لسكان الخرطوم

سقوط باره

باره مدينة كبيرة في الشمال الشرقى من الابيض تبعد عنها بمسيرة أربع مراحل وفيها بساتين كثيرة بسبب وفرة مياهها وقربها اذ البئر لا يتجاوز عمقها مترين وأكثر سكانها من المصريين والاتراك ويوجد بها من الدنقليين عدد كبير

ولما قامت ثورة المهديين حصنتها الحكومة ووضعت فيها حامية فاغار العدو عليها عدة غارات ورجع مقهوراً منها ولما ثبتت قدم المهدى في محاصرة الابيض سقطت باره في قبضته علي شرط ان لا يمس الاهلين بسوء في أموالهم وذراريهم ولم يوف لهم بل تناول امراؤه الاموال ومدوا أيديهم الى النساء فذهبوا اليه وهو يومئذ محاصر للابيض متظلمين فاحال ظلامتهم على عبد الله التعايشي فجمعهم وقال لهم ان الخضر عليه السلام قال له لا ترد اليهم ما أخذ منهم لانهم يخسرون الآخرة ويعودون الى ما كانوا فيه من شرب الخمور وأغلظ عليهم القول وتوعدهم ان عادوا الي التظلم. وكان المهدى أصدر منشورا ضمنه

الثناء على عبد الله التعايشى وقال فيه انه أوتى الحكمة وفصل الخطاب وان الخضر عليه السلام رفيقه ووزيره ومن رأى فى حكمه اعوجاجا ظاهرا ففي باطنه من الحكمة كالتى فى قصة موسى عليه السلام مع الخضر وكان الذى أشار على المهدى بكتابة هذا المنشور أحمد بن سليمان أمين بيت المال تمهيداً لحكمه على أهالى باره والمنشور فيه اختلاف بين نسخه فالنسخة التي بيد امين بيت المال تخالف التي بيد التعايشي وهي التي طبعت فى مجلد المنشورات ويقول أمين بيت المال ان عبد الله التعايشى هو الذي أوعز الى كاتب سره فوزى بن محمود باريه باحداث الزيادة وسيأتي ذكر قتل فوزى وأمين بيت المال وانهما اقرا بالحقيقة عند القتل اهـ

ذكر كنيسة جبل الدلن

كان جماعة من القسوس الكاثوليك شخصوا الى كوردفان وشادوا بها كنائس وتوغلوا فى بلاد المتوحشين وجبالهم يدعون القبائل الى النصرانية وبنوا كنيسة في جبل الدلن من أعمال كوردفان وكان بهذا الجبل حامية وضعتها الحكومة للمحافظة على أولئك الدعاة ولمنع الاتجار بالارقاء تحت قيادة رجل من الاوربيين وكان كاتبه مصريا اسمه خليل حسنين وكان ميالا الى المهدى ففي ذات يوم أصبح يقص على الجنود رؤيا منامية فحواها انه رأى المهدي وأنه بشره وسائر الذين في الجبل بانهم من خيرة انصاره وصفوة محبيه وكساهم حللا سندسية ووضع على رؤسهم تيجانا زمردية فوقعت هذه الرؤيا موقع القبول عند الجنود ومالت قلوبهم نحو المهدى وبعث خليل حسنين بكتاب الى المهدى يقص عليه الرؤيا ويعرض به دخولهم فى طاعته فارسل

لهم مائة فارس من الاعراب ومعهم كتاب يقول فيه ان النبي صلي الله عليه وسلم أخبره بصدق رؤيا خليل حسنين وانه يبذل الامان لكل الذين في الجبل حتى القسوس الذين تعهد لهم بالحرية الدينية ودعاهم للقدوم اليه فلبوا جميعاً ولما مثلوا بين يديه قابلهم بالبشاشة وطيب خواطرهم أما خليل حسنين فكوفئ بادخاله ضمن عمال بيت المال وبقى القسوس حتي سقوط الابيض ثم صودرت أموالهم واجبروا على اعتناق الاسلام بعد تعذيب شديد اه

ذكر واقعتي شات والمرابيع

(شات) قرية تبعد عن النيل الابيض بنحو عشرة أميال وهى أول منزل ينزله المسافرون من الدويم الى كوردفان وبها تجار لابتياع الصمغ ويسكنها مصريون من أهالى مديرية أصوان وكان بها حامية من الجنود خندقوا على القرية فمرّ بهم أحمد المكاشفي قادما من قبل المهدى بالولاية على سنار وقد عززه بامراء كثيرين من أهالى البحر الابيض أشهرهم ابن كريف عهد اليه المهدي بجمع قبائل البحر الابيض ونشر دعوته بينهم ونصرة أحمد ابن المكاشفى الذى تقدم لنا ذكر أخيه عامر بن المكاشفي وما أتاه في سنار

ولما وصل أولئك الامراء الى شات التف حولهم الوف من رجال ابن كريف فهجموا على شات وذبحوا من فيها من الحامية وقتلوا النساء والاطفال وأتوا من المنكرات مالم يسمع بمثله انسان حيث كانوا يسوقون الاسرى من النسوة عراة كيوم ولدتهن ويتركهن عرضة للحر والبرد حتي يمتن من الجوع والظمأ مقرنات في الاغلال يضربهن كل من مربهن ثم اجتازوا النهر الابيض الى الجزيرة وكانت بها حامية من الجنود فى مكان يدعي المرابيع ففتكوا بها

وانتشرت دعوة المهدي فى الجزيرة وعلى الخصوص فى البلاد المتوسطة بين النيلين الازرق والأبيض مثل معتوق وعبود

ذكر واقعة عبود

عبود قرية تبعد عن النيل الازرق بمسيرة خمس مراحل وكان فيها نقطة عسكرية فهبّ الاهلون وحاصروا من فيها من الجنود فأرسل عبد القادر باشا الى طابور من المصريين كان معسكراً فى مدينة المسلمية يأمره بالتقدم لانقاذ (عبود) فتمرد الجند لوشاية وصلت اليهم وقالوا لا نتقدم وحسبوا ان المسألة حيلة يقصد بها هلاكهم في وسط الصحراء لانهم من العساكر العرابيين الذين بعثتهم الحكومة بعد اخماد نار الثورة فتدارك عبد القادر باشا الامر وشخص بنفسه الى المسلمية فاستقبله الجنود وقصوا عليه ما بلغهم فطيب خواطرهم وقال لهم انى سائر معكم بنفسى فثابوا الى الطاعة وزحف معهم الي عبود ومعه من الجنود الباشبوزق عثمان بك الدالى فلما اقتربوا من عبود فر العدو من حولها وأنقذت حاميتها وما كادت تمضي عليه بضع ساعات حتى وافاه نبأ بأن الداعية ابن كريف جمع نحو ثلاثين ألف مقاتل فى معتوق التي تبعد عنه بمسيرة نحو يومين ووجهة سيره مجهولة ويخشي أن يقصد بهم الخرطوم ووافاه نبأ آخر بتضييق احمد بن المكاشفى الحصار على سنار وجاءه ثالث بظهور عصائب حول الخرطوم يقودها الشيخ مضوي عبد الرحمن المحسى الذي ذكرنا نبأ شخوصه الي المهدي فى جبل قدير ثم جاءه تلغراف من المعية السنية مضمونه ان الحكومة قد عينت الجنرال هيكس باشا رئيس الاركان حرب الجيوش السودانية فيجب ايقاف جميع الحركات العسكرية الى حين

وصوله وانه سيغادر القاهرة بعد بضعة أيام هذا ما كتبته المدية فى حين أن ايقاف الحركات العسكرية بضع ساعات أقل نتائجه وقوع الخرطوم وسنار فى خطر ربما كان انقاذهما من مخالبه عسيراً

ذكر واقعة معتوق

لم نقف على شيء مما أقنع به عبد القادر باشا المدية بضرورة متابعة الحركات الحربية فقد زحف بجنوده فى اليوم التالي والتقى بابن كريف في غابة معتوق واصلاه ناراً حامية ففر منهزما تاركا نحو ألفي قتيل في ساحة الحرب وتأثره حتى تفرق أنصاره وبلغ عبد القادر باشا (الكوه) على شاطىء النيل الابيض ومن هناك قصد الخرطوم على احدى البواخر وطارد العصائب التى ظهرت حوالي الخرطوم وقبض على جماعة من زعمائها وأودعهم السجون وأخذ فى الاهبة للحملة على احمد بن المكاشفي وانقاذ سنار

ذكر واقعة الداعي

زحف عبد القادر باشا من الخرطوم في ثلاثة آلاف من الجنود المصريين النظاميين لانقاذ سنار وكان أحمد بن المكاشفي محاصراً لها منذ شهر تقريباً ومعه نحو ثمانين ألف مقاتل التفوا حوله من قبائل (جهينة والكواهلة) وغيرهم ولما وصلت الحملة الي مدينة ولد مدني لحق بها الشيخ عوض الكريم بن أبي سن زعيم قبيلة الشكرية التى تقدم لنا تعريفها ومعه عدد كبير من فرسان قومه كانوا يسيرون في طليعة الحملة يستكشفون المواقع والمكامن وبعد اقامة بعض أيام في ولد مدني رتب عبد القادر باشا هيئة الزحف وجعل صفوف القتال أربعة واعتني بأمر الجناحين اللذين يدافعان

عن القلب وكان العدو فى حماس شديد يقتحم النيران بخيله وبصبر تحت تطاير المقذوفات ويلتحم بالجنود فدبر عبد القادر باشا حيلة قاومت اقتحام فرسانه حيث صنع آلة صغيرة من الحديد عليها ثلاثة مسامير فاذا ألقيت على الارض وقف أحدها وبهذه الحيلة خفت اضرار فرسان العدوّ حيث يضع الجنود بينهم وبينه هاته الآلة وزحف عبد القادة باشا من ولد مدنى فى أواخر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٠ هجرية فالتقي باحمد بن المكاشفى فى مشرع الداعي ومعه ثمانون ألف مقاتل فانتشب القتال بينهما بضع ساعات أصيب فى خلالها عبد القادر باشا برصاصة خرقت ثيابه ودخلت في جوف ساعته ولم تصبه بأذى وانهزم ابن المكاشفي وتكبد خسارة تزيد على عشرة آلاف قتيل وتابع عبد القادر باشا سيره نحو سنار ورفع عنها الحصار ولحق ابن المكاشفي بجبل (سقدى مويه) الذي يبعد عن سنار بمسيرة ست مراحل وأقام عبد القادر بسنار يرتب معدات الدفاع ويلقى على الحكام الاوامر

ذكر واقعة سقدي مويه

وبعد أيام انفذ عبد القادر باشا حملة من الجنود الباشبوزق تحت قيادة صالح اغا الملك ومعه صنجقان عثمان بك الدالى والملك الحسين الى (سقدى مويه) فذهبت الحملة والتقت بابن المكاشفى هناك وثبت القواد وأصلوا العدو ناراً حامية وفر ابن المكاشفى فى عدد قليل من أنصاره وغنموا كل مافي معسكره من الذخيرة والرايات والطبول التي يدقونها وقت الحروب وعادت الحملة الى سنار وأقيم لها احتفال باهر وزينت المدينة وبينما كان الناس يتبادلون عبارات التهنئة والسرور ويقدمونها الي عبد القادر باشا اذ ورد عليه نبأ برقى من الخرطوم

بان الجراسيس اخبروا بسقوط مدينة الابيض عاصمة كوردفان في قبضة المهدي فاستاء لهذه الفاجعة ولكنه تجلد ولم يوقف من كانوا حوله على شيء من هذه المصيبة التي نغصت سروره

ذكر رأي عبد القادر باشا في انقاذ الابيض

ذكرنا ماكان من أمر المهدى وانه لما وطن عزمه على الزحف الى كوردفان أرسل دعاته ليهبوا بالثورة والعصيان حوالي الخرطوم كي يشغلوا عبد القادر باشا عن الاهتمام بامر كوردفان وتعزيز حاميتها وقد قرنت سياسته هذه بالنجاح حيث لم يستطع عبد القادر باشا الغلبة على أولئك الدعاة الا بعد أن تم للمهدي الاستيلاء على عاصمة كوردفان والقضاء الاخير على نفوذ الحكومة في ذلك الاقليم

على انه بعد أن نال عبد القادر باشا الظفر فى واقعة (سقدي مويه) لم تزل امامه عقبة أخري وهى وجود داعية يدعي ابن عبد الغفار جمع حوله جيشا جرارا فى جهة (كركوج) جنوب سنار يخشي من تقدمه نحوها وقد لحق ابن المكاشفي بعد هزيمته من سقدي مويه بجهة النيل الابيض ولكن معاودته الكرة على سنار كانت متوقعة وقد اطمأن فى هذا الوقت عبد القادر باشا على مدينة الخرطوم حيث وصل اليها عدة الوية من الجنود المصرية التى يقودها الجنرال هيكس باشا وزحفت فرقة منها لمطاردة ابن المكاشفي فى جهات النيل الابيض كللت حركاتها بالنجاح

كان رأي عبد القادر باشا ان تمده الحكومة بالمال والرجال فيترك حامية تقاوم دعاة المهدى فى الجزيرة وحول الخرطوم ويتقدم هو نحو

كردفان في الطريق الشمالية التى يكثر فيها الماء بعكس الطريق الجنوبية التي سارت فيها حملة الجنرال هيكس بحيث تكون جنوده كافية لحفظ خط الرجعة وتأليف قوة تكون هاجمة ولا ريب ان هذا التدبير كان كافلا لانقاذ كردفان وارجاع المهدى بصفقة الخاسر المغبون لو مدت الحكومة له يد المساعدة ولكن من أين لها ذلك وهى واقعة وقتئذ تحت براثن الثورة العرابية ومخالب الازمة المالية وقد كانت الجنود التى ناهض بها عبد القادر باشا العدو في حروبه كلها فى حالة يرثي لها من شظف العيش وقلة الملابس فقد كانوا يلبسون الجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التي يغتنمونها من العدو ويلبسون فى أرجلهم أحذية من جلدها مع كثرة الحشرات والشوك في تلك البلاد التى يجتازونها ومع هذا كله كانوا على جانب عظيم من الصبر والسكينة لا يتذمرون ولا يتضجرون وقد مضي عليهم بضعة شهور لم يقبضوا مرتباتهم في خلالها

وقد بلغنى ان عبد القادر باشا بعث يسترحم الحكومة فى ارسال ثلاثين الف جنيه لصرف تلك المرتبات وقال انه لا يليق بنا ان نسوق الجند وضباطهم الي مواطن الموت وأولادهم ونساءهم يتضورون جوعاً فلم يلتفت الي قوله حتي انه كان يسأل الحكومة المكافآت بالرتب والنياشين لكثير من الضباط فتقابل مطالبه بالرفض والاباء . ويقولون ان سبب ذلك كله هو اسماعيل أيوب باشا الذى كان وقتئذٍ أحد الوزراء فقد أوقف نفسه لمماكسة عبد القادر باشا وحمل الحكومة على عدم الاصغاء لاقواله وهو أمر في غاية الغرابة يبعد على الانسان تصديقه وقبوله لولا تواتر روايته وتصحيحها عند الكل . وقد وقف القلم خجلا عند هذه المسألة ولولا أن تقرير حقيقة تاريخية ساقه لما طاوعنى فى هذا المجال اذ يبعد كل البعد أن يكون وزير من وزرائنا يقف

نتيجة لاخفاق مساعي آخر في مسائل عمومية قد لا يلحقه منها ضرر بل أضرارها لاحقة بالحكومة ومادعاه الى هذا كله غير انه يكره لبغيضه احراز الفخار ونيل شرف الانتصار فانا لله وانا اليه لراجعون

وقد كان في امكان عبد القادر باشا لواجبات الحكومة مطالبه أن يحول بين المهدي وبين كوردفان بوضع الحاميات في جميع المناهل التى على طريقه وقصارى القول أن عبد القادر باشا كان ذاتد بيرات جليلة يستحيل معها على المهدي أن يبلغ أربه من كوردفان ولو اتبعت الحكومة آراءه في العدول عن ارسال حملة الجنرال هيكس الى كوردفان لاستطاعت القضاء على المهدوية في ذلك الاقليم وسنبين ذلك كله فيما يأتى

ذكر واقعة ابن عبد الغفار

وبعد واقعة سقدى مويه زحف عبد القادر باشا بجيش جرار الي جهة سنار للقاء الداعية ابن عبد الغفار الذى جمع حوله ثمانين الف مقاتل من قبائل جهينة والكواهلة وغيرهم وأغار بهم على مدينة (كركوج) وقتل خلقاً كثيرين من التجار وأحرق شيئاً كثيرا من بضاعتهم. (وكركوج) هذه مدينة كبيرة على ضفة النيل الازرق يقصدها التجار من كل انحاء السودان للحصول على الصمغ الذي هو من اكثر حاصلاتها ولكن ثمنه ينقص نحو الثلث عن ثمن صمغ كردفان لجودة هذا ورداءة ذاك والصمغ فى كردفان صنف واحد وهو المعروف باسم (المشاب) بعكس صمغ كركوج فان أنواعه كثيرة يتفاضل بعضها عن بعض وأما السمسم فانه من اكثر حاصلات تلك البلاد وثمنه لا يتجاوز أربعين قرشاً لكل أردب ويجلب هذا الصنف لحاجة جميع الاقاليم الشمالية

السودانية لانه لاينبت بارضها

نعود الى ذكر الحملة فنقول إن العدو ناوشها عدة مرات مناوشات صغيرة كان يقصد بها أن يغرر بها حتى يبلغ الاماكن الوعرة كثيرة الغابات فادرك عبد القادر باشا هذه الحيلة وأرسل جواسيسه الي معسكر العدو وحيث تمكنوا من الوشاية بين القائد وأنصاره حتى الحوا عليه بوجوب الهجوم على الحملة فهاجمها فى الغلس وقبيل منتصف النهار تمت الهزيمة عليهم وتركوا فى ساحة القتال أكثر من عشرة آلاف قتيل عدا المجروحين وتابعت الحملة السير جنوبا حتي تمكنت من تفريق العدو والقضاء عليه وقفلت راجعة الى سنار وجرح أربعة من أكابر قواد العدو جروحا بالغة واتم عبد القادر باشا تحصين سنار وانقطعت أسباب القلاقل من الجزيرة وانحصرت المهدوية فى اقليم كوردفان وانقشع كل خطر عن الخرطوم التي احتشدت فيها جنود حملة الجنرال هيكس

مأمورية الكولونيل ستيوارت

كانت الحكومة انتدبت الكولونيل ستيوارت بمأمورية الي السودان وكانت سرية فلما وصل الى بربر عرض كتابا على مديرها من المعية السنية وطلب التصريح له باجراء تفتيش عام على كل دفاتر الحكومة ومصالحها فارسل المدير على جناح البرق يعلم عبد القادر باشا الذى أمره بالانقياد لكل مايامره به الكولونيل ثم قصد الخرطوم وكان معه ايطالي اسمه موسيو داليه سبق له التوظف فى حكومة السودان وكان ذا بغض لججلر باشا الالمانى وكيل الحكمدارية فأخذ يسعي مجدا فى الايقاع به عند الكولونيل ستيوارت الذي كان بعده يتبوأ منصب وكالة الحكمدارية بعد فصل وكيلها ججلر باشا الالمانى

وفى ذات يوم زار الكولونيل ستيورات عبد القادر باشا فى سراى الحكمدارية فجلس معه وابتدر ججلر باشا بكلام أغضبه وتبادلا عبارات الشتم وتطاولا على بعضهما بالمضاربة بالكراسى فوقف بينهما عبد القادر باشا ومنعهما من المضاربة وقصد محاكمتهما وبعد أيام ترجيا العدول عن معاقبتهما حيث اصطلحا واعتذر كل منهما لصاحبه. ثم غادر الكولونيل ستيورات الخرطوم قاصدا سنار فالقضارف فكسلا فمصوع فمصر وأثنى على عبد القادر باشا واستحسن ادارته وأعماله العسكرية

ويقول البعض ان مأمورية الكولونيل المذكور كانت الوقوف على حقيقة ماأذاعه ذوو المقاصد السيئة عن عبد القادر باشا حيث قالوا انه طامع للاستقلال بالسودان وقد فند الكولونيل هذه الاشاعة وأظهر سوء قصد الذين اذاعوها وروي بعضهم أن ساكن الجنان الخديو توفيق باشا كان يوالي الاسئلة عن أعمال الكولونيل مما يدل على أن مأموريته كانت ذات اهمية عظيمة

ذكر حصار الابيض

تركنا الكلام على المهدي وقد زحف بخيله ورجله وعسكر فى (عد العشر) وتراجع اليه المنهزمون ورتب مقاتلته حول المدينة وأعد المتاريس والطوابي ومنع دخول الاقوات

أما الجنود فكانوا يخرجون الى منازل الاهالي ويأخذون مافيها من الغلال والاقوات اذ لا ميرة في مخازن الحكومة ودام الحال علي ذلك حتي غاية شهر ذى الحجة سنة ١٢٩٩ هجرية فنفدت الاقوات

وفى مستهل محرم سنة ١٣٠٠ ابتدؤا يذبحون الماشية والمجاعة آخذة في التفشى وذبحوا الحمر الاهلية وبلغ ثمن الاوقة من لحمها مائتين وخمسين ريالا

وكذلك ثمن الاقة من لحوم الكلاب وبلغ ثمن الكيلة من الغلة سبعمائة ريال وأخيراً عدم كل شيء من ذلك وحكى لنا واحد من المحصورين أن خادم أحمد بك دفع الله كان يوما حاملا مائة ريال يطلب بها شراء دجاجة لمولاه فلم يجدها مع أن ثمن الدجاجة فى الابيض كان لا يتجاوز نصف قرش مصري وثمن أردب الغلة لا يبلغ الريال وحكى لنا ضابط من المحصورين أن اربعة ضباط اشتروا دجاجة ضئيلة بمائة وخمسين ريالا واقتسموها بينهم

وكان الجنود يخرجون على شكل مربع فى كل غداة الى حوالي المدينة ليأخذوا حشيشا اسمه (الحسكنيت) وهو كالحسك وفى جوفه حبوب تشبه الغلة يقتاتون بها ثم نفد هذا الحشيش واشتدت المجاعة على الجنود الذين أكثروا من أكل الصمغ وتفشت امراض الاسهال والدوسنطاريا بينهم وازداد عدد الوفيات

ولما وصلت الحالة الى ماتقدم جمع المدير الضباط والموظفين والوجهاء وشاورهم فى الامر فقرروا جميعا أن يشاطروا الحكومة ماادخروه لقوتهم وأن يحسب لهم ثمن الاردب بمائة وستة وتسعين ريالا فتحصلت الحكومة علي ثلاثمائة أردب وزعتها على الجنود فأصاب كل واحد أقل من كيلة كانوا يخلطونها مع الصمغ ويقتاتون بها ثم فرغت هذه الاقوات وعاود المدير مفاوضة أولئك الناس فتحصل على كمية يسيرة من الغلة أصاب كل واحد من الجنود نحو رطلين منها ثم فقد الكل الاقوات وفر كثير من الجنود وأسلموا نفوسهم للمهدى واختل النظام وتمرد العساكر علي ضباطهم حتي انهم كانوا يضربونهم ويهينونهم وتألفت عصابات من الجنود يوالون الهجوم على المنازل في المدينة ليسلبوا مايجدونه من الطعام وصار الخندق خاليا من المدافعين

ولولا ماوقع فى قلب العدو من الفزع والخوف بعد هزيمتـه الاولى لاستطاع الاستيلاء على المدينة بلاعناء

على أن الجند كان ينتظر رفع الحصار بواسطة نجدة تقدم عليه من الخرطوم وقد كان ذلك متوقعا من عبد القادر باشا الذي تقدم لنا أن الحكومة لومدته بالمال والجنود لكان فى استطاعته انقاذ الابيض واستئصال الثورة من اقليمها كله وقـد كان المهدي في غضون حصاره الابيض يروعه كل يوم مايرفعه اليه دعاته من توالى هزيمتهم امام عبد القادر باشا لـكنه كان يتعزي برسوخ قدمه فى كوردفان عموما والابيض خصوصا

ذكر سقوط الابيض

وفى أواخر شهر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٠ هجرية عقد الضباط ومحمد سعيد باشا مدير كوردفان مجلسا للمداولة فقر راى الـكل على طلب الامان من المهدى بعد أن ايقنوا انهـم غير قادرين على البقاء على هذه الحالة فكتبوا كتابا يسألونه أن يؤمنهم على مايملكونه وأن لايمد يده لغير الاموال الاميرية فكتب لهم بذلك وزاد أن حلف على المصحف الشريف أمام الملأ بالمحافظة على هذه الشروط . وفي اليوم التالى خرج محمد سعيد باشا ومن معه من الضباط ومن بقي من الجنود وقابلوا المهدى فامر لهم با كواخ انزلوا فيها وأمر بمصادرة أموالهم وأموال كل الذين فى المدينة فشرع عمال بيت المال فى التنفيذ وأخرج الناس من منازلهم واوقف الحاج خالد العمرابى بقبيلته على الابواب يفتشون كل خارج وينزعون ملابسه ووضعوا نسوة تفتش النساء فكن يجردن نساء المصريين من ملابسهن ويفتشن عوراتهن ويقبضن على كل حسناء منهن

وأخرج كل سكان المدينة وأقيم عليهم الحراس في صعيد واحد حيث يأخذهم عمال بيت المال الى منازلهم ويضربونهم ويعذبونهم ليدلوا على أموالهم المخبوءة ودفائنهم المستورة وكثير منهم مات من شدة التعذيب وقيد المدير محمد سعيد باشا ليدل على ماخبأه من ماله

ذكر مقابلة المهدي حامية الابيض

وفى صبيحة اليوم الذي ضرب أجلا للتسليم خرجت الحامية من المدينة على هيئة طابور والموسيقي تصدح أمامها فقابلها المهدي راكبا ولما دنت منه وقفت وترجل هو عن حصانه وجلس على فروة وأذن لمحمد سعيد باشا وضباطه فى الجلوس فجلسوا بين يديه وقبلوا يده ثم سأل واحدا من الضباط اسمه يوسف شمله عن اسمه فاجابه وكان يوسف شمله مامورا بضواحي المدينة وكان مشهورا بالشدة فاجتمع تجار الابيض ساعتئذ حول المهدى وأشاروا عليه بقتل يوسف شمله الذى خاطب المهدي وقال له أنت خليفة الرسول والعفو منك مأمول فعفى عنه ونزع جبته والبسه اياها ثم التفت الى محمد سعيد باشا وقال له أنت قتلت رسولى فاجابه القائمقام اسكندر بك انا الذى قتلتهما فقال انهما كان يرغبان فى الشهادة وقد من الله عليهما بها ثم التفت الي أحمد بك دفع الله وقال له ان أخاك عبد الله مات كافرا مع يوسف باشا الشلالى وقد نصحته بالتسليم لى فلم يفعل وأخشى عليك أن تموت كافرا مثله وتحرم من دخول الجنة فقال له لا احب دخول جنة لم يدخلها أخى عبد الله ثم انصرف عنهم ودعاهم الي طعام فأكاوا وحلفهم علي المصحف أن لايخبأوا أموالهم لانها صارت غنيمة له فحلفوا ودخل المهدى المدينة وأقام بسراى المدير

ذكر احصاء ما غنمه المهدي من الابيض

أحصي ما اجتمع فى بيت المال فبلغ ثلاثة ملايين ونصفا من الريالات ومائتين وخمسين ألفاً من الجنيهات وأربعة آلاف أوقية من الذهب قيمتها ستة عشر ألف جنيه ومن أصناف البندقي والمجر والخيري ما يقدر بخمسة قناطير وأربعة آلاف أوقية من الذهب المصنوع حلياً وأكثر من أربعين قنطاراً من الفضة

وكان محمد سعيد باشا قد خبأ ماله الذى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه وأبي أن يظهره للمهدى وكان أمين بيت المال استدل على مكانه من احدى جواري الباشا فأسر هذا الخبر للمهدي فكتمه وجلس فى محرابه ودعا محمد سعيد باشا وأخذ يذكره بنعيم الجنة وخسة الدنيا ويقول له أظهر مالك فيقول له ليس عندى مال وأخيراً دعا أمين بيت المال وقال له على رؤس الاشهاد ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنى بالمكان المخبوء فيه مال محمد سعيد باشا فاذهب الى مكان كذا من الدار وانبشه تجده فيه فذهب ومعه خلق كثير فأخرج المال وأذيعت الاخبار بهذه الكرامة وعدها كثير من الناس من أكبر كرامات المهدى

وبلغ عدد الارقاء الذين غنمهم ألفين وجمع من الملابس والفروشات وأثاث المنازل شيأ لا يدخل تحت حصر وانتدب أمين بيت المال ابراهيم رمضان من أهالي أصوان لبيع الفروشات وانتدب ابراهيم بن عدلان لبيع الارقاء والماشية وعين كثيراً من كتبة الحكومة كتبة فى بيت المال وجلهم من الاقباط

ذكر القبض علي محمد سعيد باشا والضباط وقتلهم

لم يمض أسبوعان على سقوط الابيض حتي قبض على محمد سعيد باشا وعلى بك شريف وجميع الضباط عدا القائمقام اسكندر بك والملازم الثاني يوسف منصور ودفع كل واحد منهم الي أحد المشايخ وجمع التمايشي الضباط وقال لهم ليذهب كل واحد منكم مع أحد المشايخ ليقوم بحاجاته وأوعز الي أولئك المشايخ أن يشددوا المراقبة عليهم ويبقوهم كأرقاء عندهم وبعد أيام أصدر أمراً بقتل محمد سعيد باشا وعلى بك شريف ومحمود افندى حسن فقتل كل واحد منهم بالضرب بالعصى الغليظة على رأسه وبقي صغار الضباط فى الاسر الى مابعد هلاك الجنرال هيكس وزحف المهدي على الخرطوم

وقد تضاربت الروايات عن الاسباب التى حملت المهدى على الايقاع بهؤلاء الضباط ونحن نورد هنا ماقالوه بايجاز فنقول

روي سلاطين باشا ان محمد سعيد باشا وجميع الضباط كتبوا كتابا بعد سقوط المدينة الى عبد القادر باشا يخبرونه بما حل بهم وشرحوا له الاسباب التى أدت الي هذا السقوط وكان من الذين وقعوا على هذا الكتاب الضابط يوسف منصور الذى ألح على اسكندر بك وأقنعه بالذهاب معه الى المهدي وتقديم أعذارهما عما فرط منهما فأطاعه اسكندر بك لانه أيقن بأن المهدى ينتقم منه مع الباقين ما دام يوسف منصور مصراً على اخباره وعند وصولهما اكبّ يوسف منصور على أقدام المهدى يقبلها واعتذر فصفح عنه وكافأه بتعيينه قومندانًا على الطوبجية وعدل عن معاقبة اسكندر بك ولم يكافأه بشيء هذا مارواه سلاطين باشا

وقد سمعت من الحاج خالد العمرابى أحد تجار الابيض الذين انضموا

الي المهدي وجعله أميراً من أكبر قواده ان ابن أخته عمر أزرق رأى مناما بعد سقوط الابيض وهو ان الدراويش الذين قتلوا فى واقعة يوم الجمعة وقفوا بين يدي الله عز وجل وقالوا يا ربنا ان محمد سعيد باشا وضباط الابيض قتلونا ظلما وكان النبي صلى الله عليه وسلم حاضرا فالتفت الى المهدى وقال له لك الخيار بين قتل أولئك الظلمة أو نفيهم من الارض أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فقال المهدي أقتل محمد سعيد باشا وعلي بك شريف وانف بقية الضباط وقد قص عليّ عمر أزرق هذه الرؤيا فامرته بتدوينها على قرطاس قدمته للمهدي في مجلس كان التعايشي حاضرا فيه ومعه الفقيه جلال الدين الفوراوي وكان من المعتقدين فقرأ المهدي عليهم الرؤيا وقال حقا انني كنت حاضرا بهذه الحضرة ثم أمر بالضباط ومحمد سعيد باشا ففعل بهم ما بيناه

وقال آخرون انهم قتلوا بثأر محمد عبد الله شقيق المهدي ويوسف شقيق التعايشي لان المهدي لما دخل المدينة وأخذ يفتش على جثة أخيه فمر عليها زرفت عيناه واستل سيفه وقال سيؤخذ بثأرك فى الآخرة ليوهم من حوله أنه لا ينتقم لنفسه

هذا وقد مكث الضباط فى الاسترقاق وكتب التعايشى منشوراً أباح فيه أخذ كل حسناء من زوجها وقال ان النبى صلي الله عليه وسلم أمره بالحيلولة بينهن وبين أزواجهن الكفار

وقبض على أحمد بك دفع الله ومحمد ياسين وهذا كان ناظر أحد الاقسام بتهمة أنهما غير مصدقين بالمهدية فنفيا ثم قتلا وكانا مسجونين عند الحاج خالد ويقال انه الذى رماهما بهذه التهمة وأخذ المهدي أم الحسن بنت أحمد بك دفع الله موطوءة بملك اليمين وكتب منشورا قال فيه ان هاتفا الهيا قال

له لا بأس عليك منها وانها قسمة النبي صلى الله عليه وسلم

على ان المهدي والتعايشي كانا راغبين فى استحياء أحمد بك دفع الله وارضائه حتى ان التعايشي كان يود اعطاءه راية يجمع حولها كل ذوى قرابته ويكون أميراً عليهم فاغتاظ الياس باشا أم برير من ذلك وحذر التعايشى من هذا الامر وقال له ان أحمد بك دفع الله اذا رفعت له راية وانضم اليه محمد يس فانهما بلا شك يعملان ضد المهدية وبعد مداولات كثيرة بين المهدي والتعايشى أصدر المهدي منشورا قال ان النبي صلي الله عليه وسلم أمره بقتلهما فانتدب التعايشى قريبه يونس بن الدكيم ومعه خمسون فارساً وسار بهم الى منفاهما وضرب عنقيهما بعد ان صليا ركعتين وروى يونس بن الدكيم ان محمد يس لما قدم للقتل أظهر جبنا وهلعاً فانتهره أحمد بك وقال له اخسأ فالى أين تفر ياجبان ثم قال للسياف تقدم نحوى يا ابن الفاعلة فتقدم وضرب عنقه رحم الله الجميع

ذكر ترتيب جيش المهدي واحكامه

ذكرنا ما كان من أمر المهدي وترتيب جيشه فى جبل قدير وأنه جعله فرقا ثلاثا يقود كل واحدة منها خليفة من خلفائه الثلاثة وجعل القيادة لاخيه محمد بن عبد الله الذي قتل بواقعة الابيض ونقول الآن انه بعد انتشار نفوذه في اقليم كوردفان كله واستيلائه على الابيض تكاثفت جيوشه وأسند القيادة العامة على جيشه للتعايشي وجعله مستشاره الذى لايقطع أمرا دونه وعين أحمد بن على قاضيا بدل أحمد بن جباره الذي قتل فى واقعة الابيض ونصب أربعة رجال دعائم الامناء وفوض اليهم النظر فى كل العرائض التي ترفع اليه

والفصل فيها وانتدب نحو عشرة رجال دعائم النواب وفوض اليهم النيابة عنه فى نظر المسائل المعظمة التى لها دخل فى بيت المال فكان كل فريق من النواب والامناء يحكمون فيما يعرض عليهم من المسائل بغير تحديد

وأخذ يوالي اصدار المنشورات بعضها فى ذم الدنيا وخستها وبعضها في الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وفي ذات يوم جاءه أحد خدامه (الملازميه) وقال له انه رآى امراة تزنى لخلفه على المصحف الشريف وأمر بالمرأة فقتلت رجما بالحجارة وخطب فى الناس وقال لهم ان أصحابه لايكذبون ولا داعي لاربعة شهداء مادام الشاهد الواحد يحلف وقضي ان كل المظالم التى اقترفها الحكام قبل ظهور دعوته لايسمع فيها أدعاء وذلك لان مااغتصبه أولئك الحكام صار ملكا لبيت ماله ورده يفقد بيت المال كل مايملكه . وكان لكثير من الناس ودائع عند تجار الابيض فأمر بعدم ردها الي أصحابها اكراما لخواطر أولئك التجار

هذا حال جيشه وأحكامه وأما تقدمه لامتلاك الخرطوم فقد انحلت عزيمته عنه على أثر ماتوالي على دعاته من الهزيمة والفشل وعدا ذلك فان الخرطوم أو ائذ كان فيها نحو عشرين الف جندى وامتلاء قلب المهدى فزعا وخوفا من عبد القار باشا وصرح في كثير من خطاباته بان النبي صلي الله عليه وسلم أخبره بترك التقدم على الخرطوم مادام عبد القادر باشا حاكما على السودان وكان يرفع يديه عقب كل صلاة ويقول (ياقادر اكفنا عبد القادر) وقد وجه عزيمته نحودارفور ورآى ان امتلاكها اقل صعوبة من امتلاك الخرطوم وسيأتي ذكر تفصيل استيلائه عليها

ذكر فصل عبد القادر باشا والغاء نظارة السودان

فى شهر جمادى الاولي سنة ١٣٠٠ أثر انتصارات عبد القادر باشا على دعاة المهدي فى جنوب سنار صدر امر عال بفصله عن حكمدارية السودان والغاء النظارة وانشاء قلم مخصوص بنظارة المالية لمراقبة حسابات السودان

وقد وقع نبأ فصله اسوأ وقع عند أهالي الخرطوم وسائر مستخدمي الحكومة والاعراب الموالين لها وقد رفعوا العرائض تباعا الى المغفور له الخديوى توفيق باشا يسألونه العدول عن هذا الامر فلم يفعل

ولم يكن هذا الاسترحام قاصراً على من ذكرناهم بل تناول النزلاء الاوروبيين وقناصلهم فانهم اشتركوا فى هذا الالتماس وما ذاك الا لان الكل موقنون بان الطريقة التي اتبعها عبد القادر باشا كانت السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار والجزيرة كلها وكان من وراء أعماله ماقنط المهدى من التغلب على الخرطوم وقد أصدر منشورات لكل دعاته فى الجزيرة يأمرهم بكتمان الدعوة ما دام عبد القادر باشا حاكما على السودان وقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بان دعوته لا تفلح الا بعد مغادرته السودان

على ان الانسان يحار من اقدام الحكومة على هذا الامر الذى فتح بابا للقيل والقال حيث أوله كثيرون بانها غضبت عليه لانتصاره على العدو أو أنها كانت لا ترى بأسا في تقلص نفوذها من السودان وبسط سلطان المهدي عليه وقد محضها النصح وبين لها ان ارسال حملة الجنرال هيكس ضرب من الجنون وأن غلبة المهدي عليها ضربة لازب فلم تلتفت الى نصحه وضربت باقواله عرض الحائط كما فعلت معى حين نصحتها فى شأن يوسف باشا الشلالى

ذكر تعيين محمد علاء الدين حكمدارا للسودان

وخلف عبد القادر باشا محمد علاء الدين باشا وأعيدت نظامات الحكمدارية والغيت النظارة وكان علاء الدين باشا حكمداراً للسودان الشرقي وله مع سكانه صداقة مذكان مديراً على كسله فلما قبض على زمام الحكمدارية وعهدت اليه الحكومة بشراء الجمال للحملة كان أول عمل أتاه انه أخذ من مال الخزينة نحو مائتي الف ريال وشخص بنفسه الى السودان الشرقي لشراء الجمال مع ان مثل هذه المأمورية يقوم بانجازها متعهد من التجار ولكن علاء الدين باشا سرب المال الي جيبه والزم مشائخ القبائل بتقديمها له مجاناً ولا غرابة في ذلك لان الجمال كثيرة عند أولئك الاعراب ويوجد منها عند كل شخص مايربو على مائة راس وقد اشتهر عن علاء الدين باشا تناول المسكرات بكثرة ونقل لنا واحد من خدامه الذين كانوا معه بحملة هيكس انه شرب زجاجة كنياك قبل ان يقتل بعشرين دقيقة

وتلاعب علاء الدين باشا باثمان الاقوات التي تقدم للحامية حيث اتفق مع المتعهدين على اثمان تبلغ ثلاثة أضعاف الاثمان الحقيقية وقبض أموالا طائلة من ذلك

وقد سار على سنته حسين باشا الذى ناب عنه فى الحكمدارية ونشأ من وراء تلاعبه ماأضر بالخرطوم في غضون حصارها وسيأتي ذكر ذلك فى مكانه ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. وباع علاء الدين باشا وظائف الحكومة الى كثير من التجار السودانيين فاغتنموا الفرصة وتمالئوا للمهدي بايقافه على أسرار الحكومة وعهد بالرئاسة على مجالس

الاستئناف الي تاجر بربريّ اسمه (حمد التلب) لانري له أقل أهلية ترشحه لهذا المنصب غير أهلية الاصفر الرنان ومثل هذه المخرقة أشياء كثيرة لايسع المقام تفصيلها وقصاري القول ان الحكومة كانت لاتهتم بغير انفاذ حملة الجنرال هيكس ومحمد علاء الدين باشا كان لايهتم بغير جمع الاموال من وراء نفقات تلك الحملة التميسة هذا ماعولت عليه الحكومة وأما المهدي فانه وقف وقفة المدافع ينتظر قدوم الحملة عليه وأرسل دعاة كثيرين الي دارفور يجمعون الناس على دعوته ويناهضون الحكومة فيها وسنأتي على سرد كل مايهم القاريء الاطلاع عليه ثم نعقبه بذكر حملة الجنرال هيكس وبيد الله التوفيق

ذكر دارفور

دارفور بلاد واسعة فى الجنوب الغربى من كوردفان وسكانها ينقسمون الى ثلاثة أقسام قسم يسكن القرى والدساكر. والثاني يسكن البوادي ويعيش بألبان الماشية كمألوف عوائد الاعراب. والقسم الثالث يسكن رؤس الجبال وبين هؤلاء وسكان القرى تشابه فى الاخلاق والعادات والمعيشة حيث يشتغل الفريقان بفلاحة الارض وافتراق حيث تجد سكان القري منغمسين فى الملذات ولهم مهارة في اجادة طبخ الاطعمة وتعدد الالوان الامر والذي يجهله أهل السودان كلهم وهم مشهورون بالكرم وقرى الضيوف وبلادهم خصبة وأراضيهم تجود بمحصولات كثيرة وثمن القوت منخفض فيها جداً حتى أن الاردب من الدخن الذى هو اكثر محصولاتهم لايتجاوز بضعة قروش مصرية والقمح يكاد يكون أبخس ثمنا من الدخن ويوجد بدارفور تجار أغنياء

لهم أعظم صلاة التجارة مع القطر المصرى يجلبون العاج وريش النعام وغيرهما من سلع السودان

وهؤلاء السكان تناسلوا من عنصر عربى استوطن دارفور منذ أجيال وسنأتى على ايضاح ذلك حتي يكون القارىء على بينة منه

وفى دارفور جبال كثيرة أشهرها (جبل الحلة) وبه قبور الملوك وفيها مدن كبيرة أشهرها (الفاشر)عاصمة تلك البلاد ومدينة (داره)و(كبكابيه) و (كلكل)

وفيها معادن كثيرة من النحاس والحديد والرصاص وأهل دارفور ميالون للهرج والقلاقل والحروب

تاريخ دارفور القديم

لخصنا للقارىء تاريخ السودان القديم ونرى اتماماً للفائدة أن نثبت له تاريخ دارفور القديم الى انحلال دولتها وضمها الى الاملاك الخديوية فنقول

نزح الي السودان الغربي أعراب من تونس وما جاورها من البلاد الافريقية في أواخر القرن الثامن للهجرة واستوطنوا بلاد واداى وبرقو ويحكي أن أخوين من أولئك النازحين وصلا الي دارفور اسم أحدهما علي والآخر احمد المعقور الذي أطلق عليه هذا الاسم بسبب ان أخاه علياً عقر رجليه بضربة سيف

وتحرير القصة أن عليا كان متزوجا بامراة بارعة الجمال وكان تحب أخاه احمد حتى كاشفته بهذا الحب وهو أنكره عليها وتغالي في تعنيفها حتي اضمرت له الشر وصممت على الايقاع به عند أخيه لئلا يسبقها بابلاغه شغفها به فتقع هى تحت

خطر العقوبه فابلغت بعلها أن أخاه راودها عن نفسها فاستشاط غيظا ونادى بالرحيل فرحل الحي وانفرد هو باخيه في الفلاة وضربه بالسيف حتي عقر رجليه وتركه مصروعا على الارض ولحق بالظعن وأمر أتباعه ومواليه بلحاقه وطلق المراة وتابع مسيره الى واداي وأدرك الموالى احمد المعقور فى وسط الفلاة فضمدوا جراحه وأبلغوه أمر اخيه وأنه كان لا يقصد قتله بل أن يفترق وسار أحمد المعقور مع مواليه ونزلوا على ملك من الزنوج كان متسلطا على قسم كبير من دارفور وكان كسائر زنوج افريقيا لا دين له فاكرم وفادتهم وقرب أحمد منه وكان ذا دهاء وشجاعة فاحبه سكان البلاد ولم يمض أمد طويل حتي توفى السلطان فاختار الشعب أحمد المعقور ملكا عليهم فقام بالسلطنة أحسن قيام وأخضع كل الاقاليم المجاورة له وترامت أخباره حتى بلغت الاعراب النازلين بوداى فنزحوا اليه وشدوا عضده وانتشروا فى البلاد واستأثروا بخيراتها وانقرض السكان الاقدمون ولم يبق غير قليل منهم استوطنوا بين دار فو وبرقو وأسسوا مملكة هناك تعرف باسم (ابوريشه) وطالت ايام أحمد المعقور حتى ازال كل الصعوبات من المملكة وجعلها ميراثا لولده من بعده وسار خليفته على سيرة والده ثم حفيده السلطان دالى وكان عالما فاضلا رفع منزلة العلماء ورتب القضاة ليحكموا بالشريعة الغراء وانتشر نفوذ سلطان دارفور حتي بلغ كوردفان وضفاف النيل الابيض وانتشرت الدعوة الاسلامية حتي عمت البلاد التى يحكمونها

وفي أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة افتتح الدفتردار كوردفان وضمها الى املاك مصر

ولما دخلت كوردفان فى حوزة الحكومة المصرية لزم سلاطين دارفور

حدودهم وحشدوا جيوشا جرارة لصد تيار المصريين من بلادهم وكان الدفتردار ينوي التقدم الى بلادهم والقضاء على سلطنتهم فلم يثن عزمه غير نبأ قتل الامير اسماعيل باشا في شندي حيث قتل راجعا الى شندى كما تقدم لنا ذكر ذلك وبقيت مملكة دارفور حافظة لاستقلالها ولكن تجار المصريين الذين كانوا يألفون الشركات في النيل الابيض قوضوا سلطتها من بحر الغزال وكانت خاصعة لها وثقلت وطأة أولئك الحكام على الاهلين حيث ضاعفوا الضرائب على أثر فقدهم كوردفان وبحر الغزال وتوالت الحروب الاهلية والثورات الداخلية فضعفت المملكة وكانت نحل عزائم رجالها وأشهر هاته الثورات ثورة الرزيقات وهي قبيلة من البقارة يزيد عدد نفوسها على خمسمائة الف نسمة تسكن بادية جنوب دارفور وكانت هذه القبيلة شديدة الحمية وكثيرة الرغبة فى الاستقلال وقد ناهضت مملكة دارفور مرات عديدة وفي كل مرة تدور عليها الدائرة فتثوب الى الطاعة ريثما تسترد قوتها فتعود الى الثورة والحروب

ذكر فتح دارفور

يعلم الكل ما كان عليه المغفور له الخديوى اسماعيل باشا من حب اتساع المملكة ومتابعة الفتوحات ولذا وجه عنايته لفتح دارفور واستمال اليه كثيرا من تجارها وأغنيائها وذوى النفوذ فى بلاط سلطانها

وكان اقليم بحر الغزال يومئذٍ بايدي التجار لم تنشر الحكومة الخديوية نفوذها عليه وقد تقدم لنا ان غردون هو الذي أدخلها ضمن أملاك الخديو وقد باشرت انفاذ ذلك حيث انني أول حاكم عين لها وفي سنة ١٢٨٢ هجرية

وفد على المغفور له اسماعيل باشا رجل اسمه البلالى من أقرب مقربي سلطان دارفور وأصله من أهالي بورنو فاكرم وفادته واستشاره فى أمر فتح دارفور فاخبره بامر الشركات التجارية التي كانت متسلطة على دارفور وكان الزبير باشا وكيلا لشركة أبو عموري وهو تاجر مصري وكان يوسف باشا الشلالى وكيلا لاحدى الشركات وكذا النور بك عنقره ومع الزبير باشا نحو الفين من الجنود المعروفين باسم (بازنقر) ومع كل من يوسف باشا والنور بك عنقره اكثر من هذا العدد

وقصد البلالي ان يكون رسولا من قبل الخديو الى هؤلاء الثلاثة ويمدهم باراثه كي يهاجموا مملكة دار فور من الجنوب ليسهل على جنود الخديو مهاجمتها من الشرق

وعلى هذا العزم غادر القاهرة بعد ان انعم عليه الخديوي بالرتبة الثانية ثم غادر الخرطوم ولحق ببحر الغزال ونزل ضيفا على الزبير باشا وقبل انقضاء ايام الضيافة الثلاثة أرسل له بعض اتباعه في منتصف الليل وأمرهم بقتله فذبحوه على فراش نومه وحملوا رأسه الي الزبير

ولما علم الخديو بذبح رسوله امتلا غيظاً وصمم على الانتقام من قاتله ومفاجأته بحملة كبيرة تقتص منه فانتدب اسماعيل ايوب باشا لقيادة هذه الحملة وجعله حاكما على السودان وما كاد يبلغ الخرطوم حتي ندم الزبير على فعلته وأخذ يكتب الى الحكومة ويمدها بالاغارة على جنوب دارفور فارتأى اسماعيل أيوب باشا قبول وعده وتأجيل معاقبته لفرصة أخرى

وفى غضون ذلك كتب الزبير الى سلطان دارفور يقول ان العبيد لا دين لهم وهم عبدة أوثان يحل استرقاقهم شرعا فكتب اليه سلطان دارفور يقول

صدقت انه ليحل لنا استرقاق العبيد وباثمي (الشطيطه) لان الزبير من قبيلة الجمليين واهل دارفور يسمونهم بهذا الاسم لانهم يذهبون الى بلادهم تجارا بهذا الصنف

وفى أوائل سنة ١٢٩١ كان الزبير باشا والنور بك عنقره قد بلغا حدود دارفور وكان عرب الرزيقات التى تقدم لنا ذكرهم اعتدوا على قافلة من التجار كانت مجتازة بين دارفور وبحر الغزال فقتلوا رجالها ونهبوا متاعها فتذرع الزبير بهذا السبب وسأل سلطان دارفور تعويضاً عنها فامتنع وأرسل اليه بجيش جرار تحت قيادة وزيره أحمد شتا فتحالف الزبير مع عرب الرزيقات وقال لهم ان غلبني سلطان دارفور فكونوا معه عليّ وتأثروني بخيلكم واغنموا اسلابي وان أنا غلبته فكونوا معي عليه وافعلوا به ماتقدم فرضي الرزيقات بهذا الشرط وتقدم الوزير احمد شتا ورجاله في تيه عظيم نحو الزبير وسلاحهم الرماح والسيوف لا يعرفون ما البندقية وسروجهم مصفحة بالذهب فصب عليهم رصاصاً كالسيل فكانوا يظنونه رعداً قاصفاً ويتلون الآية « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » وسقط ألوف منهم قتلى وقتل قائدهم وأكابر قواده وانهزم الباقي وتمزق شملهم كل ممزق وتأثرهم فرسان الرزيقات وأثخنوهم قتلا ونهباً وأرسل الزبير يعلم اسماعيل أيوب باشا ويطلب منه المدد فسافر اليه مدير كوردفان في ثلاثة طوابير من الجنود النظاميين ومعه مدافع وسواريخ فاجتمع عليه وفتحوا مدينة (داره) وتحصنوا فيها وزحف اسماعيل أيوب باشا بعسكر كثيف من الخرطوم قاصداً دارفور ولما تحصن الجند فى داره جمع السلطان ابراهيم جنده وتقدم نحو داره حتى صار على مقربة من الحصن ففاجأه الجنود بنار حامية اضطرته الى التقهقر فرماه قومه بالجبن فقبض

على كثيرين منهم وزجهم في السجون وضرب أعناق كثير منهم ثم هاجمته الجنود فحمل هو وجماعة من بطانته وآل بيته ممسكا بيده سيفا حتى دخل وسط الجنود وهو يصيح أين صاحبكم الزبير بائع الشعليطة فصبوا عليه الرصاص كالمطر فسقط قتيلا هو وبطانته وذوو قرابته ودفنت جثته بالاكرام اللائق وتقدم الجنود نحو الفاشر عاصمة البلاد واستولوا عليها ونهبوا مافيها حتي كانت الريالات مبعثرة على وجه الارض والطرقات مملوءة منها وفي اليوم التالي وصل اسماعيل أيوب باشا الفاشر ونال حظاً كبيراً من الغنيمة واشتد الخلاف بينه وبين الزبير باشا الذى شخص الى القاهرة لمقابلة الخديو فمنعه من العودة وكان من أمره مانحن فى غنى عن ايراده ومن ثم خضعت بلاد دارفور للحكومة وقسمت ادارتها الى ثلاثة أقاليم (الفاشر) وهي مقر الحاكم العام و (داره) و (كبكابيه) ولكل اقليم مدير وعلى الكل المدير العام

ولما أبعد الزبير عن دار فور ظن ابنه سليمان انه وارثه وانه سيكون حاكما مستقلا على دارفور فخاب ظنه وفى غضون سياحة غوردون في اقليم دارفور دبر ابن الزبير مكيدة لقتله قبل أن يبلغ حصن (داره) وبينما كان ابن الزبير واعوانه يتشاورون فى الامر اجتازصفوفهم غوردون ودخل الحصن فاندهشوا حين سمعوا اطلاق المدافع للترحاب به

ولم يمض غير بضع دقائق حتى بعث يستدعي النور عنقره والسعيد حسين وكانا نخاسين مع ابن الزبير فحضرا وبعد أن جلسا أمر لهما بالقهوة والسجاير ثم سألهما عما دبراه مع ابن الزبير لاغتيال حياته فقالا ان ابن الزبير يريد القبض عليك واخذك أسيرا يستفك بك أباه من مصر فقال لهما ولماذا لم تنصحاه وتبينا

له مغبة مثل هذا الجنون فقالا انه محاط باشرار من رجال النخاسة وانه لا يصغي لنصحنا الا اذا كان موافقا لما يشير به أولئك الاشرار فصدقهما وأمر السعيد حسين بالتوجه الي (شكا) وجعله حاكما عليها وولي رفيقه جهة أخرى ثم استدعي ابن الزبير ومحضه النصح وحذره وخامة عاقبة الخروج علي الحكومة فتظاهر بالطاعـة فامره بمغادرة دارفور واللحاق ببحر الغزال ثم كان من أمره فيها ماتقدم لنا ايراده

ولما خرج ابن الزبير من عند غوردون استطال بالشتم على النور عنقره والسعيد حسـين فردا عليـه أقبح رد وقالا له لولانا لم يبلغ أبوك ذرة مما بلغ وانا سبب كل خير له وها نحن فارقناه وسيكون من وراء فراقنا اياه مايذهب بحياته وقد صدقت الايام قولهما وسيأتي ذكر السعيد الحسين وقتله في غضون حصار الخرطوم لخيانة ارتكبها

وقبل انصراف اسماعيل ايوب باشا من دارفور عين حسن حلمي باشا الجويسر حاكما عاما على أقاليمها وحشد فيها جيشا كثيفا كانت نفقاته عبئاً ثقيلا على كاهل الحـكومة الخديوية لان دخل البلاد لا يقوم بعشر تلك النفقات لاسباب منها ان الضرائب موزعة على القبائل بغير قيد فيؤدى الجباة جزأ طفيفا ممـا يجبونه ويأخذون الباقي لانفسهم

علي ان التعامل لم يكن بالذهب ولا بالفضة بل بقطع من القماش صنع أوروبا وكل ثلاثة أذرع قيمتها خمسة غروش مصرية وبقطع من خرق تصنع هناك اسمها (الدمور) ومن الاسباب الداعيـة لزيادة النفقة توالى الحروب الاهلية والثورات الداخلية من المطالبين بالملك من وزراء السـلاطين بالرغم عمـا اتخذته الحـكومة من الحيطة بالقبض على اكثرهم وارسالهم للقاهرة

وما كادت سلطة الحكومة تتم تلك البلاد حتي قام رجل من سلالة ملوكها يدعى هارون وعقد البيعة علي حربها ولقب نفسه بالرشيد واستصرخ سكان الجبال وبعد حروب كثيرة تمكنت الحكومة من طرده من البلاد حيث لجأ الي الجبال فاغتنم غردون هذه الفرصة لتقليل الحامية واقتصاد النفقات ثم تمكن غردون بدهائه من القاء النفرة والشقاق بين النخاسين ليتمكن من اراحة دارفور منهم وذلك بما أتاه مع النور عنقره والسعيد حسين وابن الزبير

وعلى أثر ذلك ثابت البلاد الى السكينة وأخلدت الى الطاعة ففاجأتها المهدوية بدعوتها وحروبها كما تبين ذلك

ذكر راي عبد القادر باشا في دارفور

قبل ان نذكر استيلاء المهدي عليها نأتي على ذكر رأى عبد القادر باشا في دارفور لكيلا يفوت القارئ الوقوف عليه فنقول . قد ذكرنا ان عبد القادر باشا كان يري ان المهدوية يمكن حصرها في اقليم كوردفان حتي تدب عقارب الاختلاف بين انصارها وحينئذ يكون القضاء عليها كما قدمنا ان المهدى كان ذا طموح شديد لدارفور لتكون طريقة الي السودان الغربى أو ملجأ يعتصم به من وجه الحكومة اذا أحس بالفشل وقد كان فى غضون حصاره الابيض يوالى ارسال الرواد ويسعي مجداً لاستمالة البيوت القديمة ويعد من بقي من ذرارى الملوك بارجاع الملك الى نصابه فقام دعاة كثيرون وجمعوا عصائب كثيرة فى امكنة مختلفة

على انهم لم يأتوا أمراً جللا بل جل ما أتوه انهم قطعوا الطرق بين المدن

وعطلوا سير البريد الذى لا يقدر علي السير الا اذا كان حراسه نحو الخمسمائة

وقد كان عبد القادر باشا يبحث على طريقة تعيد خطوط المواصلات مع دارفور ولو بطريق الصحراء المعروف بطريق الاربعين أو من طريق بحر الغزال فاذا تم له عمل كهذا كان أقل نتائجه تعزيز حامية دارفور حتي تصبح قادرة على مطاردة دعاة المهدية من البلاد والوقوف فى وجه المهدي والحيلولة بينه وبين دارفور

ولو اتخذت الحكومة من الحيطة مايمنع تقدمه على الخرطوم واتبعت مشورة عبد القادر باشا وعدلت عن ارسال حملة الجنرال هيكس كما سيأتي ذلك فى محله لكانت النتيجة مرضية وقاضية على المهدية فى كوردفان ولكن سبق السيف العذل

على انني أقول كلمة وهي ان الحكومة الخديوية بعد اخفائها لنصائح عبد القادر باشا مكنت المهدي من السودان ورضيت بالمذابح والفظائع التي ارتكبها المهدي وأول هذه المذابح حملة الجنرال هيكس التى أرسلتها كقطعان من الغنم تنتابها الذئاب من كل جهة

نقول ان حملة الجنرال هيكس أول هذه المذابح اذا قلنا ان الحكومة كانت معذورةً بسبب الثورة العرابية وغير قادرة على ملافاة ما تقدم من المذابح التي أولها واقعة (آبا) الى سقوط الابيض

هذا وقد علمت ان المال الذي كان يطلبه عبد القادر باشا للقيام بهذه الاعمال لا يتجاوز مائة الف جنيه وبهذا القدر الزهيد كانت الحكومة تقتصد بقية النفقات التي انفقتها مؤخرا علي ازالة دولة المهدية بعد ان دمرت البلاد وصيرتها خراباً لا تسترد حالتها الاولي الا بعد قرن

ذكر قدوم محمد خالد زقل من دارفور

وفى أواخر سنة ١٣٠٠ هجرية وفد محمد بك خالد زقل وكيل مديرية (داره) على المهدى قادما من دارفور برسالة من سلاطين باشا مدير عموم دارفور فاستقبله المهدي خارج المدينة وأطلق له مائة مدفع واستعرض جيوشه امامه وقدم له هدايا كثيرة من الجواري الحسان وقرأ كتابا من سلاطين باشا على رؤس الاشهاد فى المسجد يقول فيه « انى تركت النصرانية منذ زمان مديد واعتنقت الاسلام دينا وانى مسلم ومؤمن بالمهدى ومصدق بدعواه وأنا مستعد لتسليم البلاد والدخول فى دعوة المهدي » فأثني على سلاطين باشا ودعا له بخير وكان ذلك قبل هلاك حملة الجنرال هيكس ببضعة شهور

وهنا نورد ترجمة محمد خالد اتماما للفائدة فنقول انه دنقلي من أقارب المهدى يجتمع معه فى الجد الرابع استوطن أبوه دارفور وولد المترجم بها وكان يشتغل بالتجارة حتى حصل على ثروة عظيمة ثم صار وكيلا لمديرية (داره) وكان ذا دهاء وحيل وزقل لقب له

نعود الى ذكر كتاب سلاطين باشا فنقول يوجد هنالك كتاب بعثه سلاطين باشا ولكن مضمونه لم يكن كما قرأه المهدى وليس ببعيد ان يكون حرفه كعادته ليبعث به طمأنينة في قلوب انصاره حيث كانوا على وشك مناجزة الجنرال هيكس

وهنا ننقل تلك الاسباب عن سلاطين باشا نفسه فقد قال انه لما أحس بكثرة دعاة المهدى في البلاد أيقن أنه اذا عمد الى اعادتهم الى الطاعة بالقوة لا تلبث الذخيرة أن تنفد ولا يمكن الحصول على غيرها وحينئذ تكون

العاقبة بلا ريب وبالاً

وكان على (داره) مدير ايطالى توفى بالحمى وناب عنه فى وظيفته وكيله محمد خالد زقل وكان سلاطين باشا عالما بقرابته للمهدى وقد نميت اليه أخبار ميله اليه ودعوته له سراً فخاف سلاطين باشا العاقبة فشخص الى (داره) من الفاشر وهناك بث العيون على محمد خالد فتحققت ظنونه وزادت هواجسه منه وزاد الطين بلة انه تحقق تفاقم الخطب وأحس بميل كثيرين من الاهالي لجانب المهدى وعلم ان المهدي لايمنعه من ارسال جيش لاخذ دارفور عنوة الا تربصه لحملة الجنرال هيكس ففاتح محمد خالد فى مابلغه عنه فلم يجحد قرابته للمهدى ولكنه حلف ايماناً غليظة على انه باق على ولاء الحكومة والاخلاص لها فسأله سلاطين باشا أن يكون رسوله لدى المهدى ويحمل كتابه له ويعمل لتأخير زحفه على دارفور حتى الفراغ من حملة الجنرال هيكس فاذا كانت الغلبة عليها أسلم سلاطين باشا البلاد للمهدي وان كانت عليه كانت الحكومة جديرة بمكافئته وعلى ذلك بارح محمد خالد زقل دارفور وافداً على المهدى وكان من أمر الاحتفاء به ماأوردناه

هذا مارواه سلاطين باشا وقد أصحب محمد خالد احمد أغا الجريدلي قاوش أغاسى المديرية

وحكي لنا من نثق بروايته ان وفود زقل الي المهدي كان من الاشياء التى قدر بها المهدى على تسكين خواطر كثير من أنصاره الذين كانوا يحسبون ألف حساب لحملة الجنرال هيكس التى وصلت اليهم انباءها بغلو كثير فكانوا يتحدثون بما لديها من الاسلحة ومعدات القتال بكلام يبعد عن العقل مثل قولهم ان الجنود لايحملون أسلحة بل الرصاص ينقذف من أفواههم وعيونهم

وأنوفهم وان لديهم نيرانا تسير فى الجو كالسحاب ولا تترك شيأ مرت عليه من شجر ومدر الا جعلته رماداً ومثل ذلك كثير لو أوردنا ايراده لضاقت عنه المجلدات. ويقول كثير من ضباط حامية دارفور انهم كانوا يستطيعون النجاة والفرار من وجه المهدي بطريق الاربعين حيث ينتهي سيرهم في دنقله

وهذا زعم باطل لان حامية مؤلفة من بضعة آلاف شخص عدا عائلاتهم التى تبلغ أكثر من اثنى عشر ألف نسمة كيف تستطيع الهرب فى وسط صحراء لايقطعها الراكب في أقل من أربعين يوما وليس في هذه المسافة ماء غير أربعة مناهل فقط

وبقى محمد خالد في الابيض مع المهدى حتى فرغ من حملة الجنرال هيكس فأعاده الى دارفور وجعله حاكما عاما عليها وسيأتي ذكر ذلك بعد حملة الجنرال هيكس

ذكر حملة الجنرال هيكس باشا

لما قررت الحكومة بصفة رسمية ارسال حملة الجنرال هيكس أبلغ المهدي جواسيسه ماعولت عليه الحكومة فأصدر منشوراً يحض الناس فيه على الجهاد في سبيل الله وأمر المقاتلة أن يعسكروا خارج المدينة فكانوا يقضون الليل في المعسكر ويعودون فى الغداة الى المدينة وكان هو وخلفاؤه يفعلون كذلك وأصدر منشوراً الى القضاة والنواب بتأجيل نظر مايرفع اليهم من القضايا الي ما بعد الفراغ من الجهاد وكان ذلك قبل قدوم الحملة بنحو ستة شهور

وأخذ يستعرض جيشه مرتين فى الاسبوع. وصفة هذا الاستعراض أن

كل قبيلة تقف تحت رايتها وهو يمر عليهم ويقف عند كل راية يعظ من حولها ويحضهم على الجهاد في سبيل الله فينتحبون بالبكاء ويعضون الانامل شوقا الى الجهاد وفي الحقيقة ان الرجل كان واعظا بليغا يعرف كيف يتمكن من الانة قلوب أولئك الجهلاء الا أن مواعظه كانت مشوبة باكاذيب وخرافات لايقبلها غير أولئك الجهلاء ويكاد يكون وعظه خلوا من الحكم الدينية ويرجع إسنادها الي دعاويه الطويلة العريضة أمثال أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرني بكيت وكيت

على أن جميع هذه الاخبار المختلقة لايخفى اختلاقها على جاهل من عامة المسلمين مثال ذلك أنه كان يقول لهم ان رسول الله صلي الله عليه وسلم أخبرني بان اصحابي أفضل من أصحابه لانهم يحاربون النيران ويخوضون صفوف القنابل والرصاص بخلاف أصحابه صلى الله عليه وسلم فانهم ماحاربوا غير السيوف والرماح ولم يخوضوا غير صفوفها ولايخفى مافي ذلك من الكذب عمدا على الله ورسوله

وأدهى من ذلك كله دعواه أن فضله كفضل رسول الله صلى عليه وسلم لاينقص عنه شيئا وأن خليفته عبد الله التعايشي أفضل من ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه والخليفة على بن حلو افضل من موسى كليم الرحمن عليه السلام والخليفة محمد شريف أفضل من عيسي روح الله وكلمته عليه السلام

ودخل عليه مرة شاعر ينظم اشعارا باللغة العامية يدعى ابن التويم وكان يتغالى فى مدح المهدى حتى افتي كثير من العلماء بكفره واسروا فتواهم حيث أيقنوا أنهم ان اظهروها حكم عليهم بالكفر وقتلوا شر قتلة وقال للمهدي اطلب منك اعطائي مقاما فقال له اعطيتك مقام حسان بن ثابت رضي الله عنه فخنقته

العبرة وبكى وقال ياسيدى إن حسان كان شاعرا مثلي ولكنه كان جبانا لايقاتل مع مولاه وانا شجاع أخترق صفوف القتال وانا قائد عشيرتى فكيف أرضى بمقام حسان فقال له المهدي قد اضفنا لك مقام خالد بن الوليد رضي الله عنه على مقام حسان فانت اذن حائز للمقامين فاستبشر وقبل يد المهدي.ومنح أحد الموالى مقام زيد بن حارثة وسمى نساءه بامهات المؤمنين وسيأتي بيان ذلك فى غير هذا الموضع

ومن هاته الاكاذيب انه قال ان النبى صلى الله عليه وسلم أخبره بان حملة الجنرال هيكس مخذولة وان أرواح كل جنودها تحت مصلاه وانه اذا شاء قبض على تلك الارواح فيموت الجند جميعه قبل ان يغادر الخرطوم وانه اختار ان يتركها حتى تقدم عليه ليحرز أصحابه ثواب المجاهدين فى سبيل الله ويفوز من أراد الله به خيرا بالشهادة

وكان أولئك الجهلاء يتلقون هذه الاكاذيب بالارتياح والقبول ولا يجسر أحد على اظهار الشك فيها لان عقابه القتل فورا

وأرسل المهدي قائدا من قواده اسمه الحاج محمد أبو قرجه وعمر بن الياس أم برير ومعهما أربعون الف مقاتل من الجمليين والدناقلة وأمرهم ان يعسكروا فى مكان يدعى (البساطه) بالقرب من أم درمان فاذا غادرت الحملة أم درمان ساروا من خلفها بمسافة لا تزيد كثيرا عن مرمي المقذوفات النارية

وهنا نورد طرفا من ترجمة الحاج محمدأبو قرجه فنقول هو أول من حاصر الخرطوم ثم صار أميرا على السودان الشرقى واصله دنقلى استوطن اسلافه قرية (القطنية) التي تبعد عن الخرطوم بخمس مراحل على النيل الابيض وكان تاجرا متوسط الحال لحق بالمهدي في جبل قدير وصار قائدا من

قواد فرقة الخليفة شريف وكان من احزم أمراء المهدى واعقلهم تزوج ابنت حامد شقيق المهدى وكان الامراء يرمونه بالانغماس في الملاذ والعكوف على الشهوات لانه كان لا يجاريهم فى التغالي في الظهور بالزهد والتقشف كما عليه المهدي وخلفاؤه وقواده وجميع المقربين منه

وابتدأت الحملة سيرها من أم درمان براً وبحراً حتي بلغت (الدويم) وهي قرية على ضفة النيل الابيض تبعد عن الخرطوم بنحو عشر مراحل وهناك اجتمعت الالوية كلها وأخذت فى الاهبة للسير في الصحراء الى الابيض وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية

وأكره علاء الدين باشا نحو ثلاثين رجلا من التجار والموظفين الملكيين على مرافقته واناب عنه فى ادارة شؤون الحكمدارية وكيلها حسين باشا سرى

ورافقه دليلان أصلهما من قبيلة الجمع قدما الخرطوم بايعاز من المهدي وصارا دليلين لها ليسلكا بها الطريق المعطشة المملوءة بالغابات

وغادرت الحملة الدويم فى أواخر شهر ذى الحجة وكان عدد مقاتلها أربعة الوية مصرية نظامية كل لواء يتبعه اربعة آلاف مقاتل فالجملة ستة عشر الفا ومعها الف جندى من السواري لابسى الدروع والخود ونحو الف جندى سودانى وجنود أتراك غير نظاميين كلهم فرسان تحت قيادة الصناجق عبد العزيز بك ويحيي كامل بك وخير الدين بك

ورافق الحملة مكاتبان حربيان لجريدتي التيمس والدالنيوز الانكليزيتين وكان عدد الجمال المعدة لحمل الاثقال يربو على ثلاثين الفا عدا البغال واسلحتها من طرز رامنجتون واربعة مدافع كروب قطر تسعة وستة مدافع مترليوز

انكليزي بست طلقات وثلاثون مدفعا من الطراز الجبلي وستة عشر سازوخا حربياً أما الذخيرة الحربية فكثيرة جداً والأقوات كافية لمؤنة ستة شهور

وسارت الحملة من (الدويم) الى (شاة) ومنها الى عقبة وما كادت تغادر ضفة النيل حتى رأت العدو يقلقها بالجلبة والصياح فاضطرت ان تسير في شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكانت لا تقدر على المبيت الا في داخل زريبة من الشوك وكل جنود يبتعدون الزريبة عن لجلب الحشائش لعلف الدواب يقعون في يد العدو وقد مات اكثر الدواب من قلة العلف ولحق الجنود تعب كثير من قلة النوم لان العدو كان يقلقهم بصياحه في كل ليلة مرات عديدة فيقومون للاهبة لصد هجمته فيعود بغير قتال وهكذا حتي مطلع الفجر

ولما بلغت الحملة منهلاً اسمه (الرهد) يبعد عن الابيض مسيرة أربع مراحل قام المهدى يحرض قومه على الجهاد ويقول لهم اذا رأيتم العدو فكبروا ثم قولوا (اللهم نواصينا ونواصيهم بيدك وأنت القاتل لهم) وقبض العدو على الماني كان مهندسا في الحملة بينما كان يرسم بعض الغابات فارسله الي المهدي واكد سلاطين انه هو الذى ابلغه ما يقاسيه الجنود من التعب وماهم فيه من الخور واعتنق هذا الالمانى الاسلام وبقي أسيراً بيد المهدي حتى مات ببلاد الحبشة فاراً من الاسر

وكان الخلاف مستحكما بين الجنرال هيكس وعلاء الدين باشا حتى قيل ان اكثر الجنود والضباط كانوا يظهرون لهيكس الكراهة وعدم الطاعة

وفي يوم الجمعة مستهل محرم سنة ١٣٠١ هجرية وصلت الحملة الى (شيكان) وكان بها غدير مملوء بماء المطر وفى اليوم التالى زحف المهدي وعسكر في (البركة) على غدير ماء كان يخشى ان تسبقه الحملة اليه وكان عدد مقاتلته المشاة

نحو خمسمائة الف مسلحين بالحراب والسيوف ونحو ستين الف فارس من المسلحين بالبنادق وأصلهم من جنود الحكومة السود الذين غنمهم منها وكان يقودهم حمدان أبو عنجه

وفى صبيحة الاحد ثالث محرم هجم حمدان ابو عنجه بالفرسان على ركن من أركان الزريبة فوقف له الجنود وقفة الابطال فرجع بخسارة وقتل فى هذه الهجمة الميرالاى رجب صديق بك وجورجى بك طبيب الحملة وغنم العدو مدفعين من طرز متر ليوز ونحو عشرين جملاً وبالرغم عما كان فيه الجند من المتاعب تمكنوا من دحر العدو واعادة النظام وأصيب عبد الله بن النور من اكبر قواد المهدى برصاصة فى فخذه الايمن وقتل محمد فوزى كاتب المهدي وأصله رقيق ربته الحكومة فى مدرستها حتي صار تلغرافياً وأخيراً طرد من خدمة الحكومة لاسباب قانونية ثم لحق بالمهدى وقتل نحو الفين من مقاتلة العدو

وفى ذلك اليوم أى يوم الاحد فر جندي اسود وأبلغ المهدى ان الحملة فقدت الماء منذ أمس وان غدير (شيكان) نفد ماؤه ولم يبق فيه غير الوحل وان الجنود يأكلون الطين والاوحال من شدة الظمأ وقد تمردوا على ضباطهم وسقطت هيبة النظام من قلوبهم حتي أن الضابط اذا أمر الجنود بشيء لا يجاوبونه بغير الضرب وقد مضى عليهم اكثر من أربع وعشرين ساعة لم يذوقوا فيها طعم الماء وفى صباح الغد أى الاثنين رابع محرم ربما زحفوا على الابيض لانهم علموا بوجودكم فى البركة وخلو المدينة من المدافعين

فلما سمع المهدى هذه الانباء جمع خلفاءه وقواده والقي عليهم خطبه قال فيها ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بهلاك الحملة في صبيحة الغد لو لم

تتقدموا نحوها

وفى صباح يوم الاثنين الرابع من محرم صلى المهدى بفلس وقسم جنده على ثلاث فرق وأمرهم بالهجوم على الحملة التي كانت غادرت شيكان سائرةً الى الابيض بنحو ميل وكانت تسير بغير انتظام بسبب ما يقاسيه رجالها من الظمأ فهجم عليها العدو فى غضون السير فلم تستطع المقاومة فانقض عليها وذبح كل الجنود ولم ينج منهم الا مائة وعشرون جنديا مصريا وضابطان من رتبة ملازم اسم أحدهما محمد حلمي والآخر محمد عزمي وأخذ الدراويش يجردون القتلى من ملابسهم ويطلقون النيران فى أجسامهم مدعين ان النار انما تأكل أجسامهم اظهاراً لكفرهم وكرامة من كرامات المهدي وزعم المهدي ان احراق النار علامة على ان الملائكة هم الذين قتلوهم لانهم حاربوا معه فى هذه الواقعة كما حاربوا مع النبي صلي الله عليه وسلم فى بدر. وقتل علاء الدين باشا والجنرال هيكس وحسين باشا مظهر ونجا تاجر من الابيض اسمه عبد الرحمن بان النقا وهو ابن الحاج بان النقا الذى تقدم لنا ذكره مع تجار الابيض وكان المهدى أوصى بعدم قتله لانه كان مسجوناً مع الحملة حيث ثبتت خيانته وانه كان عيناً للمهدى عليها

وفرق المهدي الناجين من رجال الحملة عبيدا للامراء واكد عليهم باستخدامهم فى خدمة خيولهم وأقام ستة أيام فى البركة ريثما أتم بيت المال جمع الغنائم والاسلحة وقفل راجعاً الى الابيض

هذه تفاصيل مهلك حملة الجنرال هيكس التي لايخفى ماخامر الناس من الحزن والذهول لما اتصلت بهم أنباؤها في الخرطوم ومصر وقد كان عبد القادر باشا يرى أن لالزوم لارسال هاته الحملة بعد ان سقطت

الابيض فى قبضـة المهدى وان خير طريقة يستخدم فيها هـذا الجيش هو اقامة معسكرات منيعة على ضـفة النيـل الابيض عند حدود كردفان لتمنع تقدم المهدى على الخرطوم من جهة ومن جهة أخرى تناوش حدوده لتضطره الى مهاجمتها اذ لاشك انه يعود مدحوراً منها وقـد أدرك القاريء انه كان لايستطيع الغلبـة على حاميات الحكومة بغير الحصار وفقـد الاقوات أو الماء كما حصـل فى سقوط الابيض وهلاك هاته الحملة التعيسة وبديهى ان المهدي كان لايستطيع الغلبة عليها مادامت محصنة على ضفة النيل وذخيرتها وميرتها تصل اليها من الخرطوم على طريق النيل

وبهذه الطريقة ينجو بقية السودان من الوقوع تحت براثن المهدية ويصبح من المستحيل عليه لاستيلاء على الخرطوم ونشر نفوذه فى السودان كله

على ان حصر المهـدية في اقليم كوردفان بضع سـنين كان ذا نتيجة مرضية لجانب الحكومة لو لم ترسل الجنرال هيكس لان المهدى جمع حوله من المقاتلة مثل العدد الذى ذكرناه ولا بد له من نفقات تقوم بحاجات هذه النفوس ومن أين يقوى اقليم كوردفان على القيام بهذه الاشياء وقد تناقص محصول الزراعة بسبب ان اكثر المزارعين صاروا جنداً وهجروا المزارع وسكنوا الابيض مع المهدى وكانت تجارة الصمغ معين ثروة كبيرة لهذا الاقليم وقد أبطلها المهدي

وعليه لايلبث المهدي اذا منع من التقدم الى الخرطوم أن يضطر الي وضع ضرائب فادحة على الاهالى لتقوم بنفقاته وحاميتـه ولا ريب ان تلك الضرائب تستنفد كل ثروة كوردفان فى عام واحد وفى الثانى تـكون مجاعة يعجز معها من تقديم الاقوات للذين جاؤا معه من القبائل المسـتوطنة فى

جبال قدير وفي أطراف دارفور ولا بد أن أكابر التواد يمدون أيديهم ويبيعون ما بأيدي قبائل كوردفان فتعم الثمرة بينهما ولا يخفي ان المهدى كان يقسم كل ماغنمه لاستمالة الناس وليوهمهم انه منزه عن ادخار المال وان أمنيته هي الدار الآخرة

وبناء على هذه الاسباب يرى المتأمل ان الحكومة أخطأت الصواب بارسال هذه الحملة بل قدمت السودان لقمة دسمة للمهدي ثم هي أصرت على خطئها ولم تشأ انقاذ السودان بعد هذه الحملة وذلك انها صمت آذانها عن ارسال جنود مع غوردون باشا حيث كان في الامكان اعادة حفظ الحالة التي كان عليها المهدى قبل ارسال الحملة ولكنّ ارادة الله غالبة على كل شيء لا راد لقضائه ولا حائل دون مشيئته

ذكر ترك السودان

فقدت الحكومة كل جلد لما اتصل بها نبأ فشل حملة الجنرال هيكس وكان أول عمل أتته ان كتبت الى الحكمدارية تأمرها باجلاء الحاميات من الدويم والكوة وفشوده وسنار لتعزيز حامية الخرطوم وأمرت بترحيل المصريين على نفقاتها تدريجا للجلاء عن الخرطوم فأخلت مراكز الدويم والكوة وفشوده من حامياتها وكان ذلك بمثابة أمر صريح من الحكومة لعموم سكان السودان بالانضواء الى راية المهدي والخضوع لجبروته

وكان دعاة المهدى حوالى الخرطوم وسنار لا يجرأون على الظهور بالدعوة خوفا من الحكومة فكتب لهم المهدي يبشرهم بما أتيح له من الفوز ويأمرهم باظهار الدعوة ومناوأة الحكومة وسيأتي تفصيل ذلك على حدة

ووثب احمد بن المكاشفى الذى تقدم لنا ذكره وحشد نحو سبعين ألف مقاتل حاصر بهم سنار ومنع الحامية من انفاذ أمر اخلائها وسيأتي ذكر ذلك

وزاد الطين بلة صدور أمر هال بترك السودان وأخذ أهل الخرطوم ينزحون الى بربر وأحصى من فيها من المصريين فبلغوا أكثر من مائتى ألف نسمة يتعذر اجلاؤهم عن الخرطوم فى أقل من سنتين وعادت القلاقل ودخل السكان أجمعون فى طاعة المهدى فكانوا يجتمعون خارج القرى والمدن ويضربون الطبول ويخلعون ملابسهم ويستبدلونها بالجبب المرقعة التى هى شمار المهدية ويرسلون منهم وفداً الى المهدى لتقديم الطاعة والخضوع ولم يعد للحكومة نفوذ وسقطت هيبتها وكان المهدى لا يقطع بان الحكومة عاجزة عن ارسال جنود تمنع تقدمه على الخرطوم ولذلك عاد الى الابيض وصوب عزمته لاسقاط دارفور كما سيأتى ذكر ذلك فى مكانه

ذكر فرار وكيل مديرية الخرطوم ولحاقه بالمهدي

أشرنا الى أعمال محمد علاء الدين باشا حيث أباح وظائف الحكومة الى تجار السودانيين فجعلوا يتزلفون الى المهدي بايقافه على الاسرار التى تدبرها الحكومة وكان من بين أولئك التجار رجل اسمه محمد الجزولى توصل لمنصب وكالة المديرية مع عدم الاهلية ثم أرسلته الحكومة لجباية الضريبة من جهة المسلمية التى هى وطنه الاصلي فاجتمع لديه اكثر من اثنى عشر الف جنيه ثم اتصل به صدور أمر الحكومة بترك السودان فقبض على من معه من موظفى الحكومة وشخص الي المهدي بالابيض ودفع له المال وأطلعه على ما عولت عليه الحكومة من ترك السودان فكاد يطير من الفرح وأطلق مائة مدفع

وادعي ان النبي صلي الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء على الخرطوم وأن اصحابه سيغنمون اموالهم كما غنم اصحابه صلى الله عليه وسلم أموال الفرس والروم

وكان لمحمد الجزولي عم يدعى محمد التلب مات مع حملة الجنرال هيكس وكانت له أموال فاستولى عليها ابن أخيه هذا واودعها تاجراً ذهب بها الى مصر

ولما ولي التمايشي قبض على محمد الجزولى وشدد عليه فى اداء مال عمه لانه لبيت المال وبقى معذبا فى السجن عدة سنوات حتي مرض به ومات بعد اخراجه منه بايام يسيرة ولم ينتفع بنوه بشيء مما اغتاله من مال عمه بل ذهب كل ما كان يملكه لبيت المال واغتال التاجر ما اودعه من المال وهكذا مغبة الظلم ومصير الظلمة

ذكر سقوط دارفور

ذكرنا ما كان من أمر سلاتين باشا وانفاذه محمد خالد زقل للمهدي

ولما هلكت حملة الجنرال هيكس رفع أهالى دارفور رؤسهم الى الثورة وجاهروا بخلع طاعه الحكومة واجتمع جيش كبير من الثوار وحاصروا سلاطين باشا فى داره فشاور ضباط الحامية وسائر الموظفين الذين رأوا عدم قدرتهم على الدفاع وانهم اذا دافعوا لا يمكن ايصال نجدة اليهم بعد هلاك حملة الجنرال هيكس وتقلص نفوذ الحكومة من كوردفان فكتب سلاطين باشا كتابا الى المهدي عرض فيه التسليم على شرط ان يكون عمال الحكومة آمنين على أرواحهم وأموالهم فاستدعي المهدى محمد خالد زقل وكتب له منشوراً بالولاية على دارفور من قبله وأوصاه باستصفاء أموال عمال الحكومة عدا سلاطين باشا فقد أوصاه باكرامه ومراعاته وأن لا يمسه

بسوء وانتدب عمر بن الياس أم برير ومعه نحو عشرة آلاف مقاتل لمرافقة محمد خالد وعززه بجيش يزيد على أربعين ألفاً وخرج لوداعهم مسيرة ستة أميال ثم عاد الى الابيض

ولما وصل محمد خالد الى ظاهر داره خرج للقائه سلاطين باشا ومعه الضباط والعساكر ودخلوا المدينة وأبرز محمد خالد كتاباً من المهدى الى سلاطين يعلمه فيه بأنه عين أميراً على دارفور وأكد عليه في طاعته وبعد تلاوة الكتاب شرع محمد خالد في استلام الجبهخانات والاسلحة وما في خزينة الحكومة وبعد الفراغ قبض على عموم الضباط والموظفين وصادر أموالهم وشرع فى تعذيبهم ليدلوا على ماخبأوه من أموالهم وقتل كثيرين منهم بالتعذيب

وكان من بين الضباط رجل اسمه حماده افندى رتبته صاغقول أغاسي وكان ذا ثروة تبلغ الخمسة آلاف جنيه غادر القاهرة بنحو ألفين منها وحصل على الباقى من الاقتصاد لانه كان مشهوراً بالبخل والحرص فأمسكه الدراويش وشرعوا فى تعذيبه عدة أيام فكان يتحمل التعذيب بثبات غريب ويشتم معذبيه ويقول لهم لماذا تضربونى فيقولون له لتدل على مالك فيقول اذا كان مالي فأى دخل لكم في اخفائه أو اظهاره فيقولون انه مال المهدى فيقول لهم هل مات أبوه وتركه عندي أم كيف تقولون ماله فيشتدون عليه بالضرب والتعذيب ولسانه لايسكت عن سب المهدى عليه وأخيراً توفي من شدة التعذيب ولم تسمح نفسه أن يدلهم على ماله وقال لهم لو كان مهديا لعرف المكان المخبوء فيه المال

ولما فرغ محمد خالد من مصادرة أموال المصريين بعث بالاموال الى المهدى وخلفائه وأرسل ألوفا من نساء المصريين كمحظيات للمهدى وخلفائه

واستكتب سلاطين كتابا الى السيد بك جمعه مدير الفاشر يأمره بالتسليم للمهدى وجمع محمد خالد أموالاً كثيرة وبنى داراً لسكناه وتزوج بأخت سلطان دارفور وابتسم له ثغر السعادة وأخذ في الاهبة والاستعداد للزحف على الفاشر

ويروى عن بعضهم ان سلاطين باشا لما أنفذ محمد خالد لم يشأ ابلاغ الضباط بما كان بينهما من الاتفاق وما دبراه لدفع شرور المهدى عن دارفور ريثما ينظران عاقبة حملة الجنرال هيكس فثار الجنود وهجموا على دار محمد خالد ونهبوها حتي ألحقوا العار ببناته وسجنوا كثيراً من ذوي قرابته والمنتمين اليه وما زالوا مسجونين حتي أطلقهم سلاطين باشا يوم خروجه للقاء محمد خالد ونقل لنا واحد من أولئك المسجونين ان محمد خالد لم يعمد الي نهب أموال الضباط عملا بأوامر المهدى كما أشيع بل لينتقم منهم على فعلهم بال بيته ونهبهم داره

على ان هذه الرواية قريبة من الصحة وقد سألناه لماذا لم يشرك معهم سلاطين باشا فقال لاني كنت عالما بانه غير راض عن فعلهم وانهم كانوا قد هددوه ظناً منهم انه أرسل محمد خالد ليسلم البلاد الى المهدى في حين أن ارساله كان خدعة ليؤخر تقدم المهدى الى دارفور ريثما ينظرون ما يصير بينه وبين حملة الجنرال هيكس وعلى كل حال كان وقوع دارفور في قبضة المهدي ضربة قاضية

ونقل لنا كثير من الضباط ان سلاطين باشا لما رأي ما أتاه محمد خالد مع المصريين من العذاب الاليم كادت نفسه تزهق وفقد صوابه وذهب الى دار محمد خالد وقال له على رؤوس الاشهاد لو كنت اعلم انكم تعاملون ضباطي بهذه المعاملة لاصليتكم حربا يشيب لهولها الطفل الرضيع ولسمحت

بموت هؤلاء الرجال في سا .ة الحرب، وانا على يقين بان الواحد منهم لا يموت الا بعد ان يقتل عشرة منكم فاخذ محمد يلاطفه ويلين له الكلام وأوصى بتخفيف العذاب عن بعض الضباط وأطلق البعض. وكان بعض الحاضرين يتوقع شرا يصيب سلاطين باشا على أثر تهديده لمحمد خالد فخاب ظنهم ولم يلحقه مكروه

ذكر سقوط مديرية كبكابيه

كبكابيه قاعدة الاقليم الشمالي من الفاشر وقد تقدم لنا ذكرها وكان حاكمها ضابطا سودانيا يدعي آدم أفندي عامر وكان رقيقاً ثم انتظم في سلك الجندية النظامية حتي بلغ رتبة البكباشي

ولما استولى محمد خالد على داره كتب آدم أفندى الى سلاطين باشا بصفته مديرا عاما يستشيره عما يفعله فوقع الكتاب فى يد محمد خالد فامر سلاطين باشا ان يكتب له كتابا يضمنه انه مصدق بمهدية المهدى وانه لا طاقة له بمقاومته وينصح له ان يفعل مثله حذراً من ان يخسر الدنيا والآخرة فاطاع سلاطين باشا وكتب كما شاء محمد خالد

ولما وصل الكتاب الى آدم أفندي اعلن دخوله فى طاعة المهدى وخلع طاعة الحكومة وأرسل وفدا الى المهدى ليبلغوه الامر فتقبل الوفد بالحفاوة وكتب منشورا اثنى فيه على آدم أفندي وجعله أميرا من قبله على الاقليم وقائدا على الجند وأرسل له راية عليها شعاره وأمر ان يزحف بمن معه من المقاتلة والاسلحة والمدافع وينضموا الى محمد خالد الذي كان وقتئذ على وشك الزحف على الفاشر

وكتب المهدى أماناً لعامر أفندي ومن معه من الضباط والموظفين واكد ان لا يمسهم أحد بسوء في أموالهم واعراضهم وقد كان ذلك ولم يصبهم ما أصاب غيرهم من الظلم والحيف ومصادرة الاموال وهتك الاعراض وما ذاك الا لانهم سودانيون غير مصريين

ذكر سقوط الفاشر

مدينة الفاشر هي عاصمة دارفور منذ دخولها فى حوزة المصريين وكانت مقراً لسلاطين دارفور

وقد ذكرنا ان سلاطين باشا كان مقيما بها ولكنه غادرها على أثر وفاة مدير (داره) الايطالى وكان السيد بك جمعه مديراً عليها وقومنداناً لحاميتها وهو ضابط مصرى

ولما استولى محمد خالد علي (داره) خاطب مدير الفاشر ودعاه للتسليم والدخول في طاعة المهدي على الشرط الذى قبلته حامية داره فاجابه بالرضا والقبول ولما اتصل به نبأ مافعله محمد خالد بحامية داره وما عامل به الضباط من النهب والسلب وأنواع التعذيب صمم على نكث العهد والدفاع حتي آخر لحظة من الحياة فتقدم نحوه بجيش جرار ومعه مدافع وسواريخ وجميع الاسلحة التي انفذها معه المهدي والتي غنمها من حاميات دارفور وهجم على الفاشر ليأخذها عنوةً فقابلته ببسالة عظيمة رالزمته التقهقر بخسائر جمة

وكانت الآبار التى تستقي منها الحامية خارج الاستحكامات ولا آبار بداخله فهجم العدو ليلا على تلك الآبار وردمها وأصبحت الحامية بلاماء تقاسي الظمأ ثلاثة ايام فاضطرت الي التسليم ودخل محمد خالد المدينة وضاعف عذاب

الخامية ونهب أموال رجالها وسبى نساءهم وساق منها قطعانا كالنعم بعث بها
الى المهدى وخلفائه

وقبض على السيد بك جمعه وكان محمد خالد ينوى قتله ولكنه عدل
عن ذلك ونفاه بجهة (كرش) وبقي منفيا حتى غادر محمد خالد دارفور فأطلقه

ذكر مسألة الجبخانه بدارفور

كان بحامية (داره) ضابط صغير اسمه محمد سليمان وهو من الارقاء الذين
ترقوا تحت السلاح وبعد سقوط الفاشر جعله محمد خالد قائدا على الجنود
السود الذين غنمهم من الحكومة وجعل على حراسة الجب خانات ضابطا
مصريا اسمه محمد أفندي اللقانى فاقره محمد خالد في وظيفته ومعه عشرة من صف
ضباط مصريون يشتغلون فى الجب خانات بمثل تعبئة الخرطوش وغيرها
وكان محمد سليمان طامعا لوظيفة محمد اللقانى ليكون ذا وظيفتين فاوعز الى
رجل من اتباعه أن يقذف في الجب خانه قبسا من النار في الوقت الذي يكون
العمال مشتغلين فيه باشغالهم ففعل والتهب البارود وتقاذفت القنابل واحترق
محمد اللقاني وخمسة من عماله ونجا خمسة منهم كانوا قد تغيبوا عن الجب خانة
في قضاء حوائج لهم فدخل محمد سليمان على محمد خالد وقال له الم امحضك
النصح باجتناب اللقانى وسائر قومه المصريين فانهم احرقوا الجب خانه من
تلقاء انفسهم ليموتوا ويتلفوها اضرارا بنا وان الخمسة الذين كانوا خارج الجب
خانه هم الذين رموها بقبس النار فقبض عليهم وضربت اعناقهم لانهم كذلك
مصريون رحمة الله عليهم أجمعين

ذكر قتل عمر اغا ترحوه

ذكرنا أن المهدي بعث عمر بن الياس ام بربر مع محمد خالد الى دارفور وقد تقدم لنا الاشارة الي المنكرات التي كان يأتيها ابوه الياس ام بربر والى ماكان منه من الانحياز لجانب المهدي وشدة بغضه للحكومة

وكان في دارفور صنجق اسمه عمر اغا ترحوه مشهور بالشجاعة والاقدام وله اليد البيضاء فى الحروب التي رفعت أوزارها بين الحكومة والسلطان هارون الرشيد المطالب بعرش دارفور وانه هو الذي قتل وزيره سعد الذي جاء قتله سبب فشل مولاه ولذلك قصة لا باس من ايرادها هنا

وهي أن القائمقام على بك شريف شريف كوردفان الذى تقدم لنا ذكر قتله مع محمد سعيد باشا كان يقود قوة لمطاردة هارون ووزيره فدرامنه واوغلا فى الغابات فتأثرهما حتى لحق التعب فرسانه فأحجموا عن المطاردة الا عمر أغا ترحوه فانه تابع المطاردة بنفسه بالرغم مالحقه من التعب وفقدان الرفيق حتى أدرك الوزير وقتله وحز رأسه فنازعه نعيم الموس (أغا) وقتها (باشا) وادعى انه الذي قتله وبعد التحقيق ظهر فساد دعواه فعينت الحكومة عمر أغا ترحوه وجعلته قائداً على أربعمائة جندي من الباشبوزق

ولما استولى محمد خالد على (داره) أكرمه وجعله قائداً من قواده وبعثه مع عمر بن الياس لمصادرة أموال قبيلة من الاعراب أظهرت عدم الطاعة للمهدوية فجعل عمر بن الياس همه في احراز المال وانفاذه الي أبيه في الابيض ويقال انه أنفذ أكثر من ثلثمائة ألف ريال فخاف أن يكون عمر أغا ترحوه عيناً عليه من قبل محمد خالد فرماه عنده بانه يدبر مكيدة ضده وانه ينوي

الكبابيش ومن معهم ان يتركوا جميع العوائد المخالفة للكتاب والسنة واتركوا نهب أموال المسلمين ولا تتعرضوا لأحد بعد ذلك وأقيموا الصلوات في أوقاتها واخرجوا زكاة أموالكم واحضروا عندنا سريعا بدار الهجرة فانها واجبة على كل مسلم فاذا فهمتم ما ذكر فافعلوا جميع ما أمرناكم به وارجعوا لجماعة جهينة مالهم كله فان سمعتم ما ذكر فعليكم امان الله ورسوله وتفوزوا برضاء الله وان خالفتم أمرنا هذا فعليكم غضب الله ورسوله بمخالفتكم لامر الله ولا بد من مجازاتكم وخراب دياركم والسلام التاريخ ٢٠ رجب سنة ١٢٩٩»

ولما وصل الكتاب الي المرسل اليهم اذعنوا بالخضوع للمهدي وهم يبطنون له العداء وفعلوا ما أمرهم به ووفد على المهدي التوم بن فضل الله تائباً عما فرط من قومه واثقا بامان المهدي

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الاول سنة ١٣٠١ قبض التعايشي على التوم وعجيل زعيم قبيلة الرزيقات التي ذكرناها في الكلام على دارفور وضرب عنقيهما فتأثر الناس لانهم لم يعلموا من سبب لذلك واجتمع الخليفة شريف ابن عم المهدي وعمه عبد القادر ساتي على ومحمود عبد القادر وغيرهم من ذوي قرابته ودخلوا على المهدي وسألوه هل أمر التعايشي بقتل ذينك الرجلين فاجابهم سلباً وانحدرت الدموع من عينيه فقالوا له ان التعايشي فعل هذه الفعلة لينفر الناس من مهديتك ويشوه سمعتك فاعزله وولّ أحدنا مكانه وهاهو محمود عبد القادر خير كفؤ لهذه الخلافة فلم يجبهم بغير الاسترسال في البكاء وأخيراً أمرهم بالانصراف حتي يأتيه النبي صلى الله عليه وسلم ويرشده الى حل هذه المشكلة وزاره التعايشي فامره بلزوم بيته ريثما يأتيه النبي صلى الله عليه وسلم

تقدم لنا ذكرها وسماه عبد القادر سلاطين وأمره بلزوم باب المهدي والائتمار بأمره وسيأتي ذكر بقية أخباره

والفرس التي أهداها له مادبو تسمى (صقر الدجاج) أى انها سريعة فى اقتفاء أثر النعام وادراك الصيد لان صاحبها كان يقتنص بها

ذكر قتل آدم امدبالومك تقلي

ذكرنا فيما تقدم بعض الايضاح عن جبال تقلي وهنا نذكر ان المهدي لما كان فاراً من وجه الحكومة الى جبل قدير تقابل مع آدم ام دبالومك جبال تقلى فأكرم وفادته وأضافه خمسة وعشرين يوما وأهدي اليه شيأ كثيرا من التبر والماشية وأمده بخمسمائة فارس من قومه أوصلوه الى جبل قدير وقفلوا راجعين الي جبال تقلى

ولما ظفر المهدى بحملة الجنرال هيكس رغب الى الملك آدم أن يزوره فى الابيض فأجاب الدعوة وقدم فى عدد كبير من قومه ومعه مائتا فارس مسربلين بالدروع والخود وخيولهم مغطاة بمخيشات من القطن فخرج المهدي للقائه بجميع جيشه وأطلق له مائة مدفع ترحيبا بقدمه واستعرض له جيشه وأطلقت نيران البنادق أيضا ونصبت له السرادقات ونحرت النوق لطعامهم ومكثوا أكثر من أربعة أسابيع وبلغت درجة اكرام المهدي له انه كان يحمل قصعة طعامه بنفسه الى أن يضعها بين يديه حتى حسده التعايشى الذى كان يخاف على مركزه من أى انسان يحس باقبال المهدى عليه

وكان الملك آدم استأذن المهدي في العودة الى بلاده فاغتنم التعايشي هذه

الفرصة وأشار على المهدى أن لا يأذن له فى العودة ويسأله مرافقته الي الخرطوم للجهاد معه فانكر عليه المهدى هذا الرأى فاقنعه بانه لا يرغب فى هذا الامر وانما يقصد اختباره ويتأكد من طاعته للمهدي ففعل المهدي فلم يظهر من الملك آدم غير الاستحسان والطاعة ثم عاد التعايشي لانفاذ بقية مقاصده فنقل الى المهدي ان الملك آدم ممتعض منه وانه ساخط من فعلته وقد أظهر سخطه لكثير من الامراء حيث قال لهم ان مهديكم كذاب ولا وعد له وقد غرربي وابعدنى من بلادي ثم انه يريد مرافقتي له حتى يفرغ من الخرطوم وقد نكث العهد الذي أعطانيه حيث وعدنى بالاوبة بعد ايام يسيرة وما زال التعايشى يسعي به حتى أصدر المهدى منشوراً زعم فيه ان النبى صلى الله عليه وسلم أمره بقتل الملك آدم أم دبالو وقاضيه الفقيه أحمد لانهما غير مصدقين بدعوته فضربت اعناقهما وسط الجيش الذى استقبلا فيه واسترضاه والي الله تصير الامور

وهنا نورد صورة كتاب أصدره المهدي نقلا عن الجزء الثانى من كتاب منشورات المهدي المطبوع بعد سقوط الخرطوم صحيفة ٣٦ ومنه يفهم ان جبال تقلى دانت بالطاعة للمهدى وانه يعتبر ملكها كحاكم من قبله وهو

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن عبد الله الي أهل جبل الكدرو والصبي والمندل والتمتل وكافة أهل الجبال المؤمنين بالله ورسوله وتابعين لامرنا فقد أمرنا عليكم عمر بن الملك آدم فقوموا كلكم بحروبكم معه الى قتال الدلج الترك والنصاري ولا تتأخروا عن القيام مع الملك عمر

فمن خالفه فقد خالفنا ولا عهد له عندنا ولا يلومن الا نفسه والسلام التاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٩٩ »

ذكر قتل المنه

ذكرنا ما كان من أمر المنه وقيامه بدعوة المهدى فى كوردفان واستيلائه على الطيارة وقد بينا ما أتاه من الفظائع والمنكرات

وكان المهدي يعده بتبوأ منصب خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ولما زحف المهدي على الابيض اجتمع عليه «المنه» وزاد في اكرامه وكان يروح ويغدو الي المهدى وحوله نحو عشرين من خدامه شاهرى السيوف حوله خلافا لما كانت عليه عادة المهدي من عدم السماح لغير الخلفاء ان يحيط بهم أناس كحراس اظهاراً لعلو مراتبهم

وكان المنه يضايق المهدي ويستنجزه ما وعده به من منصب الخلافة فيعده من يوم لآخر لانه كان ينوى خدعة السيد محمد المهدى بن السنوسي المشهور بهذا المنصب كما سيأتي ذكر ذلك على حدة

وقد اغتر المنه بوعود المهدي وأخذ يذيع بين الناس انه رابع الخلفاء وكان شديد البغض للخليفة عبد الله التعايشي ويكثر من الوشاية به عند المهدي الذي كان لاتتبدل ثقته فى التعايشي ولكنه كان يدارى المنه ويخادعه لماله من المنزلة عند قبيلتي (الجمع والجوامعه) اللتين تسكنان شرق اقليم كوردفان الذى هو طريق حملة الجنرال هيكس حيث كان المهدى يخشي انتقاض هاتين القبيلتين عليه وانضمامهما الى الحملة

ولما فرغ المهدى من أمر هذه الحملة لم يعد قادراً على احتمال ماوقر فى نفسه من المنه فاشخصه الى جهة الطيارة وكتب له بالامارة المطلقة عليها فغادر الابيض ولحق بقرية له خارج المدينة وبعد أسبوع انتدب التعايشى الفي مقاتل من حملة البنادق والفين من الفرسان تحت قيادة حمدان ابي عنجه وسلمه كتاباً من المهدي يأمره فيه بمغادرة الابيض بمن معه من المقاتلة ولا يشعر أحدا بوجهة سيره حتى يدرك المنه ويقبض عليه على غرة ويضرب عنقه ويأتيه برأسه ويصادر جميع أمواله فسار حمدان وبلغ القرية قبيل الفجر واحاط بها احاطة السوار بالمعصم وقبض عليه على فراش نومه وقبض على أخيه ووكيله واوثقوا كتافا وقادهم الي الطيارة وضرب اعناقهم بجانب الحصن الذى ذبح فيه المنه حامية الطيارة

ولما دنا الجلاد ليضرب عنقه رفع رأسه وقال للحاضرين «اشهدوا أنني لم أذنب ذنباً غير قتلي للمصريين الذين كانوا بهذا الحصن وقد اغتررت بوعود الظالم المهدى وأعنته فانتقم الله مني وسلطه عليّ ومن أعان ظالما سلط عليه» وحملت الرؤس للمهدى الذي أعلن بان النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بان المنه منافق ايمانه لا يتجاوز تراقيه وانه ادعى الخلافة كذبا وبهتانا ولذلك قتله وأظهر التعايشي كتاباً من المنه الي المهدى يقول فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بانه الخليفة الرابع وانه وارث مقام ذي النورين عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان وانه صلي الله عليه أمره بمقاومة المهدى اذا لم يرضخ لهذا القول

على أن هذا الكتاب ملفق لم يكتبه المنه بل اختلق ذريعة لتبرير عملهم وتسكين خواطر الذين ساعدوا المهدى على امتلاك البلاد واذلال العباد

ذكر قتل عمر اغا ترحوه

ذكرنا أن المهدي بعث عمر بن الياس أم بوير مع محمد خالد الى دارفور وقد تقدم لنا الاشارة الي المنكرات التى كان يأتيها ابوه الياس ام بوير والي ماكان منه من الانحياز لجانب المهدى وشدة بغضه للحكومة

وكان في دارفور صنجق اسمه عمر اغا ترحوه مشهور بالشجاعة والاقدام وله اليد البيضاء فى الحروب التى رفعت أوزارها بين الحكومة والمسمي هارون الرشيد المطالب بعرش دارفور وانه هو الذى قتل وزيره سعد الذي جاء قتله سبب فشل مولاه ولذلك قصة لا باس من ايرادها هنا

وهى أن القائمقام على بك شريف شهيد كوردفان الذى تقدم لنا ذكر قتله مع محمد سعيد باشا كان يقود قوة لمطاردة هارون ووزيره ففرامنه واوغلا فى الغابات فتأثرهما حتى لحق التعب فرسانه فأحجموا عن المطاردة الا عمر أغا ترحوه فانه تابع المطاردة بنفسه بالرغم عما لحقه من التعب وفقدان الرفيق حتى أدرك الوزير وقتله وحز رأسه فنازعه خشم الموس (أغا) وقتها (باشا) وادعى انه الذي قتله وبعد التحقيق ظهر فساد دعواه فكافأت الحكومة عمر أغا ترحوه وجعلته قائداً على أربعمائة جندي من الباشبوزق

ولما استولى محمد خالد على (داره) أكرمه وجعله قائداً من قواده وبعثه مع عمر بن الياس لمصادرة أموال قبيلة من الاعراب أظهرت عدم الطاعة للمهدوية فجعل عمر بن الياس همه في احراز المال وانفاذه الي أبيه في الابيض ويقال انه أنفذ أكثر من ثلثمائة ألف ريال فخاف أن يكون عمر أغا ترحوه عيناً عليه من قبل محمد خالد فرماه عنده بأنه يدبر مكيدة ضده وانه ينوي

الكبابيش ومن معهم ان يتركوا جميع العوائد المخالفة للكتاب والسنة واتركوا نهب أموال المسلمين ولا تتعرضوا لأحد بعد ذلك وأقيموا الصلوات فى أوقاتها واخرجوا زكاة أموالكم واحضروا عندنا سرايا بدار الهجرة فانها واجبة على كل مسلم فاذا فهمتم ما ذكر فافعلوا جميع ما أمرناكم به وارجعوا لجماعة جهينة مالحم كله فان سمعتم ما ذكر فعليكم امان الله ورسوله وتفوزوا برضاء الله واذا خالفتم أمرنا هذا فعليكم غضب الله ورسوله بمخالفتكم لامر الله ولا بد من مجازاتكم وخراب دياركم والسلام التاريخ ٢٠ رجب سنة ١٢٩٩»

ولما وصل الكتاب الي المرسل اليهم اذعنوا بالخضوع للمهدى وهم يبطنون له العداء وفعلوا ما أمرهم به ووفد على المهدى التوم بن فضل الله تائباً عما فرط من قومه واثقا بامان المهدى

وفى اليوم الثانى عشر من ربيع الاول سنة ١٣٠١ قبض التعايشي على التوم وعجيل زعيم قبيلة الرزيقات التى ذكرناها فى الكلام على دارفور وضرب عنقيهما فتأثر الناس لانهم لم يعلموا من سبب لذلك واجتمع الخليفة شريف ابن عم المهدي وعمه عبد القادر ساتي على ومحمود عبد القادر وغيرهم من ذوى قرابته ودخلوا على المهدي وسألوه هل أمر التعايشى بقتل ذينك الرجلين فاجابهم سلباً وانحدرت الدموع من عينيه فقالوا له ان التعايشي فعل هذه الفعلة لينفر الناس من مهديتك ويشوه سمعتك فاعزله وول أحدنا مكانه وهاهو محمود عبد القادر خير كفوء لهذه الخلافة فلم يجبهم بغير الاسترسال فى البكاء وأخيراً أمرهم بالانصراف حتي يأتيه النبي صلى الله عليه وسلم ويرشده الى حل هذه المشكلة وزاره التعايشى فامره بلزوم بيته ريثما يأتيه النبي صلى الله عليه وسلم

وفى اليوم التالى خرج ومعا منشور هو الذى أوردنا نحواً عند الكلام على سقوط (باره) وقد اشرنا الى ما كان من أمر هـذا المنشور وانه أصدره ليقنع أهالي باره عن المطالبة بحقوقهم

وقد تضاربت الاقوال في أمر هذ المنشور ففريق قال ان هذا المنشور أصدره المهدي لاقناع أهل باره وقال آخرون انه أصدر في هذا اليوم وعلى كل حال فان المهدي خرج على قومه في اليوم التالى بهذا المنشور وتلاه عليهم ليكفوا عن توجيه اللوم ونسبة الظلم لعبد الله التعايشى

ويدل هذا المنشور أيضاً على انهما كانا متفقين باطناً على هـذا العمل وهاهي صورة المنشور بالحرف الواحد نقلا عن الجزؤ الاول من كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله اعلاما منه الي كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابه أما بعد اعلموا أيها الاحباب ان الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية المشار اليه فى الحضرة النبوية فذلك السيد عبد الله بن السيد محمد حمد الله عاقبته فى الدارين فحيث علمتم ذلك يا احبابى ان الخليفة عبد الله هو مني وانا منه وقد أشار اليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فتأدبوا معه كتأدبكم معي وسلموا اليه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لى وصدقوه فى قوله ولا تتهموه فى فعله فجميع ما يفعله بامر النبي صلي الله عليه وسلم أو باذن منا لا بمجرد اجتهاد منه ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه فى تنفيذ أمره صلي

الله عليه وسلم والقضاء باشارته فان فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك واعلموا يقيناً ان قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا» فمن كان فى صدره حرج لاجل حكمه فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته وذلك بشاهد قوله تعالي «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» ولا شك فى شرك من استنكف عن حكم الله ورسوله سيما بقوله صلى الله عليه وسلم «ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي» الخ الحديث مع انه خليفة الصديق وأول المصدقين فى المهدية فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن العظيم وانظروا المكانة من أورثه الله مكان الصديقين ووازره بالباطن بالخضر عليه السلام فهو مسدد مؤيد من الله ورسوله ويد من أيادى الله لنصر دينه باشارة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقد ورد فى فضله كثير بحيث فهمتم ذلك فالتكلم فى حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الايمان واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لانه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم فلا تعرضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسى جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشي عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله لانه خليفة الصديق الذى قال الله في حقه «اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا» وقال صلى الله عليه وسلم ان أمن الناس على فى الصحبة

أبي بكر وقال عليه السلام ما طلعت شمس على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر وحيث علمتم فهو بمنزلته الآن لان أصحابنا كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المذكور خليفتنا في الدين وخلافته بامر النبي صلى الله عليه وسلم فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقا بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً واذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولي الابصار بقصة موسي والخضر عليهما السلام حكاها الله في كتابه العزيز كحكم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام لتسلموا من الشكوك والاوهام وانما أنذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلا تسبوه وتنسبوا اليه الظلم والجور فتهلكوا فاحذروا عن أذية أولياء الله فانها أذية الله ورسوله وقد لعن الله ذلك في كتابه فقال «ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة» كمان من آذى لي وليا فقد أذنته بالحرب فان الله غيور على أوليائه فقد علمتم أنه ورد من نقض الكعبة حجراً حجراً ثم حرقها بالنار أهون عند الله من أن يؤذى وليا من أوليائه وان الخليفة هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع أمور الدين واياكم والوسوسة في حقه وظن السوء وعدم الامتثال اليه في قوله والمشاجرة له أو لاحكامه والخلاف والحسد فتوبوا الى الله وارجعوا قبل أن تذهب حسناتكم وتسلبوا ثواب الايمان وانما حملني على هذا البيان النصيحة في الله وحمايتكم من الوقوع في هاوية الانفس والاماني فمن تاب تاب الله عليه ومن عاد فينتقم الله منه ويسلط عليه وهذا أمر الله ورسوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والسلام

حوادث السودان الشرقي

السودان الشرقى عبارة عن فيافى مترامية الاطراف تمتد من شرق وشمال نهر (أتبره) حتي شطوط البحر الاحمر كصوع وسواكن وغيرهما من تلك الشطوط ومتاخم للاحباش من جهات كثيرة وهو عبارة عن اقليم (التاكا) وقاعدته مدينة (كسلا) ومحافظات الشواطئ كصوع وسواكن وغيرها وسكانه قبائل ضاربة ألوانهم الى لون النحاس أو بعبارة أخري كلون زنوج أفريقية الجنوبية الذين تختلف ألوانهم عن زنوج السودان الاوسط

وهاته القبائل تشبه بعضها في الاخلاق والعادات مع بعض فروق وكلها لا تتكلم باللغة العربية بل بلغات أعجمية لا كتابة لها وتعيش اكثر القبائل كما يعيش الاعراب الرحالة بالبان الماشية ولحومها وماشيتهم جلها من الابل وتسكن بعض القبائل رؤس الجبال وبعضها يأوي الى كهوف فى الارض متسعة تسع عدة قرى فى داخلها

ومن القبائل التى تعيش كعيشة الاعراب قبائل (الهدندوه) وبنى عامر والهباب وأمّا رأر فالهدندوه تسكن حوالي كسلا وبنوعامر والهباب يسكنان حوالي مصوع وأمّا رأر تسكن ضواحى سواكن وهناك قبائل كثيرة اضربنا عن ذكرها فراراً من التطويل

واكبر هاته القبائل قبيلة الهدندوه وعدد نفوسها يتجاوز مليون نسمة وماشيتها من الابل كثيرة جداً ورجالها ميالون الى الحروب وسفك الدماء والغارة على جيرانهم عكس بنى عامر والهباب المعروفتين بالميل الي الدعة والسكون ونوقهم مشهورة بعظم السنام حتى ان الواحدة منها لاتستطيع القيام

بغير مشقة ومن أشهر القبائل التي تسكن رؤس الجبال وبطون الكهوف (الباريه) وهى قبيلة أعجمية ديانتها مجوسية ولم تخضع للحكومة ورجالها ذوو بأس وشجاعة يقطعون السبل على المارة ويغيرون على بلاد الحكومة ومنهم قبائل كثيرة تدين بالاسلام وعوائدها تشبه عوائد طوائف الدروز واليزيدية

وتنتسب قبائل بني عامر والهباب الى رجال من الاكراد سجنهم سلاطين العثمانيين فى سواحل البحر الاحمر منذ أربعة قرون أو اكثر فتزوج أولئك المسجونون نساء من الاحباش والزنوج وانتشر نسلهم وعاشوا بمعيشتهم البدوية كاسلافهم الاكراد

أما الزراعة فى جميع أنحاء السودان الشرقي فانها لاتذكر وأكثر القبائل تعيش بغير الخبز ووجد منهم من لم يذق الخبز مدة حياته وقس على ذلك سائر البقول فانها غير معروفة عندهم ألبتة

ويوجد فى داخل مدينة سواكن أناس من السكان الاصليين لايذوقون الخبز مرة فى السنة وغذاؤهم قاصر على اللحم واللبن وطريقتهم فى اللحم واحدة لاتتبدل وهي انهم يأتون بأحجار يضرمون عليها النار حتي تتحوّل جمراً فيضعون عليها اللحم حتي ينضج ويصير اللحم لذيذاً واسمه (سلات) ويمكن لكل انسان أن يحصل على هذا اللحم بثمن بخس اذ الاسواق مملوءة به وثمن الشاة الواحدة لايبلغ خمسة عشر قرشا مصريا والوعاء الذي يحوى نحو خمسة وعشرين رطلا من اللبن لايبلغ ثمنه أكثر من قرشين

ومن ألطف النوادر التي سمعتها ان اعرابيا من قبائل السودان الشرقى التقى بقافلة سائرة من بربر الى سواكن فرأي بين أيديهم بصلاً يأكلونه مع

الخبز فأعطوه بصلة فأراد أن يشمها ويأكلها كما رآهم يفعلون فتصاعد ريحها الى انفه فقذف بها الى الارض وأخذ يركض الى الحي مستصرخا قومه الى الانتقام من هذه القافلة التى جاءت الى بلادهم بنوع خبيث ينشر بينهم الامراض وينقل الى بلادهم جراثيم الاوبئة والامراض وبعد عناء شديد تمكنت القافلة من متابعة سيرها ونجت من الهلكة

ومن ذلك ان رجلا من أهالى بربر تعرف برجل من كبار الاعراب فنزل ضيفاً عليه فى بربر فقدم له غذاء من طبيخ الملوخية فامتلأ الرجل غيظاً وقال لمضيفه هل أنا بمنزلة الثور عندك حتي تقدم لي الحشائش الخضراء التي لا يأكلها غير ثورك فأخذ الرجل في ملاطفته ليقنعه بأن غذاءه وغذاء سائر مواطنيه من هذا النوع فلم يصدقه وخرج من منزله فى أشد حالات الغضب فسبحان من أقام العباد فيما أراد

وأهالي السودان الشرقى كلهم يتركون شعورهم حتى تبلغ من الطول الحد النهائى وشعورهم صلبة قوية يتركونها واقفة غير مسبولة يخالها الرائي من البعد قبعة من النوع الاسود الطويل جداً ويدهنونها بشحم الجمال أو البقر وملابسهم هي ملاءة من (الدمُّور) ولا يلبسون شيأ من السراويل أو الاقبية ويزعمون ان لباس السراويل والاقبية مما يولد الامراض في الجسم سيما أمراض المعدة وحلق الشعر أو قصه مما يولد أمراض العيون وضعف البصر هذا مانورده هنا عن شرق السودان عموما حيث نسرد حوادثه وسيأتى الكلام عن كل جهة بما فيه الفائدة والله الموفق

ترجمة الشيخ الطاهر المجذوب

غير خاف ان عثمان دقنه هو الذي كان داعية المهدي ونائبه في السودان الشرقى وكان عثمان دقنه مريداً للشيخ الطاهر المجذوب ومخلصا وسيعلم القارىء مما يجيء ان المهدي لم يكن يصطفى عثمان دقنه لهذا الامر الخطير بل الذى اصطفاه له أستاذه الشيخ الطاهر ولذلك رأينا أن نترجمه هنا ثم نعقبه بترجمة عثمان دقنه ليكون القاريء على بينة من أمرهما فنقول

الشيخ الطاهر المجذوب هو شيخ الطريقة المجذوبية ورث هذه السجادة عن عمه الشيخ محمد المجذوب الصغير تلميذ السيد احمد بن ادريس المغربي وأصلهما من بطن من بطون قبيلة الجعليين اسمه المجاذيب نسبة الى جدهم حمد المجذوب ويسكن هؤلاء الناس على ضفة النيل جنوب نهر (أتبره) فى قرية (الدامر) محل ضريح جدهم حمد المجذوب

أما محمد المجذوب عم صاحب الترجمة فانه ولد بهذه القرية ثم هاجر منها ولحق بالحجاز وهناك التقي باستاذه السيد احمد بن إدريس ومكث ملازما كبقية تلاميذه مثل السيد السنوسى صاحب الطريقة السنوسية المشهورة بافريقة الغربية والسيد محمد عثمان الميرغنى صاحب الطريقة الميرغنية أو الختمية وغيرهم كابراهيم الرشيد نزيل مكة المكرمة ثم عاد محمد المجذوب الى الحجاز بعد أن نال من أستاذه كل رعاية والتفات وتحصل على درجة سامية من العلوم العقلية والنقليه ثم غادر الحرمين الشريفين واستوطن ضواحى سواكن فانتظم فى سلك اتباعه الالوف من رجال القبائل وترامت شهرته في أطراف البلاد حتي صارت القبائل تحترمه احتراما زائدا وتحبه حبا فوق العادة

وكانت بينه وبين صاحب الطريقة الميرغنية مناظرات شديدة توارثها اتباعهما وكانت أسرة عثمان دقنه من أعظم اتباع الشيخ محمد المجذوب. وله ديوان في المدائح النبوية وتوفي ولم يعقب فورثه ابن أخيه الشيخ الطاهر المجذوب وكان في بداية أمره على منزلة تقرب من منزلة عمه في قلوب الناس وله أملاك في سواكن والحكومة تبالغ في احترامه وتتسابق الى استرضائه حتى كان من أمره ماسنورده ولله في خلقه شؤون

ترجمة عثمان دقنه

هو عثمان بن أبي بكر دقنه نسبة الى قبيلة (الدقني) وهي قبيلة صغيرة تسكن سواكن وأصلها منسوب الى قائد تركى نفاه ساكن الجنان السلطان محمود وكان عماه وجيهين في سواكن أحدهما علي دقنه حاز لقب بك من الحكومة وكان المترجم صاحب أملاك في سواكن وتاجراً يتردد الى مصر في كل عام

وفي سنة ١٢٩٤ هجرية سافر الى دارفور ويقال انه قبض عليه مع قافلة نخاسين وسيق الى المحاكمة ثم فر منها وفقد كل ثروته التي كانت حوالي عشرة آلاف جنيه وكان متزوجا بابنة عبد الغفار الضوي أحد تجار المصريين في بربر وكان أعطاه عشرة آلاف ريال ليتجر بها فأضاعها ثم لحق بسواكن ومكث بها فحجر الدائنون على أملاكه

وحكى لنا موظف في سواكن ان عثمان دقنه جاءه متظلما مما أتاه الدائنون معه حيث حجروا على كل مايملكه حتى الضروري لحياته فوجد الموظف مرتبكا في بحر أفكار شديدة فسأله عن حاله فقال أتاني تلغراف ان ابنتي

مريضة جداً فقال له انى أعرف نوعا من الزايرجة ولكننى اشك فى صدقها فقال ولماذا فقال لانها منذ عشرين سنة مضت تخبرني بانى أصير ملكا كبيرا وشهرتى تطبق آفاق الارض كلها فقال له الموظف لا بأس من سؤالها عن صحة ابنتي فتناول قرطاسا وقلما وبعد ساعة رفع رأسه وقال له تقول الكاذبة ان ابنتك قد زال عنها الخطر وانه يأتيك خبر شفائها قبل ان تقوم من مقامك هذا ثم قال انها تقول ذلك ولكنني أخبرتك بانها تكذب على منذ عشرين سنة ولم يتم هذه الكلمات حتى دخل موزع التلغراف ورفع إلى رسالة قرأت فيها شفاء ابنتى وزوال الخطر عنها فلما سمع عثمان دقنه هذا الكلام ضحك حتى استلقى على ظهره وقال هذه أول مرة صدقت فيها ولعلها تصدق بعد الآن وانى لا انصرف من هاهنا حتى إسألها السؤال الذى لم تصدق في الاجابة عنه منذ عشرين عاما فتناول القرطاس والقلم وأخذ يرقم الاعداد وفي النهاية ضحك وقهقه وقال لى انها تقول دنا الاجل فاطرح الوجل ثم أخذنا فى حديث آخر فاستأذنى بالانصراف فشيعته الي الباب وكررت عليه الرجاء ان لا يهمل زيارته كبيضة الديك فقال مازحا وهل تحب ان تكون بيضة دجاجة فقلت نعم فقال يفعل الله ما يشاء وانصرف فلم أره حتى سمعت بظهوره فى ارباض سواكن وانتشار نفوذه في كل انحاء السودان الشرقي وبيد الله كل شيء

وقد كان عثمان مشهوراً منذ حداثة سنه بالميل الى العبادة ومواظبة الصلاة وملازمة أوراد الطريقة وكان مشهورا بالشفقة والرحمة

هذا وقد رأينا صورا كثيرة يقال انها صورته ولاول وقوع بصرنا ادركنا انها غير حقيقية بل هى صور وهمية اوخيالية تبعد عن الحقيقة بعدا شاسعا وغاية

ما يقال عنه ان فتل ساعديه واعتدال قامته يدلان على القوة والفتوة واشتهر عثمان الشره في الاكل حتى انه يأكل الخروف المشوي وحده وكما اشتهر بالنهم فقد عرف عنه الصبر على الجوع حتى انه في اكثر أسفاره وغزواته يصبر عن الغذاء اياما ممدودة ويقتصر على اكل ورق السدر وغيره من ورق الشجر الكثير المرارة والحاصل انه غريب الشكل في اخلاقه وعاداته وسيأتي ذكر كثير من هذه الغرائب

ذكر وفود عثمان دقنه على المهدي

كانت الخطابات بين المهدي والشيخ الطاهر المجذوب متبادلة منذ وطن المهدي نفسه على انتحال هذه الدعوى ويقال ان اول خطاب وصل الى الشيخ الطاهر من المهدي مؤرخ في شعبان سنة ١٢٩٨ يخاطب به كل المشايخ ومثل هذه الخطابات كثير وقد اخترنا هذا لنورده هنا نقلا عن الجزؤ الاول من كتاب المنشورات وهو بنصه

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله محمد المهدي بن عبد الله جزيل السلام الي كافة الاخوان من المحبين ومشايخ الدين لايخفى عزيز علمكم أن المؤمن لاعناية له الا فيما يرضي الله من كمال الايمان والاتباع على السنة والكتاب وبصرف الهمة في هذا الوجه يتولاه الله ويقوم بحظوظه في الدارين واذا التفت الى حظوظه وصرف همته الي ذلك وكله الله على نفسه ولم يحصل له من حظوظه شيء الا بالتعب القلبي والبدني وانتم ايها المؤمنون الذين يظن بكم المعاونة على

تقديم السنة ومعلوم أن جاه الدنيا ولذتها لايؤثره العاقل العارف لأن مافي الدنيا مفارق يصير كانه لم يكن ولذتها لاتفي بحسرتها بل عين اللذة تصير عين الحسرة حتي لايجد بيده شيء فالعاقل العارف لايسعي الا في رضا الله وعلى ذلك ياحبابي انى لم أقدم على تنبيه الناس احثهم على النعيم لاقامة السنة الا بأمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ولا يكذب على سيد الوجود الا من لاخلاق له عند الله ومع ذلك شهد على ذلك جمع من الاتقياء الذين يعبؤبهم ومكانهم عند الله لايخفي وفضلا عن ذلك تعلمون هذا الزمن وما فيه من البدع وما لهم تحصن من ذلك الا بالفرار بالدين وطلب الهجرة بالدين فى هذا الحال وارد كتابا وسنة ووعيد من ترك الهجرة وارد كتابا وسنة كما لايخفى وقد كاتبت على أمر النبي صلى الله عليه وسلم جميع أهل الدين باللميم علي دين الله واقامة السنة وقد ضمن النبي صلى الله عليه وسلم من يكون معنا وما ذلك الامر من الله ورسوله فان كانت قد بلغتكم تلك الاجوبة السابقة فهذا اليكم لتشمروا على ذلك فان هذا الامر مابثثته الا بعد أن خرج من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ثم تكرر مرارا عديدة وفضلا عن ذلك أن من مثلكم لازم يكون لمثل هذا الامر أول قائم ويحث عليه ومعلوم أن من تركه وصد عنه فعليه اثمه واثم من صدهم جميعا واعلموا انكم ان اتبعتم هذا الامر صرتم من المقربين والا كان عليكم اثمكم واثم من تبعكم وهذا الامر حقيقة من الله ورسوله ولا يخفى انه لايعز على الله أن يظهر قدرته في أضعف خلقه ويظهر الدين على كراهة اهل معصيته فمن أعرض عن ذلك فحسبه الله فان مات قبل ظهوره لم يأمن عقوبة الله في اعراضه عن الحق وصده لمن اراد الاستقامة والهجرة لله ورسوله ومعلوم أن من لم يتبع هذا الامر مخذل في الدارين

ومن حصل له شك يظهر له فيما بعد كما بين والسلام شعبان سنة ١٢٩٨ »

ولما حاصر المهدى الابيض كان يوالي ارسال الخطابات الى الشيخ الطاهر يستحثه فيها على مناوأة الحكومة والقيام بدعوته في السودان الشرقى وأذن له بمبايعة الناس نيابة عنه وانه أمير من قبله على هاته البلاد فبعث اليه الشيخ الطاهر بوفد من اتباعه يرأسه عثمان دقنه ومعه كتاب يقول فيه ان عثمان دقنه من خيرة مريديه وأصدق أتباعه وانه من رجال الحزم والعزم وانه لافضل أبناءه النازلين من صلبه عليه وان إمارة شرق السودان خليق بها اكثر منى وانى لاأستنكف أن أكون تابعا لافضل مريدىّ عثمان وأكون مستشاره ومدبر أموره وأنصح لكل أتباعي بالقيام بنصرته وموازرته وان المانع لى من قبول هذا الامر لنفسى هو الطعن فى السن وعدم القدرة على الانتقال والقيام والقعود اذ هي من ضروريات هذا المنصب ويكفيني ان أكون أول من يذعن بالطاعة لعثمان وفى ذلك من التعضيد والحض لعموم اتباعي مايقرن عمله بالنجاح

ولما قدم عثمان على المهدى وجد الابيض سقطت فى قبضته فتلقاه بالحفاوة والاكرام

ولما اطلع على الخطاب داخله بعض الريب فى أمر الشيخ الطاهر وتردد في قبول ماأشار به عليه لانه لم يكن واثقا بانه يرفض قبول الرئاسة لمثل هذه الاعذار ويهديها الى أحد مريديه وبعد بضعة شهور تحقق ان الشيخ الطاهر مصيب في كل ماقاله وخصوصا لأنه ملازم للخلوة والانفراد ويتألم من الغوغاء وليس بين أولاده من ينهض بهذا الحمل الثقيل وبعد مداولات كثيرة بينه وبين التعايشى أيقن بصحة القول وعزم على انفاذ عثمان دقنه واسناد هذه المهمة اليه

وكان ضمن هذا الكتاب ان الحكومة عولت على انفاذ حملة لقهر المهدي وسيكون طريق هذه الحملة من ثغر سواكن الى بربر وأشار على المهدي بوجوب المبادرة بارسال عثمان لان أهالي السودان الشرقي كلهم متاهبون للقيام معه وخلع طاعة الحكومة فيتعذر سير الحملة الى بربر وتتهيأ للمهدي الفرصة للاستيلاء على الخرطوم لان قيام الثورة فى ضواحي سواكن يضطر الحكومة الى اعادة البرد الى مصر كي ترسلهم عن طريق دنقله أو العطمور فلا يصلون الخرطوم فى أقل من عامين على ان هذه الطريقة كانت تأتي بالنتيجة المذكورة لو لم يتردد المهدي فى قبولها لان الاشهر التى أقامها عثمان عند المهدي كانت كافية لبلوغ معظم الجنود بربر فلم ينجح عثمان فيما كان دبره له أستاذه من عرقلة سير الحملة وسد الطريق في وجهها وان نجح من جهة أخري حيث خلع أهالي شرق السودان أجمعون طاعة الحكومة والتفوا حوله وبلغ ما كانت تحدثه بالارتقاء اليه زايرجته ونال فوق ما كان يتمناه ثم أخذ أمره بالاضمحلال وسادت أفعاله وثقلت وطأته على الذين شدوا أزره وتجردوا لنصرته وكان سقوطه مساويا لارتفاعه كما سنشرحه بعد

ذكر أوبة عثمان دقنه الي سواكن

لما اقتنع المهدي بسلامة نية الشيخ الطاهر خاف أن تفوته فرصة عرقلة سير الجنود من سواكن الي بربر فسير عثمان دقنه من الابيض في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٠ وكتب له منشوراً الى جميع أهالي السودان يعلمهم بأمر دعوته ويأمرهم بطاعته وموازرته وقد بحثنا على صورة هذا المنشور فى مجاميع المنشورات فلم نظفر بها ولكن عثرنا على منشور كتبه بعد ان وصل

الى سواكن ليعظه فيه واتباعه ريز عدهم في الدنيا

أما المنشور الذي يتضمن توليته فنورد فحواه نقلا عن مصادر أخرى وهو بعد ذكر ماأصاب الاسلام من الضعف وما انتابه من تعطيل الحدود اني قد وجهت اليكم الشيخ عثمان بن أبي بكر دقنه السواكنى نائبا عني فيكم فبايعوه ووازروه وانصروه واني أزف لكم بشرى ماأتاح الله لى من النصر والاستيلاء على كوردفان كلها ولكم البشرى أيضا بان الله سينصركم ويثبت أقدامكم ويورثكم السودان الشرقى ويهلك من فيه من جنود الحكومة لقوله تعالى (ألم نهلك الاولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين)

وأما المنشور الذى تضمن عبارات الوعظ والتزهيد فان بعضهم يقول انه صدر مع هذا المنشور وهذا قول لانصيب له من الصحة اذ المنشور يتضمن عبارات كثيرة من المدح والثناء على عثمان دقنه مما يدل على انه صدر بعد ان عاد عثمان الى سواكن وبدأ بتمثيل رواياته التي أدهشت المهدى نفسه كما أدهشت العالم كله لانه لم يكن يتوقع منه مثل هذه الاعمال الباهرة وهاهى صورة المنشور بنصها نقلا عن الجزؤ الاول من كتاب المنشورات صحيفة ٨١

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمدلله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الي حبيبه وصفيه وعونه ونائبه فى اقامة دين الله ذي الرأفة بالضعفاء عباد الله المستسلمين المنيبين الى الله والشدة على المتكبرين اعداء الله عثمان بن أبي بكر دقنه وقاه الله كل محنة وجعله الله من أعلا أهل المكرمة. حبيبي ان الدين قد انهدم بسبب تشييد الحظوظ النفسية السفلية التي تزول عن قريب وتحجب عن دوام النصيب

بِرات واخوانك التابعون لنا عن ساعد الجد على ترك المشتهيات النفسية
ومقاساة الشدائد التي تقرب الى رب البرية فيدوم خيرها في الدار الأخروية
والمعلوم أن الخير الذى لا يدوم خير منه الشر الذي لا يدوم لان صاحب الخير
الذي زال أشد الناس حسرة وتوجعا وصاحب الشر الذى زال أشد الناس
فرحا وسروراً فلما علم العاقل المؤمن بما عند الله عاقبة خيرات الدنيا زهدها
لما عند الفوات وشدة حسرتها عند الممات مع انها تشغل مما فى الآخرة
وتصرف عن القيام لله خالصا والوثوق بالله صادقا فانيبوا لما عند الله واكتفوا
به ولا تتنعموا فى دار البلايا ودار الظالمين الاشقياء فتصرفوا بذلك عما أعد
للمتقين واقتدوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الاعراض عن الدنيا
ومتاعها واصبروا على الجوع والخضوع لما عند الله بالقلب القنوع واعلموا انه
لو كان في الدنيا خير لصبها الله على عبده المؤمن ولاعطاه كل ما عند الكفار
ولكن ليست هذه الدنيا محل العطاء ولا دار الجزاء ولا زمن السراء فاعرفوا
ما خلقت له من الاكتساب منها الي محل الاجتماع بالاحباء ودوام اللقاء فيها
بالحبايب ولا تمطلوا بهذه الدار مع من تمطل بها لغروره بمحض البلاء قال الله
تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا وانا لجاعلون
عليها صعيداً جرزاً «فخير الدنيا مؤد الى الوقوع فى الهوي الخلاء وانظروا
الى ما فيها من البلواء اذ قال الله تعالي (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع
ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم
مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم المهتدون) فانظروا العطاء الذي في البلاء وهو الصلاة من الله مع
الرحمة والهداية اذا كان العبد راضياً أو صابرا على مراد الله لما عند الله معتقدا

ارادته الله له وشفقته عليه فيحسن به الظن زيادة عما يحسنه فى أبيه الشفيق
عليه الذي يعلم خيريته وقدرته وغناه فنعلم يقينا ان أباه الموصوف بتلك الصفات
لولا محض الشفقة عليه وارادة الخير له لا يفصده ولا يسقيه الدواء المر المقن
البشع ولا يأخذ ماله الا لزيادته له فكذلك المؤمن بالله وباولويته الله يعلم ان
عند الله خيرا لا تزنه السموات والارض وما فيهما ويعلم انه قادر على اعطائه
كل خير وبيده خزائن الخيرات ولكن المعلوم أن المريض اذا أعطاه أبوه
لذيذ الاطعمة عجلت بموته واذا أباح له الملاعب والشهوات عن الحبس للتعليم
كبر سفيها جاهلا وكذلك حكمة الله فى صرف النعم عن عبده وتنفيره عنها
فى الدنيا من هذا القبيل وأعلا علما فى ضرره بالحاضر الذى يعقب حسرة
طويلة ولذلك فعل باصفيائه ما فعل مما هو معلوم وقد قال النبى صلى الله عليه
وسلم (أشدكم بلاء الانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل) والاخبار في هذا
المعنى كثيرة من الكتاب والسنة فانظروا ما ناله العبد بالبلاء في قوله تعالى
(وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم
صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فقوله قالوا انا لله وإنا اليه راجعون
هو حسن ظن بالله معرفة به لكثرة أياديه ونعمه عليه واشتياقا اليه دون
الشهوات التي تكون قبل لقائه فالمعلوم ان من انتسب الى ملك واخلص فى
انتسابه له وعلم الملك ان له حقيقة عمل له كل احسان ورفعه بكل درجة واذا
علم الملك أيضا من قلب ذلك الشخص انه الى ابده مستعد من قلبه انه
لا يرجع الي غيره أعدله ما يقدر عليه من حسن المأوى فكذلك العبد المؤمن
لما يعلم أيادى الله عليه وأولويته له مع معرفته انه قادر وغني وخبير يفرح
بما يقضيه عليه قائلا انا لله يعنى نحن ملك الله وهو الاولى بنا منا ولما يعلم

انه لا مرجع له الا اليه مع معرفة أياديه وعظمته وما أعده في الآخرة يشتاق اليه فقط ويصرف نظره عن مايعطله قائلا وإنا اليه راجعون فتثيبه الله بصلوات عليه فيصلي عليه كما صلى على أحبابه من الانبياء والمرسلين والملائكة والمقربين ويرحمه الرحمة الخاصة التى تليق بعظمته وبما ظنه في الله قد سلك طريق الله والجنة فهداه الله الي ذلك لان الجزاء من جنس العمل ومن جاهد يهديه الله كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فلا تطمعوا أحبابي في غير ربكم ولا تتشوفوا لغير دار الدوام مما يزول ويعقب حسرة تطول فتمسوا ببلاء الدنيا لحسن الظن بالله وأعرضوا عن متاع الدنيا التى تعقب الشقاء وحثوا اخواننا الذين معكم بالحال والمقال وكونوا كما قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة ان الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) ووطنوا أنفسكم على الرضا بقوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) لتنالوا بالرضا والصبر على مراد الله تحسينا لظنكم بالله الصلوات والرحمة والهداية كما ذكرت ذلك ولا تغفلوا عن ذلك والسلام »

(ملحق)

وانه يا حبيبي بعد وصيتي هذه فليكن اعتمادكم على الله تعالي في كامل أموركم تصديقا وامتثالا لقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فالتوكل على الله كنز المؤمن لان المؤمن كنزه ربه كما ورد وحيث ان مطمح نظره ربه وصل اليه وجازاه ومن اعتمد على غير الله خذله في محل حاجته كما لا يخفي

ذلك وأيضاً لا تعتمدوا على الكثرة بل اجتهدوا في الصفوة التي هى الاعتماد على الله وحده وزهد الدنيا والتشوف الي ماعند الله في دار البقاء فالذى عندكم ينفد وما عند الله باق فان الكثرة بغير الله خذلان فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين فاصبروا على مراد الله راجين له وانظروا لنصرة الله ولا تمايلوا للقوة الاخري فقد قال تعالى (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ) فانظروا لذلتكم الحقيقية التي هي عجزكم من أنفسكم اذ أنتم من نطفة مذرة فمل بكم ما ترونه من كمال هيكلكم بقوته والروح التى تحركون بها هي بيد الله قل الروح من أمر ربي وبغيرها الانسان خير منه الطين لانه يصير منتنا ومن نظر هذا المعنى عرف ان ملكوت كل شيء بيد الله فلا يخشي من غير الله وهو الذي له الخلق والامر فلا تخشوا الناس واخشوا الله الذى بيده كل شيء وقوموا بامره له فقد قال الله تعالى (ولينصرن الله من ينصره) فاعتمدوا على الله واكتفوا به واشتاقوا الى الذي عنده والسلام

ولما غادر عثمان دقنه بربر وجد آخر حملة من الجنود نازلة على منهل بين بربر وسواكن اسمه (ككريب) فاخذ يبكي وينتحب ويقول لمن معه نثب على هؤلاء الكفار لنقتلهم فلم يوافقه أصحابه وكانوا بضعة أشخاص ثم تابع سيره والناس يقدمون عليه لاخذ البيعة وتقديم الطاعة والخضوع ومع ذلك كان يكتم أمره ولم يجاهر بدعوته حتي يجتمع بالشيخ الطاهر

وقد سلم المهدى كتابين بخط يده الي عثمان ليوصلهما له في أحدهما ان نائبه علي السودان الشرقى هو الشيخ الطاهر ويأمر الناس بمبايعته وفي الخطاب الثانى استعطاف له والحاح بقبول هذا المنصب وانه اذا كان مصراً

على الرفض وعدم القبول فليكن الآمر الناهي في باطن الامر علي عثمان دقنه وقد أوصي المهدي عثمان دقنه بترك الامارة لاستاذه اذا رضى بما كتبه المهدى وان أصر علي رأيه الاول فليكن مؤتمراً بكل ما يأمره به وفى كلا الحالين ان المسؤل الحقيق أمام المهدي هو الشيخ الطاهر لا عثمان دقنه

كل هذا يدل على أن المهدي لم يكن واثقاً بعثمان دقنه وقد اتفق الطاهر وعثمان على ان يكون الثانى منفذاً لكل أوامر الاول

على ان عثمان دقنه لم يكن واجداً في نفسه أقل شيء من استاذه وكانا على حالتهما الاولي وعثمان أطوع له من يده وكل الاعمال التى كللت بالنجاح الباهر في أوائل أمر عثمان دقنه كانت من أعمال أستاذه وسيأتى ان الشيخ الطاهر لما لحق بالتمايشى فى أم درمان ظهر الخلل في أعمال عثمان دقنه فاعيد الى سواكن فتدارك الخلل وبعد وفاته هزم عثمان من توكر وتفرقت من حوله القبائل. وقصارى القول ان الفاعل الحقيقي لكل ما جري فى السودان الشرقي هو الشيخ الطاهر وان عثمان دقنه لم يكن الا آلة فى يده وهذه حقيقة لا ينكرها الا الذين يجهلون الحقائق ويحكمون بالاشاعة

ذكر لحاق الشيخ الطاهر بعثمان دقنه وذبح المسجونين

كان جواسيس الحكومة فى كوردفان أبلغوا الحكمدارية في الخرطوم أمر عثمان فعوّلت على القبض عليه قبل وصوله الى سواكن فلم تفلح ويقول الثقات انه قضى عدة أيام فى بربر عند صهره والحكام لاهون عنه بالرغم عن تشديد الحكمدارية فى القبض عليه

ولما قرب عثمان من (هندوب) التى لا تبعد عن سواكن بأكثر من خمسة

أميال بعث يعلم الشيخ الطاهر وكان مقيما فى سواكن مغموراً بنعماء الحكومة الى درجة انها كانت تكلف المسجونين بقضاء حوائجه الذاتية كالابنية وحفر الآبار اسوة أعمال الحكومة

وفى اليوم الثامن من شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية استأذن الشيخ الطاهر الحكومة ليغادر المدينة الى هندوب حيث عزم على حفر بئر فيها وتشييد مسجد فأعطته الحكومة ثلاثين مسجوناً من المصريين ليقوموا بهذا العمل وفي اليوم التالى شخص من المدينة ومعه كل أسرته

ولما أطلع عثمان الشيخ الطاهر على ماكتبه المهدى وألح عليه فى قبول الامارة لم يتغير عن عزمه الاول وقام فى وسط الجموع وبايع عثمان بيعة المهدي ونزع ملابسه ولبس شعار المهدية الذى هو القميص المرقع وقبض عثمان على الثلاثين مسجوناً وذبحهم وكان ذلك ضحوة يوم عيد الاضحى فكان الناس يقولون نضحى بهؤلاء الكفار

والتفت القبائل كلها حوله وبايعوه اقتداء بالشيخ الطاهر وترامت أخباره الي كسلا ومصوّع ودخلت جميع القبائل فى طاعته ماعدا قبيلتى بني عامر والهباب ثم غادر عثمان ومن التف حوله هندوب لقربها من سواكن ولحق (بسنكات) لبعدها ومنعتها بالوعور والغابات

هذا وقد بقى بعض القبائل يبطن الولاء لعثمان ويظاهر الحكومة بالطاعة حتي كانت واقعة سنكات وقيام الاهلين عن بكرة أبيهم بالثورة وخلع طاعة الحكومة

ذكر واقعة سنكات وقتل توفيق بك

لما عسكر عثمان فى سنكات أصدرت الحكومة أمرها الى محافظ سواكن بوجوب القبض عليه فانتدب توفيق بك مأمور توكر وستين جنديا للقبض عليه ولم تكن الحكومة عالمة ان عثمان معه نحو عشرين ألف مقاتل واستصحب توفيق بك شيخي قبيلتي الشعياب والنوراب اللذين أكدا له سهولة القبض على عثمان وأقسما له أن يكونا عونين له وما كاد توفيق يصل الى (سنكات) حتي فرا منه ولحقا بعثمان الذي بدأ يهاجم الجنود وهم بالرغم عن قلتهم يردونه ويدفعونه بخسائر وفى آخر الامر تحصن توفيق بك داخل زريبة من الشوك واحتفر متاريس ليدافع بها حتى صار من أمر الحملة ان عثمان فتك بها بعد هزيمة الحملة التي كان يقودها محمود طاهر باشا وتلاها هزيمة بيكر باشا كما يأتى سرد ذلك

ذكر حملة محمود طاهر باشا

لما قررت الحكومة ترك السودان واخلاءه عهدت الى محمود طاهر باشا قيادة خمسة آلاف من الجنود لانقاذ توكر وسنكات فشخصت الحملة من سواكن الى ترنكيتات بحراً ثم سارت براً من ترنكيتات قاصدة توكر

وكان عثمان قد علم بأمر هذه الحملة فحشد جيشا جراراً يزيد عدده على خمسين ألف مقاتل كلهم فى نهاية الحماس وكمن بهم في منتصف الطريق بين توكر وترنكيتات ولم تقطع الحملة مسيرة عشرة أميال حتى خرج عليها الكمين من كل ناحية وداهمها على غرة فأوقع بها ولم ينج منها غير القائد وقليل من الجنود وغنم عثمان كل ذخيرتها ومدافعها

وعلى أثر ذلك جاءت الانباء الى الحكومة بزيادة الخطر على الخرطوم وعولت على اجراء عمل من شأنه أن يسهل اخلاءها وصار العدو يشن الغارة حول المدينة ولولا البحر لاستولي عليها فأرسلت الحكومة البريطانية سفنا حربية حافظت على المدينة ومنعت وقوعها فى قبضة العدو

حملة بيكر باشا

لما هزمت حملة محمود طاهر باشا انتدبت الحكومة بيكر باشا قومندان الجندرمة المصرية ومعه نحو أربعة آلاف جندي وفى أواخر المحرم سنة ١٣٠١ هجريه استعرض المغفور له الخديوى توفيق باشا جنود بيكر باشا في القاهره وأبدى سروره من حسن انتظامهم ثم غادر بيكر باشا القاهرة قاصداً سواكن ومكث أياما يخابر رؤساء القبائل مخابرات سلمية فلم تسفر عن نتيجة مرضية ثم ابدى رغبته الي الحكومة أن تاذن له بمخابرة قبائل مصوع عساه يجد منهن حلفاء يعاونونه على فتح الطريق الي كسلا ومنها الي الخرطوم فصادفت ماموريته بعض النجاح حيث وجد قبائل بني عامر والهباب ينفرون من المهدوية ولذا لم يدخلوا في طاعتها فتولد عنده امل النجاح وأخذ يخابر القبائل الواقعة بالقرب من كسلا فعلم انها كلها دخلت فى طاعة المهدوية ورفعت لواء العصيان على الحكومة

وبعد بحث طويل علم أن الطريق من مصوع الى كسلا مملوءة بالغابات ومحاطة بكثير من الصعوبات وان الطريق من كسلا الى الخرطوم بعيدة وانه يخترق صحراء قاحلة فعاد الى سواكن واخذ في الاهبة للزحف علي توكر لانقاذها وانقاذ سنكات

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هجرية ابحر بيكر باشا بحملته من سواكن الي ترنكيتات اي فى طريق حملة محمود طاهر باشا ثم سار بحملته في ذلك الطريق ولشدة وعورة المسلك وتكاثف الغابات المظلمة والاشجار العظيمة كانت القوة سائرة علي هيئة (بولجه) تتقدمها المدافع وبجانبيها الفرسان وكان العدو كامنا فى الطريق فوثب عليها عثمان واختلطت مقدمته بمقدمتها فحاول القائد تشكيل قلعة من المشاة ولكن اسراع العدو فى الهجوم وخفة حركاته حالا دون اتمام العمل فركن من في الساقة الي الفرار والقوا ماباديهم من الاسلحة وأثخن العدو فيهم قتلا وضربا فكانت جملة الخسارة نحو ثلاثة آلاف قتيل ونجا القائد ولحق بترنكيتات وغنم عثمان كل الاسلحة والمدافع التى كان فيها عدد من الطراز الكبير جداً

على ان هذه الهزيمة جاءت تلو التى قبلها وبالاسباب عينها الا أن جنود بيكر باشا أطلقوا نيرانا كانت كافية لارجاع العدو القهقرى لو لم يختلط فرسان العدو بفرسان الحملة فتقوض الجانب الذين يحمونه من هيئة المربع المستطيل فكان الفشل من نصيب الحملة ولا يعزب عن فكر القارىء ان هذه الحملة جاءت مذبحتها بعد مذبحة الجنرال هيكس فكانت الدهشة بمصابها عظيمة وان توفيق بك كان قد وصلت اليه أخبار تقدمها فكان الامل يملأ جانبيه بأن تنقذه فلما بلغه ماأصابها خرج بجنوده القليلين ليخترق صفوف العدو إما له وإما عليه فخرج فى حالة تدل على ما كان عليه من الشجاعة التي ضاعفها اليأس وما كادت جنوده تفارق الزريبة حتي أحاط بها العدو من كل جانب ومكان وعدده يربو على ستين ألفا أي لكل رجل من رجاله ألف من رجال عثمان فقتل هو وجنوده بعد دفاع اعترف له ولجنوده بفضله الاعداء

وتوفيق بك هذا سوري الاصل كان نصرانياً ثم اعتنق الاسلام ودخل في خدمة الحكومة

وعلى كل حال فان عثمان نال في أعماله نجاحا ما كان المهدي يتوهمه وجاءت أعماله في شرقي السودان معطلة لما كانت عليه سرعة المواصلات بين بربر وسواكن وتقوى به ساعد المهدي حيث كفاه مكافحة جزء ليس بقليل من قوات الحكومة كان في الامكان أن تحول بينه وبين تقدمه الي الخرطوم لو عمدت الحكومة الى ارسالها مع غردون لدى عزدته

ومن المدهش ان الحكومة في تلك الايام قصدت فتح طريق من مصوع الى كسلا فالخرطوم وهي تجهل ما في تلك الطريق من العقبات الكؤد والصحاري القاحلة ولو عمدت الي فتح هذا الطريق على شاطيء النيل لم تقم في طريقها صعوبات كالتي قامت في وجه بيكر باشا لما عاد فشلا من مخابرة القبائل من كسلا ولا أضاعت الاوقات في الاشياء التي لا تعود بفائدة فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

واقعة الجنرال جراهم في التيب

ولما فشلت حملة بيكر باشا قررت الحكومة الانكليزية ارسال قوة عسكرية لقهر عثمان دقنه وفتح الطريق بين بربر وسواكن وعهدت بقيادة هذه الجنود الى الجنرال جراهم فوصلت هذه القوة الي سواكن في أواخر شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠١ وبعد بضعة أيام ابحرت منها الى ترنكيتات

على ان المصائب التي حلت بالحملتين السابقتين دعت الجنرال جراهم لاخذ الحذر وعدم الاغترار فسار بحملته وعدد مشاتها ثلاثة آلاف وفرسانه

ثمانمائة ونحو أربعمائة من المهندسين والطوبجية وجول الفرسان في جانبي المربع ثم سار المربع من ترنكتات قبيل الظهر ورافق بيكر باشا الجنرال جراهم

هذا ما كان من أمر الجنرال جراهم أما عثمان فقد تحصن في التيب واحتفر خندقاً صغيراً أحاطه بمتاريس وضع عليها مدافع الكروب التى غنمها من الواقعتين السابقتين ولكنهم كانوا بلا مؤخرة تحفظهم من الخلف فكانت هذه الغفلة مما شجع الجنرال جراهم فتقدم هاجماً على العدو وكان ضمن رجاله جنود من الذين شهدوا واقعة بيكر فجبنوا ولم يثبتوا في الدفاع وولوا الادبار

وكانت مقذوفات العدو متواصلة ومع ذلك لم تجاوبها قنابل الجنرال جراهم وأخيراً تقدمت الحملة حتى صارت على بعد ميل واحد من حصون العدو الذي كانت نيرانه وقنابله شديدة جداً عليها وهنالك أخذت نيران الحملة وقنابلها ومترليوزاتها تجاوب مقذوفات العدو وكان أحد جوانب الحملة عرضةً لمقذوفات العدو فاراد القائد ابدال شكل المربع بطريقة تصير الأضرار خفيفةً فلم يفلح وجرح كولونيل انكليزى فاغتنم عثمان الفرصة وزحف بخفة غريبة ثم اشتبك مع الحملة وصار القتال بالسلاح الابيض وبعد بضع ساعات انفصل الجيشان ووضعت أوزار الحرب وخسر عثمان نحو ثلاثة آلاف قتيل وتقهقر الى (توكر) وتابع الجنرال جراهم مسيره متأثراً له فلم يصادف مقاومة فى طريقه

وكان عثمان يقصد من هذا التقهقر ان يغتر الجنرال جراهم ويتأثره فاذا توغل فى الغابات وأدرك جنوده بعض التعب يكر عليه ولكن الجنرال أدرك الحيلة وقفل راجعا من توكر ولم يتأثر العدو وقتل بكباشى انكليزى وجرح بيكر باشا

وقد وصلت أخبار هذه الهزيمة الى غردون فى الخرطوم وهو فى أوائل

الحصار فكانت مما ضاعف احزانه وسيأتى ذكر ذلك على حدة

ذكر تقدم عثمان دقنه الي سواكن

قلنا ان عثمان كان يقصد بالتقهقر التغرير بالحملة حتي تتأثره فلما أدرك قائدها الحيلة وقفلت راجعة الى سواكن أخذ يعض أنامل الندم لفوات الفرصة حيث كان في امكانه معاودة الكرة عليها فى طريق توكر أو بعد احتلالها اياها فزحف على سواكن وتحصن فى مكان يدعى (طمية) وأرسل قسما من رجاله يناوشون المدينة حتى يضطروا الحامية الى الخروج اليهم فاشتدت وطأتهم على المدينة وكادت تسقط فى أيديهم لولا نيران السفن الانكليزية التى اضطرتهم الي النكوص على اعقابهم مرات عديدة وكان ذلك مما ايأس الجنرال جراهم الذى كان آملاً فتح الطريق بين بربر وسواكن

ذكر واقعة طمية

ولما كثرت غارات العدو على سواكن حمل الجنود الانكليز على العدو وخرجوا فتقهقر المغيرون أمامهم حتى بلغوا طمية

ولما ترا آى الجمعان لزم الجنود خطة لدفاع وتحصنوا داخل زريبة من الشوك فانقض العدو عليهم ليلا وذبح عدداً كبيراً منهم وما زالوا فى دفاع حتي مطلع الفجر فانقسم الجنود قسمين وشكلوا مربعين أحدهما يقوده الجنرال بولر والثانى يقوده الجنرال داڤيس وتقدم هذا نحو العدو الذى قابله بثبات مدهش وفتك باكثر الجنود واختلط بهم فتدارك القائد الامر وتقهقر بانتظام حتي صار حيال مربع الجنرال بولر وأخذ المربعان في اطلاق النار على العدو

معاً فتقهقر بخسائر جمة وبلغ عدد من قتل من الجنود الانكليزية نحو أربعة آلاف ويقال ان جنود الجنرال دافيس أظهرت جبنا واحجمت عن اطلاق النار حتي تمكن العدو من الدنو منها وعادت الحملة الى سواكن

أما عثمان فقد أعاد الكرة على سواكن وأخذ يوالي حث القبائل على الجهاد وذلك كله ليمنع تقدم أى قوة الى بربر يشتد بها ساعد غردون وأرسل دعاة كثيرين حصروا كسلا كما سيأتي ذكر ذلك في مكانه

ولما اتحد المربعان تقدمت الجنود قليلا الى معسكر العدو وأشعلت النار في معسكره وأحرقت خيامه واسرت كثيرا من العائلات والنساء ولحق العدو بعض خور اضطره الى عدم تأثرها حتي بلغت سواكن

وقد تغالي مكاتبو الجرائد الانكليزية في وصف هذه الحادثة الى حد انهم قالوا بان الدراويش اشجع رجال في الدنيا وأكثر الناس خبرة بفنون الحرب

على أن الحقيقة عكس ماقالوا لان القوم لم يكونوا الا في الدرك الاسفل من الغباوة والجهل وما أظهروه من الشجاعة كان نتيجة ما كان يقال لهم عن نعيم الجنة وحياة الشهداء فهم يريدون احراز ذلك والتمتع به. هذا وقد امتدح المجذوب بن الشيخ الطاهر عثمان دقنه بقصيدة طويلة عقب هذه الواقعة مطلعها

بطل تهاب بنو الاصيفر باسه لم لاوساء صباحهم تكرارا

والقصيدة طويلة اكتفينا بايراد مطلعها لخلوها من الفائدة وتضمنها الغلو فى المدح والخروج عن حد الادب فى ذم الحكومة وهجائها

ذكر تقدم الجنرال جراهم الي بربر

وفى غضون ذلك وردت الاخبار الى القاهرة ولندره بقطع الاسلاك التلغرافيه بين الخرطوم والقاهرة وشرع العدو يحاصر الخرطوم فقررت الحكومة الانكليزية ارسال حملة الجنرال جراهم لفتح الطريق بين بربر وسواكن وأمرت الجنرال جراهم بالحملة على عثمان دقنه واختراق الصحراء للوصول الي بربر

وكان لعثمان دقنه عيون فى داخل سواكن يبلغونه كل أخبار الحكومة ونواياها ولما سمع هذا الخبر سر به وعزم على عدم مقاومة الحملة بالقرب من سواكن واخلاء الطريق لها حتى تتوغل فى الصحراء وهناك يثور فى وجهها ويتمكن من ابادتها

ولما خرج الجنرال جراهم كان علي حذر شديد وتقدم فى الصحراء مسيرة يوم وليلة ثم علم بحقيقة مادبر له وعلم أنه ان تابع مسيره كانت عاقبته لاتختلف عن مغبة حملة الجنرال هيكس فصمم على العودة الى سواكن قبل أن تطرأ ظروف تجمل السلامة فى خبر كان فعاد ولم يصادف كيدا في ذهابه أو ايابه

ولما سمع عثمان بعودة الجنرال جراهم أسرع اليه ليهاجمه قبل أن يبلغ سواكن فلم يفلح وبلغت الحملة مأمنها سالمة غير ظافرة بشيء مما كانت تتوق اليه وبهذه الحملة ختمت رواية الجنرال جراهم حيث غادر سواكن وانصرفت أميال الحكومتين المصرية والانكليزية عن فتح الطريق بين سواكن وبربر وأصبح الامل ضعيفا من اسعاف غوردون وامداده من جهة السودان

الشرقي حيال ما أظهره عثمان من القوة والبسالة اللتين أدهشتا العالم أجمع وشددت عزائمه وقوت أمله في الاستيلا على الخرطوم ووقوع السودان كله تحت قهره وجبروته

وفي غضون ذلك كانت القبائل التي حول بربر رفعت راسها للثورة وسقطت بربر في يد المهدي والخلاصة أن جميع حركات الجنرال جراهم لم تعد باقل فائدة بل كانت مما قوى ساعد العصاة بما غنموه من الاسلحة والذخيرة والى الله مصير الامور

وانسحب الجنرال جراهم من سواكن بكل عساكره ولم يترك غير مائتين منهم ليقوموا بحراسة المدينة مع السفن الانكليزية

وكان انسحاب الجنرال جراهم من سواكن بعد أسبوعين مضيا على حصر غوردون وقطع الاسلاك البرقية بين الخرطوم ومصر

ذكر حوادث كسلا

كان السيد محمد عثمان الميرغني شيخ الطريقة الميرغنية مقيما في قريته (الختمية) بجوار كسلا وقد خاطبه المهدي مرات عديدة يدعوه الى القيام بدعوته في إقليم (التاكا) فكان لايجاوبه بحرف واحد واعرض عن إجابته كل الاعراض

وفي شوال سنة ١٣٠١ كتب له خطاباً ملأه بالوعد والوعيد وصرح له بان لانجاة له الا باحد امرين اما اللحاق به أو القيام بدعوته تحت إمرة عثمان دقنه وعرض له وسأله ان لا يأنف من رئاسة عثمان دقنه عليه لان ذلك لايؤخر مثله عن نصرة الدين ولوكان عثمان (شلكاويا) نسبة الي قبيلة (شلك) في

مقا لمة فشوده وهى قبيلة من العبيد لا دين لها ينام افرادها على الرماد ويغسلون وجوههم ببول البقر ويمشون عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم وها هى صورة المنشور بنصها نقلا عن الجزؤ الثانى من المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه في الله محمد عثمان بن محمد الحسن ميرغني كان له مولاه الغني امين

أما بعد فجزيل السلام ورحمة الله وبركاته عليكم وعلى من لديكم ثم نعلمكم انه قد تكررت المخاطبات منا الي عباد الله بالدعوة الى الله والانابة الى ما عنده والقيام بامره والانقياد له والخروج عن النفس والعلائق المعوقة وكل من أخلص لله وكان أمره لله قد اتصل لدين الله معنا ومن لم يجتمع وقام بامر الله على قصد إعانتنا وقاسى الشدائد لصفاء سريرته فى إيثار ما عند الله فهو منا والينا ولو مات على ذلك فجدير ان يتصل بربه ويتنعم عنده بما لا يوصف من النعيم المقيم ويستريح من شؤم الدنيا وقد كاتبناك خاصة غير مرة رعاية لمقامكم وشفقة عليكم وظنا للخير بكم فما رددتم الينا جوابا ولا حضرتم للهجرة ولا حصلت منكم غيرة للدين باعمال حركة في جهتكم وما أدري ما المانع لكم من ذلك مع انكم أولى بالفرح بنا واجابتنا ونصرة دين الله تعالي من كل أحد فما الذي أخركم حتي فاتكم العوام وأنتم العارفون وأولو الشرف والمقام وذوو الالباب الذين قال الله فيهم «ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت

هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من انصار ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا » وانك من أعظم من يمدويظن بالصداقة والاخلاص لله في مثل هذا الامر وما عهدتك انك تتباطئ على قدر هكذا لانك جد عارف بعظمة ما عند الله وخسة الدنيا وما فيها ووجوب الهجرة الي اذ انه لا يخفي على من دونك نورا انى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم محيي ما اندرس من الدين ومظهر آثار المرسلين ومن المعلوم ان المهدية اختبار لمن يدعي الدين فكل من كان لدين الله الخالص صادقا لا يأبي التعبد والانقياد والتواضع لحوز ما عند الله الدائم ومن كان باطنه حب الجاه وما يجبي اليه من الهدايا والوظيفة عند غير الله مال الى ذلك وتوقف وصرف جماعة من الناس عن الدين الواصل كما كان ذلك دأب القسيسين والرهبان الذين كانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفا من فوات الجاه والوظيفة عند الناس وما يجبي اليهم من الهدايا والقطائف حبا لمتاع الحياة الدنيا وما ذلك عند الله بمخلص ولا يتولي العبد عند لقاء الله قال تعالى « ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » وقال « وما يغنى عنه ماله اذا تردى » الي غير ذلك وانك يا حبيبنا ممن لم يكن دينه على حرف ان أصابه خير اطمان به وان اصابته فتنه انقلب على وجهه بل أنت ممن يطلب رضاء الله ولو تقطعت اربا اربا وفاتت عنك المطالب النفسية لما تعلمه من عظمة الله ونعمته وشدة عقابه لمن وقع فيه وكل ذلك أنت خبير به وشانك ان تربي من أتاك هكذا فاستعمل ذلك وتبصر عاقبة أمرك فانه لا غناء لك من صلاح نفسك واكتساب ما عند الله وانك من

أعظم من يقبل النصح تواضعاً لله الذي خلق وأحيا واليه المرجع ومن أخص المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فاذا بلغك جوابي هذا فاما ان تهاجر الي أنت ومن معك من الاصحاب المحبين من غير نظر الى علاقة واما ان تحاصروا الترك الذين فى جهتكم وتجاهدوا من اغتر بزينة الدنيا ولا رضاء لنا عنكم الا بهذين الامرين فان فعلتم احدهما رضينا عليكم والا فلا وقد تعلم انه لا يحول أحد بغير الله فلا تخافوا اعداء الله الذين نواصيهم بيد الله واستعملوا أمر الله فيهم ولا تأبوا بلاء الله لكم لتصفية الايمان والفوز عند الرحمن فالي متي الفرار من بلاء الله تعالى الذى فيه لكم الكرامة والفخامة والله تعالي يقول «ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا» وكيف لمثلك ان يركن الي الراحة وترف المترفين فى دار الظالمين فانهض همتك وقو بالله عزمك وشمر فيما يرضيه جهدك وقد ذكرتك بهذا امتثالا لامر الله تعالى لقوله «وذكر فان الذكري تنفع المؤمنين» هذا واذا توكلتم على الله ورغبتم الجهاد والمحاصرة هناك فاتحدوا مع عثمان دقنه مع جميع الامراء الموجودين هناك ولا تخالفوا عثمان دقنه فى شيء ولا تأنفوا من ذلك فان منزلتكم عندنا معروفة وأولى التقدم المذكور في ايثار ما عند الله والرغبة فى وسع درجات الآخرة لمعلومكم ان ما عند الله خير وأبقى ومعلوم ان العاقل يسعى فيما هو خير ولا سيما وقوة احاطتكم بمعرفة عظمة ما عند الله ومعرفة خسة الدنيا وما فيها فلذلك لا يخفى ان المخلص في طلب ما عند الله يطلب قلبه ان يشيد الدين ويؤيده ولو مع شلكاوى وان قصد المؤمن المصدق حوز رضاء الله والسعي فيما يقربه من الله ومن كان على حرف من الدين فرح ان وجد الرياسة والمال والمنافع الفانية وان

لم يجد ذلك نازع أو أعرض أعاذنا الله وإياكم من ذلك اذ أن ذلك للمنافقين الذين قصرت همتهم على الدنيا فرضوا بها واطمأنوا غافلين عن آيات الله تعالى ولم يجعل الدار الآخرة الا للمؤمنين المخلصين قال الله تعالى «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً» فارادة العلو مفهومة وارادة الفساد أعظمها حب الدنيا اذ هي رأس كل خطيئة ولظننا ببراءة ساحتكم عن ذلك كاتبناكم أولا من ابتداء أمر المهدية لظن الخير فيكم وقيامكم بخالص الدين وما نظن توقفكم عن الهجرة والجهاد الى هذا الآن الا بحسد الحاسدين وصرف المعرضين فاذا بلغكم جوابي هذا فحققوا ظني فيكم وقد ذكرنا لكم ان ذا الكشف الصادق والدكم السيد الحسن أشار الينا مرارا وتكرارا بالمحلات وببعض الصفات التى تحققت فبعد هذا فلكم أولى بالقيام بما لله وايثاره على جميع المشاهي والسلام شوال سنة ١٣٠١

ولما وقف السيد محمد عثمان الميرغنى على كتاب المهدى له أرسل يدعو القبائل لاجتماع عام عند سفح جبل (تكروف) فاجتمع ألوف منهم فقام فيهم خطيبا يسألهم أن يعرضوا عن دعوة المهدي ويحذرهم الفتنة فكان جوابهم له السخرية والازدراء فعاد الي قريته واخذ فى الاهبة للرحيل ومحض النصح لكل من قابله بمغادرة السودان الى الحبشة والفرار من وجه الفتنة وقال لاتباعه فروا بدينكم وغادر (التاكا) الي بلاد الحبشة ومنها الي مصوع فسواكن لان الطريق من كسلا الى مصوع كانت مملوءة بدعاة المهدية واكثر القبائل دانت بالطاعة لعثمان دقنه ولم يتخلف عليه غير قبيلتى (بنى عامر والحباب) لانهما أتباع الطريقة الميرغنية واوغلنا فى البلاد حتي قرب مصوع وتخلفت عليه قبيلة (الحمران) وهى قبيلة تسكن شرقي نهر أتبره بين حدود الحبشة وكسلا ورئيسها يدعي (عجيل)

فنزح باكثر قبيلته الى بلاد الحبشة حيث امده الملك يوحنا بما يحتاجه وجعله مرابطا فى حدود بلاده يدفع عنها غارة المهديين ويوالي الغارة على بلادهم وسنأتى على بقية حوادثه

ونقل لنا بعضهم عن الشيخ مضوي عبد الرحمن انه قال لما دخلت حدود الحبشة فاراً من عبد الله التعايشى قابلني الشيخ عجيل الجمراني بالحفاوة والاكرام فلما حضرت صلاة المغرب قام يصلى بالناس اماما وبعد تكبيرة الاحرام رفع صوته بالقراءة فقال ياسيدي محمد عثمان الميرغنى الكبير ياسيدى الحسن ياسيدي محمد عثمان الصغير وصار يعدد أسماء آل بيت الميرغنى صغيرهم وكبيرهم ذكورهم واناثهم بياء النداء حتي جاء علي آخرهم ثم كبر للركوع ثم رفع وسجد ثم عاد للقراءة بمثل الركعة الاولى ولما انتهت الصلاة كان بجانبي رجل من أهل العلم فالتفت اليّ مسرعا وقال ايك ان تفوه ببنت شفة فقد مضى علينا سنوات نصلى هكذا وقد ضربت اعناق كثيرين لاقل كلمة ابدوها فى الاعتراض على هذه الصلاة فالتزمت السكوت وكانت قبائل شرقي السودان الى اوائل القرن الثالث عشر من الهجرة مثل سائر زنوج افريقية ولم ينتشر الاسلام بينها الا بعد ان استوطن السيد محمد عثمان الميرغنى بين ظهرانيهم

وقبل وصول هذا الكتاب الى السيد محمد عثمان كان رجل يدعى الكميلابى جاء من قبل عثمان دقنه بدعوة المهدية وقطع الاسلاك التلغرافية بين كسلا وسواكن وقتل صنجقا اسمه جباره اغا كان يجبي الضريبة من الاهلين فانتدبت الحكومة راشد كمال باشا قومندان حدود الحبشة فى قوة كبيرة للقبض على هذا الداعية وبعد مسير القوة اياما عديدة صدر لها الامر بالعودة فعادت بغير أن تصادف كيداً

ويقال إن السبب في رجوع الحملة هو أن جماعة من أعيان البلاد كتبوا عرائض على لسان البرق للحكومة يظهرون ولاءهم وطاعتهم للحكومة وكان ذلك خدعة لها فاغترت الحكومة وأصدرت الاوامر برجوع الحملة

ويوجد في صحراء (ريره) التي بين النيل الازرق ونهر أتبره قبيلة الشكرية التي رفضت الدخول في دعوة المهدية محافظة على ولاء الحكومة

والى هنا نكتفي بايراد حوادث السودان الشرقي حيث نشبع الكلام عليها بعد ايراد حوادث الخرطوم وسقوطه في يد المهديين والله الموفق

الخرطوم قبل قدوم غوردون عليها

ذكرنا أن الحكومة لما اتصل بها نبأ هزيمة الجنرال هيكس وهلاكه ارتبكت وأمرت بجلاء حاميات الدويم والكوة وفشوده وسنار لتعزيز حامية الخرطوم حتى تصير قادرة على حفظ خط الرجوع الي مصر حيث عولت على اخلاء الخرطوم وترك السودان غنيمة للمهدي

ولما اتصل النبأ بوكيل الحكمدارية حسين سري باشا اذاعه وأخذ الناس في الاهبة للرحيل ولكن معدات النقل لم تكن كافية فكانت أجرة الشخص فى المراكب الشراعية لاتقل عن عشرين ريالا مجيديا من الخرطوم الي بربر وأجرة حمل الجمل من هذه الي كروسكو لاتقل عن خمسين ريالا مع أن الاولي كانت لاتتجاوز ثلاثة قروش والثانية ثلاثة ريالات وتوالت الانذارت من المهدى الي سكان الخرطوم بالتسليم وكان وكيل الحكمدارية يقول للناس جهارا انزحوا من الخرطوم الى مصر أو الى المهدي فقد تركت الحكومة بلادكم والقت زمام أحكامكم الى المهدى فكانت هذه الاقوال مما جرأ الاهلين المتحفزين للثورة وخلع نير الطاعة عليهما

هذا وقد ظهر دعاة كثيرون سنورد أخبارهم ونستقصي أعمالهم للوقوف عليها حتى لايفوت القارئ شي منها

ذكر عصيان الشيخ العبيد بدر

الشيخ العبيد بدر من قبيلة اسمها (المداعية) تسكن فى الغيافى التى

تبعد عن ضفة النيل الازرق شرقي الخرطوم وتعيش بلبن الماشية الصغيرة والزراعة

وكان الشيخ العبيد هذا أميا يرعى غنم الناس بالاجرة ثم تظاهر بالانخراط فى سلك الطريقة القادرية وكان على جانب عظيم من الذكاء والفطانة استخدمهما بين أولئك الاعراب حتى اجتمع حوله اتباع كثيرون

ومما اشتهر عنه ان اعرابياً قال له ان حماري ضاع فقال له شرب سمنا فشربه ولما احس بالاسهال خرج الى الفلاة فعثر على حماره وسط الاشجار فعد اولئك الاغبياء ذلك من اكبر الكرامات للشيخ العبيد وشرب السمن للدواء شائع في السودان كله حتي ان الدواء اما ان يكون السمن أو الكى بالنار او العشبة أو الرقية بالقرآن

وكان الشيخ العبيد مشهوراً بين قبائل جهته يقصده الناس من اطراف السودان التماساً لبركته ولمداواة مرضاهم وعلاجاته قاصرة علي السمن ويسميه دواما (الفقيه سمن) ويعمل لبعض المرضي عمليات جراحية لمرض كثير الانتشار هناك وهو آفة فى الرجل يسميها السودانيون (النبت) وفي الغالب ان عملياته تقرن بالنجاح ويرقى بعض المرضي الذين يصابون بالامراض العقلية التى يطلق عليها العامة لبس الجن لابدان المصابين بها

وقد حصل الشيخ العبيد على ثروة طائلة من هذه الاشياء واصبح نافذ الكلمة بين القبائل التى تسكن شرقى الخرطوم ومرعى الجانب عند كل قبائل السودان وهو يسكن في قريته التي تبعد عن الخرطوم مسيرة مرحلتين فى الضفة الشرقية واسمها (ام ضبان) أى ان الذباب كثير فيها وسيأتى ذكر قتل محمد على ونحو ثلاثة آلاف جندى بهذه القرية

ولما ظفر المهدي بحملة الجنرال هيكس أرسل كتابا الى الشيخ العبيد يدعوه الي الدخول في دعوته وان لا نجاة له الا بالقدوم عليه أو حصر الخرطوم وعرّض له بذكر الشريف أحمد طه الذي تقدم خبر قتله وكان الشيخ العبيد ملازما الحياد مدة قيام المهدية بكوردفان فكان يظاهر المهدي ولا يحب ان تسمع عنه الحكومة الميل لجهته فكان اذا سأله سائل عن حقيقة دعوى المهدي يجيبه بعبارته المشهورة وهي (اذا كان مهدى جيد لينا وان كان ماهو مهدى شين لنا) ومعناها اذا كان مهديا فانه جيد لنا وان لم يكن مهديا فاي شيء لنا وهذا الجواب يدل على ماكان عليه هذا الرجل من الدهاء وكان رسل المهدى واتباعه اذا جاؤه يقابلهم بالاكرام ويسر اليهم انه منهم واذا جاءه عمال الحكومة أظهر لهم الطاعة ونوه لهم عن الضعف بعبارة عامية مشهورة أيضاً وهي (أنا جنيزه محنطه وجديده مكشنه) ومعناها انا كالجنازه المكفنة ان حملت الى المقابر فانها لا تقاوم أو كدجاجة مطبوخة بالبصل لا تقاوم من يريد أكلها

ويقول البعض ان الرجل ولو انه أول من حاصر الخرطوم وقتل عدداً كبيراً من جنودها في واقعة أم ضبان فانه مكره اخاك لا بطل وكان الشيخ العبيد قبل ظهور المهدية بعدة سنوات يكره دخول مدينة الخرطوم ويقول كلمة مشهورة أيضا (بركة القيوم ما أدخل الخرطوم) أي أسأل القيوم أن لا يدخلني الخرطوم وكثير من اتباعه يقولون انه عالم بطريق الكشف وخرق حجب المغيبات بما يصيب أهل الخرطوم من البلاء ولذلك كان يخشي ان يصيبه ما يصيبهم الي غير ذلك من الامور التى ليس في وسعنا ايراد جميعها في مثل هذا المؤلف لعدم فائدتها

وحاصل القول انه رجل من أدهى أهل بلاده ولذا لم نقدر على الحكم

بحقيقة نيته بل نترك الحكم ويقرب من الظن انه كان مكرها لابطلا والله أعلم بالصواب وهذه صورة الكتاب نقلا عن الجزؤ الثاني من المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة علي سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي مولاه محمد المهدى بن عبد الله الي حبيبه فى الله (العبيد بدر) وقاه الله جميع الضر ووفقه على ماعند الله يسر ومن معه من المحبين .حبيبي قد تكررت المخاطبات الى عباد الله للانابة الى ماعند الله والانقياد لامر الله والخروج عن النفس والعلاقة المعوقة وكل من أخلص لله وكان امره لله قد اتصل لدين الله معنا ومن لم يجتمع وقام بامر الله علي قصد اعانتنا وقاسى الشدائد لصفاء سريرته في ايثار ماعند الله ومات علي ذلك اتصل بربه وتنعم بما لا يوصف من النعيم واستراح من شؤم الدنيا كاحمد بن طه الشريف المعلوم الذي جاهد الترك ومات على صدق حبه واتباعه وكذلك أمثاله قال الله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » فحاشا ان من له معرفة يجعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة بل هان عليه كل تعب ومشقة فى الدنيا ليسلم من عذاب الله الذي لا يساوى عذاب الناس فى جنبه بشيء ما ولا سيما ما عند الله من الخيرات التى لا تزن الدنيا جميعها فيها شيأ قليلا كما ورد فمن نظر ذلك هان عليه فوات كل متعة في الدنيا ومفارقة كل حبيب بالنظر الى الدوام العظيم كما هان عليه مقاساة شدائد الدنيا بالنظر الى شدة عذاب الآخرة وانك من أعظم من ايلد ويظن بالصداقة والاخلاص لما عند الله وما عهدتك انك تتباطئ على قدر هكذا مع انك جد عارف بعظمة ماعند الله وخسة الدنيا وما فيها

ووجوب الهجرة الى اذ انه لا يخفي على من دونك نوراً انى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم محيي ما اندرس من الدين وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن المعلوم عند ذوي العرفان ان المهدية اختبار لمن يدعى الدين فكل من كان لدين الله الخالص صادقا لا يأبى التعبد والانقياد والتواضع لحوز ما عند الله الدائم ومن كان باطنه حب الجاه وما يجبى اليه من الهدايا والوظيفة عند الناس توقف عن الانقياد لاجل ذلك وصرف جماعة من الناس عن الدين الواصل لله كما كان ذلك دأب الاحبار والقسيسين والرهبان الذين كانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفا من فوات الجاه والوظيفة عند الناس وما يجبى اليهم من الهدايا والقطائف لمتاع الحياة وما ذلك عند الله بمخلص ولا يتولى العبد عنه لقاء الله قال تعالى «ليس بامانيكم ولا اماني أهل الكتاب من يعمل سوأ يجزبه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا» وقوله تعالى «وما يغني عنه ماله اذا تردى» الى غير ذلك وذلك من المعلوم عندك وانك ممن لم يكن دينه على حرف فان اصابه خير اطمان به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه بل أنت ممن يطلب ماعند الله ولو تقطعت اربا اربا وفاتت جميع المطالب النفسية لما تعلم ماهو عند الله من العظمة التى لا توازيها جميع المطالب بل من فاته ذلك ووقع فى عقاب الله الذى هو معلوم بالشدة أحب ان يفتدي بجميع مافى الدنيا من محبوباته التى لا يبقى له منها عن قريب أثر شيء منها وكل ذلك وأنت تربى به من أتاك فاستعمل ذلك حبيبي فانه لا غناء لك من صلاح نفسك واكتساب ماعند الله وانك من أعظم من يقبل النصح تواضعا لله الذى خلق وأحيي واليه الموجع وقد وعد وأوعد كما قال تعالى «وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين» فليس

بعد الله شيء ولا أصدق من قوله وانك من أخص المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هديهم الله وأولئك هم أولوا الالباب وفقني الله واياك والمسلمين لما يحب ويرضى فاذا بلغك جوابي هذا فاما أن تهاجر أنت ومن معك من الاصحاب المحبين ومن يطلب ماعند رب العالمين من غير نظر الى علاقة وإما ان تحاصروا الخرطوم وتجاهدوا من اغتر بزينة الدنيا ومتاعها عن الصدق مع الحي القيوم حتى نأتيكم ولا رضاء لنا عنكم الا بهذين الامرين فاذا فعلتم رضينا عليكم وأنت تعلم انه لا يحول أحد بغير الله فلا تخافوا أعداء الله الذين هم نواصيهم بيده واستعملوا أمر الله فيهم فانه أحق ان يخشى ولا تأبوا بلاء الله لكم لتصفية الايمان والفوز عند الرحمن فالى متى الفرار من بلاء الله تعالي الذي فيه لكم الفخامة والكرامة فقد قال الله تعالى « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا » الي غير ذلك من كلام الله في هذا المعنى فلا تطلبوا الراحة وترف المترفين فى دار الظالمين وكل ذلك ذكرتك به لانك أهل لذلك وممن له الصداقة مع رب العالمين والسلام » اه

وفي اوائل شهر صفر سنة ١٣٠١ قامت عصابات من اتباع الشيخ العبيد وقطعت اسلاك التلغراف بين الخرطوم وبربر فارتاع لهذا الحادث وكيل الحكمدارية وارسل وفداً برئاسة أحمد بك على جلاب مدير الخرطوم وسر التجار وثلاثة من الاعيان ولما دنا رجال الوفد من ام ضبان قابلهم اتباع الشيخ العبيد بالشتم والسباب وقالوا لهم لما ذا جئتم ياكفار الله اكبر عليكم فلم يجاوبوهم بشيء بل دخلوا على الشيخ العبيد الذى قابلهم بالحذر الشديد وقرأ عليهم ماكتبه له المهدي فقالوا له نحن عازمون على التسليم والدخول في طاعة

ويقول كثير من الناس ان هذا المدير كان ذا ميل الى المهدى وقد أمنه على ماله وأولاده ووعده بالجزاء الحسن وقد قبض غوردون عليه في غضون حصار الخرطوم واظنه لم يتحقق لديه شيء مما نسب اليه والرجل مات قتيلا يوم سقوط الخرطوم رحمه الله وتجاوز عنه

ذكر كتاب من المهدي الي الشيخ السنوسي

قلنا ان المهدي نصب خلفاء ثلاثة وسمى كل واحد باسم خليفة أحد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين عدا عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان وانه كان ينوى اهداء هذه الخلافة الى حضرة الشيخ محمد المهدى بن السنوسي

وفى سنة ١٣٠٠ كتب كتابا مع الطاهر اسحق من أهالي البلاد الواقعة غربي دارفور الى الشيخ السنوسي يخبره بانه كان ينتظره لاقامة الدين والجهاد فى سبيل رب العالمين حتي أتته المهدية الكبري وان النبي صلى الله عليه وسلم اجلس ثلاثة من أصحابه على كراسى خلفائه وأبقي كرسي عثمان بن عفان رضي الله عنه له وقال هذا لابن السنوسى عاجلا أو آجلا وقال ان نورانيتك تحضر معنا في حضرات كثيرة ورجا منه القدوم عليه أو القيام بدعوته فى جهته والغارة على مصر . قال الرسول لم يجاوب السنوسى بخطاب بل قرأ كتاب المهدي وقال انني لم ابلغ منزلة الغبار الذى ثار فى أنف فرس عثمان بن عفان رضى الله عنه في احدي غزواته مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا جواب عندي على هذا الكتاب ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء

وهذه صورة الكتاب نقلا عن كتاب المنشورات أيضا

شديد في طاعة الملك المجيد وقد كنا نمدكم للنائبات التي تزل من عدم الصبر عليها أقدام الثقات لتمييز بواطنكم واوقاتكم بذكر الله ودلالتكم [illegible] الله وعكوفكم على قدم الصدق الذي تنافس فيه أهل الله وحزبه وانتم أهل دراية ومعرفة وقد علمتم ان القلب اذا خلا من غير الله يمتلئ نورا ويفيض منه الى خلق الله ولا شك ان الرباني المتمسك بالله كامنا لكم شأنه هكذا وسيماه وعلامته هي عدم الخشية من أحد غير الله والى الآن انتم معدودون عندنا لاجل ذلك وقد بلغنا عنكم عدم الاهتمام والقيام لقتال الكفرة حيث ندبكم محمد بن الطيب البصير لذلك فتخلفتم عن إجابته وما كان لكم أن ترغبوا عن الله ورسوله وتشاركوا المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عذر لكم بعد أمر الله ورسوله وأمرنا هذا وإن كنتم في أشد البلايا فان الدين بالبلوي يزيد تجملا ولا يعرف الذهب من الزيف الا بحرقه في النار ولا يرغب عن ملة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام الا من سفه نفسه وما أراكم أن ترضوا بذلك لكونكم عندنا من الاخيار فاطلبوا ما عند الله فالبدار البدار وتوبوا مما توقفتم لاجله فانه لا شيء يعتذر به ويستحي المؤمن اذا وقف بين يدي الله تعالى وينكس رأسه ذليلا منكسراً حيث آثر الغير على محبة الله وتأني من طلب الله لاجل شيء ظنه عذرا وتوانى عن نصرة الله فيود ان تسوى به الارض من شدة وجله وخجله من الله حيث انكشف له حقيقة حاله عند الله وبعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور فاذا بلغك جوابي هذا فشمر وقو عزمك في الله وشد حزام العزم والحزم وتوكل على الله واعتصم به وانتصر بالله فنعم المولى ونعم النصير وبوصول جوابي هذا اليك اجمع همك في الله وأرسل لجميع اتباعك وأحبابك وأهلك وعشيرتك في

الله وجاهر فى معاداة الكفرة واقطع السكك وبارز بالعداوة ظاهراً وباطنا بالقتل والاسر والرباط والحصار ولا تتوقف ابدا لامر مّا ان كنت ممتثلا مصدقا بمهديتنا افعل ذلك ولا تبال حكم مافعل محمد الطيب البصير وان خشيت فانضم اليه وهاجر من محلك الذي أنت فيه واتحد معه كيد واحدة فلا يكون لك بد عن هذا أبداً فحرض المؤمنين على القتال وسلم نفسك واتباعك من الحساب والسؤال فان من قصد الله ورسوله واقامة الدين يجاهد عدو الله ورسوله ولو مع شلسكاوى فلا تغر نفسك فلا يكون رضاي عليك الا بفعل ما أمرتك به من أحد الامرين مع عود الافادة الينا عاجلا لنعلم ما أنت عليه والسلام

ولا تجاوبنا بغير ما أمرناك به ولا تبسط لنا الاعذار وها قد أنذرناك ومن بلغه الانذار لاحق له فى الاعتذار والسلام

« الثاني » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن عبد الله الي احبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه خصوصا دفع الله تلميذ العبيد ولد بدر وكافة عصبته ورجاله واتباعه اجمعين اما بعد فالذى نعلمكم به أيها الاحباب انه جاء الحق وزهق الباطل وقد علمتم ان خروج المهدى وظهوره كقيام القيامة يتضح فيه أهل الدين والايمان ويكشف عن الصادقين من الاحباب وأنتم أبناء الطريقة وخدمتها المريدون لحرث الآخرة والمجتهدون فيها وهذه سنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ظهرت وايدها الله بظهورنا وأوجب عليكم طاعتنا ونصرتنا فى الله لاقامة الدين وترك كل ما ألهي وشغل من مال وبنين وحيث فهمتم ذلك فاتتكم الهجرة

الاولي وكان الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب اليكم من كل شيء سواه فبمجرد وصول جوابنا اليكم صحبة رافعه محمد الناير تحزبوا في الله احزابا أحزابا وجهزوا حالكم واستمدوا للقتال والجهاد للكفرة بكل ما أمكنكم وانضموا الى العبيد بدر وبمجرد سماعكم بحلولنا بالبحر الابيض تقوموا بكامل رجالكم خفافا وثقالا وقابلوا الخرطوم بجهتكم التي يقال لها القبة وحاصروا أعداء الله وضيقوا عليهم فان الله يخزيهم وينصركم عليهم فاني موعود بالنصر والظفر عليهم باذن الله تعالى ولو كنت وحدي فمن تخلف بعد مجيئنا فدمه هدر وماله وأولاده غنيمة للمسلمين يكون معلومكم ذلك وبعده السلام

وأيضا كتبنا لوالدكم العبيد بالحصار والجهاد تجاه القبة للخرطوم وان يساعدكم على هلاك الكفرة فتعاونوا عليهم فان المؤمنين كالبنيان يشد بعضه بالبعض يكون معلوم والسلام

وسنعود الي ذكر تأثير هذين الكتابين

ذكر غارة الشيخ مضوي عبد الرحمن علي ارباض الخرطوم ونهبه الماشية وهزيمته

في أوائل شهر صفر سنة ١٣٠١ جمع الشيخ مضوى نحو الف رجل أغار بهم على الخرطوم ونهب نحو الفي رأس من الماشية كانت ترعى خارج الخندق ولما تأثرته الجنود فر الى جهة الجديد على بعد مرحلتين من الخرطوم جهة النيل الازرق ثم انتدبت الحكمدارية اللواء ابراهيم حيدر باشا في الفين من المشاة المصريين فابحر من الخرطوم على باخرتين حتي بلغ الجديد فقابله الشيخ مضوي براياته وجنوده فصبر لهم حتي اقتربوا من المربع وأصلاهم

ناراً حامية فلم يستطيعوا الثبات عليها وولي قائدهم مذعوراً وسقط نحو مائتين منهم قتلى وتفرقوا في الفلاة ومنذ ذلك اليوم اختفى أثر الشيخ مضوى ولم يوقف له على خبر الا بعد ان زحف أبو قرجه وابن البدوي وحاصرا الخرطوم من جهة الجريف كما سيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر الداعية محمد بن الطيب البصير

تقدم لنا تعريف قرى الحلاوين عند ذكر الشيخ القرشي أستاذ المهدى ونقول الآن كان في الحلاوين رجل اسمه الطيب البصير كان أستاذ القرشي هذا قبل ان يجتمع بالاستاذ الكبير أحمد الطيب بن البشير ناشر الطريقة السمانية في الاقاليم السودانية وكان الطيب البصير ضريراً فسماه أستاذه بصيراً وكان ورعا تقياً ذا شهرة كبيرة وسيرة حسنة في أيامه توفى في منتصف القرن الثالث عشر من الهجرة الشريفة وله أولاد أرشدهم محمد بن البصير

ولما أباد المهدى حملة الجنرال هيكس أرسل الى ابن البصير يامره بالقيام بدعوته وكان المهدي زوج ابنته فاحجم في بادئ الامر وأخذ يدعو الناس سرا ولم يقدر على المجاهرة

وكان فى مدينة ولد مدنى رجل سورى اسمه محمد اغا جباره وهو والد احمد جبارة قاضي المهدية الذي ذكرنا خبر قتله يوم واقعة الجمعة بالابيض كان يدعو الناس سرا للمهدي بهذه المدنية

ولما اتصل بالحكمدارية هذان الخبران انتدبت احمد بك على جلاب مدير الخرطوم وشددت عليه الاوامر بالقبض عليهما فذهب على احدي البواخر واحاط بالقرية التي فيها ابن البصير وبعد ان قبض عليه أوكاد قدم

بعد الله شيء ولا أصدق من قوله وانك من أخص المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب وفقني الله واياك والمسلمين لما يحب ويرضى فاذا بلغك جوابي هذا فاما أن تهاجر أنت ومن معك من الاصحاب المحبين ومن يطلب ماعند رب العالمين من غير نظر الى علاقة وإما ان تحاصروا الخرطوم وتجاهدوا من اغتر بزينة الدنيا ومتاعها عن الصدق مع الحي القيوم حتى نأتيكم ولا رضاء لنا عنكم الا بهذين الامرين فاذا فعلتم رضينا عليكم وأنت تعلم انه لا يتحول أحد بغير الله فلا تخافوا أعداء الله الذين هم نواصيهم بيده واستعملوا أمر الله فيهم فانه أحق ان يخشى ولا تأبوا بلاء الله لكم لتصفية الايمان والفوز عند الرحمن فالى متى الفرار من بلاء الله تعالي الذي فيه لكم الفخامة والكرامة فقد قال الله تعالى « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا » الي غير ذلك من كلام الله في هذا المعنى فلا تطلبوا الراحة وترف المترفين فى دار الظالمين وكل ذلك ذكرتك به لانك أهل لذلك وممن له الصداقة مع رب العالمين والسلام » اه

وفي اوائل شهر صفر سنة ١٣٠١ قامت عصابات من اتباع الشيخ العبيد وقطعت اسلاك التلغراف بين الخرطوم وبربر فارتاع لهذا الحادث وكيل الحكمدارية وارسل وفداً برئاسة أحمد بك على جلاب مدير الخرطوم وسر التجار وثلاثة من الاعيان ولما دنا رجال الوفد من ام ضبان قابلهم اتباع الشيخ العبيد بالشتم والسباب وقالوا لهم لماذا جئتم ياكفار الله اكبر عليكم فلم يجاوبوهم بشيء بل دخلوا على الشيخ العبيد الذى قابلهم بالحذر الشديد وقرأ عليهم ماكتبه له المهدي فقالوا له نحن عازمون على التسليم والدخول في طاعة

ويقول كثير من الناس ان هذا المدير كان ذا ميل الى المهدى وقد أمنه على ماله وأولاده ووعده بالجزاء الحسن وقد قبض غردون عليه في غضون حصار الخرطوم واظنه لم يتحقق لديه شيء مما نسب اليه والرجل مات قتيلا يوم سقوط الخرطوم رحمه الله وتجاوز عنه

ذكر كتاب من المهدي الي الشيخ السنوسي

قلنا ان المهدي نصب خلفاء ثلاثة وسمى كل واحد باسم خليفة أحد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين عدا عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان وانه كان ينوى اهداء هذه الخلافة الى حضرة الشيخ محمد المهدى بن السنوسي

وفى سنة ١٣٠٠ كتب كتابا مع الطاهر اسحق من أهالي البلاد الواقعة غربي دارفور الى الشيخ السنوسي يخبره بانه كان ينتظره لاقامة الدين والجهاد فى سبيل رب العالمين حتي أتته المهدية الكبري وان النبى صلى الله عليه وسلم اجلس ثلاثة من أصحابه على كراسى خلفائه وأبقي كرسي عثمان بن عفان رضي الله عنه له وقال هذا لابن السنوسى عاجلا أو آجلا وقال انى رأيتك تحضر معنا في حضرات كثيرة ورجا منه القدوم عليه أو القيام بدعوته فى جهته والغارة على مصر . قال الرسول لم يجاوب السنوسى بخطاب بل قرأ كتاب المهدي وقال انني لم ابلغ منزلة الغبار الذى ثار فى أنف فرس عثمان بن عفان رضى الله عنه في احدي غزواته مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا جواب عندي على هذا الكتاب ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء

وهذه صورة الكتاب نقلا عن كتاب المنشورات أيضا .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير اليه محمد المهدي بن عبدالله الى حبيبه فى الله الخليفة محمد المهدي ابن الولي السنوسي فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبي المرشد المرقى العباد الى مقام التقريب قد كنا يا حبيبي ومن معنا من الاعوان ننتظرك لاقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك الي الله على السنة النبوية وتأهبك لاحياء الدين بان نصير اليك ونجتمع معك فلم ترد الينا المكاتبة وأظن عدم وصولها اليك حتى انى ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والامراء المعينين فابوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة فى قلوبهم وقلة ترييدهم حتى بايعوني الضعفاء على الفرار بالدين واقامته على ماطلب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون للدين من المهمات ولا زال المساكين الذين لم يبالوا فى الله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون حتي هجمت المهدية الكبري من الله ورسوله على العبد الحقير والله هو الفاعل المختار الذى هو على كل شيء قدير فامرنى رسول الله صلي الله عليه وسلم ان اكاتب بها الشرق والغرب من غنى أو فقير فصدق بها من أراد الله سعادته وكذب بها الاشقياء وصاروا فى النكير مع ان النبي صلى الله عليه وسلم قد خلفنى بالمهدية مراراً بالجلوس على كرسيه والبسني سيفه بحضرة الخلفاء والاولياء والاقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام وأعلمت انه لا ينصر على أحد بعد إتيان سيف النصر اليّ من حضرته صلي الله عليه وسلم ولا زال التأييد من الله ورسوله يزداد وأنت منا على بال حتى جاءنا الاخبار

فيك من النبي صلى الله عليه وسلم انك من الوزراء لى ثم لا زلنا ننتظرك حتي أعلمنا النبي الخضر عليه السلام باحوالكم وما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي صلى الله عليه وسلم خلفاء خلفائه من أصحابي فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق وأحدهم على كرسي عمر واوقف كرسي عثمان وقال هذا الكرسي لابن السنوسي الى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسي على رضوان الله عليهم أجمعين ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي الذين هم خلفاء خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم وان كان لا يخفى عليك ان المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة الا الله كما بينه المحققون كالسيد احمد بن ادريس فانه قد قال كذبت في المهدي أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله وقال سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها وكذلك قال محيي الدين في بعض تفاسيره الى غير ذلك من أقاويل المحققين ولا سيما وان المهدية لا تدعي لكثرة أعدائها وقوتهم وعلى انها لما ظهرت أنا بين أظهرهم في أشد الضعف والقلة فلولا انها من الله تعالي لما مكثنا فى الدنيا يوما واحداً من شدة قوتهم وضعفنا وهم محتاطون بنا من كل جانب فالقي الله فى قلوبهم الرعب وصدهم بالخيبة وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى جبل بالغرب يقال له (قدير) بلصق جبل يقال له ماسه فجمعوا جموعهم الينا مراراً فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار يرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتي وقد أعلم صلي الله عليه وسلم ان من شك فى مهديتي كافر وكررها ثلاثا ومراراً يقول من أنكر مهديتي ومن خالفني فابى أمرى كافر فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي ومن لا جعل الله له شكوكا وشبها تصده عن الايمان بمهديتي فيخذله الله في

الدنيا قبل الآخرة الا من أراد الله تعالى له الهداية بعد فاذا بلغك جوابي هذا اما ان تجاهد في جهاتك الي مصر وجهاتها أو تهاجر الينا والسلام ٥ رجب سنة ١٣٠٠

وكان الناس متشوقين للوقوف على ما يجاوب به السيد السنوسي والم يعلن شيأ من ذلك تداول الناس ما نقلناه عن الرسول وأمسك المهدى عن الكلام في شأن السنوسي حتى كانت أيام الخليفة التعايشى فصعد المنبر فى ذات يوم وقال ان المهدي أخبره بان خلافة عثمان أمرها مفوض له وانه ان شاء أبقاها للسنوسى وان شاء أعطاها غيره وكان يقصد بهذه المقدمة إعطاء الخلافة لاخيه يعقوب أو لابنه عثمان الذى لقبه بشيخ الدين ثم تراآى له من أميال العامة انه ان فعل ذلك لاقى من تشنيعهم مالا يأمن مغبته وربما اتخذه البعض ذريعة للازدراء باقوال المهدى وحجة لاظهار كذبه وفريته على رسول الله صلي الله عليه وسلم حيث قال في خطابه للسنوسى ان نورانيتك تحضر معنا فى حضرات كثيرة

وقد كان المهدي يجزم بان السنوسي يقع فى حبائل كذبه ويسقط فى مهواة غدره فخاب ظنه ولم يعد قادراً على الخوض فى أمره بما اعتاده من تكفير كل من اعرض عن دعوته ورغب عن متابعته بعد الذى شاع عنه من الثناء عليه والاعجاب بامره مما تضمنه هذا المنشور

وتوجد أقوال غير متواترة عن المهدي انه قال ان رسول الله صلي الله عليه وسلم أخبره بان السيد السنوسى سيموت قتيلا بسيف دعوته وانه طرد من الحضرة النبوية منذ أعرض عن دعوة المهدية وهذه الاقوال معزوة الى عبد الله التعايشى لانه يرمي بها الي تمهيد الخلافة المزعومة لابنه أو لاخيه

والحاصل ان اعراض السيد السنوسي عن دعوة المهدية جعل أهالي (واداي) و (باقرمه) وغيرهم من ممالك السودان الغربي أعداء ألداء للمهدي ودعوته وسيأتي ذكر حروبهم للمهدوية وقيامهم لمناجزتها في السودان الغربي

وعلى ذكر ممالك السودان الغربي نقول ان أميراً من أمراء بلاد (فلاته)اسمه عثمان بن محمد فوديه كتب له المهدي كتابا قال فيه ان النبي صلي الله عليه وسلم بشره بانه يكون وزيراً من وزرائه وانه يحضر معه فى الحضرة فاجابه بكتاب طويل قال فيه انه كان حاضراً معه فى حضرة فيها جميع الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين وان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بطاعة المهدي ونشر دعوته فى السودان الغربى فسر المهدي بهذا النبأ ولكنه صادف مقاومات عنيفة من السيد السنوسي وكل ملوك السودان الغربى الزمته بترك هذه الدعوة والتبرأ منها بعد ان اتصل به نبأ موت صاحبها

ذكر فخر الدين مدعي الخلافة

كان لنجاح المهدى وانقياد الناس له وتصديقهم لما جاء به من الاباطيل والخزعبلات وقع سيء عند كثير من رصفائه والذين على شاكلته وبدت عليهم علامة الندم على مافاتهم من الفرصة لان منهم من كان مشهورا بالصلاح وحوله من الاتباع مايربو على شهرة المهدى وعدد اتباعه

وكان جماعة من المشايخ يكتبون له أنهم رأوه فى الحضرة وشهدوا جلوسه على كرسى النبي صلي الله عليه وسلم كما يزعم ويزيدون على ذلك انه صلى الله عليه وسلم أمر باعطائهم كذا وكذا أو بولايتهم على بلاد أو بتبوئهم منصبا من مناصب الخلافه فكان هو يقابل كل هذه الدعاوى بالتكذيب وعدم

التصديق ويقنع منتحليها بان الحضرات والاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم لاتكون لغيره ألبتة وانه لاولاية ولاكشف في زمانه وانه خاتم الولاية كما انه صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وقد حذر أرباب الطرق ومنعهم من اعطاء العهود وابطل اجتماعاتهم واذ كارهم ومن فعل ذلك منهم نكل به شر تنكيل وما ذلك الا ليتفرد بالسلطه المطلقة فى الامور الدينيه والسياسية

وبعد مقتل الشيخ المنه بايام ادعي غلام من أولاد المشايخ المشهورين أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بانه خليفة الخليفة عبد الله التعايشي وانه سمع هاتفاً يقول له.انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالعدل.فاجابه المهدى بخطابين فيهما أن الخليفة عبد الله التعايشي هو فى باطن الامر المهدى وفيه أن الخضر عليه السلام رأي الاولياء مجتمعين في بيت المقدس يستبشرون بظهور المهدي ووزارة عبد الله التعايشي له وأن الشياطين يقولون كنا نعيش بالمكر والخداع والآن لاعيش لنا لان المهدى ظهر ولو أشير بالخلافة لغير عبد الله لوجدنا فى المهدية دخولا وفي الكتاب الثانى تاويلات لما رآه مدعي الخلافة وهاهى صورة ماجاء الكتابين نقلا عن كتاب المنشورات

« الاول » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله محمد المهدى بن عبد الله الى حبيبه فخر الدين حسن فقد بلغنا جوابك وتلوناه وفهمناه وذلك مطلوب كل مؤمن شفيق ومن ينيب الي الملأ الاعلى وأحسن الرفيق وقد بلغنا عنك مرارا وتكرارا من الواردين

والمترددين وبعض من أهل العيان أنك قد تظاهرت للناس بالخلافة وتحكيها عن النبي صلى الله عليه وسلم مع ان الله أظهرنا رحمة للامة وجعل هذا الامر منوطا بنا ومتوقفا علينا وأيدنا على ذلك بما لاينكره الا كافر والحمد لله اذ جئت منيبا بلا سيف فنرجو الله على جوابك هذا ان يزيل عنك كل حيف ولكن حبيبي ان المؤمن المؤثر ماعند الله بسبب ايمانه لابدان يبتليه الله تعالى على صدق ايمانه فان كان ما ادعاه من الايمان حقيقيا صبر ورضى واحتسب أجره على الله حيث ان النصيب نصيب الآخرة قال الله تعالى «أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» وحيث انك كاتبتنا بادعاء الحالة المطلوبة فى الايمان فاعرض على عبد الله الذى جعله النبي صلي الله عليه وسلم خليفة أبى بكر الصديق وأجلسه على كرسيه في أول تأييد المهدية وتواتر بذلك التصديق الي ان أظهر الله الدين بموازرته وقد أتانا خبر من الخضر عليه السلام ان الاولياء اجتمعوا في بيت المقدس يقولون الحمد لله الذى أظهر المهدي وجعل عبدالله وزيره وثم وجد اجتماع الشياطين وهم مهتمون يقولون كان عيشنا بالغش والمكر والخداع والكذب فاتى المهدى وقطع علينا عيشنا ولولا ان عبدالله وزير له وكان الخليفة غيره لكنا نجد في المهدية دخولا فالآن أعرض عليه قبل وصولك الينا فان كان صدقا يتضح وتصبر وترض فيما يحكم به عليك ثم بعد ذلك تلاقينى بالعفو والرضى وتكون من أصحابنا المقربين والسلام ٢ شوال سنة ١٣٠١

« الثانى »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى الاخ فى الله نخر الدين ان أمر الخلافة من الله ورسوله الذى عرض لك كما كاتبتنا بذلك وقلنا لك لما تأتنا نبين لك معني ذلك وانك اذا كنت سمعت هاتفا من قبل الله باناجعلناك خليفة فى الارض فهو أن الله جعل كل أحد خليفة عن آبائه وكل قرن خليفة عن القرن السابق قال الله تعالى « ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون » وقال تعالي « هو الذى جعلكم خلائف فى الارض فمن كفر فعليه كفره » ونظائر هذه الآيات كثيرة وأما قوله جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق فبعد أن عرفت ان الخلافة مجرد الوجود في الارض بعد موت اهلها السابقين وقوله لتحكم بين الناس بالحق هو قوله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته فالرجل راع على أهل بيته وأولاده يحكم بينهم بالحق ليزيل عنهم الفساد ويدلهم الى رب العباد ويكون لهم خير هاد فيكون إماما لهم كما تعالى « ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما » فقرة الاعين من الازواج والذرية هم المتقون وابوهم امام لهم في تقوى الله وطاعته والقيام بالحق كما سبق فى الحديث الآنف ذكره وأما الرؤية النبوية اذا تحققت في كونك خليفة عبد الله فهو أن عبد الله دال لجميع الخلق الى الله وهو خليفتنا على ذلك وانت خليفة على أهلك وذريتك واما عبد الله فى الباطن فهو المهدى لانه أول دال الى الله فى آخر الزمان وأنت خليفته على أهل بيتك وذريتك فهذا بيان ما أشكل عليك وطلبت بيانه منا والسلام

٤ شوال سنة ١٣٠١

وبعد اطلاع مدعى الخلافة على الكتابين قدم على المهدى فقبض عليه التعايشى وسجنه حتي مات واحجم الناس عن ادعاء مثل هذه الخزعبلات

وتركوها للمهدي الذي يزعم ان ظهوره أغلق أبواب المعيشة في وجه الشياطين وانهم لا لكونه المهدي بل لانه اكذب منهم ويفوق عليهم في المكر والخداع

ومن النكات المضحكة انى كنت أقرأ هذين الكتابين على أديب مصرى فقال لى ان صح هذا الخبر فلا بد أن يكون الشياطين رأوا المهدى قد فاق عليهم فى مقام الابلاس وتولي غواية الناس بما جعلهم يحسدونه على نجاحه

ذكر جمع الغنائم وعسر بيت المال

كان كثير من الامراء واتباعهم اخفوا كثيراً من الغنائم ولم يسلموها الى بيت المال فانتدب المهدى كثيراً من الامراء فى كل البلاد التى خضعت له ليجمعوا ما يعثرون عليه في أيدى الناس ويواصلوا التجسس والاستعلامات السرية عن حال الناس ليعلموا من كانت عنده أشياء من الغنائم فتذمر الناس من هذه الحالة فاخذ يطيب خواطرهم باصدار منشورات عديدة فى ذم اخفاء الغنائم وتغالى في تلك المنشورات بما لم يعهد له مثيل

وقد كان المهدي وقتئذ واقعاً فى أعسار مالية شديدة وما فى بيت المال لايكفي نفقاته ونفقات أقاربه الذين كانوا يتناولون من بيت المال نصيباً وافراً اذ كانت أعلى مرتباتهم خمسمائة ريال واقلها خمسون ريالاً فكتب اليه كثير من القواد والامراء يعرضون باحمد سليمان أمين بيت المال وأنه يخص أقارب المهدي بالعطايا الوافرة دون غيرهم وكان عبدالله التعايشى المحرك لهذه الحركة لان أمين بيت المال كان لا يساويه في العطاء باقارب المهدى ويمنع أقاربه العطاء فكتب المهدى منشوراً قال فيه انه مجتهد وانه يفعل ما يشاء وكتب اليه بعض الناس بنصوص شرعية عن الواجب الذي يتعين اتباعه في أمر توزيع الغنائم

وقسمتها فاجاب عليها كلها بمنشور نثبته هنا نقلا عن كتاب المنشورات ليقف القارئ على مراوغة المهدى وهربه من الحقيقة وبعد المنشور صورة حضرة يعظ فيها الناس وان الذين يخونون الغنائم سيصيبهم من العذاب ما يقطعهم عن صحبته وكل هذه الاخبار موضوعة على النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم انه من خليفة رسول الله محمد المهدي بن عبد الله إعلاما منه لكافة أمرائه ونوابه وجميع عماله فى سائر الجهات والاقطار مع جملة الفقراء والفقهاء والعلماء والعمار والتجار خصوصاً أحبابه وأتباعه المهاجرين والانصار متع الله جميع العاملين بها بالنظر الي وجهه الكريم فى دار القرار اللهم آمين. أما بعد اعلموا أحبابي انكم عندنا من الاصفياء الاخيار الناظرين بنظر أولى النهى والابصار واني قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لاقامة الدين وجئتكم داعياً الى الله ومبلغا عنه ما حملته اليكم اقتفوا آثار من سلف من المهتدين السالفين وعلى نهج سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم خاتم الانبياء والمرسلين ولم يكلفنا الله واياكم باقامة الدنيا والسعي فيما هو مضمون وليس من عرفنا الاصفاء الى طلاب الدنيا لنأتي لهم بما فات منها ونجتهد لهم فى مصالح تدبيرها فكل ذلك في أم الكتاب مكتوب ومختوم وانما قصدنا منكم جميعا المعاونة فى تقويم الدين القويم وانى فى ذلك كواحد منكم ولوددت ان لو قام به غيري وصرت من جملة اعوانه فما كان الا ارادة الله من تحملى باقامة الدين وقد بلغكم من الانبياء والرسل ما بلغكم من اعراضهم عن الدنيا ومباعدة أصحابهم منها مع ان الدنيا هى فانية وعند الله لا شيء وانها أهون عنده من جيفة بالية واني دواما

ادلكم على الله وانهاكم عنها وتطلبون الصرف من بيت المال ونسيتم ما دعوتكم اليه حتى حملكم انكم تتهمونني بالتعريض بالمخاطبات وتورون بالشيخ أحمد سليمان وانما فعلتم ذلك كي تطلبوا الصرف في زعمكم لاجل اقامة الدين الذى لست أولى به منكم حيث طلبتم الصرف منا لاقامته وتشييده ولو شاركتموني فى الدين وصرتم فيه مثلى لكان لكم ان لا تطلبوا الصرف مني الا بعد العجز عن الكليات والجزئيات حيث انكم من جملة المجهزين للدين والمطلوب حينئذ ان يكون المؤمن مع أخيه كاليدين تغسل احداهما الاخري وان المؤمنين بعضهم من بعض والمؤمنون أوليائي وأعواني حيث يقول الله «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» واذا كنتم كذلك فاذا صدق الايمان فلست أولى به منكم بحسب اتصافكم بهذه الشروط وأما بحسب الانفاق فيه فقد أنفق أبو بكر ماله وعمر وعثمان وعلى والزبير وطلحة فناء لانفسهم وأموالهم فى نصرة الدين فقد صاروا لنصرة الدين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كنفسه بل انهم فدوه بانفسهم وأموالهم وأولادهم وأهليهم برضى من أنفسهم حتي انهم يفدون طعنة الشوكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بارواحهم فضلا عن الغير. أحبابى فانا لم آتكم ان تقيموا بى دنياكم وتسألوني عن صلاحها وانما كان سؤالكم لي واجتهادكم معي فيما حملته فقط مع مراعاة ما كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له في كامل أحوالكم وأموركم ومع ذلك لما رأيت انه لابد لى من اجابتكم فيما طلبتم جعلتُ لرد ظلامتكم وقضاء حوائجكم اعوانا ولفصل قضاياكم نوابا والجميع من بعضكم البعض فتركتم نوابي وأعواني وفضلتم تتهمونني بالتعريض وتسبون أصحابي واعواني وتؤذوني فيهم وقد بلغكم ان أصحابى كأصحاب رسول

الله صلي الله عليه وسلم وأهل بيتي كاهل بيته وأنتم تعلمون منع ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فكيف تؤذونني في أصحابي وتنقمون قسمة الله تعالى لكم وتطلبون ما لم يكن لكم مع انكم ليس لكم حق ولا نصيب لكم فى مال الابيض قطعا من جهة كونه غنيمة لانه مما افاء الله به علينا لكونها فتحت بغير قتال فماله كله فيء لبيت المال خاصة وانما كان أعطاؤنا لكم منه من باب التفضل والاحسان فقط وأما بالنسبة الي الصرف فليس لكم فيه حق الا بعد العجز عن الجزئي والكلى كما ذكرنا وبعدها طهارة السرائر من التكذيب والجحود والانكار وحل عقدة سرائر الاصرار وبعده التجرد معي لاقامة الدين حيثما كان وبعد ذلك الرضا بقسمة الله تعالى فى القليل والكثير دون التشوف والتمنى الى ما فضل الله به بعضكم على بعض فى الرزق فانها قسمة أزلية كما قال جل من قائل « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا »الآية فهو قضاء سبق كما فى الحديث القدسي.أحبابي انكم بايعتموني على المهدية وتزعمون انكم مصدقون بمهديتي وتعلمون الوقائع التي حصلت فى زمن رسول الله صلي الله عليه وسلم في الجهاد مما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعلوم ان في حنين أخذ أموالا كثيرة مما غنمه من حنين فاعطاه للمؤلفة قلوبهم من أهل مكة وكما لا يخفاكم انه قد بذل لابناء مرضعته حليمة أموالا كثيرة مع ان المجاهدين غيرهم مساكين وضعاف وعطاياه صلى الله عليه وسلم كثيرة حتى عرفوه بانه يعطى عطاء من لا يخشى فاقة وذلك كله مع وجود المجاهدين كما تقدم آنفا وما ذاك الا بعلمه صلى الله عليه وسلم وفيما رآي من أحوال الصحابة من الجوع والعرى سابقا ومن الضرر الذى لم يحصل على أهل صحبتنا فى هذا الزمان فرأى أموال قريش وأموال بني

قريظة والنضير فتمنى ان يكون له شيء من ذلك يزيل به ضرر أصحابه وأهل بيته فقال الله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم » الآية فمع انه صلى الله عليه وسلم يري المجاهدين والمساكين أعطى أغنياء من أهل مكة لتأليفهم وضعاف الانصار الذين لم يعرفوا ما حواه رسول الله صلي الله عليه وسلم من التأليف وعود المصلحة على المجاهدين مما أعطاه وغيره من الحكم فانه أولي لهم وقد فعل في الافياء ما تعلمون مع انه حاصر هو وأصحابه مدة طويلة وغير ذلك مع انكم في زعمكم بعتم نفوسكم وبذلتم أموالكم فلم أمسكتموها ولم تسلموها لبيت المال ولم تأكلوها وتنفقوها على أنفسكم في إقامة الدين حتي تنفذوها بل تؤخرونها وتطلبون غيرها فانظروا لحالكم معى وحال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ولكن أقول ان الصحابة رضوان الله عليهم مسلمون لرسول الله صلي الله عليه وسلم فيما يأتي ويذر ويعلمون انه المبين للوحى تفصيلا وانه عنده من العلم مالا يعلمونه وأنتم بايعتموني على المهدية وتزعمون أنى خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم فيكم وانى لكم ناصح أمين وأولى لكم من أنفسكم وأدري بصلاح شأنكم وما تعلمون ماذا أريد ان أفعل فيما بعد فى الغنيمة ولا تعلمون ما يعلمه الله مما انطوت عليه سرائركم أنى الغنيمة استحقاق لكم ولا تعلمون ما أفعله فيها وهذا الكلام كنتم تحكونه لى ولا تحكونه بالحبيب أحمد وغيره وأولي ان كنتم انصاراً أن تعاونونى فيما حملت به من أمر الخلق وهذه الغنائم راقدة مدة طويلة اطالب الاصحاب في تفريقها فما وجدت ذاهمة يقوم بامرها وقسمتها مع انه ورد لي فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقسم وفيما يخص بيت المال للمسلمين وتعلمون ان كنتم من أهل العلم

الخلاف فى كون القرآن ينسخ بالقرآن وبالحديث ينسخ القرآن وتزعمون انى مجتهد ولو كنتم مصدقين بمهديتي لما اتهمتمونى حتى تقولوا ما قلتم فنسأل الله تعالى ان يمن علينا وعليكم بالثبات على الايمان الكامل فتوبوا الي الله جميعاً أيها الاحباب واسلكوا نهج أصفياء الله وأمناء دينه واصرفو وجوهكم عن الدنيا وأقبلوا للواحد المتعال ولا تشغلونى بطلب الدنيا وكثرة السؤالات الخارجة عن مقتضاها وارفعوا حوائحكم الي بالصدق مع الاقبال ولا تعرضوا لي بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين فلكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال وقد علمتم ان من صدق مع الله فى بيعته فى نفسه وماله فبمجرد بيعته خرج عن حكم نفسه فضلا عن ماله فلا يفعل شيأ بدون اذننا ومشورتنا هذا فى خاصة نفسه وأما بالنسبة الي ماله وهو تحت يده أمانةالله ورسوله حيث بذله لله وصار ملكه لنا فلا يصح له فيه الانفاق فى غير اقامة الدين خصوصا الصرف والاسراف فى المباهات كما علمتم والسلام

(ملحق)

وانه أحبابى بعد هذه المواعظ والتذكار وبيان الخيرات والاشرار وبيان طريق السلامة وقرب يوم القيامة فمن لم يتعظ ويهتد ويتجرد ويصف من الغنائم والاموال من الامراء فليصر عزله مع تجريده جبراً عن ما يضره فان الجاهل عدو نفسه كما علمتم انه لما حصل التذكير للاصحاب عندنا في غنائم الابيض قد أوعدنا بان من لم يتجرد من الغنائم ويصف من عطب الدنيا ويرغب فيما عند الله ويتوكل على الله وحده لا تصير له إمارة لكون امارتنا للارشاد لما عند الله والخروج من دار الملاهى واذا كان الداعى هالكا وميتا فكيف السلامة للاتباع فلا نولى ميتا لا يصلح نفسه والسلام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله من التسليم . (وبعد) سأذكر البعض من الواقعات التي وردت فى الغنائم وغيرها باختصار فبعد أن وردت الواردات فى كيفية الغنائم وضررها بالأبيض حكيت للاخوان حضرة حصلت فوق السموات وكان النبي صلي الله عليه وسلم يطلب الاصحاب فلا يصل الي ذلك المحل الا الاصفياء الزهاد الخالصون من العلاقات الدنيوية وتعطل منها بعض من الاخوان لاجل علاقاتهم فلم يطيقوا الصعود اليها من علاقاتهم فأعلمت بذلك من انقطع بسبب علاقاته الدنيوية من الرقيق والاموال فتجرد لله عن ذلك وصعد الي الحضرة المذكورة وثم حصلت حضرة قعد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جمع من المقربين ويجلسني عنده فيما روى ويغرز بيننا عوداً طويلا أملس كأنه شعبة الخيمة الوسطى التي تقوم عليها وفى رأسها الثمر ويقول صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة شجرة الصداقة فكل من له صداقة فليصعد عليها فيصعد عليها قوم ويزلق منها آخرون فلا يقدرون على الصعود عليها لينالوا مافوقها من الثمار فكأن مافوقها هو نصيب الآخرة ولا يناله أحد الا بالصدق فى الايمان والطلب لما عند الرحمن فأعلمت من تعطل عن ذلك بسبب العلاقات الدنيوية فتجردوا عن ماعطلهم وثم حصلت أيضاً شجرة الصداقة فى وقت آخر وطلب الاصحاب بالصعود لنيل الخيرات فوقها فصعدها الاصحاب الا الذين أكلوا الغنائم فامتلأت عليهم سمغا فكلما أرادوا أن يتعلقوا بها ليصعدوا فوقها يزلقهم السمغ الذى عليها وبعض من الاخوان الذين عندهم ولم يحضر المذاكرات حصلت له رؤية وكان المذكور قبل رؤياه متأسفاً على فوات مذاكرتنا للاخوان

في كيفية الغنائم والتجرد عنها لمن هي عنده من الانصار قال ولما أعلمني من حضر المذاكرة عزمت على اخراج ماعندي من الغنيمة وهو أمة وحمارة وقليل من الدراهم قال وبعد عزمي باخراجها ودفعها لبيت المال أخبره بعض اخوانه بانك كيف تخرج هذه الامة الواحدة التى لاخادم لك غيرها ومن يخدمك ان أخرجتها وأى شيء تركب ان أخرجت هذه الحمارة الواحدةوان قام الامام للسفر لابد أن تشتري بالجميع جملا تسافر عليه مع المهدى للجهاد قال فطاوعت من ذاكرنى من الاخوان بذلك وعزمت على ترك اخراج المذكورات لبيت المال قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أتى للخليفة عبد الله يذاكره فقال المذكور في نفسه لما فاتتني مذاكرة المهدي فليكن الاسراع منى لحضور مذاكرة النبي صلي الله عليه وسلم للخليفة عبد الله قال فلما حضرت وجدت المذاكرة قدتمت الا اني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول للخليفة عبد الله عند فراقه له لاي شيء لم تستوعب أمر المهدى فالذي يأمرك به المهدى كله افعله هذا معنى كلامه للخليفة عبد الله قال ثم أتيت للخليفة عبد الله لاسمع منه مذاكرة النبي صلى الله عليه وسلم فوجدت مع الخليفة بعضا من ملازميه يصلون معه فقطع الصلاة وقال لي أين الخادم أي الأمة التى من الغنيمة فعدم اتيانك بها لبيت المال أفسد علينا صلاتنا قال وقال لى الخليفة عبد الله لاي شيء لم تتجرد من الغنائم أما سمعت قول المهدى انه قال تجردوا فما لك لم تتجرد قال فقلت له ماعندى الا شيء يسير فقال هذا القليل أدله لبيت المال ولو قرشا واحداً ومثل هذا كثير وبعض من الذين لم يتجردوا من الغنائم تحضر لهم تماسيح تمنعهم من لحوق المهدى وأصحابه الصادقين فتغرقه حتى كان أحد من الاخوان عنده ازار من الغنيمة فقبضه تمساح وأوقعه فى المهالك

فاستغاث بالله وبرسوله وبالمهدي فأدركه المهدي فحمله ليخرجه فأمسكه حجر لم يتركه يسلم حتي أقسم انه يعطى ثمن الازار فخلص ثم ان المذكور قوم الازار بنحو ستة دراهم أو أقل فدفعه لبيت المال فسار مع الاصحاب وغير ذلك فياأحبابي ان السعيد يخلص فى الدنيا قبل الآخرة فهناك تسبق الاصفياء ويعطب أهل حطام الدنيا فقد رؤى ان القيامة قد قامت والمهدي مع أصحابه الاصفياء دخلوا الجنة بلا حساب ولا رؤية هول ولا مشقة وأحد الاخوان عنده قليل من المال والله أعلم لم يذكر من قلته فحبس من الدخول وصار يصيح ويبكى من شدة الهول حتي خلص بعد نصف ساعة فدخل الجنة والاهوال لازالت على الآخرين فصاروا يتخلصون واحداً بعد واحد على حسب صفائهم وتجردهم من الدنيا فبعضهم يخلص فيصل بعد ساعة وبعضهم بعد ثلاث ساعات الى أن خلص آخر الاصحاب نصف النهار ونصف النهار في ذلك اليوم خمسمائة عام ونصف الساعة نحو الاربعين سنة فى ذلك اليوم فمن ذا الذي يطيق هذا الهول فيرضي لنفسه مثله بسبب متعة قليلة فى أيام قليلة هى في حكم العدم فيرث بسبب ذلك هذا الهول الشديد والكرب الذي يقف فيه جائعاً عطشانا نحو الاربعين سنة أو أكثر فتجرد ذلك الاخ الذى خلص بعد نصف ساعة وحتم أن لا يطلب فى الدنيا مالا قليلا ولا جاها مادام فيها حياً حتى يلاقى الله تعالى هذا وليعلم الاخوان ان من كان مؤمنا بالبعث وقرب الآخرة وحسابها وكثرة خطرها وضرها ورفعة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعظيم فوزهم وملكهم المقيم الدائم ويعلم شؤم الدنيا وهوانها على الله وشؤم ماتعقبه من الحسرة الطويلة فليتجرد لله لينال جزيل الدرجات ويفوز بدائم الخيرات وليصر من أبناء الآخرة مادام حيا ولا يطلب الدنيا ومتاعها فانها قد انقرضت

وهذه الايام آخر أيامها كما لا يخفى صدق ذلك ولا يجتمع للعبد متاع الدنيا ونعيم الآخرة
كما ورد أنهما ضرتان وكالمشرق والمغرب فبقدر ما يقرب العبد من المغرب
يبعد منه المشرق وروي ان بعضا من الاصحاب الذين اكلوا الغنائم وتمتعوا
وماتوا قبل اخراجها والحال انه أراد اخراجها فمات قبل اخراجها انه حبس
وعذب ووبخ عليه وقيل له ان المهدي انذرك فبعد انذاره أتريد ان نجمع لك
متاع الدنيا مع نعيم الآخرة ذق العذاب الاليم فلا عذر لك وغير ذلك وفيما ذكرته
كفاية لمن له عناية وورد عن الاخوان الذين ماتوا واستشهدوا فى حال صفائهم
وصدق انابتهم لما عند الله انهم تنعموا نعما عظيمة لا تخطر ببال ولا تقاس
منها ان بعضهم رؤى في نعيم عظيم وحور وولدان وفرش وأسرة وقصور
وخيم وغير ذلك فيقال له صف لنا هذا الذي أنت فيه من النعم فيقول هذا
شيء اكرم الله به عباده المخلصين فلا أقدر أن أصفه ولا أعده فانه لا يوصف ولا
يعد وبعضهم يري ان هبوب الجنة تدخل في مسامه وجميع جسده كالدخان
الذى يخرج من بيت القش فيجد لها لذة أشبه بلذة الجماع ولكن تلك التي
في الجنة أحلى وألذ أضعافا مضاعفة لا تخطر ببال ويلتذ بها بجميع جسده
ويسمع لنساء الجنة نغمات لا توصف لذتها وهن يمشين في الهواء كمشيهن
على أرض الجنة فيمشين على وجه الارض ويطرن ويزرن أزواجهنّ ويقفن
معهم فى الجهاد ويهللن لهم فان استشهد أخذنه ومضين به الى دار نعيمه وان
جرح ولم يستشهد قعدن معه يمرضنه الى ان يموت أو يطيب من الجرح *
وبعض الاصحاب من شهداء وقعة الشلالى يرى في نعيم عظيم وقصور كثيرة
فيقول أحد الاخوان الأحياء انكم قد أنزلتم هذا المنزل الكريم وتنعمتم هذا
النعيم العظيم فاين منازلنا ونعمنا فيقول لا تشفق فان أصحاب المهدى الصادقين

معه لهم منازل ونعم كمثل هذا فامض معي لأريك منازلكم فيريه منازل عظيمة ونعما فخيمة فيقول متى نلحق بهذا ونخرج من هذه الدار الكدرة المتعبة فيقول له لا تشفق فان أصحاب المهدي يعملون قريبا فيتنعمون بنعيمهم هذه وبعضهم يري بعض اكابر الصالحين المتقدمين فيسأله عن مقامهم مع مقامات أصحاب المهدي الذين ماتوا فيقول هيهات فان أصحاب المهدي من علو درجاتهم لا نراهم فهم راقون مرقى عظيما وكثيرا يري انهم يغبطون أصحاب المهدى ويقولون ليتنا كنا أصحاب المهدى لما يرون من عظيم مكانتهم وفضلهم عند الله تعالى وبعضهم يستشفع بالاصحاب ويقول اطلبوا المهدي أن يجعلني من أخس أصحابه فاني راض برتبة أخسهم وافرح بها ان وجدت ذلك ومثل هذا كثير مما رؤى فى الجنة للاصحاب الصادقين فهيا أيها الاحباب ان القدوم الى ما عند الله قريب » اه

وكانت هذه الشدائد فى إبان عودة غوردون ويمكنني أن أقول لو رافق غوردون لدي عودته جنود يحولون بين المهدى وبين الخرطوم لتحققت امنية عبد القادر حلمي باشا التى تقدم لنا ايرادها وهي ان ثروة كوردفان لا تقوم بحاجة المهدى وجيوشه اكثر من سنتين ثم يعقبها ضيق شديد ثم تكون النتيجة انفضاض الناس من حوله وتكاثر الانتقاضات عليه من الاهلين وفى ذلك القضاء عليه وعلى دعوته قبل تمكنه من الاستيلاء على السودان برمته

ذكر بنات محمد بن الحاج احمد ام برير

لاهالى السودان عادة من اقبح العوائد واشنعها وهى ان الرجل يقدم ابنته أو من له الولاية عليها الي من شاء هدية يطؤها المهدى اليه كمملوكة

يمين ولا حرج عندهم من هذه العادة بل يتفاخرون بها وهى شائعة عن الجعليين أكثر من غيرهم وفى الغالب يقصدون بها الزلفي من حاكم ذى سلطة يرجى نواله ويتقى وباله

وقد قدم كثير من أعيان السودان بناتهم كمحظيات للمهدى وخلفائه وقواده حتى بلغ عددهن نحو مائة ومن هؤلاء محمد بن الحاج أحمد أم برير ابن أخى الياس ام برير فانه قدم بناته الثلاث هدية للمهدى وقال له على رؤس الاشهاد تمتع بهن ياسيدي الامام المهدى المنتظر فانى اهديتهن لك وملكتك إياهن فاجابه قبلت منك وانما لايجوز الجمع بين الاخوات فقال له كيف لايجوز وانا قد وهبت لك المتعة بهن فاعاد عليه المهدي قوله لايجوز فانظر الى جهله المركب وتفرقته العمياء بين حرامين كأن وطأ الحرة بملك اليمين جائز دون الجمع بين الاختين أو الاخوات

وكان المهدي يتبسم من الضحك وأمارات الفرح بادية على وجهه لانه كان يرى أن مثل هذه المنكرات من أدل الدلائل على أن القوم يحبونه وينقادون له انقيادا أعمي ويتقربون اليه ببناتهم ولا يلتفتون الي تحريم شرعى كأنهم لايحرمون الا ماحرمه وكأن كل حرام حلله حلال عندهم

ثم قال المهدي للحاضرين مكانكم حتي أختار واحدة من البنات وبعد هنيهة عاد وقال قد اخترت كبراهن فخذ الاثنتين فقال أبوهما لاآخذهما بل اتركهما لتكونا خادمتين لك وما زال المهدى يرفض قبولهما والرجل يلح عليه حتى التفت الى جلسائه فرآى بينهم محمد بن عبد الكريم من اقاربه فقال قد وهبت إحداهما لمحمد بن عبد الكريم ثم وهب الثانية الى أمين خاتمه عبد الكبير بن احمد الكناني

وفى اليوم التالى غدا ابوها الي صهره المهدى ودفع اليه كتابا مملوأ بالاعذار وبسط الحاجة وسأله فى أخر الكتاب مبلغا من المال فاندهش المهدى من سخافة الرجل الذى كانه يطلب ثمن بناته فانصرف الى داخل بيته ووعده بالاجابة على كتابه فقدمت له المرأة كتابا آخر من ابيها وجد فيه مافى الكتاب الاول فلم يطق الصبر وخرج الى مكان جلوسه ودعا بدواة وقلم وكتب الي صهره كتابا موجزا نورد هنا صورته نقلا عن كتاب المنشورات وهي

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن عبد الله الي حبيبه وصفيه محمد بن أحمد أم برير وفقه الله للخير ومن معه من الاهل وانجاهم من ظلمة القبر حبيبي ان المعطي والمانع هو الله كما أن النافع والضار الله والناس أشياع لاقوام لها بقماح ولا نجاح والمعلوم ان الجثة قيامها وحركاتها وتصرفاتها بالروح والروح من أمر الله واذا أخذ الله سره الذى هو الروح من الجثة وقعت والحركات زالت منها فمن هنا يعلم ان تصرفات العبد هى من الله اذ هي من الروح الذى هو أمر الله كما قال الله تعالي « قل الروح من أمر ربى » فالمؤمن يكون واثقاً بالله راجياً ما عنده وخائفا منه فقط لان من نظر التوحيد بالحقيقة لا يري مع الله شيأ من. لا إله الا الله. ومن. محمد رسول الله المخبر عن الله بغيبات الآخرة من ان خيرها جسيم والدنيا لا تزن جناح بعوضة وانصرف قلبه من الخسيس الذي هو الدنيا وما فيها الى النفيس الذي هو ما عند الله في الدار الآخرة فما عندكم ينفد وما عند الله باق. هذا وان المبلغ الذى ذكرته ان شاء الله

يصل اليك ولكن لا تقل ان القوام به بل ان القوام بالله وهو ضامن
الارزاق وما على العبد المؤمن الا ان يسعى لنصيب الآخرة لانه لا نصيب له
فى الدنيا ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة لاعطاها المؤمن ولذلك قال الله
«ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من
فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وان
كل ذلك لما متاع الحيوة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين» والسلام

ذكر نهب اموال التوم شيخ عرب الكبابيش

ذكرنا قصة قتل التوم شيخ عرب الكبابيش وبعد بضعة أشهر مضت على
قتله أصدر المهدي منشوراً بان جميع ما كان يملكه صار حقا لبيت المال فانتدب
محمد بن ادريس بن عمه والحاج محمد أباقرجه ومعهم نحو الني مقاتل فذهبوا
الي (جبره) شمال كوردفان وقبضوا على أموال الشيخ التوم ونسائه وأولاده
وعادوا الي الابيض وبلغ ما قبضه بيت المال اكثر من عشرة آلاف بدنة من
الابل وثلاثة آلاف رأس من البقر ونحو عشرين قطيعاً من الغنم وبلغ ما ذبحه
محمد بن ادريس والحاج محمد أبو قرجه لغذائهما وغذاء من معهما من المقاتلة
نحو نصف هذه الاعداد

ولما عادا الى الابيض وسلما ما بايديهم الي بيت المال قدم كثير من
رفقائهم تقارير لأمين بيت المال علم منها ان ذينك الاميرين لم يقدما الى بيت
المال غير الماشية والاشياء التي لا يمكنهما اخفاؤها وانهما اخفيا كل ذى قيمة من
الذهب والفضة ويقدر ما تسرب الى جيبيهما عدا ما تسرب الى جيوب انصارهما
بعشرة آلاف أوقية من الذهب ونحو عشرة قناطير من الفضة ولا غرابة فى ذلك

فان الرجل كان معروفا باتساع الثروة وقبيلته الكبابيش اكبر قبيلة فى السودان واكثرها ماشية ومالا

ولما استوثق أمين بيت المال بصدق الذين رفعوا اليه التقارير عرض على المهدي وجوب القبض على ذينك الاميرين وارغامهما ليؤديا الي بيت المال ما اغتالاه فرفض المهدي العمل بما أشار به أمين بيت المال تطييبا لخاطر ذينك الاميرين اذ هو فى حاجة لاكتساب مودتهما

وكان من جملة الغنائم عشرة دروع من الحديد قديمة جداً وعدد ليس بقليل من الخيول العربية وقسم المهدي النساء كجوار وخص عبد الله التعايشى بالنصيب الاوفر منهن وأطلق سراح الذكور من أولاده وتركهم فى حالة يرثى لها من الفقر المدقع يسألون الناس في الطرقات وأبواب الدور ولا يجدون من يمن عليهم بكسرة خبز غير افراد قليلين من المصريين وكلما رآهم أحد من الدراويش يقول انظروا كيف صارت عاقبة ذرارى الكفار الذين لم يصدقوا بالمهدى ويؤمنوا بدعوته ومات اكثرهم جوعا فى الطرقات وسيأتى بعد ذلك ذكر مصادرة أموال قبيلة الكبابيش وفنائها عن بكرة أبيها والدوام لله وحده

ذكر قدوم الشيخ الحسين زهراء علي المهدي

الشيخ الحسين زهراء من قبيلة صغيرة تسكن قرية قريبة من «الحلاوين» عند مكان يدعى «وادي شعير» فارق بلاده فى نحو العشرين من عمره ولحق بالقاهرة ومكث فيها اكثر من سبع سنين كان يتلقى العلوم فى خلالها بالازهر المعمور وكان ذا ذكاء مفرط وقريحة وقادة قل ان توجد بين السودانيين حتى قال مشايخه انه نابغة في العلوم المعقولة والمنقولة معاً خلافاً لمواطنيه

من الطلبة السودانيين وتلقي دروساً فى الفلسفة والطبيعيات زادت قريحته اتقاداً ثم عاد الي بلاده وفتح مدرسة فى قريته وانقطع لافادة العلم فافاد فائدة تذكر

وكان من عادة الحكومة ان تمديد المساعدة لكل الذين وقفوا نفوسهم لتثقيف عقول الاهلين وإزالة جهالتهم مع ان جلهم ان لم نقل كلهم يضرون اكثر مما ينفعون اذ هم اغمار لا يعرفون من العلم غير حفظ الفاظ القرآن وقليل منهم من يحفظ متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني في فقه المالكية ولم تلتفت الحكومة الي الشيخ الحسين بما تلتفت به الى اقرانه فوغر صدره منها وعظمت سخيمة صدره عليها

ولما ظهرت دعوة المهدية وتصدى العلماء لدحض حجج منتحلها واظهار تخرص مدعيها كان المتوقع ان يحذو الشيخ الحسين حذوهم وخصوصاً فيما كان من ترهات المهدي الذى يزعم ان النبى صلى الله عليه وسلم جاءه فى اليقظة وأمره بتلك الخزعبلات التى جاءت كلها ناقضة لما هو معروف من شريعته صلى الله عليه وسلم وحسبنا ان هذه الدعوي مضادة للشريعة المطهرة فلم يتصد الشيخ الحسين لتكذيبها سيما وقد كان مشهوراً بين الناس بالورع والوقوف عند حد الشرع فجاء امره بالعكس حيث كان يحرض الناس سراً على نصرته وموازرته وقد ارسل له المهدي هدايا من المحظيات اللواتي أصلهن حرائر مصريات استرقهن المهدى عملا بفريته التى قال فيها انه صلي الله عليه وسلم اخبره بان من أنكر مهديته كافر دمه مهدور وماله وأولاده غنيمة للمسلمين فوطئهن الشيخ الحسين ولم يتقيد بالشرع كما كان يظن به الناس

ولما ظهر المهدى على حملة الجنرال هيكس وفد عليه الشيخ الحسين فقابله بالحفاوة والاكرام وكان الامل يناجيه بانه سيصبح في دولة هذا المهدى حائزاً لاسمي مرتبة ومتربعاً على دست اكبر وظيفة وما كادت تمضي عليه بضعة أيام حتى رأى ان هذه الدولة تبغض العلم والمتعلمين ولا يتولي وظائفها غير الجاهلين فتولاه الياس مما رآي فكتب قصيدة طويلة قدمها الى المهدى ظاهرها مدحه ونصحه بوجوب اسناد الوظائف الى العلماء وفى القصيدة مغامز كثيرة تدل على ماخامره من اليأس لما رأى ان اكبر وظيفة لدى المهدى مسندة الى أجهل رجل من اتباعه هو عبد الله التعايشي وقد اخترنا ايراد هذه القصيدة برمتها للاطلاع عليها وهاهى بنصها

برح الخفا ما الحق فيه خفاء	وتوالت الآيات والانباء
فالامر جد والقلوب مريضة	والداء داء والدواء دواء
والحادثات مصاعق بمنابر	بمظالها تتواضع الاشياء
والحق أظهر ان يرى بشواهد	لم لا وقد قامت به الاسماء
والشمس فى أوج السما من مغرب	بهرت عليها هيبة وبهاء
والبدر قابلها فتم كماله	وتقلدت بعقودها الجوزاء
ودرار أفلاك العلا دارت على	أقطابها فزهت بها العلياء
وتكاملت فى كل مجد أمجد	لما استقام زمانها الاشياء
ماان ترى الا جميلا زاهراً	بهرته فى حلل البها زهراء
وسقته من خمر الهوى بعيونها	ولمي شقور شفاهها لمياء
بالآية الكبرى التى بظهورها	كمل الرضي وانجابت الاسواء
مهدى رب العرش منتظر الوري	والي الولى والاكرمون وراء

السابق ابن السابقين الي الهدى | من معشر نجبت بهم زهراء
وبهم تبلج كل غصن مثمر | بحلاه تزهو روضة خضراء
تسقى بعذب رائق من أبحر | من فيضها ملأ البحور الماء
وهمى وجاد على الانام بما ترى | من غيثه الهامى عميم سماء
بشري لنا بظهور مهدى الورى | إيه ونعمي بعدها نعماء
جمعت حذافير الولاء لنا به | وعلى الجميع من الامام خباء
رفعته منه يد بقدرة قادر | فوق المباني ما عليه بناء
بمكانه الامن المؤبد وقته | والارض أرض والسماء سماء
أنعم بامر كان من جد القضا | جار وقد حكمت به الاسماء
وله الاشارة من ألست بربكم | طوعا له وليسمع العلماء
ماحالهم مابالهم لم يسمعوا | نفسى لهم مما يشين فداء
من يحفظ التنزيل من يدرى الذى | فيه ومن لم يدر ذلك سواء
من يحفظ الاخبار عن أهل النهى | وتميز ذلك فطنة وذكاء
ويرد أشكال الامور لشكلها | ولها عليه من الثناء سناء
ويرى القبيح بداية ونهاية | ويروم أحسن ما الاله يشاء
مثل الذي فى بحر جهل ليله | داج وأشرق مايراه مساء
لاوالذى خلق النوى وهدي الورى | وله وراء مماتهم إحياء
علماء أمة أحمد ناشدتكم | ردوا جوابي انكم علماء
أرضى وترضون الضلال بعيدما | ظهر الهدى وانجاب عنه قذاء
ويخيب ظني فيكم وعشيرتى | أنتم وتقمع جمعنا الغرباء
ونكون دون الدون من بين الورى | كلتا يدي احساننا خرقاء

ردوا علي أعيذكم من شامت | لكن أجيدوا فالجواب شفاء
مهدي أمة أحمد بي لم تذر | خلاء يدوم له لدى اخاء
فتنكرت من ذاك كل مقاصدي | فاذا الجميع سوي علاك هباء
مالى سواك وليس بعدى من جفا | لكن بذاك جري على قضاء
وأرى على بوقت عدلك دائما | بين الورى تتكبر الاسماء
وأنا المصغر بين ظهرانيهم | حسبي التصاغر انهم اكفاء
لم تعرف الايام قبلك منزلى | ولذاك لم يرفع على لواء
واستعملتنى اليوم فى عاداتها | فأطعتهن ولى اليك رجاء
أجملت فيها لا أري اجماله | حقا ولكن للامور مضاء
ومواضع التفصيل دونى شأنها | لعبت بها من دونى الاهواء
فلسان حالى ألكنته فهاهتى | بعضال داء ماالديه دواء
جهل الولاة أمات دين محمد | وأهيله ماتوا وهم أحياء
وتراكمت ظلماتهم بين الوري | لما اطمأن لهم ودام ولاء
يابن النبي محمد ووليه | وأمينه ماذا اليك مراء
أنا عبد عبد أستعيذ بذمتى | أبدا اليك ولى هنا أعداء
مابي استهانوا بل بشرع محمد | فعليه من أثر الدمار حياء
واماته الجم الغفير مهاجرا | وله بماء سمائك الاحياء
فتناولنه من الاثام واعطه | صنف الكرام فأهله العلماء
واشرط عليهم ماأردت من الهدي | يعطوا العهود لانهم أمناء
رسم ترقرق بالسنا فله الهنا | اذ ناله بعد الفناء بقاء
وكسته أثواب الرضا مهدية | تتلو المضرة أختها السراء

فغدا بها يختال في حلل البها	واكل شيء شدة ورخاء
كم ارتعى من روض دانية الجنا	ثمر الرضي تدنيه لي وجناء
طارحتها تحف الكلام فنوعت	تحف الملام وهاجها ادلاء
واذا نسيمات الصبا دعت الصبا	لوصالها تتنصل الاعضاء
ترتاع ان هتفت بها من كوة	سحراً لتجديد السلام رخاء
عاش ابن سينا جهده أوصافها	بشفائه فاذا هي العنقاء
دقت ورقت وارتقت في سكره	بلمي شفاه دونه الصهباء
كيف التواصل والقوى نهت السري	اذ مسها من ضعفها الاعياء
فتنزلت حاجاتها في سوح من	بحمولهم تتنزل الضعفاء
وتركتها وكني لقائي مرة	اذ لايدوم مع الزمان لقاء
تلك الذي جهد الزمان لوصلها	وله بذلك غدوة ومساء
حتى بألطاف المهيمن مكنت	أغراضه منها يد بيضاء
فغدا بها متصرفا في أهله	يعطي ويمنع من يرى ويشاء
ودعا بها لله دعوة قاهر	سئمت بعز مكانها العظماء
فأجابه أهل النهى في طاعة	سفكت بها قبل اللقاء دماء
وديار من ناوي الهدى منقضة	وسقوفها بين السقوف هواء
حاكت بها يسري الشمال عجائبا	شملا تفتقه يد عسراء
في ثاني أيام الدهية عطلت	بيض المها وجواهر وتلاء
في تاسع من رابع في الثان من	يعهله المثين والالاء ونون مهلناء
ولله دامس من طلني وأباده	حتى تولى قتله الضعفاء
ولقد يبدد جسمه برماحهم	فكأنه من خلقه أشلاء

صالوا به وذويه بين حصونهم ... فى خندق غرت به الاذواء
شادوه بالحصن القوى وأيدوا ... بالنار من فى النار فهى جناء
فى كل مزغال شرارة بندق ... رام طوي من فى يديه خواء
وكروبهم كالرعد بين صواعق ... للمسلمين وكل ذاك عداء
الله أكبر أن يرد وجوههم ... عن شأنه أو تمنع البأساء
ولجوه عمدا باختيار صادق ... ولهم يد في فتكه خرقاء
وفت بذمة أحمد ومحمد ... مهديهم وجنوده شهداء
فعلوا وما فعلوا ولكن لابهم ... رام بهم ولهم بذاك سخاء
وسموا خراطيم الشقا بجوازم ... بيض بكت آثارها بيضاء
نوح الحمام تنوح غير موسد ... بعد الوساد وعينها وسناء
تنشاق بعد عبير عنبر مسكها ... رمم الانام وذا التراب وطاء
وبنات آرام ترامت من ذوى ... أوج الملا ما عندهن غطاء
فسل الطلول هناك عن أسيافهم ... ورماحهم في الكافرين رواء
وامرر بهم وعلى الديار تحيها ... ان الديار من الدمار هباء
واغش القبور بمنحة وهدية ... ان القبور ببعضها شهداء
واستجوب الاطواد صرعي بينها ... ماذا الرغام وفي النفوس اباء
وتخط خط النار تعرف خط من ... بج الهدي لما نهاه شقاء
والنار ترعى فى الجسوم كأنها ... عشب لعمرى ان ذا لبلاء
ماالنار شأن النار أعجب ماأرى ... تجرى بهم وجسومهم سوداء
عنها استفد خبرا وكن متبصراً ... فى أمرها وايمل منك بكاء
عبر تجل على قلوب ذوي الذكا ... إيه وتكسف بينهن ذكاء

أتظن تلك كرامة مأنوسة | لا والذي ضلت به الآراء
وهدى لدين محمد من يهتدى | وبه تخصص فى الهدى الخلفاء
هم والذى برأ الورى هم لا سوى | كل النفوس لهم سواى فداء
وفدا النفوس انا فانى دونهم | بى والذي برأ الورى ادواء
هم كالنجوم هدي وفي الجدوى ندي | بل الصدا مابعدهم اظماء
ماذا الذي نقتاس من أفعالهم | فقياسهم بسواهم اغواء
مادونهم مرمى مريد صادق | هل بعد عرش الاستواء بناء
فسوي خلائف احمد مهدي الورى | كل الانام من الحيور فضاء
الا الذين غدوا على آثارهم | أهل الولاية والصفا الامراء
ذاك الرفيق الزمه واترك غيره | ربط الجياد لغير ذاك نواء
واعصم سقاءك بالوكاء من الظما | مافى الفضاء امام قصدك ماء
واصحب خبيرك فى الثري خوف الثوي | بين المنا وخطا الخطا بهماء
واحال أسيرك هاهنا إن تستطع | مافي القيامة للاسير فداء
خفض عليك فالخطوب ترسل | طورا وطورا شدة ورخاء
وعلى النبي وآله صلي الذى | وصل الصلات فطالها العظماء
وكذاك سلم ذا العلا ما أنشدت | برح الخفا ما الحق فيه خفاء

ولما اطلع المهدي على القصيدة التبس عليه فهمها وتردد فى حل معمياتها فدفعها الي عبد الله التعايشي الذى اطلع عليها كاتبه فوزى بن محمود باديه فلم يهتد الي فهم ماأبطنه الناظم وغاية الامر انه قال لعبد الله التعايشي ان الناظم لايقصد بقوله . جهل الولات أمات دين محمد . غيرك وانه ينصح للمهدى بتولية العلماء وإقصاء الجهلاء ويقول انهم أمناء وأنت وأمثالك خائنون

فقبض التعايشي على الشيخ الحسين وزجه في السجن وبعد أيام أطلقه بعد أن قاسي من العذاب اشده وأخذ عليه العهود بعدم العودة الى مثل هذه النصيحة وقال له في عرض كلامه سبب سلامتك أن تنسي كل ماتعلمته من العلوم وتصير كأنك لاتعرف كلمة واحدة منها وأن تتعلم من علومنا ولا تقرأ من الكتب غير منشورات المهدى لان كل الاحكام والشرائع التي كانت قبل ظهور المهدي قد نسخت بظهوره فاجاب الشيخ الحسين على هذه الاقوال بالسمع والطاعة

ويذهب بعضهم الى ان الشيخ الحسين كان ذا نظر سياسى أعماه عن النظر الى مفتريات المهدي حيث يري أن المهدى سيشيد دولة وطنية سودانية وحجة الذاهبين الى هذا موجودة فى هذه القصيدة حيث يقول وتقمع جمعنا الغرباء . وقد جاء هذه التلميح في مقام الاحتجاج على العلماء الذين تصدوا لتكذيب المهدي ونقض حججه الواهية وفيه رمز الى تبرير الواسطة التى انتجت هذه الغاية

وقال آخرون انه يقصد بالغرباء عبد الله التعايشى وقومه البقارة الذين خاف عاقبة تمكنهم من البلاد لانهم غرباء وبلادهم واقعة جنوب دارفور وحاصل القول أن القصيدة تحتمل تاويلات كثيرة ليس فى وسعنا ايرادها كلها ولنعود الى بقية أخبار الشيخ الحسين وقتله قبيل فتح أم درمان

ذكر انذارات المهدي للشيخ محمد الامين

هو الشيخ محمد الامين البصير رئيس العلماء بالسودان ولد بضواحي المخرطوم وأصله من قبيلة أسمها (المحس) فقد بصره منذ طفوليته وحفظ

القرآن الشريف قبل أن يبلغ العاشرة من عمره وانقطع لدراسة العلوم الشرعية على يد أستاذه الشيخ أحمد بن عيسى الازهري تلميذ مولانا الشيخ أحمد الدردير المشهور حيث قضي ثلاثا وثلاثين سنة في صحبته وتلقي العلوم عليه ثم عاد الي وطنه بالسودان واليه ينسب انتشار العلم في تلك الاقطار وكان الشيخ أحمد بن عيسى بحراً زاخراً في جميع العلوم العقلية والنقلية تقيا ورعا له قدم راسخ في الصلاح

ولزم الشيخ محمد الامين أستاذه حتى نال من العلوم نصيبا وافرا وظهر عليه النجاح والذكاء فلقبه أستاذه بالبصير عكس الضرير

ولما ولى جعفر مظهر باشا حكمدارية السودان رفع منزلة الشيخ محمد الامين وعينه رئيسا لعلماء السودان وكان يقول لا يفتى وأمين بالسودان تنويها بما عرفه من فضله وغزارة علمه في فقه المالكية

ولما ظهرت بدعة المهدي كان أول من تصدي لتكذيبها فالقى نصيحة ملأها بالادلة الشرعية على بطلان ما ادعاه المهدي وشفعها باثبات امامة مولانا أمير المؤمنين السلطان «عبد الحميد خان الثاني» واثبات نيابة المغفور له الخديو محمد توفيق باشا واستنتج أن المهدي خارج على الامام وسرد الأدلة الشرعية التى تدل على رسوخ قدمه في الشريعة المطهرة وسيأتى ذكر تلك الرسالة وغيرها من رسائل العلماء التى الفت ردا على المهدى في غير هذا المكان

وكان المهدى شديد البغض للشيخ محمد الامين حتى كان يعبر عنه بقوله أعمى البصيرة الذى أضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة

وقد تبودلت بين الشيخ والمهدي خطابات عديدة كان الشيخ يدحضه

النصح فيها ويدعوه الى التربة فكان يجاوبه بالمغالطة والاستمالة وهذه صورة ماجاء في كتابين من المهدى له وفي أحدهما يقول ان البيان لايهدي وانما الهادى هو الله ويقول في الثاني انك لاتجهل أن النبي صلى الله عليه لم يكن أصوليا ولانحويا

« الاول »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله الي شيخ الاسلام المكرم والاستاذ المعظم الشيخ محمد الامين جعله الله من المكرمين لا يخفى على عزيز علمك وجليل فهمك ان البيان لا يهدى وانما الهادى هو الله تعالى وقد أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بان ليس عليه الا البلاغ وانه لا يهدى من أحب وإنى قد كاتبتك لظن الخير فيك وأعلمتك بالحقيقة التي لا كذب فيها ولست فيها بمتحيل ولا بمتصنع وانما هو الحق الصدق الآتى من الله ورسوله فقد أيدنى الله تعالى بالمهدية الكبري ومعلوم انه لا يكذب على الله ورسوله الا من لاخلاق له عند الله تعالى ومن يعلم علم يقين ان متاع الدنيا قليل لا يزن جناح بعوضة لا يؤثره ولو آثره على ما عند الله زال كأن لم يكن وأعقب عليه حسرة لا آخر لها فلا يؤثر جاه الدنيا على التقوي والاقتداء بالانبياء والاصفياء الا من لاعقل له واني عبد مسكين لاطاقة لى بقوام أدني شيء فلولا اني على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدرت على شيء ولا ساغ لى ان أحكى شيأ وما أخبرت عن النبي صلى الله عليه وسلم بما أخبرت الا بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخبرنى صلى الله عليه وسلم باخبار ليست عند الاولياء ولا عند العلماء وقد قال تعالي « ويخلق مالا تعلمون » وقد جمع النبي

صلى الله عليه وسلم أرواح الذين أنكروا مهديتي من الاولياء العارفين والعلماء العاملين ووبخهم غاية التوبيخ وعدد عليهم النعم الدينية والدنيوية والظاهرية والباطنية وما صرف عنهم من البلايا الحسية والمعنوية وقال لهم ما شكرتم نعمة الله تعالى حيث انكرتم مهدية فلان وقد اعطاكم الله نعما فما شكرتموها حيث لم تصدقوا بمهدية فلان وفلان هذا قد شكر نعم الله ولاه عليكم واعطاه المهدية فكيف تنكرون حصول المهدية له قالوا تبنا يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا منه العفو فطلبوا مني العفو فمن له سعادة صدق باني المهديّ المنتظر ومن لا جعل الله له عوارض تصده عن التصديق بالمهدية لي وقد دلت كرامات على صدق اخباري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لا تنفع الكرامات والآيات من أراد الله شقاوته وقد أخبرني النبي صلى الله عليه وسلم مراراً أن من شك في مهديتي كفر بالله ورسوله وان من عاداني كافر وان من حاربني يخذل في الدارين وماله وأولاده غنيمة للمسلمين وليكن معلوما عندكم انى لا أفعل شيأ الا بامر النبي صلى الله عليه وسلم والجهاد الذي حصل للترك فانه أمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرني صلى الله عليه وسلم باسرار كثيرة الي آخر فتح البلاد بالدين والسنة وبعض ما يحصل فيها وانى منصور دائما على من عاداني واقسم صلى الله عليه وسلم باني منصور ومنظور من الله تعالى وقد كشف لى يوم القيامة وان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا الهنا ويا مولانا الامام المهدى قتلنا من غير انذار فاقول يارب انذرتهم وأعلمتهم فلم يقبلوا قولي وتبعوا قول علمائهم وصالوا على وحضر شاهداً على ذلك سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم ذنبكم عليكم الامام المهدي أعلمكم وأنذركم فما قبلتم وسمعتم قول علمائكم فاقبل

بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدي بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وأما عدم تسليم أهل الدولة من أول الامر فانها حكمة أزلية ووقت تسليمهم علمه عند الله وفى ذلك اسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث لم تسلم له الملوك من أول الامر وقد حصلت له صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاق عظيمة ومقالات كثيرة مع الاكابر وعلماء اليهود والنصارى الذين كانوا يدعون انهم يكونون أول اتباعه صلى الله عليه وسلم وكانوا يستفتحون به وكل ذلك وهو صلى الله عليه وسلم خير خليقة الله عز وجل واني مقتف أثره ومهتد بنوره وقد أخبر ان الترك لا يطهرهم الا السيف الا من تداركه الله بلطفه وقد أخبرني صلى الله عليه وسلم أن الامة تهتدى لى بدون المشقة التي حصلت له صلى الله عليه وسلم واتباعه واني مخلوق من نور عنان قلبه صلى الله عليه وسلم وبشرني صلي الله عليه وسلم ان أصحابي كأصحابه وان عوامهم لهم رتبة عند الله تعالي كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني فان الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء وقد يدخر الله للمتأخرين ما عسر على المتقدمين ولكن لا يخفي عزيز علمك ان العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدى لانه ليس على معتقدهم الذين يظنونه ولانه يخالف مذاهبهم فلمهديتي من الله دلائل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ومما يخبرك بعدم معلومية عين المهدى للعلماء اختلاف الروايات وكثرة الاقوال عن أهل الكشف والمعلوم ان ما علمه فى ازله لا يكون على هذه الروايات الكثيرة وقد وردت فيه أحاديث منها المقطوع والموضوع والضعيف بل الحديث الصحيح ينسخه الحديث الصحيح كما ان الآيات تنسخها الآيات والتصديق بالمهدية صعب

لا يوفق له الا من أدركه الله بسابق سعادة لانه لا يهتدي الى معرفة حقيقته الا الاولياء العارفون الذين لم يحجبوا عن رؤية نبيهم صلي الله عليه وسلم وأما ما ذكرت فى رسالك الى فمعلوم جواب كل كلمة منها في اصابة أمري لمن أنصف وكنت أردت ان أبين جواب كل كلمة ولكن قد علمت ان الهداية ليست من كثرة البيان وانك ان امعنت النظر بعد تصديقك بمهديتي وجدت جواب ذلك أوضح من الشمس كما علم ذلك كل من صحبنى من العلماء على التصديق ممن هو دون علمك في الظاهر ولو علمت حقيقتي لما كنت تكتب لى ما كتبته ولما وسعك الا المعاونة لى على ما قادني الله تعالي فتدارك عمرك فقد مضى ولا تؤثر على اجابتي أهلا ولا مالا ولا جاها لتفوز بالفوز العظيم والخير الجسيم ولا تعاون الظلمة بعد هذا فانه لا يخفاك ما أحدثوه فى الاسلام وقد أخبر النبي صلي الله عليه وسلم فيهم باخبار كثيرة ومثلك تكفيه الاشارة والسلام

« الثاني »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فجزيل السلام من عبد ربه الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الي سلم الشريعة المحمدية المستفيض من رحمة ربه بالعلوم النقلية حبيبنا وصفينا في الله على المحبة الايمانية الاصلية محمد الامين كان الله في عونه ووفقه لمرضاته ولزوم طاعته آمين أما بعد فالذى نعلمك ايها الحبيب ان المتحابين فى الله على منابر من نور يوم القيامة وأن من أراد الآخرة سعي لها سعيها وشتت شمله فى الله ليكون من ابنائها وأهلها وبذل جهده فى طلبها ليدرك مافات من أمرها وقد أوتيت من العلم بها وبحقارة الدنيا وخستها نصيبا وافرا ونرجو الله ان

يكون نور العلم معك حجة لك وانى قد عددت وكررت لك الانذارات والمواعظ التي تشهد حقيقتك بها وخاطبتك سابقا قبل كل الناس وخصصتك بالحقيقة التي لاشيء بعدها وندبتك الى الاجابة لداعى الله فلم تجب دعوتي ونظرت الى الثقل والعلائق المعوقة القاطعة عن الله ولحسن ظني فيك ومحبتي لك في الله وارادتي لك البر والخير الدائم والنعيم السرمدي والملك الكبير عند الله لم أيأس من مخاطبتك ولم اتوقف عن دعوتك لانى مأمور بذلك المنهاج على سلوك قدم الحق ومتابعة النبي صلي الله عليه وسلم فيما جاء به من الله تعالي لارشاد امته وأنت جدير بذلك لان أحوج مايكون لك المآل اليه وغاية المعرفة بالله اجلال الله وتعظيمه والقيام بامره حيثما كان على الراس والعين سيماوانت من اكابر العلماء الوارثين قدم الشريعة المحمدية ومقتدي بك فالى متي ترضي لنفسك التخلف عن اجابة الله ورسوله وترضي لها أن ترغب عن ملة ابراهيم ومحمد عليها الصلاة والسلام حبيبي ان كنت كما ظننت فيك من الايمان بالله واليوم الآخر فالماضي لايعاد فبوصول جوابي هذا اليك اترك المواطن والمساكن وحبها ولا تنظر لمال ولا ولد ولا أهل ولا أحد بل لاتراع الا أمر الله ورسوله والمبادرة للهجرة ولرؤية الضر والنفع من الله فقط كما ورد كتابا وسنة ولا تراع غزارة علمك وكثرة فهمك ولاتستحقر طلبنا لك فما بن ماعند الله الذى منه الحول والقوة وبادر لاجابتنا بهمة وشفقة ولا تخش بعدها من عقاب ولا عتاب فأنت فى أمان الله ورسوله وأماننا اذا طاوعت الامر كما ذكرنا فلا نرضى عليك الا بالهجرة فقط دون أمر آخر وما أرك أن ترضي بغير ذلك فأحسن بظننا فيك ولا تحوجنا الى خطاب بعد هذا حيث علمت عزمنا عليك بالهجرة فلا عذر لك أبداً عنها

حبيبي وقد كتبت لك سابقا لجودة فهمك وزيادة فطنتك فيما هو حقيقة بلا تصنع لتجيب الدعوة الي الله وتنتفع قبل الناس ولكن حبيبي تعلم ان من كبر وبلغ الغاية في الكبر عاد الى التسافل الى أن يكون أرذل من كل شيء والصغير لازال يزداد فلا تنظر حبيبي لكبرك في السن والعلم وصغري في السن والعلم فانك تعلم ان الله يختص برحمته من يشاء ومن له نور ايمان لايخفى عليه مهدي بنظر نور الايمان وكثير من العلماء الاكابر الذين لهم سابق سعادة رأوا ذلك فرجعوا عما كانوا عليه وأتونى نادمين وانك تعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم ما كان أصوليا ولا نحويا بل نبيا أميا وخصه الله بخاصية لايعلمها الا هو مع انه يتيم وبين أميين ولم يكن فى آبائه ملك الى آخر مااستنبأ عنه هرقل أبا سفيان ليري به الحقيقة والتأهل للنبوة فعرفها مما أفهمه به ولكن حجبه ماتعلمه من الملك والجاه والصيت وحب متاع الحياة الفانية ولم يغن عنه ذلك شيأ كما تعلم ذلك فلا تتوقف لما تظن من قصوري فسلم الامر لله وانقد لتسعد ولا تكن ممن حجبه الجاه والمال الفانيان فانقطع عما عند الله ولا تكن ممن حجبته الكبرياء عن التواضع لله والانقياد للحق فانك تعلم ان علماء اليهود والنصاري كانوا يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستفتحون به فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به خوفا من مفارقة الجاه والرياسة وما يجبي اليهم من الهدايا والقطائف التى يتمتعون بها فى الحياة الفانية وقد ساعدوا الكفار والمشركين لطلبهم متاع الحياة الفانية ولئلا يزاحموا الفقراء المساكين الذين الذين خرجوا عن الجاه والمال واختاروا ماعندالله لاستحقارهم اهؤلاء وتكبرهم عليهم وبنظرهم لكبريائهم وجاههم وما يجبي اليهم من متاع الحياة الفانية أظلم عليهم أن ينظروا عزة ماعند الله وان الشاكرين العارفين نعمة الله فى الدين

هم الذين اختاروا فراق كل عزيز لاجل ذلك وهان عليهم فراق الوطن والاهل والاولاد والاموال لما ان حدهما قريب ليس لها عند الله جدوي وانما يبقى ما اكتسبه العبد مما يقربه الى الله زلفي قال الله تعالى «وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفي» ولئلا يقف المؤمن مع ماذكر عن ايثار الله وطلبه قال الله تعالي «قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم» الخ واذا أراد المؤمن السفر لطلب الله ورسوله وايثار ماعنده وهجس له الاهل والبنون والاموال كفاه قول الله تعالى «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» وقول النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة فى الاهل والمال والولد» وان المؤمن يعلم من نور الايمان ودلالة القرآن ان الذي وجه وجهه له هو الذي يخلفه فى أهله ولا يخفي عليه حالهم وفضل الله أوسع من فضله عليهم وهو أقدر من قدرته وأدلة ذلك من الكتاب والسنة متضحة ومثلك حبيبي لايعرف باكثر من ذلك وماتعبت لك فى النصيحة الا لارادتى لك الخير والسلام ربيع الآخر سنة ١٣٠١

سقوط شكا وحفرة النحاس

«شكا» إقليم واقع في الصحراء التى بين بحر الغزال ودارفور وسكانه أعراب جل ماشيتهم البقر ويطلق على جميعهم اسم «البقاره» ومنهم قبائل الرزيقات والهبانية وبنو هلبه وغيرهم من قبائل البقارة

ولما استولى المصريون على دارفور افتتح غوردون باشا «شكا» وجعلها مديرية وكانت مملوءة بالنخاسين ولهم فيها شركات تقيم معسكرات يطلق عليها اسم (الديم) أي المعسكر وهي توالي الغارات على بلاد العبيد للسلب والنهب

وحفرة النحاس بالقرب من شكا جعلها غوردون مقاطعة ووضع فيها حامية وفيها معدن نحاس كبير استخرجت منه الحكومة شيئاً كثيراً الى عهد غوردون ثم أهمل أمره من خلفه من الحكام ونقلت الحامية منها وسيأتي ان الخليفة التعايشي اعتني بامره واستخرج منه شيئا كثيرا من النحاس واكتشف معدنا للرصاص ومعدنا للكحل استخرج منهما شيئا كثيراً

وكان في شكا أخوان نخاسان دنقليان يدعيان محمد وكرم الله كرغساوى وفدا على المهدى بعد سقوط الابيض فى قبضته وأخبراه بقدرتهما على نشر دعوته في «شكا» وحفرة النحاس وبحر الغزال ولما استولي على دارفور أشخصهما الى شكا في الفى مقاتل فقد ماعليها وكان بها الصاغ منصور أفندي حسن ومعه اكثر من الف جندى جلهم من الجنود غير النظاميين يطلق عليهم اسم (الخطرية) أى المتطوعة

ولما صار كرم الله كرغساوي على مقربة من شكا كتب الى الخطرية يعلمهم بقدومه وسألهم اللحاق به فاجابوا دعوته ولحقوا به واجتمع عليه نحو خمسة آلاف مقاتل من الدنقليين النخاسين فكتب الى منصور أفندي حسن يدعوه الى التسليم والدخول فى دعوة المهدى وبعث له بكتاب من سلاطين باشا يخبره بتسليمه للمهدوية وتصديقه بدعوة المهدى وقد كتب هذا الكتاب بناء على رغبة المهدى

ولما وقف منصور أفندي على الكتابين توقف عن التسليم فى بادئ الامر واستشار من معه الجنود وكانوا نحو ثلاثمائة فكرهوا ان يقاتلوا جميعاً واتفقوا على التسليم وكتبوا الى كرغساوى يسألونه ان يأمنهم على أموالهم واعراضهم فكتب لهم بهذا كله واقسم لهم بالايمان المغلظة على الوفاء فسلموا

أغنهم وأسلحتهم فلم يلتفت الي شيء مما اشترطه على نفسه بل قبض على منصور أفندي ومن معه من الضباط والموظفين المصريين وعذبهم عذابا أليما ليدلوا علي أموالهم وأخذ نساءهم وبناتهم غنيمة له ولانصاره ولم يمس أحداً من السودانيين بسوء

ولما دانت له البلاد بالطاعة تقدم نحو حفرة النحاس وضم الى جنده من فيها من النخاسين وأرسل للمهدى بالوف من الارقاء وبخمس ماغنمه من أموال المصريين وبناتهم وأخذ فى الاهبة للتقدم الى بحر الغزال

سقوط بحر الغزال واسر لبتن بك مديرها

بحر الغزال هي البلاد التي تقدم لنا الكلام عليها قبل ايراد حوادثه وكنت أول حاكم ولى عليها باسم الحكومة الخديوية لما عينني غردون مديراً عليها فأعلنت ضمها الى الخديوية وقد سردت اكثر حوادثها الى خروج سليمان ابن الزبير على الحكومة بها وتولية «جسى باشا» عليها وقتل هذا الخارج له واشياعه واقصاء النخاسين منها

وأقول الآن بعد ان غادر جسى باشا بحر الغزال خلفه في وظيفته موسى شوقي باشا من الضباط المصريين وكان وكيله انكليزيا اسمه «لبتن بك» ثم عزل موسى شوقي باشا وخلفه لبتن بك

ولما استولى كرغساوى على شكا تقدم نحو بحر الغزال بخمسة آلاف مقاتل أو يزيدون وأرسل الى لبتن بك انذاراً دعاه فيه الي التسليم ومع الانذار كتاب من سلاطين باشا يختلف فحواه عن الكتاب الذي أرسل الي منصور أفندي حاكم «شكا»

وكان مع لبتن بك نحو الف وخمسمائة جندي جاءهم من «الخطارية» فخذلوه ولحقوا بكرغساوي ولم يبق معه غير عدد قليل من المصريين من الضباط والموظفين وهبّ الاهلون العبيد واعلنوا دخولهم في طاعة كرغساوي ومنعوا وصول الاقوات الى لبتن فاضطرهو ومن معه من المصريين الى التسليم بعد ان استأمنوا كرغساوى فامنهم ثم قبض عليهم وأذاقهم عذابا مرّاً واستصفى أموالهم وهتك اعراضهم ثم بعث بهم جميعهم أسراء للمهدى

وفي غضون مسيرهم فى الطريق استأنس رئيس الحراس بلبتن بك واسراليه انه يبغض المهدية ويبطن الولاء للحكومة ولام لبتن بك على خضوعه بغير مقاومة فكشف له دخيلة أمره وقال انى لم أسلم الا لما رأيت جندي خذلني والتف حول عدوي ولو لا ذلك لدافعت حتى آخر نسمة من حياتي وعندي ان الموت أفضل من الوقوع في يد هؤلاء البرابرة المتوحشين

ولما وصل لبتن بك الى المهدي أخبر رئيس الحراس المهدى بما دار بينه وبين لبتن بك من الحديث فاسره المهدي ولم يطلعه

ولما سمع لبتن بك بقدوم غردون الى الخرطوم كتب له يعلمه بامر تسليمه ويشرح له الاسباب التي تقدم لنا ايرادها ودفع الكتاب الي قبطي اسمه صالح شنوده كان كاتبا في بحر الغزال

وكان لبتن بك لما قابل المهدي اعتنق الاسلام على يده فسماه عبد الله

وغادر صالح شنوده معسكر المهدى قاصداً الخرطوم فقبضت عليه طلائع المهدى وأعادوه الى المهدى فاخذ ما معه من الكتب وعذبه حتي اطلعه على الحقيقة فزجه فى السجن وقبض على لبتن بك وسجنه وبالغ فى تعذيبه

ثم أرسل له كتاباً وهو في سجنه يقول فيه ان رئيس الحراس لما أخبره لم يلتفت الى اخباره بل كان يتوقع أنه سيحسن اسلامه بعد مواجهته له وشرح له مسألة القبض على صالح شنوده وقال له انك اذا تبت في سريرتك ورجعت عن غوايتك لا بد ان يأتيني خبر من الغيب عن ذلك ولا بد ان النبي صلي الله عليه وسلم أو الخضر يخبرني بامرك وبقي لبتن في اسوء عذاب وسنعود الى تتمه اخباره حتي وفاته

وكان سقوط بحر الغزال في أواخر شهر جمادى الأخرى سنة ١٣٠١ هجرية وهاهي صورة كتاب المهدي الي لبتن بك نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله محمد المهدى بن عبد الله الي عبد الله المسلماني وقاه الله السوء وجعله من أهل التداني كان سابقا أخبرنا الاخ الصادق وفى العهدى الذي جاء صحبتكم من كوردفان بانه أظهر لك انه لم يكن راضيا بالمهدى وقصد بذلك الوقوف على حقيقتك فاعلمته بان التسليم الذى حصل منك ليس على غرضك وانما هو لعدم الموازر على الحرب لاجل أن العساكر التي معك سلمت جميعها وأظهرت النفاق معها وانك على ما أنت عليه من الكفر ومراكنة الترك فصفحنا عن ذلك أملا فى أنك ان لاقيتنا يصف ايمانك ويتم تصديقك وتسليمك لنا بالمذاكرة ولما قابلتنا ذاكرتك وأعلمتك ان أمرنا هذا الهى وان الله اذا أراد أمرا امضاه ولم تنفع فى مقابلته مدافع ولا جيوش انكليز ولا غيرها ولا بوابير ولا كافة الحيل اذ انه لا يغلب الله غالب وكل ذلك لتصفى معنا سريرتك ويصير لك الحظ الوافر عند الله وتنال سعادة الابد وتكون

من الاصحاب المؤمنين الذين لهم عند الله حسن المكانة العظمى وكل ذلك
خير لك ابدى حتي ظهرت خيانتك وتصميمك علي النفاق بمكاتبتك لغردون
واظهارك له انك لم تسلم باختيارك وانك منتظر نجدة الانكليز واظهارك
له ان جماعتنا اكثرهم مرضي جائعون لا يقدرون على حرب شهر كل ذلك ظهر
عند ضبط صالح شنوده لخيانته أيضا فمن الآن وصاعدا ان تبت من سريرتك
بينك وبين الله واعتقدت ان هذا السجن لتصفيتك وتجريدك عما يضرك عند
الله وصدقت مع الله فى تسليمك لنا فلابد ان يظهر لنا على سمتك أو باخبار
من الغيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من الخضر عليه السلام وان
لم تتب من سريرتك وبقيت على نفاقك كذلك فلابد ان يظهر لنا فتزيد عذابا
علي عذابك والآخرة أشد عذابا وأشد تنكيلا فان أراد الله بك خيراً يهدك
وتظهر هدايتك لاتباعنا والصداقة معنا وان أراد الله شقاوتك وعذابك فى
الدنيا والآخرة تصمم علي ما أنت عليه من النفاق ولا تقل ان الهداية التي
تنفع بادعاء اللسان فان ذلك لا ينفع كما رؤي عليك حين أتيتنا من عدم الصفا
علي وجهك فان اهتديت من سريرتك سترى خير الدنيا والآخرة ان شاء
الله تعالى والسلام ٢٠ محرم سنة ١٣٠٢

ذكر عودة غردون الي السودان

لما سقطت وزارة شريف باشا وخلفتها وزارة نوبارباشا كانت الحكومة
الخديوية في ارتباك فقدت معه كل تدبير وذلك انها كانت لاتكاد تقرر شيأ في
السودان حتى تنقضه قبل أن يمض على تقريره يوم أو بعض يوم

وبينما هي فى هذه الحالة عرضت عليها الحكومة البريطانية تعيين

غردون باشا بوظيفة حاكم عام على السودان ومنحه سلطة مطلقة . وكان هذا العرض في شهر صفر سنة ١٣٠١ هجرية

وفى منتصف شهر ربيع الاول أعلنت الحكومة رفض هذا الاقتراح ثم لم تمض بضعة أيام حتي تلقينا من مصادر الاخبار الرسمية نبأ مغادرة غردون لوندره قاصداً القاهرة حيث أمر بتقديم نفسه لجناب السرافلن بارنج قنصل جنرال انكلترا في مصر

وفي يوم ٢٦ ربيع أول سنة ١٣٠١ كان وصول غردون القاهرة وفى اليوم التالى اجتمع بالسرافلن بارنج وتلقى منه كل التعليمات التى يجب عليه اتباعها فى مأموريته

ذكر العفو عن المؤلف وارجاع رتبه والقابه
ونياشينه اليه ومرافقته غردون الى السودان

قصصت فى أول الكتاب ما أصابني من تجريدي من رتبي وألقابي ونياشيني التى أحرزتها فى إبان مرافقتى لغردون فى خط الاستواء لما كان حاكما على الاقاليم الاستوائية وقد مضي عليّ نحو سنة ونصف

وفى شهر ربيع الاول سنة ١٣٠١ جاءنى خطابان أحدهما من الجنرال وود باشا سردار الجيش المصري والآخر من نوبار باشا رئيس الوزارة يرجوني كل منهما ان اقابله في الغد فذهبت الى السردارية وقابلت وودباشا فأخبرنى ان غردون بعث اليه بتلغراف يعلمه بعزمه على مرافقتى له فى العودة الي السودان فأجبته بأنني مطرود من خدمة الحكومة فقال انني لاأجهل ذلك ولكن غوردون سيطلب لك العفو من سمو الخديو

المعظم وختم كلامه بلزوم أخذ الاهبة والاستعداد الى السفر فودعته وانصرفت بعد ان وعدته بأخذ الاهبة ثم ذهبت الى نوبار باشا فأعلمني ان غردون بعث اليه بتلغراف كالذي بعث به الى وود باشا وكان حديثه معي كحديث وود باشا فانصرفت عنه بعد ان أكد عليّ في الاستعداد للسفر

وفي يوم وصول غردون باشا الى محطة سكة حديد القاهرة كانت غاصة بالمستقبلين من ضباط الانكليز وموظفي الحكومة ورجال التشريفات الخديوية ولما وصل القطار الذي كان يقله استقبل بكل حفاوة وكرامة ولما وقع بصره عليّ تقدم نحوى وصافحني مخاطباً انك ياعزيزي متوجه معي الى السودان فسردت عليه مالحقني من التجريد والطرد فطيب خاطري قائلا سأطلب من الجناب الخديو العفو عنك وارجاع كل ماسلب منك فشكرته ثم قدمني لكل الذين استقبلوه من الانكليز وسرد عليهم تاريخ مرافقتي له في المرتين السابقتين ثم اركبني معه العربة الي منزل وود باشا حيث كان مدعواً الي مأدبة هناك وبعد وصولي لهذا المنزل استأذنته فى الانصراف بعد ان أكد علي في العودة اليه فى الغد

وفى نحو الساعة التاسعة صباحاً عدت اليه بمنزل وود باشا فقابلني بوجه باش وقال لي اذهب الي نوبار باشا لاستلام الاوامر بسفرك فقلت فى نفسى كيف أستلم الاوامر بالسفر قبل صدور العفو وترددت قليلا ثم امتثلت وذهبت الى نوبار باشا فقابلنى بالاكرام واجلسنى بجانبه وقال ان غوردون باشا مسافر على عجل وإنه يرغب مرافقتك له وانني أعطيك راتب ثلاثة شهور كمرتب أمير الاى ثم انك لاتبلغ بربر حتي أكون قد التمست من الجناب العالى الخديو العفو عنك وارجاع كل رتبك ونياشينك لك وسأرسل لك

البراآت والنياشين قبل وصولك الى بربر فقلت له لايمكن ذلك ابدا ولا أرضى بمغادرة القاهرة قبل ان أحرز رضا مولاي الخديو واتحصل على العفو منه فاخذ يراجعني ويقسم لى الايمان المغلظة بصيرورة ذلك لامحالة فلم أقبل وما زال يراجعني وانا مصر على الرفض واخيراً استأذنته في الانصراف وعلامات الغضب ظاهرة على وجهي فقصدت محل غوردون وأخبرته بما جري بيني وبين نوبار باشا فاستاء وقال لى لم يكن اتفاقي مع نوبار باشا هكذا ثم ركب عربته قاصداً السراي الخديوية وتقابل مع الجناب الخديو وعرض على مسامعه طلب العفو عنى فاجابه بان هذا مطرود من خدمتي ومعه من هم أرفع منه ومن هم دونه ولايوافق العفو عنه دونهم فقال له يامولاي انك جدير بالعفو عنهم كلهم فقال ولكن الظروف غير الجدارة وانني أعطيك ضابطا بدله ولو من ضباط حرسي فالح غوردون فى الرجاء وقال إنى رغبت مرافقة اثنين كانا معى وحضرا معي فتوحات خط الاستواء وهما ابراهيم فوزي وكاتبي محمد بيك التهامى الذى أسفت لفقده البصر مما كان حائلا دون مرافقته لى وأخذ يسرد على مسامع الخديو الخدامات الجليلة التى قمت بها معه من رحلة خط الاستواء والخدامات التى اديتها فى غضون ولايته على السودان فوعد الخديو بالعفو عني فشكره غوردون وانصرف وارسل الخديو يدعو الوزراء للاجتماع عنده

ولما عاد غوردون من السراى الخديوية قص على كل مادار بينه وبين الخديو من الحديث ثم دفع الي كتاباً بالفرنساوية وأمرني بايصاله الى الخديو فى الساعه الثانية بعد الظهر فحملت الكتاب وذهبت الى المعية اتعثر في أذيال الخجل وأعض انامل الندم ولات ساعة مندم وتمثل لي مافرط منى في ولاء

العرابيين باقبح صورة وزاد عليه تبكيت الضمير حيث تذكرت ما كان من الجناب الخديو ونصحه لي بالابتعاد عن المسألة العرابية وتذكيره لى بنعم والده على وانني ان تابعت العرابيين كنت مقابلا لهاته النعم بالعقوق والكفران فلم التفت الى الذكرى بل انغمست في الفتنة العرابية وكان ما كان حتي كانني فقدت العقل وعدمت الرشد ولا حول ولا قوة الا بالله

ولما دخلت المعية السنية وجدت طه باشا ويوسف شهدى باشا جالسين فى أودة التشريفات ومعهما كثير من الضباط فسلمت عليهم فلم يردوا تحيتي وظهر على وجوههم التقطب والعبوس والتفتوا الى محملقين ثم أداروا وجوههم يتغامزون عليّ فتقدمت وجلست بجانبهم غير مكترث بشيء مما أبدوه وبعد هنيهة دخل علينا زكي بك تشريفاتى خديو فاندهش لرؤيتى بهذا المكان ولكنه تجلد وأخفى ما خامره وحياني قائلا (طيبين يامسيو فوزي) فقلت له (طيبين يا مسيو زكي) وبعد هنيهة أشار اليّ بالدنو من مجلسه وابتدرنى بقوله. ألم تعلم يا أخى ان ضباط الثورة المطرودين محظور عليهم المجيء الي هنا فقلت نعم فقال وما الذي جاء بك فقلت أقصد التشرف بمقابلة الحضرة الفخيمة الخديوية فقال انى اخشى عليك من زيادة الغضب وألح على بالعدول عن هذا القصد فشكرته وأخرجت له كتاب غردون فنظر الي العنوان وأسرع بايصاله الي الخديو ثم عاد وقال لي على مسمع من الحاضرين ان الجناب الخديو يسلم عليك وبعد خمس دقائق تحظى بمقابلته فاندهش أولئك الذين لم يردوا تحيتي والتفتوا نحوى يرحبون بي بقولهم (مرحباً) فلم التفت اليهم ولم أرد تحية واحد منهم وقلت فى نفسي واحدة بواحدة

وبعد مضى الخمس دقائق دخلت على الجناب الخديو فوجدته واقفاً

فلم أتمالك نفسي ووقعت على قدميه وأنا أقول (العفو يا أفندينا) حتي انحنى على وأخذ بكتفي وهو يقول (استغفر الله قد عفوت عنك وردت عليك رتبك والقابك ونياشينك وكل ماجردت منه) وكررها ثلاثا فوقفت على اقدامي فجلس وأمرني بالجلوس وأخذ يعاتبنى وأنا لا أقول له غير « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » ثم استدعي خيرى باشا المهردار وقال له انى عفوت عن ابراهيم بك فوزي ورددت له كل ما سلب منه فدعا له بطول البقاء وأمنت على دعائه وبعد برهة عاد ومعه البراآت والنياشين فوقف الخديوى على قدميه وسلمنى البراآت وقال لى اذهب الى منزلك وتقلد بزة عسكرية لاقلدك النياشين بيدى فذهبت وبعد برهة عدت فقلدني النياشين بيده وجلس وأمرنى بالجلوس وقص عليّ فحوي الشهادات الحسنة التي شهد بها غردون عن سلوكى معه في الايام السالفة وأعرب لى عن أمله في نجاح غردون وأوصانى بطاعته وحذرنى من مخالفته ووعدني بالالتفات ونوال الخيرات ثم انصرفت شاكراً بعد ان ودعني بأرق الفاظ المجاملة

ثم قصدت محل اقامة غردون وأنا متقلد نياشيني ومتحل بملابسي الرسمية فاستقبلني بالضحك الذي يشف عن زيادة السرور وأمرنى باخذ الاهبة حيث السفر فى الساعة التاسعة من مساء الغد من محطة بولاق الدكرور فعدت الي منزلي وأنا مشغول بأخذ الاهبة للسفر ومقابلة المهنئين من الاهل والخلان

وقصصت على غردون كل مادار بيني وبين الجناب الخديو من الحديث وكتب الى المالية بصرف مرتب ثلاثة شهور مع نفقات السفر وفي اليوم التالى قبضت المال وتأهبنا للارتحال والحمد لله على كل حال

ذكر سفر غردون باشا

في مساء يوم ٢٨ ربيع أول سنة ١٣٠١ في الساعة التاسعة مساء أعد قطار خصوصي فى محطة بولاق الدكرور ليقل غردون باشا ومن معه الي أسيوط فازدحمت المحطة بالمودعين وفى مقدمتهم نوبار باشا رئيس الوزراء ومعه النظار وقنصل جنرال الدولة الانكليزية وعدد عظيم من ضباط جيش الاحتلال والموظفين الانكليز وبعض من رجال التشريفات الخديوية

واتصل بي ان عبد القادر حلمي باشا تحادث مع غردون يومئذ في شأن مأموريته وقال له انني أتوقع لك شراً مادمت قاصداً السودان بلاجند وأما مأموريتك السلمية فانى أجزم منذ الآن بأن المهدي وأعوانه لايقابلونها الا بالسخرية والازدراء على انى أقول لك لو كان معك ألفاجندي فان أخبارهم تصل الي المهدى بغلو كثير وخصوصاً اذا ذاع ان جنوداً غيرهم قادمون لامدادك وفوق ذلك فانى أشك فى وصولك الخرطوم سالما فأجابه غردون على كل ماقاله بقوله ان معى الله وحده وخاطب عبد القادر حلمي باشا الكولونيل ستيوارت الذى ذكرنا انه سافر بمأمورية سرية الى الخرطوم فى عهد ولاية عبد القادر حلمي باشا عليها واختاره غوردون لمرافقته بما خاطب به غردون فأجابه انى لاأشك فى صحة كل ماقلته ولكنني رجل عسكري أطيع أوامر رؤسائى طاعة عمياء لان أقل احجام مني يعد جبنا وانني لاأرتاب في انني ذاهب لحتفي بنفسي

وفى الساعة العاشرة سافر القطار بين هتاف الجماهير قاصداً أسيوط التى وصلناها فى صباح الغد فاستقبلنا مديرها وتناولنا طعام الغداء على مائدته

ثم ركبنا باخرة في النيل الى أصوان وهناك قابلنا قسوس من الكاثوليك كانوا دعاة للنصرانية في السودان وهجروا الخرطوم لما أحسوا باحداق الخطر بهما فقضينا معهم بضع ساعات كان غردون يسألهم فى خلالها عن الاحوال فكانت أجوبتهم لا تختلف عما قاله عبد القادر حلمى باشا لغردون

ثم غادرنا أصوان الى الشلال وركبنا باخرة هناك قاصدين كروسكو وبعدمسيرة يومين وصلناهافألفينا الجمال وممدات السفر كلهافى انتظارنا فعينى غردون قومندانا للحملة وأخذت فى الاشتغال بتجهيز وحزم الامتعة حتي الظهر ثم ألقيت التنبيهات على رعاة الجمال بأن السير يبتدىء فى الساعةالثالثة بعد الظهر وعدت الى الباخرة وأخبرت غردون بجميع الترتيبات وكان جالسا على ظهر الباخرة ومعه الكولونيل ستيوارت والجنرال جراهم أحد قواد جيش الاحتلال وكان عين لمرافقة غردون الى كروسكو ثم جلسنا نحن الاربعة لتناول طعام الغداء فقال غوردون للجنرال جراهم انني التمست من الجناب الخديوى الاحسان على الكولونيل ستيوارت وابراهيم فوزي برتبة اللواء ليكون الاول وكيلي والثانى قومندانا للعساكر البرية والبحرية فأجابه الجنرال جراهم بالاستحسان

وبعد الغداء طير رسالة برقية للجناب الخديوى بهذا الالتماس ثم امتطينا الجمال وغادرنا النيل فى طريق الصحراء قاصدين آبارالمرات التي هى منتصف الطريق بين « ابو حمد » الواقعة على ضفة النيل وبين (كروسكو) وسنعود الي هذا الموضوع فى غير هذا المحل

ذكر كتاب غردون الي المهدي وهديته

قبل أن يغادر غردون كروسكو كتب كتابا الي المهدى ومعه هدية من نوع الهدايا التي تقدم لمشايخ الاعراب كالبنش وغيره وفحوى الكتاب كما يأتي بالايجاز «انى أعترف بك سلطانا على السودان الغربي كله وملكا مطلقا على كل اقاليمه التي هى كوردفان ودارفور واني لما بلغني ما أصاب أهالى السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرني غم شديد ولذا قد عينتنى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمي وامبرا طورة الهند واليا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية وانى من صميم فؤادى ارغب توثيق عرى العلائق الودية بيني وبين سلطنتكم وأرجوان تسمحوا باعادة المواصلات التلغرافية وأظن ان أدوات ذلك قد تلفت فى غضون الخطوب وقد أصدرت الاوامر الى مركز الحكمدارية بأن يعطى لكم كل ما تطلبونه من أدوات التلغرافات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير وقد داخلنى حزن شديد لما علمت بقطع طرق السودان الشرقى التي جاءت حائلة بين المسلمين وبين مكة المكرمة التي يقصدونها في كل عام لاداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق والقاء السلاح لنشيد أركان الراحة ونوطد دعائم السلام

هذا ملخص خطاب غردون للمهدى وسنأتى على اجابة المهدي عليه بعد وقد طير رسالة برقية الي الحكمدارية يأمرها باستقبال سفير المهدي باطلاق المدافع والزينات واعطائه كل مايطلبه من أدوات التلغراف فقوبلت هذه السياسة من الخرطوم بالدهشة والاستغراب ولكن الآمال كانت

تخيل لهم ان غردون لابد أن يكون معه جنود يجبرون المهدي على قبول مثل هذا الامر ويمنعونه من التقدم الى الخرطوم على ان الامر الذي لامراء ولا جدال فيه ان المهدى كان يرضخ صاغراً لما رسمه له غردون لو كان هناك جنود ولو بضعة آلاف

الخرطوم وغردون

ما كاد نبأ تعيين الجنرال غردون يبلغ الخرطوم حتى كان الاهلون المصريون في فرح شديد ظناً ان غردون لابد أن يكون قادماً بعناية كبرى من الحكومتين البريطانية والخديوية وانهما لايتخليان عن مساعدته بجنود يقدر بها علي ارغام المهدي ومنعه من التقدم اليهم فأرسلوا اليه بالتلغرافات وفي كلها التنويه بأنه محط الآمال

وأرسل علي لسان البرق منشورات فيها الاعتراف بسلطة المهدي على السودان الغربي وانه عين من قبل الحكومة البريطانية الخ ماجاء في خطابه الي المهدى

وزاد انه تجاوز عن المتأخرات من الضرائب والاموال الاميرية وتجاوز عن ضرائب ثلاثة أعوام فى المستقبل

وأرسل تلغرافا بفصل حسين سري باشا من وكالة الحكمدارية وتعيين الكولونيل دي كوتلجف بدله وهو انكليزى كان في الخرطوم منذ سنة بمهمة سرية

وأرسل تلغرافا ايضا بتعيين عوض الكريم أبى سن زعيم قبيلة الشكرية مديراً للخرطوم وسنأتى علي ترجمته وأخباره بعد

وأرسل ايضا على لسان البرق أمراً بتعيين الفقيه عبد القادر بن أم مريوم قاضيا لقضاة السودان

ذكر وصول غردون الي ابو حمد

وبعد مغادرتنا كروسكو ظللنا سائرين أربعة أيام بلياليها لم نذق الراحة فيها غير ساعتين في كل يوم وليلة ومأوانا وزادنا على ظهور المطايا لا يرى المسافر في تلك الصحراء القاحلة طيراً ولا وحشاً ولا شجراً حتي ألقينا عصا السفر عند آبار «المرات» وهى واقعة فى منتصف الطريق بين أبو حمد وكروسكو وماؤها ملح لا يستقر في جوف شاربه حتي يأخذه الاسهال

وبعد استراحة ليلة وبعض يوم استأنفنا المسير قاصدين أبو حمد وبعد مسيرة أيام وليال أخرى وصلنا أبو حمد وهي أول حدود مقاطعة بربر من جهة الشمال وأول حدود اقليم دنقله من الجنوب وسكانها يقال لهم (الرباطاب والمناصير) وهم من جنس قبيلة الجعليين التى سنتكلم عليها بعد وبلادهم قاحلة وكلها مكسوة بالاحجار ولا قوت لاهلها غير ما يجلب الى بلادهم من محصولات البلاد الشمالية والجنوبية

ويحكى ان رجلا من الرباطاب كان يأكل نوعا من الحبوب اسمه (قوسيل) فسقطت من يده حبة وكان الظلام حالكا فصرخ صرخة ارتجت لها جوانب قريته فنسل الناس نحوه يصيحون هل لدغتك أفعي فقال سقط من يدي ثور قوسيل فاصطكت أسنانهم وسقطوا على الارض لعظم تأثرهم لانهم يعدون الحبة كثور من البقر والقوسيل نوع من اللوبيا

واستقبلنا فى أبو حمد حسين باشا خليفة مدير بربر ومعه أعيان المديرية

فألقي عليهم غردون خطبة أبان فيها انه تجاوز عن كل المتأخرات لغاية سنة ١٨٨٣ كما انه تجاوز عن ضرائب ثلاث سنوات فى المستقبل وانه أطلق لهم النخاسة وألغى الاوامر الصادرة بمنع هذه التجارة فقال له أحد شيوخ الاعراب انك عافيتنا من هذه الضرائب وانا لا نأمن أن يخلفك حاكم آخر فيعود الي جبايتها ما دامت اسماؤنا في بطون الدفاتر فقال له صدقت وسأصدر الاوامر باحراق هاته الدفاتر لزيادة الطمأنينة فشكروا ودعوا له وللخديو

ثم قال لهم وبعد مضى الثلاث سنين أنظر في تخفيض الضرائب وتنزيلها حتى تكون أقل بكثير مما هى عليه الآن ثم قال وانى أحذركم من الركون الي المهدى الكذاب خصوصا وأنتم تعلمون انه دنقلي كاذب في كل ما ادعاه وانه لا يقصد غير تقويم معاشه وتسلطه عليكم فصاحوا جميعاً بصوت واحد انا ندافع عن سلطة الحكومة بما ندافع به عن أبنائنا وانه يستحيل علينا ان نخضع لهذا الكذاب فشكرهم وأحسن على كثير منهم بالرتب والنياشين على ان ذلك كان منهم محض خداع لانهم كانوا يخشون ان يكون مع غردون جنود

ثم طير غردون رسالة تلغرافية الي السر افلن بارنج يقول فيها ان المقابلة والمحادثة التى دارت بينه وبين الاهلين فى أبو حمد تبشر بنجاح مأموريته وتزيد ثقته بالفلاح سيما وان الاهلين وعدوه بان يقبضوا على كل داع يقوم بدعوة المهدي بين ظهرانيهم

وقضي غردون جزأ من الليل في مشاهدة الالعاب التى أقامها الاهلون احتفاء به وهى لعبة (الدللوكه)

وفي الغد استأنفنا السير على ظهور المطايا الى بربر حيث كانت البواخر فى

انتظارنا وكنا كلما مررنا بقرية استقبلنا أهلوها بالابتهاج والفرح وكان غردون يوزع عليهم الملابس والدراهم وبعد مسيرة خمس مراحل وصلنا بربر فالفينا بها شرذمة من العساكر مصطفة فى انتظارنا ثم أطلق واحد وعشرون مدفعاً ترحيباً بقدوم غردون وبعد الاستراحة فى سراى المديرية ابتدئت المقابلات فدخل عليه قناصل الدول وحادثوه فى شأن مأموريته ولم يخفوا عنه ما داخلهم من الارتياب في نجاحه فقابل تصريحاتهم بعدم الاكتراث

ثم دخل عليه موظفو الحكومة فكانت آراءهم كآراء القناصل فقال لهم ان الجنود على اثري قادمون من مصر ثم دخل عليه الاعيان فوعدهم بالاجتماع عنده بعد الظهر

وبعد تناول طعام الغداء عقد جلسة من الاعيان وكبار الموظفين للمشورة فى أمر المهدي فقال له الاعيان ان المهدى اشتدت شوكته وخضع له السودان الغربى كله وان لديه من الاسلحة خمسين الف بندقية من طراز رامنجتون وخمسين مدفعا وانه لا يخضع أبداً لما جئت به الا اذا رأى قوة تضارع قوته أو تربو عليها فقال لهم مهما يكن من أمره فان الحكومة الخديوية أقوي سيما وان حكومة جلالة الملكة فيكتوريا تساعدها وانه لا بد من ان نقهره عاجلاً أو آجلاً ثم ختم أقواله بالقاء الاوامر المشددة على الكل بالاخلاد الي السكينة والابتعاد عن الهرج وأسباب الفتن

ذكر مغادرة غردون بربر

وبعد قضاء ثلاثة أيام فى الراحة من وعثاء السفر أبحرنا من بربر قاصدين الخرطوم على احدى البواخر وكنا كلما اقتربنا من الخرطوم نرى

من الاهلين نفوراً منا حتي بلغنا (السبلوكه) وبينما كانت الباخرة تمخر الماء
عند جبلى الرويان اللذين هما جبلان على ضفتى النيل يخترقهما النهر اذ
سمعت صياحاً في الضفة الغربية فامسكت النظارة المعظمة فابصرت بها
عشرة أشخاص ممتطين خيولهم يصيحون بقولهم (نحن مظلومون يا أفندينا)
ثم أبصرت كميناً خلفهم يبلغ مائتى فارس يتوارون وراء الجبل وخيل لى من
هيئة ملابسهم المرقعة انهم عصاة يقصدون الوقيعة اذا القت الباخرة مرساها
فقلت لربان الباخرة الذي كان ممسكا نظارته أيضا ان هؤلاء يقصدون البطش بنا
ونحن ومستخدمو الباخرة لا يربو عددنا على خمسة وعشرين رجلا وان
غردون اذا سمع صياحهم الذى لم يكن الا خدعة أمر برسو الوابور واذا
رسا الوابور وقعنا فى حبالتهم بلا ريب ولا سبيل لاقناع غردون بسوء
قصدهم كما انه لا سبيل لنجاتنا الا بشىء واحد وهو أنه اذا أمرك بايقاف الباخرة
تعتذر له بان هذا الشاطىء مملوء بالصخور ولا يمكن الرسو فيه فتردد الربان
فى قبول ما أشرت به عليه وقال لى ان أمرت برسو الباخرة امتثلت الامر
فاخذت ألح عليه وبينما نحن فى المحادثة خرج غردون من غرفته وما كادت
اذنه تسمع الصياح حتى أمر الربان برسو الباخرة فامتثل ولم يلتفت الى
ما حدثته به فقلت لغوردون ان هذا مكان قفر وليس حوله قرى وانى أرى
وراء هؤلاء الصائحين كميناً والأولي بنا ان نعدهم بالنظر فى ظلاماتهم بعد خروجنا
من بين الجبلين فغضب غردون ولم يكترث بنصيحتي وقال لى أرى انك بعد
رجوعك للقاهرة فقدت ما كنت أعرفه فيك من الشجاعة والجرأة وأظن
ذلك نتيجة الانغماس فى الترف فقلت له لم يكن شيء مما رأيت وظننت بل
انى رأيت الكمين وهو ما دعانى للريبة فى أمرهم فازداد غضبه ودخل غرفته

وأعرض عني كل الاعراض وما كاد يبلغ غرفته حتي أطلق علينا أولئك المتظلمون النيران وظهر الكمين على سفح الجبل فاطلع غردون فرآي العشرة صاروا مائتين يطلقون النيران علينا ويسبوننا باقبح السباب فأخذ يضحك ويقول لي لاتؤاخذني ياعزيزي فوزي فقد بالغت في لومك مع ان الحق معك وأنا المخطيء

ثم انا بعد خروجنا من بين الجبلين لم نر أحدا وعرجنا على مكان يدعى (ولد أبو حليمه) فيه محطة للخشب الذي يوقد للسفن فالقت الباخرة مرساها لأخذما يلزمها من الخشب فالفينا بهذه الجهة شيأ كثيرا من الخشب مكانين متقاربين ولم نجد أحدامن الخفراء أو المتعهدين بجانبه فخرج نوتية الباخرة وأخذوا يحملون الخشب الى داخل السفينة وانا واقف أحثهم على الاسراع وخرج غردون وجلس في ظل شجرة تبعد عن النهر بنحو مائة يرده

وبينما نحن دائبون على العمل لمحت شخصاً لم أكن رأيته قبل فى السفينة فدنا مني وحياني فعرفته واذا هو جندي من جنودى الذين كانوا معي فى خط الاستواء يعرفني جيداً ويعرف غردون فأحببت أن استطلع ماعنده من الاخبار فقطع عليّ الكلام وقال انى عائد من حيث جئت انما جئت لاخبرك للصداقة القديمة بيننا بان سكان هاته الجهة سمعوا بقدومك مع غردون وسيهجمون عليكما في هذه اللحظة وانصرف مسرعاً وعاد من حيث جاء فأسرعت الى غردون فوجدته غائصا فى لجة أفكار فابتدرته بقولى قم بنا بسرعة الى الباخرة فقد طرأ أمر يمنعني من الكلام فقام معى مسرعا ولم يبد أقل مراجعة وصحت بالنوتية ادخلوا الباخرة ولم نكد ندخل حتي هجم على السفينة عدد كبير فأسرعنا الى قطع الحبال وتأخر عن الدخول شخصان من النوتية لازدحام الطريق الموصلة

من البر الي السفينة فقتلها العدو وأخذ يطلق النار علينا ويسبنا

وبعد ان توسطت الباخرة لجة النهر قصصت على غردون أمر ذلك العسكري فتعجب وأثني عليه وعلى مروءته وأظهر رغبة شديدة في مكافأته على حسن صنيعه

ثم تابعنا مسيرنا حتى وصلنا أم درمان فألفينا بها نقطة من الجنود قابلتنا بالحفاوة وأطلقت المدافع وبعد ان تفقدنا حصونها تابعنا سيرنا الي الخرطوم

على ان غردون استشعر بان مأموريته لن تصادف نجاحاً وانه كان مخطئا فى قدومه بلا جنود وانه تسرع ولم يتثبت فى ارسال تلغرافه الى السرافلن بارنج ولكن كان عنده بقية أمل حيث كان ينتظر اجابة المهدى

وصول غردون الي الخرطوم

ولما أبحرنا من أم درمان رست بنا الباخرة في (المقرن) أي نقطة اجتماع النيلين الابيض والازرق وبعد أن ادت الحامية التحية العسكرية أخذنا نتفقد الحصون فسر غردون من متانتها وأثنى على العساكر وشجعهم ثم استأنفنا السير الى الخرطوم وهناك ألفينا العساكر مصطفين والاهلين محتشدين فخرجت من الباخرة انا والكولونيل ستيوارت صحبة غردون فاندهش الناس وقالوا أمن هؤلاء الثلاثة يخاف المهدى ويترك التقدم علينا ان هذا لشيء عجاب

ولما وصلنا الي سراى الحكمدارية وقف غردون عند السلاملك ودفع فرمان توليته الي الشيخ حسين المجدى رئيس أساتذة المدرسة الاميرية فصعد على منبر الخطابة وقرأ الفرمان بصوت مرتفع والناس منصتون لسماعه كأن

الطير على رؤسهم ثم أطلقت المدافع ثم صعد على المنبر ابراهيم بك مأمور الضبطية وأخذ يملي عليه هذه الخطبة وهي « يا أهالي السودان عموماً ان الجناب العالى الخديوى يسلم عليكم صغيراً وكبيراً أحراراً وعبيداً اناثا وذكوراً وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند وانكم لا تجهلون شفقتى عليكم ومحبتي لكم وقد ساءني ماسمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تادية فريضة الحج التى هى من أركان الاسلام وزيارة قبر النبي عليه السلام وقد أساء هذا الحال كلا من جلالة الملكة وسمو الخديو المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لاكون واليا على السودان ومرخصا فوق العادة وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما وفوض الى الحكم المطلق وقد خابرت حضرة السيد محمد أحمد المهدى بفحوى مأموريتي واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته على شرط ان لا يمد يده لغيره. هذا وقد الغيت جميع الاوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وقد تجاوزت أيضا عن ضرائب ثلاث سنوات منذ أول سنة ١٨٨٤ وأمرت باحراق دفاتر المتأخرات وأمرت باطلاق جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم وعزمت منذ الآن ان لا يكون أعضاء حكومتي الا من الوطنيين حيث اني اود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم اباسن مدير الخرطوم وأحسنت عليه برتبة الباشوية ولى الامل بان العلائق ستصبح بيني وبين سلطان الغرب وثيقة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح ابواب الحصون واتلافها وسحب الجنود منها لتلتفتوا الى عمران بلادكم وحرث اراضيكم

وانماء تجارتكم ومني عليكم السلام »اه وكان أهل الخرطوم يسمعون هذه الخطبة ودموعهم تنهمر من أعينهم حيث كانوا موقنين بان هذه سياسة خرقاء وأن المهدي سوف يتقدم نحوهم ويقهرهم

ثم دخل عليه العلماء مسلمين وقالوا له إنا نصبح قتلي وأسرى فى الغدان اتلفت شيأ من الحصون وان المهدي لا يلتفت الي شيء مما دعوته اليه ولا يرده عن بغيه غير جيش جرار وان من حولنا من الاعراب متحفزون للوثبة علينا فاظهر لهم التردد ولكنه كف عن تخريب الحصون وتدميرها

وعلى أثر ذلك هجر المدينة كثير من الناس قاصدين القطر المصرى واستقال كثير من الموظفين ومنهم الكولونيل دي كوتلجن فتعجبت من اصرار غردون على رأيه الاول بعد ان رأي الخطر الذى أحدق بحياته مرتين فى الطريق وعلم اجماع الآراء على عدم نجاحه

ذكر عبد القادر بن ام مريوم

عبد القادر بن أم مريوم فقيه من أهالى القري التي حول الخرطوم وأهالى هذه القرى كانوا ينقادون له ويعظمونه فقصد غردون توليته القضاء رجاء ان يؤثر بنفوذه على أهالى هاته الجهات ويمنعها من الدخول في دعوة المهدى

ولما وصل غردون الخرطوم وفد مسلما عليه فاكرم وفادته وأحسن عليه بثلاثمائة ريال فأخذ يقول على رؤس الاشهاد ان محمد احمد كاذب في دعواه وانه لم يكن مهديا وبعد قبضه الثلاثمائة ريال قال لغوردون اني ذاهب الى قريتي لاعود بعائلتى وعشيرتى فقال له غردون أخشى ان لا تعود فقال له أقسم بسبعة ايمان يعرضن على الله لاعودن بعائلتى وعشيرتى واني أموت

على ولاء الحكومة وطاعتها ولو بقي من عساكرها واحد فانني اكون الثاني فاذن له غردون في العودة الى قريته واكد عليه في الاسراع بالقدوم وشيعه الي الباب

وفي اليوم التالي ورد على غردون كتاب من عبد القادر المذكور يقول فيه انني أنصح لك ولمن معك من الموظفين ان تسلموا للمهدى المنتظر الذي من شك فيه فقد كفر وان النبي صلى الله عليه وسلم بشرني به منذ ثلاث وثلاثين سنة وقال لي صلى الله عليه وسلم انك تصير أحد وزرائه فتغيظ غردون من هذا الكتاب وكتب منشوراً قال فيه من جاءني برأس عبدالقادر ابن أم مريوم فله جائزة الف جنيه ولحق عبد القادر بالمهدي فعقد له لواء بالامارة على كل أهالي القرى المجاورة للخرطوم وفي يوم سقوطها دخل منزل محمود محي الدين أحد أعيان المدينة وقتل صاحبه وسبي نساءه

وجاءت هذه الحادثة من اللواتي آذنّ بان مساعي غردون ذاهبة ادراج الرياح وانها لا تجدي نفعا ولا تغني فتيلا

ذكر عوض الكريم ابن ابي سن

قلنا ان غردون عين عوض الكريم ابن أبي سن مديرا للخرطوم واهداه لقب باشا وعوض الكريم هذا زعيم قبيلة (الشكرية) وهي رحالة تسكن شرقي النيل الازرق في صحراء (ريره) الواقعة بين نهر اتبره والنيل الازرق وماشيتها من الابل والبقر كثيرة جداً وعدد نفوسها زهاء خمسمائة الف نسمة ورجالها مشهورون بالشجاعة وقوة الباس وعندهم من الخيول العربية الجيدة كثير وكان أحمد باشا أبو سن والد عوض الكريم مديراً للخرطوم وزعيما

لهذه القبيلة وقبيل وفاته قدم القاهرة وقدم للخديو اسماعيل باشا هدايا كثيرة وتوفى بالقاهرة بغتة نخلفه ابنه عوض الكريم فى زعامة قبيلته

ولما ظهرت دعوة المهدية كانت قبيلة الشكرية وزعيمها من أصدق القبائل ولاء للحكومة واجتمع منهم نحو عشرة آلاف مقاتل ساعدوا الحكومة على اخماد الفتنة التي أضرم نارها الشريف أحمد طه الذى تقدم لنا ذكر واقعته وقتله وشهد عوض الكريم وكثير من رجاله اكثر الوقائع مع عبدالقادر باشا حلمي وبالجملة فان هذه القبيلة حافظت على ولاء الحكومة ولم تؤثر تخرصات المهدى على عقول زعيمها وعشيرته أسرة أبى سن

ولما فتك المهدي بحملة الجنرال هيكس وانتشرت دعوته فى السودان الاوسط حوالى الخرطوم كانت قبيلة البطاحين التي تسكن غرب صحراء ربره قد دخلت في دعوة المهدى وقبيلة البطاحين هذه رحالة أيضا وماشيتها كماشية قبيلة الشكرية الا انها أقل منها نفوسا اذ لا تبلغ نفوس قبيلة البطاحين خمسين الف نسمة ولكن رجالها مشهورون بالقوة والاقدام وهم لصوص يقطعون الطرق فى كل انحاء السودان فلا تكاد تكون عصبة لصوص أو قطاع طرق الا من البطاحين ولما دخلت هذه القبيلة فى دعوة المهدى وقويت شوكة الداعية محمد بن الطيب البصير ابتعدت قبيلة الشكرية عن ضفة النهر وأوغلت فى الصحراء الي قرب نهر اتبره فاوعز ابن البصير الى قبيلة البطاحين بمناوأة قبيلة الشكرية والغارة عليها لسلب ماشيتها

وكان عوض الكريم يقصد من الدنو من نهر أتبره مقابلة بيكر باشا حينما عزم على فتح طريق من مصوع الى كسلا ومنها الى الخرطوم حيث يخترق صحراء ربره ثم لما عاد بيكر باشا الى سواكن وفشلت حملته كانت عيون

عوض الكريم تاتيه بالاخبار من سواكن عن حركات الجنرال جراهم وكان مؤملا الاجتماع باى جنود تتقدم لتعزيز حامية الخرطوم أو انقاذها

ولما حصر المهديون كسلا أحدقت الاخطار بقبيلة الشكرية وكثرت اعتداآت البطاحين عليها فعمدت الي مظاهرة المهدى وكتبت له بالخضوع والطاعة وسألته ان يعتبرها خاضعة له فكان جوابه لها أن ذلك لا يكون بغير انضمامها الى محمد بن البصير واتحادها معه لقتال جنود الحكومة فكانت تعتذر تارة بمرض زعيمها وأخرى بتوالى غارة البطاحين عليها

ولما وصل غوردون الخرطوم بعث بكتاب الى عوض الكريم باشا ابى سن يعلمه بتعيينه مديراً للخرطوم ويدعوه لاستلام منصبه فوصل الرسول مع رسول قادم من المهدى بكتابين لعوض الكريم وسائر أفراد اسرة ابي سن فاختلى عوض الكريم وأسرته برسول غوردون وسألوه هل جاء معه بجنود فقال لا ولكنهم سيجيؤن فحثا عوض الكريم التراب على رأسه وقال ياضيعة الأمل ثم كتب الي غردون بحرج موقفه وعدم قبوله هذا المنصب وأرسل اليه بالكتابين اللذين جاآ من عند المهدى وزاد ان البطاحين يسافرون بكثرة الى بربر ليساعدوا داعية للمهدي قدم اليها ولا بد انهم يتغلبون على بربر وان بقائي فى هذا المكان انفع لك من قدومي الى الخرطوم اذ لا بد لي ان أظاهر أية نجدة تتقدم اليك من شرقي السودان فوقع رايه موقع القبول والاستحسان عند غوردون فاقره عليه وهاهي صورة ماجاء فى الكتابين

« الاول » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الي أحبابه فى الله واعوانه على سكة

رسول الله عوض الكريم أحمد أبي سن وعبدلّه أحمد ابي سن وعبد الله أحمد أبي سن ومحمد احمد أبي سن وعمارة أحمد أبي سن وعبدالقادر أحمد ابي سن والامين أحمد أبي سن وأبي عاقلة أحمد أبي سن وحسان أحمد ابي سن وعمر أحمد ابي سن ومحمد عوض الكريم وعلي عوض الكريم وعبد الله عوض الكريم وحمد عوض الكريم وعوض الكريم أحمد واخوانهم وأولادهم وعشيرتهم وقبيلتهم أحبابي ان الدنيا ظل زائل ونعيمها مائل هائل وسرورها غم وراحتها تعب وهم والركون اليها غرور وكفي بذلك شهيدا وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور وجمعها شتات وشتاتها عقل وثبات والتخلي عنها نعيم والتحلي بها نار وجحيم ومكرها خفي حائق والالتفات لها عن الله عائق والتعلق بها خمول وبوار والسعي فى طلبها دمار وخسار والتمتع بعيشها ضرر والفرح بها انقباض وكدر والتنعم بها بوس وطالع سعدها غارب منحوس وشرابها سراب وصفاؤها عقاب وحلوها مر وميلها غدر وحنانها قطيعة وصلتها فظيعة وعاقبتها ندم ووجودها محض عدم وخيرها يسير وحسابها كثير وطلبها وبال وبقاؤها محال وعلوها سفل والاجتهاد في طلبها حمق وجهل وكفي في التحذير منها والتبعيد عنها قول الله المتين « وماهذه الحيوة الدنيا الالهو ولعب » ولا يغتر باللعب واللهو الا الخامدون وقول النبي الاواب الناطق بالصواب «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقي كافرا منها جرعة ماء» فانظروا رحمكم الله الى خستها وما فيها وذم خالقها وباريها ومبدعها ومنشيها ورسوله المأمون الذي أوضح للخلق السر المكنون فكيف بعد هذا تركنون اليها وتمدونها دار اقامة مع انها جنة اعدائكم المبعدين عن رحمة الله والكرامة ولوكان فيها خير للمؤمنين السالكين طريق خير المرسلين لما خرج منها صلي الله عليه وسلم ولم يضع

لبنة على لبنة ولما زهدها الصحابة ونظروها حقيرة ممتهنة أما لكم فى رسول الله
اسوة حسنة واتباع لسيرة أصحابه الواضحة المستحسنة فاخرجوا عنها فانها
ذميمة وتجنبوا نتائجها فانها عقيمة واصبروا على شدائدها وبلاياها وجاهدوا
النفس وصدوها عن ركوب مطاياها وشدوا أزركم على اقامة الدين وعلى اعداء
الله الكافرين والخروج عن طاعتهم وتشتيت شملهم وتفريق جماعتهم وبارزوهم
بالعصيان لتنالوا كمال الرضوان وقاتلوهم فانهم مخذولون وجاهدوهم فانكم
عليهم منصورون وشمروا فى ذلك عن ساعد الجد والاجتهاد لنيل غاية القصد
وبلوغ المراد وقابلوهم بعزم قوي وصدق نية وغيرة وحمية وحسن طوية
وارغبوا فيما أعد الله للمجاهدين وابذلو نفوسكم وأموالكم فى الله طمعا
فيما ادخر لانصار الدين قال الله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم بان لهم الجنة » فكيف بعد ان جعلت الجنة ثمنا للنفوس والاموال
تتأخرون عن الجهاد ولا تبادروا اليه بكامل الاحوال ما هذا التوانى والتأخير
وأنتم لا تملكون لانفسكم نقيرا ولا قطمير وخذوا بزمام حزمكم وسارعوا
الي مغفرة من ربكم وبادروا الى قول نبيكم ايما عبد من عبادى خرج مجاهداً
فى سبيلى وابتغاء مرضاتي ضمنت له الجنة ان أرجعته أرجعته بما أصاب
من أجر أو غنيمة وان قبضته غفرت له ورحمته أو كما قال فكونوا عباد الله
إخوانا فى الدين وجاهدوا في الله فان الانهماك فى الدنيا ضلال مبين وقاتلوا
الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ولا تهنوا فى ابتغاء القوم
ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وأعدوا
لهم ما استطعتم من قوة ولا تتأخروا عن جهادهم وخذوهم بقوة وذلك
بانضمامكم مع محمد الطيب البصير وإعمال الرأي والمكيدة وما يجب للعدو

والتدمير واعتمدوا على الله العالم بما فى الضمير وأخلصوا النية فان خلوصها مطايا كم وحسنوا الظن في عالم سركم ونجواكم وكونوا يداً واحدة وشدوا بعضكم بعضا فانما الرجال بالاخوان والمعاضدة وتيقنوا انّ عفونا لكم عن الهجرة ورضانا عنكم مقرون بذلك ولا تأخذكم نخوة الجاهلية والتفاخر بالآباء فان الله عالم بما هنالك بل أفيقوا من سكرة الغفلات واندموا على الزمن الذي صرفتموه في البطالات فان الدنيا ذهبت والآجال اقتربت وطلب الآخرة أصفى لكم وانقى وما عند الله خير وأبقى واحرصوا على مافيه نجاحكم وفلاحكم واعلموا ان الجهاد فيه صلاحكم ورباحكم واياكم وسماع قول من يغركم ولا ينصحكم ويحسن لكم مافيه هلاك نفوسكم وفي مهاوى الهلاك يطرحكم وتيقنوا ان صحبتنا مبنية على الانكسار وصفاء السرائر من دنس الاغيار واطلاق النفوس من سجن حب الدنيا وطلب ما اعد الله للمجاهدين والمتقين من الرتب العليا فان كنتم صادقين فى جوابكم المحضر الينا بالصحبة والاتباع فحرضوا قبائلكم وعشيرتكم واحضروا بانفسكم تنالوا كمال المزية وحسن الارتفاع وكونوا أنتم ومحمد البصير في المعاونة على شعائر الدين يداً وساعد واحذروا الكبر الذي يصد عن الله ويباعد فى الحديث القدسى العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما غمسته فى ناري واشتاقوا لما أعد الله للمجاهدين حيث قال في كتابه العزيز « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتيهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » فاعتبروا يا أولي الابصار وانظروا بعين الحقيقة والاستبصار والسلام

« الثانى » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم (وبعد) فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى أحبابه عوض الكريم أحمد أبى سن والطيب محمد وحمد احمد أبي سن وعبد الله أحمد أبي سن وعبد الله أحمد أبى سن ومحمد احمد أبى سن وعمارة أحمد أبي سن وعبد القادر أحمد أبي سن وأبي عاقلة أحمد أبى سن والامين أحمد أبى سن وحسان احمد أبي سن ومحمد عوض الكريم وعلى عوض الكريم وعبد الله عوض الكريم وحمد عوض الكريم ويوسف أحمد أبى سن وأولاد محمد أبى سن وجميع أتباعهم وعائلتهم وخواصهم أحبابي قد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم «واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم» ومعلوم انكم تعلمون ان الله أنزل القرآن ليهتدى به وهو الذى هدي به نبيه صلى الله عليه وسلم وهو شفاء ورحمة للمتقين فامعنوا النظر فيما دل اليه وآمنوا بما جاء من عند الله بيقين فان المؤمنين قد وحدوا لله بما سمعوه فيه من آيات الانفس والآفاق فلما نظروا انه لايقدر على ذلك أحد سواه وعلموا ان ملكوت كل شيء بيده لم يخافوا الا من الله ولم يرجوا سواه فمن له نور بالتصديق بما عند الله آثره على كل شيء ولا سيما اذا سمع قوله تعالى« قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى »والاحوال السابقة معلومة وقد علمتم فوات مارغب فيه من متاع الدنيا من قبلكم فاذا صدقتم وعلمتم انى داع الي الله لمصالحكم التي لايعود عليكم سواها وكل ما آثرتموه من متاع الدنيا فانما يعود بالحسرة الطويلة عند الفوات كما حصل

لمن سبق فأفيقوا فانكم عقلاء وأهل قريحة فلا تضيعوا فيما قال الله فيه «يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» فاذا بلغكم جوابي هذا وكنتم مصدقين كما حسنا فيكم الظن بحسب مجاوبتكم وما أسررتموه من بعض الاحسان على الاهل بحسب حسن الظن وكل ذلك لا يخلص الانسان بل يخلصه صفاه وحسن تصديقه لما عند الله الذى يوجب له ايثار ماعند الله فان الذين كانوا جامدين على ماهم فيه من الجاه والمال احتجبوا عن الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كانوا ينتظرونه ويستفتحون به فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به خوفا من فوات المال والجاه. وخوف الخلق والطمع في المال فاخلصوا لله كما كتبتم الاتباع فانه لا يخلص عند الله الا الاتباع الخالي من النفاق الذي هو ايثار الآخرة على الدنيا واذا آثرتم الآخرة وعلمتم مالكية الله وانه لا اله الا الله وان الذى أخبرنا بخسة الدنيا ونفاسة الآخرة بمقاله وحاله محمد رسول الله صادق أمين فاخرجوا عن ملكية الترك واستعملوا شرع الله ولو متم فى ذلك فان الدار الآخرة والحياة حياتها ولا متاع خال عن طول الندم الا متاع الآخرة ولا والي في الدارين ولا حبيب غير مفارق الا الله فأنيبوا للآخرة وثقوا بالله واصبروا على بلاء الله الذى فيه لكم التصفية وتكثير الدرجات الدائمة ولا تقفوا مع الزائلات فيفوتكم بها خير الدوام ومع هذا فشمروا على احياء شرع الله في أنفسكم ومن معكم ولا تتبعوا الا طريق الرسول صلى الله عليه وسلم الي أن يأتيكم منا أمر أو نأتى بالبحر الابيض فتلحقوا بنا فيه واكتفوا بالله وأنيبوا اليه ولا تلتفتوا بعد هذا الى غير الله قال الله تعالى «وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم

لا تشعرون أن تقول نفس ياحسرتا على مافرّطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين »الآية وأيضا من المعلوم ان المنيب لما عندالله الذى عرف قدرة الله نخاف منه يمتثل أمر من ولاه الله للدلالة اليه والدعاية الى ماعنده فان لم يمتثل ويدخل فى التسليم فى جميع الامور حارب الله ورسوله فاذا وصلكم جوابي وكنتم مؤمنين مطيعين لله فكفوا عن البطاحين وان كان لكم عليهم تبعات فاصبروا حتى يحكم الله بينكم على يدنا فيوصل لكل ذى حق حقه والسلام ربيع الاول سنة ١٣٠١

غردون وابن البصير

ذكرنا ماكان من أمر ابن البصير ودعوته للمهدى فى الحلاوين وسائر بلاد الجزيرة وانه كان في قلة وقد سعت الحكومة فى القبض عليه فلم تفلح

ولما وصل غردون الي الخرطوم كتب الى ابن البصير كتابا يخبره فيه باعترافه بسلطة المهدي على السودان الغربي وان بلاد الجزيرة خارجة عن دائرة نفوذه وأن قيامه بدعوة المهدى فى تلك البلاد مخالف لهذه المعاهدة وانه اذا كان لابد من بقائه تحت سيادة المهدي فليغادر الجزيرة ويلحق به أو ليكن خاضعا لامر غردون ودفع الكتاب الى رسول أصله من الذين وقعوا في أسر الحكومة من العصاة

ولما وصل الكتاب الى ابن البصير جمع أهل مشورته وتلا عليهم الكتاب فقالوا بلسان واحد انه . ضرب من الشعوذه ونوع من الاسحار وانما نحن

انصار الدين وقد عصمنا الله من أن يؤثر فينا هذا السحر فكتب ابن البصير الى غردون كتاباً نتحاشى عن ايراده لما تضمنه من الشتم وبذاءة القول في حق غردون وجلالة الملكة فيكتوريا والتهديد حيث قال له انني قادم عليك ومتحفز لمناجزتك ايها الكافر ولما اطلع غردون على الكتاب مزقه لشدة تأثره مما تضمنه من الاهاجي السافلة وجاء كتاب ابن البصير ضغثا على ابالة حيث لم يبق عند غردون ذرة من الامل وامر بترميم الحصون وإصلاح ماتلف منها واخذ في إعداد معدات الدفاع والتأهب للطوارئ

ذكر خطاب المهدي لغردون

ذكرنا ماكتبه غردون للمهدي وما اهداه له من الملابس

ونقول الآن لما وصلت الهدية والكتاب للمهدي كتب الى غردون كتاباً ضمنه الاحتجاج عليه بعدم جواز ولايته على المسلمين ودعاه فيه الي الاسلام وعرض له بذكر خضوع دارفور له وانتشار نفوذه في جميع انحاء السودان الغربي وبعث له بصور الانذارات التي خاطب بها يوسف باشا الشلالى ومحمد سعيد باشا حاكم كوردفان والجنرال هيكس وقد تقدم لنا ايراد انذار يوسف باشا الشلالي فلا حاجة الى اعادته هنا

وعرض له بذكر سلاطين باشا وغيره من الذين دانوا بطاعته وذكر تاجرا يونانيا اسمه ديمترى سجاده اعتنق الاسلام وحسن اسلامه

وأرفق الكتاب بآخر شكر فيه غردون على الهدية التي اهداها له واعتذر عن قبولها بعدم حاجته الى مثلها لان ملابسه مما يلبسه الزهاد الذين يعرضون كل الاعراض عن متاع الدنيا وذكر انه مرسل بهدية الى غردون

من نوع ملابسه يسأله قبولها والتحلي بها اذا وفقه الله لاعتناق الاسلام وكتب على ظهر الغلاف بخط يده ان محمد سعيد المسلماني الذي كان اسمه جورجو اسلامبوليه اخبرني بأن السيد أفندي نعيم الاجزاي يعرف لغة اوربية فاسألك ان تقف على ماحواه الكتابان وليترجمهما هو لك والسيدافندي نعيم هذا كان صيدلي الحكومة بالخرطوم وأصله مصري ومحمد سعيد أوجورجو تاجر سوري وقال المهدي في كتابه الى غردون ان محمد سعيد باشامدير كردفان بعد ان مات جاء خبر بانه صارمن السعداء بسبب انه بايعه وجلس معه وهاهي صورة ماجاء في الكتابين وصورة انذار وصل الى هيكس قبل مقتله بايام

« الاول » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله محمد المهدي بن عبد الله الى عزيز بريطانيا والخديوية غردون باشا قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه وانك تزعم ارادة اصلاح المسلمين وفتح الطرق لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وحل المسيحية من النصاري والمسلمانيين وان تجعلني سلطانا على كوردفان فاقول والامر لله اني قد دعوت العباد الي صلاحهم وما يقربهم من ربهم وان يفرغوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم في آخرتهم وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا «بابا» بدعايته الى الحق وبان مهديتي من الله ورسوله ولست في ذلك بمتحيل ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا وانما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين واكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فاخذوا

الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله
ولا رسوله ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئاً وندموا
على قدر الذى تمتعوا به فايدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم الى الله
تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى الى العز الدائم الابدي فى دار النعيم
المقيم ولأعرفهم غرور من يريد لعاجلة ويظن انه ساع فى رضى الله ويكون
له نصيب في الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين ابنوا
على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً ومن ظن انه يخوض البحر
من غير بلل فهو مغرور فكذلك من ظن انه يجمع الدنيا ويريد عزها
وجاهها ويكون له في الآخرة شأن.فأنب الي الله الباقي واخضع لجلاله واطلب
عز الآخرة ولا تظن ان هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها وكيف
من يكون على خلاف طريق النبي صلى الله عليه وسلم يفتح باب زيارة قبره ولم يكن
النبي صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيارة الكلاب كما ورد ان الدنيا جيفة
وطلابها كلاب ولم يكن يرغب من عبد غير الله ونسي الله واعرض عن كلامه
وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شفيقا على المسلمين فبالاولى اشفق على
نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أحيي ما اندرس من ملل الانبياء
والمرسلين وأتى مصدقا لما بين يديه من الكتب فجميع الانبياء عليهم السلام
لو حضروه لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون ان يكونوا من أمته ومن حضر
بعثته ومن بعدهم لا يقبل منه دين غير دينه فطهر نفسك أولا بالدخول فى ملته
ثم أشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا تكون الشفيق ومن غير هذا فالك
من المحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود

والنصاري أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين» الى ان قال «انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون» وانما قد امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا الا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعد الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا حيث ان الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وأنبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى «ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيآتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو انهم أقاموا التورية والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» الآية فبعد هذا تتصل المحبة والمودة فيما بيننا وبينك وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الابدي والا حيث علمت ان حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون من كلام الله فاعلم ان حزب الله واصل اليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فادعيت ملك عباده وأرضه مع ان الارض لله يورثها عباده الصالحين وأما المسلمانيون والمسيحيون الذين دعوت الى اطلاقهم اليك فانا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفى دار الابد كما أريده لك ولكافة عباد الله فلا أبعدهم من جنتهم الي محنتهم فان الله قد أيدني رحمة للعباد لانقذهم من الهلاك الذى هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم انى

المهدى المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا في مال الدنيا ولا زخرفها وانما أنا عبدالله دال على الله والي ما عنده فمن كان سعيداً اجابني واتبعني ومن كان شقيا أعرض عن دلالتى فازاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الابد وقد أيدني الله تعالى بالانبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وجميع الاولياء والصالحين لاحياء دينه وقد بشرني النبي صلي الله عليه وسلم ان جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك اخوانك فافهم وسلم تسلم. وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلي حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك الى الصواب واعلم انه كما كتبنا لك أنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فهاهي مرسولة اليك مع مانرغبه من اللبس لنفسنا ولاصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقى الابدى ليستحقوا بذلك نعيم الابد وملك الدوام كما درج على ذلك الانبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسي عليه السلام وحواريه وقد قال كبيت لكم الدنيا فلا تنعشوها بعدي فتعلم بذلك ان من خالفه من الاحبار والرهبان وجميع من يدعي اتباعه ليسوا محقين وانما غرتهم الحياة الفانية والامتعة الآيلة الى ان تكون جيفة وعذرة ثم عدما محضا فتكون حسرة وندما عند فراقها لما فوته من اكتساب خيرات الدوام ثم ان مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلبا لما عند الله وأقول فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتيكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم

منها اذلة وهم صاغرون» واعلم انك اذا أتيتنا مسلما نربيك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك ان رأينا فيك خيراً وصلاحا للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير (دارا) سابقا فانه لما أتانا ورأى الحق وفرح بلقائنا غاية وندم على مافات مما ضيعه من عمره فى الفاني واطمأن قلبه بالله واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين بالتسليم فاكرمناه والي الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وكذلك السيد جمعه الذى كان مدير الفاشر الآن أرسلنا الي محمد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والارشاد وبلغنا حسن اسلام الدمترى سناده وصدق اتباعه لنا وانابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد اذعنوا لله كباقي سلاطين دارفور وسلموا جميعا أمرهم الينا فى حب الله ورسوله لحسن تسليمهم واتباعهم لنا وكذلك الملك آدم مك جبال تقلى الآن أتي مهاجراً لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد اكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جرا فكل سعيد لابد ان يتصل بنا من جميع أقطار الارض ومن أبي لا بد أن يخذله الله ويعذبه في الآخرة كما أشار الي ذلك النبي صلي الله عليه وسلم مراراً وليكن معلوما عندك يا حضرة الباشا ان جميع الذين قتلوا على يدى قد انذرتهم أولا انذارا بليغا وهاهو واصل اليك انذار ولد الشلال بعد مخاطبته لى وانذار هكس باجوبة عديدة للعامة وجواب مخصوص له ولاكابر جيشه وقد أرسلنا الي باشة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع فى يدنا اكرمناه واعطيناه جبة جميلة ليتدرج الي الصدق مع الله ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقتدي بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولا زال

يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته نيته فمات ومع ذلك لاجل مبايعته ومجالسته معي اياما قد اتانا خبر بعد موته أنه عفي عنه في الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد في الآخرة فهو المقصود ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها بل انما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونيتي بالعباد سعادتهم في آخرتهم الابدية وازالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الاكابر وأهل الدولة بالقول والفعل ليعرفوا ما عند الله فيرغبوا فيه ويتركوا الخسيس الفاني وهكذا جميع من وقع في قبضتنا من الاكابر من اهل الدولة والحكام ما عملنا معه الا الخير والاكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن في خير كثير وازدياد شرف والسلام — جماد أول سنة ١٣٠١

وبعد هذا البيان فان اهتديت وسلمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت باجرك وبأجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك اثمك ومثل آثام جميع من اتبعك وان كان لك حسن نور في العقل تعلم اني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تتهمني فيما أسوق به الى الله والدار الآخرة ولا تسمع عليّ قول الظالمين الحساد الذين يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الاّ أن يتم نوره وقد قال صلى الله عليه وسلم من شك في نصرة المهدي فليقرأ قوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقوله تعالى كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادي هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدانا الله والعباد الى الصواب آمين

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم * والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

(وبعد) فمن عبد ربه الفقير الي الله محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا باطلاعك على ماتدوّن بالجواب اليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبري الذين لايبالون بما فات من المشتهيات طلبا لعالي الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فان أنبت الى الله وطلبت ماعنده فلايصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وهاهو الرسول الذي أتى منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام

«صورة ما كتبه المهدى على ظهر المظروف الذي أرسل الي غردون»

سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف وقد أبلغني محمد سعيد المسلمانى الذى يسمي جورجو اسلامبوليه أن رجلا يسمي السيد افندي نعيم الاجزائي له معرفة بلغتكم وبالخط العربي وما دام انه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على مافي هذا الظرف جميعه حرفياً على يد المذكور أو من هو مثله وقد سألتك السؤال المذكور لما ذكرته والسلام اه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم (وبعد) فمن الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل فانه لا يخفى على ذي عقل ان الامر بيد الله ولا يشركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لاحد الا من عصمه الله تعالي فاذا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد فلاتغتروا باسلحتكم ولا بجموعكم التى تريدون ان تقاتلوا بها جنود الله فانه لاقوة لشيء دون الله وان قلتم إن مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان التكذيب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف

المخلوق ويستعجز قدرة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم فان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا الهنا ومولانا إن المهدي قتلنا من غير انذار فاقول يارب انذرتهم فلم يسمعوا وحضر على ذلك شاهدا سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم الامام المهدي انذركم فلم تسمعوا له وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدي بعد اذجاءكم بل كنتم مجرمين فان كان لكم نور تؤمنوا بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقوا بمهديتنا وتخرجوا الينا مسلمين ومن أسلم يسلم وان ابيتم الا الجحود والاغترار بالمدافع والبارود فانتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم ماسبقكم من الجنود والسلام — ١٩ ذي الحجه سنة ١٣٠٠

وقدم على غردون رسولان مع رسوله يحملان الكتب والهدية التى هى جبة مرقعة وسراويل وعمامة كلها من نوع خرقة اسمها (الدمور) تصنع فى السودان وهى أردأ من النوع الذي يعمل في مصر أشرعة للسفن الشراعية

ولما وصل الرسولان الي الخرطوم شهرا سيفيهما فأمرهما ضابط باب الحصن باغمادهما فلم يطيعاه فامر غردون بالمحافظة عليهما حتى يصلا السراي وهاج أهل الخرطوم عليهم وهمّ الصبيان والرعاع برجمهما بالحجارة فمنعوا ولما دخلا على غردون قالا له (السلام على من اتبع الهدى) وسلماه الكتب والهدية ولما نظر الهدية غضب ورفسها برجله وقال (غوديم) ثم اطلع على الكتب وابقى الرسولين بطرف حاجب السراي ريثما حرر للمهدى كتابا قال فيه انني أدعوك الى السلم وأنت تدعونى الى الحرب وادعوك الى حقن الدماء

وأنت لا تميل الا الي سفكها فاقول لك الآن لا بد من قهرك وكبح جماح طغيانك ومهما يكن عندك من الاتباع فلا بد ان ترضخ صاغراً أو تهلك حيال قوتي الحكومة الخديوية والدولة الانكليزية وعاد الرسولان الي المهدي واشتغل غردون بمخابرة مصر ولوندره بالتلغرافات التي نذكرهافيما يأتى

مامورية غردون الحقيقية

عقدت هذا الباب بيانا شافيا لما سردته قبل من مأمورية غردون التي كانت ترمي اليها حكومة انكلترا وقد حسر اللثام عنها غردون نفسه فيما كتب من مذكراته المشهورة بتاريخ ٢٢ يناير وهي بنصها

أرى ان حكومة جلالة الملكة قد عقدت النية على ان لا تأخذ على عهدتها المهمة الكثيرة الصعوبة التي غايتها وضع حكومة منتظمة لامم السودان وانها بدلا من ذلك قد صممت ان ترد الي هذه الامم حريتها وان لا تسمح للحكومة المصرية بالتداخل في شؤون تلك الامم اه

وعليه فان مأمورية غردون منحصرة فى هاته السطور بمعنى ان حكومة جلالة الملكة كان غرضها ان يمهد غردون السبيل لوقوع تلك البلاد في مخالب الفوضى وبعبارة أخرى ان يقضي على نفوذ مصر فى تلك الارجاء

هذه كانت مقاصد انكلترا أما الخديوى توفيق باشا فان مقاصده الحقيقية اعادة الامن والسلام الى هاتيك الاقطار ثم اجبر على تحوير مقاصده بجملها قاصرة على انقاذ المخلصين من رعاياه من الخطر المحدق بهم واخلاء السودان اخلاءً تاماً عن كل المصريين والذين استوطنوه من العناصر المتمدنة واقامة حكومة وطنية بها

ويظهر جلياً ان الخديوي كان مرتابا فى نجاح مأمورية غردون بالطريقة السلمية التي كان متمسكا باذيالها ولذلك صرح للبارون دى مالورتى بالتصريحات الآتية وقد نشرها البارون فى الصحف الانكليزية الكبيرة وهى كما يأتى

لم يكن في استطاعتى ان أبدي دليلا على حسن مقاصدى باحسن من تعيين غردون باشا حكمداراً عاما للسودان ومنحه كل السلطة فى عمل مايراه ضروريا لاصابة الغرض الذى ترمى اليه حكومتى وحكومة جلالة الملكة . حتي انى قلدته نفس السلطة المخولة لي وتركت له الحكم على الحالة الراهنة ولا ريب في ان ما يستطيع اتيانه من الاعمال أحسن مايكون . وقد قبلت سلفاً ما يمكن ان يقترحه من الوسائل الي ذلك اذ ما يراه حسناً من التصرفات يكون الزامياً بالنسبة الينا ثم اني بعد ان جعلت عظيم ثقتي بهذه الكيفية في هذا الباشا لم اشترط عليه الا شرطا واحداً وهو ان يبذل عنايته فيما فيه طمأنينة العناصر المتمدنة من أوروبيين ومصريين وها قد أصبح الآن الرئيس المفوض يرافقه حسن آمالي فى هذه المأمورية التي هى من الخطارة والاهمية بمكان فان قلبي يذوب عند ما أفكر فى الالوف المألفة من رعاياى المخلصين الذين تكفى غلطة منه لهلاكهم . وانى لا أشك فى انه سيبذل كل مافى وسعه لحقن دماء اكثرهم على الاقل . فان نجح بعون الله في اخلاء الخرطوم وأهم موانى السودان الشرقي فله الشكر مدى الدهر على رعيتى التى ترتعد فرائصها من توقع ما يخشى حصوله بعد حين . أما قولى لك انه ينجح فى مأموريته فهو من قبيل المجازفة منى فى الكلام كثيرا لأن امامه قوات اكثر منه عدداً وأهوالاً غير انا نرجو الخير وأما هو فيمكنه ان يعتمد على أصدق مساعدة وأسرع معونه مني انا وحكومتى بقدر ما تصل اليه يد الامكان اه

ويظهر من هذا التصريح ما قلناه من ان الخديو أجبر على قبول مأمورية غردون على علاتها ولما رآها ترمي الى غرض إيقاع السودان في مهاوي الفوضى اقتنع بامنية واحدة هي انقاذ رعاياه المخلصين من الشرور التى كان متوقعاً حصولها من نتيجة مأمورية غردون الذى أرسل ليموت حتى بموته يتم غرض دولته

على ان غردون لم يكن جاهلا بكنه تلك النية ولهذا كان يرسل التلغرافات تترى ويدون المذكرات لا ليقنع قومه بالعدول عن ذلك العزم بل ليجعل التاريخ حكما بينه وبين قومه لاعتقاده ان تلغرافاته ومذكراته لا بد ان تنشر على الجمهور ويطلع عليها العالم أجمع وهم لا بد ان يحكموا له لا عليه

وقد تحققت أمنيته حيث نشرت الحكومة البريطانية تلك المذكرات والتلغرافات في كتبها الزرقاء وكان لها من الاهمية فوق ما كان يتمناه صاحبها وقد دارت مباحث كثيرة بشأنها في اندية انكلترا وبرلمانها ومجلس لورداتها وأهم هاته التصريحات مافاه به مستر غلادستون في مجلس العموم حيث قال «ان حكومة جلالة الملكة تأخذ على عاتقها مسؤلية المأمورية التى القيت مقاليدها الي غردون أدبياً وسياسياً وانها ستعمل كل ما في وسعها للوصول الى نتيجة مرضية اهـ

ثم فاه غلادستون أيضا بتصريح اوضح من هذا حيث قال «ان مهمة غردون هى اخلاء السودان وانقاذ موظفي الحكومة ثم قال ان ثقتنا به عظيمة ولسنا مبالغين فى شيء من رواياتنا وانا عقدنا النية على ان لا نفاجأه بعمل دون استشارته وأخذ آرائه»

وغير هذا وذاك كثير من التصريحات التي لا مشاحة في انها كانت من

معميات السياسة حيث يري من ظاهرها ان غردون لو أشار باصبعه لملأت انكلترا البر والبحر رجالا وسفنا وانقذته من كل خطر يتهدده وقد اكدت الحوادث خلاف هذه الاقاويل فان الانكليز صموا آذانهم دون نجدته حتي قضي عليه ولم يمدوا له يد المساعدة وذلك أدل دليل على ان ما عقدوا نيتهم عليه لم يكن غير ما أصاب غردون وما تم من إعطاء أمم السودان حريتهم ومنع الحكومة الخديوية منعا باتا من التداخل فى شؤونهم وسنورد بعد هذا كثيراً من مذكرات غردون وتلغرافاته وهى تؤيد ماقلناه وتثبت كل ما أوردناه والله الهادى الى سواء السبيل

ذكر تلغرافات غوردون

لما يئس غردون من نجاح مأموريته السلمية وانقطع حبل رجائه بما ورد عليه من كتب المهدى وداعيته محمد بن البصير اجتاز النيل الازرق الى الشرق عند قصر راسخ بك وأرسل احدى عشرة رسالة برقية الى السير بارنج يخبره فيها بما وصلت اليه حالته وان العدو على وشك الزحف عليه للاحاطة بالمدينة وان الاسلاك البرقية ستقطع قبل أن يتمكن من مخابرته مرة أخري وأرسل برسائل اخرى الى الخديو المرحوم توفيق والى نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية وقتئذ فوردت عليه من السير بارنج رسالة جاء فيها انه لم يفهم ماتضمنته الاحدى عشرة رسالة وان الاولى به أن يخبره بقصده بعد طول التفكر مع ان ماجاء في الاحدي عشرة رسالة يتضمن شيأ واحداً هو بالايجاز وجوب ارسال النجدة لاسعافه وحفظ خط الرجوع من دنقله الى بربر

ولعل جناب السير افان بارنج كان يقصد من قوله لم أفهم انك لاتجهل

ان مقاصد حكومة جلالة الملكة غير ماتطلبه ولم أفهم منك هذه الطلبات حيث انك لاتجهل انها لاتحول عما عقدت نيتها على انفاذه وفي تلغرافات غردون ان الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وانه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول اخباره الى القاهرة فكانت اشارة السير بارنج بمخابرته بعد التفكر أمرا فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا

وأرسل غردون تلغرافا فى أول مارس سنة ١٨٨٤ الي السر بارنج جاء فيه مايأتى

لم أزل أعتقد كمال الاعتقاد ان اخلاء السودان ممكن لكن أقول لك انه من المستحيل اجلاء المستخدمين المصريين عن الخرطوم اذا لم تساعدنى الحكومة فى الطريق الذي أوضحته لها اهـ

فأجابه السير بارنج بتاريخ ٢ مارس بالرسالة الآتية

قد وصلتنى الاحدى عشرة رسالة التلغرافية المرسلة الى في الاربعة أيام الاخيرة بخصوص مسائل السياسة العامة واني شديد الرغبة فى مساعدتك بكل طريقة لكني لم أتمكن من معرفة ماترغبه للآن وأرى ان أحسن طريقة هى أن تلخص المسألة جيداً وتخبرنى تلغرافيا بما تستصوبه اهـ

فأجابه غردون بالرسالة الآتية

يجب على الحكومة مساعدتي وان اجابة مطالبي ضربة لازب

هذه خلاصة ماتبودل بين غردون والسير بارنج من التلغرافات وقد كان هذا يعرضها كلها على الحكومة الانكليزية ويشفعها بعبارات تعرقلها. منها تلغراف السير بارنج الى اللورد غرانفيل بتاريخ ٤ مارس حيث قال مايأتي

ان الجنرال غردون والسير ستيوارت يلحان بوجوب فتح الطريق بين سواكن وبربر لنجاح مأموريتهما الحاضرة

أما أنا فلا يمكنني تعضيد ماجاء بتلغراف ستيوارت من ارسال فرقة من الخيالة الانكليزية أو الهندية الى سواكن

وأرسل السير بارنج الى اللورد غرانفيل الرسالة الآتية أيضاً

أتشرف بأن أخبر سعادتكم ان الجنرال غردون كتب الى تلغرافياً باننا لو أرسلنا مائة جندي الى أصوان ووادي حلفا يأمن من كل خطر ويكون في حالة اطمئنان كالسواح المسافرين فى النيل وينتج منها تحويل صغير أما أنا فلا أريد مطلقاً أن أخاطر بحياة فرقة صغيرة مؤلفة من مائة جندي فقط اه

وقد كان غردون لسوء حظه يبعث بتلغرافاته الى السيربارنج وقد رأيت كيف انه كان ينصب نفسه لماكسته والنصح للحكومة البريطانية بعدم الالتفات الي شيء من مطالبه حيال تلك التصريحات التى تقدم لنا ايرادها عن الجناب الخديوي وساسة الانكليز الذين تعهدوا بمساعدته ومعاونته في سبيل نجاح مأموريته حتي أن نجاته كانت متوقفة على أرسال مائة جندي الى أصوان وحلفا فلم ير السيربارنج لزوما للمخاطرة بهذه الكوكبة الصغيرة فهل بعد ذلك كله من حاجة الى برهان بان غردون أرسل ليموت ويترك السودان الى الفوضي. ويري القاري فيما أوردناه من تلغرافات السر بارنج الى غردون بتاريخ ٢ مارس عبارته التي يقول فيها انني شديد الرغبة فى مساعدتك بكل طريقة ثم ماأوردناه بعدها من تلغرافاته الي دوائر انكلترا وعرقلته لكل مشروع من شانه ان يساعد غوردون على النجاح حتى انه نصح الحكومة

الانكليزية بعدم ارسال مائة فارس الى أصوان ووادي حلفا لان أرسالهم يكون سببا فى ابعاد الخطر عن غردون بعض الابعاد

على أن ارسال المائة فارس الي حلفا كان يقصد به غردون ان أخبارهم تصل الي المهدي بغلو كثير حيث يظن ان جنودا قادمون لامداد غردون فلا يجسر على التقدم عليه ومناجزته

ولو عملت الحكومة الانكليزية براي غردون وأرسلت المائة فارس لكانت النتيجة حسنة ولم تسقط بربر في أيدي المهديين حيث بسقوطها أحدق الخطر بغردون وانقطع أمله من وصول نجدة عن طريق حلفا أو سواكن لان بربر نقطة التقاء الطريقين

وكان قصد غوردن بكل مخابراته مع السير بارنج أن يكون التاريخ حكما بينه وبين انكلترا كما قدمنا ولذا بعث بتلغرافات قبل وصوله الى الخرطوم فحواها ان الاضطرابات اقل مما كان يظن وانه يرى ان لامندوحة له من تمحيص حكومة جلالة الملكة النصح بتسكين الاضطراب فى السودان الشرقي وتقوية خطوط الاتصال بين بربر وشواطئ البحر الاحمر من جهة وبين حدود مصر من جهة أخرى وحاول اقناع السر بارنج بان السودان مفتقر كل الافتقار الي اشراف الحكومة الخديوية عليه بحقوق السيادة وسأله ابدال الفرمان الذى كان يحمله بآخر يحتم على السودان وجوب الخضوع الى مصر فذهبت مساعيه كلها ادراج الرياح وأصر السير بانج على انفاذ الخطة التي توخاها أولا ولم يلتفت الى شيء من نصائح غردون الذي كان يرى ان وقوع السودان كله في قبضته يكون خطراً على مصر وان احتلال انكلترا لوادى النيل يحتم عليها العمل عاجلا لابعاد كل الاخطار عن البلاد التى احتلوها

ليوطدوا دعائم الامن والراحة في ارجائها

وجاء ضمن نصائحه ان حكومة جلالة الملكة ستضطر يوماً لمناجزة المهدى وكبح جماح طغيانه وسوف تتكبد من الضحايا ما يبلغ عشرة أضعاف ماتتكبده الآن لو عملت بمشورته وقبلت نصيحته فلم يلتفت السير بارنج الى شيء من ذلك كله بل أصر على انفاذ مارسمه ساسة قومه غير مكترث بشيء من الضحايا التي يتكبدها سكان السودان عموما وسكان الخرطوم خصوصا

والحاصل ان تلغرافات غردون لم تعد بفائدة ولو صغيرة واصبح لا مناص له من الوقوف امام الصعوبات التي كان يراها تدنو منه حتى وقع القضاء وتغلب المهدى على السودان والامر لمن له الامر

ولما كانت الصور الرسمية التي بايدينا قد لعبت بها أيدى الضياع ايام وقوعنا فى أسر المهديين اضطررنا لنقل هذه التلغرافات من كتاب مصر فى عهد الاحتلال الانكليزي لمؤلفه هنس رزنر الالماني مترجما وكلها طبق الحقيقة

اول حصار الخرطوم

ذكرنا ما كان من أمر الشيخ العبيد وما ورد عليه من كتب المهدي وقطعه الاسلاك التلغرافية ثم سماحه باعادة اصلاحها

وفى غضون اشتغال غردون بمخابرة السر بارنج ارسل اليه الشيخ العبيد كتاباً يدعوه فيه الى التسليم في هذا اليوم وانه أمر بقطع اسلاك التلغراف فى الغد فكتب اليه غردون يلاطفه ويسأله ان لا يكون مع المهدي لمكانته من الصلاح والشهرة فرد عليه اسوأ رد وفى يوم ١٦ مارس زحف ابراهيم والعباس ابنا الشيخ العبيد ومعهما سبعون الف مقاتل على الضفة الشرقية

من الخرطوم وقطعوا الاسلاك قبيل الظهر وتقدموا الى ضفة النيل واطلقوا النيران على المدينة وكان جل مقذوفاتهم يسقط علي سراي غردون لان موقفهم كان تجاهها

واجتمع فى سراي غردون من سكان المدينة نحو الفى نسمة يظهرون شديد اسفهم وكان هو واقفا كواحد منهم الا انه كان مصوبا نظارته المعظمة الي مكان اجتماع العصاة وكان اكثر الناس مثله وسمع البكاء والولولة من دور المدينة كلها لان السكان كلهم مدركون خطارة الحالة وشاعرون بما يحدق بهم من الاهوال والمصائب وغردون كان فى الباطن مثلهم لا يقل عنهم الا انه كان يظهر عدم الاكتراث ويبدى من الضعف قوة ومن اليأس رجاء حتي كان ظهوره بهذه الصفات مما ساعد كثيرا علي بث روح الشجاعة فى قلوب السكان

واقعة الحلفايه واصابة المؤلف برصاصة

والاحسان عليه برتبة اللواء

فى اليوم الذى ظهر فيه العصاة وقطعوا الاسلاك البرقية عهد الىّ غردون ترتيب الحامية فى الضفة الشرقية حول قصر راسخ بك وتفقد الخندق المحيط بذلك القصر فاجتزت النهر وعدت بعد ان رتبت الحامية فالفيت البواخر على أهبة السفر وبها نحو ثلاثة آلاف جندى بين نظاميين وغير نظاميين فاستدعاني غردون ودفع الي أمراً بقيادة هاته الجنود وأمرني بمباغتة العصاة الذين عسكروا فى الحلفاية على بعد أربعة أميال من قصر راسخ بك فابحرت على الباخرتين ولدي وصولنا الى الحلفاية ألفيت العدو قد تحصن بها وراء متاريس وشاد نحو ثلاث طواب فأخذ مني العجب مأخذاً حيث لم يكن قد

مضى عليه اكثر من بضع ساعات منذ حلوله فى هذه الجهة وكانت متاريسهم وحصونهم بشكل نصف دائرة فرجتها الى النهر وعرضها الى الفلاة

وبعد ان ألقت الباخرتان مراسيهما شكلت قلعة زحفت بها على ميسرة العدو الذى قابلنا بثبات غريب وصوبنا قنابلنا الى الثلاثة طواب واجتحنا المتاريس من جهة الميسرة وبعد ساعتين ثبت فيهما الجنود ثباتا غريباً استولينا على المتاريس والطوابى وطردنا منها العدو وتقدمت ميمنتنا واحتلت الاكواخ التي كان النساء والاطفال فيها وساقتهم أسرى وقبضنا على عدد كبير من الرجال أسرى كذلك

وكانت ميمنة العدو باقية على المقاومة فتقدمت نحوها بميسرة جنودي فتمكنت فى برهة يسيرة من الزمن من طردهم واحتلال موقعهم فتأثرتهم الجنود الذين اضطررت لارغامهم على العودة الى النظام وعدم تأثر العدو لان الظلام بدأ بارخاء سدوله علينا وبينما أنا على هذه الحالة أصابتنى رصاصة في نخذي الايمن اخترقت اللحم ونفذت الى العظم فاحتملني الجند وعادوا بى البواخر واستولت عليهم دهشة شديدة عادوا بسببها الى البواخر بدون انتظام ولو لم يكن العدو قد لجأ الي الفرار لكانت العاقبة سيئة ولم يفقد من الجنود غير اثنين وواحد من قواد الباشبوزق

ولما عدت الي المدينة استقبلنى غردون ملهوفا ولما رآنى ملقى على الفراش والدماء تسيل من نخذى تأثر الي درجة كاد يفقد معها عقله وأصدر في الحال أمره باحتمالى الي دارى وأمر طبيبه الخاص بالاشتراك مع أطباء الحامية وشدد عليهم فى وجوب الاعتناء بمعالجتي وخاطبنى قائلا قد أنعمت عليك برتبة اللواء وسلمنى اعلاناً بذلك

وظللت ملازم الفراش نحو ثلاثة أشهر كان يزورني خلالها كل يوم وقد رجوته مراراً عديدة ان يقلل من زيارتي حرصاً على عدم ضياع أوقاته في غير الاهتمام بشؤون الدفاع عن المدينة فلم يفعل بل ظل على عادته حتي من الله علي بالشفاء وأصدر الاطباء قراراً بان الاصابة كانت خطرة جداً وكان يخشى على حياتي منها وأن مانشأ عنها من العاهة يستحيل زواله واعادتي الي الحالة الاولى

واقعة القبة

القبه قرية على ضفة النيل الشرقية بينها وبين الخرطوم النيل وموقعها بازاء المدينة وسكانها سود وبها ضريح قديم لشيخ اسمه (خوجلي) يزعم أولئك السكان انهم من نسله وهي مرتفعة عن البحر وهواؤها جيد يقصدها أهل الخرطوم للنزهة والرياضة

ولما هزمنا العدو في الحلفاية تراجع في ليلته وتجمع في هذه القرية واتخذ جدران المنازل متاريس واخذ يطلق النيران على المدينة حتي تعذر على السكان الاستقاء من النهر فوضع غردون تحت سرايه مدفعين من طرز كروب واخذ يطلق واحدا بنفسه والمستر باور قنصل انكلترا في الخرطوم يطلق الثاني والرصاص يهطل عليهما كالمطر وهما في غاية الثبات وقبيل الظهر امر بتشكيل قوة من الف جندي تكون محمية بالقنابل تفاجيء مكامن العدو لتطرده فسارت القوة براً من حصن قصر راسخ بك يقودها ضابط عظيم فامسك العدو عن إطلاق النيران حتي أشرفت على متاريسه فهاجمها فرسانه فاطلقت النيران عليهم حتي ولوا الادبار ودخل ثلاثة فرسان المربع فاوقعوا الفشل في الجنود وانتثر عقد نظامهم وولوا الادبار الى الحصن وكان غردون ينظر ذلك بعينيه

فأظهر الاستياء للقائد وأمره باستئناف الهجوم في الظهر حيث تمكن من دحر فرسان العدو الذين وثبوا عليه ثانية ودخلت الحامية القرية وأجلت عنها العدو وخرج كثير من سكان الخرطوم ولحقوا بالحامية ونهبوا القرية وأضرموا النار في المساكن ثم عادت الحامية الى حصن راسخ بك عند غروب الشمس

وبذلك عاد بعض الامن الى ضفة النهر وأمسي السكان قادرين على الاستقاء منه الا أنهم كانوا يعاودون الكرة ويطلقون النيران على المدينة فعقد غردون مجلسا من القواد وموظفى الحكومة وبعد المداولة أقر على انفاذ قوة كبيرة تسير من قصر راسخ بك برا الى الحلفاية تهاجم العدو وتطرده من معسكره

وكان غردون يظن ان هذه الحركة ستكون نتيجتها الفوز كما حصل للقوة التي كنت قائدها فخاب أمله حيث خان اثنان من القواد وذبح نحو ثلاثة آلاف نفس من الحامية كما تراه مفصلا فيما يأتى

ترجمة السعيد حسين وحسن ابراهيم

السعيد حسين الجيعابى نخاس كان مع ابن الزبير وقد ذكرنا ان غردون ولاه على احدى المقاطعات بدارفور هو والنور عنقره لما اعتزلا ابن الزبير وهو من قبيلة حقيرة اسمها (الجميعاب) تسكن على بعد خمسة عشر ميلا من شمال الحلفاية وعدد نفوس هاته القبيلة لا يتجاوز الخمسمائة نسمة وأرضها قاحلة مكسوة بالحجارة ولا ماشية عندها وقوام معيشتهم على الاعمال الدنيئة كأعمال الفعلة فى الابنية وغيرها وكثير منهم لصوص وقطاع طرق كما أنهم لا يأنفون الكسب ببذل العرض وخلع برقع الصون والعفاف كالذين

أشار اليهم سلاطين باشا فى كتابه المعلوم

ولما كانت النخاسة والاعمال التى يقوم بها محترفوها لاتختلف عن مهنة اللصوصية انتظم من هذه القبيلة أفراد فى سلك النخاسين كان من بينهم السعيد حسين هذا حتى صار من أمره ان غردون لما استماله ولاه على احدى المقاطعات الواقعة بين دارفور وبحر الغزال ثم خرج على الحكومة حتى جرد عليه حاكم دارفور حملة أرجعته الى الطاعة قسرا وجاءت به الى الخرطوم

ولدى عودة غردون أنعم عليه برتبة الميرميران الرفيعة مع لقب باشا وعينه قومندانا على جنود الباشبوزق وجعل حسن ابراهيم المترجم الثانى وكيلا له حتي كان من أمرهما مانورده بعد

وأما حسن ابراهيم فانه ابن عم يوسف باشا الشلالي وكان نخاسا أيضاً وترجمته لاتخالف ماأوردناه فى ترجمة ابن عمه وقد أنعم عليه غردون برتبة الميرميران كالسعيد حسين وعينه وكيلا لقمندانية جنود الباشبوزق

واقعة الحلفاية الثانية

لما عقد غردون النية على انفاذ حملة أخرى الى الحلفاية لتطرد الدراويش منها عهد بقيادتها الى السعيد حسين الجميعابى وحسن ابراهيم الشلالي وكان عدد جنودها ثلاثة آلاف من الباشبوزق وألفا من الجنود النظاميين ومعها مدفعان من الطراز الجبلى وساروخان حربيان وزحفت الحملة فى غداة اليوم الرابع من بداية حصار الخرطوم

ولما التقي الجمعان لم يقذف الجنود رصاصة واحدة حتي انحاز القائد السعيد حسين ووكيله حسن ابراهيم الى الاعداء وجردا سيفيهما وقالا

الله أكبر على الكفار ووضعا السيف فى رقاب الجنود الذين اختل نظامهم وذبح العدو منهم أكثر من ثلاثة آلاف وغردون واقف على سطح سرايه يرى هذا المنظر الفظيع ويضرب الارض برجليه ويعض أنامله ثم اعترته نوبة شديدة فقد معها عقله وحاول أن يلقى نفسه من سطح السراي فأمسكه المستر باور قنصل انكلترا

ووقف عند المدفعين والساروخين نخاس اسمه مولا بك ودافع حتى قتله العدو وبلغ عدد الذين نجوا من غير ان يصيبهم سوء نحو خمسمائة نفس

ولما وضعت الحرب أوزارها بقى السعيد حسين وحسن ابراهيم مع الدراويش وقدمت الاطعمة فاكلا مع الامراء وجري الحديث بينهم فقال لهما أحد الامراء أرى انكما قد أديتما واجبكما وأخشي عليكما شراً ان عدتما الى المدينة فقالا خفض روعك فانه لاباس من عودتنا وانا لا نقنع بما فعلناه بل لا بد من احضار رأس غردون لنأخذ بثار الذين قتلهم من اخواننا النخاسين فى بحر الغزال ودارفور ثم عادا الى المدينة بالليل فسألهما غردون عما رآهما يفعلانه فقالا ان الجنود اظهروا جبناً وانا فعلنا ذلك لنذكرهم على الثبات فاغتاظ من هذا الكلام وأمر بالقبض عليهما وسجنهما فى القشلاق وألف مجلسا عسكريا لمباشرة التحقيق فظهرت ادانتهما فحكم عليهما بالاعدام وصدق عليه غردون ولما أخرجا الى ميدان القتل هاج الجنود وهجموا عليهما وضربوهما بالمعاول حتى ماتا وعجز القواد عن كبح جماح الجنود حتى ينفذ حكم الاعدام بالطريقة القانونية

ولحق غردون تأثر سيء من هذه الحادثة حيث أصيب بمرض كاد يودي بحياته ومع اشتداد وطأة المرض عليه كان لا يمد الى الراحة والنوم على

الفراش الا ببعض سويعات من النهار اما الليل فانه كان يقضيه ساهرا على الحصون يتلقى أخبارها كل لحظة ويأمر بزيادة التيقظ

على ان حركة العدو وان كانت في الشرق والمدينة مأمونة من جهة الخندق المحيط بها فقط الا ان أهالي الضواحى الذين ذكرنا انقيادهم الي عبد القادر أم مريوم هجروا قراهم وأوغلوا في الفلوات وامتنعوا عن الدخول في المدينة وتقديم الاغذية لان ابن البصير والشيخ العبيد كتبا اليهم بان كل من دخل المدينة كافر محاد لله ورسوله وماله وأولاده غنيمة للمسلمين

وقد هجر المدينة نحو ثلاثين الف نسمة من السكان السودانيين ولحقوا بدعاة المهدى فامر غردون بهدم منازلهم وجمع أخشابها لوقود الوابورات وسكان المدينة ولم يبق في المدينة غير المصريين وسيأتى ان عددهم يقرب من مائتى الف نسمة عدا الذين هاجروا من المدينة الى القطر المصري

ذكر حصار الفكي المصطفي الخرطوم

﴿ من جهة الضفة الغربية ﴾

الفكي المصطفي بن الفكى الامين بن ام حقين كان أبوه الفكى الامين معتقداً وكان يسكن جزيرة فى النيل شمال أم درمان على مسيرة مرحلة واحدة وتوفى بها وله ضريح في الشاطئ الغربى

وكان الفكي المصطفى مشهوراً بالسكينة والابتعاد عما لا يعنى منقطعا لحراثة أرضه والقاء دروسه وارشاد مريديه فارسل له المهدى كتابا معنوناً بعبارة مبهمه هكذا (الي العقلاء الكرام) مع رسول زوده بوصايا شفاهية حيث قال له ادفع له الكتاب وقل له بعد اطلاعه عليه اذا لم تكن ممن فكن

علينا وانه لا نجاة لك بغير أمرين إما ان تجمع اليك قبائل الضفة الغربية من الجوعية والجمعياب والسروراب والفتيحاب وتحاصر الخرطوم وإما ان تدخل مع غردون فى المدينة وتكون معه علينا

ولما اطلع على الكتاب أرسل يستصرخ هاته القبائل فنسلوا اليه وبايعوه على طاعة المهدي وخلع نير الحكومة فزحف بهم على أم درمان وعسكر ازاء نقطتها

وكان الغالب عليه ملازمة السكون فكانت الحامية في راحة حيث كان لايها جمها الاّ نادرا ولا يناوشها الا مناوشات خفيفة وهاهى صورة الخطاب نقلا عن كتاب المنشوات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى العقلاء الكرام لا يخفى عزيز علمكم ان ما سوى الله هباء وكل مافى الدنيا زوال وما للعبد الا العمل الصالح الموافق للسنة وما سوي ذلك يعود بالحسرة والندامة وانى قد كاتبت جميع المحبين ومشايخ الدين وانذرت بكروب تحصل ولا فرج عنها الا باجتماعنا وذلك باشارة من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وبامر منه مع بشائر لنا جسيمة وأوامر عظيمة وأشار لنا صلى الله عليه وسلم الي محل يكون فيه قوام الدين وصلاح أمر الدارين وفضلا عن ذلك انه لا سماية للعبد الا فى الدين الخالص الموافق للكتاب والسنة واذا لم يكن العمل على ذلك فهو مردود كما ورد. وحيث ان هذا زمان توافقت فيه الناس على البدع ومحبة الدنيا وصار لهم ذلك عادة واسترقت الطباع بعضها ومعلوم ان الطبع

يسرق الطبع والانسان على دين من معه فى الدنيا ويحشر يوم القيامة عليه قال صلى الله عليه وسلم « يحشر المرؤ على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » واذا فهم العاقل هذا من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فلاشك انه ينحاز الي من ينهضه حاله ويدله علي الله مقاله وذلك هو الفقير المتجرد عن السوء المقبل على المولى الذي لم يكن له قبلة ولا مقصد الا الله تعالى وقد تجرد عن كل شيء سواه وتحقق بحقيقة لا اله الا الله وقد ورد. اذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه علي دينكم.وفي بعض الكتب الالهية يقول الله تعالى « لاتسألوا عنى عالما اسكره حب الدنيا فيقطعكم عن طريق محبتى أولئك قطاع الطريق علي عبادى » ومعلوم ان العبد اذا لم يكن له مقصد فى التجرد لله تعالي يلاحظ في جميع كلامه وأحواله مايزيد جاهه ورئاسته ولا ينقاد للحق حيث كان بل يتكبر عليه ولا يخرج عن جاه ولا رئاسة لمجرد الحق وفي مثل هذا قال الله تعالى « واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » ولمثل هذا الضرر ورد الذم لحب الجاه والمال قال صلي الله عليه وسلم « حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » وقال صلي الله عليه وسلم « ماذئبان جائعان ارسلا فى زريبة غنم بافسد لها من حرص المرء على المال » الحديث وقال تعالي « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض » الآية والادلة الشرعية من الكتاب والسنة وبأمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كاتبناكم بالاجتماع معنا ومعلوم انه لا امان الا فى الكتاب والسنة كما ورد ان المؤمن لا بغية له ولا مطلب له الا الدين فمن كان مهتما بايمانه ودينه شفيقا على أمر ربه أجاب الدعوة واجتمع معنا للمعاونة على تقويم الكتاب والسنة ومن له جاه ورئاسة وانقاد للحق وانخلع عن جاهه

ورئاسته لله وللانقياد على الدين الخالص عوضه الله خيرا منه قال صلى الله عليه وسلم «انك ان تجد فقد شيء تركته لله» أي لن تجد له ألما ولا همّا وقال تعالى «ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم ولو انهم اقاموا التورية والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» الآية ومن أشفق على جاهه ورئاسته وماله ولم يخرج من ذلك أوقعته في الهموم وفي سخط القيوم وزالت منه واعقبته الحسرة فقد قال صلي الله عليه وسلم «من جعل الدنيا همه شتت الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما قسم الله له ومن جعل الآخرة همه جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة» الي غير ذلك والقليل من ذلك ينفع المؤمن القابل والكثير وان أفيض لا ينفع المنافق الغافل والسلام»

حوادث بربر

بربر اسم لاقليم من أقاليم السودان يحده من جهة الجنوب اقليم الخرطوم عند موضع اسمه (حجر العسل) وهو جبل صغير أحجاره من الصوان ويحده من جهة الشمال مقاطعة دنقلة ومن جهة الشرق اقليم كسله ومحافظة سواكن

وسكانه ينقسمون الى قسمين رحالة وقرويون والرحالة هم قبائل أعجمية يشبهون قبائل السودان الشرقي في الاخلاق والعادات ويطلق عليهم اسم (البشاريين) ولغتهم أعجمية

وأما سكان القرى فأكثرهم بطون من قبيلة الجعليين ومعايشهم من

الزرع وبعض الماشية الصغيرة وأرضهم لاتجود بمحصول يقوم بحاجة السكان لان طريق الري هي بالسواقي فقط وفيها عناء كبير والامطار قليلة لا تجود السماء عليهم بمطر يقوم بري أراضيهم الا نادراً وقدضبطوا ان بربر لاتسقى بالمطر الا فى كل سبع سنين أو عشر مرة واحدة ولهذا كان العيش في ذلك الاقليم شظفاً خلافا للسودان الجنوبى ومن الامثلة العامية فى حقهم (يكيلون بالطاسة ويحسبون القراصة) والطاسة مكيال لايتجاوز رطلا من الغلة ومعنى يحسبون القراصة انهم يقدرون للرطل عددا معلوما من الخبز والقراصة اسم لكل قطعة تصنع من خبز الذرة الذي يطلق عليه اسم (كسره)

ولهذه الاسباب ترى الجعليين يتطوحون فى بلاد السودان وسكان تلك البلاد يحتقرونهم فأهالي السودان الغربي يسمونهم (بائعي الشطيطة) وأهالى السودان الجنوبي يسمونهم (ناس عره) أى ركاب الحمر لانهم يشترك منهم اكثر من عشرين فى ركوب حمار واحد

ومع هذا كله تراهم من أكثر قبائل السودان شراً ولهم دعاوي طويلة عريضة فى الانساب حيث يزعمون انهم من نسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وأن أجدادهم استوطنوا السودان من عهد قيام الدولة العباسية في بغداد والحقيقة أنهم من نسل العرب الذين دخلوا السودان من صعيد مصر وبعيد عن الاحتمال أن يستوطن بنو العباس بلاد السودان في عنفوان دولتهم وعظيم سلطانهم ولا توجد بين صفحات التاريخ اشارة الى ذلك مع ان المؤرخين ملأوا الكتب باخبار دولة بنى العباس رضى الله عنه الى حد انهم كانوا لاتفوتهم اخبار الندماء وما شاكل ذلك من الدقائق والجلائل

على ان الجمليين لم يكونوا منفردين بهذه الدعوى بل جميع قبائل السودان حتى العبيد سكان الجبال ينتسبون الى النبي صلى الله عليه وسلم والي آل بيته الطاهرين حتى يخال الانسان ان السودان كان موطنه صلي الله عليه وسلم وانه كان خاليا من السكان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم

وقد اشتهر عن الجمليين الكذب وعدم الوفاء وكل الخصال الممقوتة وانهم على الدوام مع الفئة الغالبة وهم شديدو البغض للمصريين وكل أبيض ولهم اعتقادات في غاية السخافة. منها أن بياض البشرة يدل على أن صاحبه غجري لأصل له وان الانسان لا يكون ذا نسب أو حسب الا اذا كانت بشرته سوداء وكل ابيض محتقر عندهم حتى انهم لا يسمونه الا (الجميدي) أى الغجري ولهم أخلاق وعادات غريبه لافائدة في سردها هنا اكتفاء بما تقدم

ذكر محمد الخير داعية المهدي في بربر

محمد الخير هذا هو الذى تقدم لنا ذكره وانه كان صاحب مدرسة علمية وان المهدي كان تلميذا بمدرسته وأصله من قبيلة اسمها (القبش) وهى قبيلة صغيرة تسكن ضفة النهر الغربية بازاء «المخيرق» مركز مديرية بربر وهذه القبيلة تنتسب الى رجال أصحاب أضرحة فى هذه الجهة اسم أشهرها عبد الماجد ويطلق عليهم اسم (القبش) الذى معناه زهاد متقشفون قدموا الي بربر من بلاد تكرور في السودان الغربي

وكان محمد الخير هذا فقيها يعلم الناس الفقه وكان مشهوراً بالتقوي ويقول بعضهم انه ذو ضلع كبير في انتحال دعوة المهدية وان صاحبها صدع بها عن

رايه وعمل باشارته

وكانت الحكومة تعطى محمد الخير راتبا شهريا يبلغ خمسة جنيهات وبضعة ارادب من الذرة

ونقل لنا أحد تلاميذه انه لما تصدر للتدريس كان ذا تحقيق فى مذهب إمام دار الهجرة مالك رضي الله عنه ومع هذا كان لايعرف شيأ من النحو والصرف وعلوم البلاغة فاحتقره تلاميذه وأسمعوه مرات عديدة انتقاداتهم على جهله حتى أن أحدهم قال له يوما ياسيدى الشيخ انك لاتعرف اعراب جاء زيد فكيف يليق بنا ان نتكوف حولك في حين أن تكوفنا هذا لطالب العلم وانت مفتقر اليه اكثر منا فتأثر من هذا القول وقام من مجلسه وبعد صلاة العشاء دعا اثنين من خاصته وركبوا دوابهم بغير أن يشعر بهم أحد وقصدوا الخرطوم ومنها الى ضواحى المسلمية حيث اجتمعوا بالشيخ الحسين زهراء وقص عليه محمد الخير ماجري له مع تلميذه فقال له قد محضك والله النصح ثم انقطع لدرس النحو وعلوم البلاغة على الشيخ الحسين نحو عامين أدرك فيهما مايدركه غيره فى أربعة أضعافهما ثم عاد الى مزاولة دروسه فى بربر وبلغت المحبة بينه وبين أستاذه الشيخ الحسين درجة لاتوازي

ذكر حسين باشا خليفة مدير بربر

حسين باشا خليفة مدير بربر سابقا من قبيلة العبابدة التى تسكن ارباض اصوان وكان آباؤه ادلاء الحكومة في طريق السودان المسمى (العطمور) ثم ولى على مديرية بربر فى عهد ولاية ممتاز باشا على السودان فظهر من أعماله ماأوجب عزله وسجنه في القاهرة حتى جاءت وزارة المرحوم شريف باشا فعين

مديرا على بربر قبيل عودة غوردون باشهر قليلة ونسب اليه في غضون نزوح المصريين الي القاهرة انه كان عاملا على منع ما كستهم وعدم السماح لهم بالوصول الى القاهرة وكان صديقا حميما لمحمد الخير داعية المهدى في بربر

ذكر قدوم محمد الخير بدعوة المهدي الي بربر

فى جمادي الآخرة سنة ١٣٠١ هجرية قدم محمد الخير الى بربر عائداً من عند المهدي في الابيض وقد كتب له كتابا الى سكان مقاطعتي بربر ودنقله بانه تعين من قبله أميراً عليهم وأمرهم بمبايعته نائباً عنه

وكان محمد الخير يطلق عليه اسم محمد الضكير فأبدله المهدي باسم محمد الخير

وكان شخوصه الى المهدي بعد ولاية حسين باشا خليفة على بربر فانه لما قدمها اختلى به وقال له أراك تأخرت عن واجب عليك فاقدم على المهدي وأبلغه خضوعي له ودخولي فى دعوته وكان حسين باشا يقصد من هذا العمل ان يوليه المهدي على بربر ودنقله فقبل محمد الخير ما أشار به حسين خليفة الذى أعطاه نفقة السفر ودفع اليه كتابا برسم المهدي فشخص من بربر الى الابيض فقوبل من المهدي باكرام عظيم وحفاوة ليس لها مثيل

وبعد أيام كتب له بالامارة على بربر ودنقله وأهداه شيأ كثيراً من الجواري والخيول والنوق فقفل راجعاً ولما بلغ أول حدود بربر من جهة الجنوب استقبله الاهلون باحتفال عظيم وأرسل الكتب يدعو الناس لاجتماع عام فى المتمة وهي منتصف الطريق بين بربر والخرطوم فنسلوا اليه فدعاهم الى البيعة للمهدى فاظهر كثير الارتياب فى صدق دعواه فقام فيهم خطيباً وقال أشهد الله وملائكته انه المهدي المنتظر وقبض على لحيته وقال لهم إنه اذا لم يكن المهدي

المنتظر بجروا لحيتي هذه بين يدي الله عز وجل وقولوا هذا أضلنا سواء السبيل فصدقه الناس وبايعوه على طاعة المهدى وحرب الحكومة ولبسوا شعار المهدية ورقعوا ملابسهم وهرع الناس اليه من كل انحاء البلاد وانضم اليه عدد ليس بقليل من الاعراب وتقدموا نحو حامية شندى

ذكر واقعة شندي

شندي قرية على ضفة النهر الغربية شمال المتمة بميل واحد وهى التي ذكرنا قبل خبر قتل الامير اسماعيل بن محمد على باشا فيها بعد فتح السودان وجل سكان هذه القرية مصريون وكانت قاعدة لاحد المراكز

ولما وصل محمد الخير المتمة وبايعه الاهلون على طاعة المهدي كانت في شندي حامية تبلغ زهاء الثلاثمائة جندى جلهم من الباشبوزق فناوشها العدو مناوشات عديدة ومنع وصول الاقوات اليها وحينما سمعت الحامية بقدوم الداعية محمد الخير عقدت النية على الخروج من معقلها ومتابعة السير شمالا للانضمام الى حامية بربر فباغتها بجنوده واثخنها ذبحاً بينما كانت تحاول الخروج ومثلوا بالاطفال والنساء تمثيلا تقشعر من فظاعته الابدان

ومما يذكر هنا ان محمد الخير منع أتباعه منعاً باتاً عن مد أيديهم الى نساء المصريين بأنواع السبي والهتك اللذين كان المهدى يفعلهما مع نساء المصريين وكتب الى المهدي كتابا مطولا قال فيه انى لا أري وجهاً من الوجوه الشرعية يسوغ لنا أن نعامل نساء المصريين بالمعاملة التى جرت عليهن فاضطر المهدى الى اجابته بان فوض له العمل في هذا الشان بما يراه موافقا فمنع كل اتباعه من هتك أعراض المصريات ومن فعل ذلك عاقبه عقاباً صارما

هذه حسنة نذكرها هنا لمحمد الخير ونقول ان عمله وان جاء ضربة شديدة على الخرطوم لان سقوط بربر قضى على أمل وصول النجدة الى غردون لكن شره كان أخف من شر المهديين كلهم . وبعض الشر أهون من بعض

وكانت واقعة شندي هذه فى أواخر شهر جمادي الآخرة سنة ١٣٠١ هجرية

سقوط بربر

لما سقطت شندى تقدم محمد الخير بجموعه الي بربر في أوائل شهر رجب سنة ١٣٠١ هجرية ومعه نحو سبعين الف مقاتل وسلاح جلهم المعاول والمحاريث لان الجعليين فلاحون لاسلاح عندهم

وكانت حامية بربر لا تتجاوز الا ربعمائة جندى تحرس خندقا يزيد طوله على أربعة أميال وليس لديها من المدافع غير مدفعين من الطراز الجبلي العتيق

ولما اقترب من بربر أرسل انذاراً للحامية والسكان يدعوهم فيه الى التسليم فامتنعوا وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ومكث محاصرا لها مدة سبع ليال كانت المخابرات السرية جارية فى خلالها بينه وبين حسين باشا خليفة مدير بربر الذى كان يؤمل ان المهدي لا يولي غيره عليها

وكان فى بربر خمسون الف جنيه أرسلت من مصر لنفقات حامية الخرطوم وأرسلت الباخرة الفاشر لحملها الى الخرطوم فاخذ حسين باشا يماطل ربان الباخرة حتى لا يصل المال الخرطوم ويكون غنيمة عاجلة للمهدي وقد وصل الى بربر شيء كثير من ملابس غردون وأمتعته التي ارسلت

خلفه من مصر كلها وقعت فى أيدى الدراويش

وفى صبيحة اليوم الثامن من بداية حصار بربر اجتمع الدراويش ودخلوا المدينة عنوة بدون ان يصيبهم أقل ضرر واثخنوا الاهالى قتلا ونهباً وذبحوا اكثر من ثلاثة آلاف من المصريين اما حسين باشا خليفة فقد أحاط بداره حرس محمد الخير ومنعوا وصول أي اذي له بالرغم عن تكوف العصاة حول بيته وعزمهم على الانتقام منه

واشتغل محمد الخير بجمع الغنائم وعذب المصريين عذابا اليما ليدلوا على خباياهم ودفائنهم وامتنع كثير من قواد الجمليين ان يؤدوا الى بيت المال ولو قليلا من الاموال التى تحت أيديهم فكتب محمد الخير الى المهدى ينبئه بوقوع بربر في قبضته ويخبره بما كان من أمر الامراء الذين امتنعوا من تسليم ما بايديهم من الاموال الى بيت المال

ولما وصل كتاب محمد الخير الي المهدى أمر باطلاق المدافع جريا على عادته وامتلأ غيظا من أولئك الامراء اذ كان فى حاجة عظيمة الى المال فكتب الي محمد الخير يأمره باكراههم الي تأدية المال له وشفع الكتاب بصورة موعظة في ذم اغتيال الغنائم وهاهو نص الكتاب والموعظة نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبدالله الى صفيه عامله على بربر وجهاتها محمد الخير بن عبدالله خوجلي وقاه الله كل تعويق وأدام له التوفيق وحققه بحقائق التحقيق وأناله أعلى رفيق آمين بعد السلام عليكم ورحمة الله

وبركاته حبيبي انك حقيق بمعرفة ما عند الله من كريم المكانة وعظمة ماهنالك
ممالا يقاس بشيء وخسة مافى الدنيا وان كثر ونما ومن المعلوم عندك أيها الحبيب
أن الدنيا لا شيء فهى لا تزن عند الله جناح بعوضة فلذا لم اذا كرك فى الشأن
الذي يحصل فيها ولعلمى بانك امين ولا تدخلك ترهات الخيال الذى فيها
وتزين باطلها وان مقصدك اقامة الدين ولذلك قد اكثرت التذكير مني
للاخوان فى التنفير عن الدنيا والترغيب فى الله وفيما عند الله وفيما يخلص العبد
ويرفعه عند خالقه مع شدة التعريف لخسة الدنيا ونفاسة الآخرة والتعريف
لعظمة الله وكمال قدرته علي كل شيء وأن من أراد خيره وقربه عنده نفره
عن الدنيا وأراه قرب زوالها مع قلة قدرها وشؤم ما تعقبه من طول الندامة
والوبال ليهون علي المؤمن جفاؤها ويزيد الشكر لله فى انزوائها وا كتساب
نعيم الجنة وعلائها من اصابة الظمأ والنصب والمخمصة فى سبيل الله واغاظة
الكفرة بمواطئ امكنتهم وثغورهم وانالة الجرح والقتل فى سبيل الله مما فيه
حسن المكانة الدائمة والوظيفة الكبري التي لها قدر عند الله تعالى كما ذكر الله ذلك
والمؤمن انما يرغبه النصيب الدائم الذى وعد الله به المؤمنين الصادقين فى ايمانهم
بالصبر لما عند الله يقينا بما وعد به وتفويضا له فيما أراد ودل عباده اليه وابناء
الدنيا من الكفرة والمنافقين انما ترغبهم الوظائف والأموال الفانية لانهم
لا يجدون فى قلوبهم الايمان واليقين بما عند الرحمن من حسن المكانة الدائمة
ودرجات الجنان وانه ياحبيبي جميع من صحبنى وسمع منى وعلم ما أنا عليه صار
غرضه ما عند الله وفرغ قلبه من فاني اللذات الى دائم الخيرات ومن نافق
ولم يسر على منهجي فقد فوت ما عند الله واظهر الله نفاقه وطرده عن الصحبة
ورمي عليه المهالك فى الدنيا قبل الآخرة وأنت حبيبي لهمتك بالنجاة عند الله

تعالي علي التسليم لي والعزم على اتباع ماألهمني الله كنت سألتني عن الغنائم
وطريق العمل فيها وقد أعلمتك بما هو جار فيها سابقا لامور منها الظن
ان ماورد لنا في المديريات الغربية خصوصية حتى سألني أمين بيت المال عن
غنائم بربر فلم تظهرلي الخصوصية عن تكرر سؤاله .وقد ورد لنا من الغيب
أن ضرر ذلك كثير ولا بد ان يصلكم منها شيء ولما كان الاخوان الذين معك
نريد لهم الصفا والسلامة والدخول في عظيم الكرامة والتباعد من عطب
دار الملامة أخبرت أمين بيت المال بما وصلكم عنه فانه وان كان منكم من
تناول من الغنائم على ماذكرته لك سابقا فقد تجدد الوارد وأتى من الغيب
كبير الضرر في تناول ذلك ونريد الآن ان يقتدي الاخوان بما ورد لنا من
سيد الوجود صلى الله عليه وسلم على ما رأينا انه صلاح للمسلمين واصلاح
للدين بما ألهمني الله من الالهام الصائب الذي لو كان نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم حاضرا الآن لفعله وانك حبيبي غير متهم عندنا في الصداقة والامانة
معنا ومع الله ورسوله فيما تطلبه عند الله ومتيقن فيك موافقتنا فيما يرد علينا
من الامور التى فيها صلاح الدين والمسلمين وليكن معلوما عند الاخوان ان
حب الوظائف والاموال والمتاع هو الذي عطل الدين واستقامة المسلمين ولولا
الفقراء والمساكين والاغنياء الذين تجردوا عن الدنيا ليقينهم بما عند الله لما تقوم
هذا الامر وكامل الذين معكم من الانصار يلزمهم أن يسلكوا هذا المسلك
ولا ينسبوا لانفسهم اغاظة الكفرة والنصر عليهم فان النصر من عند الله
فان وقفوا مع أدبهم مع الله تعالي ونسبوا الامر اليه وصاروا عبيدا له نالوا
عظيم المكانة التى يصغر في جنبها كل نعمة وملك يذكر لأن الله تعالى يعطيهم
من عظمة المقدار مالا يخطر على بال فضلا عن المجاهدين المكرمين والشهداء

المعظمين فان الله يعطى الصالحين الذين هم دونهم مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فمن عاين هـذا مع الرضى عند رب العباد لا ينظر الى خسيس الدنيا الذى لا يزن جناح بعوضة فلا يبدلوا نصيبهم هذا العظيم الدائم بما لا يزن جناح بعوضة ويزول عن قرب ولا يدخلهم العجب وينسبون قيام الله بهذا الشأن الى أنفسهم فتفسد أعمالهم ولا يغتروا بما فتح عليهم من الدنيا فيؤثروه على ماعنـد الله ويفرحوا لئلا يقـع من انطوى على ذلك فى وعيد قوله تعالى « حتي اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتـة » الآية الخ الخ» والكتاب مطول وكل مافيـه لا يخرج عما تقـدم ولا عن مضمون الموعظة الآتية . وتاريخه ٢ صفر سنة ١٣٠٢

وأما الموعظة فنأتي عليها برمتها لزيادة الفائدة . وهى

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فانى سأذكر البعض من الواقعات التي وردت فى الغنائم وغيرها باختصار فبعـد ان وردت الواردات فى كيفيـة الغنائم وضررها بالابيض حكيت للاخوان حضرة حصلت فوق السموات وكان النبي صلى الله عليه وسلم يطلب الاصحاب فلا يصل الى ذلك المحل الا الاصفياء الزهاد الخالصون من الملاقات الدنيوية وتعطل منها بعض من الاخوان لاجل علاقاتهم فلم يطيقوا الصعود اليها من عـلاقاتهم فاعلمت بذلك من انقطع بسبب علاقاته الدنيوية من الرقيق والاموال فتجرد لله عن ذلك وصعد للحضرة المذكورة وثم حصلت حضرة قعد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جمع من المقربين وأجلسني عنده فيما روى وغرز بيننا عودا طويلا املس كانه شعبة الخيمة الوسطانية التي تقوم عليها وفى

رأسها الثمر ويقول صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة شجرة الصداقة فكل
من له صداقة فليصعد عليها فيصعد عليها قوم وينزلق منها آخرون فلا
يقدرون على الصعود عليها لينالوا ما فوقها من الثمار فكان مافوقها هو نصيب
الآخرة ولا يناله أحد الا بالصدق فى الايمان والطلب لما عند الرحمن فاعلمت
من تعطل عن ذلك بسبب العلاقات الدنيوية فتجردوا عماعطلهم وثم حصلت
أيضا شجرة الصداقة فى وقت آخر وطلب الاصحاب بالصعود لنيل الخيرات
فوقها فصعدها الاصحاب الا الذين اكلوا الغنائم فامتلات عليهم صمغا فكلما
ارادوا ان يتعلقوا بها ليصعدوا فوقها يزلقهم الصمغ لذي عليها وبعض من
الاخوان الذين عندهم شيء ولم يحضر المذاكرات حصلت له رؤية وكان المذكور
قبل رؤياه متأسفا على فوات مذاكرتنا للاخوان فى كيفية الغنائم والتجرد عنها
لمن هى عنده من الانصار قال ولما أعلمنى من حضر المذاكرة عزمت على
اخراج ماعندي من الغنيمة وهوأمة وحمارة وقليل من الدراهم قال وبعد
عزمي على اخراجها ورفعها لبيت المال أخبره بعض اخوانه بانك كيف تخرج
هذه الامة الواحدة التي لا خادم لك غيرها ومن يخدمك ان أخرجتها وأي
شيء تركب ان أخرجت هذه الحمارة الواحدة وإن قام الامام للسفر لابد ان
تشتري بالجميع جملا تسافر عليه مع المهدى للجهاد قال فطاوعت من ذاكرني
من الاخوان بذلك وعزمت على ترك اخراج المذكورات لبيت المال قال
فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أتى للخليفة عبد الله يذاكره فقال المذكور
فى نفسه فاتتني مذاكرة المهدي فليكن الاسراع مني لحضور مذاكرة النبي
صلى الله عليه وسلم للخليفة عبد الله قال فلما حضرت وجدت المذاكرة قد
تمت الا انى سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول للخليفة عبد الله عندفراقه

لاي شيء لم تستوعب أمر المهدي فالذى يأمرك به المهدى كله افعله هذا معنى كلامه للخليفة عبد الله قال ثم أتيت الخليفة عبد الله لا سمع منه مذاكرة النبي صلى الله عليه وسلم فوجدت مع الخليفة بعضا من ملازميه يصلون معه فقطع الصلاة وقال لي أين الخادم أي الامة التي من الغنيمة فعدم اتيانك بها لبيت المال أفسد علينا صلاتنا قال وقال لى الخليفة عبد الله لاي شيء لم تجرد من الغنائم أما سمعت قول المهدى تجردوا فمالك لم تجرد قال فقلت له ما عندي الا شيء يسير فقال هذا القليل أده لبيت المال ولو قرشا واحدا ومثل هذا كثير وبعض من الذين لم يتجردوا من الغنائم تحضر لهم تماسيح تمنعهم من لحوق المهدي وأصحابه الصادقين فتغرقهم حتى كان أحد من الاخوان عنده ازار من الغنيمة فقبضه تمساح وأوقعه فى المهالك فاستعان بالله وبرسوله وبالمهدى فادركه المهدي فحمله ليخرجه فاخذ به حجر لم يتركه يسلم حتى أقسم انه يعطي ثمن الازار فخلص ثم ان المذكور قوم الازار بنحو ستة دراهم أو أقل فدفعه لبيت المال فصار مع الاصحاب وغير ذلك فيا أحبابى ان السعيد يتخلص فى الدنيا قبل الآخرة فهناك تسبق الاصفياء ويعطب أهل حطام الدنيا فقد روى ان القيامة قد قامت والمهدى مع أصحابه الاصفياء دخلوا الجنة بلا حساب ولا رؤية هول ولا مشقة واحد الاخوان عنده قليل من المال والله أعلم لم يذكر من قلته فحبس من الدخول وصار يصيح ويبكي من شدة الهول حتى خلص بعد نصف ساعة فدخل الجنة والاهوال مازالت على الآخرين فيتخلصون واحدا بعد واحد على حسب صفائهم وتجردهم من الدنيا فبعضهم يخلص فيصل بعد ساعة وبعضهم بعد ساعتين وبعضهم بعد ثلاث ساعات الى ان خلص آخر الاصحاب نصف النهار ونصف النهار فى ذلك

اليوم خمسمائة عام ونصف الساعة نحو الاربعين سنة في ذلك اليوم فمن ذا الذى يطيق هذا الهول فيرضي لنفسه مثله بسبب متعة قليلة فى أيام قليلة هي في حكم العدم فيرث بسبب ذلك هذا الهول الشديد والكرب الذى يقف فيه جائعا عطشان نحو الاربعين سنة واكثر فتجرد ذلك الاخ الذى خلص بعد نصف ساعة وحتم ان لا يطلب فى الدنيا مالا ولو قليلا ولا جاها مادام فيها حيا حتي يلاقى الله تعالي. هذا وليعلم الاخوان ان من كان مؤمنا بالبعث وقرب الآخرة وحسابها وكثرة خطرها وضرها ورفعة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعظيم فوزهم وملكهم المقيم الدائم ويعلم شؤم الدنيا وهو انها على الله وشؤم ما تعقبه من الحسرة الطويلة فليتجرد لله لينال جزيل الدرجات ويفوز بدائم الخيرات وليصير من ابناء الآخرة مادام حيا ولا يطلب الدنيا ومتاعها فانها قد انقرضت وهذه الايام آخر ايامها كما لا يخفى صدق ذلك ولا يجتمع للعبد متاع الدنيا ونعيم الآخرة كما ورد انهما ضرتان وكالمشرق والمغرب فبقدر ما يقرب العبد من المغرب يبعد منه المشرق وروى ان بعضا من الاصحاب الذين اكلوا الغنائم وتمتعوا وماتوا قبل اخراجها والحال انه أراد اخراجها فمات قبل اخراجها انه حبس وعذب ووبخ عليه وقيل له ان المهدي انذرك فبعد انذاره أتريد ان نجمع لك متاع الدنيا مع نعيم الآخرة ذق العذاب الاليم فلا عذر لك وغير ذلك وفيما ذكرته كفاية لمن له عناية وورد عن الاخوان الذين ماتوا واستشهدوا فى حال صفائهم وصدق انابتهم لما عند الله انهم تنعموا نعما عظيمة لا تخطر ببال ولا تقاس. منها ان بعضهم رؤي في نعيم عظيم وحور وولدان وفرش واسرة وقصور وخيم وغير ذلك فيقال له صف لنا هذا الذى أنت فيه من النعم فيقول هذا شىء اكرم الله به عباده المخلصين

فلا أقدر أن أصفه ولا أعده فانه لا يوصف ولا يعد وبعضهم يرى ان هبوب
الجنة تدخل في مسامه وجميع جسده كالدخان الذي يخرج من بيت القش
فيجد لها لذة أشبه بلذة الجماع ولكن تلك التي في الجنة أحلى والذ اضعافا
مضاعفة لا تخطر ببال ويلتذ بها بجميع جسده ويسمع لنساء الجنة نغمات
لا توصف لذتها وهن يمشين فى الهواء كمشيهن على أرض الجنة فيمشين على
وجه الارض ويطرن ويزرن أزواجهن ويقفن معهم في الجهاد ويهللن لهم
فان استشهد أخذنه ومضين به الى دار نعيمه وان جرح ولم يستشهد قعدن
معه يمرضنه الى ان يموت أو يبرىء من الجرح وبعض الاصحاب من شهداء
وقعة الشلالي يرى فى نعيم عظيم وقصور كثيرة فيقول أحد الاخوان الحيين
انكم قد انزلتم هذا المنزل الكريم وتنعمتم هذا النعيم العظيم فاين منازلنا
ونعمنا فيقول لا تشفق فان أصحاب المهدى الصادقين معهم لهم منازل ونعم كمثل
هذا فامض معي لأريك منازلكم فيريه منازل عظيمة ونعما فخيمة فيقول متى
نلحق بهذا ونخرج من هذه الدار الكدرة المتعبة فيقول له لا تشفق فان
أصحاب المهدي يصلون قريبا فيتنعمون بنعمهم هذه وبعضهم يرى بعض اكابر
الصالحين المتقدمين فيسأله عن مقامه مع مقامات أصحاب المهدى الذين ماتوا
فيقول هيهات إن أصحاب المهدى من علو درجاتهم لا نراهم فهم راقون مرقى
عظيما وكثيرا يرى انهم يغبطون أصحاب المهدى ويقولون ليتنا كنا أصحاب
المهدى لما يرون من عظيم مكانتهم وفضلهم عند الله تعالى وبعضهم يستشفع
بالاصحاب ويقول اطلبوا المهدي يجعلني من أخس أصحابه فاني راض برتبة
أخسهم وأفرح ان وجدت ذلك ومثل هذا كثير مما روى في الجنة للاصحاب
الصادقين فهيا أيها الاحباب فان القدوم الى ما عند الله قريب والسلام»

ولما اطلع محمد الخير على ما كتبه المهدى استدعى الأمراء وتلا عليهم الكتب المذكورة فأصروا على الامتناع وأبو الانصياع وامتنع كل واحد بعشيرته وخيف وقوع الفتنة وقبض محمد الخير على زعانف منهم وكتب يخبر المهدى بما وصلت اليه الحالة فأمره بالتساهل وصرف عزيمته الى تجنيد الرجال واعداد الجيوش للغارة على دنقلة والوقوف في وجه الحملة الانكليزية وكانت قد بدأت حركاتها فى دنقلة

واستقرت قدم محمد الخير في بربر ودانت له البلاد وخص ذوي قرابته وتلامذته بكل الوظائف فحنق عليه الجعليون وأضمروا له العداوة وذهب وفد منهم الي المهدى يشكو من محمد الخير فعنفهم وأرجعهم خائبين حتى كان من أمرهم ماذكره فى أيام التعايشى الذى كان شديد البغض للجعليين ومتربصاً الفرصة للانتقام منهم على هذه الفعلة وسيأتى ذكر ذلك كله فى مكانه والله الموفق

ذكر امارة ابي قرجة علي البحرين من قبل المهدي

ذكرنا ما كان من أمر الداعية ابن البصير وما وشي به على الشيخ العبيد ونقول الآن ان المهدى انتدب الحاج محمد أبا قرجة الذي كان متأثرا حملة الجنرال هيكس وكتب الى الذين دخلوا في دعوته بطاعة أبي قرجة وانه أمير على البحرين الابيض والازرق فغادر أبو قرجة الابيض ومعه عشرون ألف مقاتل ولما وصل الي شاطيء النيل الابيض أرسل يدعو جميع الدناقلة أقاربه الذين كانوا مستوطنين فى قري عديدة اشهرها قرية القطينة على بعد نحو مائة ميل من جنوب الخرطوم

وكان أبو قرجة ينوى الزحف على الخرطوم من القطينة ولكن الاخبار

فاجأته بالواقعة الاولي بين صالح بك الملك والداعية ابن البصير فزحف من القطينة الى فداسى ومعه زهاء ستين ألف مقاتل مسلحين ببنادق من طراز رامنجتون ومعهم مدافع وسواريخ وكان ذلك في منتصف شهر جمادي الاولى سنة ١٣٠١

ولما وصل أبو قرجة الى الحلاوين وزع عماله على الجهات وعزل عمال ابن البصير فاشتد الخصام بينهما وخيف وقوع الشر بينهما فكتب المهدى الى ابن البصير يأمره بطاعة أبي قرجة فلم يستطع غير تقديم طاعته وانتدب ابو قرجة أخاه نصرا عاملا على المسلمية وعهد اليه مصادرة أموال كثير من الذين يبطنون ولاء الحكومة فتحصل على شيء كثير من هذه الاموال

وقبض نصر على الشيخ محمد بن القبة وكان عالما نحريراً لانه قام خطيباً فى أهالى المسلمية وسرد عليهم الادلة الشرعية التي تظهر بطلان كل مانحله المهدى من الدعاوى الكاذبة

ولما اوقف الشيخ محمد بين يدى نصر سأله عما نسب اليه فأعاده امامه وقال انى لاأرهب الموت فى الله فأمر به فسيق الي السوق وضربت عنقه

ويروى عن بعض الحاضرين ان أبا قرجة كان يكره قتله لانه كان يعتقد فيه الصلاح

ذكر حروب صالح بك الملك في فداسى

صالح بك الملك صنجق من الشايقية كان يقود أربعمائة جندي من الباشبوزق وكان ذا مهارة وعقل راجح شهد أكثر الوقائع مع عبد القادر حلمى باشا فشهد له بالشجاعة والمهارة

وقد ذكرنا فيما مضى انه دخل سنار مع مائة وخمسين جنديا بعد غارة عامر ابن المكاشفي عليها

ولما وصل غوردون الى الخرطوم أرسل الى سنار يستقدم صالح بك الملك الى الخرطوم فغادر سنار براً ومعه صنجقان يقود كل واحد منهما مائتي جندي

وبعد مسيرة يوم وليلة من سنار رأي فى طريقه ان البلاد كلها دخلت في دعوة المهدي فاستشارقواده فأشاروا عليه بالعودة الي سنار فلم يرق له ذلك حيث علم ان الاعداء يطمعون فيه ويتأثرونه فتابع سيره الى الخرطوم وما كاد يصل الى جهة «فداسى» وهى قرية على ضفة النهر حذاء المسلمية حتي قام الجمليون الذين يسكنون المسلمية واستصرخوا عليه سكان القرى القريبة من المسلمية فاجتمع عدد يربو على الخمسة آلاف وهاجموه وكان قد أخذ أهبته وتحصن داخل زريبة من الشوك فاقتحم الدراويش الزريبة ووقف هو وعساكره وقفة الابطال فقتلوا أربعة آلاف مقاتل ورجع الباقون بالهزيمة والفشل واتصل الخبر بابن البصير فتقدم الي فداسى فى جمع كثيف للحرب فتقهقر بخسارة ثلاثة آلاف قتيل ولكنه بقى محاصراً للجنود حتي قدم أبو قرجة ووقعت بينه وبين صالح بك واقعة خسر فيها أبو قرجة أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل ثم أرسل أبو قرجة الى الشيخ العبيد يستقدمه فقدم على باخرة من بواخر الحكومة وقعت فى يد الدراويش وأرسل أبو قرجة الشيخ العبيد الى صالح بك فاجتمع به وقال له ان الخرطوم قد سقطت في قبضتنا وحلف له على ذلك أيمانا مغلظة

وكان رسل صالح بك قد وصلوا الخرطوم فأبلغوا غردون ان صالح بك

فى حاجة شديدة الى المدد وأن ذخيرته أوشكت أن تنفد فكتب اليه غردون يعده بالنظر في أمر ايصال النجدة اليه وكان ايصال المدد متعذراً لعدة وجوه منها عدم وجود جنود فى الخرطوم تستطيع المخاطرة والتقدم براً من الخرطوم الي فداسى

وقد كان من الممكن ايصال النجدة بحراً لو كان النيل مرتفعا لان البواخر لا تستطيع السفر من الخرطوم وقتئذ اكثر من ثلاثة أميال

وفي أوائل شهر جمادي الاخرة سنة ١٣٠١ فقد صالح بك كل أمل بوصول المدد اليه كما فقد كل ذخيرته فاسلم نفسه الي ابى قرجة الذي ارسله اسيراً للمهدى

وبسقوط فداسى أخذ أبو قرجة وابن البصير يستعدان للزحف على الخرطوم وحصارها من جهة الخندق

ولما وصل صالح بك الى المهدى قابله بشيء من الاكرام وأخذ يحثه على الطاعة والانقياد لاوامره ثم قبض عليه وسجنه مع سلاطين باشا ولبتن فكتب اليه عدة كتب يسأله الصفح عن زلته فكان يجاوبه بان السجن خير له من الاطلاق لان فيه تنظيف سريرته من النفاق والميل الى الكفار وبقي مدة فى الاسر حتى توفي أواخر سنة ١٣٠٦ من الهجرة

ونذكر هنا بعض ما كتبه له المهدى نقلا عن كتاب المنشورات لما فيها من الفائدة والدلالة على ان صالح بك كتب الي غوردون يعلمه بكثير مما دبره المهدي فوقعت الكتب بأيدي جواسيس المهدى وقضي صالح بك مدة في عذاب السجن والاشغال الشاقة وحفر بيده بئراً يزيد عمقها عن مائتي متر

وكان غوردون قد أنعم عليه برتبه الميرميران الرفيعة مع لقب باشا

وهذه صورة كتاب من كتبه له

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى مولاه المهدي بن عبد الله الى صالح الملك وقاه الله كل كفر وشك وجعله من أهل الخير الذين يخشون الله الملك لا يخفاك أن الله قادر وبيده كل شيء وقد جعل الدنيا دار ابتلاء ليتميز المصدقون بدار الجزاء من زائل لباق العارفون بقدرة الله على كل شيء المتحققون انه لا يجرى في الكون شيء الا بارادته وما فعل فعلا الا كان على حكمة بالغة فمن أعرض عنه جهلا به عاقبه عقوبة شديدة لقيام البراهين على ألسنة الرسل والأولياء الدالين على الله وعلى ما عنده ومن أعرض على معرفة كانت الحجة عليه آكد وعذابه أشد وأشد وانك قد عرفت في الجواب الذي أرسلته الى الفردون أولا أن القدرة كلها لله ولا يغالب دين الله أحد الا غلبه وان الله برحمته قد أنقذك من الوقوع في الورطة ودلك على مهديه بالخروج من الظلمات الى النور ومع ذلك كله لواقع حقيقة جعلت ذلك ظاهراً فقط وان باطنك منطو على غير ذلك مخاطبا به الفردون فى الجواب الثانى وما أعرضت وتوليت بذلك عن الله والدار الآخرة الا لحبك الحياة الدنيا وصارت مبلغ علمك ولو كان ايمانك بالله وبما عند الله صادقا لما نافقت بطلب خسيس الدنيا من الجاه والمال ولما باطنت به الفردون ولما كنت تنصرف عن الله وعن مهديه بسبب جوع أو نحطة كما انك تعرف ان المصدقين بما عند الله قد صبروا على ما هو أشد مما حصل عليك اضعافا وقد ذهبت فى الله أموالهم وفارقوا ديارهم وتزلزلت أولادهم وأحبابهم راضين بذلك عارفين ان المبلى بذلك ربهم لتعظيم ثوابهم

وتصفية ايمانهم ولكن أقول صدق الله في قوله حيث قال «ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة »الآية فلو كان ايمانك على تمكين ويقين لعددت ما يحصل لك من البلاء رحمة من الله بك ايمانا بما عند الله وبحسن قضاء الله وجلب ذلك خير ما عند الله فلو تقطعت بذلك اربا اربا لما خادعت الفردون حيث ان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يقول« ما بلى أحد مثل ما ابتليت» وكل ما بليت بالاجواع والاثقال والعرى والخفوف لعرفت ان ذلك قليل في جنب الذي تطلبه عند الله ولقلت نم ما هو الفوز عند الله اذ يقول الله تعالى «استعينوا بالصبر والصلوة ان الله مع الصابرين »الي قوله «أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »فاعرضت عن الله ولم تصدق بكلام الله وقد قال الله تعالى «فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم» ومع شؤم الحالة واستحقاقك فيها القتل قد أردنا تصفيتك وتكفير خطاياك بالسجن والحبس والغل لتكون مع المكرمين الصادقين في طلب ما عند الله من المزايا العظيمة الدائمة رحمة بك فلما نلت ذلك كنت تحمد الله على قدر ما يزيد عليك التأديب اذ في كثرة البلايا المزايا كما ورد ولا خير في الدنيا ولا فى نعيمها الذي تتأسف على فراقه فاذا أتاك جوابي ففوض أمرك لله وترقب حسن ما عند الله وأعرض عن الدنيا ومافيها لتنال الرضا الكامل والسلام ١٤ محرم سنة ١٣٠٢

وهذه صورة كتاب آخر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد

فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى محبنا صالح الملك وقاه الله كل سوء ومهلك وجعله ممن للخيرات تملك آمين أيها الحبيب لا يخفى ان هذه الدار منقضية وقد خلقها الله للتزود لدار القرار والسعي فيما يقرب الى الخالق المختار واعلم ان حبسك هذا ليس لمؤاخذة وانما هو شفقة بك وتقديم الي خيرك الدائم وتنفير وتبعيد لك من سوء ملايم واني أعرف بحالك وبصلاحك منك وليس عندي قصد نفسانيات كما لا يخفي على جميع المؤمنين والمؤمنات وستنظر خير ذلك وكما لوحت بخلق النبي صلى الله عليه وسلم من صفحه ورحمته فبفضل الله تعالي قد خلقني الله بذلك رحمة منه لا بحولي ولا بقوتي ولكن بتسليمك لنا وحسن الظن بنا تجد عظيم المنى فحسن ظنك في الله وفينا فبحسن البداية تجد كمال النهاية والسلام

ذكر زحف المهدي من الابيض الي غدير الرهد

لما علم المهدى ن دعوته قد انتشرت في أكثر أنحاء السودان وأن نفوذ الحكومة قد تقلص ولم يبق فى السودان غير الخرطوم وسنار وكسلة وكلها محصورة بجنوده جمع اليه أهل مشورته وكان من رأى عبد الله التعايشي أن لا يغادر المهدى الابيض عاصمة كوردفان وأن يبعث بالجيوش لاخضاع الخرطوم وسنار وكسلة وحمل أموالها وذخيرتها له ليشتد ساعده ويتقدم الي دارفور ومنها الى ممالك السودان ليؤسس بها مملكة تكون بعيدة عن احتمال غارة المصريين عليها فعارضه أحد الخلفاء فقال انا لا نقف عند الخرطوم بل لا بد لنا من التقدم الي مصر ومنها الى الشام فالحرمين الشريفين وان تقدمنا الى جهة الغرب يدعو كثيراً من الناس للشك فى أمر المهدية حيث

انهم يرون لاثبات المهدية ضرورة قيام صاحبها بها فى الاماكن المقدسة ونحن قد وعدناهم بصيرورة ذلك لامحالة وعليه فان انصراف وجهتنا عن الخرطوم يفتح باباً لمثل هـذه الشكوك التى ربما كانت سيئة المغبة فوافق المهـدي علي هـذا الرأي تبعا لاميال اقاربه الذين هم من دنقلة ويكرهون الابتعاد عن أوطانهم والتطوح في السودان الغربى ومن جهة أخري ان أهالى السودان الاوسط اذا علموا بنيته على الزحف الى السودان الغربي رغبوا عنـه وو الوا الحكومة . والحاصـل انه عقد النيـة ووطد العزم على الزحف الى الخرطوم وأخـذ يحث الناس على الهجرة ومغادرة ديارهم مقبحا لهم متاع الدنيا وجاء باشياء كثيرة من المواعظ في ذم اقتناء البقر والابل وغيرها من الماشية وان الله متكفل بارزاق العباد فلا يليق بالعبـد ان يركن الى الزرع ويهتم بامر المعيشة فصادفت مواعظه آذاناً صاغية من أهالي كوردفان فكانوا يحرقون منازلهم ويبيعون ماشيتهم أو يذبحونها ويلحقون بالمهدى فى الابيض حتى اجتمع حوله زهاء ثمانمائة الف مقاتل ضاقت بهم الابيض وقل الماء وارتفعت أثمانه حتى بلغ ثمن جرة الماء عشرة قروش صاغ لان الآبار قليلة في الابيض ويبلغ عمقها مائتي متر ولا يتيسر حفر بئرٍ فى أقل من سنتين لان الارض محشوة بصخور صلبة من الصوان

وفي أوائل شهر جمادي الآخرة خطب في الناس وقال لهم ان المسيح الدجال سيأتى الابيض بعد شخوصي منها وان كل من تخلف عنى وقع في فتنته وصار من أتباعه ثم غادر الابيض الي جهة (غدير الرهـد) الواقع في الجنوب الشرقى من الابيض على مسيرة مرحلتين ونزل بالرهـد وانشأ اكواخا من البوص لسكناه وتابع الناس مسيرهم خلفه فصار ما بين الابيض والرهد

كمدينة آهلة بالسكان لكثرة الذين يسيرون في الطريق بينهما

واستخلف المهدى على الابيض عمه محمود بن عبد القادر وهو من اكبر انصاره الذين شادوا أركان دعوة المهدية معه وسنعود الي ذكر بقية أخباره وثورة جنوده عليه وقتله

وعسكر المهدى في الرهد ووفد عليه كثير من أهالي الجزيرة لتقديم الطاعة له فكان يقابلهم بالاكرام ويحثهم على العودة الى بلادهم للجهاد وأقام المهدى في الرهد وأرسل جيوشه كلها للغارة على جبل الداير الذي لا يبعد عن الرهد الا مسيرة مرحلة واحدة

ذكر حرب المهدي مع اهل جبل الداير

جبل الداير واقع في الجنوب الشرقي من الابيض عاصمة كوردفان وسكانه من العبيد النوبيين وهو جبل يبلغ طوله ثلاثين ميلا وعرضه ينقص قليلا عن هذا القدر وحجره من الصوان بعكس قمته فانها أرض زراعية من أجود أراضى كوردفان ينبت فيها الزرع وينبع فيها الماء وفي تلك القمة اكثر من مائة قرية يسكن كل واحدة منها ماينيف على عشرة آلاف نسمة يزرعون ويرعون الماشية في نباتها الكثير وعندهم النحل بكثرة حتى أن قيمة العسل كالماء ومن اكثر محصولات ذلك الجبل نوع (التبغ) المسمى (كدكراوي) وهو شديد التخدير لمن يدخنه أو يلوكه في فمه على الطريقة المعروفة باسم (مدغه) وهؤلاء السكان لا دين لهم مثل سائر عبيد أفريقية والوانهم شديدة السواد وأجسامهم عارية من الملابس الا مآزر صغيرة يسترون بها عوراتهم

وليس لهذا الجبل الا سبيل واحد للصعود على قمته اذ يبلغ ارتفاعه نحو الني متر

ونقل لنا أحد المصريين انه صعد على قمة جبل قلي الواقع جنوب سنار عند منابع النيل الازرق في يوم كثير الغيوم فابصر جبل الداير وجبال تقلي كقطع من السحاب خضراء وقال له سكان ذلك الجبل هذا جبل الداير وهاهى جبال تقلى

وعليه فان جبل الداير ذو منعة طبيعية يستطيع أهله مع بعدهم عن المعدات الدفاعية أن يجعلوا الاستيلاء عليه رابع المستحيلات

وفى عام سنة ١٢٨٥ هجرية كان حسن حلمى باشا الجويسر مديراً لكوردفان وقصد اخضاع جبل الداير لسلطة الحكومة فزحف عليه بطابور من المشاة النظاميين ونحو أربعمائة من جنود الباشبورق الغير نظاميين وأخذ لنفسه الحذر حتى لا يشعر النوبيون بقدومه اليهم ثم تمكن من الصعود على قمة هذا الجبل على غرة من أهله الذين لو علموا أمر تقدمه عليهم لاستطاعوا دفعه بغير كبير مشقة

ولما استقر الجنود في قمة الجبل قابلهم السكان بجيش جرار وأصلوهم حربا كانت نتيجتها انتصار المصريين وتقهقر النوبيين بخسارة بضعة آلاف من مقاتلتهم ثم ان القائد لما أمعن النظر في قمة الجبل هاله ما فيها من الغابات الكثيفة وكثرة الوحوش الضارية وأخصها النمور التي تضطر السكان الى ان يعتصموا داخل اكواخهم وزرائبهم قبل غروب الشمس بساعتين ويقضون ليلهم في كر وفر مع النمور التي تهاجم منازلهم وزرائب ماشيتهم هجوما عنيفاً في كل ليلة

ولما رأى ذلك عزم على العودة من غير ان يجني شيئاً من ثمار انتصاره فاشار عليه واحد من صناجق الباشبوزق اسمه مصطفى أغا بالتربص قليلا فقبل مشورته وبعد بضعة أيام جاء رؤساء القرى يقدمون طاعتهم فتلقاهم بالاكرام وفرض عليهم مائتي الف قرش ضريبة يؤدونها للحكومة في كل عام فاسرعوا بالاجابة وأدوا هذا المال وقفلوا راجعين بعد ان أقام منهم رؤساء وحكاما يمثلون سلطة الحكومة عليهم ومن ثم صارت أبواب جبل الداير مفتوحة في وجه التجار ويجلب منها العاج وريش النعام والعسل والتمرهندي والتبغ والسمسم ويوجد في هذا الجبل معادن حديد بكثرة والاهالي يجهلون كيفية استخراجها

وبعد مافتك المهدي بحملة الجنرال هيكس أغار أهل جبل الداير ليلا على شيكان محل مصرع الحملة واختطفوا كثيراً من البنادق والخرطوش فكتب المهدي الى رؤسائهم يدعوهم للدخول في طاعته ويسألهم ان يردوا ما اختطفوه فقابلوا دعوته بالرفض وعدم الاكتراث فحقد عليهم وصمم على مفاجأتهم للانتقام منهم

ولما اجتمعت انصاره في الرهد انتدب القائدين عبد الرحمن النجومي صاحب الراية البيضاء وحمدان أبا عنجه قائد الجهادية وأمر الثاني بطاعة الاول فزحفا على جبل الداير في أربعين الف مقاتل منهم عشرون الفا يقودهم حمدان أبو عنجه وسلاحهم من بنادق رامنجتون وعسكر هذا الجيش في سفح الجبل عند قرية اسمها (سدره) وأخذ يوالي الهجوم صباحا ومساء على الجبل فيقابله النوبيون بدفاع يضطرهم الى التقهقر بخسائر غير قليلة والمهدي يوالى ارسال المدد في كل يوم حتى بلغ عدد الجيش مائة الف مقاتل

واشتد الخلاف بين عبد الرحمن النجومي وحمدان أبي عنجه وكان التعايشي ظهيراً لحمدان لما بينهما من القرابة ولانه من رايته فالح على المهدى فكتب منشوراً اليهما بان كل المقاتلة من أهالي السودان الغربى يكونون تحت امرة حمدان أبي عنجه اما الجعليون والدناقلة فالامير عليهم عبد الرحمن النجومي ويكون كل واحد من الاميرين مستقلا بنفسه

وكتب المهدى منشوراً الى الاميرين ومن معهما قال فيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره في حضرة أن انصاره اذا هاجموا جبل الداير في صبيحة يوم الخميس يندك تحت اقدامهم وتتصدع صخوره ويصير هو ووجه الارض سواء

وفي ذلك اليوم صلى الاميران الصبح بغلس ودقوا طبولهم وهاجموا الجبل وبعد قتال عنيف دام الى عصر ذلك اليوم انهزم الدراويش شر هزيمة وتركوا في ساحة الحرب اكثر من عشرة آلاف قتيل عدا المجروحين الذين يربو عددهم على هذا القدر وعاد كثير من الدراويش وفي أنفسهم شيء كثير من المهدي الذي كذب عليهم ووعدهم بدك الجبل وقد صرح لي غير واحد من كبار الدراويش بانه كان قوى التصديق بدعوى المهدي فى السر والعلانية ولكن منذ واقعة الداير صار لا يصدق دعواه الا ظاهراً خوفاً على نفسه من الوقيعة والانتقام

ولما اتصل بالمهدي خبر الهزيمة التي لحقت انصاره كتب اليهم يدعوهم الى العودة الى معسكره بالرهد وقال لهم ضمن كتابه ان رؤساء الجبل جاءوه ليلا وقدموا له الطاعة والخضوع وان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالكف عن مناوأتهم والاحسان اليهم والحقيقه ان رؤساء الجبل لم يخضعوا

له ولا رأتهم عينه وقد كذب عليهم ليموه على عقول البسطاء بانه قادر على التغلب عليهم

ولدى عودة الدراويش الى الرهد قابل أمراؤهم المهدي وذكروا له ان الجبل دك امامهم كما أخبرهم ولكن سبب الهزيمة عدم الوفاق بين القائدين فاثنى عليهم وشكرهم وانصرفوا من عنده والناس متعجبون من اكاذيب المهدى وأمرائه معاً

ذكر رد طالقة الثلاث

لما عسكر المهدى فى الرهد ووفد عليه كثير من أهالي الجزيرة لتقديم الطاعة والخضوع استفتاه كثير من أولئك الوافدين فى أمر زوجاتهم اللواتى وقع عليهن الطلاق ثلاثا قبل ظهور دعوته أو كانت طلقة أو اثنتان منهن قبل دعوته وقد بنى المستفتون فتاويهم على شيء مما قاله فى دعاويه التي تقدم لنا ايرادها من ان الزمن الذي تقدم على ظهور دعوته حكمه حكم زمن الجاهلية الذى تقدم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فاجاب على هذه الفتاوي بمنشور صرح فيه بجواز وطيء أولئك المطلقات من غير ان ينكحن أزاجا غير الذين طلقوهن بدعوى انهن كن غير مؤمنات ثم تطرف الى ذكر نسائه فذكر أنهن كنساء النبي صلى الله عليه وسلم وتدرض الى تفسير بعض الآيات القرآنية التي نزلت فى نساء النبي صلى الله عليه وسلم وفسرها بما يطابق هواه وانه سمع كلاما من قبل الله عز وجل ليس بصوت ولا حرف وزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بان ملك الالهام مصاحب له . والحاصل ان ذلك المنشور مملوء بالاكاذيب التى تدل على ما كان عليه المهدي من البدع والضلال

وهذا هو نص المنشور الآنف الذكر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .
وبعد فيقول العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله انه قد كثر التضرر والتشكي الي وطلب الغوث من الانصار الحاصل منهم الطلاق قبل زمن المهدية ولا يخلو ذلك من الضيق والحرج منهم ومن نسائهم وقد تابوا والى الله أنابوا وللالفة والاجتماع في دين الله طلبوا ومراراً أعرض عن ذلك وأقول أليسوا كانوا مؤمنين وأفتى للبعض ان عدم الحسبة في الطلاق لاهل القيقر والنساء اللاتى لم يكن مؤمنات لانهن لاعصم لهن فلا يكن لهن حسبة طلاق حتى كثر التضرر فى ذلك والتردد فاهتممت بذلك وتضرعت وابتهلت الي الله في ذلك ليحصل لي فرقان من كتاب الله تعالى لانه سبحانه قد وعد بالفرقان والمخرج للمتقين وفوضت الامر الى الله وتركته حتي ورد على وارد فى آخر ورد الراتب وقد كان هذا الامر خارجا من بالي فوردت لي هذه الآية وهى قوله تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » مع الالهام انها المخرج من ذلك التضرر الحاصل فى الطلاق قبل المهدية وان الطلاق قبل المهدية لايحسب لمن تمت الثلاث ولو بعد المهدية وسبق طلاق قبل المهدية وبعد المهدية لاتكون الفتاوى التي كان العلماء يفتون بها في مطلقة الثلاثة وقد وقع في قلبى حينئذأعني في وقت ذلك الوارد لنا من قوله صلى الله عليه وسلم انا لما نخرج من «أبا» الى الغرب فالناس يدخلون في دين الاسلام جديداً علي أو كما قال وقد وقع لبعض نسائى تمام عدد الطلاق ووقع بعضها قبل المهدية وقد تضرروا بأنفسهم بأهليهم وبعض الاصحاب وأمرتهم بأن يتزوجوا

فلم يرتضوا حتي ورد الخبر بمنع ذلك بالخصوصية التي يأتى ذكرها ولا زالوا يتضررون فقلت لا سبيل الى ذلك الا بشيء يأتى لنا من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم مع وقوع بعض حضرات نبوية في حسبتها من نسائى ووقوفها معهم في التصفية وبعض حضرات حصل فيها الامر برجوعها من كثير من رآوي صالحة فى حسبتها من نسائى وبكل ذلك كنت أجد في نفسى الحرج من الرجوع لهامع تمام حسبة الطلاق حتي ورد لي الوارد فيها مع ذلك الوارد المتقدم ذكره وهو قوله تعالى «لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما» الآية فلا أدري الا وقد انفرج مابي من ذلك الخوف وانشرح لها صدري بغير ماأعهده والامر لله ولله تعالى فى كل وقت شأن وقد جاء الاخبار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان معى ملك الالهام من الله يسددني وعينه فمن هذا الخبر النبوي علمت ان الذى يلهمنى الله به بواسطة ملك الالهام لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضراً لفعله وقد ورد لى مرارا الخصوصية التى كانت له صلى الله عليه وسلم في نسائه مع التوصية منه صلى الله عليه وسلم أن تنزل نسائى كمنزلة نسائه صلى الله عليه وسلم ولما أهديت اليّ النساء مع الوارد لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن أخذني خجل من ربي سبحانه في أمرهن وأنا في ذلك فجاءنى سلام سمعته بجميع جسدى من غير حرف ولا صوت ولا سر ولا جهر ولا بعد ولا قرب ولا أقدر على تكييف شيء منه فدلنى على أسرار كثيرة ولله المثل الاعلى وتعالى الله عن كل مايخطر ببال وأمر ذلك مفوض الى الله تعالى ولكن حصل لي مع ذلك الالهام الذى يحصل لى فانشرح لى به الصدر وانحل قلبي مما كنت مهتما به وحصلت لى اسرار كثيرة يغمض فهمها وقد حصل لى مثل واقعة هذا السلام شيء يشبه

ذلك في كيفية بعض النساء بشارة نسيتها مع تسمية الولد والبنت اللذين يجعلهما الله تعالى منها فسمعته بسائر جسمي باطنا وكل ذلك بحول الله وفضله لا بشغف في النساء ولا أبرئ نفسي الا أن يزكيني ربي وعلم حالي عند ربي ، واعلم ان ظن المؤمنين بي حسن ولكن لخوف دخول الشيطان على من ضعف قلبه مع العلم ان خلافتي لرسول الله صلي الله عليه وسلم لا لخلافة الخلفاء السابقين سأبين بعض النصوص المذكورة في بعض التفاسير في قوله تعالى «لاتحل لك النساء من بعد» لينحل قلب بعض الاخوان الذين تقع فى قلوبهم عداوة الشيطان بسبب النساء اللاتي أرادهن لي ربي سبحانه وانما الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فاذا فقد العبد كثرة أنوار المحبة واليقين بالحقيقة التي نحن عليها أخاف أن يضره الشيطان. قال عكرمة والضحاك «لاتحل لك النساء من بعد» أي الا اللاتى أحللنا لك وهي قوله «انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن» الآية ثم قال «لاتحل لك النساء من بعد» أي الا اللاتي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها وقيل لأبيّ بن كعب لو مات نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أكان يحل له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل قوله تعالى لاتحل لك النساء من بعد قال انما أحل الله له ضربا من النساء فقال تعالى «ياأيها النبي انا أحللنا لك أزواجك» الآية ثم قال لاتحل لك النساء من بعد وبين بعضهم فى هذا المقام انه صلى الله عليه وسلم تجوزله ثلاثمائة امرأة وقال مجاهد معناه لاتحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات «ولا أن تبدل بهن من أزواج» يقول ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى يقول لاتكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية «ولو أعجبك حسنهن الا ماملكت يمينك» أحل له ماملكت يمينه من الكتابيات أن

يتسري بهن * وروى عن الضحاك ولا أن تبدل بهن من ازواج يعني ولا
أن تبدل بازواجك اللاتي هن في حبالك ازواجا غيرهن بأن تطلقهن فتنكح
غيرهن فحرم عليه طلاق اللواتي كن عنده وحرمهن علي غيره حين اخترنه
فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه وغير ذلك من نحو هذا * أقول وبعد هذا
قد حصلت لي في هذا المعنى اسرار كثيرة يطول ذكرها والحمدلله على خاصيتنا
برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنايته بنا ودعائه لنا قديما وحديثا فان شرف
التابع من شرف المتبوع والسلام اه

زحف ابي قرجة علي الخرطوم

لما سقطت فداسي في يد أبي قرجة وأرسل صالح بك الملك أسيراً الي
المهدى كتب المهدى الي أبي قرجة يأمره بالتقدم الى الخرطوم من جهة الجريف

وفى أوائل شهر رجب سنة ١٣٠١ وصل أبو قرجة بجيش جرار الي
قرية الجريف التي تبعد عن الخرطوم مسافة أربعة أميال علي ضفة النيل
الازرق وعسكر هناك وشاد اثنتي عشرة طابية حيال استحكام الخرطوم وانضم
اليه دعاة المهدية الذين كانوا حول الخرطوم وفى مقدمتهم الشيخ مضوي
عبد الرحمن وفى ثاني يوم وصوله الى الجريف جمع مقاتلته وهجم بهم على
الاستحكام فسكت الجنود ولم يرموه بالنيران حتى اذا صار علي قرب الف
ومائتي متر من الاستحكام انفجرت فيهم الالغام التي كانت مدفونة في الارض
واطلق الجنود النيران علي العدو فتقهقر أبو قرجة وبلغت خسارته أربعة آلاف
قتيل عدا المجروحين

وكانت هذه الالغام قد وضعت قبل زحف أبي قرجة بنحو عشرين

يوما وقام بتجربتها غردون والمستر پاور قنصل انكلترا فى الخرطوم

وعاد أبو قرجة الى معسكره فى الجريف وأخذ يوالي اطلاق النار على الاستحكام دون ان يجسر على الدنو منه وكان مع أبي قرجة نحو مائة نفر من أقاربه الدناقلة وكانوا نخاسين فى جهات خط الاستواء ولهم مهارة فى اتقان رماية الرصاص مثل اكثر النخاسين حتى انهم يقفون فى ظلام الليل على بعد مرمى الرصاص وينادون باسماء دناقلة نخاسين بقوا على ولاء الحكومة هم وقائدهم ساتى بك الدنقلاوى الذي كان نخاسا أيضا فاذا أجابهم المنادي قذفوه بالرصاص فيصيبه وأخيرا أصدر غردون امرا منع به كل كلام بين رماة أبي قرجة وساتى بك

ومكث أبو قرجة محاصرا الخرطوم من شهر رجب الى اليوم السابع من شهر شوال حتى هزمه محمد علي باشا وسنعود الى ذكر ذلك

ذكر تفشي الجدري بين الدراويش

كان غردون أمر بوضع مادة الجدري في جوف الكلل فاذا قذفت من المدافع وقعت فى وسط الدراويش بغير أن تنفجر فيأخذونها ويجدون الماء فى جوفها فيقولون انها من كرامات المهدى ويتبركون بالمادة الجدرية ويمسحون بها وجوههم ففشا فيهم الجدري وقدرعدد الوفيات به كل يوم بخمسين نسمة ولم يفطنوا لشيء ما واتصلت الاخبار بالمهدى فبنى عليها مابنى وزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأن الكلل تحول ماء كرامة له وكثير من البسطاء يعتقدون ان هذه المكيدة كرامة ثابتة للمهدي

واقعة الجريف

فى صبيحة اليوم الرابع من شهر شوال سنة ١٣٠١ انتدب غردون الميرالاي محمد على بك حسين ميرالاى لواءالسودان الاول ونحوألف جندي من الباشبوزق وعدة الجميع خمسة آلاف مقاتل وخمس بواخر قد صفحت بالفولاذ لمهاجمة معسكر أبي قرجة فتلقاهم بثبات غريب وما زالوا فى كروفر حتى جاء الليل ولم تسفر الحرب عن نتيجة وثابر القائد على خطته وأحاط بطوابى الدراويش وضايقها من جهةالبحر وهاجمها من البرمدة يومين وفي اليوم الثالث تمكن محمد على بك من الاحاطة بطوابى العدو حيث استولى عليهابعد الظهر وفر أبو قرجة ومعه أربعمائة نفر من خواصه وقتل من الدراويش نحو عشرة آلاف مقاتل وغنم الجنودمافى معسكرهم من المؤن والذخائرواحتملوا شيأ كثيراً من الاقوات التى ساعدت سكان المدينة وخفضت ثمن الاقوات فيها

وعثر الجنود في منازل الامراء على كميات كبيرة من المسكرات كانوا يخفونها في منازلهم ويعاقرونهاسراً ولحق أبوقرجة بالفلاة وأرسل يعلم المهدي بما أصابه من الفشل فوافاه الكتاب وقد غادرالرهد قاصداً « شاة »القريبة من النيل الابيض فاستاء من هذا النبأ

وروى سلاطين باشا ان عبد الله التعايشي استدعاه وقال له ان غردون رجل داهية وذو حيل وانه هجم على أبي قرجة وهزمه من الجريف وان المهدى ينوي ارسال عبدالرحمن النجومي لانه الرجل الذي يمكنه قهرغردون فقال له سلاطين عسى أن لاتكون خسائر أبى قرجة عظيمة فقال لاحرب بغير خسارة

وكتب المهدي الى ابي قرجة يشجعه ويأمره بالانضمام الي الجيش الذى يقوده عبد الرحمن النجومى وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأن هذه المصيبة خاتمة المصائب التي يختبر الله بها أصحابه وانها آخر هزيمة تلحقهم حتى يفتحوا الخرطوم

واقعة الحلفاية

(وهزيمة الدراويش فيها)

وفى يوم ٨ شوال سنة ١٨٠١ بعد عودة محمد على بك من الجريف سار بالقوة التي كانت معه الي جهة الحلفاية وكان بها أولاد الشيخ العبيد الذين تقدم لنا ذكر حوادثهم وهجم على حصونهم فدافعوا نحو ثلاث ساعات ثم انهزموا واستولى الجنود على مواقعهم ولحق المنهزمون بالفلاة

وكان أبو قرجة أرسل الشيخ مضوى بخمسمائة مقاتل لتعزيز حامية الدراويش فى الحلفاية وذلك قبل هزيمته ببضعة أيام وعاد محمد على بك الي الخرطوم ظافراً بعد أن وضع حراساً على الحلفاية وأمرهم بهدم القرية وحمل أخشابها الى المدينة

وأنعم غردون على محمد بك برتبة اللواء الرفيعة وتلقاه بالاكرام حين عودته الي المدينة

وكان غردون يظن ان نتيجة الواقعتين الجريف والحلفاية ستكون عودة أهالى القرى الي الطاعة على أثر هزيمة الدراويش فخاب ظنه حيث فر الاهلون الى الدراويش وتركوا قراهم ومنازلهم ومزارعهم فاستفاد سكان المدينة بعض الفائدة حيث كانوا يؤلفون عصابات يخرجون بها ويحتملون الغلال وسائر

الاقوات من منازل الاهلين

ووقعت أنباء هذه الهزيمة موقعاً سيئاً عند المهدى حيث تقدم بنفسه الى الخرطوم

على ان الذى ساعد على هذه الانتصارات هو ارتفاع النيل ومساعدة البواخر للجنود ولولا ذلك لم نقدر على هزيمة العدو وطرده من الجريف والحلفاية

وبقي الحال على ماهو عليه فى المدينة وابتعد الدراويش عن ضفة النهر وأوغلوا فى الفلوات واسترد المدفع الذي غنمه الدراويش فى الواقعة التى خان فيها السعيد حسين الجيمابي وحسن ابراهيم الشلالى

واقعة ابي حراز

أبو حراز قرية واقعة في الضفة الشرقية للنيل الازرق وهى تبعد عن الخرطوم بمسيرة سبع مراحل وهى التي قتل فيها الشريف أحمد بن طه وقد تقدم ذكر قتله

سار اليها محمد على باشا فى خمس بواخر تقل أربعة آلاف جندي بعد واقعة الحلفاية يدعو أهلها الى الطاعة والخضوع للحكومة ففروا من وجهه ولم يحاربوه وأباح القرية للجنود فنهبوا ما فيها من الاقوات وشحن من غلالهم نحو الفى أردب ونحو ثلاثمائة قنطار من البن الحبشي لان هذه القرية مركز للتجارة الحبشية والقوافل الذاهبة الى حدود الحبشة والآيبة منها تنزل فيها ثم عادت الجنود الى الخرطوم بغير ان تصادف كيداً

واقعة القطينة وقتل ساتي

القطينة قرية واقعة جنوب الخرطوم على ضفة النيل الابيض وساتي بك هذا كان نخاسا ثم صار موظفاً أميرياً في بحر الغزال ولما وصل غردون الى الخرطوم عينه قائداً على اربعمائة جندي من الباشبوزق وأصلهم من جنود الخطرية الذين كانوا في بحر الغزال

وفي أواخر شهر شوال سنة ١٣٠١ اتصل بغوردون ان شخصا اسمه على عبد الله من أهالي القطينة وصهر المهدي جمع جموعا من بلده ينوي بهم الزحف على الخرطوم فانتدب ساتي بك بجنوده على باخرتين لاكتشاف أولئك المجتمعين

ولما وصلت الباخرتان الى القطينة هجم على عبد الله ومن معه على ساتي بك هجوما عنيفا فثبت لهم وهزمهم عدة مرات وما زالوا في كروفر حتى أصيب ساتي بك برصاصة قضت عليه وانهزم جنوده ولحقوا بالباخرتين اللتين أقلتا بهم وعادتا الى الخرطوم

واقعة العيلفون

العيلفون قرية على ضفة النيل الازرق تبعد عن الخرطوم بمرحلة واحدة

ولما انهزم الدراويش من الحلفاية لحقوا بام ضبان قرية الشيخ العبيد وفاوضوه في الامر فكتب منشوراً استصرخ فيه القبائل فاجتمع عليه نحو عشرة آلاف مقاتل وأرسل الشيخ مضوي الى العيلفون لجمع أهاليها وأهالي القرى التي حولها فتألب عليه نحو خمسة آلاف مقاتل عسكر بهم في العيلفون

وانتدب غردون اللواء محمد علي باشا ومعه خمسة آلاف جندي ونحو خمسة آلاف من أهالي الخرطوم خرجوا متطوعين طمعاً في الكسب وقد أذن لهم غردون بمرافقة الحملة لأن مايكسبونه من الاقوات والماشية يعود بفائدة إيجاد القوت في المدينة وسارت الحملة من الخرطوم أوائل شهر ذي القعدة سنة ١٣٠١ على خمس بواخر وعشرة صنادل ومراكب شراعية

وعند ماوصلت العيلفون هجمت على العصاة فقابلوها بثبات عظيم ثم أحاطت بموقعهم واصلتهم ناراً حامية وقتلت منهم عددا يربو على الاربعة آلاف وفر الشيخ مضوي في نحو مائتين ولحق بام ضبان وانضم الى الشيخ العبيد وغنمت الحملة شيئاً كثيرا من الماشية والحبوب ووصلت أخبار الانتصار الى غردون فسر بها وملأت الآمال جنبيه وأثنى على محمد علي باشا وأعجب بمهارته

واقعة ام ضبان وقتل محمد علي باشا وحملته

لما انتصر محمد علي باشا في واقعة العيلفون ارسل جواسيسه الى ام ضبان فعادوا وأخبروه كذبا بان الشيخ العبيد في عدد قليل من الرجال وان الذين حوله لا يبلغون الالف ويظهر أن أولئك الجواسيس كان الشيخ العبيد استمالهم ولقنهم هذه الاقوال ليجر الحملة الي ام ضبان وهناك يبطش بها في وسط الغابات وقد افلح سعيه حيث لم يكد محمد علي باشا يسمع هذا الخبر حتى زحف بحملته ومتطوعته على ام ضبان التي تبعد عن العيلفون بنحو أربعة أميال في الصحراء

ولما توسطت الحملة الطريق خرج عليها كمينان من وسط الغابات كمين من خلفها والثاني من أمامها وداهماها على غرة فانتثر نظام الجنود وأثخن العدو

فيهم قتلا ونزل محمد علي باشا واركان حربه عن دوابهم وجلسوا علي الارض حتى قتلوا

وكان فعلهم هذا تبعا لعادة متبعة عند أهالي السودان وهى أن لا يفر الانسان سيما اذا كان رئيسا أو مشهوراً بالفروسية لئلا يقتل منهزما لان ذلك من اكبر العار عندهم ولولا ذلك لكان في استطاعة محمد علي باشا واركان حربه النجاة بدوابهم

وقد وقعت هذه النازلة وقعا سيئا عند غردون وأسقطت منزلة محمد علي باشا من قلبه لانه كان معجبا بمهارته ولم يكن يظن انه يتبع عادة همجية يضحي فيها حياته وحياة اركان حربه فضلا عما اتاه من الطيش والتهور اللذين ساقاه الى المخاطرة بالزحف علي أم ضبان بدون صدور اذن من غردون الذي كان يؤكد على كل الحملات التي يبعثها بعدم التوغل فى الفلوات والابتعاد عن شاطئ النهر وقد خالف محمد على باشا هذه القاعدة وساق الحملة الى موقف الموت والهلاك

ونجا من رجال الحملة نحو مائتى جندى فقط والذي ساعدهم علي النجاة نحو ثلاثين فارسا كانوا مع الحملة فامتطى كل اثنين ظهر حصان وامسك بعضهم باذناب الخيل فوصلوا الى البواخر التي أقلعت بهم الى الخرطوم وما انتشر نعي القتلي حتى ضجت المدينة بالبكاء والعويل اذ لم ينج احد من المتطوعة ووقع الخبر موقع الصاعقه على غردون الذي أيقن بحرج الموقف وان العاقبة ستكون سيئة وخصوصا أن الجواسيس اخبروه بتقدم المهدى على الخرطوم وان عبد الرحمن النجومى على وشك الوصول اليها

هذه الواقعة جاءت ضربةً قاضية على الخرطوم اذ فقدت فيها نحو خمسة

آلاف جندي جلهم من رجال الالاي السوداني الاول ومن أقوى الجنود الذين فى الخرطوم واكثرهم دربة ولولم يفقد غردون هذه الجنود لكان فى الامكان استخدامها فى مواقع كثيرة مثل واقعة الجريف والحلفاية وأبى حراز والعيلفون ولا يخفى ان تلك الوقائع عادت بفائدة طرد العدو أولا وجلب الاقوات ثانيا ولو استمرت هذه القوة تهاجم البلاد في ابان الفيضان وتغنم ما فيها من الاقوات لاجتمع فى المدينة شيء كثير منها ولم تقع الحامية والمدينة بين انياب المجاعة التي كانت من أقوى الاسباب التي ساعدت المهدي على اسقاطها ووقوعها بين مخالبه

أوراق البون

لما بدأ حصار الخرطوم كانت الخزانة الاميرية خالية من النقود فاصدر غردون أوراق بون من فية قرش واحد الي الف قرش وكتب على كل ورقة ما يأتي «هذا المبلغ مقبول ونجرى دفعه من خزينة الخرطوم أو مصر بعد مضي ستة شهور من تاريخه ابريل سنة ١٨٨٤» ويلى ذلك ختم غردون وتوقيعه بخط يده

وصرفت مرتبات الحامية والمستخدمين من هذه الاوراق ولكن التجار لم يقبلوا التعامل بهذه الاوراق فرفعوا أثمان الاشياء الى درجة جعلت قيمة المائة قرش كعشرين قرشا فقبض غردون على اثنين منهم وأمر بابعادهما عن الخرطوم خارج الحصون ليلحقا بالدراويش ثم رق لهما وأعادهما الي المدينة بعد ان اكد عليهما بعدم العودة الى مثل هذا الذنب فاعطياه الذمام على الوفاء

وبالرغم عن التشديدات سقطت قيمة أوراق البون حتى صار الصرافون يأخذون المائة قرش بقرش واحد واستمر هذا السقوط الي نهاية الحصار ووقوع المدينة في قبضة العدو

ولم يكن هذا السقوط واقفاً عند ورق البون وذلك ان قيمة الجنيه الانكليزي سقطت حتى صار الصرافون لا يقبلونه الا بريالين أعنى اثنين وثلاثين قرشاً مصرياً وتناول هبوط قيمة الجنيه صنف الذهب كله فان الاوقية من الذهب السنارى الذي هو كالذهب البندقي تباع بثمان ريالات مجيدية أو أقل وليس لذلك سبب غير ان الذهب فى الخرطوم أكثر من كل أصناف المعاملة وصغار الباعة يأبون التعامل بالمسكوكات الذهبية مثل سائر أهالى السودان ويفضلون الريال المجيدى على أى نوع كان من النقود

وقد كانت أوراق البون فى بداية اصدارها مكتوبة بخط اليد وفى ذات يوم جاء الي صراف الخزانة شماس من القسوس الافريقيين كان بيده اوراق من ورق البون يروم توريدها فى الخزانة وأخذ رجعة بها على مالية مصر وكانت هذه الاوراق مما حصله هذا الشماس من ثمن أثمار بستان لاولئك القسوس واسم هذا الشماس دومينيكو

ولما قلب صراف الخزانة تلك الاوراق ظهر له ان بعضها مزور فأمسكها وساق دومينيكو الى غرفة وكيل المالية الذى تحقق تزوير تلك الاوراق وأسرع بابلاغ غردون الذى تولي استنطاق الشماس بنفسه حيث ظهر له انه لم يكن هو الفاعل ثم حجز الاوراق المزورة عنده وأمر باعطائه بدلها وبث العيون في المدينة للوقوف على الفاعل فقبض على صابر وأخيه ابنى عبد الغنى السلاوي فاعترفا امام غردون بانهما الفاعلان وضبطت الآلة التى صورا عليها ختم

غردون وتوقيعه وقالا ان الذي اضطرهما لارتكاب هذه الجريمة هو الضنك المسبب عن الحصار فعفا عنهما ولم يعاقبهما وأحسن على كل واحد منهما بخمسين قرشا مرتبا شهرياً يتناوله من الخزينة ومن ثم أمر بطبع أوراق البون في المطبعة الاميرية ولم يجسر أحد بعد ذلك على تقليدها

ذكر وصول البواخر الى سنار

فى أوائل شهر ذي القعدة سنة ١٣٠١ هجرية أرسل غردون الميرالاي بخيت بطراق بك ومعه اربع بواخر الى سنار فوصل الى نقطة (جادين) الواقعة شمال مدينة سنار فألفى بها حامية من سنار تلقته بالترحاب وأخبرته ان المدينة باقية للآن وانها تمكنت من قهر العدو عدة مرات وان الأقوات متوفرة فيها ثم سلمته الف أردب من الذرة حملها على بواخره وعاد بها الى الخرطوم فانتدب غردون اللواء محمد نصحي باشا بالبواخر الاربع ودفع له عشرة آلاف جنيه من ورق البون لتصرف منها مرتبات الحامية بسنار وأرسل الاعلانات بالانعام بالرتب والمداليات على مدير سنار وضباط حاميتها وكبار موظفيها ومن هاته الرتب رتبة اللواء للمرحوم حسن صادق باشا مدير سنار وقومندان حاميتها

وفى أواخر شهر ذي القعدة وصل محمد نصحي باشا بالبواخر الى سنار وقوبل بفرح وابتهاج عظيمين من الحامية والسكان وقفل راجعاً ومعه ألف وخمسمائة اردب من الذرة

ذكر خيانة ابراهيم رشدي كاتب غردون

كان ابراهيم رشدى كاتباً صغيراً فى الحكمدارية ثم صار كاتباً لججلرباشا الالمانى الذى كان وكيلا للحكمدارية وفصل عنها وعين مفتشا لمنع تجارة الرقيق فقدم القاهرة معه واستقال ججلر باشا من وظيفته وبقي ابراهيم رشدى بالقاهرة حتى قدمها غردون فعينه كاتباً له وسافر معه فاحسن عليه بالرتبة الثانية وأبلغ مرتبه الى ستين جنيها شهريا مع ان مرتب هذه الوظيفة كان لا يتجاوز عشرين جنيها وتحصل ابراهيم رشدي على ثقة عظيمة عند غردون فاستعمل هذه الثقة فيما يعود عليه بالمنافع الشخصية حيث أخذ يبيع الوظائف بيع السلع حتي حصل على ثروة طائلة من هذا السبيل وليته كان يبيع الوظائف لمن فيهم بعض أهلية أو استحقاق

وكان له والد يبلغ من العمر زهاء ثمانين عاما كان ضابطا برتبة ملازم ثان وهو أمي لا يعرف الكتابة والقراءة واسمه محمد أغا العتبانى فرقاه الى رتبة اميرالاى وعينه قومنداناً للطوبجية حالة كونه لا يعرف شيئاً من هذا الفن وغاية أمره انه كان ضابطا فى البيادة برتبة ملازم ثان كما رقى كثيراً من ذوي قرابته الى وظائف سامية وكلهم بعيدون عن الاهلية والاستحقاق بعد السماء من الارض

ومن هاته الترقيات انه رقى عديله الى وظيفة رئاسة مجلس الاستئناف مع انه لا يعرف كلمة من القانون وكانت صناعته البزازة فى الخرطوم ورقى واحدا من أصهاره كانت صناعته تبييض الاواني النحاسية الى رتبة ملازم ثان فى الجيش وسماه «خضر جودت» بعد ان كان اسمه خضر النحاس ومثل

هـذه الترقيات كثير وانما أوردنا بعضها هنا للدلالة على أعمال هذا الـكاتب

ولم يمض على وصول غردون الى الخرطوم اكثر من ستة شهور حتى أصبح ابراهيم رشدي فى خلالها ذا ثروة تمد بعشرات الالوف وبني له داراً زخرفها ووضع فيها من الرياش ما ادهش الناس وأوجب ارتياب غردون فى نزاهته

ولما وصلت بواخر نصحي باشا الى سنار كان معه فتح الله افندى جهامي الـسوري أحد معاونى الحـكمدارية فسلمه المدير حسن صادق باشا عشرين أردبا من الذرة البيضاء المعروفة باسم (مقد) وهو نوع من الذرة لكنـه أبيض وطعمه قريب من طعم القمح ونحو عشرة قناطير من السمن وثلاثين خروفا من الضأن ودفع له كتابا خصوصيا برسم غردون

ولـما عادت البواخر الي الخرطوم سـلم فتح الله افندى الذرة والسـمن والخرفان والـكتاب الي ابراهيم رشدى بصفته كاتبا لغردون ففض الكتاب وقرأ ما فيه حيث علم ان هذه مرسلة من مدير سنار هدية لغردون فارسل هذه الاشياء الي منزله ولم يذكر لغردون شيئاً من أمرها حتى اتصل به ذلك من طبيبه الذى تلقى هـذا الخبر من فتح الله افندى جهامى فاستدعى ابراهيم وسأله فانكر انه تناول كتابا أو شيئاً من فتح الله المذكور فشهد بعض موظفي الحكمدارية بانهم رأوا الـكتاب لما دفعـه اليه فتح الله وانهم رأوا الاشـياء المختلسة وانه أخبرهم بان غردون تنازل له عنها فامر بتفتيش منزله فوجدت فيه الاشياء فى أوعيتها وعليها كتابة تفيد انها مرسـلة برسم غردون وفتشت أوراقه فوجد الكتاب المرسـل من مدير سـنار بينها فاغتـاظ غردون من هذه الحادثة التي برهنت له على خيانته ودناءته مع كونه موضع ثقتـه وامين سره وأمر بالاشـياء فاضيفت لجانب الميرى لانه كان من عادته أن

لا يقبل هدية أبدا من صغير أو كبير وقد رأيت ذلك منه منذ مرافقتي له حتى انه كان اذا نزل بقرية مدة تجوله في السودان لا يقبل من أهل القرى ضيافة ولا شيأ ما الا ويدفع ثمنه حتى شربة الماء لمن يناولها له ولو على ضفة النهر

ثم انه أمر بتشكيل مجلس لتحقيق جرائم ابراهيم رشدي فثبت ان مااغتاله ثمنا للوظائف التي باعها يربو على عشرة آلاف جنيه وانه كان قد زور توقيع المرحوم جعفر مظهر باشا حينما كان حاكماً على السودان

وظهر من التحقيق أيضا انه كان قد تناول رشوة من الخائنين السعيد حسين الجميعابي وحسن ابراهيم الشلالي اللذين ذكرنا خيانتهما وقتلهما وأن كثيراً من الذين ابتاعوا الوظائف منه كانوا يقصدون من شرائها الوقوف على أسرار الحكومة ليوقفوا المهدى عليها

ولدى نهاية التحقيق حكم عليه بالتجريد من كل ألقابه ورتبه والفصل من وظيفته والحرمان من كل وظيفة أميرية وعين بدله قرياقص بك القمص الذي كان وكيلا للمالية ومات ابراهيم رشدى قتيل الدراويش يوم سقوط الخرطوم

ذكر ما تداينه غردون من النقود

ذكرنا ان ورق البون هبطت قيمته هبوطا فاحشا فتذمر الجنود من هذا الهبوط فاخذ يطلب من الاعيان نقوداً بوجه السلفة فكانوا لا يقدمون له الا قليلا واخيراً قال لهم اني استدين منكم لنفسي لا للحكومة وأجعل لكم فوائد على كل ما استدينه منكم فتسابق الناس الى اجابته لانهم كانوا يعتقدون فيه الوفاء فقدموا له في يوم واحد عشرة آلاف جنيه حرر بها كمبيالات

على نفسه بخطه وختمه وجعل مواعيدها كلها وصول الحملة الانكليزية الى الخرطوم وبهذه الطريقة اجتمع لديه من المال ماقام بمرتبات الحامية وخفف عنها ما كانت تتذمر منه من هبوط اوراق البون ذلك الهبوط الفاحش

ذكر مدالية حصار الخرطوم

صنع غردون مدالية فى وسطها الهلال والنجمة مكتوب حولها هكذا « حصار الخرطوم سنة ١٣٠١ » وجعلها على ثلاث درجات الاولي ذهبية والثانية فضية والثالثة نحاسية

وكل انسان كان محصوراً فى الخرطوم يحق له حمل هذه المدالية من النوع الثالث بغير أن تكون بيده براءة واما النوعان الاول والثانى فيحتاج حاملهما الي براءة من غردون

وظائف المؤلف بعد الاصابة

لما أصبت فى واقعة الحلفاية كنت بوظيفة قومندان الحامية ومكثت ثلاثة شهور طريح الفراش ولكننى كنت قائما فى خلالها باعباء وظيفتي فكانت تقارير القواد تصل الى واصدر لهم الاوامر ليل نهار بدون انقطاع

ولما منّ الله علىّ بالشفاء استحسن غردون تعييني في وظيفة رئيس أركان حرب الحكمدارية حيث اكون مشرفا على جميع أعمال قومندان الجنود الذي عين بدلي

ولما كثرت دسائس المهدي داخل الخرطوم وخيف وقوع ما لا تحمد مغبته اضاف غردون وظيفة محافظ الخرطوم على عهدتي مع بقائى فى

وظيفة رئيس أركان حرب الحكمدارية فمكثت قائما باعباء هاتين الوظيفتين حتى سقطت الخرطوم .

وكنت أغدو الى الحكمدارية في الصباح لتلقي تقارير القواد ثم ابرحها الى المحافظة في الظهر حيث أتلقى أخبار المدينة ثم أعود الى الحكمدارية في المساء لاصدار الاوامر عن الحركات العسكرية ثم أقضي اكثر ساعات الليل متردداً بين الحكمدارية والمحافظة وقد تمضي عليّ ثلاثة أو أربعة أيام لاأجد في خلالها فرصة اذهب فيها الى منزلي وفي اكثر الليل تطرأ أحوال توجب مروري على مواقف الحامية بعد نصف الليل وربما ركبت باخرةً للذهاب الى حصن راسخ بك أو حصن أم درمان أو حصن جزيرة (توتي)

وقد فوض اليّ النظر في أمر توزيع الديون التي تطلب من أعيان المدينة وقبضها منهم وقد اتفق لي مرات عديدة ان أرسل الى منزلي أطلب غذاء وانا بالمحافظة مثلا ثم يطرأ ما يلجئنى الى التوجه الى الحكمدارية فاوصي بارسال الغذاء اليّ فيها ثم اضطر لمفارقتها قبل ان يدركني وأنابها وربما اكون فى مثل هذه الحالة فى حاجة شديدة الى الغذاء ولا يمكنني تداركه اذ المجاعة ضاربة أطنابها فى المدينة

وقد وقع اكثر من مرة ان الخادم يؤخذ منه الغذاء ويختطفه الناس في الطرق قبل أن يهتدي الى المحل الذى أنا فيه

ذكر احمد العوام واحراقه الجبهخانه وبقية حوادثه

ولما وصل غردون الى الخرطوم وأصدر الاوامر باطلاق المسجونين مهما كانت جرائمهم اطلق احمد العوام بضمانة رجل من سكان الخرطوم يدعى أبا

بكر الجاركوك وكان هذا الرجل مسجونا بعد النفى من الاسكندرية لانه كان من أهليها وذا ضلع كبير فى حوادثها العرابية

وكانت المخازن المعدة لحفظ الجبهخانه خارج المدينة بالقرب من الاستحكامات . ولما بدأ الحصار كانت مقذوفات العدو تصل اليها فأمر غردون بنقلها الى مكان وسط المدينة تصير فيه بعيدة عن كل خطر فلم يوجد في المدينة بناء يقوم بالغرض غير دار الكنيسة الكاثوليكية وكان القسوس قد هجروا الخرطوم الى مصر ولم يبق بها غير الشماس دومينيكو فعرض عليه غردون استئجار دار الكنيسة لحفظ الجبهخانات فامتنع من الاجابة ورفع الامر الى المسيو هنزل قنصل النمسا في الخرطوم فاحتج على غردون بعدم موافقة ذلك وحصل بينهما ماأدى الى انقطاع العلائق ونقلت الجبهخانه الى دار الكنيسة وكان منزل احمد العوام ملاصقا لها فأشعل النار في الجبخانه بقصد احراقها فدورك الامر واطفئت النار قبل ان تبلغ أمكنة الموادالملتهبة

وكنت وقتئذ مباشراً لاطفاء هذا الحريق فحصرت الشبهة في احمد العوام وبعض الجيران والقيت القبض عليهم وأخذت أباشر التحقيق بنفسي فظهرت براءة الجيران فأطلقتهم ووجدت النقب الذي وصلت منه النار الى الجبهخانات فى منزل احمد العوام

وقبل ذلك وصلت اليّ تقارير الجواسيس بان احمد العوام هذا ميال الى المهدي وانه ألف كتاباً سماه « نصيحة الخاص والعام في ذكر المهدي عليه السلام » فرفعت خلاصة التحقيق الى غردون الذي أصدر امره الى فتح الله جهامى احد معاوني الحكمدارية أن يأخذ معه الشيخ حسين المجدي رئيس أساتذة المدرسة الاميرية والمدرس بجامع الخرطوم ويفتشا منزل احمد العوام

ويضبطا أوراقه فتوجها وضبطا الاوراق ووجدا النصيحة المذكورة مكتوبة بخط يده ووجدا غيرها كثيراً من القصائد التي ألفها في مدح المهدي وتصديق دعوته والحض على رفع لواء العصيان على الحكومة وحملت الاوراق كلها الى غردون الذي أمر بزج احمد العوام في السجن وأبقي الاوراق عنده وأحيل على المحاكمة فحكم عليه بالاعدام فاستبدل غردون هذا الحكم باخراجه الى الدراويش فعارض المجلس في ذلك قائلا ان لحاقه بالمهدي لابد أن يكون ذا عاقبة سيئة حيث يوقفه على حالة المدينة وينبهه الى ماهو في غفلة عنه فقبل ماأشار به المجلس وأمر بصلب احمد العوام فراجعته في أمره والتمست أن يكون انفاذالحكم ليلا في منزله فقبل التماسي وأعدم احمدالعوام في منزله ليلا

وبعد سقوط الخرطوم وقعت النصيحة والقصائد في قبضة المهدي فسر بها وأمر بطبعها فطبعت وأظهر الاسف على قتله وقال انه أشد ايماناً من مؤمن آل فرعون وتمنى أن يكون للعوام ذرية أو ذوو قرابة يصلهم ببعض ما كان يصل به احمد العوام لو قدر له الاجتماع به

أما النصيحة فمقسمة الى خمسة فصول ومقدمة. الفصل الاول في ذكر امامة جلالة السلطان عبد الحميد حيث طعن على امامته أشد الطعن وجاء بأدلة أوهى من نسج العنكبوت ونذكر منها نبذة للدلالة على سخافة مؤلفها وفقدانه العقل وهي انه زعم ان لفظة خان الرادفة لاسماء الخلفاء العثمانيين مأخوذة من الخيانة وذلك ان السلطان سليم خان سرق مخلفات النبي صلى الله عليه وسلم وخان العهد الذي أعطاه لمن كانت عنده بارجاعها له ولا يخفى مافي ذلك من الدلالة على مبلغ علم ذلك الجاهل . وفي الفصل الثاني مطاعن كلها من قبيل تفسيره للفظة خان موجهة الي ساكن الجنان محمدعلى باشا محيي

الديار المصرية وفى الفصل الثالث ذكر الحوادث العرابية والثناء على أولئك الثوار . والفصل الرابع فى دعوة أهالى القطرين المصرى والسوداني لاتباع المهدى وانه هو المنتظر

وأما الفصل الخامس فقد خصصه لذكر المهدى وقال انه يؤجل الكلام فيه الى مابعد اجتماعه بصاحبه فكتب فيه الشيخ الحسين زهرا كلاما طويلا يرمي به الى ماجاء فى الاحاديث من ظهور المهدى ويرد على الذين تذرعوا بما ورد من الاختلاف الى تكذيبه

بعثة الكولونيل ستيوارت وقتله

لما أبيدت حملة محمد على باشا ونمى الي غردون تقدم عبد الرحمن النجومي الي الخرطوم وان المهدى زحف عليها بخيله ورجله ايقن ان مصيره الي الهلكة ولا نجاة له بغير وصول النجدة اليه من مصر

ولما كان غردون لايجهل ان مصر لاتستطيع مساعدته الا اذا شاءت حكومة جلالة الملكة فيكتوريا وقد قلنا ان غردون حاول عبثا تحويلها عن الخطة التي وطدت العزم على انفاذها وهى ترك السودان للفوضى والقاء حبله علي غاربه بعث الكولونيل ستيوارت وزوده بكتب الي رؤساء حكومة الجناب الخديوى وحكومة جلالة الملكة وكل هذه الكتب لاتخرج عن التماس المونة وطلب النجدة مع وصف حالة سكان الخرطوم وما يتوقعه لهم من المصيبة اذا وقعوا تحت مخالب المهدي

وأحصى المصريين الذين يسكنون الخرطوم فبلغ عددهم مائتى الف نسمة وارسل قائمة الاحصاء مع الكولونيل ستيورات

ثم استدعى أعيان الخرطوم وضباط الحامية والموظفين والنزلاء الاوروبيين الى مجلس عام وشاورهم فى انه يريد عمل طريقة لخلاصهم من قبضة المهدي وانه خابر الحكومتين المصرية والانكليزية وأنهما اذا لم تصغيا لندائه فلا بد من مخابرة جلالة السلطان عبد الحميد خان باسم سكان السودان عموما وسكان الخرطوم خصوصا يسأله احتلال سواحل البحر الاحمر سواكن ومصوع بجنود شاهانية وارسال مائة الف جندي من الجيش العثماني لاخماد الثورة وتسكين حركة العصيان وتكون بعدئذ اقاليم السودان خاضعة لسيادة جلالته مباشرة بدون واسطة الخديوية المصرية وان حكومة السودان تقوم بنفقات هذه الجنود بعد زوال الفتن واعادة المياه لمجاريها فوافق الجميع على هذا الاقتراح ووقع اربعة آلاف رجل من أعيان الخرطوم عدا الضباط والموظفين والملكيين علي عريضة استرحام بهذا المعنى ترفع الى مقام مولانا السلطان عبد الحميد خان ووقع عليها أيضا كل مكاف من سكان الخرطوم وسلمت العريضة الى الكولونيل ستيوارت واكد عليه غردون بضرورة ارسالها الي جلالة السلطان على لسان البرق لدي وصوله الي دنقلة

وعين المستر پاور قنصل انكلترا في الخرطوم لمرافقة الكولونيل ستيوارت والموسيو هربن قنصل فرانسا فى الخرطوم واوصي الاثنين بمساعدة الكولونيل ستيوارت واكد على الموسيو هربن ببذل المساعدة لدى حكومة فرنسا حتى لا يقف حملة القراطيس المصرية من الفرنسويين حجر عثرة في طريق أي مشروع يعود بفائدة انقاذ الخرطوم من الوقوع تحت جبروت المهدى

نعم ان غردون كان لا يجهل ان انكلترا لا ترضى احتلال الجنود العثمانية لسواحل البحر الاحمر كما انها لا ترضى بادخال جيش تركي في السودان

ولـكنه قصد أن يكون التاريخ حكما نافذ الحـكم بينهما وبينه وان لا تكون عليه تبعـة هلاك الالوف من سـكان الخرطوم امام الله والعالم أجمع ولـكن لسوء الحظ لم تكد تصل تلك العرائض الى دنقلة حتى اوقعها نكد الطالع في يد المهدي بعد قتل الكولونيل ستيوارت فاستفاد منها فائدة حيث تحقق ان حكومتي انكلترا ومصر متقاعـدتان عن إرسال المـدد الى غردون فوطن العزم على الزحف على الخرطوم والقضاء الاخير على سلطة الحـكومـة في السودان كلها حيث علم حقيقته مقصد انكلترا وانها ما بعثت غردون الا ليسلمه السودان

وعينت الباخرة عباس لنقل الكولونيل ستيوارت ومن معه وعليها مدفع وأربعة عساكر طوبجية ورافق الكولونيل ستيوارت حسن افندي حسنين تلغرافجي انكليزي بالخرطوم بصفة مترجم ورافقه أيضا محمود حلمي أفندي غراب باشكاتب المالية بصفة كاتب له

والتمس من غردون نحو ثلاثين رجلا من الاوروبيين والسوريين كانوا تجاراً في الخرطوم ان يسافروا بعائلاتهم على مراكب شراعيـة تقطرها الباخرتان اللتان تخفران باخرة ستيوارت حتى يجتازوا بربر ثم هم يجتازون الشلالات فيصلون الى حدود دنقله فاجاب التماسهم وعين باخرتين كبيرتين وعليهما نحو الف جندي ومدافع تحت قومندانية القائمقام عثمان حشمت بك وأصـدر اليه الاوامر بالمسـير بجانبي باخرة ستيوارت وان تكون مراكب التجار مقطورةً خلف الباخرتين فاذا اجتازوا بربر ترك المراكب وشأنها وان يقف بالباخرتين عند مكان اسمه (غنينيطه) شمال بربر مدة أربع وعشرين ساعة حيث تكون في خلالها باخرة الكولونيل ستيوارت اجتازت الشلالات وكان عنـد الدراويش باخرتان كبيرتان في بربر يخشى منهما ان تتأثرا باخرة

الـكولونيـل ستيوارت وتلحقا بها المطب وعـين مع ستيوارت ملاحين دنقليين لهما معرفة باجتياز الشلالات

وغادر الكولونيل ستيوارت الخرطوم في أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٣٠١ هجرية ومعه الباخرتان وخلفهما مراكب التجار ومكث سائراً ثلاثة أيام حتى بلغ بربر وكان الرصاص يهطل عليه في خلالها من ضفتي النهر كالمطر

ولما وصلوا بربر أطلق عليهم الدراويش القنابل من خمسة مدافع والرصاص ومع ذلك اجتازها بغير ان يصيبه أدنى ضرر

ولما وصلت البواخر والمراكب الى (غنينيطه) أمر عثمان حشمت بك بترك المراكب وكان الهواء عاصفاً فلم تستطع السفر

وأما باخرة الـكولونيل ستيوارت فاتجهت في سيرها جهة الشمال ولم تكد تسير ميلاً واحداً حتى أمر عثمان حشمت بك الباخرتين بالاقلاع والعودة الى الخرطوم فاندهش الكولونيل ستيوارت من عمل هـذا القائد ومخالفته للاوامر التي تلقاها من غردون فامر ربان باخرته بالاسراع في السير فاجتاز الشلال الأول بسهولة

ولما نظر الدراويش فى بربر عودة الباخرتين أرسلوا باخرة من اللتين عندهما لتلحق باخرة الكولونيل ستيوارت فظفرت بمراكب التجار وعادت الى بربر حيث لم تقدر على اجتياز الشلال وسار نحو خمسمائة من الدراويش على ضفة النهر ليلحقوا ستيوارت

وفى اليوم الثالث من اجتياز الباخرة للشلال وصلت الى جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب وهناك اختلف الملاحان الدنقليان فقال أحدهما الدنو من الشاطىء الغربى اسلم من الدنو من الشاطىء الشرقي وقال الآخر ان الدنو من

الضفة الشرقية اسلم من الدنو من الضفة الاخرى وبينما كانا يختلفان ارتطمت الباخرة بصخرة اتلفتها فدخلت المياه الى جوفها وألقى الملاحان الدنقليان انفسهما فى لجة النهر وسبحا فيه الى حيث لا يعلم أحد وجهتهما وألقي الكولونيل ستيوارت المدفع والخرطوش فى قاع البحر ونقل أمتعته وأمتعة من معه على زورق صغير كان معه

وعندئذ أظهر ستيوارت أسفه على تركه زورقين كان غردون قد أمره باخذهما وقال له انهما يساعدانك على النجاة اذا قدر لباخرتك عدم النجاة من الشلالات فتركهما ستيوارت ولم يعبأ بنصيحة غردون

وكان ستيوارت صعب المراس قوي الشكيمة مستبداً برأيه فى اكثر الاحوال

ولما استقر ستيوارت فى الجزيرة أشار عليه من معه أن يسافر على الزورق ومعه بضعة أشخاص ليصل الى حدود دنقله اذ لم يكن بينه وبينها غير مسيرة يوم واحد فرفض اقتراحهم ولم يقبله ثم عرضوا عليه أن يبعث رسلا على الزورق الى حدود دنقله فاذا وصلوا سالمين وعلم بهم قومندان الحدود أرسل مدداً لانقاذهم وكلتا الطريقتين كانت كافلة انقاذه وبلوغه دنقلة سالما ولكنه لم يقبل واحدة منهما أيضا

وفي أصيل النهار سمعوا صائحا على ضفة النهر فامعنوا النظر فعلموا ان الصائح هو ذانك الملاحان اللذان ذكرنا فناديا ستيوارت ومن معه قائلين لا باس عليكما وانكم ازاء قرية تدعي السلامانية وانها من حدود دنقله ولم تزل على طاعة الحكومة ولم تدخل في دعوة المهدي وهم يطلبون ارسال مندوبين يحققون بقاءهم على طاعة الحكومة

وكان حسن أفندي حسنين التلغرافجي الآنف الذكر يترجم هذه الاقوال الى اللغة الانكليزية بين يدى الكولونيل ستيوارت الذى أمر حسن أفندي حسنين ومحمود حلمى غراب أن يصطحبا معهما بضعة رجال من ملاحي الباخرة ويذهبوا الى قرية السلامانية من الشاطيء الشرقي للنهر فامتنعا وقالا له ان ذهابنا بهذه المأمورية مخاطرة بحياتنا فاحتدم غيظا وتوعدهما بالقتل رمياً بالرصاص اذا لم يبادرا بالذهاب فاطاعاه خوفا من هذا الوعيد واجتازا النهر على الزورق واجتمعا بالملاحين وقصدوا القرية فوجدوا ثلاثة أشخاص جالسين في فناء مسجد ومعهم رجل كفيف البصر فخاطبهم حسن حسنين ومحمود حلمي وقالا لهم ان باخرتنا قد غرقت امام قريتكم فان كنتم على طاعة الحكومة رجوناكم ان تمدوا لنا يد المساعدة لنصل الى دنقلة فاجابوهم بانهم لم يزالوا على طاعة الحكومة وانهم خاضعون لحاكم إقليم دنقلة مصطفى ياور باشا وحلفوا على المصحف الشريف بان ما قالوه عين الحقيقة وطلبوا من الرسولين ان يؤمناهم فقالا ان ذلك ليس من خصائصنا بل هو من خصائص الرئيس الذي هو الكولونيل ستيوارت وقفل الرسولان راجعين الى الجزيرة ومعهما رجلان من الثلاثة الذين جرت الحادثة معهم ورغب الرجل الضرير ان يسير معهما فسار الكل واجتازوا النهر على الزورق

ولما مثلوا بين يدي ستيوارت اعادوا ما قالوه لرسوليه اللذين أبلغاه ما دار بينهم من الحديث وما كان من أمر حلفهم على المصحف فلم يرتب في انهم صادقون في كل ما قالوه فامنهم على أنفسهم وبالغ في اكرامهم والاحتفاء بهم وأعادهم الى قريتهم وقضى تلك الليلة في الجزيرة

وفي صباح الغد جاءه الرجلان اللذان كانا عنده بالامس وقالا له ان

شيخ قريتنا المدعو سليمان بن نعمان بن قمركان مسافرا في بعض شؤنه وقد آب من سفره بعد عودتنا من عندكم بالامس وقد احضر نوقا لحملكم عليها الى دنقله وان النوق فى انتظاركم على الضفة الشرقية فاجتاز الكولونيل النهر ومعه القنصلان وخمسة ثلاثون ملاحا من خدام الباخرة واربعة جنود طوبجية وثلاثة موظفين ملكيين هم حسن حسنين ومحمود حلمي غراب وثالث قبطي كان كاتبا ايضا وبعد ان نقلوا متاعهم الى الضفة وجدوا بها سبع نوق وقيل لهم ان غيرها سيأتيكم على الفور وجلسوا منتظرين بقية النوق

ولما انتصف النهار جاء من القرية رسولان قابلا الكولونيل وقالا له ان شيخ البلد يدعوكم لمأدبة ادبها اكراما لكم فلبس ملابسه كأنه مدعو لمأدبة فى بلاد آمنة ولم يأخذ لنفسه أقل حيطة وسار معه القنصلان وحسن افندى حسنين ليترجم بينه وبين الاهالى

ولما اقتربوا من القرية قابلهم الاهلون بالبشاشة والترحيب وادخلوهم الى أودة كبيرة وجدوا بها نحو خمسين شخصا متزيين بزى التجار فرحبوا بهم واجلسوا كل اثنين على (عنقريب) ثم هنأوهم بالسلامة وخرجوا من عندهم بعد أن وعدوهم باحضار النوق لحملهم الى دنقلة

وبعد خمس دقائق عاد الخمسون رجلاً وبايديهم الاسلحة من الحراب والبلط الصغيرة ووضعوا السلاح في رقاب الكولونيل ستيوارت والقنصلين فسقطوا قتلاء يتخبطون فى دمائهم واصيب حسن أفندى حسنين بجروح عديدة سقط منها يتخبط في دمه فظنوه قد فارق الحياة مثل رفقائه الثلاثة

وتقدم نحو اربعمائة رجل من القرية الى شاطىء النهر وذبحوا جميع الذين كانوا هنالك من رجال الكولونيل ستيوارت وجمعوا ماعندهم من الاوراق

وارسلوها الى محمد الخير حاكم بربر من قبل المهدي فاسرع بارسالها الى المهدي الذي كان وقتئذ قد غادر الرهد ونزل فى جهة (شاة)القريبه من النيل الابيض فسر بها واطلق المدافع سرورا بهذه البشرى وارسل الي غردون بكتاب يدعوه فيه الى التسليم ويعلمه بما اصاب ستيوارت واوضح ملخص جميع الكتب والرسائل التي كانت صحبة الكولونيل ستيوارت وقد اضربنا عن ايراد ذلك الكتاب اكتفاء بملخصه

هذا وقد كان الخمسمائة درويش الذين تاثروا الكولونيل ستيوارت من بربر قد وصلوا الى قرية السلامانية واشتركوا مع سكانها فى هذه المذبحة

أما تدبير الحيلة على الوجه الذي بيناه فقد دبره شيخ القرية سليمان بن نعمان ابن قمر وسيأتي فى هذا الكتاب ذكر قتله انتقاما عن هذه الفعلة الشنعاء

ولابد من ايراد شيء فى هذا الباب من ترجمة سليمان بن نعمان فنقول. هو زعيم قبيلة اولاد قمر من بطون قبيلة الرباطاب التي تقدم ايراد ترجمتها وهى من قبيلة الجمليين التى تكلمنا عنها آنفا

وأما حسن افندي حسنين الذى نجا من هذا الخطب فانه لما قلبوا القتلى وسلبوا من الكولونيل ستيوارت ملابسه وكذلك القنصلان والقوا بجثثهم الى الصقور والكلاب وجدوا حسن افندي حسنين حيا فتآمروا على قتله فشفع فيه الرجل الكفيف البصر والرجلان اللذان رافقاه الي الكولونيل ستيوارت فقبلت شفاعتهم واستلمه احد المشايخ كاسير لديه وكلفه برعى اغنامه مع ماكان يقاسية من آلام الجروح التى كان يضمدها ويعالجها في غضون اشتغاله برعي الماشية في الفلاة ثم ارسل محمد الخير حاكم بربر يطلب ارساله اليه فقيدوه وساقوه مكبلا بالحديد حتي بلغ بربر مقر هذا

الحاكم فزجه في السجن حتى تشفع فيه كوستي الايطالي فاطلق بكفالته وسنذكر قصة كوستى فيما سيأتى .

وبعد خلاص حسن حسنين من سجن محمد الخير لحق بام درمان ثم غادرها الى كسلا كى يفر منها الى مصر وقد كان شرع في الهروب مع زوجه وابنه فافترست السباع زوجه وابنه ووقع أسيراً بين مخالب المهدويين فسجنوه ثم وجد سبيلا الى النجاة واللحاق بام درمان حيث أقام بها الى حلول الحكومة بها ثم عاد الى وطنه مصر واجتمع باهله الذين حسبوه في عداد الاموات بعد طول زمان الفراق وقد روينا عنه هذه الحادثة وتأكدنا صحتها من التفاصيل التي وصلت للمهدي

على ان هذه القصة يظهر منها ان بعثة ستيوارت كانت آخر سهم في كنانة غردون وآخر عمل كان يأمل من خلاله النجاح ولذلك وقع عنده خبر قتله موقعاً سيئاً للغاية وزاد الطين بلة وقوف المهدى على كثير من الكتب والرسائل التى كانت مكتوبة باللغة العربية وان فاته الوقوف على أمثالها التي باللغات الفرنسوية والانكليزية وكان غردون متخوفا من ان يكون كوستى أطلع المهدى على مفاتيح الشفرة مما يدل على ان الكتب التى كانت حوت من الاسرار ما هو أهم من التي كتبت باللغة العربية واطلع عليها المهدى

ولما عاد القائمقام عثمان حشمت بك الى الخرطوم أخبر غردون بانه اضطر الى الاقلاع بالباخرتين قبل مضى الاربع وعشرين ساعة وذلك لانه خاف مناوشة العدو ولكن التحريات حققت كذبه وان لا مناوشة اضطرته الى مخالفة الاوامر فحوكم امام هيئة عسكرية حكمت باعدامه وتجريده من جميع

رتبه وألقابه ونياشينه الا أن غردون اوقف تنفيذ هذا الحكم وأبقى المحكوم عليه في وظيفته وعمله مراعاة لظروف لاحوال التي كانت ماسة لتعطيل هذا الحكم والاستفادة من وجود مثل هذا الضابط الذى كانت الحامية تكبر فقده لو انفذ عليه الحكم وكيفما كان الامر فان غلطة هذا الضابط لم تكن السبب فيما أصاب الكولونيل ستيوارت بل كانت السبب في وقوع التجار أسرى فى يد الدراويش وما أصاب باخرة ستيوارت كان لا يستطاع دفعه الا لوساعده القدر وقبل نصيحة غردون واصطحب معه الزورقين فكان يمكنه بواسطتهما اللحاق بحدود دنقله

على انه لو حمل ماخف من متاعه وأبحر على الزورق الذي كان لديه لاستطاع النجاة والعودة الى خلاص بقية رجاله من تلك الجزيرة التى كانت له معقلا طبيعياً يردعنه كل من رامه .وكان رجاله يستطيعون البقاء والدفاع ريثما تصل اليهم النجدة من حدود دنقله لو لم يتعجل بالقاء المدفع والذخيرة في قاع النهر وزد على ذلك ماسردناه من عدم رويته وتسرعه في الامور ورفضه كل مشورة عرضها عليه رفقاؤه وعدا هذا وذاك فانه لو أرسل بضعة أشخاص من رجاله على الزورق لجاءه المدد من دنقلة ولم يقع فى الاشراك التى نصبها له أولئك الغادرون

والحاصل ان مأمورية ستيوارت وما تخللها من الحوادث جاءت ضغثاً على ابالة حيث قضت علي كل أمل بانقاذ الخرطوم من الوقوع تحت طغيان المهدي وشجعته على التقدم الى الخرطوم بجنان ثابت وعزم ماض ليتم ماأراده الله وينفذ ماقضاه والامر لله

ذكر اخبار كوتسيه الايطالي

كان كوتسيه خادماً للمسيو ماركيه قنصل فرنسا في الخرطوم فأرسله في تجارة الى بربر

ولما هلكت حملة الجنرال هكس هاجر ماركيه من الخرطوم ولحق بمصر تخلفه في وظيفته المسيو هربن الذي ذكرنا قتله مع الكولونيل ستيوارت

ولدى مرور غردون على بربر استبقاه بها كجاسوس يرفع اليه الاخبار بالارقام وسلمه مفاتيح الشفرة ليخاطب بها الوكالة البريطانية إن دعت الحالة الى ذلك

ولما اقترب محمد الخير من بربر فرّ كوتسيه الى مصر فقبضت عليه بعض قبائل من اللائي دخلن في دعوة المهدي وساقته أسيراً الى محمد الخير

ولما أُوقف بين يديه عرض عليه اعتناق الاسلام فلم يقبل فارسله مع حراس أوصلوه الى المهدي الذي عرض عليه الاسلام فقبله ونطق بالشهادتين مدعياً انه رأي من كرامات المهدي ونور وجهه ما دعاه الى قبول الاسلام دينا وتغالي امام المهدي في الدهاء والترهات حيث قال للمهدي انه رأى من أنوار طلعته مابهر فؤاده وحبب اليه الاسلام فعرض عليه المهدي حمل رسالة منه الى غردون وطلب منه ان ينصح غردون بالتسليم له ويخبره بما رآه من كراماته فاجابه كوتسيه وحمل الكتاب الى الخرطوم ودخل الخرطوم فسأله ضابط الحامية عن سبب مجيئه فقال جئت لانصحكم بالتسليم للمهدي وأخذ يسرد له ما حمله من رسالة المهدي فاسكته الضابط وأسرع بابلاغ غردون أمره على لسان البرق فارسل غردون اشارة برقية قال فيها اذا لم

يكن كوتسيه راغبا فى البقاء معنا مليرجع من حيث جاء فقال كوتسيه لا سبيل الى الاقامة مع الكفار وقفل راجعاً الى المهدي فى كوردفان فتلقاه بالاكرام واغدق عليه العطاء وسماه محمد يوسف كرغبته وأهداه جاريتين وعبدين وناقتين واعاده الى بربر وأوصي محمد الخير بمراعاته وأجري عليه راتباً شهريا يقوم بضرورياته

هذا وقد كتب غردون فى مذكراته عنه شيئاً كثيراً وتخوف ان يكون سلم للمهدى مفتاح الشفرة وغاية ما يقال عن كوتسى انه رآى مع قصر نظره ان وقوع السودان تحت قبضة المهدي ضربة لازب وان ظهوره بهذا المظهر أسلم عاقبة من بقائه على ولاء غردون. وليس بصحيح ما قيل عن تسليم بربر انه كان بخيانة منه لانه فر منها قبل ان يحصرها العدو وقبض عليه في الطريق وهو فار الى مصر وبقي في أسر المهديين الى يوم استيلاء المصريين على أم درمان فغادرها الي مصر

وصول عبد الرحمن النجومي الي الخرطوم

لما وصلت كتب الحاج محمد ابى قرجة الي المهدي وعلم منها ما أصاب أبا قرجة من الهزيمة والفشل انتدب عبد الرحمن النجومي وكيل الراية البيضاء ومعه ستون راية يتبع كل راية نحو الف مقاتل يخضعون الي أمير ويخضع هذا الامير لعبد الرحمن النجومى وضم اليه عبد الله بن النور ومعه عشرون راية على مثال رايات عبد الرحمن النجومى واعطاه مدفعاً من الكروب وست مدافع جبلية وأصدر اذناً عاما لكل من رغب في مرافقة عبد الرحمن النجومى من قبائل السودان الاوسط ان يرافقوه فسار عبد الرحمن النجومي

من كوردفان بجيش يربو على الستين الفاً سلاح جلهم الحراب والسيوف والمزاريق وعنده نحو عشرة آلاف من العبيد (الجهادية) مسلحين بالاسلحة النارية ونحو عشرة آلاف فارس ومكث بضعة أسابيع في جنوب الخرطوم مشتغلا باجتياز النهر الابيض من الضفة الغربية الى الشرقية وفي أواخر ذي الحجة سنة ١٣٠١ وصل الي الجريف ووضع معسكره عند قرية الكلاكله المتوسطة بين النيلين الازرق والابيض وتجاه نقطة الوسط من استحكام الخرطوم ليكون المسكر نائيا عن مقذوفات البواخر التي كانت لا تنفك عن مناوشة مواقع الدراويش واقلاق راحتهم وهى كما قدمنا كانت من أقوى الاسباب التى ساعدت محمد على باشا على هزيمة الدراويش وقائدهم أبى قرجة يوم واقعة الجريف

وقسم جنده الي ثلاث معسكرات وأصلح طوابي الجريف وزاد عليها وعهد بالدفاع عنها الي عبد الله النور وشاد طوابى فى قرية (الفرقان) وتولي الدفاع عنها بنفسه واحتفر متاريس بالقرب من النيل الابيض وعهد بالدفاع عنها الي أحد القواد

وعلى ذلك فيكون عبد الله النور بازاء استحكام (برى) على النيل الازرق والمدافع عنه من حامية المدينة اللواء السودانى الاول وقومندانه الميرالاى بخيت بطراق بك وهو ضابط سوداني ترقي تحت السلاح . وطوابي الفرقان حيال نقطة القلب من استحكام الخرطوم وهذه النقطة مقر قومندان الجنود العام فرج باشا الزين كما ان طوابى الدراويش المحاذية لها تحت امرة قائدهم العام عبد الرحمن والحاميـة القائمة بالدفاع في هـذه النقطة خليط من جنود نظاميين واتراك غير نظاميين ومتطوعة من المصريين سكان المدينة

وأما الحامية التي تقابل متاريس العدو من جهة النيل الابيض فانها مؤلفة من اللواء الخامس المصرى وبعض جنود من الباشبوزق وقومندانها اللواء محمد نصحى باشا

وفي نقطة القلب باب كبير عليه برج من الحديد المصفح تحيط به جملة طواب وعليها مدافع من طراز كروب ومن الطرازا لجبلى

ولما وصل عبد النجومى وجموعه الى ضواحى الخرطوم أرسل بكتاب الى غردون يدعوه فيه الى التسليم ويتوعده بالويل والثبور اذا امتنع عن الاجابة وكانت قد وصلت الى غردون أخبار تدل على ان جنود ابن النجومي واقعة فى مجاعة شديدة بسبب أن أهالي القري التي حوالى الخرطوم هجروا قراهم خوفا من غارات المصريين واعتصموا بالفلوات وأوغلوا فيها ولذلك لم يجد النجومى فى طريقه من يقدم له الاغذية فكتب الى أهالي القري يدعوهم الى العودة الى قراهم ويضعف لهم قوات المصريين حيال قوته وان الحامية التي في الخرطوم سوف يرون بأعينهم مايحل بها من بطش مقاتلته فأخذ الاهلون يتراجعون الى قراهم وبعد حين صار ابن النجومي وجيشه يتحصلون على مايقتاتون به من الحبوب واللحوم

وفى غضون اشتداد المجاعة على ابن النجومي وجيشه أرسل غردون كتابا برسم النجومي وعبدالله النور وأرسل نحو خمسمائة أقة من الخبز المجفف (البقسماط) بصفة هدية لهما وهدية أخرى من اللجم المصنوعة من اللجين وفى الكتاب استهزاء بهما حيث قال لهما انكما جئتما لحصارنا وقتلنا مع انكم في نهاية الحاجة الى القوت فاشفاقا عليكما أرسلت لكما بهذا الغذاء وهذه الهدية فردا عليه بكتاب وجيز جاء فيه بعد الديباجة مايأتي

لا نقول لك الا كما قال سليمان بن داود عليهما السلام لبلقيس لما وصلته هديتها « أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون »

وتراجع المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا في الحلفاية كما كانوا واحتفروا المتاريس فكانت مقذوفاتهم تصل الى منازل المدينة وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيراً منهم فى كل يوم

وكان بين الطوبجية الذين مع ابن النجومي رجل اسمه محمد سلامه وهو من الذين نجوا من مذبحة الجنرال هكس فقال له عبد الرحمن النجومي صوب قنابل مدفع الكروب الي منارة مسجد الخرطوم والي سراى غردون فاعتذر له بان هذه المسافة بعيدة عن الحدود لوصول مقذوفات هذا المدفع فقال بعض الدراويش صوب المدفع وبركة المهدي تكفل اتمام الناقص فكان جوابه انها لا تكفل أبداً فخنقوا عليه وشكوه الي ابن النجومي الذي أمر بضرب عنقه فمات وأخذ الطوبجية الآخرون يرمون المقذوفات فى المدينة التي كانت تشعر كل يوم بزيادة الضيق وتحس بالغلبة والسقوط الذى وراءه كل البلايا والمصائب وثبتت اقدام العدو وصار من المتعذر طرده وانسدت أبواب الآمال فى وجوه غردون ومن معه

ذكر مغادرة المهدي الرهد الي الخرطوم

لما فشل المهدي في محاربة جبل الداير وكان ذلك فى أوائل شهر رمضان سنة ١٣٠١ هجريه أعلن انه ينوى الاعتكاف للعبادة فى أول يوم من العشرة الاخيرة من شهر رمضان فلا يخرج من الاعتكاف الا لصلاة العيد

وفى يوم العيد اعلن ان النبي صلي الله عليه وسلم أمره بالتقدم الى الخرطوم ووعده بالفوز على من فيها من الحامية وبشره بفتحها ومن ذلك اليوم زحفت جيوشه كسيل العرم على الخرطوم وسار هو حتي قطع الفلاة التي بين كوردفان والنيل الابيض وعسكر فى قرية (شاة) على مسافة بضعة أميال من النيل الابيض وعلى مسيرة ثمان مراحل من الخرطوم

أما جيوشه فكانت زهاء ستمائة ألف مقاتل فشت بينهم المجاعة والامراض كالجدري والاسهال

ونشر المنشورات على الناس يدعوهم الى الجهاد ويعدهم بالنعم فى الدار الآخرة لما يقاسونه من التعب وشظف العيش وقضى باهدار دم من تخلف عنه فلبي الناس مطالبه وساروا معه بحيث كانوا أطوع له من بنانه بالرغم عن الشدائد التي كانوا يقاسونها

وفود أوليفر باين الفرنساوي علي المهدي

بينما كان المهدي سائراً فى الفلاة من الرهد الي شاة بلغه ان سفيراً قادم اليه من فرنسا وقد جاءت اخباره مكبرة حتي قيل انه امبراطور فرنسا وقال آخرون انه من أقارب جلالة الملكة فيكتوريا

ولما أوقف باين امام عبد الله التعايشي ورآه قد لبس جبة مرقعة وعمامة كالدراويش أخذ يتكلم مع التعايشي بالعربية فلم يفهم كلامه لما في لسانه من عقدة العجمة فاستدعى سلاطين باشا وقال لباين تكلم معه بلغتك لحياه بالانكليزية ظنا منه انه انكليزي وقال له أتعرف الفرنسوية فقال له سلاطين تكلم فيما أنت فيه وعرفه باسمه فارتاب عبد الله التعايشى وانتهرهما

فارتاع سلاطين واجاب التعايشي بقوله « اني اخبرته بان الله اعطاك علم مايضمره كل انسان وانك والمهدي لايخفى عليكما شيء من هذه الضمائر » وكان حسين باشا خليفة حاضرا فقال لسلاطين صدقت ودعا لعبد الله التعايشي بطول البقاء فسر عبد الله التعايشي والتفت الى سلاطين وشكره على اخباره باين بامر اطلاعه على الضمائر وأوصاه بان يجتهد في سبر غور الرجل والوقوف على باطن أمره

وطفق باين يكلم سلاطين بالفرنساوية وسلاطين يترجم للتعايشي فقال اني منذ حداثة سني أحب السودانيين وكذلك كل موظفي الفرنساويين يحبون السودانيين وان الامة الفرنساوية تبغض الامة الانكليزية التي احتلت مصر وارسلت غردون أحد رجالها الى الخرطوم وقد أتيت لاعرض عليكم مساعدتي ومساعدة قومي وانتهي الامر بان قدّم التعايشي باين الى المهدي الذي رفض قبول مساعدته وأبقاه بمنزل سلاطين باشا حتي توفي بالحمي التيفوسية

ذكر وصول المهدي الي ام درمان

في أوائل شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٣٠٢ من الهجرة الشريفة ارسل المهدي الى اتباعه منشورا قال فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم بشره بفتح الخرطوم في هذه السنة وأن عدد جملة (نصر من الله وفتح قريب) بالجمل الكبير يبلغ الفا وثلاثمائة واثنين

ولما اقترب من امدرمان وضع معسكره العام عند مكان اسمه (الفتيح) على بعد نحو عشرة أميال من معقل أم درمان وارسل جاسوسا يحمل نحو الف نسخة من كتاب يدعو به أهل الخرطوم الى التسليم له ووضع الكتب

في اناء صفيح على شكل ابريق احتمله هذا الجاسوس وسبح به في النهر الابيض حتى وصل الي شاطيء المدينة حيث لاحراس يقومون بحراسة الشاطيء من جهتي النيل الابيض لاتساعه وانما وضعت الجنازير فقط فى المضايق لمنع السفن البخارية أو الشراعية من الوصول الي المدينة

ووزع الجاسوس الكتب والتي بعضها في الطرقات والازقة والمنازل ثم اختفي فى المدينة حتى قفل راجعا من حيث جاء ولم يتيسر القبض عليه ومن ثم امرني غردون بوضع عسس فى شواطيء النيلين الازرق والابيض وانقطع وقوع مثل هذه الحادثة وضبط العسس كثيراً من جواسيس المهدى وكان غردون يأمر باطلاقهم ولا يسمح بمعاقبتهم وهاهي صورة الكتاب المذكور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى كافة أهالي الخرطوم هداهم الله الى الصواب آمين نعرفكم ان الله تعالى غني عن العباد. يهدى من يشاء الى طريق الرشاد . ويضل من يشاء ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وقد طال ما تكررت منا النصائح واردنا نجاة عباد الله وسلوكهم طريق الله فاناب الى الله من أراد الله سعادته وخالف من خذله الله فاصمه وأعمي بصره فلا أدرى ما الداعى الى عدم الانقياد أو لله شركاء يستشيرهم فيمن يجعله مهديا أم له منازع فى ارادته . كلا بل هو القادر الفاعل لما يشاء فيجب على كل ذي بصيرة الوقوف معه على حد الادب ولا يلتفت الى غير لا وجود له من نفسه وان يسلم الامر لله اذ بيده التقلبات

واليه المصير. ومن المعلوم انى عبد دال على الله فمن اتبعني فقد حاز السعادة الكبرى ومن خالفني سيذيقه الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخره أخزي وقد أظهرني الله رحمة للمؤمنين ونقمة على الملحدين المكذبين وقدطالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فالي متى الغفلة والتسويف والى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ألم يأن لكم ان تميل قلوبكم الى ما ينفعكم في آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر والضير اترغبون النجدة والفرج عند الانكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده أموركم وقوامكم وهو القوى العزيز فما الانكليز وغيرهم واضعاف مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب. وما الغوث الا من عند الله القريب المجيب. وحيث فهمتم ما ذكر فانى لا أؤاخذكم على مافات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين فانيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون وعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى وغايته ان من سلّم سلم. ومن خالف عطب وندم. فهياهيا ثم هيا الى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا من شيء يحصل عليكم فانا مناظرون فيكم قوله تعالى « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم» اه

هجوم المهدي علي ام درمان

لما كانت حملة الجنرال هيكس معسكرة في أم درمان حصنت نفسها

بخندق مربع يتصل طرفاه بالنيل الابيض قبالة نقطة (المقرن) التي يجتمع عندها النيلان الازرق والابيض بازاء الخرطوم فى الشاطيء الغربي ثم انشأ أحد الالوية خندقا داخل الخندق فى مكان مرتفع وما حوله منخفض وفي ابان ارتفاع النيل تصل مياهه الى الخندق الصغير بحيث تستطيع السفن الرسو عنده بخلاف أيام الانخفاض فان النيل يبعد عنها بمسافة ألف متر تقريباً

ولما وصل غردون الخرطوم أعجبه موقع هذا المعقل ورأي ضرورة وجوده لحفظ المدينة من جهة الغرب فشاد فيه أبراجا وطوابي وضع فيها ثلاثة مدافع من الطراز الجبلى وأربعمائة جندى من النظاميين نصفهم من السودانيين والنصف الآخر من المصريين

وفى منتصف شهر محرم الحرام سنة ١٣٠٢ هجم المهدي بجيشه كله على نقطة ام درمان فقابلته الجنود بنيران حامية اضطرته الى التقهقر بخسارة بضعة آلاف من مقاتلته فأحاط بالخندق الصغير واستولى على الخندق الكبير وقطع الاسلاك بينه وبين النقطة وشاد نحو عشرين طابية على ضفة النيل الابيض وضع عليها مدافع الكروب والمتراليوز والجبلي فكانت مقذوفاتها تقع في المدينة فشاد غردون طابية في (المقرن) ازاء هذه الطوابى وشاد فى جزيرة « توتى » أيضا طابية قبالة طوابي ام درمان

ومكث المهدى محاصراً أم درمان الى أواخر شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ وسيأتى خبر تسليمها له

واقعة الجريف

في شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ انفذ غردون حملة تبلغ ألف جندي نظامي وأربعة صناجق من الباشبوزق تحت قيادة البكباشي سليمان افندي النشار فهجموا على طوابي عبد الله بن النور في الجريف حتي اذا اقتربوا من الطابية أصيب فرس محمد بك اسلام أحد الصناجق برصاصة قضت عليه واستولى الجبن على جنود الباشبوزق ففروا وانثلم ركن المربع لفرارهم وتكاثر الدراويش على الجنود الذين تقهقروا بانتظام فتأثروهم حتى اقتربوا من الاستحكام الذي انصبت مقذوفاته على العدو واضطرته الي الفرار وخسر الجنود في هذه الواقعة مائتي قتيل

وأصيب عبد الله بن النور برصاصة قضت على حياته. وعبد الله بن النور هذا من قبيلة (العركيين) صاحب المهدى قبل دعواه وكان من خيرة أتباعه وأكبر قواده حتي قال عنه في « قدير » انه يموت شهيداً يوم فتح الكوفة

ولما اتصل بالمهدى خبر قتله كتب منشوراً قال فيه ان اسم (الجريف) في بعض الكتب القديمة الكوفة ثم قال ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا فالذي قضى نحبه هو عبد الله بن النور والذي ينتظر هو عبد الرحمن النجومي

وجرت وقائع أخري بين الحامية وبين ولد النجومي لا تختلف عن هذه الواقعة ولذلك أضربنا عن ايرادها

ذكر ارسال البواخر الي المتمة

كان في الخرطوم نحو تسع بواخر منها ماتبلغ قوته البخارية مائة وعشرين حصانا

ولما ابتدأ الحصار حصنت هذه البواخر بصفائح من الفولاذ ووضعت باطرافها صناديق مملوءة بالاتربة لوقايتها من المقذوفات

وكان سعادة محمد نصحي باشا قائداً للواء المصرى الخامس فرقى الي رتبة اللواء وعين قومنداناً للبواخر الحربية وخلفه في وظيفته الميرالاى حسن بك البهنساوى وسار محمد نصحي باشا بالبواخر الي سنار وعاد منها بغلال لغذاء الحامية كما تقدم

ولما أخذ النيل في الانخفاض أرسل غردون البواخر الي المتمة تحت قيادته ومعه الصنجق خشم الموس بك الذى صار بعدئذ خشم الموس باشا

ومكثت البواخر في المتمة بضعة شهور تتنسم أخبار الحملة الانكليزية وتتردد بين المتمة وبربر حتى سقطت الخرطوم قبل ان يراها الانكليز

ذكر المجاعة في الخرطوم

لما كانت حملة الجنرال هيكس ذاهبة الي كوردفان أعدت الحكومة نحو مليونى أقة من البقسماط لغذائها وعهدت توريدها الي جماعة من التجار واتفقت معهم على ان يكون ثمن الاقة ثلاثة قروش مصرية

ولما ذبحت هذه الحملة وأصدرت الحكومة الخديوية الامر العالي القاضي بترك السودان واخلاء الخرطوم من الحامية واتلاف المثقلات كان من البديهي ان مثل هذا القدر من الميرة لا بد من اتلافه وتقديمه طعمة

لاسماك النيل وكان بعض التجار لم يوردوا ما بقي من المقادير التي تعهدوا بتقديمها فاغتنم حسين سرى باشا الذى كان وكيلاً للحكمدارية قبل وصول غردون الي الخرطوم هذه الفرصة واستدعى أولئك التجار واتفق معهم على ان يتجاوز لهم عن نصف قرش فى كل أقة ويؤدوا اليه الثمن فوراً وهو يأمر أمين المخازن أن يكتب لهم ورقة الخصم التي يقول فيها ان هذه المقادير سلمت اليه ووضعت في المخازن ويكتب حسين سرى باشا على ورقة الخصم حوالة على مالية مصر وقد بلغ ما تناول ثمنه بهذه الخيانة ستمائة ألف أقة من البقسماط يقدر ثمنها بمليون ونصف من القروش اي نحو خمسة عشر الف جنيه ثم جاءت الحوادث بخلاف ما كان ينتظره حيث لم تجل الحامية عن الخرطوم ولم يتلف مافيها من الذخيرة والميرة وابتدأ الحصار وكان غردون يظن ان مافى الدفاتر والاوراق الرسمية عن تقدير كمية مافي المخازن من البقسماط صحيح لا ريب فيه حتي أعلن خبر فراغ مافى المخازن وقبض على أمين الاقوات وشكل مجلسا من خمسين شخصا من الاعيان والموظفين وظهر له ان مرتكب تلك الخيانة هو حسين سرى باشا وكيل الحكمدارية وانتهى الامر بأن غردون صمم على استدعائه من مصر ليحاكم على ما اقترفه من الاثم وبديهي انه لا يكون ذلك الا بعد اخماد ثورة المهدي ورجوع المواصلات بين مصر والسودان وكانت الحكومة دفعت مائة وخمسين ألف ريال الى حمد التلب وسبعة آلاف ريال الى النور ابراهيم الجريفاوي ليوردا لها غلالا من صنف الذرة سعر الاردب أربعة ريالات فسافر حمد التلب مع حملة الجنرال وقتل معها وعهد الى وكيله توريد الغلال في مخازن الخرطوم فلم يفعل. أما النور ابراهيم الجريفاوى فانه اغتال المال لنفسه وانضم الى اعوان المهدى واشترك معهم فى حصار الخرطوم

وسيأتي ذكره فى أيام التعايشى وأنه صار أميناً لبيت المال

والخلاصة ان الغلال التى كانت فى مخازن الخرطوم تبلغ نحو ثلاثين الف أردب وكان راتب كل جندى سبع أقات ونصفا من البقساط وأربعة قراريط من الذرة

ويوجد حيٌّ من أحياء المدينة فيه نحو أربعة آلاف نفس من الدناقلة كانوا عالة على الحكومة وكانت تقدم لهم الضرورى من القوت

وتفشت المجاعة فى المدينة بصورة مريعة جداً حتي ان كثيراً من السكان تورمت اطرافهم وصاروا لاقوت لهم غير ورق نبات اسمه (الاوبية العفنة) كانوا يطبخونه ويلتهمونه وصار قوت الحامية من الصمغ مخلوطاً مع جمار النخل وقد شوهد ان الذين يقتاتون بهذه الاصناف يصابون بالاسهال وتظهر على وجوههم أعراض تشبه اعراض مرض اليرقان الاصفر ثم تتناقص قواهم الجسيمة فى مدة ثلاثة أيام تعقبها أعراض الموت

ومن غرائب ما رأيناه فى حصار الخرطوم ان صيادي السمك قبل الحصار كانوا يصطادون في كل يوم نحو ألف قنطار من الاسماك ولما بدأ الحصار انقطع وجود الاسماك كأنها فرت من قعقعة البنادق وهزيم المدافع حتي ان غردون اشتهى سمكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم باربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها

وكما ان الاسماك هجرت شواطىء الخرطوم فان اراضي بساتين المدينة كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة وفي إبان الحصار تلف كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شيء من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها

وقد قاسى غردون من ألم المجاعة ماقاساه أصغر جندي من الحامية أو أحقر شخص من سكان المدينة فانه اضطر الى التغذى بجمار النخل حتى أصيب بتلبك معدى كاد يودى بحياته وفي ذات يوم جاءنى الطبيب اكسيوداكي اليونانى طبيب الحامية واخبرنى بان مداومة غردون على تناول الجمار لا تحمد مغبتها وان صحته الآن على خطر كبير ولا بد من تدارك غذاء جيد له فكنت أتحصل له بعد كل يومين أو ثلاثة على دجاجة أو زوج من الحمام الطاعن في السن

ودخلت عليه مرة وقد قدموا له شيئاً من المرق وكان لم يطعم شيأ منذ أربع وعشرين ساعة فلم يتناول من المرق الا قليلاً فالححت عليه فى تناول كمية تقوم بتغذيته فامتنع وقال لي انى لا يهنأ لي بال ولا تميل نفسي الى طعام ما دام جنودى يموتون جوعاً وانني فعلت الواجب عليّ والله يفعل ما يشاء

وكانت أسعار القوت فى المدينة حتى سقوطها كما يأتى ثلاثين ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الاقة من البقسماط وخمسة ريالات ثمن الاقة من اللحم البقرى وكان بعض السكان يذبحون الحمر الاهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك

على أن كثيراً من سكان المدينة كانوا في رغد من العيش والغلال مخزونة عندهم وهم يبالغون في اخفائها ببطن الارض حتي التزمت الحكومة بتفتيش منازلهم ومقاسمتهم الغلال التى توجد عندهم فكانوا يتذمرون من هذه المشاطرة ويبدون الاعذار بكثرة عائلاتهم واضطرارهم الى القوت

هذا وقد اختل نظام الجنود وفر اكثر الجنود ولحقوا بالمهدي وكثير

منهم تمردوا على ضباطهم وألفوا عصابات تعبث في المدينة وتسطوا على باعة الأقوات وتختطف ما يعرضونه للبيع من الاقوات وهذه الاسباب دعت سكان المدينة وسراتها الى الاحتفاظ على ماعندهم من القوت مهما عرض المشترون عليهم من الثمن الباهظ

ذكر سقوط نقطة أم درمان

تقدم لنا ذكر هجوم المهدى عليها وما كان من أمر حصارها

وفي أواخر شهر ربيع الاول سنة١٣٠٢ فقدت حامية أم درمان القوت واشتدت وطأة الحصار عليها فاستدعاني غردون لمرافقته في صبيحة يوم ٢٧ ربيع الاول الى طابية المقرن تجاه نقطة أم درمان للمكالمة مع الحامية بالاشارة فرافقته اليها ومكثنا بضع ساعات نتبادل الاشارة فعلمنا ان الحامية فقدت القوت منذ ثلاثة أسابيع فسألنا قومندانها فرج الله باشا ان يوضح لنا عما اذا كان قادراً على الخروج من الخندق واللحاق بالثلاث بواخر التى استقر الرأى على انفاذها له في الغد فاجاب بانه قادر على ذلك فامره غردون باتلاف كل المثقلات التي يتعذر حملها

ثم عدنا الى سراى الحكمدارية وهناك أخذنا الاهبة لاعداد الثلاث بواخر وأخذت حامية أم درمان في الاهبة وقدّر أن ثلاثة من الجنود السود فروا من الخندق ولحقوا بالمهدى وأخبروه ان الحامية ستأتيها البواخر في صباح الغد وتحملها الى الخرطوم فاوصي قواده بالتيقظ لها فوضعوا لها كمينين بين النهر والخندق

وفي صبيحة الغد وصلت البواخر الى شاطىء أم درمان فخرج عليها

الكمينان على غرة وأعملا السيف في رقاب الجنود الذين اضطروا الى العودة الى أم درمان بعد خسارة نحو مائة قتيل وعادت البواخر الى المدينة

وفي منتصف النهار رافقت غردون الى طابية المقرن لمكالمة حامية أم درمان أيضا فعلمنا ان سبب الفشل هم أولئك الجنود الذين لحقوا بالمهدي فاصدر غردون أمره الى القائد فرج الله باشا ان يسلم الحامية للمهدي فكتب اليه يسأله الامان فاجابه بكتاب صرح فيه بامانه وأمان أركان الحامية ولكن لم يوف به بل عذب الحامية وضربها بالسياط. لتدل على ماخبأته من الاموال

وفى اليوم الاخير من شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ الذي ضرب أجلاً للتسليم ركب المهدي فى عدد كبير من فرسانه حتى دنا من الخندق فخرجت اليه الحامية وتقدم الضباط نحوه فترجل لهم عن فرسه وجلس معهم على الارض وقدم لهم شرابا من العسل وعين فرج الله باشا قومندانها قائداً من قواده وضمه الى حمدان ابى عنجه قائد الجهادية وسيأتى ان فرج الله باشا هذا هو الذي قتل نجاشى الاحباش يوحنا يوم واقعة القلابات

وهذا المذكور ضابط أسود كان بحامية فشوده وكان برتبة اليوزباشي فرقاه غردون حتى أبلغه رتبة اللواء وكان ضابطاً لحراسة السراى ولم يكن أمر تسليمه ماساً بامانته ويظهر من فحوى كتاب المهدى الآتي ان فرج الله يعرفه منذ كان بجزيرة « آبا » وعلى كل حال فانه لم يقصر في واجباته ولم يرتكب أمراً يشينه وكما انه خدم الحكومة باخلاص فانه لم يخن الدراويش. وهاهي صورة الكتاب نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد

فن العبد المفتقر الى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدي بن عبد الله الى أحبابه المكرمين المعظمين وأهل الدراية وهم كبير العسكر وعظيمهم فرج الله وصاحبه عبد النبيّ ومن انضم اليهم من الاكابر والاصاغر اعلموا وتحققوا أحبابي انى لست قائما هذا المقام الا لدعوة الخلق الى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العلية وتنفيرهم عما يضرهم من خسيس فانى اللذات التي تعقب طول الحسرات وقد بلغنى ان المكرم المعظم فرج الله من ضباط أهل فشودة الذين يحبونى سابقا وانا «بآبا» من معرفتهم زهدي فى الدنيا وصدقى فى الطلب لما عند الله وإرادة الآخرة ودلالتي على الصلاح والفلاح وارشاد العباد الى رضاء الفتاح ليكتسبوا دائم المطلوب من النجاح فلا تظنوا اننا نطلب أموالكم وما ملكت أيديكم ان سلمتم لنا وصرتم من أصحابنا فان سلمتم لنا فقد حزتم الكرم وصرتم من أحبابنا وأصحابنا الذين بشر ناسيد الوجود صلى الله عليه وسلم بانهم كاصحابه رضوان الله عليهم وأدنى أصحابى رتبة ينال مقام الشيخ عبد القادر الجيلانى عند الله تعالى وفيما ذكرته كفاية لاهل العناية وأظن انه قد بلغتكم انذاراتي سابقا فلا فائدة فى التطويل فان سلمتم فقد عفوناكم ورضينا عليكم وكنتم من الاصحاب المكرمين الذين لهم عند الله حسن المكانة الابدية فلا تظنوا فينا الا نيلكم منا كل خير فانى المهدي المنتظر خليفة نبيكم صلى الله عليه وسلم فابشروا بالكرامة والفخامة ان سلمتم لي واتبعتموني وليكن معلوما عندكم أحبابى ان من لم يصدّقنى ويتبعني يعذب فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وانى موعود بملك جميع الارض ورأيتم نصرتي فى حال الضعف والقلة الى ان بلغت هذا المبلغ واجتمعت عندى أسلحة راشد بك وولد الشلالي والهكس والابيض ودارفور وبحر الغزال

وجباخينهم وبشرت انى لو أردت لقبض الله سلاح الترك بحيث ان أصحابي يقتلونهم ولا يقتلون ولكني اخترت توفيقا من الله ان ينال أصحابي الشهادة ويبلون فى الله لينالوا عظيم المكانة عند الله كما في كتاب الله واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما علمتم ولتمتمدوا هذا زيادة كتبت هذا بخطي والسلام الخ

ذكر الاخبار التي تبودلت بين غردون والمهدي

لم يفتأ المهدي يدعو غردون الى التسليم له والخضوع لجبروته وقد عرض عليه جملة اقتراحات منها انه يسمح له ومن معه من المصريين بالنزوح الى مصر وترك الخرطوم على شرط ان لا يحملوا من متاعهم الا ماخف وان يؤدوا أجرة الجمال التى تحملهم الى حدود مصر

واقترح المهدي مرة على غردون ان يسلمه المدينة وفي نظير ذلك يسمح له بالعودة الى بلاده بدون قيد ولا شرط

وكان غردون يرسل الى المهدى الكتب تباعاً فى بعضها الاستهزاء به وفى بعضها يقول له ان حكومة جلالة الملكة تفديه منه بعشرين الف جنيه فرد عليه المهدي بانه يسمح له بالذهاب الى وطنه بغير ان يتناول شيئا من الفداء

وفي بعض الكتب يخبره بتقدم الانكليز لامداده ويؤكد له ان اجتماعه بهم مستحيل وانه موقن بقتلهم وغلبتهم كما حصل لحملتى يوسف باشا الشلالى وهيكس باشا

وكان غردون قد انقطعت عنه أخبار الحملة الانكليزية ولم يكن يعلم بتقدمها نحوه الا من الكتب التي يرسلها له المهدى

وكان عبد القادر بن أم مربوم الذي تقـدم لنا خبر خـدعته لغردون ولحاقه بالمهدي وصيرورته قائداً من قواده قد أهدر غردون دمه وجعل جائزة لمن يأتيه براسه ثم كتب غردون الى المهدى يقول له ان عبدالقادر بن أم مريوم صـديقه الحميم وصاحبـه القـديم وانه يتمنى ان يكون رسول المهـدى اليه ليقدم له الخضوع والتسليم ففطن المهدى لهـذه الحيـلة وخاف ان ينتقم غردون من عبد القادر فصار يمده بارساله ان جنح لمسالمته وهذه صور الـكتب نقلا عن كتاب المنشورات

الـكتاب الاول

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الـكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا هداه الله الى طريق النجاة قبل ان يتلاشا آمين نعلمك ان جوابك رد المحرر منا وصـل الينا وفهمنا مضمونه وقـد عذرناك في عدم اذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر الحقيقـة التى نحن عليهـا وبحسب مقامنا ودلالتنا الى الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتي من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا نداوجك عسي الله ان يهديك الى سواء السبيل فاجب داعى الله واغتنم سـلامتك من الشر الوبيـل فقد رأيت ماحل ونزل ولازلت تري ولا طاقة لك ولا لاعوانك بحرب جند الله عز وجـل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وطلبت ارساله لك فعلى م ذا هل أنت منيب الى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور

أم انت على تصميمك فى اعراضك ومعاداتك لربك فافدنا على هذا لنعلم طلبك له هو على أى الوجهين ونرسله لك ان راينا فى ذلك صلاحا للدين واقول لك ان عزة الاسلام خير لك وابقى لدوام احترامك في الدارين فتحلّ بها ان عقلت والسلام ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٠٢

الكتاب الثاني

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الي الله المعتصم به محمد المهدى بن عبد الله الى الغردون باشا فسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان اعترضت كان عليك اثمك واثم من معك فقد اتاني الخبر من الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجردة الآتية لو لو كان معي ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد تموت أو وحدى كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتاني خبرها انها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالي والهكس والمديريات الغربية كلها والبحر الابيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله ومادام ان الله القادر أيدنى بالكرامات وبالنصر فلا يضرنى انكار منكر وانما يضر نفسه فقط والامر الذي أوعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم جار على ان الجردة التى تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم من سد الانصار الطرق فان اسلمت وسلمت فقد عفونا عنك واكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله وستري والسلام ربيع أول سنة ١٣٠٢

«تحشية» وان طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتخبرك المرأة الواصلة

اليك وان رأيت التمكين واليقين ان أردت التسليم اكثر من هذا الجواب سنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الامان فلا مانع وبذا لزمت التحشية

الكتاب الثالث

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم * والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . (وبعد) فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا . وقاه الله كل شر لاشا . فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في أماننا وضماننا . فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانكليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم بهلاك من في الخرطوم قريباً الا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لك ان لا تهلك مع الهالكين لانا قد سمعنا مراراً فيك الخير ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدي الى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسي أن ييسر الله هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طال ما كاتبناك لترجع الي وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » والسلام ٢٥ ربيع أول سنة ١٣٠٢ وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته الينا انك قلت ان الانكليز

يريدون ان يفدوك وحدك منا بعشرين الف جنيه ونحن نعلم ان الناس يقولون من البطال كلاما كثيراً ليس فينا وذلك لصدود من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا وأنت ان قبلت نصحنا فبها ونعمت والا ان أردت ان تجتمع على الانكليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام فى تاريخه

ذكر فرار الصنجقين عمر والعطا

كانت حالة المدينة وما أصابها من المجاعة مجهولة لدى المهدي لما كان يظهره له غردون من الجلد وكان ضمن جنود الباشبوزق صنجقان يقود كل واحد منهما مائتي جندي من الباشبوزق اسم أحدهما عمر ابراهيم والآخر العطا الدود الشايقي

وفي ذات يوم جاءني الاول وقال ان له قريبا في جيش المهدى ارسل له كتابا قال فيه ان الحملة الانكليزية وصلت الى جهة (ولد البصل) التى تبعد عن الخرطوم بمسيرة مرحلتين جهة الشمال وانه يتحمل مسؤلية عدم صحة هذا النبأ ثم طلب ان تدفع له مرتبات جنوده من صنف الجنيه الذهب خلافا للعادة المتبعة وقتئذ من صرف المرتبات من ورق البون ومن المسكوكات معا فاصدرت الامر بصرف مرتبه ومرتبات جنوده من صنف الجنيه الذهب وكان ذلك نحو أربعمائة جنيه وكذلك أمرت بصرف مرتبات جنود العطا الدود من صنف الذهب أيضاً وبعد قبضهما عادا الى مواقفهما من الاستحكام

وما كاد الظلام يرخي سدوله حتى فرا ولحقا بالمهدي وأوقفاه على حالة المدينة وما تقاسيه حاميتها من وطأة المجاعة وفقدان القوة ثم اعلماه بمكان في طرف

الخندق من جهة النيل الابيض هبطت عنه مياه النهر وهو مملوء بالاوحال تستطيع جنوده ان يدخلوا من هذا المكان وأطلعاه على كل عورات الخندق وارشداه الى الطريق التى يمكنه الدخول منها . وبالجملة فانّ هذين الخائنين هما اللذان شجعا المهدي على محاولة فتح الخرطوم عنوةً ولولاهما لظل محاصراً للخرطوم لا يجسر على الهجوم عليها وأخذها عنوةً

ولما اتصل خبر فرار ذينك الخائنين بغردون استدعى فرج باشا الزيني ووبخه على اختياره هذين الشقيين وشهادته باستقامتهما وبعدهما عن الميل لجهة العدو ثم أمر باجراء تحقيق ظهر منه انهما كانا قد اشتريا من فرج باشا وظيفتيهما ودفعا له ثمناً باهظاً ثم أمر بحفظ الاوراق حتى تسنح الفرصة بمحاكمة هذا القائد وذلك لا يكون طبعاً الا بعد انقاذ الخرطوم

ذكر مادبره غردون لانقاذ الاوربيين

لما سقطت أم درمان وبرّحت المجاعة بحامية الخرطوم استدعى غردون قناصل الدول وأعيان النزلاء الاوربيين الى مجلس عقد بسراياه ثم اتفق الرأى على انتدابي ومعي الاوربيون والقناصل لنبرح الخرطوم على باخرة صغيرة اسمها (محمد على) ونلحق بخط الاستواء أو بالمتمة لنقابل جنود الانكليز القادمين لانقاذ غردون غير أن أحد القناصل أبدى رأيا قال فيه ان للدراويش طوابى وموانع على البحر الابيض تجعل نجاة الباخرة من مقذوفاتهم مستحيلة وقال ان اللحاق بالمتمة أقرب الى السلامة فوافق الحاضرون على رأيه ثم كتب لي أمراً قال فيه « انه لمحبتى اياك واعترافي بخدمك الجليلة التي أديتها لي أرى ان

اكافئك بالنجاة مما وقعت انا فيه ولذلك انتدبتك لمرافقة الاوربيين والقناصل الى المتمة لانني عالم بانني اذا أصبحت أسيرا في أيدى هؤلاء الاشقياء فلا تتركني حكومة جلالة الملكة وانها تقدم القناطير المقنطرة من الذهب فداءلي وأنا أتمنى لك النجاة من صميم فؤادي ياعزيزي فوزى لانك اذا وقعت أسيراً في يدهم لا تفديك حكومتك ولو بدراهم قليلة »

وفي يوم الاربعاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ صرفت لي الذخيرة والاسلحة وتسلح الاوربيون وكان هذا التدبير سريا وأذعت بين الناس انهم عينوا بصفة عسس ثم اجتمعنا بمنزل قنصل اليونان نيقولا لوانديدي واجتمع معنا بقية قناصل الدول وأعيان رعاياهم فابدي الكل عدم استحسان هربهم مع بقاء غردون عرضة للخطر وودوا مساعدتي في اكراه غردون وحمله الى الباخرة ولو بالقوة ساعة السفر فاستصوبت رأيهم واتفقت مع حراسه وخدمه على حمله بالاكراه الى الباخرة وقت السفر وقد ضربنا أجلاً لهذا السفر منتصف ليلة السبت ٧ ربيع الثاني

وفى صبيحة يوم الجمعة ٦ ربيع الثاني تفقدت خط النار والقيت التنبيهات ثم عدت الى المحافظة واستدعيت القناصل والقيت عليهم التعليمات ليكونوا هم ورعاياهم على قدم الاستعداد عند منتصف الليل فقالوا نرى ان العدو قد رسخت أقدامه حوالي المدينة وان مدافعه مطلة على كل مضايق النهر واننا نرى ان نتربص هنا نحو ثلاثة أيام ريثما تصل الجنود الانكليزية فذلك خير من محاولتنا الفرار الذى لا تكون عاقبة الاقدام عليه مضمونة فلم أقبل منهم هذا القول وأصررت على انفاذ ما قررناه أولاً فذهبوا الى غردون وعرضوا مقالتهم

عليه فاستدعاني وأمرني بالاذعان لما أشاروا به فكان ذلك

ثم أصبحنا يوم السبت ٧ ربيع الثاني والازمة في ازدياد الشدة والحامية قد فقدت كل قوة تدفع بها العدو والى الله مصير كل شيء

ذكر سقوط الخرطوم ومقتل غردون

كانت الحملة الانكليزية قد وصلت الى النيل عند نقطة المتمة وانتصرت على جيوش المهدي فى آبارابي طليح بين دنقله والمتمة كما سيأتى ذكر ذلك في مكانه

ولما وصلت اخبار الحملة الانكليزية وانتصارها على اتباعه الى المهدي كبر عليه الامر واستدعي خواصه الي مجلس عقده للمشاورة فيما ينبغي فعله فذهب فريق الى وجوب زحف المهدى بنفسه على الحملة الانكليزية وقال آخرون بل يترك المهدي حصار الخرطوم ويتقهقر راجعا الي كوردفان فقام ابو قرجة احد الامراء ومعه عبد القادر ساتى علي عم المهدي ورئيس نوابه وقالا ان الانكليز لا يقصدون غير الخرطوم وانه اذا بلغ الخرطوم مائة جندى انكليزى صار من المستحيل وقوعها تحت قبضتنا فالاولى بنا ان نحاول اسقاط الخرطوم وفى اسقاطها وقوع اليأس فى قلوب الانكليز الذين نتقدم لمحاربتهم بعد ذلك فوقع كلامهما هذا موقع القبول عند المهدي واستحسنه

وشجع المهدى على ذلك ماعلمه من عورات المدينة التى أطلعه عليها الصنجقان عمر ابراهيم والعطا الدود فعقد نيته على اسقاط الخرطوم بالقوة والاقتدار

وفي صبيحة يوم الاحد ٨ ربيع الثاني خرج المهدى من كوخه يحمل على رأسه مقطفا من الخوص مملوءا من الرمل فتبعه الناس حتي انتهى الى ضفة النهر فاحاط به الناس وهو لا يكلم احدا منهم واخذ يقبض من الرمل

بيده ويقذفه في النهر ويرفع صوته قائلا « الله اكبر على الخرطوم » فيجاوبه من حوله بمثل مقالته حتي فرغ مافي المقطف من الرمل فالتفت الى من حوله وقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالهجوم على المدينة في هذه الليلة وان سقوطها في يده ضربة لازب ثم ركب زورقا واجتاز النهر الى الضفة الشرقية حيث قصد معسكر ابن النجومي

وبعد صلاة العصر ركب جملا واحتشد الناس حوله فأثنى على ابن النجومى وقال له ان النبي صلى الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء علي الخرطوم فى هذه الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته الى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو في القلب ومعه الفرسان ويكون قائد الميمنة الحاج محمد ابو قرجة ومعه حملة البنادق ويكون قائد الميسرة محمد نوباوى شيخ قبيلة (بني جرار) احدي بطون قبيلة الكبابيش ومعه الاعراب والبقارة المسلحون بالحراب والسيوف وان يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند البرج المعروف باسم (باب المسلمية) وهي مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلى النيل الازرق جهة (بري) ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلي النيل الابيض عند المكان الذي انحسر عنه ماء النيل وتراكمت عليه الاوحال وصار في الامكان الوصول الى المدينة منه وقد ذكرنا ان الصنجقين الخائنين عمر ابراهيم والعطا الدود الشايقى هما اللذان أطلعا المهدى على حقيقته

وقدم المهدى عمر ابراهيم المذكور الى محمد نوباوي قائد الميسرة بصفة دليل يرشده الى ذلك المكان ودفع اليه شخصاً آخر اسمه بدوى الدنقلاوى وكان كيالاً في الشونة بصفة دليل ثان

وأصدر المهدى الى محمد نوباوي أمراً قال له فيه ما يأتي

« لدى دخولك المدينة يجب ان تقصد سراى غردون على الفوز وتبلغه تحيتي ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحداً يعتدى عليه حتى توصله اليّ سالما بغير ان يصيبه مكروه » وخطب على الجمع قائلا لا يتعرضنّ منكم أحد الي حياة غردون بسوء لانى أريد أن افتدى به أحمد عرابي باشا ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الجنان وقال لهم في ختام خطبته احملوا الحشائش لالقائها في الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعاً الى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفتين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيبا الى أم درمان

وأصدر المهدي أمرا أيضا الي حمدان أبى عنجة قائد جيشه في أم درمان باطلاق القنابل تباعا على المدينة من عصر الاحد ٨ ربيع الثانى الي ظهر يوم الاثنين ٩ من هذا الشهر وان يصوب قنابله الي مضيق البحر لمنع أى باخرة تقصد الجهة الشمالية

وقد اجتاز النهر من أم درمان الي معسكر ابن النجومي نحو مائة الف مقاتل من البقارة ليشتركوا في اسقاط المدينة وكلهم صاروا من مقاتلة الميسرة لانهم مسلحون بالحراب والسيوف

هذا ما كان من أمر المهدى وأما حالة المدينة والحامية فقد أصبحنا يوم الاحد وجو المدينة مكفهر والسماء متلبدة بالغيوم والشمس محجوبة عن العيون والبرد قارس خلافا لعادة الطقس في السودان اذ الجو يكون صحواً والشمس بارزةً بأشعتها المحرقة في كل أيام الشتاء وقد عد البسطاء تلبد السماء واحتجاب الغزالة بما ينذر بالمطر في مثل ذلك اليوم كرامة من كرامات المهدى لان

أهالي تلك البلاد لا يعطرون الا صيفاً والجو يكون فى غاية الصحو زمن الشتاء عندهم

وقد أثرت برودة الطقس واحتجاب الشمس على قوي الجنود وتركتهم كأنهم صرعى فى مواقفهم على الخندق

وكان غردون ومعه قناصل الدول واقفين على سطح السراي ينظرون بالنظارات المعظمة الى كثرة الدراويش الذين يجتازون النهر ويلحقون بمعسكر ابن النجومي وقد استنتجوا من تكوف الناس في صعيد واحد ان المهدي لا بد أن يكون في معسكر ابن النجومى ولا بد أن يكون قدومه لشأن ذي بال لانه لم يقدم على معسكر ابن النجومي منذ حل بام درمان

وفي منتصف النهار استدعانى غردون الى السراي وأخبرني بماشاهده مع القناصل من كثرة اجتياز الدراويش للنيل وانضمامهم لمعسكر ابن النجومي ثم قال لي هيا بنا نطوف حول الخندق ونتفقد الجند فرافقته الى الخندق وقضينا أربع ساعات في التطوف حوله وكان يشجع الجنود ويحثهم على المقاومة والثبات ويعدهم بوصول نجدة الانكليز في الغد فلم يلتفت احد لاقواله وكان لمن يصرخ في برية أو يطلب من الماء جذوة من النار اذ العساكر كما قلنا صرعى لاحراك لهم فعدنا الى السراي وقد أخذ اليأس منا كل مأخذ واجتمع عنده قناصل الدول لدى عودته وكان الليل قد اقبل ولا تزال السماء متلبدة بغيوم حجبت نور القمر فقال غردون للقناصل لقد رأيتم تجمع العدو وانى بتفقدى الحامية وجدت الجنود قد فقدوا كل قوة وشجاعة يقدرون بها على حراسة الاستحكام في هذه الليلة المشؤمة وانني موقن بسقوط المدينة قبل أن يسفر الفجر وقد كنت عملت ما في وسعي لانقاذكم من هذا الخطب فتقاعدتم وأبيتم

ليتم ماقضاه الله عليكم والى هذه اللحظة فانى أدعوكم لانفاذ ماتفقنا عليه أوّلا فهاهى الباخرة فقوموا وسيروا بها ومعكم ابراهيم فوزي كما تقرر قبلا عسى أن يقرن سعيكم بالنجاح وتقابلوا الجنود الانكليزيه أما أنا فانى موقن بعدم لقائهم فأجابوه بأن نجاة الباخرة مستحيلة لان طوابى العدو قد تضاعفت وزاد عددها اضعافاً على الذي رأيناه يوم الجمعة وعلى ذلك فنحن هنا قاعدون والله يفعل مايريد ثم هموا بالانصراف فصافحهم كلهم قائلا انني أبرأ الي الله والعالم أجمع من تبعة أى داهية تلم بكم فقالوا نحن نشهد بما تقول فصافحهم وملامحه تدل على انه لايتوقع لقائهم بعد وشيعهم الى السلاملك وكان يحني رأسه ويحرك شفتيه فكأنه كان يقول « الوداع الاخير أيها السادة »

ولما عاد القناصل استدعانى الى غرفته وقال لي مايأتي

«أنا موقن بوقوع الحادث الاخير على هذه المدينة في هذه الليلة وانى كما علمت لم أدخر شيأ من سعيي فى سبيل انقاذها ولكن لاأزال أشعر بتبكيت الضمير الذي يؤلمني لتركي اهالى هذه المدينة الذين وثقوا بي وحاربوا معي عرضة لانتقام المهدى ولو لم أكن طول حياتي اطلب رضاء الله في كل أعمالى لانتحرت تخلصاً من وخز الضمير لكن الانتحار ينافي التفويض والتوكل على الله الفاعل لكل شيء ويوجب غضبه سبحانه وتعالى » وقد كنت خلال هذا الحديث أنظر الى وجهه فلم أر غير الثبات كأنه متوقع وقوع حادث جلل

وقد لمحت فى غضون محادثته ان صدره متجيش بالعبرات التي لم تكن من جزع أو جبن بل هى كما قال من تبكيت الضمير وفي الختام ودعني مشيعا الي السلم خلافا لعادته المألوفة معي وقال عليك بحراسة البلدة بمن معك من الاوربيين وانني أعلم ان ذلك لا يجدي نفعاً ولكن نقوم بواجبنا لآخر لحظه

والله يفعل ما يشاء ثم قال لي اني صاعد الي سطح السراى لانى أشعر بانقباض فقلت له ان البرد قارس جداً فقال ليس عليّ باس منه فودعته حوالي الساعة الخامسة من الليل وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من جهة الخندق ومن جهة أم درمان

وكانت الالعاب النارية تطلق حوالي السراي تسكينا لخواطر السكان وارهابا للعدو ولما خرجت من السراى قصدت دار المحافظة واجتمعت بالعسس الاوروبي وتجولت معهم فى المدينة وحوالي الجبه خانه ثم عينت لهم مواقفهم وأبقيت معي ثلاثين جنديا من المصريين وقصدت دار المحافظة أواخر الساعة العاشرة فالفيت بها اشعارات فهمت منها ان لدي الحامية أخباراً بان العدو على وشك الهجوم على المدينة فشرعت في تدوينها وكانت الساعة اذ ذاك احدى عشرة ولم أفرغ منها حتى سمعت ضوضاء الدراويش قد دخلوا من جهة النيل الابيض فجمعت الثلاثين جنديا الذين كانوا معي وأدركنا فى الطريق ثمانية من اليونانيين من العسس الاوروبى وقصدنا سراى غردون فبلغناها والفجر قد ظهر ولم نكد ندنو منها حتي أبصرنا نحو عشرة آلاف من العدو محيطين بها فتقهقرنا راجعين الى دار المحافظة وما بلغناها الا بعد اللتيا والتي وهناك قعد الجنود في النوافذ وصوبوا البنادق على كل من اقترب منا حتى منتصف النهار حيث أحاط بنا العدو واسلمناه أنفسنا وسيأتي ذكر معاملته لى ولسائر سكان المدينة

هذا وقد كان زحف العدو على المدينة كما شرحناه وكان القائد فرج باشا واقفاً عند باب المسلمية ولما أحس بدخول الميسرة على الخندق مما يلى البحر الابيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد ان تنكر بملابس جندى ومعه القائمقام سرور بهجت وسنعود الى ذكر قتلهما

ولما دخل محمد نوباوى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غردون وكانوا زهاء مائة الف مقاتل فاطل غردون من النافذة ونظر اليهم ثم قال لحراسه لاتبدوا ممارضة لاى أحد يريد الوصول اليّ وإياكم ان تبدوا أقل دفاعٍ ثم تقلد كسوة التشريفة الصغرى التي هي ملابسه اليوميــة على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشاً وضع عليه رداء حريريا (كوفية) وربطه بعقال كزيّ الاعراب فدخل عليه محمد نوباوي وجماعة من مقاتلته فوجــدوه جالساً على كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له اين أموالك يا غردون يا كافر فتبسم ضاحكا وقال له أين (محمد احمد) يقصد المهدي فابتدره الرجل بطعنة في صدره خر منها صريعاً على الارض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد الحواس من هذه الضربة

ونقل لي أحد الحاضرين انه سمع واحــداً من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له لاتقتله بل أبقه كما أمر المهدي فاجابه القائد محمد نوباوى بقوله ان الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتا حين نطق بهذه العبارة ثم سحبوا غردون من رجليــه ولم يكن قد فقــد الحواس ولا قوة النطق حتي قيــل انه كان يتبسم وهو مسحوب على وجهه ثم انزلوه الى حوش السراي وهناك قطعوا رأســه وارسلوها الى الخليفة محمد شريف الذي كان وقتئذ في جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدى فركب الباخرة اسماعيلية وأوصــل رأس غردون الى المهدي الذي انكر قتله وصاح قائلا لماذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله فقال له التعايشي ان قتله خير من استحيائه فبدت على المهدى علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل الى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخــذ النساء والصبيان يرجمونها بالحجارة

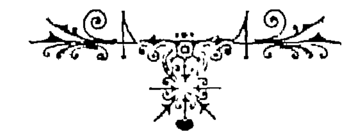
ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة

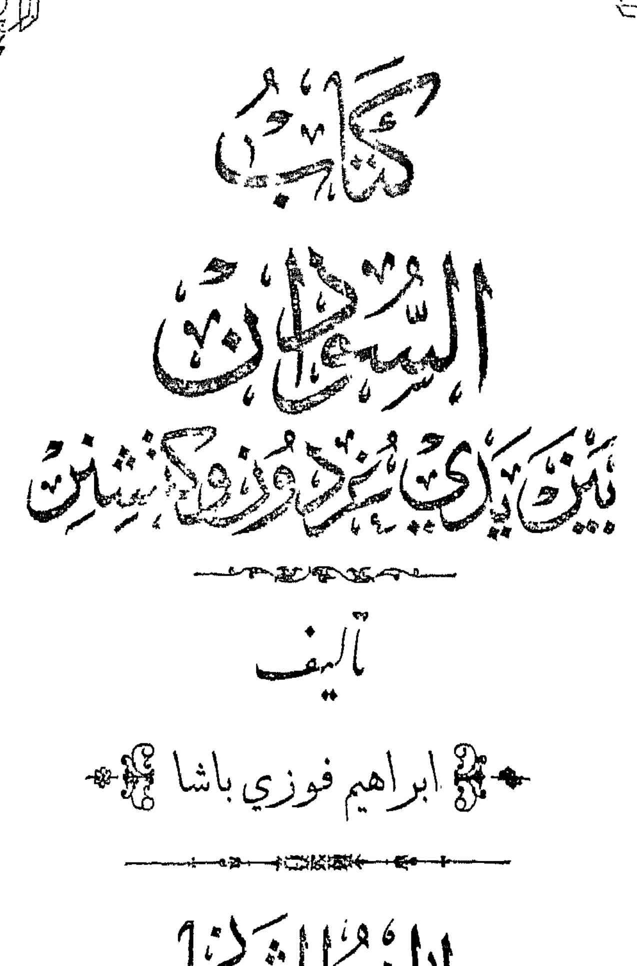
وبلغ عدد القتلى من سكان الخرطوم يومئذ أربعة وعشرين ألف رجل وثلاث نسوة وسنذكر معاملة المهدي لاهالي الخرطوم وانتقامه منهم بمصادرة الاموال وهتك الاعراض بعد هذه المذبحة وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون

﴿ انتهي الجزء الاول من كتاب السودان بين يدى كتشنر وغردون ﴾

« ويليه الجزء الثاني وأوله قيام دولة المهدى في السودان »

{ كل نسخة من هذا الكتاب تكون مختومة بختم المؤلف الذى هو هذا }





كتاب السودان بين يدي غوردون وكتشنر

تأليف

ابراهيم فوزي باشا

الجزء الثاني

طبع على نفقة مؤلفه وادارة جريدة المؤيد

(طبع بمطبعة الآداب والمؤيد سنة ١٣١٩ هجرية)

﴿ فهرست الجزء الثانى من كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر ﴾

(تمت)



الحمد لله على آلائه. والصلاة والسلام على سيد رسله وأنبيائه. محمد وآله وصحبه وأوليائه

وبعد فقد انتهينا في الجزء الاول من كتاب (السودان بين كتشنر وغردون) الى آخر حادثة سقوط الخرطوم بقتل الطيب الذكر (غردون باشا) ووقوع البلد في قبضة المهدي ووقوعنا والحامية في أسره. وبقي أن نذكر من موضوع هذا الكتاب ما تلا ذلك فنقول وبالله المستعان

قيام دولة المهدي في السودان

لما كانت مدينة الخرطوم عاصمة أقاليم السودان المصري فسقوطها في قبضة المهدي صير السودان كله خاضعاً له ولا عبرة باقليم دنقلة الذي كان وقتئذ مقر الحملة الانكليزية كما انه كانت توجد مدينتان لم تخضعا له بعد وهما مدينة سنار عاصمة اقليم سنار ومدينة كسلة عاصمة مديرية (التاكا) ومهما يكن من الامر فان حالة تينك المدينتين كانت منذرة بقرب بسقوطهما وسيأتي تفصيل ذلك كله في مكانه

بلغ عدد القتلى من سكان الخرطوم يوم سقوطها أربعة وعشرين الف رجل وقتل الاطفال وكل ذكر ولو كان رضيعاً غير ان النساء لم يقتلن وابتدأت هذه المذبحة عند طلوع الفجر. وقبيل شروق الشمس أصدر الخليفة (شريف) الاوامر

بالكف عن القتل وأخرج السكان من منازلهم بملابس النوم وأصدر أمين بيت المال أمراً الى الحاج خالد العمرابى بالوقوف على باب الخندق لتفتيش كل خارج من سكان المدينة الذين أمروا بالبقاء في بقعة بين الخندق ومعسكر ابن النجومى معرضين للبرد القارس والحر المحرق واستولى الدراويش على المنازل وفي اليوم التالي بدأ بتعذيب الناس حيث يستدعون صاحب المنزل وكبار أفراد عائلته الى منزل الامين ويبتدؤن مكالمته بقولهم له حيث انك كفرت بالله ورسوله وحاربت المهدى فقد أهدر الله ورسوله دمك وحرم مالك عليك وصيره حقا للمهدي والمهدي عفا عن دمك ولا سلامة لك فى الدنيا والآخرة الا بتسليم جميع أموالك حتى الخيط والمخياط وسواء أذعن لهذه الاكاذيب وسلم ماله أو لم يسلم فلا بد من ضربه الف سوط والمرأة نصفها وتوثق يداه ورجلاه ويلقى على الارض ويصب عليه الماء البارد فى الليل

وبقى السكان فى هذا العذاب شهراً حتى جمعت الاموال والامتعة فى بيت المال

ومن الحوادث التي وقعت يوم سقوط الخرطوم ان رجلا اسمه (كريب) من أقارب المهدى ومن حراس الخليفة شريف الذين يطلق عليهم اسم (الملازمية) ومعه نحو عشرة من أقاربه دخلوا منزل رجل مصري اسمه ابراهيم له سبعة إخوة فقتلوا الثمانية وفتشوا المنزل فلم يجدوا به مالا وكان لابراهيم غلام فى التاسعة من العمر فاخفته أمه ونساء أعمامه فى وسط الامتعة خوفا عليه من القتل فعثروا به فى غضون التفتيش وأخرجوه فترامت أمه ونساء أعمامه على اقدام كريب ورفقائه وقلن له ان والده وأعمامه السبعة قتلوا فنسألك بالمهدى الا ما تركت لنا هذا الصبي فالتفت لهن وقال كيف

نتركه ونحن لم نجد فى بيتكن ذهباً ولا فضة وكلكن نساء مسنات ليس بينكن من تميل النفس اليهاثم صاح برفقائه وقال قطعوا الصبي ثمانى قطع واتركوا لكل واحدة منهن قطعة ولم يتم هذه العبارة حتى تناول رفقاؤه الصبي وقطعوه ثمانى قطع والقوا لكل امرأة قطعة ومثل هذه الحادثة يعد بالالوف ذكرنا منها هذه للدلالة على اخواتها

وأخذت النساء سبايا وأرسل أمين بيت المال بنحو الف عذراء من بنات أعيان المصريين فاختار المهدى منهن ثلاثين فتاة من ذوات الحسن والجمال آباؤهن من وجهاء المصريين سكان المدينة ووزع الباقي على حرسه وذوي قرابته وكلهن كموطوآت بملك اليمين

وأرسل أمين بيت المال عدداً عظيما من النساء الى عبد الله التعايشي فابقي لديه العذاري منهن ووزع الباقى على حراسه وذوى قرابته ايضا وصار كلما قضى وطره من واحدة يهديها الي أحد رجال حاشيته

وأرسل أمين بيت المال أيضا بمئات من النسا الى الخليفتين على بن حلو ومحمد شريف وكان عملهما بهن مثل عمل عبد الله التعايشى. وكثير من أولئك النسوة امتنعن من الفسق والفجور بهن فعذبن عذابا اليما وضربن ضربا مبرحا وحلقت شعور رؤسهن وكثير منهن فضلن الموت على الحياة ورأيت امرأة أحد الصناجق وهى تركية من جهة أبيها وسودانية من جهة أمها انتحرت تخلصاً من العذاب الذى نالها على أثر امتناعها من تسليم نفسها لعبد الله التعايشي وضربت امرأة الشيخ محمد السقا شيخ القراء فى الخرطوم وعذبت ستة شهور لامتناعها من تسليم نفسها الى عبد الله التعايشي والخلاصة ان عدد النساء اللواتي سبين لا يقل عن خمسة وثلاثين الف فتاة

وشاهد ذلك انك تجد عند أصغر أمير من أمراء المهدى عشرين فتاة أما الامراء الكبار وأقارب المهدى فان اللواتي يأخذهن كل واحد منهم يزيد عددهن على العشرين عذراء ولا يظنن القارئ انهم يختلسون أولئك الفتيات بل يأخذونهن بامر من المهدى أو أحد الخلفاء أو أمين بيت المال موضحاً فى كل أمر اسم الفتاة واسم أبيها وجدها وأوصافها وأنها أعطيت لفلان غنيمة له يحل له وطؤها بملك اليمين ويجوز له بيعها مالم تصر أم ولد ومن وجدت عنده من اتباع المهدي امرأة وليس لديه أمر بالبيانات التى شرحناها تصادر أمواله ويقبض عليه ويعامل معاملة سارق

وكان المهدي أصدر أمراً حظر فيه سبي كل امرأة لها بعل ولكن هذا الامر كان لايعمل به الا اذا كانت المرأة طاعنة فى السن أو قبيحة المنظر لاتميل اليها النفس وكان أمين بيت المال يمسك النساء ويفتشهن بعد خلع ملابسهن فمن وجدت سليمةً من العيوب أخذت ومن وجد بها عيب انتهرت وطردت

هذا مجمل مافعله المهدي بسكان الخرطوم من جهة الاموال والاعراض ذكرته بغاية الايجاز لانني اذا تتبعت التفصيل أفنيت الاعوام دون أن أوفي حق المقام

وأصدر المهدي منشوراً قال فيه ان جميع الذين خرجوا من قيقرة الخرطوم اى (خندق) الخرطوم لايعتبر زواجهم شرعياً لانه حصل في زمن الفترة التى كانت قبل بعثته وأمر بعقد زواج كل زوجين من أولئك الاسرى واذا كان في المرأة شيء من الحسن أو بقية من الشباب لايستأنف عقد زواجها بل تؤخذ غنيمة

وكتب أمين بيت المال الى المهدى يستفتيه في أنه وجد بالخرطوم عتقى أعتقهم مواليهم قبل فتح المدينة بزمن بعيد فهل يعاملون كالاحرار أو الارقاء

فأجابه بان الذين أعتقوا كفار لايعتبر عتقهم وأمره بمعاملة أولئك المعتق معاملة الارقاء

ذكر مقابلة المؤلف مع امين بيت المال

ذكرت انى أسلمت نفسي ومن معي من الجنود في منتصف النهار فقبضوا عليّ وأوثقوني كتافاً وساقوني الي أمين بيت المال يحيط بي نحومائتى نفر من الدراويش شاهرين سيوفهم وكلهم يصيحون بي ويقولون يا كافر ياعدو الله فالفيته بمنزل أبى بكر الجاركوك أحد أعيان المدينة ووجدت المنزل مملوأ بالنساء وهومشتغل بفرزهن

ولما أوقفت بين يديه كان مشتغلا بالنظر الى فتاة فتانة وهى مجردة من ملابسها وبيدها خرقة تستر بها عورتها وهو يقلبها يمنة ويسرة والدموع تتساقط من جفونها وهي تقول « رضينا بقضائك ياالله وبعد ان فرغ من أمر الفتاة التفت نحوى وقال أعوذ بالله من هذا الوجه الابيض ثم التفت للحراس الذين حولي وقال لهم من هو هذا الكافر فقالوا هو ابراهيم باشا فوزي فقال لماذا لم تقتلوه فقالوا تركناه ريثما يظهر أمواله وأموال غردون والحكومة ثم صاح بى وقال دلنا يا كافر على هذه الاموال فقلت ان أموالي أخذت من منزلي وأما أموال غردون والحكومة فلست موكلا بحفظها ثم استل سيفه من غمده وتقدم الى وقال هذا الكافر لايظهر هذه الاموال وقتله خير من استحيائه فامسكه من حوله وقالوا له أرجئه ريثما نعذبه اويدلنا على الاموال ثم صاح بالعبيد فطرحوني على الارض وجلس واحد منهم على رأسي وأمسك اثنان السياط وضرباني حتي كلت سواعدهما فابدلا

باثنين آخرين حتى سال الدم من جسمي فقلت لهم ليس لغردون مال وليس للحكومة مال غير أوراق البون

وبعد ان تمزق جسمي زجوني في السجن وبقيت ثلاثة أيام فيه يسوقوني للاستنطاق والضرب في كل غدوة وروحة

وفي اليوم الثالث أخرجوني من السجن موثوق الكتاف يحيط بي الحراس وأرسلوني الى منزلي فوجدت به أحد الامراء المشهورين بالورع والتباعد عن غل الغنائم فجمع أمتعتي وكتبها في ورقة عرضها عليّ فلم أجد شيئاً مفقوداً منها ثم قال لي ان الاموال الظاهرة كلها استوليت عليها ولم يبق غير مايخفى في بطن الارض فقلت انني لم أخف شيئاً في بطن الارض فأخذ يوعظني تارة ويهددني أخرى وآناً يثب عليّ بالسيف فقلت له انني لم أخف شيأ ولم يكن لديّ مال غير مااستوليت عليه فساقني وممى ماخف حمله من الامتعة الذهبية والفضية والنقود وبعض حلى مجوهرة الى أمين بيت المال فلما نظرني قال كيف أبقيتم هذا الكافر حياً حتي الآن فقال له الامير نحن نؤجل قتله حتي يظهر لنا أمواله وأموال غردون والحكومة ثم قال أمين بيت المال لذلك الامير ألم يك عنده نساء فقال له عنده محظيتان حبشيتان أخذتهما لنفسى فقال أمين بيت المال كيف تأخذهما قبل عرضهما عليّ وأخذ الاذن بهما مني فأجابه الامير انى أخذتهما بسيفي ولا أطلب من بيت المال غيرهما فبارك لي فيهما فقال له قد باركت لك فيهما وملكتك اياهما فشكره وأنا واقف وساعداي موثوقان كتافاً

ثم تقدم امين بيت المال الى الصناديق التي فيها امتعتي وفتحها فوجد ضمنها صواني وطواقم للقهوة والشاي مصنوعة من التبر على طريقة صناع الخرطوم

الماهرين وهي عبارة عن اسلاك مسبوكة يتألف منها كل واحدة من تلك الاواني فالتفت الى أمين بيت المال وقال لي يا كافر ياعدو المهدي ومحارب انصاره لما ذا اتلفت ذهب المهدي وفضته وصنعتها أواني مثل مايصنعه الكفار فقلت له اني صنعت ذلك لما كان هذا التبر ملكا لي ولما صار الآن ملكا للمهدي فانه يصنع به مايشاء فقال لي من أين لك انه كان ملكا لك مع انك محارب للمهدي وكل مافي الخرطوم ملك حرب له حتي الارواح وضربني بسوط كان في يده ضربتين على رأسي حتى خضب بالدماء وجهي ثم قال خذوه الى الامير ابي قرجة ليريحه من الدنيا . فاخذت بحالة لا أستطيع وصفها حيث كان يحيط بي نحو ثلاثمائة درويش شاهرين السيوف والحراب حولي وهم يصيحون يا كافر ياعدو الله حتى بلغت منزل أبي قرجة وكان نازلا بديوان المديرية فالفيت بالباب جما غفيرا من الناس وسمعت قهقهتهم من البعد وهم مزدحمون فادخلوني على الجمع المتكوف فنظرت رجلين مجردين من ملابسهما فامعنت النظر فيهما فاذا احدهما حامد أغا صالح أحد الصناجق وهو ابن صالح بك الملك صاحب فداسي الذي تقدم لنا ذكره والثاني من ذوي قرابته والدراويش يطعنونهما بالحراب طعنا لا يعجل موتهما فايقنت اذ ذاك انهم سيفعلون بي مثل مايفعلونه بهذين الرجلين وأخيرا سقط الرجلان مضرجين بالدماء على الارض وتطاير دمهما على وجهي وأصاب ملابسي فاجهزوا عليهما وكان ايقافي لمشاهدة ذلك المنظر الفظيع بقصد ارهابي لادلهم على ما يطلبونه ثم ادخلوني على أبي قرجة فابتدأته بالتحية فرد باحسن منها فاطمأنّ خاطري بما توسمت فيه من البشاشة فالتفت الى الحراس وقال لهم من هذا فتقدم رئيسهم اليه وأسر اليه قولا لم أسمعه فالتفت اليّ بسكينة وحنان وقال فكوا وثاقه ففعلوا

وأمرني بالجلوس على الارض فجلست وكنت وقتئذ في أشد حالات الظمأ والآلام الضرب فقلت له ياسيدي الامير أتجاسر بطلب شربة ماء قبل الممات فقال لي «أبشرك بكل خير» وأمر أحد غلمانه باحضار شراب من العسل ممزوج بالماء فقدمه لى فتناولت جرعة منه لم تقم بسد الظمأ واشتدت بى الحاجة الى طلب الماء فاعدت عليه الرجاء بطلب الماء فامرلي بماء ممزوج بشيء من خبز الذرة اسمه (الابريه) يغذي ويزيل الظمأ فتناولت منه بقدر الحاجة وبعد برهة خاطبنى وقال ان الدنيا فانية وان زمن المهدى ليس كما تقدمه من الازمان وان المال أصبح ملكا له ومن اخفاه عنه وقع في غضب الله فقلت له يا سيدى ليس لي مال غير ما أخذ منى وغردون لامال عنده والخزانة الاميرية ليس فيها غير أوراق البون فقال أتحلف لي بالله العظيم فقلت احلف بالله انني ما قلت الا الصدق فرفع صوته وقال للحراس الذين جاؤا بى ارجعوا من حيث جئتم فان الرجل صادق فيما يقول واحذروا من ان يمسه أحد بسوء واعلموا ان من مسه بالماء أمسه بالسلاح والتفت الي وقال لا بأس عليك ليهدأ روعك فانت آمن من كل سوء ثم أمرنى بالبقاء في منزله فبقيت به ليلتين كان يقدم لي الغذاء الكافى فى خلالها وكان كريما يأكل معه نحو ثلاثين رجلا من خواصه وكانوا يقدمون لي الطعام منفرداً فاستعطفني في ذلك وقال انه لا يمنعه من تناول الطعام معى غير شيء واحد وهو اننى لم أقابل المهدي ولم آخذ عليه البيعة فاظهرت له رغبتي في ذلك واننى أصبحت لا أطلب غير شمولي بعفو المهدى وتمتعي برضاه عني

ذكر ما غنمه المهدي من الاموال والذخيرة من الخرطوم

كان سكان الخرطوم أغنى أهالي السودان واكثرهم مالا ولما أحسوا

بقدوم المهدي عليهم هجرا اكثرهم الخرطوم ولحقوا بمصر وكانوا من الطبقة الرفيعة جداً وأرسل اكثر التجار أموالهم الى مصر وغيب الباقون أموالهم فى بطن الارض ولما قتلوا يوم سقوط المدينة ذهبت ولم يهتد أحد لمحلها ولذلك يقول العارفون إن اكثر الاموال مودعة في بطن الأرض ولم يتحصل بيت المال على شيء يذكر من المال . ومن المؤكد ان الامراء كانوا لا يقدمون الى بيت المال اكثر من ربع ما يعثرون عليه ومع ذلك كله بلغ ما اجتمع فى بيت المال نحو ثلاثمائة الف جنيه ونحو ثلاثمائة الف ريال من المجيدي والنمساوى ونحو ثلاثين قنطارا من الذهب المصنوع حلياً ونحو اربعمائة قنطار من الفضة

أما أثاثات المنازل والرياش والملابس فانها لا تدخل تحت حصر وقد جمعت تلالا يخالها الرائي جبالا

وأما الاسلحة فانها مدفعان من كروب و٣ مدافع متراليوز و٢٠ مدفعا جبليا و٦ آلاف بندقية رامنجتون جيدة و٤ آلاف بندقية رامنجتون بها خلل وكانت مودعة بالمخازن وعدد لا يدخل تحت حصر من البنادق ذوات الطلقتين ومن طراز آخر قديم

وأما الذخيرة فكما يأتى ٢٠ قنبلة لمدافع الكروب أما المدافع الجبلية فقنابلها موجودة بكثرة و١٠ آلاف صندوق مملوءة بالخرطوش و٨ آلاف اناء (برميل) مملوءة بارودا

ذكر قتل فرج باشا الزين

لما دخلت ميسرة الدراويش من ميمنة خندق المدينة كان فرج باشا الزين قومندان الحامية وقتئذ واقفا عند باب المسلمية فتنكر ولبس ملابس

جندى بسيط وحذا حذوه القائمقام سرور بهجت بك واختلطا مع الجنود السود وخرجا من باب المسلمية فامسكهما حراس ذلك الباب من الدراويش وفتشوهما ولدي تفتيشهما ارتاب الحراس فى أمرهما حيث وجدوا عندهما ساعتين من الذهب وسلسلتين ذهبيتين ثم وجدوا مع فرج باشا خاتمه المنقوش عليه اسمه وكذلك سرور بهجت بك فقبضوا عليهما وأوثقوهما كتافاوأرسلوهما الى أمين بيت المال الذى أرسلهما الى عبد الله التعايشي وهو أمر بضرب عنقيهما فضربا وكان ذلك في اليوم التالى لسقوط المدينة

وذهب كثيرون من الناس أن لفرج باشا الزين يداً في سقوط المدينة وانه كان خائنا والحقيقة انه لم يخن ولا يد له ألبتة في أمر سقوط المدينة غير انه كان كسولاً يميل الي الراحة ويفر من التعب سيء الادارة

على ان الذى دعا غردون لتوليته هذا المنصب كونه سودانى الاصل وربما كانت توليته تجذب قلوب بني جلدته الجنود السود لمعاضدته فخاب ظن غردون فيه ولم يتحقق شيء مما كان يؤمله فيه ومراعاة للظروف ابقاه في وظيفته التي كان بخيت بك بطراق يباشرها بدلا عنه

ذكر مقابلة المؤلف للمهدي

قلت ان الامير أبا قرجة اطلقني من الوثاق وسكن روعى وآوانى فى داره ليلتين ثم أرسل معي مندوبين حافظوا عليّ واجتازوا النهر معي حتى أوصلوني الى منزل يوسف منصور قومندان طوبجية المهدي وأبلغه المندوبون ان أبا قرجة أرسلني له ليقدمنى للمهدي فقضيت تلك الليلة في منزله وفي ظهر الغد رافقني الى دار المهدي ومعنا السيد بك جمعه مدير الفاشر فالفيناه

قد فرغ من صلاة الظهر والناس متكوفون حوله وهو يعظهم فتقدم يوسف منصور اليه وقال له يا سيدى الامام المهدي هاهو ابراهيم فوزى فالتفت الىّ بوجه باش وقال يا ابراهيم فوزى انني أعرفك منذ كنت حاكما فى مقاطعات البحر الابيض فلماذا ركنت الى الكفار ولم تسلم لي أولم يكن الواجب على مثلك اجابة دعوتي فقلت يا سيدي انني من كبار قواد الحكومة ولا يليق بى ان اتركها فى أويقات الشدة وسويعات الازمة وكما انني وفيت لها فسأوفى لك أيضاً فتبسم وقال لي قد عفوت عنك وأمرني بالدنو منه فدنوت فبايعني بيعته المعلومة ثم نزع مرقعته وقدمها لي فلبستها وكان ذلك دليلا على منتهي رضاه عني ثم انصرفت فاحاط بى الناس ليتبركوا بلثم جبة المهدى وبعضهم ناقم على نوالي هذه المنة فكان فريق من الناس يقصدون لثم تلك الجبة وآخرون يقصدون ايذائي باللكم وأخيراً خلعت لهم الجبة ليتبركوا بها ووقفت بعيداً وكانت الشمس محرقة حتى اجتاز بى كبير من الامراء فتقدمت نحوه وسألته ان يساعدنى على ارجاع الجبة ففعل ولما دفعها لي أخذتها ووضعتها على رأسى ثم لبستها وتوجهت قاصداً منزل يوسف منصور الذى نجا بنفسه وتركني وسط جموع المتبركين واللاكمين وتبعنى فى الطريق عدد ليس بقليل وكلهم ناقمون على نوالي هذه المرقعة . ثم أبلغت ان المهدى أمر لي بملاءة للغطاء واناء لطبخ الطعام وقصعة للأكل وجارية رأيت منها التذمر وعدم الرضى بالبقاء عندى فبعتها بعشرين ريالا

ذكر مقابلة المؤلف لعبد الله التعايشي

لما انصرفت من دار المهدى وعدت الى منزل يوسف منصور قال لي

لابد لك من مقابلة عبد الله التعايشي فقلت له بلغني ان هذا الرجل مشهور بالقسوة وانني أخاف على نفسي منه فقال لي يوسف انه لكذلك ولكن اذا بلغه انك قابلت المهدي ولم تسع لمقابلته كانت العاقبة اسوأ فقبلت مشورته

وفى الغد صاحبني يوسف منصور والسيد بك جمعه الى دار التعايشى الذى مكثنا ننتظر خروجه علينا ست ساعات وفى منتصف النهار خرج علينا واذا هو رجل نحيف الجسم بوجهه أثر الجدرى وملابسه مرقعة رثة بالية فابتدره يوسف منصور بالتحية فرد عليه ثم قال له يوسف منصور يا خليفة الصديق هذا ابراهيم فوزي من الخرطوم عفا عنه المهدي وبايعه فجاء يطلب عفوك أيضاً فالتفت اليّ بوجه عبوس وقال ما هذا ثم التفت لمن حوله من الدراويش وقال لهم ألست أمرتكم ان لا تتركوا ذا شارب أو ملتحيا من الذين دخلتم عليهم فى الخرطوم ثم قال ليوسف منصور ما هي وظيفة هذا الكافر فى الخرطوم فتلعثم يوسف منصور وتوقع شرا يصيبني وقال له انه كان ملازما بيته وكان غردون يبغضه فقال التعايشى للسيد جمعه ماهي وظيفة هذا الرجل فقال كانت وظيفته (باشا) فقال التعايشى (كان باشا الشونة) ومنذ ذلك فهمت ان لفظة الشونة كلمة عظيمة جداً عندهم ثم قلت له يا سيدى خليفة الصديق ان سبب نجاتى من القتل هى تعلق قلبي بمحبتك ومحبة سيدنا الامام المهدى المنتظر وان أنوارك وانوار المهدي هما كانا سبب نجاتى وانى أحمد الله على منته عليّ بمشاهدة نورك ونور المهدي وقد صرت الآن لا اكره الموت لانغماسي فى ذلك النور فاطرق الى الارض ورفع رأسه وقال يا يوسف منصور قد دفوت عنه ثم انصرفنا عنه وعدت الى منزل يوسف منصور وصنعت لي كوخاً من الحشيش بجوار منزل يوسف منصور الذى قال لي بعد

انصرافنا من عند التعايشي اذهب بنا لمقابلة الخليفتين على بن حلو ومحمد شريف، فقلت له انني لاقيت من التعايشي مالاقيته فليت شعري ماذا ألاقي من الخليفتين ثم قلت له لاأذهب اليهما البتة وقد كان من أمري معهما انى ماصافحت واحداً منهما ولا اجتمعت بهما حتي منّ الله عليّ بالخلاص من أسر المهدوية والحمد لله على كل حال

ذكر دخول المهدي مدينة الخرطوم

في يوم الجمعة ١٣ ربيع الثانى ركب المهدى وخلفاؤه الباخرة (اسماعيلية) واجتاز بها النهر الى الخرطوم ثم قصد المسجد وصلى فيه فريضة الجمعة ثم خرج بعد الصلاة وقصد سراى غردون ثم تفقد الترسانة والجبه خانه وكتب أمراً الى خاله طه محمد بتوليته ناظراً على الترسانة وأمره بجمع العمال الذين كانوا بها واعادة الاعمال فيها وفوض الى عبد الله التعايشى أمر حراسة الجبه خانه فانتدب لها رجلاً اسمه عبد الرحيم الطريفى وأمره بجمع العمال واعادة الاعمال فيها مثل تعبئة الخرطوش واعداد آلات الحروب واصلاح كل متخرب من البنادق التي فى مخازنها ثم زار أمين بيت المال ولبث عنده برهة قدمت له في خلالها المرطبات والقهوة فتناول القهوة ومزجها بالحلوى ليظهر للملأ زهده وعدم اعتنائه بالمطاعم فقال له أمين بيت المال لاتفعل ذلك ياسيدى فقال له ولماذا فقال لان ذلك يذهب بلذة الحلوى والقهوة معا فقال قد تركنا اللذات لأنها معقبة بالحسرات ثم قال لامين بيت المال انى عازم على الاقامة بعض أيام في هذا المنزل أي منزل أبي بكر الجاركوك وأمره باعداد مايلزم لراحته وكان لصاحب المنزل أبي بكر الجاركوك بنت تزوجت قبل سقوط المدينة

باسبوع وفي يوم السقوط قتل زوجها وابوها معا فامسكها أمين بيت المال وقال للمهدى اني أقدمها لك في غضون اقامتك فى منزل ابيها فقام المهدي ودخل الى داخل المنزل ورأى المرأة فاعجبه حسنها ولم يخرج حتي نال وطره منها وكان ذلك فى اليوم الرابع لقتل زوجها ثم قفل المهدي راجعا الي ام درمان والمشاورة دائرة بينه وبين أهل شوراه على جعل الخرطوم عاصمة ملكه وكلهم موافقون له على هذا الرأي ماعدا عبد الله التعايشى فانه كان يقول للمهدي انا لم نعرف بعد عاقبة أمرنا مع الحملة الانكليزية التي ربما اضطرتنا الظروف للتقهقر امامها الى كردفان فاذا أقمنا بالخرطوم صار النهر بيننا وبين كردفان وما زال التعايشي يثبط المهدى ويقيم له العقبات ليمنعه عن سكنى الخرطوم وبقى المهدي مدة مترددا فى القبول يقيم أسبوعا فى الخرطوم وأسبوعا في أم درمان ويصلى الظهر والعصر فى سلاملك الحكمدارية وإقامته فى منزل ابي بكر الجاركوك حتى وافته منيته كما سيأتي

ذكر القبض علي المؤلف وسجنه بالخرطوم

وبعد مضي شهر على سقوط الخرطوم ارسل الي حسين باشا خليفة مدير بربر خمسين ريالا فاشتريت منها جبة ونعلا وعمامة وأبقيت بعضها للنفقات

وما مضت على ثلاثة أيام حتي جاءني نحو عشرة دراويش يحملون الاسلحة فقبضوا على وأوثقوني كتافا وفتشوا كوخي وحفروا أرضه وساقوني الى أمين بيت المال في الخرطوم فدخلت عليه فصاح بي وقال يا كافر يامنافق يالص أنت سرقت من مالك وتوسعت به حيث غيرت ملابسك وعلا رأسي بسوط كان في يده حتى تطاير الدم فقلت له ياسيدي انى لم أسرق شيأ بل

ان أحد معارفي أحسن عليّ بخمسين ريالا فرفع سوطه وقال من هو الكافر الذى يحسن على الكافر فلما رأيت إلحاحه خشيت أن يكون وراءه مسؤلية على حسين باشا خليفة فقلت انه رجل من جهات النيل الابيض كان يعرفني أما أنا فلم أعرف غير وجهه ولا أعرف اسمه فأمر بي الى السجن فمكثت فيه ثلاثة أيام ثم اخرجني منه وقال لي لاجناح عليّ فيما فعلته معك لان الذين وشوا بك مصريون من أبناء جلدتك فالآن عفوت عنك واطلب منك أن تجعلني في حل مما اصابك مني فقلت له انت في حل فأعطاني عشرة ريالات واناء للطبيخ وآخر للاكل وملاءة وجارية وقال لي عد الى أم درمان فحملت الامتعة وذهبت مع الجارية التى أخذت تسبني وتقول (كيف أرضى بولد الريف تعني المصرى سيداً لي) وبينما أنا سائر فى الطريق وهى سائرة بجانبي اذ لمحت الجارية جماعة من العبيد الجهادية سائرين في الطريق فاستغاثت بهم وقالت ان ولد الريف سرقني فقال لي العبيد من أين سرقتها ياولد الريف فقلت لم أسرقها بل أعطانيها أمين بيت المال فابتدروني بالضرب بالسياط وسلبوا كل مامعي من الامتعة والنقود والجارية ثم ذهبوا الى حيث لاأعلم وجهتهم فعدت الى أمين بيت المال وقصصت عليه قصتي فكان جوابه لاشأن لى فعدت الى أم درمان في اسوإ حالة لاأملك قوت يومي فضلاعما أنافيه من آلام الجروح الناشئةمن ضرب السياط.

ذكر اهالي الخرطوم بعد ذلك

مكث الدراويش يعذبون أهالي الخرطوم ليدلوهم على خبايا أموالهم بقية شهر ربيع الثاني وشهر جمادى الاولى الى أواخر شهر جمادى الثاني وهم

باقون فى البقعة التى بين الخندق ومعسكر ابن النجومي معرضين للبرد والحرارة ووكل بحراستهم الحاج خالد العمرابى فكان يأخذ الرجل أو المرأة الى منزله في المدينة ويوالى تعذيبه حتي يدل على ماله وكثير منهم ماتوا تحت أيدي المعذبين الذين لا يرثون ولا يرحمون

وقد رأيت كثيراً من النساء أصبن بالجنون لهول من ما قاسينه من أليم العذاب وأخريات فقدن العقل عند ما رأين أولادهن وأزواجهن مذبوحين بين أيديهن وفيهن من فقدت من الاولاد سبعة وثمانيةً ولقد رأيت امرأة رجل مصري اسمه عطية كان أمين ورق النمغة قتل زوجها واخوتها ثلاثة وأولادها خمسة واحفادها من جهة أولادها ثلاثة وأزواج بناتها ثلاثة وأحفادها من جهة بناتها أربعة وكان عمرها زهاء سبعين سنة فكنت تراها وقد ذهل عقلها وهي تصف لكل من وقع نظرها عليه مصرع أولادها ثم تتناول التراب وتضعه على رأسها ثم تصرخ وتهيم على وجهها في الفلاة وهكذا كان حالها حتى توفيت بعد بضعة شهور ومثل هذه المرأة كثير يعد بالمئات

وأصيب كثير من الرجال بمثل ماأصيبت به هذه المرأة وكثير من الذين نجوا من تلك المذبحة ماتوا لفرط ماأصابهم من الحزن بعد أن انفطرت أكبادهم من هول مارأوه فى ذلك اليوم المشؤم

ومما يذكر هنا ان محمد باشا حسن مأمور المالية دخل عليه يوم سقوط المدينة أصدقاء له من جيش المهدى وأحاطوا به وحموه من القتل فلما خرج معهم ونظر في طريقه الى جيرانه ومعارفه قتلى فى شوارع المدينة قال لاصدقائه الى أين تذهبون بى فقالوا الي خارج الخندق لانه لاسلامة لك مادمت داخل الخندق فقال لهم قد قتل أهل بلدى كلهم فمع

من أعيش حتى تطلبوا لي النجاة فأنا أقول لكم أيها الاصدقاء انكم لا تحسنون الي الا اذا قتلتموني بجانب هؤلاء فأخذوا يراجعونه وساقوه بالاكراه فامتنع وقال لهم اقتلوني أيها الناس فانني كرهت الحياة فتركه أصدقاؤه وامتنعوا من قتله فقتله غيرهم

ومن أمثال هاته الحوادث أمر امرأة احمد عبد الوهاب وكيل الضبطية فانها لما قتل زوجها واخوته الأربعة ترامت على اقدام القاتلين وقالت لهم ألحقوني بمن قتلتموهم فامتنعوا لانها كانت فتاة رائعة الجمال وما زالت تلح عليهم فلم يفعلوا وأخيراً أمسكت سلاحاً وهمت بأولئك القتلة فقتلوها تخلصاً من شرها

وقتلت أيضا امرأة ابراهيم بك لبيب حكمدار بوليس المدينة مع زوجها لانها احتضنته لما هم الدرايش بقتله. وكذلك امرأة ثالثة حذت حذوها فهذه الثلاث نسوة اللواتي ذكرنا خبر قتلهن يوم سقوط الخرطوم أما اللواتي ذهبن ضحية التعذيب فان عددهن يزيد على الثلاثمائة

وكان في الخرطوم رجل مصرى أصله من ثغر دمياط. ومن علماء الازهر الشريف ثم عين قاضيا لبربر ثم عين مدرسا بجامع الخرطوم ورئيساً لاساتذة المدرسة الاميرية. وكان يتعمم بعمامة خضراء لانتسابه لآل البيت المطهر كما كان في طليعة العلماء الذين كتبوا النصائح تكذيباً لدعوى المهدوية وكان غردون يحترمه ويجله ويشاوره في كثير من الامور واسمه حسين المجدي. وفي يوم سقوط المدينة دخل عليه الدراويش وله جاران اسرائيليان أحدهما اسمه بسيون والثاني اسمه اسرائيل فلما أحسا بدخول الدراويش قالا ان جارنا عالم من علماء الاسلام وذو انتساب لآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ولا بد أن يحترمه هؤلاء الدراويش ولا يمدوا أيديهم بسوء لمن دخل في جواره فهيا بنا ندخل منزله وبينما كانا يتهيآن للاحتماء بالشيخ حسين المجدي اذ أبصراه من نوافذ بيتهما جالسا على مصلاه متعمما بعمامته الخضراء يقرأ في المصحف فدخل عليه الدراويش فضربوه بالسيوف وبتروا يمينه فقال مرحبا بقضاء الله فقالوا له يا كافر فقال انني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وامتلأ المصحف من دمه فأغمي عليه فتناول أحد الدراويش امرأته وآخر بنته على مرأى منه ومن جيرانه وفسق الاول بالمرأة وافتض الثاني بكارة البنت وقالا له قد أحل الله لنا دمك وعرضك فقال لهم كذبتم ان الله لم يحل دمي ولا عرضي ثم اجهزوا عليه أما الاسرائيليان فانهما قد نجوا من القتل ولا يزالان على قيد الحياة

وكان في الخرطوم أيضا رجل مصري اسمه الشيخ فايد كان شيخ سجادة الاحمدية وفي ساعة المذبحة التجأ الى بيته نحو عشرين شخصا من جيرانه من موظفي الحكومة فدق الشيخ طبوله وحمل راياته فذبحه الدراويش ومن معه ولم ينج منهم غير واحد اسمه عبد الله ابراهيم سعد كان ضابطا في الحامية بعد أن اصيب بثلاث ضربات بالسيف على راسه.

وقتل قناصل الدول كلهم وكان موسيو هنزل قنصل النمسا استأمن المهدى على نفسه ورعاياه فوعده المهدي باشخاصه الي بلاده اذا خرج اليه مسلما نفسه وفي يوم سقوط المدينة ذبح وسبيت امرأته وصارت جثث القتلي مطروحة على وجه الارض.

ومن أعجب ماشاهدته أن هذه الجثث لم تنتفخ ولم تتغير ملامحها حتى انك لتستطيع معرفة الشخص المقتول بعد بضعة شهور ولم تأكلها الطيور ولم

يشاهد حولها شيء من الديدان أو الحشرات التى تنتاب الاجسام الميتة وقد عد شعراء المهدى ذلك كرامة من كرامات المهدى حيث قالوا في أنشودة باللغة الدارجة مامعناه «ان اعداء المهدى الذين فتك بهم سيفه عافت اكل لحومهم الطيور والديدان والكلاب وسائر الهوام وذلك دليل على كفرهم»

ولم تقف الفظائع عند حد القتل وازهاق الارواح بل كانوا يمثلون باشلاء المقتولين ويجمعون التبغ ويحرقون به الجثث

وكان في الخرطوم رجل من أهل خراسان اسمه الشيخ عبد الرحمن الخراسانى وكان مجاورا بالمدينة المنورة ومعروفا عند أهلها بالصلاح والورع وله أتباع كثيرون فى السودان فقتله الدراويش وربطوا جثته بجثة كلب ميت ووضعوا فمه على راس الكلب واحرقوهما معا

ومن الذين قتلوا يوم سقوط المدينة الشيخ شاكر الرئيس مفتى السودان وكان سوريا قتله محمد نوباوى الذي دخل على فردون وقتل ابنيه قبله ولما هم بقتله قال له احد الحاضرين اتركه لانه رجل فقيه فقال له انه افتى بفتوى ضدي منذ عشرين سنة فأنا اذبحه واذبح ابنيه قبله تشفيا

وقتل من العلماء أيضا الشيخ موسى مفتي المحاكم الشرعية والشيخ محمد حتيك قاضى القضاة وكانا فقيهين محققين كتبا رسالتين طويلتين كذبا بها دعوي المهدي وفندا مزاعمه وقبل سقوط المدينة جاءني الشيخ موسي زائراً ثم اختلى بي وقال لي والدموع تتساقط من عينيه انى وأولادى لم نذق طعاما منذ ثلاثة ايام ثم كشف عن بطنه فرايت حجرا مربوطا عليها فهالني ذلك وعرضت عليه نقوداً فلم يقبلها ثم وجدت بمنزلي أقتين من البقسماط دفعت له اقة وابقيت لنفسى الثانية واعطيته خروفا من الضأن كنت اشتريته من احد

الصناجق الذين غزوا في ضواحى الخرطوم على احدى البواخر فشكرنى ورجانى أن آذن له بالبقاء ريثما يأكل قليلا من البقسماط ليستفيد بعض قوته ثم سألنى ان أرسل معه جنوداً يحفظونه من الاعتداء عليه حتى يبلغ منزله وفي الغد عاد اليّ واخبرني أن أولئك الحراس اغتصبوا منه البقسماط ولكنهم تركوا الخروف له فدعوتهم لاسألهم فقابلونى بشراسة خلق وقالوا ألم نصنع معه من المروءة ما لا يصنعه غيرنا حيث تركنا له الخروف فقلت لهم صدقتم وطيبت خاطرهم وصرفتهم

والحاصل ان المهدي بعد ان صادر جميع أموال سكان الخرطوم وسبي من نسائهم كل حسناء وقاسوا من العذاب أشده ونالوا من الضنك غايته وكانوا محجوراً عليهم الكسب وسبل الارتزاق وكان يعطى كل شخص نحو رطل من الذرة في كل يوم حتى هلك من هلك ونجا من أراد الله نجاته ركب هو وخلفاؤه ذات يوم ووقف حولهم فرثي لهم وأذن لهم بمبايعته ثم كتب لهم منشوراً وعظهم فيه وضمنه مايقطع أملهم من إعطائهم شيأ مما سلب منهم وهذه صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى كافة أحبابه وأصحابه الذين خرجوا من قفرة الخرطوم ومرادهم السلامة لليوم المعلوم ورضاء الله الحى القيوم أقول ياأحبابى ان نعمة الدين نعمة لا نعمة غيرها وحيث من الله عليكم بها وصرتم من عبيد الله الذين يطلبون ما عنده ويمتثلون أمره ويرغبون فيما رغب فيه ويزهدون ويستحقرون ما حقره بعد ان كنتم على

شفا حفرة من النار فانقذكم منها فاشكروا نعمة الله التي انعم بها عليكم واستعظموها لتشكروها وتكتفوا بها عن نعم الدنيا ومتاعها لان نعم الدنيا ومتاعها نصيب أبناء الدنيا الذين لا نصيب لهم في الآخرة واعلموا ان الله هو المتكفل بالارزاق الضامن لها فمن عرف ذلك عرف انه مادام حيا لا يقطع رزقه ولو هرب منه للحقه كما ورد « لو ركب العبد الريح هاربا من رزقه لركب الرزق البرق حتي يلحقه » وحيث كان كذلك وان ما وجد في الخرطوم شيء جزئي لا يكفى الانصار الذين فتحوه وأنعم الله عليكم باعانتهم وقد صرف عليهم جميع ماوجد مع غنائم بربر ولم يفضل الا ما يحتاج للتربيح فاصرفوا نظركم عما خرج من أيديكم جملة حيث بعتم أنفسكم وأموالكم لله وأنتم تعلمون ان الصحابة لما خرجوا الى الهجرة فارقوا ديارهم وأموالهم رغبة في دين الله وانتم لما أنعم الله عليكم بالصحبة التي تمناها كل السابقين فاخرجوا عن ذلك واكتفوا بالله وارغبوا فيما عند الله كما البيعة على ذلك فان من لم يخرب الدنيا للآخرة لا يستقيم له دينه وقد بعث صلى الله عليه وسلم لخراب الدنيا وعمارة الاخرة كيف وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم على طالب الدنيا الذى لا يرضى الا بها فقال صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار والدرهم والخميصة ان أعطي رضي وان لم يعط سخط تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش » ووصف الله المنافقين بذلك فقال تعالي « ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون ولو أنهم رضوا ما آتيهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون » وأنتم أحبابي اكتفوا باندراجكم مع المجاهدين وما يعطيكم اسوتهم فلا خير في الرقيق حيث يعيش العبد بدونه ويتأسف واجده عند فراقه وقد صدق فيه اسم الرقيق لان الرقيق ينقطع

ولا يدوم لمن تملق به ولا يعصمه فاعتصموا بالله وتوكلوا عليه واتقوه فانه قال « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل علي الله فهو حسبه » صدق الله العظيم والسلام ٢١ جماد آخر سنة ١٣٠٢

ذكر مقابلة الشيخ محمد الامين الضرير للمهدي ووفاته

تقدم لنا ذكر الشيخ محمد الامين الضرير ونقلنا صورة الكتابين اللذين بعثهما له المهدي وفى غضون حصار الخرطوم كان الناس اشاعوا عنه انه جاسوس للمهدى وانه كان يبطن ولاءه وكان أهل الخرطوم يبغضونه لهذه الاسباب حتى شكوه الى غردون فقبض عليه وعلي قاضي القضاة الشيخ محمد حتيك والشيخ موسى المفتي اللذين تقدم ذكر قتلهما وقبض أيضاً علي عبد الرحمن ارباب أحد علماء المدينة وبالتحري عن شأنهم ثبت ان الشيخ محمد الامين وقاضى القضاة والمفتى بريئون مما رماهم به أهل الخرطوم الموصوفون باساءة الظن بكل مواطنيهم الذين لم يكونوا مصريين من جنسهم

ولكن تحققت التهمة في عبد الرحمن أرباب فقط وبعد ان قضوا أربعة ايام في السجن امر غردون باطلاقهم حتي عبدالرحمن أرباب الذي ثبتت ادانته وبالغ غردون فى الاعتذار الى الشيخ محمد الامين واسترضاه ورفقاءه

وفى يوم سقوط المدينة دخل على الشيخ محمد الامين ابن له اسمه على كان قائداً صغيراً من قواد المهدى وساقه الى عبد الرحمن النجومي الذي هم بقتله واستل ابنه سيفه ليقتله اظهاراً لاخلاصه للمهدي وبينماهم كذلك اذ مر عليهم الخليفة شريف فسأل عن الخبر فقيل له ان القوم يتآمرون على قتل

الشيخ محمد الامين الضرير فاخترق الصفوف بحصانه وقال للمتآمرين احذروا ان تصيبوا الشيخ بسوء واعلموا ان من أصابه بماء أصبته بسيفي فتفرق الناس وأغمدوا سيوفهم عنيه وقاد على أباه واجتاز به النهر وقدمه للمهدي الذي قابله بالاكرام واكثر من لومه ومعاتبته ثم بايعه البيعة المشهورة ثم قاده ابنه أيضاً الى عبد الله التعايشي الذي أخش له في القول واسمعه من الكلام أمرّه وأخيراً قال له ياعالم السوء يامن أعمى الله بصره وبصيرته قضيت عمرك المشؤم في تحصيل علوم جاء المهدي بنسخها فقد كنتم تقولون حدثنا فلان عن فلان باسانيد طويلة ونحن الآن نتلقى الشريعة من المهدي الذي يتلقاها مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فاحذر ياشيبة السوء ان أسمع عنك انك تعلم الناس شيئاً من العلوم القديمة المنسوخة واعلم انك منذ الآن محتاج الى التعليم من أحقر انسان من أصحاب المهدى ثم دعا عبداً أعجمياً وقال للشيخ محمد الامين هذا استاذك منذ الآن فصل بجانبه وتلق شريعة المهدي عنه اما ما تعلمته قبل الآن فانه منسوخ وخير لك ان تحفر له في الارض حفرة تغيبه فيها فسكت الشيخ ولم يجاوبه بكلمة بل خرج من عنده وهو يقول اللهم اقبضني اليك غير مفتون فتوفى بعد بضعة أيام فحملت جثته الى المهدى فامتنع عن الصلاة عليه وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن الصلاة على المنافقين وقرأ « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » الآية

ونجا عبدالرحمن ارباب بعد ان هم عبد الرحمن النجومي بقتله فاكرمه المهدى واردفه خلفه ثم مالبث عبد الرحمن ان انكر على المهدى أفعاله ونقم عليه وايقن انه كان في ضلال مبين حيث كان مصدقا بهذه الدعوة ومميناالذلك الطاغية

ذكر انتقال المهدي الى ام درمان

ذكرنا ان المهدي كان معسكراً في جهة الفتيح بعيداً عن مرمي المقذوفات وفى أوائل جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ زعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بنقل معسكره الى ام درمان وكان يطلق اسم (البقعة الطاهرة المشرفة) على كل معسكر حل فيه وفي صبيحة يوم ركب ناقته وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره باطلاق خطامها حتي تنزل بالمكان المأمورة بالقاء رحلها فيه وذلك كما كان بعيره صلى الله عليه يوم دخل المدينة المنورة فسارت الناقة المأمورة على زعمه حتى القت رحلها بمكان مرتفع شمال خندق أم درمان يبعد عن ضفة النهر بألفي متر تقريبا وهناك القت رحلها فضربت اطناب الخيام وصنعت الاكواخ من البوص وجعل طول المسجد نحو ستمائة متر في ضعفي هذا القدر وصنعت للمهدي مقصورة من ألواح الزنك التى كانت تصنع للاماكن التى تودع فيها المواد الملتهبة ونقل منبر الخطابة الذي كان موضوعاً في سلاملك الحكمدارية الى تلك المقصورة وكانت بقية المسجد مكشوفة والمصلون معرضين للحر والبرد

ولما كان منزله متصلا بالمسجد كان يصلى الاوقات كلها داخل بيته والناس يأتمون به وبينهم وبينه نحو عشرة حجب من الشوك والاطناب والبوص وكان لا يصلي في المقصورة الا فريضة الجمعة

وكان ذا صوت جهوري في الصلوات الجهرية يرفع صوته بالقراءة باكيا وتتساقط الدموع من عينيه وكثيراما كان يمسح تلك الدموع في حال القيام وقومه معجبون به ويعدون البكاء في الصلاة من علامات اطلاعه على الغيب

حيث يزعمون انه يرى اللوح المحفوظ متى أحرم بالصلاة

وقيامه وسجوده طويلان جداً حيث كان يقوم في قراءة الركعة اكثر من عشر دقائق وفي الركوع والسجود نحو ثلاث دقائق

وصلى في رمضان صلاة القيام عشر ركعات قرأ فيهن جزأ من القرآن وصلي بالناس في ليلة نصف شعبان مائة ركعة بالقرآن كله رافعا صوته بالقراءة با كيا

وكان عنده عبد اسود يؤذن له فقال انه وارث مقام بلال مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم واعطى مقام ابن أم مكتوم لمؤذن ثان

هذ وقد قلده كثير من الامراء والاتباع في رفع أصواتهم بالبكاء أثناء الصلاة

ومن المضحكات ان دنقليا من أقارب المهدى تناول الف ريال من تاجر قبطي اسمه جرجس ليصنع له بها مراكب ثم اغتال المال ولحق بالمهدي وبعد سقوط الخرطوم زاره تجاران مصريان فقام يصلى واسترسل فى البكاء فاندهش الزائران من هذا البكاء وقال أحدهما ما الذي أصاب الرجل فقال الآخر لا أظن شيئاً أصابه غير انه لما رآنا تذكر ما اغتاله من مال جرجس فبكى ظناً منه انا جئنا نطالبه به

حوادث دنقلة

دنقله إقليم من أقاليم السودان المصري وحده من جهة الشمال (خور موسي باشا) وهو يبعد عن حلفا بنحو خمسة أميال ومن جهة الجنوب حدود مقاطعة بربر واقسامه احد عشر قسما أربعة منها فى الشمال وسبعة فى الجنوب

وسكان الاقسام الشمالية هم قبائل (سكوت والمحس) والدناقلة يسكنون

الاقسام الوسطى. والجهات الشمالية أرضها قاحلة مكسوة بالحجارة الا ان النخل فيها كثير ومحصوله جيد وبه قوام معايش السكان خلافا للاقسام الوسطى فان أرضها خصبة وطريقة الري فيها بالسواني وهي تجود بمحصول وافر من الحبوب وفيها النخل أيضاً لكن محصوله لا يذكر في جانب محصول الجهات الشمالية وسكان هاته الاقسام خليط يطلق عليهم (الدناقلة) والغالب على اخلاقهم الهدو والسكينة أما سكان الاقاليم الجنوبية فهم قبائل الشايقية وأرضهم تشبه الاراضي الشمالية والحاصل ان عوائد سكان دنقلة متقاربة متشابهة

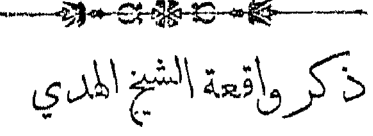
ذكر الشيخ الهدي

كان في احدى قرى الشايقية التي بين الخرطوم وشندي رجل اسمه (الشيخ الهدي) وكان صاحب طريقة وله صداقة مع محمد الخير داعية بربر وبعد هلاك حملة الجنرال هيكس وفد هذا الشيخ على المهدي فاكرم وفادته وقدم له الهدايا وتلقاه بالاكرام ثم عرض عليه ان يقوم بالدعوة له في مديرية دنقلة فاجابه بالقبول فكتب له بالامارة على قبائل الشايقية كلها وبالدعوة له في مديرية دنقلة ثم غادر الشيخ الهدى كردفان مع محمد الخير داعية بربر واشتغل معه في حصار بربر ثم انفذ خاله (ولد عبود) أحد افراد قبيلة الشايقية الي اقسام دنقلة الجنوبية فثارت معه قبيلة الشايقية واعلنت خلع طاعة الحكومة ورفعت لواء العصيان وقبضوا على ستة عشر جنديا واثنين صف ضباط كانوا جباة فى هذين القسمين وقطعوا اسلاك التلغراف وأسروا عماله

ولما وصلت تلك الاخبار الى المدير مصطفى ياور باشا انتدب الضابط أحمد افندي سليمان ومعه عشرة عساكر من النظاميين لاكتشاف الاخبار

وما كاد يبلغ محل الثائرين حتى قبضوا عليه وعلى جنوده العشرة بعد أن اطلقوا النيران على العدو الذي لم يتمكن من القبض عليهم الا بعد ان نفدت ذخيرتهم وبعد ان هموا بقتل أحمد افندي سليمان وجنوده ارجأوا قتلهم الى الغد واعتقلوهم في منزل رجل اسمه الخليفة أبو بكر وكان صديقا حميما لاحمد افندي سليمان وما كاد الليل يرخي سدوله حتى أطلق الخليفة أبو بكر أحمد افندي سليمان ومن معه فركبوا دوابهم وفروا وفي الغد فقدوهم فبعثوا خلفهم نحو مائتي راكب فلم يدركوهم وعادوا بغير طائل ولم ينتقموا من الخليفة أبي بكر لما بينه وبين العصاة من روابط الجنسية

ولما وصل أحمد أفندي سليمان الى مركز المديرية رفع الى المدير نتيجة مأموريته فابحر المدير ومعه مائة جندي نظامية على باخرة قاصداً جهة (الدبة) وكان ولد عبود ومعه زهاء سبعة آلاف مقاتل قصدوا جهة الدبة وكان بها نحو ثلاثمائة جندي بين نظاميين وباشبوزق وما كاد المدير يصل تلك الجهة حتى علم ان العدو منقسم قسمين في جهتين متقاربتين وانهم ممتنعون عن الحرب حتى ينسلخ شهر رجب فاخذ المدير في الاستعداد وهاجم مركزي العدو فكان النصر حليفه حيث انجلى الهجوم عن انتصار المصريين وهزيمة الثوار وعاد الامن الى ربوع دنقلة وقفل المدير راجعا الي مركز المديرية بعد أن حصن نقطة الدبة



ذكر واقعة الشيخ المهدي

لما وصلت أخبار الهزيمة الى الشيخ المهدي في بربر غادرها قاصدا جهة لدبة وأمده محمد الخير بمائة جندي سودانى من الذين انضموا اليه من جنود

الحكومة واستصرخ في طريقه قبائل الرباطاب وأولاد قمر الذين صاحبه رئيسهم نعمان بن قمر والد سليمان بن نعمان قاتل الكولونيل ستيوارت فاجتمع اليه نحو ستة عشر ألف مقاتل وصل بهم الي الدبة وفي ذات ليلة هجم بهم علي مركز الدبة وكان الظلام حالكا فما شعرت الحامية الا بالضوضاء حول المعقل فصوبت مقذوفاتها على العدو فسقط منه ألفان وسبعمائة قتيل وقتل نعمان بن قمر وفر المهدي ومعه نحو خمسة آلاف مقاتل وفر الباقون ولحقوا ببلادهم وعسكر المهدي في جبل على شاطيء النهر في جهة (الحتانة) وفى ثاني يوم الواقعة وصل المدير ومعه فصيلتان من الجنود النظاميين ثم سار الي الحتانة ومعه خمسمائة جندى فابتدره الدراويش باطلاق البنادق فاحاط بموقعهم وهجم بجنوده عليهم فلما أبصر المهدى الجنود هاجمين عليه ولي الادبار ومعه قومه وغنم الجنود معسكرهم وفيه كثير من الاقوات واستولوا على عشرين صندوقا مملوءة خرطوش بنادق رامنجتون ثم تأثر المدير العدو مسيرة ست مراحل حتى خرج من حدود المديرية وقفل راجعاً الى مركز المديرية وكانت هذه الواقعة فى شهر رمضان سنة ١٣٠١

ذكر مخابرات المهدي مع مصطفي ياور باشا

تقدم لنا ذكر وقائع دنقلة وها نحن نذكر ما فاتنا فنقول

لما حاصر أبو قرجة الخرطوم وظفر محمد الخير ببربر كتب المهدي كتابا مع رسول خصوصي الى مصطفي ياور باشا مدير دنقلة يدعوه فيه الى التسليم أو الحرب وكان الشيخ المهدى في بربر يتأهب للغارة على دنقلة كما تقدم فادرك مصطفي ياور باشا حرج موقفه اذ كان جنوده لا يزيدون على خمسمائة

جندى فعول على دفع البلاء بالمخاتلة والخديعة فاستدعى المسيحيين الذين كانوا معه في المديرية وأسر اليهم انه عول على دفع شر المهدي بالخديعة ريثما تصل النجدة الانكليزية وانه سيدعوهم على رؤس الاشهاد في سراي المديرية ويعرض عليهم الاسلام فيجيبونه فصدعوا بما أشار به عليهم ثم استدعى رجالاً من ذوي قرابة المهدى المقيمين في دنقلة وأعلن أمامهم انه دخل في طاعة المهدي وانه صار عاملا من قبله على إقليم دنقلة ثم دعا المسيحيين للاسلام فاجابوه وكتب الى المهدى كتابا ضمنه دخوله في طاعته وشرح له كل ما فعله من اسلام المسيحيين واعلانه الطاعة فاجابه المهدي بكتاب سماه فيه مصطفى جابر بدل ياور لانه من أسماء الكفار على زعمه وضمن الكتاب تعيينه أميراً على دنقلة من قبله وأمره بابدال ملابس العساكر بالمرقعات التي هي شعار المهدية ثم بعد ذلك حصلت وقائع الدبة والحتانة التي تقدم لنا ايرادها

ولقد جاء ما أتاه مصطفى ياور باشا بنتيجة مرضية حيث استطاع حفظ البلاد مع قلة جنوده ريثما وصلت طليعة الحملة الانكليزية وساعد أيضا على حفظ المديرية من السقوط في قبضة العدو وجود رجال اكفاء قاموا بتدبير الامور وخاطروا بنفوسهم في جميع الوقائع التي انتصر فيها جنود مصطفى ياور باشا ونخص منهم بالذكر أحمد جودت بك وكيل المديرية وقتئذ فانه كان قومندان القوة المدافعة في واقعة الدبة التي انهزم فيها الشيخ الهدى شر هزيمة وقد أصيب وقتئذ أحمد جودت بك بطعنة رمح فى جبهته أما الضابط أحمد أفندي سليمان الذي تقدم ذكر وقوعه في قبضة العصاة وفراره منهم بواسطة صديقه الخليفة أبى بكر فانه كان قومندان القوة النظامية وشهد كل وقائع دنقلة كما انه شهد كل الوقائع

التي انتصر فيها عبد القادر حلمي باشا في جنوب الخرطوم مما تقدم لنا ذكره ومن قواد الباشبوزق الصناجق نور الدين بك وماميش أغا وسليمان بك جبريل ومن الضباط النظاميين الضابط سعد نبيه أفندي ومرسال كوكو أفندي وغيرهم

ولما وصلت طلائع الحملة الانكليزية الى حلفا كان الشيخ المهدى معسكراً في جنوب حدود مديرية دنقلة بعد هزيمته من الختانة وكان قد وصل الى دنقلة في غضون ذلك رسول الى مصطفى ياور باشا يحمل كتابين أحدهما من المهدى والثاني من شخص يدعي الشريف محمود من أقاربه وكان مضمون كتاب المهدي الى مصطفي ياور باشا أمره بتسليم المديرية الى الشريف محمود والشخوص اليه وكتاب الشريف محمود مضمونه انه تعين من قبل المهدى أميرا على اقليم دنقلة وانه معسكر في بئر تبعد عن النهر بثلاث مراحل اسمها (أم بليلة) فكتب اليه مصطفى ياور باشا يقول فيه انى لم اكن مصدقا بدعوة المهدى وان ما فعلته كان خديعة وحيث انك من أهالي دنقلة فانت آمن اذا عزمت علي العودة الى وطنك مستظلا بطاعة الحكومة ولما عاد رسول الشريف محمود اليه في بئر (أم بليلة) واطلع على ما كتبه له مصطفى ياور باشا أسرع بالفرار من ذلك المكان ولحق بالشيخ المهدي الذي كان معسكرا في جنوب حدود مديرية دنقلة في مكان اسمه (كورتي) وأخذا في الاستمداد والاهبة للغارة علي الحدود وكان مع الشريف محمود حسن خليفة العبادى ابن أخي حسين باشا خليفة مدير بربر أرسله المهدى للدعوة له في صعيد مصر ومعه أيضاً رجل مغربي أرسله أيضا ليدعو أهل طرابلس الغرب وهاهي صورة كتابين اخترناهما من الكتب العديدة التي كتبها المهدي الي

مصطفى ياور باشا الاول منهما فى شهر رجب سنة ١٣٠١ والثاني فى شهر رجب سنة ١٣٠٢ أي بعد سقوط الخرطوم وفى الاول من اللين والمجاملة ما يراه القارئ وفى الثانى من التهديد والوعيد بان النبي صلى الله عليه وسلم وعد المهدى بوقوع مصطفي ياور باشا فى قبضته عاجلا أو آجلا ما فيه

الكتاب الاول

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الي مصطفى ياور امير مدينة دنقلة وتوابعها كان الله له معين آمين. بعد السلام والاحترام لايخفى عليك ان الدنيا ليست دار راحة وماهي الا ساعة فمن لم يجعلها طاعة ويكتسب رضاء الله تعالى فيها ويكتف بالله ويجعل همه به واحدا لايسلم من همومها وغمومها ولابد أن تذهب ويقع المفرط فيما لاينجو منه من الاهوال الشداد كما جاء بذلك الوعيد في قوله تعالى « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكاري وما هم بسكاري ولكن عذاب الله شديد » واعلم أنى داع الى الله ودال عليه وقد بعثني الله تعالى رحمة لمن اتبعني من أهل زماني ونقمة على من عصى الله وخالفنى واني انذرتك قبل هذا واوضحت لك الامر جليا وكتبت اليك بتوليتك اميرا في جهتك وما فعلت ذلك الا لك وما وليت احدا غيرك كان فى ولاية الترك الا بعد لقائنا والاخذ عنا ورؤية الصدق منه كمحمد خالد الذى كان مدير « دارا » فانه قد اتانا عند فتح مديرية الابيض وصحبنا وتخلق باخلاقنا وتربي حتي تحقق بالصدق

والديانة المرضية على محبة كاملة فلما رأينا فيه آثار الصدق والامانة والعدالة والتخلق باخلاقنا والقيام بامرنا على ما نحب ونرضى وليناه على كافة نواحي دارفور ففتحها وصدق فى ارشاد أهلها وادخلهم جميعاً فى طاعتنا فصدقوا كامل الصدق فجزاه الله الخير والاحسان فقد زاد على ماظنناه فيه ورقى أصحابه ومن بنواحيه على حسن اليقين والوثوق برب العالمين وإيثار الاخرة وزهد الدنيا في الانابة الى ما عند الله فجزاه الله عنا وعن المسلمين أجراً جزيلا وأنت ما وليناك من قبل ان نراك الا لحسن ظننا بك فى صدق ديانتك وطلبك ما عند الله ومعرفتك شؤم الدنيا ودناءتها ومعرفتك قوة الله وقدرته على كل شيء حتي لا تميل الى شيء الا الى رضى الله فان طاعة الترك بعد ظهور المهدى كفر وضلال كما هو وارد فان قويت سريرتك واشتد عزمك على ذلك كما ظننا فيك فانت مؤتمر منا كما أمرناك والا فان علمت من نفسك ضعف يقين وعدم طاقة على مقاتلة الترك ومناوأتهم وقطع الاخبار عنهم فأت الينا لتزيد يقينا وتمكينا وتكسب نوراً وتحسينا حتي يسقط من قلبك الالتفات الى الاولاد والاهل والخشية من غير الله والطمع فيه بما نريك اياه من الارشاد والتربية التي خصنا الله بها دون أوليائه الكرام وهو ذو الفضل العظيم وقد علمت ثواب الهجرة والجهاد فى سبيل الله من قول الله تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها » الآية وقوله تعالى « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرنّ عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن

الثواب » فمن كان مؤمنا مصدقا بكلام ربه وعظمة وعده ووقوع ذلك يقينا يؤثر ماذكر على ملك جميع الدنيا وشهواتها ومتاعها ومقاساة الشدائد في ادراك الوعد المذكور ومن لم يكن مصدقا بذلك مؤثرا له فذلك لعدم إيمانه وتصديقه لوقوع ذلك وتسفيهه لمن فعل ذلك ممن آمن بالله وآثر ما عنده فاستحق ان يكون ماله غنيمة وان يخذل في الدنيا ويحشر الى جهنم في الآخرة قال الله تعالى « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم » الآية وقد كتبنا اليك سابقا انك ان قمت باحد هذين الامرين فهو دليل صدق إيمانك وتسليمك والا فلا بد ان تقع في قبضتنا بقوة الله وحوله كما أشار الي ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى ونسأل الله ان لا يخيب ظننا فيك لاننا نحب لك الخير ونعلمك بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الترك لو أتوا عدد الشجر والمدر لا تقوم لهم قائمة كما بشرنا بذلك رسول الله صلي الله عليه وسلم وانهم وان كثروا كورق الاشجار والرمال لو دخلهم احد من أصحابنا يموتون كما بشرنا بذلك الصادق الامين صلى الله عليه وسلم هذا والسلام رجب سنة ١٣٠١

(الكتاب الثانى)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله الى مصطفي ياور وفقه الله لطريق رشاده آمين. اعلم وفقك الله تعالي الي سبيل الرشاد وصرف عنك خيالات النفس وباعد عنك طريق العناد ان الهدى خير من الضلال وان الدار الآخرة لهي الحيوان وهي الدار التي أعدها الله لاصفيائه وأمناء دينه وندب اليها عباده المؤمنين في محكم كتابه العزيز بقوله « وسارعوا الي مغفرة

من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » ولا يخفى عليك أني طالما حسنت بك الظن ورجوت لك الخير وتوسمت فيك الديانة والامانة وأحببتك فى الله وخاطبتك خطاب أهل المحبة حتي انى من فرط ماحصل لي من محبتك في الله أصدرت لك أمراً بختمى بجعلك عاملا من طرفي على عموم دنقلة رجاء أن تكون من الذين باعوا الله نفوسهم بالجنة وبذلوا مهجهم ونفائس أرواحهم في احياء السنة فظاهرتني بالقيام بذلك ثم نكثت العهد ونقضته ومن نكث فانما ينكث على نفسه وجاهرت بالعداوة وبارزت وقتلت أخياراً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمكرك وخديعتك ولم تخش الله ولم ترع حقوقه مع انك في الحقيقة مغرور مستدرج لم تدر عاقبة أمرك ألم تعلم أن الله يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين فيا أيها الرجل ويحك تدارك نفسك واعتبر بمن مضى من قبلك فان العاقل من اعتبر بغيره والسعيد من دبر أمر نفسه ونظر صلاح العواقب والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واعلم ان الله يملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته فان جميع ما حصل لك فهو استدراج من الله عاقبته الحسرة والندامة فأعمل فكرك وأعد نظرك واعلم أن الامر لله يعطيه من يشاء من عباده وكفاك ما حصل منك من مبارزة الله بالعداوة وشدّ أزر أعدائه الكافرين والاستعانة بهم على قتال المسلمين أما علمت قوله تعالى في محكم كتابه «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم » وقال « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم » الآية الى غير ذلك من الآيات الناهية عن موالاة الكافرين على انّ ما أنتم عليه من نقض العهود وعداوة الله المعبود والركون

الي المكر والخديعة والحيل الضعيفة الشنيعة لا يغني عنكم من الله شيأ ولا يدفع
عنكم المقدور ولا بد بعون الله من وقوعكم في قبضتنا ولو صعدتم السماء
بسلم فانا مبشرون من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالنصر على من يعادينا
ونملك جميع الارض ولا يغرنكم ما حصل لكم من الاستدراج ولا ما رأيتموه
من استمدادكم والنصارى الذين معكم فان قدرة الله لا تقاوم وبطشه لا يصادم
وكم أهلك الله من الامم قبلهم ممن هو أشد منهم قوة واكثر جمعا ولم يغن عنهم
ما اعتمدوا عليه من دون الله شيأ وحيث انك تدعى العقل وتزعم انك من
أهله فاعتبر بذلك واعلم علم اليقين انك ان أنبت الي الله وندمت على ما فرط
منك وأتيتنا نادما تائبا فانك مؤمن ومعفو عنك فى جميع ما مضى منك عفواً
خالصاً لوجهه تعالي ومقبول عندنا غاية القبول ولا نقول لك الا كما قال يوسف
عليه السلام لاخوته « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »
وان أحضرت معك بعضا من عمد البلد كمحمد عبد القادر ساتي المشهور
بفقير تود ومحمد الملك حمد بارقو ومحمد بن الفقير محمد ابراهيم وصالح امام
الجامع وسعيد أحمد فرح ومحمد الجيل ومحمد محمد كنيش فذلك أولي عندنا
فاحضرهم فهم آمنون منا ومعفو عنهم فى جميع ماجرى ومقبولون عندنا ولا
حرج عليهم وان أبيتم بعد هذا الا الجحود والاعراض عن الانابة الي الله
المعبود وسلوك سبيل الضلال اعتماداً على المكر والحيل واغترارا بالخيال فاعلموا
انكم لن تستطيعوا الخروج عن أسر القدرة الالهية ولا بد من وقوعكم فى
القبضة وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله وذنبكم عليكم فاناقد أنذرناكم
ولا رشادكم دللناكم ومن أنذر فقد أعذر أسأل الله الذي يضل من يشاء ويهدي
من يشاء أن يجعلكم من أهل الهداية الذين سبقت لهم العناية وأن يحل

هذا البيان منكم محل القبول انه ا كرم مسئول هذا والسلام سنة ١٣٠٢ ٧ رجب

واقعة كورتي وقتل الشيخ الهدي

لما وصل الشريف محمود الى معسكر الهدي بلغ مصطفى ياور باشا انهما يتأهبان للهجوم على الحدود فزحف عليهم فى أربعمائة جندى بين نظاميين وباشبوزق وكان قائد الجنود النظاميين الضابط احمد افندى سليمان والجنود الباشبوزق تحت قيادة نورالدين بك وسليمان جبريل بك

ولما اقترب من معسكر الشيخ الهدي اطلق الجنود النيران فجاوبهم الدراويش وهجموا على صفوف العساكر ببسالة غريبة حتى اذا صاروا على مقربة منهم بنحو مائة متر سقط من الدراويش مائتا قتيل وقتل الشيخ الهدى والشريف محمود والمغربي داعية طرابلس الغرب ونجا حسن خليفة داعية صعيد مصر وولي الدراويش منهزمين لايلوون على شيء وتمزق شملهم كل ممزق

وكانت عدة الدراويش نحو ستة آلاف مقاتل ولم يصب من الجنود غير ضابط من الباشبوزق أصابته رصاصة في صدره ثم عولج ولم يمت وكانت هذه الواقعة فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٠١ هجرية

ذكر وصول كتشنر باشا الي دنقلة

كانت الحكومة مرتابة في صدق بقاء مصطفى ياور باشا ومن معه من الحامية على الطاعة لان أخبار مما لأته التى تقدم لنا ايرادها كانت تصل اليها بصورة توجب الشك وقد روى لنا الضابط احمد افندى سليمان انه كان يقرأ وقتئذ في الجرائد الواردة عليه من مصر اخبار دخول مصطفى ياور باشا والحامية في طاعة المهدى وكان الضباط يعجبون من الحكومة التى كان مصطفى

ياور باشا يشاورها في كل مايدبره من الخديعة والممالأة

والظاهر ان ما كان يخبر به الحكومة مصطفي ياور باشا لم تكن تعتقد صحته حتى ان الانكليز لما وصلت طليعة جيشهم الى حلفا انفذوا كتشنر باشا وكان وقتئذ ضابطاً فى أركان حرب الجيش الانكليزي وكان متنكراً في زي مغربي ومتعمما بعمامة فوصل الى دنقلة والحامية زاحفة الي واقعة كورتى التي سبق لنا ذكرها ثم تأكد عنده بقاء الحامية على طاعة الحكومة وقدم نفسه للمدير فقوبل بما يليق به من الحفاوة والاكرام ثم لبث هناك متجولا في انحاء المديرية يرافقه وكيلها احمد جودت بك حتي وصلت الحملة الانكليزية التى زالت مخاوفها بعد ان أوقف كتشنر باشا الحكومة على الحقيقة التي كان فهمها ملتبساً عليها

وصول الحملة الانكليزية الي دنقلة

لانطيل على القاريء الكلام فى سرد ما كان من أمر الحملة الانكليزية التي أرسلت بعد تردد واحجام كانا السبب الاكبر لفقدان فائدتها حيث صارت هاته الحملة كأنها لم تكن وذلك لانها لم يكن الباعث لارسالها الا انقاذ غردون باشا وقد علم القاريء انها لم توفق للقيام بهذا العمل

وفي أواخر شهر صفر سنة ١٣٠٢ تكاملت الحملة الانكليزية في (كورتى) وتعين اللورد ولسلى قائداً عاما لها وأخذت فى الاهبة والاستعداد لمتابعة السير الى جهة الجنوب فقر الرأى على انفاذ حملتين تسير احداهما فى طريق الصحراء الى المتمة فى (عطمور جقدول) وتسير الثانية فى طريق النيل قاصدة بربر

حملة الجنرال ارل وقتله بواقعة كربكان

عين اللورد ولسلي الجنرال (ارل) قائداً لحملة النيل فسار من (كورتي) ومعه نحو ثلاثة آلاف جندي انكليزي ونحو خمسمائة زورق تقل الجنود المشاة أما الفرسان والطوبجيه فانهم ساروا حيال القوارب في الضفة الغربية وكان الطابور الاول المصري من حامية دنقلة يسير في الضفة الشرقية يقوده البكباشي احمد افندي سليمان الذي كان قبل قيام الحملة حائزاً لرتبة الصاغقول اغاسي فرقى الى رتبة بكباشي بناء على الشهادات الحسنة التي قدمها المدير الى اللورد ولسلي بخصوصه

واستمرت الحملة فى سيرها ثمانية أيام وفر أهالي القري الى الجهات الجنوبية وتركوا قراهم حتى بلغت جهة كربكان بالقرب من أبو حمد وهناك علمت أن نحو الفى مقاتل من الدراويش تحصنوا بجبل منيع ليقاوموها ويثوروا في وجهها فانضمت القوة المصرية الى القوات الانكليزية فى الضفة الغربية وهاجمت معقل الدراويش من الجهة الشمالية فاطلقوا النيران عليها ثم قسم الجنرال (ارل) القوّة وترك قسما منها يناوش العدو من جهة الشمال وهجم بالقسم الثانى على العدو من جهة الجنوب الغربي فاستولى على المعقل وقتل الدراويش عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم غير خمسة أشخاص أصيبوا بجروح بليغة وأصيب الجنرال (ارل) برصاصة قضت عليه وتولى قيادة الحملة بعده الجنرال (بركنبري) ثم صدرت اليه الاوامر بالعودة الى دنقلة وذلك على اثر وصول الاخبار بسقوط الخرطوم وقتل الطيب الذكر غردون باشا وكان بازاء كربكان في الصحراء منهل اسمه (بيرسانه) اجتمع فيه زهاء الفين من

الدراويش اخذوا بشنون الغارة على موقع الحملة ليقطعوا عليها خط الرجوع فانتدب الجنرال برنكنبري البكباشي احمد افندي سليمان والطابور الذي يقوده وأمره بالتربص خلف الحملة المطاردة أولئك فجرت بينه وبينهم عدة وقائع كان الفوز له عليهم في جميعها وبقي معسكراً في كربكان اسبوعين ثم قفل راجعاً الى دنقلة

هذا ما كان من أمر حملة النيل وسيأتي ذكر حملة الصحراء ووصولها الخرطوم بعد سقوطها بيومين

واقعة ابو طليح

لما وصلت للمهدي أخبار وصول الجنود الانكليزية الى (كورتي) وأخبار تقدمهم الى الخرطوم عن طريق (عطمور جقدول) حيث ينتهي سيرهم الى شاطىء النهر في جهة المتمة التي كانت بواخر غردون باشا تنتظرهم فيها كتب المهدي الي محمد الخير صاحب بربر يأمره بحشد الجيوش في بربر لمقاومة حملة الجنرال (ارل) وانتدب موسى بن محمد حلو شقيق خليفة الفاروق وأمير رايته الخضراء ومعه نحو ثلاثين الف مقاتل من أولي القوة والباس وهم من رجالة (دغيم وكنانة) الذين ذكرنا خبر مبايعتهم للمهدي يوم اجتاز النهر الابيض بعد واقعة (آبا) وشهدوا معه جميع وقائعه وحروبه وكان ذلك في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢

وتقدم المهدي لتشييع الجيش وسار معه نحو خمسة عشر ميلاً ثم ودعهم بعد ان بايعهم على ان لا يتركوا الانكليز يبلغون المتمة وفيهم رمق من الحياة ثم سار الجيش يقوده موسى الذي أطلق العنان لانصاره فنهبوا جميع القري

الواقعة بين المتمة وأم درمان واستباحوا النساء ومكثوا في الطريق نحو أسبوعين حتى بلغوا المتمة مع ان المسافة لا تتجاوز أربعة ايام مع السير البطيء

وفي أواخر شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ أبصر نصحي باشا وعساكره وهم في بواخرهم فى المتمة جيوش الامير موسى زاحفة الي جهة (أبو طليح) وهي بئر فى الصحراء تبعد عن المتمة بمسيرة ثلاث مراحل

هذا ما كان من أمر المهدي أما الحملة الانكليزية فانها سارت من (كورتي) فى أوائل شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ وعدد جنودها نحو الفين وقائدها السر (هربرت استوارت) فوصلت الي أبو طليح فى النصف الثانى من شهر ربيع الاول وتقدم نحوها الامير موسى بالثلاثين الف مقاتل الذين معه وانضم اليه بضعة آلاف من مقاتلة الجعليين فالتقى بالحملة فى (أبو طليح) وهجم عليها كما تهجم الاسود على الفرائس ولم يكن الا كلمح البصر حتى اختلط العسكران وصارت المحاربة بالسلاح الابيض وعندئذٍ قتل القائد السر هربرت استوارت وتولى القيادة بدله الجنرال (بولر) فتمكن من التقهقر تاركا أحماله وأثقاله فى ساحة المعمعة فاشتغل الدراويش بالنهب والسلب مدة وجيزة تمكن القائد فى خلالها من إعادة النظام بين جنوده الذين أظهروا من البسالة والثبات ما حير العقول حيث كرّبهم على الدراويش وأمطرهم نيرانا حامية فسقط من الدراويش نحو ستة عشر الف قتيل وقتل الامير موسى ونحو عشرين قائدا من قواده الذين هم من اكبر قواد جيش المهدى واكثرهم تمسكا وتصديقاً بدعوته وتمسك بقية الدراويش باذيال الفرار وهم مذعورون لا يصدقون بالنجاة وقد رأيت رجلا منهم فى أم درمان أصيب بجنون عقب هذه الواقعة فقال لي ان الانكليز شياطين وليسوا آدميين لانهم بعد ان هزمونا فى (أبو طليح) دخلوا

اجسامنا واحتلوا رأسي وانا لا أدرى كيف ادفعهم عن نفسي . ووصلت أخبار هذه الهزيمة الى المهدي فكان من أمره ماتقدم لنا إيراده حيث عول على إسقاط الخرطوم الذي جرأه على الاقدام عليه عمر ابراهيم الصنجق الذى ذكرنا نبأ فراره وبعد انتصار الحملة أرسل القائد كتابا الي المتمة قال فيه ما يأتي

نحن أول فرقة من جيش جلالة الملكة جئنا لكبح جماح الاشقياء المتمردين وانقاذ مدينة الخرطوم فان أردتم الدخول تحت طاعتنا فعليكم امان الله وامان جلالة ملكتنا وعليكم ان تقابلونا جنوب البلدة ناشرى رايات الخضوع والتسليم واعلموا أنكم ان لم تفعلوا ذلك يحل بكم ماحل بالذين حاربناهم في أبو طليح وحينئذٍ تجنون ثمار ماغرسته أيديكم والسلام

ولما وصل هذا الكتاب الي أهالي المتمة أخلوا البلدة وعسكروا شمالها

وفي اليوم الثاني من شهر ربيع الثانى وصلت الحملة الانكليزية الي المتمة وتحصن الدراويش في البلد فهاجمهم الانكليز بثبات غريب والحقت قنابلهم ومقذوفاتهم اضراراً كثيرة بمواقع الدراويش ومتاريسهم

واجتمعت الحملة بالبواخر التي كانت مرسلة من غردون للاستكشاف تحت قيادة محمد نصحى باشا وعسكرت الحملة في قرية (القبة) جنوب المتمة وتحصنت فيها

وهنا نقول لو أبحرت الحملة منذ وصولها الى الخرطوم لما سقطت ولكنها بقيت في المتمة خمسة أيام

وفي يوم السبت سابع ربيع الثانى أبحر (السرشارلس ولسن) مدير مخابرات الحملة لانكليزية على الباخرة (بردين) و(تلحوين) قاصداً الخرطوم وكان سفره قبيل غروب الشمس وسير بواخره بطيئا جدا لانخفاض ماء النهر وامامه شلالات

وفى مساء يوم سقوط الخرطوم سمعوا الصياح على ضفتي النهر بسقوط المدينة وقتل الطيب الذكر غردون فلم يصدقوا ذلك حتى كان يوم الاربعاء ١١ ربيع الثاني و٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ وكنت اذ ذاك فى سجن بيت المال فسمعت الحراس يقولون لبعضهم «شددوا الحفظ على الاسرى لان بواخر الانكليز ستصل الي الخرطوم اليوم» وركب المهدي وخلفاؤه ووقفوا في أم درمان والرصاص والمقذوفات تتساقط على الباخرتين قبل ان تبلغا أم درمان بنحو عشرين ميلاً والراية الانكليزية تخفق فوقهما حتى وصلتا الي ملتوي النهر وهما قاصدتان سراى غردون فاطلقت عليهم المدافع من طابية (المقرن) التي لا تبعد عن السراى باكثر من ميل وعندئذٍ أيقن السر شارلس ولسن بسقوط الخرطوم وقتل غردون فارتد راجعاً من حيث جاء ولما أبصر المهدى الباخرتين عائدتين نزل عن دابته الي الارض وخر ساجدا شكرا لله الذى أوقع الخرطوم فى قبضته قبل ان يبلغها الانكليز

وفى اليوم التالي اصطدمت الباخرة تلحوين بحجر فى (شلال رحام) فغرقت وانتقل السر شارلس وجنوده الى الباخرة الثانية التي غرقت أيضا بعد يومين واضطروا الآن يتحصنوا فى جزيرة (ولد الحبشى) حتى تدركهم النجدة من معسكر المتمة وبعد يومين ادركتهم باخرة انقذتهم بعد ان أحاط العدو بهم وهاجمهم عدة مرات

ذكر تعيين عبد الرحمن النجومي لقتال الانكليز في المتمة

وفى يوم ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ شيع المهدي عبد الرحمن النجومى وأبا قرجة والجيش الذى كان معهما لقتال الانكليز فى المتمة وكتب منشورا

الي ضباط وعساكر الحملة الانكليزية يدعوهم فيه الي الاسلام وهاهي صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم. وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الي كافة ضباط وعساكر الانكليز خصوصا الاعيان والرؤس. أرشدهم الله الى اتباع سبيل النجاة قبل البوس. وجعلهم من اللائذين بجنابه العزيز آمين. انكم اذا تدبرتم بعقولكم وتفرستم في قدرة خالقكم وعجزكم عن مقاومته علمتم ان مخالفته شنيعة ولا ينبغي لكم الا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه اليه وقد أظهرنا للدعاية الى حماه. والدخول في ساحة كرمه وعطاياه . فهيا الي ذلك واغتنموا سعادتكم قبل المهالك وسلموا تسلموا وأسلموا يؤتكم الله أجركم مرتين ولا تعرضوا فتكونوا من النادمين كراشد ويوسف حسن الشلالي وعلاء الدين وهكسى وغردون لانا أنذرناهم مراراً . ودعوناهم فما زادهم ذلك الا فراراً . فذاقوا عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى والسعيد من اتعظ بغيره وهذا انذار لكم فاذا بلغكم وأردتم الفوز العظيم . والنعيم الدائم المقيم . فلبوا اجابة دعوتنا الى الله وبادروا بالتوبة قبل تعذرها عليكم وقد توجهت اليكم جنود الله ولا طاقة لكم بمحاربتها ولكن من باب الشفقة عليكم أمرناهم ان لا يحاربوكم الا بعد وصول هذا لكم وتحقق الاباء منكم عن الاجابة وأن لا يؤذوكم ولا يتعرضوا لكم في شيء من حقوقكم الخاصة اذا سلمتم ماعدا حق الميرى والاسلحة والجباخين فان سلمتم فعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا وليس قصدنا استعباد

أحد ولا ارادة جاه ولا ملك في الدنيا ولا رغبة لنا فى حياتها ولا فى لذاتها الفانية بل انما قصدنا الدلالة الى الله كما أمرنا الله ورسوله بذلك والا اذا خالفتم فلا نقبل منكم صرفا ولا عدلا وسترون ما يحل بكم واصغوا بآذانكم الواعية لما أقول ان كان لكم عقول فان الله تعالي قد اظهرني رحمة لمن اطاعه باتباعي ونقمة على من عصاه بمخالفتى وأيدنى منه بالنصر والظفر وأمدنى بهم رسله وأنبيائه وملائكته وأوليائه فلا يقدر على محاربتي الثقلان ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولو شئت لقبض الله سلاحكم بحيث ان أصحابي يقتلونكم ولا يقتلون ولكنى اخترت بتوفيق الله تعالى الشهادة لهم في سبيل الله اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم فاياكم والغرور فان جند الله غالب وفي هذا كفاية لاهل العناية والسلام ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٠٢

ذكر عود الحملة الانكليزية الي دنقلة

بعد انقاذ السر شارلس ولسن من (ولد الحبشى) علمت الحملة ان جيشا كثيفا تحت قيادة عبد الرحمن النجومي قادم اليها كما انه يوجد جيش من الجعليين معسكر شمال المتمة فنصبت أشباحا من الخشب يخالها الرائى من البعد فرسانا وأوقدت مصابيح من البترول ثم ارتحلت الحملة أول الليل في ظلام حالك وجدت السير حتى بلغت منهل (أبو طليح) ولم يعلم أحد من الدراويش المعسكرين حولها بمغادرتها (القبة) حيث كانوا يرون التماثيل فيظنونها الجنود واقفة في حصنها وفي الليل يبصرون المصابيح فوق الحصن وهم لا يشكون في شيء من أمر بقاء الحملة وظلوا على هذا الحال ثلاث ليال وهم يطلقون الرصاص على المعقل وفى صبيحة الليلة الثالثة انكروا

سكوت الحملة عن مجاوبتهم فتقدم أحد الدراويش حتي صار علي مقربة من الحصن فرآى التماثيل والمصابيح موقدةً ليل نهار وعلم أن ضوء النهار هو الذى كان يحجب نورها فرجع وأعلم الباقين وأسرع مع ثلاثة آلاف راكب ليلحقوا الحملة فى أبو طليح وكانت غادرتها منذ ليلتين وصارت على مقربة من (كورتى) التي بها اللورد ولسلى فلم يعد في الامكان اللحاق بها

ووصل عبد الرحمن النجومى المتمة بعد ان غادرتها الحملة ببضعة ايام .

وفي آخر شهر جمادي الاولى سنة ١٣٠٢ وصلت الحملة الى (كورتي) وقدم السر شارلس ولسن تقريره عن سقوط الخرطوم ومقتل الجنرال غردون

ولما وصلت أنباء مغادرة الانكليز للمتمة للمهدى سر بها وكتب الى محمد الخير أمير بربر يأمره بجمع الجيوش والتقدم الى حدود دنقلة وفي شهر شعبان سنة ١٣٠٢ أخلى الانكليز دنقلة وعقب ذلك دخلها محمد الخير واستولى على الاقليم كله وبلغت جيوشه جنوب حلفا ومن ثم صارت الاقاليم السودانية تحت سلطة المهدى وأخذ يخبر من حوله من الاتباع بانه سيزحف على دنقلة بعد بضعة شهور ومنها الى القاهرة وبعث رسولين يحملان كتابين أحدهما برسم المغفور له الخديو الاسبق والثانى برسم سكان مصر وهاهى صورة الكتابين نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى خديو مصر. لا يخفى على من نور الله بصيرته وشرح صدره ان الدين الذي يكون المتمسك به ناجيا عند الله هو دين الاسلام الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونزل به القرآن من

الملك العلام قال تعالى «ان الدين عند الله الاسلام» وقال تعالي «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» وما سوي ذلك من الاديان فضلال يدعو الشيطان اليه حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ومن منحه الله تعالى عقلا يميز به بين الخبيث والطيب لا ينبغي له ان يصرفه الا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزل الاقدام. ويشيب الطفل ويشتد الزحام. والا كان أسوأ من البهائم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه ولا سبيل الى السلامة عند الله الا اتباع دينه. واحياء سنة نبيه وأمينه. واماتة ما حدث من البدع والضلال. والانابة اليه تعالي في كل الاحوال. وقد تأكد ذلك فى هذا الزمان. الذي عم الفساد فيه سائر البلدان فان دسائس أهل الكفر التي ادخلوها على أهل الاسلام. وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الانام. قد أفضت الى اندراس الدين وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين. فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الانام. وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الاسلام. واشتد الكرب على أهل الايمان. فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر لتراكم البغي والعدوان. فعند ذلك اظهرني الله طبق الوعد الصادق رحمة لعباده لانقذهم من ظلمة الكفر الى نور الايمان. وأدلهم الي الله علي هدي منه وتبيان. وطوقنى بالخلافة الكبرى المهدية. وخلع عليّ حللها البهية. وبشرنى سيد الوجود صلي الله عليه وسلم بالنصر علي كل من يعاديني ولو كان الثقلين وبأن من يقصدني بعداوة يخذله الله فى الدارين. وقلدنى سيف النصر وأيدنى بقذف الرعب في قلوب اعدائى يسعى امامي أربعين ميلا وأخبرنى باني أملك جميع الارض وبان من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله ونفسه وماله غنيمة للمسلمين وبان الله قد أيدني بالملائكة الكرام وبالجن والاولياء احياء وأمواتا وهكذا من البشارات والعجائب

التي يطول شرحها وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين والخلفاء الاربعة والخضر عليه السلام وما كنت أترقب هذا الامر لنفسي ولا سألت الله اياه بل كنت أسأله أن يجعلني معينا لمن يقوم به فلما أراد الله ما كان. وحتم الامر عليّ من سيد الاكوان. قمت باعباء هذه الحمالة واعتصمت بالله وتوكلت عليه وأخبرت الحكمدارية باني المهدى المنتظر وقد كان بها محمد رؤف وما تركت لاهلها في ايضاح هذا الامر شيئاً وأنا فى انتظار الاختبار. وتسليم الامر لله الواحد القهار. فما كان منهم الا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحاً. وطووا عن قبوله كشحاً. وبادرونى بالمحاربة من غير روية ولا تثبت فى هذا الامر الدينى الذى جئتهم به من خير البرية فأيدنى الله عليهم كما وعدني وهكذا صارت جيوشك تأتينى ثلة بعد ثلة وأقدم لهم الانذارات ولم تنفعهم والله يؤيدنى وينصرني عليهم كما وعدنى ويقطع دابرهم الى أن قلت حيلتك وتلاشى أمرك فسلمت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم لاعداء الله الانكليز وأحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم لجاء الانكليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله فلما سوّل الشيطان لهم ادراك غردونهم بالخرطوم وأيست من هداية أهله وعلمت أن تكرر الانذارات لا ينفعهم وحقت عليهم كلمة العذاب وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » الآية عجل الله بفتحه واهلاك من فيه وأحرقت النار أجسامهم عيانا كالذين من قبلهم اظهاراً للحقيقة وتعجيلا للعقوبة وصدق عليهم قوله تعالى « حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » الآية ثم أنذرت الانكليز فلووا رؤسهم فوجهت اليهم طائفة من الانصار فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين بعد ان أهلك منهم من أهلك وشتت شملهم وهذا كله ليس بخاف

عليك ولا زال حزب الله مقتفياً أثر بائيهم وعن قريب يحل به من الدمار مايكون عبرة لمن اعتبر. هذا وان المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ولا يأسف على مافات من ملكها الذي مآله الى الزوال وعظيم النكال. وانما يكون مطمح نظره الى ما عند الله من النوال فى دار الكرامة والأفضال. فان الدنيا لو بقيت للاول لم تنتقل للآخر. ومن هنا نعلم ان هذا الملك لم يصل اليك الا بموت أو عزل من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ماصار اليك وحيث كان الامر كذلك فلا ينبغي لك ان كنت ترجو من الله نعيم الابد ان تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا بحذافيرها فدقق النظر واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك واسع فيما ينجيك عند ربك اذا تمثلت بين يديه وسألك عما جرى منك وسلم الامر اليه تسلم وما كان يحسن منك ان تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألم تسمع قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم » الآية وقوله تعالى « لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم » الآية وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » الآية وقوله تعالى « يا أيها الذين لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » الآية وما هذه الطاعة لاعداء الله والله تعالى يقول « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله » الى أن قال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا

تموتن الا وأنتم مسلمون » الآية فاذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته فاعتبر بذلك وبادر الي النجاة والسلامة المعتبرة وهى سلامة الايمان ونزه نفسك عن ان تكون فى اسر أعداء الله دائما ولا تهلك من كان معك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم واغسل ماجرى منك بدموع الندم ولا تكترث بجاه الدنيا الفانى ولا بملكها الزائل فان لله دارا خيرا منها وقد أعدها لعباده المتواضعين لجلاله قال تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » الآية واياك والركون الى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال حتي اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فيهلكوك كما أهلكوا من قبلك ففي الحديث القدسي « لاتسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريقي أولئك قطاع الطريق على عبادي » ولا تغتر بقوة حصن بلدك وكثرة أسلحتك وعددك الظاهرية ومظاهرة أهل الكفر لك فانها لا تغنى عنك من الله شيئاً وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة من هو أشد منك قوة وأكثر جمعا لما بغوا وعثوا في الارض مفسدين وليكن فى علمك ان أمرنا هذا دينى مبني على هدى من الله ونور من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية وما قصدنا فيه الا احياء الدين واظهار آثار الانبياء والمرسلين ولا نريد مع ذلك ملكا ولا جاهاً ولا مالا فان نور الله بصيرتك وخالفت النفس الامارة بالسوء وقبلت هدينا وأنبت الي الله بنية خالصة فمليك أمان الله ورسوله وامامنا وما بيننا وبينك الا المحبة الخالصة لوجه الله تعالى ونكون نحن الجميع يداً واحدة على اقامة الدين وإخراج اعداء الله من بلاد المسلمين. وقطع دابرهم واستئصالهم

من عند آخرهم ان لم ينيبوا الي الله ويسلموا وقد حررت اليك هذا الكتاب وانا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا علي هدايتك فارجو الله ان يشرح صدرك لقبوله ويدلك على صلاحك ورشادك فى الدارين وها انا قادم الى جهتك بجنود الله عن قريب ان شاء الله تعالي فان أمر السودان قد انتهى فان بادرتني بالتسليم لامر المهدية.والانابة الي الله رب البرية.فقد حزت السعادة الابدية وأمنت علي نفسك ومالك وعرضك انت وكافة من يجيب دعوتنا معك وان أبيت بعد هذا الا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك اثمك واثم من معك ولا بد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة وهذا انذار مني اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام على من اتبع الهدى (الكتاب الثانى)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاه على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله الي كافة سكان مصر حكاما وتجاراً وعمدا وغيرهم وفقهم الله وهداهم.ولرشادهم ولاهم.أمين.أهدى لكم السلام وأعرفكم ان النجاة من عذاب الله انما تكون للمتمسك بدينه الذي جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيتم ما ناله من الاندراس الذي لا يخفى ولما ان أراد الله إحياءه واظهار شعائره انجز موعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاظهرنى بالخلافة المهدية.وأمرني بدعاية الخلائق الى العمل بالسنة المرضية ومن عهد ظهورى بهذا المظهر الديني مازالت دولة الترك تجيش جيوشها وترسل رجالها لمحاربتى من غير استناد الي دليل شرعى.ولا حكم مرعى.بل رغبة فى ملك الدنيا الفاني الذى مآله الحسرة والندامة.وجلب عذاب الله يوم القيامة

وما زل الله يؤيدني وينصرني عليهم نصرا من عنده لا بحولي وقوتي وقد أهلك الله جميع عساكرهم الذين بالسودان علي يدي وأحرقهم بالنار عيانا شاهدهم جميع من رآهم حين قتلهم الله بسيفي وما ذلك الا اظهار لكفرهم وتعجيل لعقوبتهم ولا شك ان جميع ذلك قد بلغكم وتواتر اليكم من الواردين. وما زلتم عن الحق معرضين. وعلى حب حطام الدنيا الخسيس عاكفين. مع علمكم بان الله قد ذم هذه الدنيا فى جميع كتبه السماوية ولا سيما القرآن فقد اكثر من ذمها فيه ويكفي من ذلك قوله تعالى «اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور» وقوله تعالى «وما هذه الحيوة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان» واعظم شأن الآخرة عنده أعدها لعباده المؤمنين وجعل لهم فيها من النعم مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر وأكرمهم فيها بالنظر الى وجهه الكريم ودعاهم اليها بقوله تعالى «وسارعوا الي مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين» الآية وحيث فهمتم خسة هذه الدار الفانية وعظم تلك الدار الباقية فيلزمكم الاعراض عن هذا الفاني الخسيس. والمسارعة الى حوز نعيم الابد النفيس. ولا يخفى عليكم ماحصل منكم من التفريط في جنب الله وتربص الدوائر بحزب الله بالركون الى محبة نصرة أعداء الله ومع ذلك فقد سامحناكم في جميع ماجري منكم ان بادرتم الى اجابة دعوتنا والانتظام فى سلك أصحابنا أول وصول كتابنا هذا اليكم ولا نقول لكم الا كما قال يوسف عليه السلام لاخوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» وليكن في علمكم

ان أمر السودان قد انتهى ونحن قادمون على جهتكم بحزب الله قريبا ان شاء الله وما كاتبتكم بهذا الكتاب الا شفقة عليكم وخوفا من أن يحل بكم من العذاب ماحل باخوانكم الذين خالفوا أمرنا وغرتهم الامانى واعتمدوا على قوتهم الظاهرية التى أنستهم قدرة الله على كل شيء فان شرح الله صدوركم وتلقيتم أمرنا هذا بالقبول فأبشروا بخير الدارين وعليكم أمان الله ورسوله وأماننا في أنفسكم وأموالكم وأعراضكم أنتم وجميع من يجيب دعوتنامعكم وان ضربتم عن مقالنا هذا صفحا فاعلموا ان الله تعالى قادر قاهر لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء وقد وعدني بالنصر وأيدني بملائكته وجنده وأوليائه واخبرني بملكي لجميع الارض وبانه لا يثبت لقتالي انس ولا جن ولا بد باذن الله من وقوعكم في قبضتنا ولو اتخذتم نفقا في الارض أو سلماً في السماء وستعلمون غداً من الكذاب. فياعباد الله ارفقوا بأنفسكم وأصلحوا عاقبة أمركم ودعوا هذا الاعراض والتلاهي بشهوات الدنيا المنغصة بالعلل والامراض وتشوّقوا للقاء الله فان الدار آخرة والحياة آخرة وهذه الدار قد ولت مدبرة فاتخذوها معبرة ويحكم ويحكم ان لم تداركوا نفوسكم وتنشلوها من هذا الوحل المفضي بكم الى العطل واياكم ان تغتروا بقوة حصن بلدكم فان الله أقدر من كل قادر وكم أهلك قبلكم من أهل الحصون المنيعة من هو أشد منكم قوّة واكثر جمعا فاعتبروا بهم وبما فعله الله بهم لما بغوا وعثوا في الارض مفسدين فالله الله عباد الله هلموا الى النجاح والفلاح. قبل قص الجناح. وهذا ما حبرته اليكم وأنذرتكم به ولا داعي الي التطويل. فان الهداية من الله الجليل. أسأل الله أن يلهمكم رشادكم ويأخذ بنواصيكم الى طريق سدادكم هذا والسلام

ذكر فداء القسس والمسيحيين

لما سقطت الخرطوم أمسك اللورد ولسلي محمد عبد القادر وحاج شرفى محمد نور وشريف ساتي على وعبد القادر عبد الكريم ومحمد ابراهيم وأحمد النجيب وحاج شرفي بن القاضي محمود وكلهم من أقارب المهدي وأنسبائه وزجهم في السجن وهددهم بالقتل ان لم يكتبوا الى قريبهم المهدى يسألونه فداءهم بما عنده من الاسرى المسيحيين عموما والقسوس خصوصاً فكتبوا كتاباً الى المهدى قالوا فيه انهم مهددون بالقتل الا ان يتداركهم بالفداء بما عنده من القسوس والمسيحيين مراعاة لحق القرابة فاجابهم بكتاب قال فيه ان المسيحيين الذين لديه قد اعتنقوا الاسلام دينا وتشرفوا بصحبته والانتماء اليه حتي انهم صاروا أقرب اليه منهم كما ان الذين أمسكهم اللورد ولسلي تجمعهم واياه جامعة الكفر ثم ختم الكتاب بقوله لذوي قرابته لابد من وقوعكم في قبضتنا انتم واللورد ولسلي وتذوقون السوء بما صددتم عن سبيل الله وفي الكتاب تعنيف شديد لهم على جرأتهم بمخاطبته بمثل هذا الطلب

ولما وصل كتابه الى اللورد ولسلي أطلقهم من السجن واغدق لهم العطاء وأعادهم الى وطنهم

هذا ولما علمت وأنا بام درمان بامر هذا الفداء تذكرت ماقاله لى المأسوف عليه غردون باشا حيث قال لي انك لا تجد من يسعى في خلاصك من الاسر وقد ساء وقع هذه الحادثة في نفسي ونفوس سائر الاسرى المصريين الذين علموا ان حكومتهم لا تسعي في خلاصهم من الاسر الا اذا كانوا مسيحيين ولكن خفف عني بعض ما أجده سعي السر غرانفيل باشا

سردار الجيش المصري في فكاكى من الاسر . على انني شكرته وان لم يقرن سعيه بالنجاح وبيد الله كل شيء

ذكر توجيه الجيش لمحاربة سنار

ذكرنا ما كان من بداية الثورة المهدوية حوالي سنار وما كان من اخمادها على يد عبد القادر حلمى باشا

ولما سقطت الخرطوم في قبضة المهدي وجه ابن عمه محمد عبد الكريم في نحو عشرين الف مقاتل لتضييق الحصار على سنار فوصل اليها فى أواخر شهر رجب وأحاط بها احاطة السوار بالمعصم وسنعود الي ذكر تلك الحوادث حيث كان سقوط سنار بعد وفاة المهدي بثلاثة شهور

ولما ذهب المهدي لوداع الجيش خطب خطبة قال فيها ما يأتى

يا أنصارى الصادقين سيروا على بركة الله لقتال كفار سنار واعلموا ان الله معكم عليهم وسينصركم نصراً عزيزاً لانكم حزب الله وأولياؤه. وهم حزب الشيطان وحزب الله أقوى من حزب الشيطان وقد بشرني النبي صلي الله عليه وسلم بفتوح سنار قريبا وانه بعد انقضاء شهر رمضان نتقدم الى دنقلة ومنها الي مصر وفي العام الآتي نكون قد تجاوزنا مصر حيث نكون على أبواب الحرمين الشريفين

ذكر انتداب الشيخ الحسين زهراء الي كسلا

انتدب المهدى الشيخ الحسين زهراء ومعه ابراهيم عالم الحلاوي ومحمد حمزة البربري الى كسلا الاول والثانى بصفة نائبين عنه ليعقد مع مدير كسلا

شروط الصلح والثاني بصفة أمين لبيت المال

فساروا قاصدين كسلا وما كادوا يبلغونها حتى فاجأهم نبي المهدي الذي بث في الحامية روح الثبات وأخذت تماطل في وضع شروط التسليم ريثما يصلها الرأس ألولا الحبشي الذي عاهد الحكومة الخديوية على انقاذ حامية كسلا وكان من أمره ما نأتي عليه ضمن حوادث تلك المدينة حتى سقوطها الذي حصل بعد وفاة المهدى

ذكر وفود عوض الكريم ابي سن زعيم الشكرية على المهدي

ذكرنا ماكان من أمر عوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية وامتناعه من الدخول في دعوة المهدى واعتصامه بقبيلته في صحراء (ريره) بين النيل الازرق ونهر (اتبره)

ولما سقطت الخرطوم انفذ المهدى جيشا يبلغ ستة عشر الف مقاتل الى قرية (رفاعة) ليزحف منها الى صحراء (ريره) حيث يلتقي بعوض الكريم أبى سن الذي فر من وجه الجيش وغادر محلته قاصدا أم درمان ولدي وصوله اليها علم ان المهدي موجود بالخرطوم فاجتاز النهر واستجار بمحمد صالح ساتي على عم والد المهدي ووضع علي رأسه ترابا وفي رقبته جنزيرا من الحديد علامة على انه تائب نادم على مافرط منه وقدم نفسه للمهدى فى سلاسل الحكمدارية فذهب محمد صالح ساتى على الى المهدى وقال له انني اجرت عوض الكريم والتمس منك ان تصفح عن زلته وتعدل عن عقابه وكان عبد الله التعايشي حاضراً فامتقع لونه وهمّ بالقيام من مجلس المهدى ليأمر بضرب عنق الرجل قبل ان يفوه المهدي بكلمة العفو عنه فامسك بملابسه محمد صالح ساتى على

وقال له كما أني أطلب له العفو من المهدي فاني أطلبه منك أيضاً لانك خليفة الصديق وأمير جيش المهدية المشار اليه في الحضرة النبوية فتبسم التعايشي بسبب هذا المدح وقال له ان عفوي لا يكون الا تبعا لعفو المهدي فاجابه المهدي بأني عفوت عنه وأمر بادخاله ونفض التراب عن رأسه وباطلاقه من الجنزير ثم بايعه البيعة المعلومة والقى عليه التعايشي تنبيهات خواها أن لا يفارق معسكر المهدي حتي الممات وسنعود الى ذكر ما حاق به بعد موت المهدي حيث قتله التعايشي صبراً وأفنى قبيلته كلها وصادر جميع أموالها والدوام لله

ذكر تعيين حسين باشا خليفة

داعية من قبل المهدي في قبيلة العبابدة

تقدم لنا ذكر حسين باشا خليفة مدير بربر وكيف كان سقوط المديرية على يده. ونقول الآن ان حسين باشا المذكور غادر بربر على اثر سقوطها ولحق بالمهدي في كردفان فلقاه بالاكرام وعامله معاملة صديق لا معاملة أسير حتي سقطت الخرطوم . وكان من يومئذ يتودد لعبد الله التعايشي ويظهر له الاخلاص ويعرض عليه قدرته على القيام بدعوة المهدية بين قبيلة العبابدة التي تسكن حوالى اسوان

وفي شعبان سنة ١٣٠٢ كتب له كتاباً بالامارة على قبيلة العبابدة فسار من أم درمان في منتصف شعبان حتى اذا صار على مقربة من « ابو حمد » وصل اليه كتاب من عبد الله التعايشي يدعوه الي العودة الى ام درمان فعلم ان سبب ذلك وفاة المهدي فتابع سيره حيث لم يكن بينه وبين الخروج من منطقة نفوذ المهدوية غير يوم وليلة حتى بلغ الحدود المصرية آمنا وسلم للحكومة

أو امر المهدي المتضمنة تعيينه أميراً على قبيلة العبابدة

ولما وصل حسين باشا خليفة الي مصر صممت الوزارة على معاقبته فوجد بين أعضاء الوزارة من دافع عنه وأقنع زملاءه بوجوب ترك معاقبته حيث انه جاء طائعاً مختاراً ثم كان من أمره مانحن في غنى عن ايراده

ذكر ضربخانة نقود المهدي

ذكرنا المقادير العظيمة التي غنمها المهدى من الخرطوم من الذهب والفضة

وفي أواخر شهر جمادى الاولى جمع أمين بيت المال الصياغ وأمرهم أن يضربوا نقوداً من الذهب على شكل الجنيه المصرى مكتوبا على صفحة منها (ضرب في مصر) وعلى الصفحة الثانية الطغراء العثمانية كما هو شأن الجنيه المصرى وزنة هذا الجنيه نحو ثلاثة دراهم من الذهب السناري الذى لا يشوبه أقل زغل وقيمته مثل قيمة الجنيه المصرى أى مائة قرش وأن يضربوا ريالا من الفضة زنته ثمانية دراهم منقوشا على وجه (ضرب في الهجرة) وعلى الوجه الثانى طغراء نقش فيها « بامر المهدى » وقيمة هذا الريال عشرون قرشاً مصريا

وبعد وفاة المهدى جمع التعايشي هذه المسكوكات وابدلها بالريال الذي سماه « مقبول » وسيأتى ذكر ذلك في مكانه

ذكر ختان اولاد المهدى

كثيراً ما كان يبلغنا ونحن محصورون في الخرطوم ان المهدي مصمم على ختان أولاده في جزيرة (آبا) التي جاءته مرتبة المهدية فيها وكثيراً ما نقل لنا الجواسيس انه كان يقول لاتباعه ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بختان أولاده في

تلك الجزيرة وقد ردد غردون صدى تلك الاشاعات في جريدته التى كان يكتبها يومياً زمن الحصار

وفي ذات يوم قال لي ما معناه «اني أرجو ان تحقق هذه الاشاعة حيث يكون من وراء تحقيقها ما يخفف عنا ويلات شدة الحصار» ويظهر ان المهدي لفرط دهائه كان يمهد لنفسه اعذاراً للتقهقر الى الوراء اذا اضطر له يوماما فكان يذيع بين الناس انه مأمور بختان أولاده في جزيرة (آبا) لكى اذا اقتربت الحملة الانكليزية من الخرطوم دون ان يظفر بها تقهقر راجعاً وأظهر للملأ ان هذا التقهقر لختان أولاده لا لجبن أو عدم قدرة على الوقوف في وجه الحملة الانكليزية

ولكن قدّر أنه ظفر بالخرطوم وأمن شر الحملة الانكليزية فاقام معالم الافراح لختان انجاله في أم درمان وذبحت نحو مائة بدنة من الابل ونحو مائتى رأس من البقر والغنم وذلك غير ما قدمه الامراء من الهدايا والمطاعم . وبالجملة انه اظهر فى ذلك الاحتفال أبهة الملك والغني بالرغم من تظاهره بالتباعد عن تلك الاحتفالات وكان يزعم ان أمين بيت المال هو الذي قام بها من عنده دون ان يكون المهدى عالما بشىء منها

وكان أمين بيت المال يذيع ان المهدى كان لا يتناول شيئاً من خمس الغنائم الذي يخصه بل كان يفوض له انفاقه في سبل البر والاحسان وانه انفق منه نفقات الاحتفال بختان أولاد المهدى الذي تم في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٠٢

ذكر تعيين حمدان ابي عنجة على جبال كردفان

حمدان أبو عنجة قائد الجهادية وأصله مولى من موالى التعايشة وكان

منتظما في سلك عساكر الباشبوزق في دارفور بوظيفة (بولكباشي) أي قائد خمسة وعشرين جنديا

ولما لحق المهدي بجبال(قدير)كان أبو عنجة جابياً للحكومة فى احدى جهات دارفور فاغتال مبلغا من الضريبة وفر بها الي المهدى وهناك اجتمع مع عبد الله التعايشى وصار من حزبه فجعله قائداً على (الجهادية) وصار من اكبر انصار عبد الله التعايشى وسيأتى انه فتح (قندر)من مدان الاحباش الشهيرة

وعلى كل حال فان أبا عنجة ذو طباع شريفة وخلال حميدة ميمون الطالع ذو دهاء يعرف به كيف يتمكن من امتلاك قلوب الرجال بالاحسان واللين

ومن ألطف ما سمعته من ثقة ان المهدى أهدى أبا عنجة امرأة حسناء كان أبوها صنجقا فاستاء أهلها وقالوا اذا وطئت بنتنا بملك اليمين أفلا تكون تحت حر بدل أبي عنجة العبد فنقل اليه الخبر ومع انه كان قادراً على التنكيل بهم لم يفعله بل استدعى أم زوجته وأعطاها ألف ريال وجوارى وملابس وهكذا فعل ببقية اصهاره ثم دس من ينقل أخبارهم له فقيل لام زوجته ان صهرك عبد فقالت انه والله فوق الاحرار وقيل لصهره مثل ذلك فقال «انما أصل الفتى ماقد حصل » والخلاصة انه أرضاهم بالاحسان والحر كما لا يخفى اسير الاحسان

وقد أوردنا هذه العبارة للدلالة على دهاء أبى عنجة وان النجاح الذى صادفه فى جميع أحواله لم يكن غير نتيجة أعماله من أمثال هاته النادرة

وفي شعبان سنة ١٣٠٢ أبدى التعايشي للمهدي رغبته في انفاذ حمدان أبي عنجة الى جبال (النوبة)حوالي كردفان للغزو وجلب الارقاء والماشية فوافقه المهدى على رغبته وسافر حمدان أبو عنجة في خمسة عشر ألف مقاتل

جلهم مسلحون بالبنادق وأعطاه مدفعاً جبلياً وذخيرته

وما كاد أبو عنجة يسير من أم درمان عشر مراحل حتي بلغه نعي المهدي فكتب يستشير التعايشى في متابعة السير أو الرجوع فأشار عليه بالمضى لوجهته فتابع سيره وغزا الجبال وغنم شيئاً كثيراً من الماشية والنفوس وكان يرسل للتعايشى خمسها ولاخيه يعقوب بعضاً منها حتى كان من أمره مع محمد خالد زقل ماسنعود الي ذكره فيما يأتى

ذكر مرض المهدي ووفاته

في ليلة الاربعاء لاربع ليال خلون من شهر رمضان عام ١٣٠٢ هجرية أصيب المهدى باعراض حمية وفى مساء الغد ذاع خبر مرضه بين الناس فلم يكترثوا به لانهم واثقون بما كان يعدهم به من أن المنية لاتدركه قبل أن يفتح مصر والشام والكوفة والحجاز

وفى يوم الخميس الخامس من شهر رمضان اشتدت به أعراض الحمى فجيء اليه باطباء مصريين فقرروا ان الحمي من التيفوس وان حالته خطرة ووصفوا له العلاج ولما خرجوا من بين يديه زارونى بمنزلي وأخبرونى بانه لايرجى له شفاء

وفي صبيحة يوم الجمعة أمر الخليفة عبد الله التعايشى أن يخلفه في صلاة الجمعة خلافا لعادته فانه كان لايستخلف فى الصلاة غير الخليفة علي حلو وكثيراً ما كان يستخلف رجلا من أهالي بربر اسمه احمد الجعلى فقيل له ان الخليفة عبد الله أمي لايدرى الكتابة والقراءة فكيف يخطب بالناس فقال لهم ادفعوا له ورقة الخطبة ومروه فليقرأ منها كلمتين أو كلمة فدفعوا له الورقة وخطب

بالناس وصلى بهم وهم في غاية الاستغراب من جهله بالقراءة وتحريفه ألفاظ القرآن

وفي يوم الاحد ثامن رمضان اشتدت وطأة المرض على المهدي فكان ينظر الى من حوله من النساء نظرا يدل على الحسرة على فراقهن وكأنه يخاطبهن بقوله «ما كنت أحسب ان هادم اللذات يزورني قبل ان اتمتع بثمار فتوحاتي واتلذذ بالامر والنهي في المملكة الواسعة التي شيدت بناءها بعد معاناة اهوال تشيب الطفل الرضيع» وكان يرفع صوته مستغيثا قائلا «لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين» وكان يتجرد من ملابسه ويامر بالماء البارد فيصب على بدنه وبات ليلة الاثنين وحالته تنتقل من سيئ الي أسوأ ولا علم لاحد من الناس باشتداد وطأة المرض عليه غير الخلفاء وأمين بيت المال وبعض ذوي قرابته

وفي يوم الاثنين تاسع رمضان سنة ١٣٠٢ عند أواخر الساعة الرابعة على الحساب العربي فاضت روحه وهو ملقى على الارض محاط بخلفائه ونسائه وبعض ذوي قرابته فصاحت بنته زينب امرأة الخليفه شريف وهي اكبر بناته فوثب عليها زوجها ولطمها فسكتت وصاح احمد سليمان امين بيت المال وخر مغشيا عليه حتي ظنوه قد فارق الحياة . أما الخلفاء فانهم اجتمعوا حوله وتشاوروا فيما يكون من امرهم فاظهر كل منهم تخوفه من افتضاح امرهم وان موت المهدى لا بد ان يكون ذا مغبة سيئة إذ به يظهر للملأ كذبه فيما كان يعدهم به من فتح البلاد وامتلاك الارض كلها مما هو واضح على صفحات منشوراته التى تقدم لنا ايراد كثير منها

وكان عبد الله التعايشي مندهشاً بعامل الفرح من جهة لان المهدى أوصى له بالخلافة وهو في الرمق الاخير من حياته ومن جهة أخرى كان

لا يؤمل من الناس الانقياد له لان موت صاحبه جاء مكذبا لكل الدعاوي التي كان ينتحلها لنفسه ويعد الناس بها ولذلك كان التعايشي مع الخلفاء في الشوري كمستطلع لأفكارهم ومراقب لما يبدو منهم من الهلع وعدم الثبات فأشار واحد منهم بوجوب اخفاء موت صاحبهم واصدار منشور باسمه يقول فيه انه أمر من النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة الاعتكاف على العبادة الى أجل غير معلوم وذلك اعتمادا على منشور صغير اصدره قبل مرضه بثلاثة أيام قال فيه «انى نصبت لكم الخلفاء ووليت عليكم النواب والامناء وجعلت الامراء تابعين للخلفاء فلا تقصدونى لقضاء شيء من مآرب الدنيا بل اتركوني للاشتغال بامور العبادة والانابة الى الله وكونوا على علم بان ماتعذر قضاؤه على الامراء والنواب والامناء والخلفاء فان قضاءه متعذر عليّ أيضاً »

هذه خلاصة ذلك المنشور وقد نقل اليّ ثقة ان عبد الله التعايشي بعد ان سمع ماأشار به زملاؤه الخلفاء انصرف من مجالسهم وهو مضطرب كريشة فى مهب ريح واجتمع بأناس من خواصه وقص عليهم أمر وفاة المهدي وما أشار به الخلفاء فاظهروا له سوء مغبة هذا الاخفاء بعدان يقف الناس عليه لانه مامن خفى الآ سيعلن وان الاقرب الى السلامة أن يعلن امام الناس وفاة المهدى والبيعة لنفسه فلقنه الشيخ المكى ابن اسماعيل الولي من مشايخ الابيض الجملة التي قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي « من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات» ولكنه أبدل محمداً بالمهدي في القائه فخرج على الناس بباب المهدى وقال لهم هذه العبارة فتقدم الشيخ المكى وبايعه وبايعه الحاضرون وهم يبلغون عشرة أشخاص ثم احتفروا قبراً في نفس الغرفة التي

مات فيها وقالوا انه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن حيث قبض كما دفن صلي الله عليه وسلم حيث قبض

ومن جهالتهم انهم لم ينزعوا مرقعته عنه بل غسلوه من فوقها كما غسل صلى الله عليه وسلم وكفن في ثوب واحد من خرقة (الدمور)

وفي منتصف الساعة العاشرة صلى التمايشي بالناس صلاة الظهر ثم استدعى نحو عشرين رجلا من أقارب المهدي ودخل بهم الى الغرفة واصطف الناس خارج الغرفة وبينهم وبين المسجد جداران فكانوا يسمعون التكبير متقطعاً من الغرفة فيكبرون وهكذا ظل الناس يكبرون على تكبير من في الغرفة من الساعة العاشرة الى منتصف الساعة الثانية عشرة حتى تجاوز عدد التكبيرات الثلاثمائة ثم انقطع التكبير حيث دفن الميت

وبلغنى ان الخليفة على حلو قال ان هذه التكبيرات قليلة بالنسبة لما هو واجب لمقام المهدى

وبعد ان ووري بالتراب خرج التعايشى الى الناس ورقى المنبر وتلا الآية «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الخ » الآية ثم بايعه الناس وليس فيهم من يجسر على القول بان المهدى مات كأنهم يجلونه عن هذا الامر وكثير من الدراويش هموا بقتل من فاه بهذا الخبر امامهم

هذا وقد ذكرت أن الاطباء الذين باشروا علاجه اخبروني باستحالة شفائه وكنت أتوقع حصول فشل كبير وخلف عظيم بين اتباعه حتى انى لزمت كوخي في يوم وفاته وأنا مترقب من وقت الي آخر ان يبلغني شيء أسرّ به وكان لي خصى أخذ مني وصار من خصيان دار المهدي وكان بعد خروجه من يدى يحتقرني ويهينني ولا يخاطبني بغير (يا ابراهيم فوزي) ولذلك كنت اكره لقاءه

فدخل عليّ في وقت العصر وقال لي يا ابراهيم فوزي فقلت نعم فقال ان المهدي قد مات فكدت أطير فرحا لكنني أخفيت ذلك وابتدر الى ذهني ان ذلك الخصي ربما كان مدسوساً عليّ للوقوف على مبلغ شماتتي بموت المهدي فأجبته على الفور بأن قلت له كذبت أيها العبد لان المهدي لا يموت قبل ان يفتح الدنيا كلها ولا يموت في غير المدينة المنورة

وقد كتب التعايشي والخلفاء وأقارب المهدي منشوراً بنعيه الى جميع الجهات ملأوه بخرافات يضيق المقام عن سردها منها أنهم قالوا انه اختار الرفيق الاعلى ومنعوا من القول بانه مات انما يقال انتقل من دار الدنيا الى نعيم الآخرة وانه استخلف التعايشي وأوصي بطاعته وفي المنشور تفسير لما وعد به المهدي من ملك الدنيا كلها حيث قالوا ان ذلك سيتم لاصحابه وعللوا ذلك بان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد بصيرورة ملك كسرى وقيصر له ولم يحصل ذلك بالفعل الا في ايام خلفائه رضوان الله عليهم أجمعين

وقد اضطربت الروايات في مرض المهدي وموته فقال البعض انه مات مسموما من احدى النساء اللواتي أخذهن سبياً من الخرطوم ولكن الحقيقة هى التي أوردناها اذ لم يتناول المهدي سما ولا غيره بل مات بالحمي التيفوسية كما تقدم

ذكر طرف من سيرة المهدي

كان المهدي صاحب دهاء وحيل ولكن المتأمل اللبيب يجد في اخلاقه شيأ من البله مع طموح للمعالي وقد أوردنا في ترجمته انه كان مريداً عند الاستاذ الشيخ محمد شريف بن الاستاذ الشيخ نور الدايم بن الاستاذ قطب

الطريقة السمانية في الاقطار السودانية الشيخ أحمد الطيب

وصار من أمره مع استاذه ما أوردنا طرفا منه آنفاً وفي ابان دعوته سراً أبلغ الاستاذ الشيخ محمد شريف الحكمدارية كل مادبره فلم يلتفت الحكمدار محمد رؤف باشا الى بلاغه مع انه أطلعه على كل مخبا ته وما عقده مع الرؤساء في جهات النيل الابيض وكردفان من العهود وما أخذه عليهم من المواثيق

ولما ظهر بدعوته في جزيرة (آبا) أرسل بلاغا الى الحكمدارية ثم تلته واقعة (آبا) فانبرى لتكذيبه عدد ليس بقليل من العلماء فالفوا الرسائل مشحونة بالادلة الشرعية على بطلان تلك الدعوى وكذب مدعيها

ولما كانت تلك الرسائل مما يتعذرعلينا إيراد بعضها هنا اكتفينا بالاشارة اليها فراراً من التطويل الذى يمله القراء

ومن هاته النصائح قصيدة ألفها أستاذه الشيخ محمد شريف أبان فيها أحواله فى بداية أمره حيث قال انه كان صواما قواما لا ينام الليل منذ دخل فى سلك الطريقة . وكان نهما يأكل كثيراً ولكنه منذ بداية أمره كان يخفي شرهه ليظهر امام الناس بالقناعة والزهد

وكان يلبس المرقعة مثل سائر دراويشه . أما اوصافه فانه كان طويل القامة أسمر اللون بخضرة عريض المنكبين مفتول الساعدين ضخم الجثة عظيم الهامة واسع الجبهة أقنى الانف واسع الفم والعينين مستدير اللحية خفيف العارضين أسنانه كاللؤلؤ وفي الفك الاعلى فلجة بين الاسنان حتى كنى بابي فلج

وبالجملة فانه كان ذا صورة جميلة جداً بين السود أمثاله وكان يتعمم على

قلنسوة من نوع مايتعمم عليه أهل مكة وعمامته كبيرة منفرجة من الامام يرسل عذبة منها على منكبه الايسر حتى تجاوز سرته ويضع على منكبيه رداء من (الدمور) ويتمنطق بمنطقة من الخوص أو بخرقة من الدمور ويلبس نعلا تشبه نعال أهل مكة مصنوعة فى السودان وكان لبسها مخصوصا بالأعراب والضعفاء ويطلق عليها اسم (الشقيانة) اي نعل الشقاء فأبدل هذا الاسم باسم (السعيدانة) اى نعل السعداء ويحمل على الدوام في يده اليسرى أو على منكبه الايسر سيفاً زعم انه سيف النصر الذى أهداه له النبي صلى الله عليه وسلم ويتوكأ على هراوة طويلة مصنوعة من النحاس مكسوة بجلد أو هراوة من النوع المعروف باسم (خيزران)

هذه أوصاف المهدي أوردناها هنا وقد رأينا صوراً كثيرة يقال انها صورته ولكنها كلها صور خيالية تبعد عن الحقيقة بعد السماء من الارض ولذلك لم نأت بصورة منها في هذا الكتاب لعلمنا بعدم انطباق واحدة منها على شيء من صفات المهدى وكذلك كل صور التعايشي خيالية أيضا لاتقرب من الحقيقة مطلقا

وتوفي المهدي وعنده مائة امرأة وعشر منهن أربع أطلق عليهن اسم أمهات المؤمنين . احداهن عائشة بنت ادريس وأصلها من بلاد دكرور فى السودان الغربى تزوج بها فى جبال (قدير) على أثر موت زوجها قتيلا في واقعة يوسف باشا الشلالي واسمه آدم الاعيسر وكان متزوجا أيضاً بزينب بنت المهدي وبعد قتله تزوج بها الخليفة شريف

وكان المهدي يقول ان عائشة بنت ادريس بمنزلة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وولدت له أنثى اسمها زهراء تزوج بها يعقوب شقبق

التعايشي بعد وفاة المهدى

والثانية فاطمة بنت احمد شرفي الدنقلاوي كانت زوجة أخيه محمد الذى قتل فى واقعة الابيض وكان المهدى متزوجا بأختها وله منها عدة أولاد فماتت أختها وقتل زوجها فتزوج بها المهدى وجعلها من أمهات المؤمنين ولم ترزق منه غير ولد اسمه الكامل مات رضيعا ولها أم اسمها حليمة كانت تتزيى بزي الرجال وتتقلد السلاح وتركب الخيل وكانت تتصدر للوعظ فى مجالس الرجال وتقول لهم تمسكوا بالله ورسوله ومهديه وابن مهديه الكامل وأم المؤمنين والدته وجدة الكامل فانه لانجاة للانسان في الآخرة الا بهؤلاء فأحضرها التعايشي وزجرها ومنعها من مخالطة الرجال وتوعدها ان عادت الى مقالتها هذه فصدعت بالامر أمامه ولكنها لما خرجت الى الناس قالت لهم ان التعايشي يحسدني كما حسدت قريش النبي صلي الله عليه وسلم

والثالثة فاطمة بنت حاج وهي بنت عمه التى تقدم لنا ذكر زواجه بها فى الخرطوم وانه طلقها لما ألحت عليه بوجوب السعي للارتزاق من صناعة المراكب ثم راجعها بعد لحاقه بجزيرة (آبا) وبعد زواجه بنت أحمد شرفى. وله منها ثلاث بنات تزوج عبد الله التعايشي باحداهن بعد وفاة أبيها وتزوج الثانية الخليفة على حلو

والرابعة فاطمة بنت حسين الحجازي وهي مصرية من أهالي مديرية الحدود استوطن أبوها فى جهة تقرب من جزيرة (آبا) وكانت متزوجة بابن عمها صالح الحجازي وكان المهدى قبل دعواه يختلف الي بيت زوجها الذى كان مريداً له وكان لايحجبها عنه لفرط اعتقاده في صلاحه فأظهرت

لزوجها رغبتها فى أخذ أوراد الطريقة عن المهدى فأذن لها ولقنها المهدى أوراد الطريقة فظهرت بمظهر الزهد والعبادة وفرت من بيت زوجها ولحقت بالمهدي في جزيرة (آبا) فادركها زوجها وسألها عن سبب خروجها من بيتها فقالت انى لاأقوى على التقيد بقيود الزواج لانى أصبحت لاأميل لغير العبادة والانقطاع للصوم وقيام الليل فلم يشك زوجها فى أنها كذلك فسألها بقاءها على ذمته بغير أن يطلقها على شرط أن تذهب الى حيث شاءت فبكت وقالت انى أخشى أن يعاقبنى الله على عدم رعايتى حقوق الزواج ولذلك أتوسل اليك بحرمة شيخى وشيخك هذا وأشارت الي المهدى أن تطلقنى فطلقها ورجع الى منزله وكان هذا كله مدبراً بينها وبين المهدى وقبل أن تنتهي العدة الشرعية سمع صالح الحجازى ان مطلقته تزوجت بشيخه وشيخها فاحتدم غيظاً وحمل السلاح وهجم على المهدى وأطلق عليه الرصاص فأخطأه وكانت فاطمة بنت حسين هذه فى منتهى الجمال بيضاء اللون

وكان صالح الحجازي المذكور قد حضر معنا حصار الخرطوم وقص علينا هذه القصة بغير زيادة ولا نقصان

ورزقت فاطمة المذكورة من المهدى بنتا اسمها مريم وهي التي تزوجها التعايشي بعد فراق اختها كلثوم

ولما سقطت الخرطوم اكرم المهدي صالحا الحجازي ولم يعاقبه بشيء وأصدر أمراً بعدم مصادرة شيء من أملاكه وبعدم نهب أمواله وكذلك بنت عمه اكرمته وأهدت اليه هدايا كثيرة من الأموال والجواري والخيول

وسوى هاته الاربع نسوة نحو ثلاثين من بنات اعيان السودان اهداهن له آباؤهن مثل بنت محمد احمد ام برير التى تقدم لنا ذكرها ونحو ثلاثين امرأة

من بنات اعيان المصريين في الخرطوم والبقية من الجواري اللواتى كن مومسات فانه كان ذاولع شديد بهن حتى انه كان كلما فتح بلدا ضم الي محظياته المشهورات من مومساتها . وكان كثير الشبق شديد الولع بالنساء وطريقة اجتماعه بهن انه يسكن غرفة منفردا فيها ونساؤه الاربع يتولين تطييب بقية النساء وتقديمهن له في غرفته فيختار منهن من يشاء

وعلى ذكر نساء المهدي وما استرسل فيه من قضاء الشهوات البهيمية وكيف انتهك الحرمات فى سبيل قضاء الاوطار نذكر هنا انه كان لا يضع يده في يد امرأة ليست من نسائه ولا من محارمه وكتب منشوراً قال فيه من صافح امرأة ليست من محارمه فانه يجلد ثمانين جلدة بالسوط ويؤمر بصيام شهرين متتابعين. فليتأمل القارئ كيف ساغ له التمتع بالحرائر كموطوآت بملك اليمين وكيف تغالي في عقوبة من صافح امرأة ليست من محارمه وقد زاد فى منشوره (ولو كانت المرأة طاعنة في السن أو صغيرة غير مشتهاة) أفلا يصح بعد هذا انطباق المثل المشهور عليه (يستفتى فى الابرة ويبلع المدرة)

وأما أولاده الذكور فيبلغون العشرة وكان عمر اكبرهم لما توفى هو حوالي العشر سنوات والبقية اطفال ليس لهم أهمية تستدعي ذكرهم ولكنا نذكر ثلاثة منهم وهم الفاضل ومحمد والبشري وأمهم فاطمة بنت أحمد شرفي التي توفيت في جبال (قدير) ويكنى المهدي باولاده الثلاثة المذكورين وتكنيته باسم الثالث أكثر شيوعا مع انه أصغر الثلاثة وذلك لانه ولد في جزيرة (آبا) فى مبدأ دعوى المهدوية وزعم المهدي انه بشر بالمهدوية ليلة ولادته ولذلك سمى البشرى

وأما أطعمة المهدى فان الكلام عليها غريب فى بابه فقد كان يظهر الزهد وعدم الميل الى الاطعمة ويكثر التنديد بالذين يأكلون غير الخشن من

الطعام وكثيرا ما كان يربط على بطنه حجرا حتي ذاع بين الناس ان الذين يأكلون الاطعمة الفاخرة كفار لا نصيب لهم من الاسلام ولذلك صار كل أحد يجتهد فى اخفاء ما عنده من الاطعمة الدسمة ولا يخرج امام الناس الاخبز الذرة بادام الماء والملح أو (البليلة) وهي من حبوب الذرة تصلق بالماء وكان المهدي لا يخرج أمام الناس من طعامه غير هذين الطعامين

وقد تغالي المهدي فى إظهار الزهد فى الاطعمة حتي انه منع إيقاد نار فى بيته لطبخ أو خبز مدعيا ان ذلك ينافى التوكل على الله وكان الناس يقدمون له الاطعمة هدية فكنت ترى القصع محمولة الى منزله كل يوم تعد بالمئات فيتناول النساء منها حاجتهن بغير ان يشتغلن بطبخ أو خبز

وأما الطعام الذي يتغذى به المهدي فانه يصنع كل يوم فى منزل أمين بيت المال فكان يذبح الخرفان الحولية ويصنع ما يتبعها من الحلوي والفطائر وسائر الاطعمة الفاخرة ويرسلها الى منزل عائشة بنت ادريس وهي تقدمها الى المهدي وقت انفراده فى غرفته فكان لا يترك من الخروف الحولى غير عظامه عداما يتناوله من الاطعمة اللذيذة وقتي الغداء والعشاء أما الفطور فانه كان يتناول فيه ألوانا كثيرة كلها من الحلوي فمنها انهم يمزجون رطلا من السمن بمثله من العسل ويضعونه على اللبن ويطبخونه مع دقيق الحلبة وتارة مع دقيق الدخن وأخرى مع دقيق البر ولا يكاد يشرب ماء الا ممزوجا بحامض لبن الابل مع السكر ومع هذا الانغماس فى الملاذ كان يظهر أمام الناس بمظهر القناعة والزهد والتقشف كانه لا يملك من نعيم الدنيا غير مرقعته التى هى واحدة وكان يكثر من التطيب بالروائح الحارة مثل عطر الصندل والمحلب فكانت رائحته تشم من البعد والبسطاء يعتقدون انها رائحة الجنة تتضوع من عرقه

وقد خرج من الدنيا ولم يدخر لاولاده شيأ من المال كما انه لم يترك عند نسائه حلياً ولا شيأ من ضروب الزينة لانه قد كان حرم على النساء التحلى بحلى الذهب والفضة وغاية ما يتحلين به خرز من الزجاج والمرجان

هذا وقد ذكرنا انه أبطل تقليد المذاهب الاربعة وأصدر للناس منشورات ضمنها كثيراً من العبادات والمعاملات

ومن غرائب مذهبه انه تعمد الاجحاف بحقوق النساء فى كل مالهن وما عليهن فقال لا يلزم الرجل بنفقة امرأته مادام من المجاهدين في سبيل الله وقال ان مهر العذراء لايزيد على عشرة ريالات ومهر الثيب خمسة ريالات ومن زاد على ذلك صودرت أمواله. وكان يجبر أولياء المرأة على تزويجها باى شخص كان من غير نظر الي كفاءة أو تعادل بين الزوجين مادام الزوج من المجاهدين فى سبيل الله. وبالجملة فان النساء فى مذهبه كمخلوق ليس من نوع الانسان وقد سار اتباعه على سيره فكنت تري عشرات النساء اللواتي أخذهن الامراء سبياً من الخرطوم وغيره من المدن يتضورن جوعا داخل البيوت ولا يقدم لهن أولئك الامراء غير قليل من طعام الذرة فاذا ضعفت احداهن وشوه الجوع محاسنها أعطاها مولاها اذنا بالذهاب الي منزل أهلها ان كان لها أهل فيطعمونها حتي تستعيد نضارتها فتعود الى منزله

ولقب المهدى عبدا من عبيده بلقب (خليفة زيد بن حارثة) رضي الله عنه ولقب آخر كان يؤذن له (بخليفة بلال المؤذن) ولقب كثيرا من أصحابه بألقاب خلفاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكتب منشورا فى كردفان أمر فيه الناس أن لا يذكروا اسمه الا مقرونا بالسلام كالانبياء عليهم السلام وكانوا قبل ذلك يذكرونه مقرونا بالرضوان ثم كتب منشوراً آخر قال فيه

ان النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع به وقال له عليك السلام يامهدي الانام انك لجدير بهذا المقام وانك أفضل من بعض الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكان كثير من الجهلاء ينادونه بالنبوة والرسالة فلا ينهاهم وربما تبسم علامة على الاستحسان

ولكن وجملة القول ان المهدى على ما كان فيه من الزيغ والالحاد والزندقة وفقدان الذمة فانه كان أحسن سلوكا من عبد الله التعايشي وقد أحسن الاستاذ الشيخ محمد شريف حيث قال مهما يكن المهدي ضالا مضلا فانه خير من عبد الله التعايشي وان قال غيره (ان عبدالله التعايشي سيئة من سيئات المهدي)

ترجمة عبد الله التعايشي

نورد هنا ترجمة عبد الله التعايشى الذي أفضت اليه خلافة المهدوية وبموته انقرضت دولتها وركدت ريحها

ولد عبد الله التعايشي بجهة (الكلكة) جنوب دارفور وبالقرب من (شكا) من قبيلة بدوية اسمها (التعايشة) تسكن هذه الجهة وتعيش بألبان ماشيتها التي جلها من البقر ولذا يطلق عليها اسم (بقارة) كما تعيش من لحوم صيد ضوارى الحيوان كالفيل وغيره

على أنه لم تكن قرابته لهذه القبيلة الا من جهة الارحام فقط لان جده المدعو بعليّ كان دكوريّاً استوطن بلاد التعايشة وتزوج امرأة منهم فولدت له محمداً المشهور بلقب (تور شين) والد عبد الله التعايشي واخوة أحدهم احمد المشهور بلقب (دي) وهو والد الامير محمود اسير واقعة (اتبره)

وكان جده يحفظ القرآن وكذلك والده ولندرة من يحفظ القرآن فى قبيلة التعايشة حاز أبوه شهرة كبيرة لكنه كان فقيراً لا يملك شيأ من المال بل كان قوام معيشته من صدقات أولى البر والاحسان

وأما لقب (تورشين) فمعناه الثور القبيح الخلقة وهذا اللقب من ألقاب الفروسية بينهم وكلمة الثور منتهى المدح على الشجاعة عندهم ايضا

ومن عوائد التعايشة في صيد الافيال ان من اصطاد منهم فيلا تقوم امرأته وسط الحي وتصرخ بسكانه وتقول ان زوجي التور ابن التور اصطاد فيلا فهلموا الى أخذ نصيبكم من لحمه فينسلون الى الفلاة وهم يترنمون بالاناشيد فى مدح ذلك الثور الذي قتل لهم الفيل ومن مزروعاتهم الدخن والفاصولية وعندهم نبات يشبه الارز ينبت في الفلاة دون أن يزرعه أحد

وبجوار قبيلة التعايشة قبيلة من العبيد يطلق عليها اسم (بنضله) بينهم وبين التعايشة صلة المصاهرة والقرابة وبجوار (الكاكة) بحيرة يصطادون منها السمك فيتركونه حتى يتعفن وتكثر ديدانه ثم يدقونه في الاهوان ويصنعونه أقماعا كأقماع السكر الاحمر ثم يطبخونه مع البامية الناشفة (الويكة) وهذا النوع يسمى (مندجى) وكان التعايشي يحب هذا الطعام كسائر قومه وقد سمعته مرة يعظ أقاربه التعايشة قائلا لهم « ان القصعة فى الجنة يبلغ عرضها مابين أم درمان وجبال قدير وهي مملوءة بطبيخ المندجي أو العصيدة »

وأم التعايشي اسمها أم نعيم وكانت ذات شهرة بين التعايشة لانهم يعتقدون فيها اتقان الشعوذة فكان الناس يقصدونها للرقية وأخذ العروق التي يعتقد أهل السودان أن لها خواص للمحبة وقضاء الحوائج و إلجام أفواه الحيات والهوام السامة

وقد تزوجته بنحو عشرين رجلا والد عبد الله التعايشي أحدهم

وفي سنة ١٢٩٤ غادر التعايشي بلاده مع والده ممتطيين عجلا من البقر تد ذللاه بخطام على مألوف عادة البقارة الذين يذللون الثيران والبقر ويحملون عليها أثقالهم من بلد الى أخرى وكانا يقصدان الحج

ولما وصلا الى بلاد الجمع في الجنوب الشرقي من كردفان توفى والده بالجدري ثم مات العجل وبقي التعايشي بلا دابة فاعطاه أحد المشايخ حمارا سار عليه حتى لحق بالاستاذ الشيخ محمد شريف ومكث عنده حتي كان من أمره معه ما ذكرناه عند الكلام على اجتماعه بالمهدي

وكان التعايشي ذا دهاء وحيل فكان لا يجلس امام المهدى الا جاثيا ركبتيه منكسا رأسه الى الارض حتى انه كان يزعم أنه لم يقع بصره أبدا على وجه المهدى وكثير من البسطاء يعتقدون صدقه

وكان يشجع المهدي على دعواه ويصف له قبائل دارفور وما عندهم من المدد والعدد وماهم عليه من الجهالة وما يمكن ان يصادفه من نجاح دعوته بين ظهرانيهم فسر به المهدي وأمره بالعودة الى بلاده كي يحضر امرأته التى كان تركها فى بلاده فذهب وعاد بها ومكث عند المهدى حتي صارت واقعة (آبا) ويقول البعض ان المهدى أصيب برصاصة في ذراعه فاشار عليه التعايشي باخفاء جراحه لئلا يعتقد فيه من حوله انه ليس ذا خاصية تميزه عنهم فصدع بمشورته

وعندى ان هذا القول عار عن الصحة لانه لو أصيب المهدى في تلك الواقعة لما اطلع عليه التعايشي وحده حتي يلقنه هذه الشعوذة والحقيقة التي سمعتها ان المهدي اراد ان يركب فرسا في تلك الواقعة فقال له التعايشي

اذاً لايكون في مقاتلتك فارس غيرك ولايشك العدو في انك المهدى فيصوب مقذوفاته عليك فترك ركوبها وركبها أحد اتباعه فانهال عليه رصاص الجنود كالمطر فخر صريعا يتخبط في دمه

ولما سار المهدي الى جبال (قدير) وكان التعايشي بقاريا مثل الاعراب الذين التفوا حول المهدي فى هاتيك الجبال صار يستعين به على تهذيب اخلاقهم وطباعهم واستمالتهم بالطرق التي تجذبهم اليه ومن ثم صار مشيرا للمهدي ووزيرا مفوضا اليه كثير من الامور وكان أقارب المهدى يبغضونه ويحتقرونه حتى أصدر المهدى المنشور الذى تقدم لنا إيراده بالثناء عليه فكفوا عن أذيته وأسروا عداوته

وكان التعايشى يمالئ المهدي ويرضي بالقليل من العيش فكان لا يتطلب من بيت المال الاما يسمح له به أمينه (أحمد سليمان) الذى كان يبغضه ولا يعطيه في الشهر اكثر من مائة ريال ويخص الخليفة شريفا وأقارب المهدي بالنصيب الاوفر من بيت المال وقد رأيت أحمد (دي) عم التعايشى ووالد الامير محمود يتسول على منازل الناس وكذلك بقية أقاربه التعايشة الذين كانوا وقتئذ زهاء ثلاثين رجلا ولكن ذلك كان قبل ان تفضى خلافة المهدوية الى قريبهم

خلافة التعايشي

لما توفى المهدي وبويع عبد الله التعايشي ظهرت على الناس الكآبة سيما أقارب المهدي وأحمد سليمان بيت المال فانهم كانوا في وجل شديد من مغبة انتقامه منهم أما هو فكما قدمنا كان اكثر منهم دهشة وأشدهم خوفا من موت المهدي وما ينجم عنه من سوء العاقبة وقد أسر الى ذوى قرابته أنه يخشى تقدم

جنود الحكومة الى أم درمان لاعادة سلطتها على تلك الانحاء ولذلك عول على الاتفاق مع الخليفتين على بن حلو ومحمد شريف على ان يقتسموا البلاد فيما بينهم فيكون قسم التعايشي إقليمي كردفان ودارفور ويكون للخليفة على بن حلو البلاد التي على ضفة النيل الابيض وسائر ما يتبعها ويبتدئ ذلك من أم درمان الي الجنوب ويكون للخليفة محمد شريف شمال أم درمان والبلاد التى على النيل الازرق حتى دنقله والسودان الشرقي برمته

وقد فاوض التعايشي ذينك الخليفتين في أمر هذه القسمة فأظهر الخليفة على بن حلو استياءه منها وقال ان بلاد النيل الابيض لا تكفيه ولا بد من اضافة بلاد النيل الازرق عليها فأبي الخليفة شريف وقال ان الاراضي التي في قسمه هى الحد الفاصل بين مصر والسودان ولا ريب انه سيقوم بالدفاع عنها ولذلك يجب ان تضاف كردفان الى نصيبه فلم يرض التعايشي بهذه القسمة فافترقوا وفي نفس كل واحد من الحقد على الآخر ما لا يوصف

أما التعايشي فكان يعرض ما يدور بينه وبين الخلفاء على الحاج الزبير رئيس حراسه وقتئذ وكان من أهالي مديرية بربر فاخذ يثبط عزيمته عن اتمام هذه القسمة ويعده بان البلاد كلها ستخضع له وانه يقدر على جعل الملك وراثياً في آل بيته وان الخليفتين على حلو ومحمد شريف لا تخشي مغبتهما اذ هما غران يتخدعان بمثل اكاذيب المهدي وما ينتحله من الخرافات ويقول له ليس عليك من حرج ان اتيتهما من هذا السبيل فانهما ان اذعنا لك حفظا كرامة المهدى الذى فتح هذا السبيل وان كذباك فان العامة تصدقك كما كانت تصدق المهدي ويمكنك ان تتذرع بهذا التكذيب الى اسقاط منزلتيهما والايقاع بهما

وعلى أثر ذلك نفر عبد الله التعايشي لمشورة الخاج لزبير وعدل عن طلب الهجرة الى كردفان للاستقلال بالملك كما تم انه من ذلك الحين طرح مرقعته الرثة البالية التى كان يلبسها قبل وفاة المهدي إظهاراً للزهد ولبس مرقعة من نوع ما كان يلبسه المهدي وتعمم على قلنسوة مكية كالتي كان يتعمم المهدي عليها وصنع له كوخا من البوص في المسجد على هيئة مقصورة وأمر الناس ان يحذوا حذوه فصنع كل واحد منهم كوخا في مسجد حتى اتصلت الاكواخ بعضها وأمر الناس بترك صلاة الجماعة في أى مكان كان وان لا يصلى أحد في أم درمان بجماعة غيره وشدد عليهم في ملازمة قراءة (راتب المهدى) فى الصباح والمساء

وراتب المهدى هو أوراد وأدعية بعضها من المسبعات التى تنسب لمولانا الامام الدردير ومنها ماهو من الادعية والتوسلات التى تنسب الى حجة الاسلام الغزالى ومع شهرة مصدر هذا الورد التي لا تخفي على غير الاغبياء ادعى المهدي ان النبي صلى الله عليه وسلم لقنه هذا الورد كلمة بكلمة وحكى من فضائله وثواب من واظب على قر[illegible] خرافات واكاذيب يقصر القلم عن التعبير عن بعضها منها ان من قرأ هذا الورد نزل خمسمائة الف من الملائكة كالذين نزلوا يوم بدر ليحفظوه وينصروه وان تلاوته مرة واحدة تعادل تلاوة القرآن الف الف مرة ومثل ذلك [illegible] حتي قال المهدي ان المواظبين على قراءته ينالون مقامات الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم

وكان المهدى شدد فى النهى عن قراءة الصلوات النبوية المعروفة باسم دلائل الخيرات مدعيا ان ثوابها نسخ براتبه وسيأتي في غير هذا المكان مصادرة أموال من يتهم بقراءتها والحكم بكفره وأظهر التعايشي للناس تواضعاً

ولينا وخفض كثيراً من حدته التى كانت معلومة عند العموم حتي ذاع بين الملأ ان السكينة نزلت عليه وقال هو ان روح المهدي حلت فيه وان اخلاقه لابد ان تتبع الروح انما حلت

هذا ولم يكن القول بالتناسخ مذهب عبد الله التعايشى فقط بل هو مذهب سلفه المهدي الذى كان يزعم ان روح النبي صلى الله عليه وسلم حلت فيه

وجملة القول ان عبدالله التعايشى قبض على زمام البيعة وهو مضطرب وكان لايدرى كيف يدير دفتها كما كان شديد الخشية من انتقاض الخليفة شريف وأقارب المهدي عليه اذ هم أشد قوّة منه وأكثر عدداً من رجاله ولذا لبث كأنه واحد من الخلفاء لايقطع أمراً بغير مشورتهم ولا يعمل بغير ارادتهم منتظراً مايكون من أمر مديني سنار وكسلا اللتين كانتا على وشك السقوط

اول اكاذيب التعايشي

ذكرنا ان الحاج الزبير أشار على عبد الله التعايشى بولوج باب اكاذيب المهدي فكان أول اكذوبة وضعها بعد مهلك المهدى بشهرين أن أصدر منشوراً قال فيه مايأتى

بعد ان أديت صلاة العشاء بالمسجد دخلت الى منزلي وبينما أنا جالس فى مصلاي اذ دخل عليّ شخص طارقاني من رؤيته لانه لم يكن من نوع الانسان لان رأسه كانت تناطح السحاب وخصيتاه كجبلين عظيمين فلم أتمالك نفسي من الخوف فصحت مستغيثاً بالمهدى فأخذ ذلك الشبح يتقاصر ثم

جلس امامی وقال لي السلام عليك ياخليفة المهدى بل أنت المهدى نفسه فقلت وعليك السلام من أنت فقال أنا ملك من ملوك الجن كنت ساكنا وراء جبل (قاف) لذى يبعد عن هذا المكان مسيرة خمسمائة عام وقد مضى علىّ خمس سنوات وأنا سائر بقومي من ذلك المكان لادرك المهدى فكان من أمرنا ان الخضر عليه السلام قابلنا وهو يبكي ويصرخ قبل أن نبلغ العمران البشري وأخبرنا بموت المهدى وخلافتكم عنه فلما وصلنا العمران البشري وجدنا جماهير الاولياء ومجامع الملائكة فى المساجد الكبرى يقيمون مأتم المهدي فاشتغلنا معهم فى اقامة شعائر المأتم ثم غادرنا المسجد الحرام بعد عصر اليوم وعسكرنا في البقعة التى تلى محل (العرضة) استعراض الجنود ومعى ستون ألف فارس من الجن غير المشاة قال التعايشي فقلت ومن أعلمك بظهور المهدى قال أعلمنا الخضر عليه السلام منذ ظهوره في جزيرة (آبا) فغادرنا جبل (قاف) منذ ذلك وكنا نسير فى السنة مسيرة مائة سنة فقلت ما تقصدون قال نقصد بيعة المهدى وادراك فضل صحبته والجهاد معه فقلت وفى أى المساجد أقيم مأتم المهدى فقال في المسجد الاقصى وفى المسجد الحرام وفى المسجد النبوي ثم دنا مني وطلب منى أن أبايعه فبايعته بيعة المهدي وأمرته بالبقاء فى المكان الذى يلى محل الاستعراض

ثم سأله التعايشى عن عمره فقال انه ولد فى زمن ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وانه صار ملكا على قومه فى زمن موسى الكليم صلوات الله وسلامه عليه

ولما نشر التعايشي المنشور المتضمن هذه الاكذوبة سر الناس بامر الجن الذين جاؤا لمساعدتهم وفى الغد ركب التعايشي بخيله ورجله

وتوجه للمحل الذي نزل فيه أولئك الشياطين ولما دنا منه أوقف الناس ثم تقدم هو بفرسه واطال الوقوف والناس ينظرون اليه والي مايأتيه من الحركات كأنه واقف يعظ أو يبايع وبعد بضع ساعات عاد فأخبر الناس بانهم بايعوه وانه كان مشغولا بترتيب فرقهم وتولية القواد عليهم مثل ترتيب جيش المهدية ثم قال انهم رغبوا الى ان اشيد داراً لى بجوارهم كي اتردد عليها وتكون موعداً بيني وبينهم كلما دعت الحال للمقابلة

ومن المضحكات ان رجلا دكروريا كان له كوخ بالقرب من ذلك المكان فاحتمل متاعه فى ذات يوم ومعه امرأته وبنته وجاؤا الى التعايشى فى المسجد فسألهم عن حالهم فقالوا ان لنا كوخا بالقرب من محل العرضة وقد هجرناه لكثرة ما فيه من الضوضاء والنيران وصهيل خيول الجن وسائر حركاتهم التي أفقدتنا النوم واطارت قلوبنا خوفا وفزعا فضحك التعايشى وقال لهم ماالذى أطار نومكم وأفزعكم ألم تعلموا ان هؤلاء الجن صاروا من اتباع المهدى وانهم خاضعون لحكمي ولايجسرون على اذي أحد من انصار المهدى وان احكام المهدية تجرى عليهم كما تجري عليكم فقالوا ياسيدنا الخليفة ان خلقتهم غريبة مخيفة فمنهم رؤس بلا جثث ومنهم جثث بلارؤس ومنهم الطيارون ومنهم ومنهم فقال عودوا الى مكانكم ولا تخافوا فرفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا نحن فقراء لا نملك غير هذا الكوخ وقد تركناه لهم فاسترسل التعايشى فى الضحك الذي يشف عن السرور وأمر باعطاء الرجل خمسمائة ريال بدل كوخه وان يعطي من بيت المال راتبا يقوم بحاجة عائلته

وسمعت التعايشى يوم ذهب لمبايعة الجن على زعمه يسأل الذين أدوا صلاة المغرب خلفه قائلا لهم هل رأيتم شيأ أو أحسستم بشيء فسكت اكثرهم

وقال البعض قد أحسسنا برهبة ونحن فى الصلاة فقال لهم ان عيسى عليه السلام صلى معكم مأموماً بى وأشار الى المكان الذى صلى فيه فهرع الناس اليه يتبركون به وأحيط ذلك المكان بزريبة من الشوك ليبقي معروفا عند كل من يقصده من الزائرين

ذكر دعوة التعايشي اهالي السودان
لاداء فريضة الحج بام درمان

كان المهدى قد نهى الناس عن السعي لاداء فريضة الحج مدعيا ان البيت الحرام في ايدي الكفار ونشر جملة منشورات بهذا المعنى وكان يزعم أن مرافقته للجهاد خير من السعى لاداء الحج وزعم ان الهجرة معه كالهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم وهي أفضل من الحج وتغالي حتي قال ان رؤيته تعدل ثواب سبعين حجة

ولما هلك المهدى اجتمع التعايشي والخليفتان على حلو ومحمد شريف وقرروا فيما بينهم وضع اكذوبة ماسمع في الاسلام بمثلها الا ما سمع من أمر على بن مهدى صاحب اليمن فى القرن السادس من الهجرة وهي ان يصدروا منشوراً يقولون فيه ان الحج الى البيت الحرام قد أبطل وعزموا على تشييد كعبة فى أم درمام وجعل جبل (كررى) بدل جبل عرفات لتقام بهما شعائر الحج ويزور الناس قبر المهدى بدل زيارتهم قبر النبي صلي الله عليه وسلم وفعلا شرعوا فى اعداد ما يلزم لابراز هذه الضلالة حتى قالوا ان حفر بئر زمزم يكون بعد الوقوف بجبل عرفات واداء صلاة العيد بمنى ثم يرحلون الى البيت الحرام فيحفرون بئر زمزم ويعودون لقضاء أيام التشريق بمنى

ولما اذاع الخلفاء هذا الخبر دخل رجال من أهل العلم بعضهم من ذوي قرابة المهدي على أولئك الخلفاء واخبروهم ان هذا الامر لو تم كان دليلاً قاطعاً على كذب دعوي المهدوية وخروجهم جميعاً من الاسلام كما تخرج الشعرة من العجين فانصاع أولئك الجهلاء وجمعوا الاوراق التى وصلت ايدى الناس واتلفوها ومنعوا الناس من الكلام فى هذه المسألة ومن تكلم جلدوه ثمانين جلدة اه

ذكر مسالة الشعرة من لحية المهدي

ذكرنا ما كان لاحمد سليمان أمين بيت المال من المنزلة السامية عند المهدي وانه كان واقفا على اسراره وكنه أعماله

وكان أحمد المذكور ذا دهاء يظهر امام الناس بالزهد والورع ويروي للناس انه رأي من كرامات المهدي ما هو كيت وكيت ويختلق من الاكاذيب ما يحيله العقل. ومن اكاذيبه انه جاء الى التعايشى وكان جالساً مع الخلفاء وأخرج من جيبه حقاً من الخشب وفتحه واخرج منه شعرة وقال ياخلفاء المهدى ان المهدي قبل مرضه بنحو أسبوعين أخبرني بانه راحل من هذه الدنيا ونزع من لحيته الكريمة شعرة ثم قال لي ياحبيبي أحمد خذ هذه الشعرة وابتلعها بعد وفاتي فان فيها سراً من أسرار المهدية وبعد ان تموت وتلحق بى أخبرك بهذا السر فوثب عليه الخليفة عبد الله التعايشي وأمسك بيده وقال له ان هذه الشعرة كانت امانةً عندك وقد أمرنى المهدى باستلامها منك وكان الخضر عليه السلام حاضراً فسلمها أحمد سليمان له فابتلعها وأصدر منشوراً قال فيه ان فى هذه الشعر سر المهدية وقوة خلافتها

ذكر وقائع سنار وسقوطها

تقدم لنا ذكر وقائع سنار التي حصلت قبل مهلك حملة هيكس

ولما ذبحت هذه الحملة قويت عزائم الدراويش وأحاطوا بها وضيقوا عليها وبعد سقوط الخرطوم وثب النور بك محمد قومندان الجنود النظاميين ومعه عثمان بك الدالي الصنجق وقبضا على المدير حسن صادق بك وسجناه في داره لاسباب لا نعلم كنهها والظاهر ان لاسبب لها الا سوء الظن بذلك المدير الذى لا يشك أحد في براءته من وصمة ما نسب له

وبعد ان مكث المدير أشهراً في السجن اجتمع القواد ودخلوا منزله وأطلقوه من عقاله واعتذروا له وكان العدو محاصراً للمدينة فخرج عليه المدير في قوة كبيرة وهجم على موقعه ومزق شمله كل ممزق وعاد الى المدينة ظافراً منصوراً حتي اذا اقترب منها التى عصا سيره للراحة من وعثاء السفر وتناول الطعام عند مكان اسمه (الجميزات)

وبينما كانت الجنود وقوادهم مشتغلين بتناول الطعام اذ هجم عليهم العدو على غرة من جهتي النهر والفلاة واعملوا السيف فى رقابهم فتمكن كل من النور بك محمد وعثمان بك الدالي من جمع شمل بعض الجنود حيث قاتلوا متقهقرين حتي بلغوا معقل المدينة

أما المدير حسن صادق بك فقد تمكن العدو من الفتك به حيث فاجأه وهو يريد ركوب فرسه بضربة كانت القاضية

ثم ان القائمقام حسن عثمان بك كر على الدراويش بقوة ألزمتهم الفرار من وجهه وتمكن من حمل جثة المدير الى المدينة حيث دفنت هناك بالاكرام

اللائق وكانت هذه الواقعة فى شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

وفى شهر جمادي الآخرة وصل محمد عبد الكريم بمقاتلته لحصار مدينة سنار وقد ذكرنا ان المهدي بعثه بنحو عشرين الف مقاتل

وفي أواخر شهر شعبان وصلت الى المهدي أخبار بان حامية سنار خرجت على معسكر محمد عبد الكريم وانتصرت عليه فأرسل الى المتمة يستدعي عبد الرحمن النجومى بمقاتلته فوصل الى أم درمان بعد وفاة المهدي باسبوع

وفي أوائل شوال سنة ١٣٠٢ وصل الى حامية سنار نبأ وفاة المهدى فقويت عزيمتها وخرجت على معسكر محمد عبد الكريم مهاجمة فاصيب محمد عبد الكريم برصاصة فى فخذه ثم انهزمت مقاتلته شر هزيمة وغنمت الحامية معسكرهم

ولما اتصل بالتعايشي خبر هزيمة محمد عبد الكريم انفذ عبد الرحمن النجومي الى سنار كما كان المهدي يريد انفاذه اليها حين استدعاه من المتمة

وفي أوائل شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٢ وصلت درجة المجاعة فى سنار الى فقدان القوة بالكلية فتمرد الجنود علي قوادهم وشقوا عصا الطاعة وخرج كثير منهم واسلموا نفوسهم الى العدو الذى تشددت عزيمته وعاد الى موقفه الاول من الاحاطة بمعقل المدينة وتشديد الحصار عليها

ووصلت الى المدينة أخبار زحف عبد الرحمن النجومي عليها فاسرعت بطلب التسليم مع وفد ارسلته الى محمد احمد شيخ إدريس من أقارب المهدى ونائب محمد عبد الكريم الذى كان وقتئذ طريح الفراش من الاصابة بالرصاص فى الواقعة الاخيرة

وعند وصولها عقدت شروط الصلح بين الحامية والدراويش على ان لا يأخذ

الدراويش غير مال الحكومة وان لا يتعدوا على احد من الاهلين في ماله وعرضه وعلى هذا الشرط اسلمت الحامية نفسها فنكث الدراويش العهد على مألوف عادتهم ومدوا ايديهم الى الاعراض وعذبوا سكان المدينة الذين جلهم من المصريين عذاباً اليما وغنموا منهم شيأ بعد بثمرات القناطير من الذهب الذي يوجد بكثرة في مدينة سنار حيث ان منابع النيل الازرق التي يوجد بها هذا التبر داخلة في دائرة مديرية سنار واهل سنار مشهورون بادخار الذهب بكثرة وقد عذبهم الدراويش عذابا يفوق الذي وصفناه في عذاب أهل الخرطوم وهتكوا اعراضهم كما هتكوا اعراض اهل الخرطوم

وبعد مضي شهر على هذا التعذيب هدموا المدينة كلها وزحفوا بالاسرى الى أم درمان فوصلوها في أوائل شهر ذى الحجة الحرام ختام سنة ١٣٠٢

هذا وقد وصل عبد الرحمن النجومى سنار بعد سقوطها ببضعة ايام ولم ينل من الغنيمة شيأ

على ان حامية سنار كانت تستطيع النجاة لو قصدت حدود الحبشة قبل ان يصل اليها محمد عبد الكريم. وقد بلغني ان المدير كان ينوى سحب الحامية الى جهة حدود الحبشة بعد أن علم بسقوط الخرطوم لفهمه ان الانكايز لا يتقدمون لانقاذ سنار بعد سقوط الخرطوم فخالفه اللذان سجناه معتقدين خلاف ذلك

والخلاصه ان نجاة حامية سنار كانت ميسورة لو لم يسجن المدير حسن صادق بك

هذا وقد أصدر التعايشى أمرا باعتبار مدينة سنار كمدينة ثمود تحرم سكناها والاستقاء بمياهها

وقد اغتال الامراء الاموال ولم يقدموا لبيت المال عشر الغنائم فتغيظ

عبد الله التعايشي واصر على الانتقام منهم وسنعود الي ذكر هذا الانتقام في محله

وأخذ التعايشي نحو عشرين امرأة من نساء المصريين كانوا في تلك المدينة مسبيات وادخلهن منزله.والخلاصة ان سكان سنار جلهم مصريون مثل سكان الخرطوم وقد نالوا نصيبا من التعذيب والنهب وهتك الاعراض كالذى ناله اخوانهم في الخرطوم أو أشد وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

حوادث كسله وسقوطها

كسله اسم مدينة هي عاصمة اقليم (التاكا) الذى بين محافظتي مصوع وسواكن وحدود الحبشة وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان

وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة وفيه أبراج ومعدات الدفاع متوفرة فيها منذ دخلت في املاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد على باشا عزيز الديار المصرية

وكان السيد محمد عثمان الميرغنى نازلا في قرية (الختمية) بجوار كسله وهى قرية أسسها جده السيد محمد عثمان الميرغني وقد تقدم لنا ان المهدي كان يدعو السيد محمد عثمان الميرغني الى الدخول فى دعوته وكان يوالي ارسال الانذارات له تارة بالوعد وأخرى بالوعيد ففر من قرية الختمية لما رأى ان الخطر يقترب من جهته

وبعد فراره خندق بقية سكان الختمية على قريتهم وأمدتهم الحكومة بالاسلحة والذخيرة والجنود

وفى محرم سنة ١٣٠١ قدم الى كسله مصطفى هدل داعية من قبل

عثمان دقنه فتبعه جميع السكان ورفعوا لواء العصيان على الحكومة فارسل أحمد عفت بك المدير قوة تهاجم موقع تجمع العدو فعادت بخسارة عظيمة وكانت نساء العصاة (الهدندوه) يقاتلن مع أزواجهن ولهن فظائع ما سمع بمثلها في الدنيا فقد كن يحملن ورا أزواجهن قطعا من الخشب فيجهزن بها على الجرحى وينزعن الملابس عن اشلاء القتلى ويضعن في دبر كل قتيل قطعة من الخشب طولها ذراع فيولجن في الدبر نصفها ويبقى النصف بارزا ويطرحن الجثث على وجوهها ليصير هذا المنظر الشنيع معرضا لنظر المارة

على ان هذه الفظيعة لم تكن من عنديات تلك النسوة بل ان مصطفى هدل هو الذي قال لهن من مثلت منكن بالقتلى هذا التمثيل بنى الله لها بيتا في الجنة

وكان مصطفى هدل هذا جاهلاً ضالاً وفي غضون حصاره كسله كان يزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بكيت وكيت

وفي أواخر شهر ربيع الآخر هجم الدراويش على كسله فالزمتهم الحامية بالتقهقر بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة

وفي شهر جمادي الآخرة اشتد الحصار وارتفعت اثمان الاقوات

وفي شهر شعبان سنة ١٣٠١ بينما كانت الحكومتان الانكليزية والخديوية تتداولان في انفاذ حملة تنقذ غردون اتفقت الحكومة الخديوية مع يوحنا نجاشي الحبشة على انقاذ حاميات الحكومة التي في السودان الشرقي وتنازلت له عن بعضها

وفي هذا الشهر أيضا أحس مصطفى هدل بضعف في حامية خندق الختمية فصمم على أخذها عنوة فخاب سعيه حيث دفعته الحامية وهزمته شر هزيمة

وفي شهر رمضان سنة ١٣٠١ سعي ماسون بك الامريكاني فى اخلاء كسله واجلاء الحامية عنها فلم يفلح لان الجنود رفضوا ان يفروا بغير عائلاتهم التي لا تستطيع الفرار

وقد لبث ماسون بك يخابر المدير أحمد عفت في الانسحاب من كسله فكان يجاوبه باستحالة ذلك ثم غادر ماسون بك مصوع ولم يفلح في سحب الحامية من تلك المدنية

هذا وقد كان انقاذ كسله ميسوراً بسبب قربها من حدود الحبشة ولكن أشياء كثيرة كانت من أقوي الاسباب التي ساعدت العدو على امتلاك المديرية. منها ان النجاشي يوحنا بعد ان أصدر أمره الى الرأس الولا بالقيام لانقاذ كسله عاد فنقض أوامره الاولى وكان سبب ذلك على ما علمته ان الدراويش كانوا يخادعونه ويعدونه بالمحالفة والمعاضدة وكان في المدينة بعض جواسيس يطلعون الدراويش على كل اسرار الحكومة وما يدبره المدير وكان الرأس الولا يخابر المدير ويطلب رأيه في ترتيب الزحف على المدينة لانقاذ حاميتها فكان المدير يجاوبه فيسرع أولئك الخائنون بابلاغ الدراويش مادار بين المدير والرأس الولا من المخابرات

ولما وصلت انباء سقوط الخرطوم الى شرقي السودان قويت عزيمة محاصري كسلة وأرسل عثمان دقنه بالامداد لهم ثم تلاه قدوم الشيخ الحسين زهراء ومن معه من المندوبين وقد تقدم لنا ذكر بعثهم قبل وفاة المهدى

وفي أواخر شهر جمادى الآخرة عرض (شرمشيد باشا) محافظ شواطئ البحر الاحمر على النجاشي يوحنا عشرة آلاف بندقية ليتقدم لانقاذ حامية كسله ولكن فى غضون ذلك كانت المجاعة قد برحت بالحامية حتى أكلوا

الكلاب والجرذان

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٢ برحت المجاعة بحامية الختمية فعزم السيد بكرى ابن عم السيد محمد الميرغني على التوجه لكسله لينضم الى من بها من رجال الحكومة وفعلا سار بنحو الف رجل فصادفهم في اثناء سيرهم مصطفى هدل وجنوده فذبحوا كل من كان مع السيد بكرى وجرح هو جرحا بليغاً ثم شرعوا في الهجوم على معقل الختمية لاستئصال من به من الحامية التى تمكنت من التقهقر بانتظام حتى دخلت معقل كسلة . ولقد أتى السيد بكرى من الاعمال الشريفة ما يناسب منصبه ويشهد له ولعائلته بطهارة الاصل وعراقة المجد

وفى منتصف شهر شوال سنة ١٣٠٢ فقدت الحامية كل أمل في النجاة كما فقدت القوت حتى قال لنا أحد المحصورين انهم طلبوا الاردب من الذرة باكثر من الف ريال فلم يظفروا

وعلى أثر ذلك عقد المدير أحمد عفت بك شروط الصلح مع الامناء الذين انفذهم المهدي قبل وفاته على ان لا يمدوا أيديهم لغير ما للحكومة من المال والذخيرة فخرجت الحامية وسلمت نفسها فى منتصف شهر شوال سنة ١٣٠٢ فامسكوا المصريين وعذبوهم ونهبوا أموالهم مثل ما حصل في الخرطوم وغيرها ومات كثيرون تحت الضرب والتعذيب وحمل جل المال الي أم درمان واحد عشر مدفعاً من الطرز الجبلي العتيق وأبقيت نحو تسعة مدافع تحت تصرف عثمان دقنه وغنموا أيضا نحو عشرة آلاف بندقية وشيئاً كثيراً من الذخيرة ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر اول واقعة بين الدراويش والاحباش

بعد سقوط كسلة في قبضة العدو بثلاثة أسابيع قدم عثمان دقنه من سواكن ومعه زهاء عشرين الف مقاتل وقد استنفر الناس فاجتمع لديه نحو خمسين الف مقاتل زحف بهم الي (كوفيت) في حدود الحبشة وتحصن في المعقل الذى كانت حامية الحكومة متحصنة فيه قبل جلائها عن (كوفيت) وهناك أرسل كتاب تهديد الي الرأس الولا فورد له الرد بانه سيقدم عليه يوم كذا وفي ذلك اليوم هجم الرأس الولا على عثمان دقنه في ثمانين الف مقاتل من الاحباش فاحاطوا بالمعقل احاطة السوار بالمعصم فخرج عثمان من المعقل بمقاتلته فهاجمه الاحباش هجمة الاسود الضوارى على فرائسها فسقط جيشه كله قتلى واستطاع هو النجاة ومعه نحو خمسمائة مقاتل فظن ان الاحباش يتأثرونه الي كسلة فيستولون عليها حيث لا مقاتلة فيها يدفعون عنها غارتهم ولذا عاد عثمان دقنه الى كسلة وهو لا يصدق بالنجاة وكانت هذه الواقعة في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٢ ويقال ان تقدم الاحباش كان لانقاذ كسلة فكان شأنهم معها مثل شأن الانكليز مع الخرطوم حيث جاؤها بعد ان سقطت في قبضة العدو

ذكر قتل المدير احمد عفت ومن معه من القواد

لما رجع عثمان دقنه من (كوفيت) قبض على المدير أحمد عفت ومعه الصنجق حسن أغا سليمان الالباني ومعتوقه احمد أفندي شوقي معاون مديرية (التاكا) وتاجران يونانيان يدعى احدهما استيلي والثاني بادروس واودعهم السجن

بعد ان وضع فى أرجلهم من القيود ماتنوء بحمله الدواب وغل رقابهم باغلال الحديد وتركهم في اعماق السجن بلا طعام ثلاث ليال ثم دخل عليهم السجان وقال لهم قوموا الى الصلاة فقال له احمد عفت بك هل نطيق القيام ونحن بهذه الاغلال مع مانحن فيه من وهن الجوع فذهب الى عثمان دقنه وأخبره بما قاله احمد عفت بك فقال ليحضروا امامي فسيقوا اليه يرسفون فى القيود والاغلال كانهم أشباح بلا ارواح فسأل عثمان دقنه احمد عفت بك عن سبب امتناعه من الصلاة فأجابه بمثل ماجاب به السجان فامر بضرب اعناقهم فاظهروا جميعاً الفرح والارتياح وتقدم شوقي عتيق احمد عفت بك الى السياف وقال له أمهلني حتى اصلى ركعتين فامهله ثم قال له انى اسألك بحق مهديكم ان تضرب عنقى قبل سيدى أحمد عفت بك فمد عنقه غير هياب لشىء فضربت ثم مد أحمد عفت بك عنقه مع الجلد والشجاعة فضربت أيضا ثم مد الصنجق حسن اغاسليمان عنقه فضربت ثم تلا ذلك ضرب عنقي اليونانيين استيلى وبادروس

شان اهل الخرطوم بعد ذلك

ذكرنا ما كان من أمر المهدى مع أهالى الخرطوم وقد أوردنا صورة المنشور الذى أصدره المهدى لاهالى الخرطوم وعلى اثره سمح لهم بالاقامة فى الامكنة المتخربة من المدينة واخذوا في السعى للارتزاق بالمهن الدنيئة مثل صناعة الخبز وفتح حوانيت الاطعمة وهم في كل آن عرضة لصنوف الاضطهاد وفي كل يوم يقع بعضهم فى تهمة إخفاء المال فيعاد تعذيب الواحد منهم بما يقشعر منه البدن

هـذا وقد ذكرت انني كنت اقمت بكوخ فى أم درمان بجوار منزل يوسف منصور وبعد وفاة المهدي كانت لي زوجة على وشك الوضع كنت تزوجتها قبل سقوط المدينة وهى بنت احد الضباط المصريين العظام فانتقلت الى الخرطوم للحصول على قابلة مصرية بها وما كادت تمضي على ايام حتى نمى الى ان الحاج خالد العمرابى كتب الي التعايشي يقول ان ابراهيم فوزي قدم الخرطوم وهو يسعي فى توحيد كلمة بني جلدته المصريين للقيام بعمل ضد المهدية فما شعرنا في احدى الليالى الا بالنداء بان كل ذكر من الذين خرجوا من خندق الخرطوم يهدر دمه اذا بات في المدينة بل يجب ان يكون فى البقعة التى عند نقطـة ملتقى النهرين الابيـض والازرق وبينما كان الرجال يودعون اطفالهم ونساءهم للخروج الى محل الاجتماع اذ عاد النداء بوجوب خروج النساء والاطفال الى ذلك المكان أيضا فخرجنا بنسائنا واطفالنا ونحن فى حالة لا أقدر على وصفها وبعد وصولنا الي تلك البقعة جاءنا دراويش من أم درمان اخبرونا بان المراد من هذا الاجتماع قتل ابراهيم فوزى (المؤلف) وبيع بقية المصرين ارقاء فقضينا تلك الليـلة فراشنا الارض وغطاؤنا السماء فكنت لاتسمع غير صياح الاطفال وعويل النساء

وفى اليوم التالى مكثنا الى قرب منتصف النهار حتى جاءنا التعايشى ممتطيا حماراً يحيط به نحو الف حارس وامامهم أشخاص ينفخون في أبواق من العاج بصوت مزعج متقطع وهـذه الابواق تسمي (أم بايه) وسـيأتى ذكرها في وصف موكب الخليفة

ولما دنا التعايشي من موقفنا أمرنا بالوقوف مصطفين رافعين أصواتنا بالتهاليل ثم استدعاني من وسط الصفوف ومعي بضعة أشخاص من أعيان

الخرطوم ولما مثلنا بين يديه خاطبنا بما يأتي

« أيها الاتراك أهالي الخرطوم فضلة سيف المهدي عليه السلام انكم أضللتم الناس وغررتموهم بدنياكم فلماذا أيها المنافقون أقمتم بالخرطوم ولم ترحلوا الى أم درمان فهل أنتم لا تزالون مكذبين للمهدي أو ما هي السبب » فاجبته قائلا ياسيدنا الخليفة نحن نعوذ بالله من ان نكون مصرين على تكذيب المهدي ونحن نعترف امامك باننا مؤمنون بالمهدي وخلفائه والذي منعنا من الاقامة بام درمان هو عدم قدرتنا على تشييد الاكواخ فيها وتمكننا من الاقامة في خرائب الخرطوم بغير مشقة فاجابني التعايشي وهو مفعم بالغضب أنت منافق ولا أرى غير ضرب عنقك فقلت له ياسيدي الخليفة أنت تعلم الغيب وماتخفيه الصدور وان الخضر عليه السلام وزيرك ومشيرك وقد قال فيك المهدي عليه السلام انك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فاطرق بوجهه الى الارض وسرّ من هذا الاطراء ثم رفع رأسه وقال لي يا ابراهيم فوزي لقد تحققت براءتك مما نسب اليك وقد عفوت عنك وعن جميع أهالي الخرطوم ولكن لا بد من مغادرتكم الخرطوم واقامتكم بام درمان لان الخرطوم دار كفر والمهدي عليه السلام قال لا تسكنوا في مساكن الكفار ولا تلبسوا ملابسهم ولا تتزيوا بازيائهم فقلت ياسيدنا الخليفة نحن لا نملك أجرة اجتياز النيل فامر باجازتنا مجاناً فاجتزنا النهر وأقمنا بام درمان نقاسي من صنوف الذل ألوانا

ذكر الاجتماع العام لعيد الاضحي

ذكرنا ما كان التعايشي شرع في عمله من اقامة مشاعر الحج بام درمان وانطاله هذا المشروع قبل ابرازه من القول الى الفعل

هذا وقد دعا الناس للاجتماع في عيد الاضحي ليتحقق طاعتهم وليظهر امامهم بمظهر الملك والقوة فدعا محمود بن عبد القادر أمير كردفان وسائر أهلها ودعا أيضا أهالى الجزيرة فاجتمع في أم درمان زهاء خمسمائة الف مقاتل فخرج عليهم يوم العيد يحيط به نحو عشرة آلاف عبد يحملون الاسلحة النارية من طرز رامنجتون وامامه بوق (أم بايه) وهو بوق من العاج كان يستعمله كبار نخاسي النيل الابيض وكان المهدى قد ميز التعايشي عن بقية الخلفاء بهذا البوق الذى يكون علامة على دعوة فرسان الجيش بالتكوف حول التعايشي

وخرج التعايشي راكبا هجينا كان يركبه المهدي وأخذ يسير الهوينا حتي بلغ زريبة من الشوك أعدت ليصلى فيها هو والخلفاء والمقربون منه فاقيمت الصلاة قبل الزوال بنحو ساعة فصلى التعايشى بالناس اماما ثم خطب بهم الخليفة على حلو وهكذا كان حال التعايشى في ايام الاعياد يصلي بالناس اماما ويخطبهم الخليفة على حلو لان التعايشى أميّ يجهل الكتابة والقراءة وبعد انقضاء الصلاة عاد الى منزله وقد سره مارآه من إقبال الناس عليه وطاعتهم لاوامره

وقد ذكرنا انه كان يخشى انتقاض أقارب المهدي ولكنه علم من أهالي الجزيرة انهم سيئو السلوك وقد حملوا الاهلين من المظالم والمغارم ما جعلهم يئنون تحتهما وأتوا من المنكرات ما يعجز القلم عن ايراده

ومن هاته الحوادث ان كريبا أحد حراس الخليفة شريف وقريب المهدى الذى ذكرنا انه قطع الصبي ثمانى قطع يوم سقوط الخرطوم ذهب الي المسلمية بمأمورية جمع الغنائم فرأى بجوار داره امرأة أرملة فى منتهى الحسن والجمال ولها بنتان لا يقلان فى الحسن والجمال عن أمهما فقبض عليهن

وادخلهن داره ووقع على أمهما أولا ثم افتض الفتاتين فقدمن على التعايشي ورفعن شكواهن اليه فاحالهن على القاضي الذي استدعى كريبا ولدي استنطاقه اعترف بانه وطئ المرأة بملك اليمين لانها غنيمة أما الفتاتان فانكر افتضاضه اياهما

وفي هذا الاجتماع أصدر التعايشي أمراً بابطال وظيفة الامناء الذين فوض لهم المهدي النظر في العرائض التي ترفع اليه لان جلهم من أقارب المهدي ثم أعلن ابطال وظيفة النواب الذين أقامهم المهدي لينوبوا عنه في نظر الظلامات التي ترفع اليه وأقام للقضاء بين الناس القاضي أحمد على الذي لقبه بقاضي الاسلام وأشرك معه نحو عشرين قاضيا كلهم من جهلاء الاعراب الذين لا يفقهون شيئاً غير أنهم يحفظون الفاظ القرآن الشريف

ثم أشار عليهم بعدم قبول الطعن في الشهود وتحليف الشاهد على المصحف فكانوا يكتبون في أحكامهم ما يأتي « ولعدم قبول الطعن في الشهود كما أشار خليفة المهدي عليه السلام قد صار تحليف الشهود وحكمنا بكذا »

كل ذلك لينتقم من أقارب المهدي بقيام الناس عليهم ومقاضاتهم لرد ما نهبوه منهم. وخرج الي محل القضاة في ذات يوم شاهرا سيفه وقال لهم ان لم تحكموا بين الناس بالحق فلابد ان أضع سيفي هذا في رقابكم ثم خطب في الناس قائلا من كانت له مظلمة عندي فليتقدم لمقاضاتي امام القاضي والحاصل انه ظهر امام الناس بمظهر العادل الشفوق وقفل الناس راجعين الى بلادهم وقلوبهم مملوءة بالاخلاص له والانقياد الاعمي لطاعته وشرعوا في مقاضاة اقارب المهدي واستردوا اكثر ماسلبوه منهم

ذكر وفود الهنود على التعايشي

في أوائل سنة ١٣٠٣ وفد على التعايشي عشرة رجال منهم سبعة من الهنود المسلمين وثلاثة من بخاري فتلقاهم بالاكرام وقدم لهم الاغذية مدة أسبوع ثم أهمل أمرهم وشدد عليهم فى مواظبة الصلوت الخمس فى المسجد فساءت حالتهم حتى أصبحوا لا حرفة لهم غير التسول وكان بين الثلاثة البخاريين واحد اسمه محمد الامين فاخبر التعايشي بان له معرفة بالكتابة ونسخ الصور التي تستعمل في مطابع الحجر القديمة فامر بارساله الى المطبعة لمباشرة تلك المهنة وجعل راتبه خمسة ريالات يقبضها فى السنة مرتين أو ثلاثا

ويظهر من حالة أولئك الهنود انهم فقراء وانهم قصدوا بلاد السودان عساهم أن يجدوا سبيلا للارتزاق

وكان من بينهم واحد اسمه كمال الدين وكان بارعا في أساليب الخداع والاحتيال ادعى انه ذو علم بصناعة المادة القابلة للانفجار وهى المسماه (عجينة الكبسون) وتناول من التعايشي نحو اثني عشر الف ريال ثم ظهر جهله وانكشفت حيلته وسنأتي على ذكر هذه المسألة فى مكانها ان شاء الله

ذكر انتقاض الاشراف وتسليم الرايات

ذكرنا ما كان من أمر المداولة بين الخلفاء وتقسيم البلاد بينهم وتردد التعايشي في انفاذ تلك القسمة وعدم رضاه بها

ولما عاد محمد عبد الكريم بعد اسقاطه سنار واستحواذه على ما فيها من الذخيرة والامتعة طلب منه التعايشي أن يسلم ما لديه من الذخائر والاسلحة

والمال فامتنع واعلن الخليفة شريف عبد الله التعايشي بانه يريد التقدم الي بربر ومنها الى دنقلة كي يتقدم منها لفتح مصر فمنعه التعايشي فلم يصغ لقوله وخرج في شمال أم درمان وعسكر هناك وأخذ في الاهبة للرحيل فجمع عبد الله التعايشي خواصه واستشارهم في هذا الامر فاشاروا بوجوب مقاومته وارغامه على الخضوع لاوامره فرأى التعايشي ان قوة الخليفة شريف أعظم من قوته وانه لا بد ان تدور عليه الدوائر اذا قصد اخضاعه بالقوة فعمد الى طريقة الحيلة والخداع توصلا الى هذه النتيجة فبذل المال الى الخليفة علي حلو وطيب قلبه بالوعود ليكون معه على الخليفة شريف

وكان الخليفة علي حلو متزوجا بأخت عبد الله التعايشي وبينهما من رابطة جنسية البقارة ما يدعوه الى تفضيله على الخليفة شريف فمال الى التعايشي الذي عمد الي أحمد شرفي صهر المهدي واستماله اليه بالهدايا والوعود فصار يرفع اليه أخبار الخليفة شريف وما دبره ووعده بالمساعدة في كل ما يطلبه منه

وفي ذات يوم ركب التعايشي ومعه الخليفة علي حلو وقصد معسكر الخليفة شريف فوقفوا صفوفا للقائه ولدي وصوله الى الصفوف أخذ يبكي وينتحب فاحاط به كل من الخليفة علي حلو وأحمد شرفي وغيرهم من خاصته وسألوه عن سبب بكائه فلم يرد عليهم وأخيراً قرب منه الخليفة شريف وأقارب المهدى فرفع رأسه وأشار بيده الي الامام وقال لهم هاهو المهدى امامكم يعض على أنامل الندم ويقول لي كيف تختلفون قبل ان يمضى على انتقالي من بين ظهرانيكم سنة ألم يعلم أصحابي انك خليفة الصديق فبكى الحاضرون وفى متقدمهم الخليفة شريف وترامو على ركاب التعايشي يقبلونه ويسألونه

الصفح عن زلتهم ثم طلب من الخليفتين علي حلو ومحمد شريف ان يسلماه راياتهما فسلموها وأمرهما بتسليم ما عندهما من الاسلحة والذخيرة والجهادية ففعلا وأصبح الخليفتان لا يملكان شيئاً من الاسلحة النارية وكان التعايشي يد الخليفة على بن حلو سراً باعادة ما أخذ منه ولكن لم يوف له بشيء بعد ان تمكن من انفاذ غرضه وقلب له ظهر المجن ومع ذلك كان يكرمه ويجزل له العطاء ويشاوره في كثير من الامور

ومن ذلك اليوم مال اصحاب الخليفة شريف وقواده عنه واحتقروه لما رأوا من ضعف عقله الذي اثرت عليه هذه الخديعة التي لا تؤثر على عقول الصبيان فانحازوا الى جهة التعايشي مظهرين له التزلف والتودد مضعفين له جانب الخليفة شريف الذي أخذ بعد قواده وأصحابه بان له أملاً كبيراً فى اعادة نفوذه بواسطة القوة الضخمة التى تحت قيادة ابن عمه محمد خالد زقل فى دارفور

وفي الحقيقة ان التعايشي كان في وجل شديد من القوة التى كانت مع محمد خالد زقل ويحسب لها حسابا ولذلك عاد الى استجلاب مودة الخليفة شريف وأبقى جميع أقارب المهدى الذين كانوا منتشرين فى البلاد لجباية الخراج فى مناصبهم ريثما ينظر فى أمر محمد خالد زقل وكانت هذه الحادثة فى أوائل سنة ١٣٠٣

ذكر القبض علي امراء سنار وفرار الشيخ مضوي

لما كان الامراء الذين اسقطوا سنار من أتباع الخليفة شريف لم يجسر التعايشي على مطالبتهم بما غلوه من غنائم سنار مع انهم لم يؤدوا الى بيت المال العشر منها

ولما استولى التعايشي على ما عند الخليفة شريف من الاسلحة والذخيرة اصبح قادراً على مناقشة اولئك الامراء الحساب على ما اغتالوه من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فاستدعى اليه أعيان سنار الذين أخذت منهم الاموال وأخذ يلين لهم الكلام ويعدهم بنيلهم نصيباً مما أخذ منهم اذاهم أوضحوا له كمية المال واسم من استولى عليه من الامراء فأوضحوا له كل ذلك فأمر بالقاء القبض على محمد عبد الكريم القائد العام لانه علم من كلامهم انه استولى على نحو خمسة قناطير من الذهب واستولى بقية الامراء على مقادير عظيمة من التبر

وقد علم التعايشى أيضاً ان الشيخ مضوى احد الامراء عذب مصريا اسمه على مرزوق كان ناظر الشونة وأخذ منه خمسين رطلا من التبر المسبوك فأمر بالقاء القبض عليه فلم يجدوه بام درمان اذ كان متغيبا فى قريته (العيلفون) فامر باشخاص مائة راكب يقصدون تلك القرية التي تبعد عن أم درمان مسيرة مرحلة واحدة للقبض عليه فاسرع احد اقاربه بمغادرة أم درمان وأبلغه الخبر فركب راحلته قاصداً حدود الحبشة وزور خاتم التعايشى على مكتوب أمر فيه الامراء بتقديم مايلزم الى الشيخ مضوى وانه ذاهب بمهمة الى بلاد الحبشة فتناول بهذا المكتوب نحو ثلاثة آلاف ريال وبلغ حدود الحبشة آمنا ولم يصبه سوء ولحق بالشيخ عجيل الجمرانى في جهة (غبته)

ولنعد الى ذكر الامراء الذين قبض عليهم التعايشي فنقول انه أبقاهم في السجن بضعة شهور لم يظفر في خلالها بشيء مما اغتالوه واصروا على الانكار فامر بمصادرة ماظهر من أملاكهم مثل الجواري والعبيد والدواب والامتعة البيتية ثم امر بالافراج عنهم وألحق البعض منهم بعثمان دقنه والبعض بعبد

الرحمن النجومى فى دنقلة وانقضى الامر على ذلك

ذكر عصيان الجهادية بالابيض وقتل امير كردفان

لما غادر المهدي الابيض الى (الرهد) ومنها الي أم درمان استخلف على اقليم كردفان عمه محمود عبد القادر وقد ذكرنا انه استخلفه في جبال (قدير) لما بارحها الى كردفان فكأنه تفاءل باستخلافه وظل محمود عبد القادر قابضاً على زمام اقاليم كردفان حتى توفي المهدى فاستدعاه التعايشى لحضور الاجتماع العام في عيد الاضحى الذي كان عقب وفاة المهدي ثم أعاده الى عمله في الابيض

وكان محمود عبد القادر هذا ابن عم والد المهدى ومن أصحابه القدماء الذين شاركوه في تأسيس دعوي المهدية وكان متظاهراً بالزهد والقناعة وكان المهدى يكرمه ويجله

وكان في حامية الابيض التي تحت قيادته الف وخمسمائة جهادى منهم نحو تسعمائة من جنود الحكومة الذين أسروا في واقعتى يوسف باشا الشلالي وسقوط الابيض والباقي من عبيد الاهالي الذين صادرهم منهم محمود عبد القادر وهؤلاء الجهادية يقودهم صف ضابط منهم اسمه (الجاك) فعهد اليهم محمود عبد القادر حراسة الجبهخانات ورعى الماشية وجعل البعض حراساً له ولقواده وكان مع ذلك لا يعطيهم رواتب تقوم بضرورياتهم فاستاؤا من هذه المعاملة واضمروا الخروج عليه فنمى اليه الخبر فارسل يدعو قائدهم الجاك للحضور الي المسجد لتلقي أوامر جديدة فاعتذر عن الحضور وأرسل اليه بعض أعوانه فقبض عليهم محمود عبد القادر وضرب أعناقهم فاستشاط الجاك غيظاً ونفخ أبواقه وهجم برجاله على الجبهخانه فداهمه محمود عبد القادر بنحو

أربعة آلاف من فرسان الدراويش الذين انهزموا امام نيران الجالك وتركوا له الجبه خانه فاستولي عليها ودخل منازل الدراويش وانتهب ما فيها من المال والمتاع وغادر الابيض الي جبال النوبة وأعلن دخوله في طاعة الحكومة المصرية وسمي نفسه (الجالك باشا) ومنح الرتب لمن معه من القواد وأخذ يجبي الضرائب من سكان الجبال وأوصى قواده بعدم التعدى على حقوق الاهلين وان لا يأخذوا منهم الا الضريبة المفروضة فساروا سيرة حسنة امتدحهم بها سكان الجبال فارسل خلفهم محمود عبد القادر ثلاثة آلاف من رجاله مسلحين بالاسلحة النارية تحت قيادة الهاشمي أحمد الجلي فهزمهم الجالك باشا شر هزيمة وقتل قائدهم وذبح عددا كبيرا منهم ثم سار اليه محمود عبد القادر في أربعة آلاف مقاتل فالتقى الجمعان وثبت الجالك ورجاله ثبات الابطال وقتل محمود عبد القادر وقتل اكثر رجاله وولي الباقون الادبار وهم لا يصدقون بالنجاة

ولما اتصل بالعايشي خبر قتل محمود خاف عاقبة امر الجالك ولكنه سر من جهة أخرى بقتله لانه قريب المهدى وعضد من قوة الخليفة شريف فاسرع بانتداب على الهاشمي العمرابى في مائتي رجل وسير خلفه قريبه عثمان آدم المشهور (بجانو) وأمرهما بالبقاء في الابيض وان لا يتعرضا لحرب الجالك وكتب الى حمدان ابي عنجة يأمره بالهجوم على الجالك بجميع قواته فهجم عليه باكثر من عشرين الف مقاتل واصلاه حربا أظهر فيها الجالك ورجاله اعظم بساله حتي قتلوا عن بكرة ابيهم

ذكر اعمال ابي عنجة في الجبال

لما هزم ابو عنجة الجالك عاد الي غزواته في الجبال حتي اقترب من جبال

تقلى التي ذكرنا شأنها مع المهدي وقتله ملكها لما جاءه زائراً في الابيض فهجم على من فيها وقتل رجالها وساق النساء والصبيان سبياً وباعهم ارقاء مع انهم أعراب مسلمون كما تقدم لنا الكلام عنهم

ثم غزا أبو عنجة قبيلة الحوازمة التي تسكن بين دارفور وانتهب مالها وماشيتها وقتل زعيمها (نواى) الذي كان لحق بالمهدي في جبال (قدير)وكان المهدي وعده باعفائه من مرافقته الى الخرطوم فاخلف وعده وساقه اليها ففر نواى ولحق بقومه في كردفان فقتله أبو عنجة انتقاماً منه وانتهب أموال قبيلته

ذكر اشخاص محمد خالد زقل من دارفور وسجنه

أوردنا في الجزء الاول ماصار اليه شأن محمد خالد زقل واستيلاءه على دارفور وقد صار فيها كالملك مستقل حيث جمع حوله جيشا كثيفا يربو على مائتى الف مقاتل

وكان التعايشي متخوفا منه كما تقدم ولما استولى التعايشي على أسلحة الخليفة شريف وذخيرته وراياته كتب أحمد سليمان أمين بيت المال كتابا الى محمد زقل اخبره فيه بكل ما كان عقب موت المهدى من الحوادث كما اخبره بوقوع الخليفة شريف في الفخ الذى نصبه له الخليفة عبدالله التعايشي حتى اسلمه مابيده من الذخيرة والاسلحة والرايات وقال له فى الختام انقطع الامل الا منك وحذره من الوقوع فى فخ مثل الذي وقع فيه الخليفة شريف

وكان التعايشي قد شدد في مراقبة أقارب المهدى حتى لا تصل منهم كتب الى محمد خالد زقل فوقع كتاب احمد سليمان أمين بيت المال فى قبضة

التعايشي فأسرع باصدار أمر الى محمد خالد زقل بمغادرة دارفور بمن معه من الجيش فامتثل الامر وغادر دارفور حتى اذا بلغ كردفان اعترضه أبو عنجة ودفع اليه أمرا من التعايشي بتسليم كل الجيش الى ابي عنجة المذكور فاطاع محمد خالد ولم يبد أقل اعتراض

ولما تمكن أبو عنجة من الاستيلاء على جيش محمد خالد زقل شرع في في تجريده من أموال الخصوصية ولم يترك له قوت يومه ثم كبله بالحديد وأرسله الى أم درمان يرسف في القيود والاغلال ولدى وصوله اليها زجه التعايشي في السجن فبقي فيه بضعة شهور ثم أطلق سراحه

وبلغ مجموع الخيول التي استولي عليها حمدان أبو عنجة من محمد خالد زقل ما ينيف على عشرة آلاف جواد وعدد الاسري كان يربو على خمسة عشر الف جهادي مسلحين بالاسلحة النارية وظفر أبو عنجة بكل أموال زقل وكانت عظيمة جداً وأرسلها الى التعايشي

ولما اتصل بالتعايشي نبأ القبض على زقل جمع بطانته وأخبرهم بذلك وقال لهم قد ذهبت كل مخاوفي وصرت آمناً مطمئناً على مركزي وأنا أطلب منكم منذ اليوم ان تساعدوني على القيام بامور هذه المملكة المترامية الاطراف حيث لم يبق لي معارض في جميع انحائها ومن ثم بدأ بتولية الاعراب على البلاد واستئصال شأفة الذين و[illegible]م المهدي من أقاربه ومواطنيه

ذكر القبض على احمد سليمان امين بيت المال وعزله

أحمد سليمان أمين بيت المال محسي الاصل من أهالي بلدة اسمها (رفاعة) على ضفة النيل الأزرق الشرقية اجتمع على المهدي في جزيرة (آبا) فاحبه

واكرمه واطلعه على كنه اسراره وكان أحمد سليمان يتفانى في محبة المهدي وخدمته وقد ذكرنا انه كان متوليا تقديم الاطعمة له وكان يقود خطام دابة المهدي حافيا وفي جبال (قدير) ولاه المهدي أمانة بيت المال مفوضاً له فيه العمل بلا أدني مراقبة أو مسؤلية يعطى من شاء ويمنع من شاء

وكان أحمد سليمان يحتقر عبد الله التعايشي ويبغضه ولا ينفذ له ارادة مع ما كان فيه التعايشى من سمو المنزلة عند المهدى لان أحمد سليمان كان يرى نفسه عند المهدي فى منزلة اسمي وأرفع من منزلة عبد الله التعايشي مهما بلغ هذا من القرب منه

وفي إبان اقامة المهدي بكردفان وقع خلاف بين التعايشي وبين أحمد سليمان فامر التعايشي بسجن أحمد سليمان فسجن واتصل الخبر بالمهدى فكاد يفقد صوابه لشدة مالحقه من الغضب فارسل الي السجن وأطلق أحمد سليمان وعنف التعايشى على اقدامه على مثل هذا الامر حتى ظن بعضهم انه سيعزله من الخلافة ويقصيه من بين يديه

وقد تغالى المهدي في الثناء علي أحمد سليمان حتى قال انه رأى مكتوبا على ساق عرش الرحمن جل شأنه ان أحمد سليمان أمين المهدي عليه السلام

وقد قلنا انه كان يكرم ذوى قرابة المهدى ويخصهم بالنصيب الاوفر من المال ولا يعطى التعايشى اكثر من مائة ريال في كل شهر. أما أقارب التعايشى فلا نصيب لهم ألبتة حتى ان يعقوب أخا التعايشي ووكيل رايته كان يتردد على باب أحمد سليمان شهرين أو ثلاثة فلا يمنحه بعدها اكثر من خمسة ريالات وقد رأيته مراراً واقفاً على باب أحمد سليمان موقف اذلاء السؤال فلا يؤذن له بالدخول الي حضرته

وجملة القول ان من ينظر بعين الامعان يتحقق ان أحمد سليمان كان أقرب مقرب للمهدي وأصدق صديق له وأعظم مستشار أمين عنده حتي ان أولاد المهدي و نساءه لا يجسر أحدهم ان يقول أمامه كلمة تمس أحمد سليمان

ويظهر جليا من هذا ان أحمد سليمان كان لا يأتي أبداً أمراً يوجب انحراف المهدي عنه ولهذا أرجح صدق ماسمعته من الواقفين على كنه سيرة المهدي من ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطا في إبرة بغير ان يكون المهدى الآمر له بوضعه وهو كثير الاختلاء به وكان لا يحجب عنه حتى لو كان المهدي مختليا باحدي نسائه وغرفته مغلقة وطرقها أحمد سليمان أجابه من الداخل وأذنه بالولوج عليه وهذا منتهى القربي ونهاية الزلفي

ولما توفى المهدي كان التعايشي ينتظر من أحمد سليمان ان يتقرب منه ويخدمه بمثل ما كان يخدم به المهدي ويقود دابته حافيا كما كان يقود دابة المهدي فلم يفعل بل غاية الامر انه زاد فى احترامه للتعايشى رعاية لمنصبه وزاد فى مرتباته وخص ذوي قرابته بنصيب أقل من القليل من بيت المال وعكف على البذل والانفاق على أقارب المهدى وزاد أعطية نسائه وأولاده وأمهاتهم

وكان أحمد سليمان يتوقع شرا يصيبه من التعايشى على أثر إفضاء الخلافة اليه وقد ذكرنا كتابه الى محمد خالد زقل وبعد ان سجن أبو عنجة زقل انتدب التعايشى من بطانته أناسا ضبطوا بيت المال وكلفوا أحمد سليمان بتأدية الحساب عن الدخل والخرج منذ ولي علي بيت المال فسخر من هذا الاقتراح واحتج بأن المهدي لم يأمره بضبط الحساب فى دفاتر ولذلك لا يمكنه

أداء مثل هذا الحساب فاصدر أمراً بعزله وزجه فى السجن فبقي فيه اكثر من سنة ثم أطلقه وعهد بأمانة بيت المال بعده الى رجل من أهالى جزيرة الخرطوم كان تاجراً في الابيض اسمه ابراهيم بن عدلان وسنعود الى ذكر بقية أعماله وما كان بعد ذلك من صلبه

الاشاعة بعودة الانكليز الي دنقلة

لما أخلت الحملة الانكليزية دنقلة احتلها محمد الخير أمير بربر فى أوائل سنة ١٣٠٣ وسرح مقاتلته الى جهة الشمال حتى بلغوا جنوب حلفا التي كانت يومئذ مقر الحملة الانكليزية التي تقدمت منها بعض طوابير وحاربت جنود محمد الخير وانتصرت عليهم فاستنتج محمد الخير من تقدم الانكليز الى جنوب حلفا انهم يقصدون التقدم الى دنقلة لاخضاع السودان كله حيث سمعوا بهلاك المهدى فاسرع بابلاغ الخبر الى عبدالله التعايشي فانقض هذا الخبر عليه انقضاض الصاعقة وارتاع روعا أفقده الصواب لان تقدم الانكليز يقضى على آماله التي شرع فى تأسيسها وهي استبداده بالملك وانفراده بالسلطان اذ يصير ارضاء الخليفة ومنحه بعض السلطة واجبين لتوحيد الكلمة فجمع أهل شوراه وكتب الى محمد الخير يأمره بالتقهقر أمام الانكليز وتركهم حتى يبلغوا أم درمان وفي اليوم التالي أعلن خبر تقدم الانكليز وأمر المقاتلة ان يعسكروا شمال أم درمان فخرجت معهم وفى أصيل النهار لحق بنا التعايشي والخليفتان على حلو ومحمد شريف

ولما مالت الشمس للغروب توضأنا من النهر وصلي بنا التعايشي صلاة المغرب على ضفة النهر ووجوهنا متجهة الى النهر وبعد اداء الصلاة برز القمر

وقرصه مستدير ولونه أحمر كهيئته في مثل ليلته عند بروزه اذ كانت ليلة السادس عشر من شهر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٣ فوقف واحد من الدراويش بجانب التعايشي وهو جالس ورفع صوته قائلا (السلام عليكم ياأصحاب المهدى عليه السلام) فردوا التحية فقال حولوا نظركم الى جهة الشرق وانظروا الى القمر كيف برزولونه أحمر قان هل رأيتموه بهذا اللون قط فاجابه الخليفة على حلو قائلا لا . لا . لم ننظره أبداً بهذا اللون فقال انى سمعت المهدي عليه السلام يقول ونحن في قدير « اذا فتحنا الخرطوم فان الله يجعل لاصحابي آية يعرفون بها النصر المبين الذي يصاحبهم الى الابد فقلنا ياسيدنا المهدى وماهي تلك الآية فقال هى خروج القمر في لون أحمر » فوقف التعايشى وقال للرجل صدقت ياصاحب المهدى فها أنا ذا أقرأ كتابة على صفحة القمر وهى « هذا نصر المهدى وأصحابه الى الابد » فضج الناس بالتهليل والتكبير حتى خلت السماء قد انطبقت على الارض ثم بعد اداء صلاة العشاء عدنا الى أم درمان وقضيت ليلتى متعجبا من جهالة دراويش المهدى الذين يعلمون ان التعايشي لا يقرأ ما يكتب على القرطاس فكيف يصدقون انه يقرأ ما يكتب على صفحة القمر وأخيراً كذبت الاشاعة وعاد الانكليز الى حلفا اذ هم فى الحقيقة لم يقصدوا التقدم الى دنقلة بل كانوا يقصدون طرد الدراويش من جنوب حلفا ففازوا عليهم وأبعدوهم عن جنوبها

أما تلك الوقائع فان تفاصيلها لم تصل الينا من مصادر نثق بروايتها وغاية الامر ان التعايشى لما علم بعدم صحة النبأ ذهبت مخاوفه ولم ينشر شيئاً من تلك الوقائع التى عدها تافهة لا تستحق الذكر

ذكر انفاذ عبد الرحمن النجومي الي دنقلة

في أوائل سنة ١٣٠٣ انفذ التعايشي عبد الرحمن النجومي الي بربر ومنها الي دنقلة ومعه جميع المقاتلة التابعين لراية الخليفة شريف فوصل الي دنقلة فى أواخر السنة واتخذ مدينة (العرضى) قاعدة إقليم دنقلة مركزا لمعسكره العام ووصلت طلائع جيشه الى جنوب حلفا وسنعود الي ذكر بقية اخباره الى قتله في واقعة (طوشكى) والله الموفق

انتقاض دارفور علي التعايشي واخضاعها

لما غادر محمد خالد زقل دارفور هبّ رجل اسمه يوسف من ذرارى سلاطين دارفور واستخلص البلاد من ايدي الدراويش الذين تركهم بها زقل ونودي به سلطانا علي أقاليم دارفور كما كان اسلافه فكتب التعايشى الى عثمان آدم جانو يأمره بحشد أهالي كردفان والتقدم بهم الي دارفور لاخضاعها فحشد جيشاً يربو علي الخمسين الف مقاتل منهم نحو عشرة آلاف كانوا مسلحين بالاسلحة النارية وهجم بهم على (الفاشر) عاصمة دارفور فقابله السلطان يوسف فى جمع كثيف ودافعوا دفاع الابطال وانجلت الحرب عن هزيمة أهل دارفور وقتل السلطان يوسف ودانت البلاد بطاعة المهدوية فاستولي عليها عثمان آدم وأخذ يوالي الغارة على الجبال التي حول دارفور فاجتمع لديه من الارقاء زهاء عشرين الف مقاتل سلحهم بالاسلحة النارية

وأرسل عثمان آدم بما غنمه من دارفور الي التعايشي على مألوف العادة وأرسل اكثر من ثلاثمائة فتاة من فتيات دارفور سبايا الي التعايشي الذي سر

من عماله وكتب اليه بالولاية على إقليم دارفور وكردفان وجعله قائد جيوشها وسيأتي ذكر بقية أعماله وحروبه مع أبي جميزة مدعي المهدوية

ذكر لحاق قبيلة الشكرية بالحبشة وقتل زعمائها

في أوائل سنة ١٣٠٤ كتب التعايشي الي قبيلة الشكرية يدعوها الى الشخوص الى أم درمان بماشيتها وكانت وقتئذ نازلة في باديتها بصحراء (ريره) بين نهري (اتبره) والنيل الازرق فايقنت ان دعوتها الى أم درمان لم تكن لغير نهب ماشيتها ومصادرتها فعولت على الالتجاء الي بلاد الاحباش وكان زعيمها عوض الكريم بن أبي سن الذي ذكرنا أخباره مع المأسوف عليه غردون وقدومه على المهدي تائبا نادما مقيما يومئذ في أم درمان

وبعد أيام قلائل من دعوة التعايشي لقبيلة الشكرية جاءته الاخبار بمغادرتها ديارها ولحاقها ببلاد الاحباش فاحتدم غيظا وأمر بالقاء القبض على عوض الكريم بن أبي سن وسائر أفراد أسرته الذين هم من قبيلة الشكرية فقبض على نحو مائتي رجل من خيارهم وكبلوا بالحديد وزجوا في السجن حتى أمر التعايشي بقتلهم صبرا فقتلوا جميعا ولم ينج منهم أحد

أما الذين هاجروا الى الحبشة فلم يكونوا أسعد حالا من الذين قضي عليهم في السجن لان رداءة هواء بلاد الحبشة استأصلت إبلهم التي كانت تعد بمئات الالوف وأبادت نفوسهم التي يقرب عددها من ثلاثمائة الف نسمة. وبالجملة فان تلك القبيلة التي كانت من اكبر قبائل السودان واكثرها ماشية وأشدها بطشا وقوة هلكت عن بكرة أبيها وذهبت ماشيتها ولم يبق منها غير بضعة آلاف نسمة متفرقين في البلاد وهم في نهاية الفقر المدقع

فسبحان من يغير ولا يتغير

ذكر قبيلة الضباينة والقبض على زعيمها في الجهات الجنوبية

في نهر (اتبره) قبيلة تسمى الضباينة يربو عدد نفوسها على أربعمائة الف نسمة ولها من الماشية من نوع الابل والبقر مايربو على ماشية قبيلة الشكرية وهى رحالة وزعيمها محمود عيسي زائد الشامى وهو من أسرة تولت زعامة تلك القبيلة منذ قرون وتؤكد هذه الاسرة ان جدها شامي قدم السودان من الديار الشامية منذ قرون أيضا وكان محمد زائد هذا ذا ثروة واسعة وله من الموالي والارقاء مالا يدخل تحت حصر حتى انك ترى قري مملوءة بارقائه وكان كريما جوداً يقري الضيوف ويعطى المال بآلاف الريالات وكانت له قصعة من الخشب يحملها خمسون رجلا . وقد أخبرني واحد من الذين حضروا مصادرة أمواله انهم أحصوا النوق الموسومة بالنار على فخذها الايمن اشارة الى انها معدة لركوبه خاصة لا يسوغ لاحد من مواليه أو أسرته ركوبها اجلالا لمقامه فكانت نحو أربعة آلاف راس من اكرم أنواع النوق والهجن

وكان محمود عيسى زائد يبغض المهدوية ويبطن ولاء الحكومة وان كان يمالئ المهدوية ويتظاهر بطاعتها حتي ان عثمان دقنة كان يكتب له قبل سقوط كسلة محرضاً على وجوب شن الغارة على حامية (الجيرة) قبل سحبها لانها قريبة من قرية (التومات) محل اقامته فلا يفعل وبعد أن سقطت كسلة أرسل عثمان دقنة نحو أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة عوض الكريم كافوت الجعلى فقبضوا على محمود عيسى زائد على غرة وصادروا أمواله وحملوها

الي الخليفة التعايشي ومن جملتها (القصعة) التي جعلها التعايشي اناء يتقدم فيه شيأ من تافه الطعام الى المدعوين في أيام المواسم والاعياد ولكن محمود زائد كان يقري ضيوفه بملئها صباحا ومساء طعاما نفيسا هو خليط من قمح ولحم ولبن وسكر أو عسل مصفي وسيق محمود زائد الى التعايشي يرسف في القيود والاغلال فطرحه في السجن وفى سنة ١٣٠٧ استأصل الزاكي طمل قبيلة الضبانية وأطلق الخليفة محمود زائد فمات غما بعد ان أصابه من عذاب السجن وفقدان القوة مابرح به خمس سنوات متواليات

ذكر انتقاض قبيلة جهينة

ذكرنا بعض اخلاق وعادات قبيلة جهينة التي تسكن جنوب سنار وقلنا ان زعيمها المهدي اباروف شخص الي المهدى في جبل (قدير) وعاد من عنده داعياً له فى قومه الذين جمعهم وظل يحارب بهم مدينة سنار حتي سقطت ثم عاد الى بلاده فيما وراء سنار

وفى أوائل سنة ١٣٠٣ أرسل التعايشى جابيا بقاريا اسمه أبو ام فضالي لجباية الخراج من قبيلة جهينة وسائر البلاد الواقعة جنوب سنار فحملهم من أنواع المظالم وضروب الحيف ماعجزوا عن تحمله فرفعوا شكواهم الى التعايشى الذي عنفهم واتهمهم بالمروق من الدين لأنهم شكوا اليه أصحاب المهدي فهبت قبيلة جهينة وزعيمها وأخرجت ابا أم فضالى قسرا من بين ظهرانيها واعلنت خروجها على التعايشى الذي لما اتصل به هذا النبأ أسرع بانفاذ نحو خمسة آلاف مقاتل جلهم مسلح بالاسلحة النارية فطاردوا قبيلة جهينة وقتلوا زعيمها المهدى اباروف واسرته وأصدر التعايشي أمراً بمصادرة أموال هذه

القبيلة وانفذ الامراء الى الجهات التي بها مساكنهم فكنت ترى الابل والبقر قد ضاقت بها الارض على وسعها ونزلت أثمان الرق حتي صار ثمن الواحدة خمسة قروش مصرية وزاد الطين بلة مصادرة ماشية قبيلة الكبابيش فى نفس الوقت الذي صودرت فيه أموال جهينة وماشية الكبابيش تربو على ماشية جهينة كما سنوضحه فيما سيأتى

والحاصل ان قبيلة جهينة بادت كلها وذهبت ماشيتها ولم يغن عنها ولاؤها للمهدى وقيامها ضد الحكومة

ذكر حرب قبيلة الكبابيش

ذكرنا قتل ابن زعيم قبيلة الكبابيش في الابيض لما كان المهدي نازلا بها وعلى أثر قتله جاهرت قبيلة بالكبابيش بالعصيان على المهدوية وابتعدت من المناهل والمراعي القريبة من كردفان وتوغلت في الصحراء التى بين كردفان ودنقلة

ولما استولت المهدوية على الخرطوم وانسحب الانكليز من دنقلة كتب التعايشي الى الشيخ صالح زعيم الكبابيش يدعوه الي الطاعة ويعده تارة ويتوعده أخري فلم يلتفت الي وعده ولم يرهب من وعيده بل توغل فى الصحراء حتي صار على مقربة من الواحات الجنوبية فانتدب التعايشي محمد نوباوى شيخ قبيلة بنى جرار التى هى بطن من بطون قبيلة الكبابيش وهو الذى دخل على الطيب الاثر الجنرال غردون وقتله

وانتدب التعايشى معه عدداً كبيراً من الفرسان فساروا من أم درمان مخترقين الصحراء حتي بلغوا منهل (أم بادر) وكان الشيخ صالح نازلا به

ومعه نحو مائتي رجل من أسرته ومواليه وبقية القبيلة متفرقة في المراعي والمناهل فاحاط محمد نوباوي بخيام الشيخ صالح في الغلس فانتبه من في الخيام مذعورين وركب الشيخ صالح فرسه وكذلك بقية من معه وأخذوا يطلقون الرصاص على الدراويش حتى نفدت ذخيرتهم فاستلوا سيوفهم وهجموا على صفوف الدراويش فاخترقوها وزحزحوهم عن مواقفهم وأصيب الشيخ صالح برصاصة في ذراعه فخر صريعا عن جواده فتقدم اليه محمد نوباوي ليشد وثاقه فابتدره بالشتم ولعن المهدي وخليفته وقال له أمثلي يساق أسيراً فامتنع محمد نوباوي عن قتله احتراما لما بينهما من صلات النسب فتقدم أحد الدراويش وقتله وحز رأسه ورؤس اخويه ورجال أسرته الذين سقطوا قتلى بعد اصابته وحملت الرؤس الى التعايشي فسر بها وخرسا جداً على ماأوتيه من النصر وانتدب الزاكى عثمان ومعه كتبة وجنود ووجههم الى محل الواقعة كي يجمعوا الغنائم وبلغني من أولئك الكتبة ان عدد الرؤس من الابل كان يربو على مليون ويقرب عدد البقر من الخمسمائة الف رأس أما الماشية الصغيرة فانهم لم يعتنوا بتعدادها لكثرتها وأرسلت هاته الماشية وبيعت مع غنائم جهينة في أم درمان وقد ذكرنا أن ثمن الناقة انخفض الى خمسة قروش مصرية وجيء بالجماعات من النساء سبايا وبالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة

وكانت قبيلة الكبابيش هذه أعظم قبائل السودان واكثرهن ماشية وثروة وزعيمها أغنى زعماء القبائل في السودان وكان قد وفد منذ خمسة وعشرين عاما على المغفور له الخديو اسماعيل باشا وقدم له هدايا وتحفا فاكرم وفادته وأعاده الى بلاده بالعز والاكرام ومن أعجب ما شاهدته ان اكبر بنات الشيخ صالح هذا كانت تحمل على رأسها في أم درمان اناء تبيع فيه الماء لتحصيل قوتها وقد كانت هذه المرأة

وسائر نساء أسرتها يلبسن نعالا من خالص التبر واذا خرجت احداهن من دار الى أخري مشي حولها مائة من الجوارى وعلى كل واحدة من الحلى مالا يقل عن مائة أوقية من التبر يظللان على مولاتهن بالاردية الحريرية وقد شاهدت اكثر هاته العقيلات متسولات فى الاسواق فسبحان المعز المذل

وفي ذات يوم كنت جالسا بالقرب من مقصورة التعايشي فقال له أحد جلسائه ان بنت صالح زعيم الكبابيش تبيع الحانوت يوما فاظهر الأسف وقال من الواجب علينا اكرامها وأرسل في طلبها فجاءت فسألها عن حالها فاجابته واكثرت من الثناء والاطراء عليه فامر أحد غلمانه باعطائها شيأ من النقود ضمته فى كفها وخرج الناس وراءها ليعلموا مقدار جائزتها فاذا هى سبعة ريالات من عملة النحاس تقدر قيمتها بسبعة قروش مصرية فقالت المرأة انظروا لجائزة الخليفة ومبلغ إكرامه لمثلي

هذا وجملة القول ان قبيلة الكبابيش بادت ولحقت بغيرها من القبائل والدوام لله وحده

ذكر القبض علي شارل نيوفيلد

شارل نيوفيلد ألماني استوطن اصوان مزاولا مهنة الاتجار بتقديم لوازم الجيش في الحدود فاحرز من هذه الحرفة ثروة واقتنى عقاراً وزاد في ثروته انه منذ بداية أمره كان يحسن معاشرة الوطنيين ويتشبه بهم في الاخلاق والعادات حتى كأنه واحد منهم ولم يظهر على ملامحه انه متكلف لهذا التشبه حتى نال حظوة عظيمة عند جميع السكان زادت في نجاحه وفتحت في وجهه

أبواب الكسب وساعدته على احراز الثروة

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ انفذ الشيخ صالح زعيم قبيلة الكبابيش الذي تقدم لنا خبر قتله وفداً الى الحكومة الخديوية يسالها امداده بالاسلحة والذخيرة ليقوى على دفع غارة المهديين عن نفسه فاعطت الحكومة رجال الوفد مائتي بندقية من طرز رامنجتون بذخيرتها وأخذوا في الاهبة والاستمداد لاختراق صحراء الجمب من حلفا الى منازل قبيلتهم وفي إبان ذلك اجتمع شارل نيوفيلد بتاجر من أهل كردفان اسمه خوجال أم برير فقال له التاجران لدي كمية وافرة من الصمغ والعاج وريش النعام فاتفقا على ان يذهب نيوفيلد صحبة وفد الكبابيش وبواسطة نفوذ زعيمهم يخترق بقية الصحراء الي الابيض ومن هناك يحمل الصمغ والعاج وريش النعام بغير ان يشعر به أحد من دراويش المهدوية وقد جعل له خوجال نصيبا وافرا من تلك السلع نظير مخاطرته التي يتعذر معها نجاحه ووصوله الى مقصده

وقد عرض نيوفيلد أمره على ولاة الامور في الحدود فلم يمانعوه فغادر حلفا صحبة الوفد ومعه محظية حبشية وكان دليل الوفد ميالا لجهة المهدويين فابلغ عبد الرحمن النجومي الذى كان وقتئذ في دنقلة وأطلعه على خطة سيره وارشده الى المكان الذي يقابلهم فيه المبعوثون من عنده فسار شارل نيوفيلد مع الوفد وهو لايعلم شيأ من القدر المخبوء له فسار بهم الدليل فى بادية معطشة حتى وفقدوا الماء مدة أربع وعشرين ساعة

وكان النجومي قد أنفذ وراءهم خمسمائة راكب تحت قيادة محمد حمزة الانقريابى وبينما كانت القافلة سائرة والظمأ قد بلغ غايته من رجالها والدليل يعدهم بقرب الوصول الى الماء اذ داهمهم العدو على غرة وتمكن من أثقالهم فانحاز

الرجال الى ربوة مرتفعة واطلقوا النيران دفاعا عن انفسهم فهلك من هلك وأخذ الباقون اسري وصعد نيوفيلد على مكان آخر مفضلا الموت على الوقوع في اسر أولئك الطغاة المتوحشين فامسك العدو محظيته وجعلها بعضهم كترس يتقي به مقذوفات مولاها الذي شلت يمينه عند ماتحقق انه يقتل محظيته اذا أصر على عزمه الاول فاسلم نفسه ووقع أسيراً في يد العدو الذي جرده من ملابسه ووضع الاغلال في عنقه وساقه ماشياً على قدميه حتي لمغ دنقلة بعد مسيرة عدة ايام فامر عبد الرحمن النجومي بصلب أسرى الكبابيش وارسال شارل نيوفيلد الى الطاغية التعايشي بام درمان

ولما أوقف بين يدى التعايشي صاح قائلا هذه صفة الكافر التى وصفها لنا المهدى ثم عرض عليه اعتناق الاسلام فابى فامر بصلبه فسيق الى محل (المشنقة) ثم ارجعوه الى التعايشي وهكذا فعلوا ثلاث مرات وبعد ايام رضى باعتناق الاسلام دينا ونطق بالشهادتين واذ ذاك أمر التعايشي بزجه في السجن حتي اطلقه اللورد كتشنر باشا وسنعود الي ذكر بقية حوادثه والله الهادى

ذكر حروب الاحباش الي قتل النجاشي يوحنا

تقدم لنا ذكر اول واقعة جرت بين المهديين والاحباش التي انتصر فيها الرأس الولا على عثمان دقنة في كوفيت وقبل الكلام على هذه الحروب نذكر طرفا يتعلق (بالقلابات) وما يتبعها من بلاد (القضارف) مواطن تلك الحروب الهائلة فنقول

القلابات اسم لبلدة على شاطىء نهر (اتبره) جنوب القضارف وهي آخر حدود الحكومة الخديوية في بلاد الاحباش من جهة الجنوب بالنسبة لموقع بلاد القضارف

وكان سكانها الاقدمون من دكرور السودان الغربي ولا نعلم كيف جاؤا من بلادهم واخترقوا السودان من الغرب حتى وصلوا لآخر نقطة من شرقه الجنوبي وكان أولئك السكان يؤدون جزية لمملكة الحبشة

ولما احتلت الحكومة الخديوية السودان جعلت القلابات من أهم المواقع التي حصنتها لدفع غارة الاحباش عن بلادها وكان آخر زعيم من أولئك لدكروريين صالح شنقه الذى نال من الحكومة الخديوية لقب بك واستمر على دفع الجزية للاحباش كما كان اسلافه

أما القضارف فانها البلاد الواقعة شمال القلابات يحيط بها نهر (اتبره) من جهتي الجنوب والشرق وهي بلاد مخصبة جداً وتجارتها واسعة وفيها من النباتات مالا يوجد في السودان كله ومن ما يحمله الجمل من الذرة من نوع اسمه (الكرق) يخالف الذرة الرفيعة بعظم حبه وبياض لبه الذي يستخرج منه مواد نشوية تشبه ما يستخرج من الارز بضعة قروش مصرية وفي بلاد القضارف غلة تشبه الحلبة في اللون الا ان طعمها كالشهد فى الحلاوة اسمها (الشمشم) تغلي على النار بالماء فتتحول الى حلاوة الشهد فيأكلونها ويشربون ماءها

وعاصمة هذه البلاد تدعى (ولد أبو سن) وهي مدينة كبيرة فيها منازل مشيدة باللبن الاحمر والآجر وقصور شامخة مشيدة بالاحجار وأصحابها تجار مصريون وسوريون ويونان وبعض من الفرنسويين والارمن

وحول هذه المدينة حدائق غناء وفواكه لذيذة كالعنب والتين والقشطة والموز والرمان والبورتقال ومن أعجب ما علمته عن القضارف ان النخل يثمر فيها مرتين فى السنة وكذلك العنب الذى يثمر مرتين فى السنة

مرة في الشتاء وأخري في الصيف موجود فيها وفي الخرطوم

وفي القضارف مدن أخري غير عاصمتها يسكنها اتراك ومصريون ويونان وارمن وهي لا تقل عن عاصمتها وأشهرها (عصار) و (دوكه) وسكان القضارف قسمان سكان القري وسكان البوادي الذين جلهم من قبيلة (الضباينة) التي تقدم لنا ذكر زعيمها محمود عيسى زائد وكلتاهما متوفرة لديها أسباب المعيشة ومتحصلة على نعومة العيش من أسهل الطرق وأقربها وسيأتي ذكر خراب تلك البلاد وانها الآن قفر ليس فيها عشرة آلاف ساكن بعد ان كان تعداد سكانها يربو على مليون نسمة

وكان لعوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية الذى قتله التعايشي صبرا ابن اسمه عبد الله أمه من قبيلة الجعليين مال الي اخواله ورغب عن خطة والده وقومه الشكرية وعدولهم عن قبول دعوة المهدوية وقدم على المهدي الذي ولاه الدعوة له في القضارف فقام بها وأدخل البلاد في دعوة المهدى

وكان في منزل صالح شنقه زعيم دكروري القلابات رجل يعلم الصبية القرآن الشريف فلحق بالمهدى وعاد من عنده يحمل أوامره بالدعوة له في القلابات فانسحبت حامية القلابات الي بلاد الحبشة انفاذاً للمعاهدة التى أبرمت بين الاحباش والحكومة الخديوية فاحتل ذلك الداعية القلابات باسم المهدى ومنع اداء الجزية للاحباش الذين كانوا وقتئذ مشتغلين بدفع غارة الايطاليين عن بلادهم في الجهات التي تلي ساحل مصوع واسم هذا الداعية محمد بن ارباب وغادر صالح شنقه القلابات مع الحامية ولم يشأ البقاء فيها

هذا وقد كانت دعوة المهدوية قد دخلت في بلاد الحبشة على يد رجل من أمراء الاحباش المسلمين اسمه محمد جبريل وفد على المهدي قبيل وفاته

بايام قلائل فاعاده الى بلاده بمنشور دعا الاحباش فيه الي اعتناق الاسلام وطرح النصرانية والاجتماع على طاعة محمد جبريل لقتال الكفار وهاهى صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى أهالي (قيرا وقوما وقما وحما ولموا والنارية بلد البن وليكاونونوا ولي بن وهروسي وقبا وكفاه وكونتا وكويشاوشتا وقونه ولا مواواباوروكوا ونبوا وسوروا) وفقهم الله لطاعته واتحفهم برضاته آمين بعد السلام عليكم اعلموا وفقكم الله لما يحبه ويرضاه وجعلكم من الفائزين ان الدنيا قد ولت مدبرة وان الآخرة قد تزينت مقبلة ومع ذلك فانما في الدنيا خسيس جداً وما في الآخرة نفيس جداً وعلى العاقل ان يسعي لنفيس دائم ويعرض عن خسيس فان وكثيراً ما حل بابناء الدنيا من الدمار والحسرات وكثيراً ما اجتبي الله ابناء الآخرة ورفعهم اعلا الدرجات وأجزل لهم المسرات وأنواع الخيرات وان الله تعالى قد أظهرنى رحمة للمؤمنين وبغية للصالحين وسيفا قاطعا للملحدين فمن أراد الله سعادته ونجاته من خزي الدنيا والآخرة لباني وأجاب دعوتي ونصرني وآواني ومن غلبت عليه شقوته أعرض ونأى وكذب وعصي فمن لبانى فاز ونال من الخير العميم مالا يعد ولا يحصى ومن أعرض فقد دمره الله وخذله خذلانا مبينا وحيث فهمتم هذا البيان فاني على حسب المصلحة الدينية قد عينت لكم السلطان محمد جبريل عاملا عليكم في دين الله لاقامته ودعاية العباد الي سلوك سبيل الرشاد فينبغي بوصول هذا عندكم ان توازروه وان تشدوا

عضده وتسمعوا أمره ونهيه مادام على الحق والصدق وان تحاربوا معه كل من ضل واعرض عن الاتباع. وسلك طريق الغواية والابتداع. ولا تركنوا الى الراحة والبطالة فان الجهاد فضل عميم. وثواب جسيم. منوه عليه بسواطع أدلة القرآن العظيم. وأحاديث النبي الكريم. وكفى من ذلك قوله تعالى «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم» الآية وقوله صلى الله عليه وسلم «رب غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» أو كما قال وحيث كان كذلك فاذا وصلكم جوابي هـذا فشمروا في طاعة الله ورسوله وابذلوا أرواحكم فى نصرة دين ربكم بحيث من كان منكم على دين النصرانية يرفضه ويدخل الاسلام ويبادر بالتسليم والانخراط في سلك المهدية قال تعالى « ان الدين عند الله الاسلام» «وانيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس ياحسرتي على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين تري العذاب لو أن لي كرة فاكون من المحسنين » فرد الله على من هـذا حاله بقوله « بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ويوم القيامة تري الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » الآية فهذه الآيات وما ماثلها مما يرغب فى دين الاسلام والتسليم لامر المهدية وينفر عما سواه وأما من كانوا منكم على دين الاسلام فتأييده وتشييده هو غايه مقصودهم فليشمروا فى نصرتنا ابتغاء مرضات الله ادام الله توفيقكم وجعلكم من

عباده المؤمنين آمين وفي هذا كفاية لمن له قلب والسلام ١١ شعبان سنة ١٣٠٢
وأنت أيها الامير محمد جبريل أوصيك بتقوي الله فى سرك وعلانيتك وإيثار آخرتك على دنياك وأن لا تقدم على أمر مالم تعلم حكم الله فيه فان الامارة خطرها عظيم وخطبها جسيم ولا بد لصاحبها من الخلود في النعيم المقيم أو العذاب الاليم قال تعالى «فاما من طغي وآثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوي» ونظرا لذلك فان امارتنا لك معلقة على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيرت أو بدلت فلا امارة لك فافهم ذلك واسترشد به ولكمال المعلومية لزمت التحشية فى تاريخه

هذا ولما دخلت دعوة المهدوية فى بلاد الاحباش ادرك النجاشي يوحنا خشونة مركبه ومغبة أمره حيال هذه الدعوة التى هاله انتشارها فلم ير وسيلة لدفع شرها غير التدرع بالجبروت ومقاومة دعاتها بضروب القوة والقهر بيد أنه تغالى في هذا السبيل حتي فقد الروية والنظر القصى للعواقب فانشب مخالب الاضطهاد الديني فى مسلمى رعيته وخالف تقاليد اسلافه حيث اكره نحو مائة الف من أهل القبلة على اعتناق النصرانية وعذبهم عذابا اليما

على ان حرية الاديان فى بلاد الحبشة كانت لا تزال بالغة حد الكمال حتى ان شقيقة النجاشي يوحنا اعتنقت الاسلام وتزوجت باحد الامراء المسلمين فلم يمنعها أخوها ولم ينقصها شيأ من الاحترام الواجب لمثلها

وقد قام كثير من أمراء الاحباش المسيحيين ومحضوا النجاشى النصح بالعدول عن هذا الاكراه فلم يكترث بنصحهم وظل على رأيه الفائل وكان منيليك نجاشى الحبشة الحالي أول معترض على عمل النجاشي يوحنا

وعلى أثر ذلك نزح كثير من مسلمي الاحباش ولحقوا بالتعايشي فولى عليهم رجلا منهم اسمه (محمد فقرا) وعسكروا في الشمال الشرقي من القلابات عند نهر (اتبره) بالقرب من جهة (العراديب)وسموا معسكرهم (تبارك الله)

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ وفد على التعايشي محمد أرباب أمير القلابات فأكرم وفادته وأعطاه أسلحة نارية وخيولا وأعاده الى القلابات وأوصاه بالغارة على اطراف بلاد الاحباش فاغار عليها في تلك السنة وخرب عدة قري وأحرق الكنائس واتلف ما فيها من التماثيل وكذلك أغار محمد فقرا على القرى التى هى حيال معسكر (تبارك الله) واثخن فى أهلها

وكان فى جهة (غبته) اعرابى اسمه عجيل الحمرانى فى السودان الشرقي فر باكثر قبيلته من وجه المهدويين ولجأ الى بلاد الاحباش فامدوه بالاسلحة ووكلوا به الدفاع عن حدودهم في جهة(غبته)فكان يوالي الغارة على القري التي على ضفة نهر (اتبره)وكانت غاراته لا يلحق المهدويين منها أقل ضرربل كان شرها واقعا على الضعفاء سكان تلك القرى الذين دخلوا في طاعة المهدويين قسراً

وفى أوائل سنة ١٣٠٤ تواترت الاخبار بتقدم الاحباش الى معسكر القلابات و (تبارك الله)

وفي أوائل شهر ربيع الآخر سنة ١٣٠٤ هجم الراس عذار على محمد أرباب في القلابات وقتله واكثر مقاتلته وفر الباقون الي(القضارف) وهجم جيش حبشي على محمد فقرا فى (تبارك الله) ففر بجميع مقاتلته عند ترائي الجمعين ولحق بالقضارف أيضا وطارت الاخبار بذلك الى التعايشى فى أم درمان فانتدب يونس بن الدكيم فى عشرين الف مقاتل فسار من أم درمان الي

القلابات فوصلها فى شهر رجب وانسحب الاحباش منها بغير قتال

ولما استقر يونس بجيشه فى القلابات بذل الامان لتجار الاحباش فجاؤا اليها بسلعهم فوثب عليهم وصادر أموالهم وساقهم اسرى يرسفون فى القيود والاغلال الي أم درمان فاذاع التعايشي بين الناس ان يونس غزا بلاد الحبشة وخرب عدة مدن واستولي عليها وأن هؤلاء اسري تلك الوقائع ولم تمض أيام حتي ظهرت الحقيقة وعلم الكل ان أولئك الاسرى كانوا تجارا أمنهم يونس ثم غدر بهم ونهب أموالهم وساقهم اسرى الي التعايشي

أما يونس الدكيم هذا فانه تعايشي من قبيلة التعايشة وكان فقيراً لا يملك شروى نقير وهو أحد أزواج والدة التعايشي قدم على المهدي فى الابيض وبقى مع التعايشي يقاسى من شظف العيش أمره حتى توفي المهدي فجعله التعايشي قائدا على نحو عشرين الف مقاتل وله نوادر مضحكة تدل على سخافة عقله. منها ان الناس كانوا يأتونه فاذا وقفوا بين يديه صوبوا نظرهم الى الارض فيقول لهم لماذا لا ترفعون ابصاركم نحوي فيقولون وهل يستطيع أحد النظر الى وجهك الذي يفوق وجه السبع فيرتاح الي ذلك ويأمر بعزف الطبول ويركب جواده ويأمر مقاتلته باطلاق النيران فى الهواء . ومنها انه اذا جلس بين اتباعه فلا كلام له غير الثناء على نفسه ومنها انه كان يقول اذا التقينا بجيوش الترك نقتل في الدقيقة مئات منهم ونخترق صفوفهم ونزحزحهم عن مواقفهم الي غير ذلك من الاكاذيب فقد علم الخاص والعام ان يونس هذا من أجبن خلق الله وانه يفر من مواطن القتال كما تفر النعامة من صفير الصافر

ومن أعجب خرافاته انه كثيراً ما كان يقول انه سيفتح لوندرة عاصمة الانكليز وانه سيتزوج باكرم عقيلاتها

وصلى بالناس مرة صلاة الظهر ثماني ركعات فقال له أحد الحاضرين اسجد للسهو فغضب وقال وهل أنا جاهل حتي يرشدني مثلك فان سجود السهو لا يكون للزيادة بل للنقص لان العبد اذا أمره مولاه بحراثة أربعة أفدنة مثلاً من أرضه ثم رأى نفسه قادرا على حراثة ثمانية أفلا يكون ذلك موجباً لرضى مولاه عنه بخلاف مالو أمره بحراثة أربعة أفدنة فحرث ثلاثة أو اثنين فان هذا النقص يكون موجباً لغضب مولاه عليه وحينئذ يجب ان يقدم المعذرة وهذان المثلان ينطبقان على الصلاة ثم أمر بالرجل فجلد بالسياط حتى مزق جسمه وسيق الى السجن وخزعبلات يونس كثيرة يضيق المقام دون سرد القليل منها والحاصل انه كان جاهلا سخيف العقل ظلوما غشوما قاتله الله

وفي أوائل سنة ١٣٠٤ استقدم التعايشي حمدان أبا عنجة من الجبال فقدم في جيش عرمرم ومكث بام درمان بضعة شهور ثم انفذه التعايشي الى القلابات لتعزيز الحامية التي بها حتي تصبح قادرة على أخذ الثار من الاحباش فسار أبو عنجة قاصداً القلابات وبينما كان سائرا في الطريق بلغه ظهور رجل فيها ادعي انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه

ولما وصل أبو عنجة الى القلابات وعرض على يونس أوامر التعايشي بتوليته القيادة العامة على الحامية أرسل يونس يبلغ التعايشي ذلك الخبر فامره ان يسير حيال هذه المسألة بماضي عزيمته المعروفة مطيعا لابي عنجة

أما ذلك المتنبي فانه من أهل دكرور وله معرفة بضروب السيمياء والشعوذة حتى انه كان يصنع امام الملأ اشياء من تلك الخزعبلات يخالها الرائي حقيقة لا ريب فيها

وأصل ذلك الدكروري من جيش يونس الدكيم غادر أم درمان معه وكان أحمق طائشا حدثته نفسه بانه سيبلغ أربه من انتحال دعوي انه عيسي روح الله لما اشتهر من ان نزول المسيح عليه السلام يعقب ظهور المهدى المنتظر فجهر بدعواه وصنع امام الناس خيالات من السيمياء ظنها دراويش المهدي الاغبياء من أعظم المعجزات فآمنوا بذلك الكذاب وبايعوه علي الطاعة العمياء وبايعه سبعة عشر قائدا من اكبر قواد جيش المهدوية الذين مع يونس ولم يداخلهم ادنى شك في صدق ما ادعاه

ومن العجب ان بين أولئك القواد ابن بقارى وهو فقيه من عائلة بقارى التى لها مدرسة يؤمها طلاب العلم في جزيرة السودان

وعرض السبعة عشر قائدا أمر تلك النبوة على قائدهم العام يونس فرافقهم الي محل الرجل ورأي من خزعبلاته ماراج على عقله الذي هو اكثر سخافة من عقول قواده السبعة عشر الا انه خاف عاقبة الاسترسال فى هذا الامر فارسل يبلغ التعايشي بتفصيل المسألة سرا

ولما وصل أبو عنجة الي القلابات ومعه اكثر من أربعين الف مقاتل وكثير من المدافع والسواريخ وبضعة آلاف فارس أحاط بالمعسكر احاطة السوار بالمعصم واستدعي يونس ووضع يده على مخازن الذخيرة واستولي على الجبه خانة ثم قبض علي المتنبي وسأله عن دعواه فقال انه جاء بعد المهدى وان الله أرسله لشد عضد التعايشي فقال له ألست فلان بن فلان ولا تزال امرأتك وبنوك بام درمان فاجاب بالسلب فامر بصلبه فصلب ثم قبض على السبعة عشر قائدا الذين صدقوه وقال لهم هاهو صاحبكم مصلوب فقالوا كلاّ بل شبه لكم وقرؤا قوله تعالى «وما قتلوه وما صلبوه» الآية فامر بهم فصلبوا

وعادت المياه الي مجاريها وتبددت غياهب الفتنة التي كنا نظن انها تأتي بانقلاب يكون من ورائه فرج قريب وما ذلك الا لانا كنا كالغريق يتشبث بسعفة تتقاذفها الامواج

ثم استدعى التعايشى يونس الدكيم الي أم درمان وعنفه على ما ظهر من خوره وضعف عزيمته حيال دعوى ذلك الكذاب وسيأتى ذكر تعيينه على دنقلة

ولما اتصل بالتعايشى نبأ مهلك ذلك الكذاب خرج ذات يوم وبيده منشور فرقي المنبر الذى أعده للخطابة وكان منبر المسجد العام في الخرطوم فنقله الى أم درمان وأعده للخطابة وقص على الناس أمر ذلك المتنبي ثم دفع المنشور الي من يقرأه وفيه بعد البسملة والحمدلة مانصه

وبعد فيقول عبد ربه خليفة المهدى عليه السلام الخليفة عبد الله بن السيد محمد خليفة الصديق وأمير جيش المهدية لما أتى الخبر بصلب الشخص المدعى كذبا انه نبي الله عيسى وصلب أعوانه الذين صدقوه داخلتني شفقة شديدة على هؤلاء لانهم من أصحاب المهدى عليه السلام الاقدمين فاستغفرت الله لهم فانكشف لي حالهم انكشافا روحيا فرأيتهم بعيني في طبقات جهنم وابن بقاري فى الطبقة الاخيرة منها وقد شفعت فيهم لجاء النبي صلي الله عليه وسلم والمهدى عليه السلام فقالا لي انهم ماتوا وهم كفار ولا شفاعة فيمن يكفر بالرحمن اه ملخصا

على انا نستدرك هنا تفصيل شيء من الشعوذة التي أثرت على عقول أولئك الاغبياء فنقول ان هذا الرجل كان يدعو الاشجار فتسعى اليه واذا سألوه المطر فى غير أوانه جادت السماء بمطر كأفواه القرب ولكن لا يتجاوز

دائرة جلوسه وانتفخت جثته مرة فملأت غرفة كان فيها وخرجت من نوافذها وزارهم مرة اشباحاً في الفضاء لم يشكوا في انها ملائكة السماء نزلوا لخدمته وموازرته وبالجملة فان هذا الرجل كان بارعاً في الشعوذة متضلعاً من علم السيمياء بكيفية لايدرك كنهها أولئك الاغبياء

ذكر فتح قندر بالحبشة

لما استقر حمدان ابو عنجة في القلابات سار الى (قندر) عاصمة مملكة الاحباش القديمة في ألفي فارس وألفي مسلح ببنادق رامنجتون فالتقي بنحو عشرة آلاف فارس من الاحباش في ضواحي المدينة ورفعت الحرب اوزارها بضع ساعات ثم انجلى القتال عن هزيمة الاحباش وتمزيق جيشهم شذر مذر وسقط منهم ستة آلاف قتيل في ساحة النزال

ودخل ابو عنجة المدينة ونهبها جنوده وغنم منها شيئاً كثيرا من الذهب والفضة وعددا ينيف على العشرة آلاف رأس من الخيول والبغال ونحو ثلاثة آلاف نسمة من النساء والغلمان بيعوا أرقاء والنساء بينهن فتيات في منتهى الحسن والجمال ألوانهن تكاد تضارع ألوان المصريات خلافا لما عرف من ألوان الاحباش الذين كانوا يجلبون فيما مضى من الازمنة الي مصر والسودان

ثم دخل الكنيسة وهشم مافيها من التماثيل وقتل القسس واحتمل ما فيها من الآنية ذات القيمة واضرم النار في المدينة كلها وقفل راجعا الي القلابات

وأرسل للتعايشي بعدد عظيم من الغلمان والفتيات ونحو الف رأس من البغال وخمسين حمارا وقسم بقية الغنائم على رجاله بعد ان أخذ ما اشتهاه منها

وارسل مقداراً عظيماً أيضاً من التبر والفضة الى يعقوب اخي التعايشى

وبذل أبوعنجة الامان لتجار الاحباش وعاهدهم على ان لا يأخذ منهم غير خمس سلعهم فهرعوا الى القلابات بتجارة البن والعسل والسمن والقمح وغيرها من محصولات بلاد الحبشة فكان يتحصل من هذه الضريبة مايقرب من نفقات أبي عنجة وحاميته

وفاة ابي عنجة وولاية الزاكي طمل

في رجب سنة ١٣٠٦ توفى حمدان أبوعنجة على أثر تناوله مسهلاً ودفن بالقلابات وتبادل الناس اشاعة ان احدي محظياته واحبهن اليه دست له السم في ذلك المسهل فاستدعاها التعايشي اليه وكانت ذات جمال باهر فدهش لدى وقوع بصره عليها وتلعثم لسانه عن استنطاقها عن الجناية التي اتهمت بها فامر بادخالها الى منزله ولم يجسر بعد على سؤالها عن شيء كيلا يسوءها سماعه ولم يكتف بذلك بل حظر على الناس الكلام في هذا الصدد

ولما اتصل بالتعايشي نبأ وفاة أبي عنجة جزع جزعا شديداً وظهرت عليه علامات الحزن والكآبة فانتدب قاضي الاسلام أحمد على ومعه أربعة قضاة ليسافروا الي القلابات ويحملوا الاوامر بتولية الزاكى طمل بدل حمدان أبي عنجة

والزاكي طمل هذا تعايشى أحد أبويه من عبيد (البنضلة) وكان خادما في إحدى شركات النخاسة في النيل الابيض وكان جباراً قاسياً ظالماً سفاكا للدماء وسيأتي ذكر خبر قتله

واقعة القلابات وقتل النجاشى يوحنا

ما فتئ النجاشي يوحنا منذ واقعة (قندر) يتأهب لاخذ الثار وجلاء

العار وجواسيس التعايشى يرفعون اليه في كل يوم أخبار تأهب النجاشي للغارة على القلابات فلذا صار يوالى ارسال الامداد وأمر بتحصين القلابات بزريبة من الشوك حصينة لا يمكن تسورها تبلغ مساحتها عشرة آلاف متر تقريبا

وأعلن النجاشى قومه انه زاحف الى القلابات في وقت عينه قبل أوان الزحف بالفعل ببضعة شهور فعلم التعايشي بالامر وقبل حلول الاجل هلك حمدان أبو عنجة فارسل التعايشى أحمد على القاضى ومعه أربعة من القضاة حاملين أوامر تولية الزاكى طمل وقد أسر اليهم ان يراقبوا الحركات الحربية حيث اقترب ميعاد زحف الاحباش على القلابات

ولما وصل أولئك القضاة الي القلابات تلقاهم الزاكي طمل بالاكرام واغدق عليهم العطاء الوافر من أصناف الرقيق والنقود

وفي شهر شعبان سنة ١٣٠٦ هجرية هجم النجاشي يوحنا على (القلابات) في مائتى الف مقاتل تقريبا جلهم من الفرسان واحاطوا بالقلابات وضربوا خيامهم حولها وجلس النجاشي امام خيمته يحيط به خدمه وحشمه ووزاؤه وهجمت جيوش الحبشة على القلابات هجمة الاسود على فرائسها واضرموا النار في الزريبة فتقهقر الدراويش الى الجنوب واستولي الاحباش على نسائهم وأولادهم ونهبوا دورهم

وبينما كان الاحباش مشتغلين بالنهب وصل الي الدراويش مدد من جهة الشمال تحت قيادة فرج الله باشا السودانى الذي كان قومندان نقطة أم درمان الذي جعله المهدى قائدا من قواده بعد ان سلم له وقد تقدم ذكر ذلك

وكان هذا المدد بضعة آلاف من الجهادية المسلحين بالاسلحة النارية

وهم من جنود الحكومة القدماء فتقدم فرج الله باشا بجنوده وأطلق النار على الاحباش فاصيب النجاشي يوحنا برصاصة وهو جالس امام خيمته فقضت على حياته في الحال وانتشر خبر موته في عسكره فولوا منهزمين وساقوا السبي امامهم فتأثرهم الزاكى طمل حتي ارخى الليل سدوله فالقوا عصا التسيار التماسا للراحة فداهمهم الزاكي في الغلس على غرة ووضع السيف فى رقابهم فانتبهوا من نومهم مذعورين وقتل منهم خلق كثير وفر الباقون واستخلص السبي من أيديهم وأرشدهم أحد الرواد الى تابوت وضعت فيه جثة النجاشى ففتحوه وحزوا رأسه وقبضوا على سائر اسلابه ومن بينها تاج مرصع بالاحجار الكريمة وخاتمه وملابسه وعاد الزاكي الي القلابات مسروراً وغادر أحمد على ومن معه من القضاة (القلابات) يحملون بشرى الانتصار الي التعايشى ومعهم رأس النجاشى وسائر الاسلاب

أما سرور التعايشي بهذا الانتصار فانه مما يعجز القلم عن وصفه حيث مكث أربعين يوما يذبح البدن ويدعو الناس الى تناول الطعام على قصعته المعلومة ولا حديث له غير هذا الانتصار وقد سمعته مرة يقول لمن حوله هل فى الدنيا دولة تضارع الحبشة فيقولون كلاّ فيقول ان فتح مصر لايكلفنا ما تكلفناه فى الانتصار على الاحباش فيجيبونه بان حرب أوروبا برمتها أسهل من حرب الاحباش ثم أخذ يقول ان النبي صلي الله عليه وسلم أخبره بهذا الانتصار قبل وقوعه ببضع سنوات ثم قال ان المهدى عليه السلام أخبره بان ترك الحبشة الذي أشير اليه فى الحديث الشريف مغيّ بزمن الخليفة عبد الله التعايشي

ولما نصبت رأس النجاشي يوحنا فى السوق ووضع تاجه وسائر اسلابه

فى مقصورة المسجد هرع الناس لرؤيتها وهم يشكون فى صحة هذا النبا ويقولون ان هذه الاسلاب قد سرقها بعض الجواسيس من معسكر النجاشي وأوصلوها الي التعايشي

هذا وقد كنت أنا وسائر الذين يترقبون الخلاص من نير المهدوية نود من صميم افئدتنا انتصار الاحباش وفوزهم على الدراويش في القلابات عساهم يتقدمون منها للاستيلاء على بقية السودان ولذا جاءت أخبار هزيمتهم بعكس ما كنا نود فسبحان من يؤتى النصر من يشاء

شان خط الاستواء والمهدويين

أورد تحت هذا العنوان حوادث خط الاستواء مع المهدويين فاقول ذكرت فى أوائل الجزؤ الاول الاسباب التي حملت الطيب الاثر غردون باشا على فصلي عن ولاية أقاليم خط الاستواء وبينت باسهاب المساعى السافلة التى بذلها أمين أفندى طبيب الحامية وقتئذ لنيل أمنيته من الولاية على أقاليم خط الاستواء وكيف دفع السائح (ينكر) على الوشاية بى عند غردون باشا حتى عاملني بالمعاملة القاسية التي شرحتها ثم ما كان من أمر ظهور براءتى عنده بارشاد الضابطين اللذين كشفا له حقيقية المسألة

وعلى أثر هاته الحادثة امتلأ غردون باشا غيظاً من أمين أفندي وتبدلت ثقته ومحبته فيه بوصمه بالخيانة والكراهية

ثم لما عدت مع غردون الى الخرطوم فى المرة الثانية وتحادثنا في شؤن كثيرة عن خط الاستواء علمت من حديثه انه حاقد على أمين بك حاكم خط الاستواء سيئ الظن به

ولما استولى كرقساوي على أقاليم (بحر الغزال وشكا وحفرة النحاس) غزا حدود خط الاستواء وعاد دون ان يظفر بشيء منها

وفي سنة ١٣٠٥ كان بام درمان رجل اسمه عبد الله الطريفي وهو عم الحاج الزبير الذى ذكرنا فى أول خلافة التعايشي انه أرشده الى سلوك الطريق الذى سار عليه وكان عبد الله الطريفى هذا جابياً من قبل المهدوية فى إقليم القضارف فاغتال منه مالا جزيلا باتحاده مع ابن أخيه الحاج الزبير وفي سنة ١٣٠٤ أرسل التعايشى الى (القضارف) من أوقفه علي خيانة الحاج الزبير وعمه عبد الله الطريفى فقبض عليهما واستصفى ما اغتالاه من المال وزجهما فى السجن وبعد بضعة شهور أطلقهما وجعلهما تحت المراقبة النظرية فعمدا الى وسيلة يتقربان بها اليه فدخل الحاج الزبير علي التعايشي وأخبره ان عمه عبد الله الطريفى كان نخاسا فى جهات خط الاستواء وله معرفة جيدة بأخلاق وعوائد أهالى تلك البلاد وأبان له الثمرات التى تعود من فتح خط الاستواء من جلب العاج وريش النعام والارقاء من تلك الديار فعول التعايشي على انفاذ عبد الله الطريفي لفتح تلك الاقاليم

وعبد الله الطريفى هذا كان نخاسا وفى بداية ظهور دعوى المهدوية قبضت عليه الحكومة وسجنته لاتيانه أمرا من انواع الحيل وذلك انه كتب على بيض الدجاج لفظ الشهادتين وبعدهما ذكر اسم المهدى الذى عدهذا التزوير من كراماته وكان عبد الله الطريفى هذا ذادهاء وحيل ومكر سيء

ولما صمم التعايشي على انفاذ حملة لفتح خط الاستواءاستدعاني الى داره فذهبت اليه وانا فى وجل شديد من هذه الدعوة فدخلت عليه فالفيته جالساً وحده فلما وقع بصره عليّ هش وبش فقبلت يده وجلست على الارض

امامه وقد ذهب روعي لما آنست من بشاشته فخاطبني بما يأتي .

يا ابراهيم فوزي اني عزمت على انفاذ حملة لفتح أقاليم خط الاستواء وبما انك كنت حاكما عليها فانى أود انفاذك اليها لتكون مرشداً صادقاً ومستشاراً أميناً لقائد الحملة واني أود ان تكون راضيا بالقيام بهذه المهمة التي أعهد اليك القيام بها لانني عالم بانك صرت من أخلص المخلصين لنا .

فاجبته بأني أشكر مولاى على ثقته بى واعاهده على القيام بما عهد الى بالصدق والوفاء . فسره هذا الجواب واعطاني عشرة ريالات وتناولت معه الغذاء على قصعة الضيوف وانصرفت الي منزلى مملوء الجوانح بالسرور وقد رايت انى استطيع النجاة من اسر هؤلاء البرابرة المتوحشين لدى وصولى الي خط الاستواء فقضيت ليلتي لايزورالكرى جفني لشدة ماداخلني من السرور الذى تلاه الترح حيث استدعانى التعايشى الى مجلس حافل بالقضاة والخلفاء وارباب الشورى وبعد أن شكرني علي قبولى القيام بمهمة الدلالة لقائد حملة خط الاستواء عبد الله الطريفى قال لى انى اخشى عليك متاعب السفر واود ان تكون قريبا منى ولذا أقلتك من مأمورية مرافقة عبد الله الطريفى ولكن اكلفك بوضع رسم مشفوع بالتعليمات التي يجب العمل بها اذا وجدت بواخرنا النهر مسدوداً فوعدته باحضار الرسم في الغد وبعد خروجى علمت ان سبب تاخيري ان عبد الله الطريفى وابن اخيه الحاج الزبير وشيابى عنده حيث قالا له ان ابراهيم فوزي كان حاكما لاقاليم خط الاستواء وقد شهد وقائع فتحها مع غردون باشا وانه من أعرف الناس باخلاق وعوائد أهلها وانا نخشى من مغبة وصوله الى تلك البلاد اذ بذلك يمكنه ان يأتى أي عمل يريده من ضروب الاضرار بنا وانه اذا لم يستطع ذلك فانه يستطيع

الفرار الى ماوراء بحيرة فيكتوريا نيانزا فأثرت وشايتهما على التعايشي وعدل عن انفاذي مع تلك الحملة

هذا وقد اشتغلت ليلتي بعمل الرسم وتدوين التعليمات وفي اليوم التالى قصدت دار التعايشي فالفيته جالسا ومعه الذين كانوا معه بالامس وغيرهم من الامراء وهو يلقى التعليمات على عبد الله الطريفى قائد الحملة فقدمت له الرسم فتناوله كاتبه واوقفه على كل مافيه فالتفت الىّ وشكرنى وقال اننى عزمت على انفاذ الحملة ووجهتها كيت وكيت فهل عندك نصيحة فقلت نعم يا مولاى وقد مالت نفسي للانتقام من عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير لوشايتهما التي سدت في وجهى بابا كنت أرجو الخلاص بولوجه

فقال التعايشي هات ماعندك فقلت ان عبد الله الطريفي وسائر الذين انتدبتهم لهذه الحملة كانوا نخاسين وقد ذاق أهالى خط الاستواء من مظالمهم ماجعلهم يبغضونهم أشد البغض وهم قوم لاخلاق لهم اذ كانوا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق ليكتسبوا من وراء قتلها دجاجة فلذلك تري أهالى تلك البلاد يبغضونهم ويفرون من وجوههم كما يفر الانسان من الضوارى فاذا ذهب هؤلاء النخاسون الى تلك البلاد جاءت النتيجة بعكس رغائبك حيث يلجأ الاهلون الى حاكم خط الاستواء ليكونوا معه على الذين ذاقوا مرارة سيطرتهم فيما مضى ورزحوا تحت نيرهم زمنا والاولى عندي ان يعهد مولاي قيادة الحملة الى أحد آل بيته ويشد أزره بجيش من الجهادية ليكون قادراً على كبح جماح هؤلاء النخاسين الذين بمجرد ان تطأ اقدامهم أرض تلك الارجاء يعودون الى أعمالهم السيئة التي تاباها عدالة مولاي وماوصلت الى آخر هذه العبارة حتى بدت علامات السرور على وجه التعايشي والتفت الىّ

وبالغ فى الثناء على وشكرني قائلا إن ماقلته حل فى لبى بجرة مملوءة بماء الشهد وعملا بنصيحتك سأعين احد آل بيتى لقيادة الحملة وقد ارجأت أمر سفرها الذى كنت مزمعا انفاذه فى الغد ريثما اختار القائد الجديد الذى لابد من امهاله اياما ياخذ فى خلالها اهبته للسفر

وكان من جملة الحاضرين عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير فخرجا يتعثران في أذيال الفشل ووجوههما مكفهرة والله أعلم بما في قلوبهما من الغيظ والاحنة عليّ

ولدي خروجهما قابلا أحد اصدقائي المصريين وقالا له أيليق من فلان ان يأتي ما أتاه امام الخليفة فقال لهما الجزاء من جنس العمل لانكما بدأتما بالوشاية عليه فنجحتما فى الاضرار به وهكذا يكون جزاؤكما

وعلى أثر هذه الحادثه انتدب التعايشي احد اقاربه المسمى عمر صالح ومعه نحو الخمسمائة جهادى وجعله قائداً للحملة وجعل عبدالله الطريفى كدليل له. ويبلغ مجموع رجال الحملة نحو ستة آلاف رجل جلهم مسلحون بالاسلحة النارية

وفي اواسط سنة ١٣٠٥ غادرت الحملة أم درمان على اربع بواخر ولما وصلت الي اماكن السدود وجدتها متراكمة بها فتعذر عليها متابعة السير الى جهة الجنوب فمكثت بقية سنتها تعالج فتح السدود فهلك من رجالها كثير وهلك أيضا عبدالله الطريفي مع من هلك وقوبلت الحملة من أهالى البلاد بنفور عظيم وامتنع الاهلون من تقديم الاغذية للرجال الذين انقسموا شطرين أحدهما اشتغل بتحصيل القوت بالسلب والنهب من القبائل القريبة من شاطىء النهر والآخر اشتغل بفتح السدود

هذا وقد رايت ان اورد هنا شذرة من وصف السدود اتماماً للفائدة التى

ربما تشوف اليها القارىء فأقول

يبتدىء خط السير فى النيل الابيض من الخرطوم قبل ان يختلط مع النيل الازرق وهذا النهر هادىء وضفتاه مترامبتان عن بعضهما حتى يتعذر في بعض الامكنة رؤية من بالشاطئ الشرقى الشاطئ الغربي مثلا ولو بالنظارة المعظمة وذلك من بعد بركة السنيورة فاذا غادرت بحر الغزال متجها الى الجنوب عند حدود الاقاليم الاستوائية كان الامر بعكس ذلك فتشاهد ضفتي النهر متقاربتين والماء مندفع بقوة حتى ان خريره يصم الآذان

وتربة تلك البلاد من طينة لزجة تكاد تضارع المواد الغروية الشديدة اللازوجة كالصمغ ونحوه

وينبت علي ضفتى النهر حشيش فى طول قصب السكر والناظر اليه لايشك انه قصب السكر ولكنه مملوء بشوك صغير يتطاير على من يدنو منه وتحدث منه قروح قلّ ان يبرأ من تعلق به ولشدة اندفاع ماء ا[illegible] تتقطع من الجزر قطع من الطين عليها اجزاء من هذه الحشيشة التي يطلق عليها اسم (ابو صوفه) فتتراكم عند مضيق النهر وتمنع سير السفن وطريقة ازالتها هي ان تقطع اجزاء صغيرة يدفعها التيار الى المتسع من النهر

هذا ماكان من امر حملة المهدويين واما امين باشا حاكم خط الاستواء فانه غادر (اللادوه) عاصمة الاقاليم الاستوائيه الى الجهات الجنوبية على اثر ما اصاب جنوده من الفشل منذ عامين امام (كرم الله كرقساوى) داعية المهدي فى (شكا وبحر الغزال) وقد تقدم ذكر غارته على حدود خط الاستواء

ولما وصل عمر صالح الى (اللادوه) ووجدها خالية علم ان الحامية لحقت (بالرجاف) جنوب اللادوه فتقدم نحوها وشن عليها الغارة وذبح بعض من بها من

الجنود وفر البعض فاجتمعت الحامية في مكان اسمه (اللابورية) وهاجموا الدراويش فدارت الدائرة على الحامية وقتل كثير من جنودها وفر الباقون الي (الدفليه) فاعاد الدراويش الكرة عليهم واستولوا على خطوط النار عنوة وتقهقرت الجنود ثم كرت على الدراويش وقتلت منهم خلقاً كثيرين واجلتهم عن الدفليه فغادروها منهزمين لايلوون على شيء ولحقوا بواخرهم في (اللادوه)

وفي غضون اشتغال الحامية بدفع غارة الدراويش وصل المسترستانلى الرحالة الذى كلفته الحكومة الخديوية بسحب حامية خط الاستواء عن طريق زنجبار

ولما سمعت الجنود بامر هذا الانسحاب وعلمت ان طريقها الي جهة زنجبار مملوءة بالمخاطر والصعوبات ولادواب للحمل فى تلك الارجاء واشيع بينهم ان مسافة الطريق تبلغ مسيرة سنة تمرد السودانيون منهم على امين باشا وقبضوا عليه وسجنوه وعينوا حاكماو ضباطاً من صغار الضباط السود كما قبضوا على سائر الضابط المصريين والموظفين الملكيين وزجوهم فى السجن

ثم نمى الى أولئك الجنود المتمردين ان الدراويش متقدمون نحوهم فهرعوا الى لقائهم في جهات جبال (الدفليه) فقام ضابط سوداني يدعي سليم مطر وهجم علي السجن واطلق امين باشا وساروا الي جهة قريبة من بحيرة فيكتوريا نيانزا وقابلوا المسترستانلي هناك فعهد المسترستانلى الي سليم مطر تسكين ثائرى الحامية واستمالتهم لمرافقته فتوجه الى (الدفليه) وحاول اقناع الجنود بوجوب بامتثال أمر الخديو الذى يحمله ستانلي فلم يفلح ورموه بالخيانة وكادوا يبطشون به وظل المسترستانلى ينتظر عودته نحو شهرين ثم اجتاز النهر وابتدأ مسيره الى زنجبار

ثم خفته في الطريق كتب من الضابط سليم اغا مطر يخبره فيها بحبوط مسعاة تتابع المسترستانلى سيره حتي وصل زنجبار بعد مسيرة تسعة شهور هلك فيها اكثر من نصف الذين رافقوه من متاعب السفر حيث كانوا يسيرون على الاقدام

ولولا سوء تصرف امين باشا وذبحه الافيال الهندية والثيران المروضة لكانت رحلة ستانلى الي زنجبار من ايسر الاسفار اذ الذين رافقوه لايبلغون ألفي نسمة والثيران المروضة التى ذبحها تقرب من ثلاثة آلاف راس عدا بضعة افيال

وعلى أثر ذلك صفا الجو للمهديين في خط الاستواء وانطلقت ايديهم فيه يجلبون منه العاج والريش وسائر محصولاته ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر عزل محمد الخير من بربر وموته

ذكرنا ماكان من امر محمد الخير وقيامه بدعوة المهدى فى بربر واحتلاله دنقلة بعد جلاء الحملة الانكليزية عنها

وفي اوائل سنة ١٣٠٤ حين أستتب السلطان للتعايشى على البلاد ووجه اهتمامه الي عزل الامراء الذين ولاهم المهدى واستبدالهم بذوى قرابته اوعز يعقوب اخو التعايشي الي الحاج على سعد امير الجعليين الذين يسكنون القري التي بين بربر وام درمان ان يكثر من الشكوى الى التعايشى ويتذمر من أعمال محمد الخير ويقبح سيرته فيهم ويرميه بكل منكر وفظيعة وكان محمد الخير قد احتكر وظائف الجباية والقضاء لاقاربه واتباعه ووعد يعقوب الحاج على سعد بالولاية بدل محمد الخير فاغتر بوعده واسترسل في الطعن على محمد الخير

ونسب له أموراً هو براء منها وتغالى في تقبيح سيرته وتشديد النكير عليه فارسل التعايشي يستدعي محمد الخير الي أم درمان فقدم عليه وعند ذلك عقد التعايشي مجلسا عاما جمع فيه بين محمد الخير والحاج على سعد فاسمع هذا الأخير محمد الخير مطاعنه فيه فبكى وانتحب ورفع يديه الي السماء قائلا اللهم اني أشهدك اني بريء من هذا كله وكانت هذه المطاعن مما يتجافي القلم عن ذكره ومن جملتها رمي محمد الخير بارتكابه الزنا وقد ذكرنا انه كتب للمهدي على اثر فتح بربر يقبح له استتباحة اعراض المصريين بضروب السبي التى سار عليها ملتمسا منه الكف عن ذلك فاجاب التماسه وهذه الحسنة ادل دليل على أن الحاج على سعد كاذب في مطاعنه على محمد الخير لانه لو كان فاسقا كما ادعى لما رغب عن سنة السبي السيئة ولما رأي وجوب الكف عن هتك اعراض المصريات في بربر

على أن هذه الاذكايب مدبرة بين التعايشي واخيه يعقوب يقصدان بها ابعاد محمد الخير عن بربر ليخلفه في وظيفته شخص بقاري ولما كان محمد الخير له شهرة بين اهالى السودان رأوا أنه لا يحسن الاقدام على عزله بدون اسناد فظائع اليه مثل التى فاه بها الحاج على سعد

وفي ذلك اليوم أصدر التعايشي أمره بعزل محمد الخير وتولية عثمان الدكيم بدله فسار الى بربر في خمسمائة فارس ونهب القري التي فى طريقه واتلف الزرع قبل ان يحصد وكان هذا العمل من مقدمات القحط الذي ضرب اطنابه في السودان وستري تفصيله فيما سيأتي

أما عثمان الدكيم هذا فهو شقيق يونس الدكيم واعماله واخبار جهالته تفوق الذي ذكرناه عن شقيقه

هذا وقد بقى محمد الخير فى أم درمان بضعة شهور ثم سجن بتهمة انه

فاه بكلام يمس شرق التعايشي ثم أطلق والحق بدنقلة كأحد صغار القواد وتوفي بها فى سنة ١٣٠٧

وحدث أناس من الذين حضروا وفاته انه لما احتضر جزع وقال انني كنت اظن أن دعوة المهدية لله ورسوله فدعوت الناس اليها وأما الآن فقد علمت انها دعوة الشيطان اراد بالاسلام والمسلمين شرا بظهورها وان الله تعالي سيؤاخذني على ماجنته يداي ان لم يرحمني ويعف عن سيآتي ثم نطق بالشهادتين وفاضت نفسه

النور ابراهيم الجريفاوي وتجار المصريين في بربر

النور ابراهيم الجريفاوى دكروري استوطن ابوه أوجده قرية (الجريف) التي تبعد عن الخرطوم جهة النيل الازرق ببضعة اميال وكان مشتغلا بصناعة اللبن وحرقه وبيعه لسكان الخرطوم لتشييد المنازل

وقد ذكرنا انه اغتال قدراً من المال دفعته له الحكومة ليورد لها به الغلال فسرّب المال الي جيبه وكان اذ ذاك من أعضاء مجلس السودان حائزا للرتبة الرابعة ثم لحق بدعاة المهدى

ولما عزل الخليفه التعايشى محمد الخير من بربرولي النور الجريفاوى هذا امانة بيت مالها وكان النور هذا مشهوراً لدى سكان الخرطوم اباناشتغاله بصناعة اللبن بالورع والتدين ودماثة الاخلاق وحسن المعاملة مع الحقير والعظيم والصغير والكبير

ولما دخل فى سلك موظفي المهدية انسلخ عن هذه الصفات وانقلبت كلها الى ضدها وصرت لاترى منه غير رجل ظالم غاشم خرب الذمة قد نبذ

الورع والتقوى وراء ظهره شرس الاخلاق سيئ المعاملة لايقول الا سوأ والويل ثم الويل لمن كانت له حاجة عنده وألف ويل له ان كان مصريا فانه لايسمع منه غير الشتائم المؤلمة ولا يرى منه الا سائر ضروب الاهانة وحاجته لاتقضي ولو كانت على طرف الثمام وبالجملة انه قد صفا له الجو حتي خلناه شخصا غير ذلك الذى كان يبيع اللبن ولاغرو فان الظلم كمين في النفوس تظهره القوة ويخفيه الضعف

وفى إبان اسناد امانة بيت مال بربر اليه كان يفد اليها ألوف من التجار المصريين من أهالى مديرية اصوان ولم يكن غرضهم الحقيقى الاتجار بل كانوا ميالين الى دعوة المهدية وانما تذرعوا بالتجارة لقضاء مآربهم من المبايعة وحمل تعاليم المهدية الى بلادهم ونقل اخبار الحكومة للتعايشي فكتب النور الى التعايشي يقول له ان هؤلاء التجار رواد للحكومة الخديوية وهم يتسترون بالتجارة وعندهم من المال مايجب ان يكون حقا لبيت المال فكتب التعايشي الى النور يامره بمصادرة أموال اولئك التجار مع انه لايجهل انهم معه على الحكومة وليسوا مع الحكومة عليه ولكن طمعه فى أموالهم ألجأه الى سلبها

وعلى اثر ذلك وثب النور الجريفاوى على تجار المصريين وقبض على بضعة آلاف منهم وعذبهم ومزق اجسامهم بالسياط كي يدلوه على أموالهم التى بلغت قدراً طائلا ثم اطلقهم وهم لايصدقون بالنجاة بعد أن وردوا موارد الموت فعادوا الي بلادهم بقلوب مملوءة ببغض المهديين وحب الفرار من دعوتهم

السودان الشرقي

بعد أن دارت الدائرة على عثمان دقنه فى (كوفيت) وفر من وجه الراس

الولا عاد الى كسله ثم استخلف عليها ابن أخيه وغادرها الي (طوكر)

ولم تمض سنة حتى ثقلت وطأة عثمان دقنه على الاهلين فارتفعت أصواتهم بالتذمر من مظالمه الفادحة التي أحسوا بثقل وطأتها عليهم فهرعوا الى الخليفة يشكون مالاقوا فلم يجدوا منه غير التسويف والمطل والاتهام بالانحراف عن جادة الصراط المستقيم فثاروا على عثمان دقنه عدة ثورات

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ كتب التعايشي الى عثمان دقنه يستقدمه وكانت أول مرة استقدمه فيها بعد ان قبض على زمام الملك فشخص من (طوكر) الى بربر ومنها الى أم درمان فاستقبله التعايشي بصنوف الاكرام وبعد انقضاء أيام عيد الاضحى أعطاه خمسة آلاف مقاتل من البقارة فسار بهم الي كسله عن طريق (القضارف) ثم سير خلفه الحاج محمد أبا قرجة في عشرة آلاف مقاتل وسلمه أمرا بانه امير شرقي السودان بدل عثمان دقنه الذي عزل من الامارة وجعل كواحد من القواد فسار أبو قرجة على طريق القضارف أيضاً قاصداً كسله ولدى وصوله اليها أعلن عزل عثمان دقنه وولايته بدله فسكنت الاضطرابات وأمنت السبل وفتح طريق الاتجار بين مصوع وكسله . وبعد بضعة شهور أصدر التعايشي أمرا الى أبي قرجة بمغادرة كسله الى (طوكر) واستخلاف حامد على أحد أقارب التعايشي على كسله فسار أبو قرجه الى (طوكر) وعسكر فيها وجرت بينه وبين الحكومة في سواكن مخابرات سلمية أوجبت ارتياب التعايشي في الثقة به فعزله عن الامارة وأعادها الى عثمان دقنه

وفي غضون ولاية أبي قرجة تقدمت جيوش الدراويش الى (هندوب) وضيقت الحصار على سواكن فخرجت حاميتها عليهم وفرقت جموعهم فعادوا الى (طوكر) وعسكروا فيها

أما أبو قرجة فقد ولاه التعايشى على بربر فمكث بها ثلاثة شهور ثم عزله وولى بدله الزاكى عثمان البقاري ونفي أبو قرجة الى خط الاستواء

وسنعود الي ذكر هزيمة عثمان دقنه من (طوكر) والقضاء على نفوذه فى السودان الشرقي

ظهور المهدي ابو جميزة في دارفور

لما رسخت قدم عثمان آدم في دارفور اثخن فى القبائل نهبا وسلباً وخرب المدن وحمل الاهلين نيراً ثقيلا حتي باتوا ولا هم لهم غير الخلاص من ذلك النير فقام بين ظهرانيهم رجل من المشايخ اسمه محمد كان يجلس تحت شجرة من الجميز حتى كني باسم (أبي جميزه) وادعى انه المهدي المنتظر وكان مشعوذاً ذا قدرة على عمل خيالات يخالها الناظر حقائق فاتبعه أهل دارفور كلهم وترامت أخباره الى الممالك المجاورة لها فنسل اليه كثير من سكانها ولحقوا به واجتمع حوله جيش كثيف عسكر به في الجهات الغربية وكتب الي عثمان آدم يدعوه الى التسليم فارسل له جيشا تحت قيادة (الختيم موسى) التعايشى فهزمه شر هزيمة وبعد اللتيا والتى وجد القائد الي النجاة سبيلا

فارسل عثمان آدم الي التعايشي يعلمه بامر أبى جميزة ويطلب منه الامداد فارتاع التعايشى لهذا النبأ وأرسل الامداد الى عثمان آدم الذى أرسل لحرب أبى جميزة جيشاً آخر تحت قيادة (محمد بشاره) التعايشي فلم يكن نصيبه غير نصيب القائد الختيم موسى ثم توالت الحروب بين أبى جميزه وعثمان آدم فكانت الدائرة تدور على دراويش عثمان في جميعها وخضعت بلاد دارفور الغربية كلها لابى جميزة وشمرت معه على حرب عثمان آدم الذي ضاقت الدنيا

في وجهه كما ضاقت في وجه التعايشي الذي أصدر أمرا الي عثمان آدم بالتقهقر من دارفور الى كردفان

وبينما كان عثمان آدم يتأهب للتقهقر زحف عليه أبو جميزة في جيش عرمرم ولكنه في غضون سيره أصيب بمرض الجدري ثم توفى بعد أيام يسيرة فتابع أصحابه مسيرهم قاصدين (الفاشر) محل اقامة عثمان آدم الذي قسم جيشه قسمين جعل أحدهما كمينا وتربص هو مع الآخر فتقدم جيش أبو جميزة حتى اجتازوا موقع الكمين والتقوا مع عثمان آدم فخرج عليهم الكمين من الخلف وصاروا بين نارين فسقط منهم عدد كثير وتمسك الباقون باذيال الفرار فأثرهم عثمان آدم وقتل منهم خلقا كثيرين وما زال عثمان آدم متأثرا للمنهزمين حتي اجتازوا حدود دارفور ولحقوا بمملكة (أبي ريشه) وحملت الى التعايشي رؤس جماعة من وزراء أبي جميزة وهجر أهالى دارفور ديارهم الى ممالك الغرب كي يعتصموا بها من انتقام الدراويش فتخربت البلاد وصارت بلقعا ليس فيها ساكن ولا مساكن وانقطعت جباية الخراج وأصبح عثمان آدم وجيشه في حاجة عظيمة الى النفقات فوجه اهتمامه الي الغزو في الجبال التى حوالي دارفور ليتحصل منها على قوته وقوة حاميته

شأن التعايشي وقبيلة التعايشة

لما تغلب التعايشي على مناظريه وسلب من أقارب المهدي القوة التى كانت فى ايديهم استبد هو بالملك وانفرد بالسلطان على كل بلاد السودان وأضعف نفوذ الخليفتين على حلو ومحمد شريف حتى صارا لا يعبأ بهما خصوصا محمد شريف فقد وصلت حالته الى فقدان الضروري من القوت وانحط شأن

أقارب المهدي حتي صاروا فى حالة يرثى لها ولا سيما أولاد المهدى فانهم صاروا يقاسون من شظف العيش ومرارة الفقر مايعجز القلم عن وصفه

وفى أواسط سنة ١٣٠٥ اتجهت عزيمة التعايشي الى استنفار قبيلة التعايشة من ديارها في جنوب دارفور ليشد بها عضده ويكون ذا عصبة امام الاقوام الخاضعة لجبروته وكان قبل ذلك يتألف قبائل البقارة لينال منهم مزايا العصبية والموازرة اذ لم يكن معه من أقاربه التعايشة الا نحو ثلاثين رجلا احتكر لهم الوظائف وولاهم الاعمال الخطيرة واستوزر أخاه لابيه يعقوب وأشركه في سلطانه حتي صار ذا نفوذ كبير وأصبح يضارع أخاه التعايشي في كل خواص الملك والسلطان وصار يعقوب هذا القائد العام للجيش والمدبر المطلق لامور مملكة أخيه

وكتب التعايشي الى عثمان آدم فى دارفور يأمره باستنفار قبيلة التعايشة كما كتب الى رؤساء هذه القبيلة يخبرها بانه صار ملكا عظيما وسلطانا فخيما على جميع الاقطار السودانية وانه فى حاجة شديدة لمعاضدتهم فانقسمت قبيلة التعايشة الى قسمين.أحدهما رأي وجوب المبادرة لتلبية نداء التعايشى والآخر أظهر بغضه قائلا لا يرجى خير من سفل نال ملكا من طريق المصادفة صعلوك كان متسولا بين ظهرانينا بالامس واليوم نذهب لننزل على حكمه ونضع أنفسنا بين يدى جبروته ثم هجر هؤلاء ديارهم ونزحوا الى مملكة (وداى) مفضلين النأى عن الديار على اللحاق بالتعايشى وانصاع القسم الآخر لمطالب التعايشى ونزحوا من ديارهم الى دارفور ومنها الى أم درمان وكانوا زهاء مائة ألف نسمة أو يزيدون

وقد أنفق التعايشى على استقدامهم أموالا طائلة حتي بلغوا أم درمان فتلقاهم

بالحفاوة والاكرام ووزع عليهم الاقوات والملابس

وكان بين هؤلاء القادمين (الغزالي احمد خوّف) زعيم التعايشي وكان حائزا للرتبة الثالثة من الحكومة وكان التعايشي يعده بالخيل والهيلمان لدى وصوله أم درمان فلم يوف له بوعده وسنعود الى ذكر بقية أخبار عثمان آدم وموته

هذا وقد كانت قبيلة التعايشة تحب السكر والتمر وطريقة تناولهم السكر أن يكسروه قطعاً صغيرة ويأكلوه كما يأكلون الخبز

ومن النكات المضحكة مانورده عن أحد المصريين الذين يشتغلون فى معامل الذخيرة للتعايشى وذلك ان الزاكي عثمان الذي كان أمير بربر كلفه بتعبئة خرطوش لغدارة صغيرة فأتم المصري العمل وذهب الى منزل الزاكي ليدفع له الخرطوش فتلقاه بالاكرام وقدم له طبقاً كبيراً مملوأ بقطع السكر الصغيرة وجاءه باناء فيه نحو خمسة أرطال من اللبن الحليب فأخذا يأكلان من السكر ويشربان من اللبن ثم قال صاحبنا المصري لمضيفه لماذا لاتضع السكر فى اللبن فقال وهل يوضع السكر في اللبن فقال نعم وتناول المصري السكر وألقاه فى اناء اللبن فصاح به مضيفه قد اتلفت السكر واللبن معاً فقال له المصرى لاتعجل فسكت الزاكى ثم هز كتفيه ورأسه علامة على اليأس فقدم له المصرى اناء اللبن وقال له ذقه فقال له والغضب باد على وجهه لااذوقه حتى تذوقه قبلي فشرب المصري وناوله الاناء فشرب منه ثم وضع الاناء من يده قائلا (قاتلكم الله يامعشر المصريين انكم خبيرون باتقان كل شيء) أما نحن فلا نعرف ان مزج السكر باللبن يصيره حسنا مثل هذا ولم نتعود منذ خلقنا الله إذابة السكر في اللبن ثم سأل المصري وهل يكون السكر لذيذا كهذا اذا القيناه فى الماء فقال نعم فاظهر الارتياب ثم دخل الي بيته وعاد منه بسكر وقال

له ألقه في الماء لتذوق طعمه فالقاه المصرى في الماء فأمره ان يشرب منه قبله كما شرب في المرة الاولى ثم عاد فشرب منه واخذ في ابداء الاستغراب فساله المصرى عن سبب امتناعه عن الشرب قبله فقال اني كنت اظن ان طرح السكر في اللبن ربما تولد منه ضرر واخذ المصرى يصف له الاطعمة التي يصلحها السكر ثم انصرف عنه

ولقد اطلعت على منشور كتبه التعايشي الى قبيلة التعايشة يحبب اليها القدوم عليه وفيه اني ملكت بلاداً فيها جبال من السكر وشجر التمر وان أهالي هذه البلاد الذين هم (الجلابة) صاروا عبيدي فسارعوا بالقدوم الىّ لتاخذوا النصيب الاوفر من جبال السكر وشجر التمر وتقضوا وطركم من نساء الجلابة وتركبو الخيول والحمير والهجن

ولما وصلوا الي كردفان كانوا يسالون من لاقاهم عن جبال السكر وشجر التمر ومدوا ايديهم ونهبوا سائر قرى كردفان وقتلوا مئات من الاهلين الذين رفعوا ظلامتهم الى التعايشي فكان جوابه لهم لا تتاثروا من فعل المهاجرين لانهم اخوانكم وشاهدوا ماحل بكم من الله تعالى ولا تنسبوه الي هؤلاء المهاجرين اذ الفاعل الحقيق هو الله

ذكر ضربخانة التعايشي

اسلفنا ذكر ضربخانة المهدى وما ضرب فيها من المسكوكات من نوع الجنيه المصرى والريال الذي نقش عليه (في الهجرة) وفي الطغراء (بامر المهدي)

ولما عزل التعايشي أحمد سليمان أمين بيت المال وخلفه ابراهيم عدلان كانت مسألة الضربخانة من الامور التي احتج بها التعايشي على سوء ادارة

أحمد سليمان وشدد النكير عليه مدعيا ان اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينقش في النقود ولا انشئت دار للمسكوكات على عهده صلى الله عليه وسلم فامر بجمع النقود التي ضربت في عهد المهدي فجمعت وانشأ ضربخانة لسك النقود من نوع الريال وجعل نصفه من الفضة والآخر من النحاس وضرب على أحد وجهيه (ضرب في أم درمان) وعلى الآخر طغرا مكتوب فيها (مقبول) فسمي الريال المقبول وكان في كل سنة يأمر بتخفيض الجزء الفضي حتى صار الريال كله من النحاس الا الطلاء الذي يغيرون به حمرة النحاس

ولقد هبطت قيمة هذا الريال الى حد أن صار لا يساوي اكثر من مليم اما المسكوكات الذهبية فقد منع اعادة ضربها كل ذلك ليحتكر لنفسه الذهب والفضة ولا يدع للناس ما يتعاملون به غير النحاس

على ان التعايشي لم يكن يجهل ان ضرب المسكوكات وانشاء الضربخانة كان بامر المهدي الذي ذكرنا ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطا في خياط الا بعد صدور أمره له بوضعه والحاصل ان التعايشي لم يترك شيئاً وضعه المهدي الا نقضه

ذكر انشاء دار للذخيرة والبارود

لما سقطت الخرطوم جمع المهدويون رجالا من المصريين كانوا عمالا في الجبخانات وجعلوا لهم رواتب طفيفة ليشتغلوا بتعبئة الخرطوش ووضع المواد المفرقعة فيه ثم أدرك التعايشي ان البارود والذخيرة التي عنده لا بد من نفادها فاخذ يسعى الى التوصل الى طريقة استخراج البارود فعهد الى يوناني اسمه (ديمتري بردغاجي) استخراج البارود . وانشأ داراً لهذا العمل

جعلها تحت نظر أخيه يعقوب وانفق أموالا طائلة لا تمام هذا العمل ورتب لعماله رواتب كبيرة فنجحت تجارب بردغاجي واستخرج شيأ من صنف البارود وعرضه على التعايشي الذى سر بهذا النجاح وسجد شكرا لله على مامنحه من النعم ومكث بردغاجي مشتغلا باستخراج البارود بضع سنوات وبينما كان ذات يوم يباشر عمله اذ التهب جزؤ من البارود وتفرقع فامات بردغاجي وعماله واحرق الدار ونسف جدرانها فاستاء التعايشي وأظهر الحزن وركب الى محل الحادثة وأمر بجمع الاشلاء ودفنها

وكان التعايشي يتغالي في استرضاء بردغاجي ولدى شروعه في عمل البارود منحه خمسمائة ريال ومحظية من محظياته وجواري وغلمانا للخدمة وجعل راتبه الشهرى مائة ريال عدا رواتب عماله

أما المواد التى يستخرج البارود منها فانها فحم شجر الصفصاف وملح البارود وكبريت العامود وكان يستخرج في كل شهر عشرة قناطير من البارود

وانشأ دار الاستخراج ملح البارود وكلف أحد الصيادلة المصريين بالعمل فيها

وكذلك انشئت دار لعمل المادة المفرقعة التى توضع في الكبسون المسماة (عجينة الكبسون) واسند العمل فيها الى (لبتن بك) مدير بحر الغزال وحسن افندى زكى أحد أطباء الحامية في الخرطوم

وأنشئت أيضا دار لعمل الخرطوش وأطلق على الجميع اسم (الورش الحربية) وكان المشرف عليها كلها يعقوب اخو التعايشي

وشيدت دار لحفظ الاسلحة وسميت (بيت الامانة) وكانت رواتب رؤساء

العمل مائة ريال شهريا من ريالات التعايشي لكل واحد منهم واقل راتب لاصغر عامل عشرة ريالات

ذكر موت لبتن بك مدير بحر الغزال

ذكرنا أخبار لبتن بك وسجنه قبل سقوط الخرطوم

ولما سقطت الخرطوم أمر المهدي باطلاقه فخرج من السجن في حالة يرثى لها من الفقر والحاجة ولما اشتدت به الحال قدم نفسه للخليفة التعايشي وقال له انى أعرف صناعة تجهيز عجينة الكبسون فاثنى عليه وأمر له بجائزة

وفي سنة ١٣٠٥ مرض لبتن بك ولما حضرته الوفاة أوصي سلاطين باشا على بنتيه وامرأته التى أصلها سودانية تنصرت بدعوة الآباء الكاثوليك ثم تزوجت لبتن بك ورزقت منه بنتين

وبعد وفاة لبتن بك زوج سلاطين باشا امرأته بحسن أفندي زكى الذي كان يساعد زوجها في عمل عجينة الكبسون

واعتنى سلاطين باشا بامر البنتين اعتناء عظيما حتى غادر أم درمان

المقدم عمر الجعلي واستخراج الرصاص

لما نفد ما في مخازن التعايشى من الرصاص جاءه ذات يوم رجل من الجعليين اسمه المقدم عمر مشهور بالشعوذة يختلف على مدينة الخرطوم ويحتال على ضعفاء العقول ويطلب منهم المال لشراء الادوات كي يحول النحاس والرصاص ذهبا

وقد عرفه الناس فصاروا لا ينخدعون باكاذيبه فقال للتعايشى انني أقدر

على استخراج الرصاص من احجار ام درمان فاعطاه التعايشي عشرة من العمال وامر باعداد مايلزمه من آلات النفخ وعدد العمل ومنحه قدرا من المال فاخذ يوصي اقاربه بشراء الرصاص فاذا اجتمع لديه بضع أقات وضعها فى التنور ووضع حولها الحجارة ثم أضرم النار حتي يذوب الرصاص وتحترق الحجارة فحينئذ يستدعي يعقوب اخا التعايشي لمشاهدة نتيجة العمل فياتى يعقوب ويري الرصاص مذابا وسط الحجارة فيعتقد انه تحلل من الاحجار فيبلغ اخاه التعايشى فيامر للمقدم عمر بالعطايا من الجواري والمال

وفى ذات يوم صعد التعايشي المنبر وتكوف الناس حوله فقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بان المقدم عمر الجلي يستخرج له من الحجارة رصاصاً يكفيه افتح الدنيا كلها وان الخضر عليه السلام اخبره بان وجود الرصاص في جوف الحجارة من كرامات المهدى عليه السلام

ولكن لم تمض بضعة شهور حتى فقد المقدم عمر الرصاص الذى كان يشعوذ به عليهم وانقطع عن العمل مدعيا ان ادوات النفخ قد ضعفت فصنعوا له غيرها فلم يات بشيء ثم وكل التعايشي مراقبته الى اثنين من جواسيسه فعلما انه كان يبتاع الرصاص من الخارج لان الناس الذين كانوا يبيعونه له كانوا يلتقطونه من حول متاريس الخرطوم وغيرها من مواقع الحروب ثم يذيبه وسط الاحجار فاستدعى التعايشي المقدم عمر وعدد له سيآته وما ارتكبه من الغش فاجابه المقدم عمر بان ماقيل عنه من الغش ليس بصحيح ثم قال له ألست قلت ان النبي صلي الله عليه وسلم والخضر عليه السلام اخبراك بكيت وكيت مذكرا له مافاه به على المنبر وزاد أن قال له إن دعوى المهدية قامت اركانها بمثل هذه الاخبار فان كذب هذا الخبر فالمهدية كلها كذب في كذب فاغتاظ

التعايشي واستفتى القضاة فافتوا كما أوعز اليهم بقطع يده ورجله من خلاف فقطعا في السوق وفى اليوم التالي توفي المقدم عمر وانقضى الامر

ذكر احراق كمال الدين عظام قتلى الخرطوم ونبش القبور

لما توفي لبتن بك واستمر حسن زكي في عمل عجينة الكبسون ونفدت المواد الكيماوية التى تستخرج منها هذه المادة اهتم التعايشى لهذا الامر فقام رجل يدعي كمال الدين من الهنود الذين ذكرنا نبأ قدومهم على المهديين وقال للتعايشي اني اقدر على استخراج عجينة الكبسون بغير احتياج الى المواد الكيماوية التي نفدت فسر التعايشي هذا القول وقال له من أي شيء تستخرجها فقال من عظام الاموات فقال له هاهى عظام كفار الخرطوم وأمر باعداد مايلزم لانجاز العمل فجمع كمال الدين عظام قتلى الخرطوم واحرقها بالنار ثم سحقها في الاهوان ووضعها في أحواض كبيرة وصب عليها الماء ثم نبش قبور قدماء أموات الخرطوم وصنع في عظامهم مثل ماصنع فى عظام القتلى ثم اقفلت الابواب على الاحواض وتركت ستة شهور فتولدت منها الديدان وتصاعدت الروائح المنتنة منها

وبعد الستة شهور جاء يعقوب شقيق التعايشي ومعه جمع من الامراء وفتحوا الابواب فراوا الديدان تولدت والروائح الكريهة تتصاعد منها فسألوا كمال الدين فقال ان تولد الديدان وتصاعد الروائح علامتا نجاح العمل فاذا أقفلت الابواب ثلاثة شهور اخرى ثم فتحت بعدها وجدت هذه الاحواض مملوءة بعجينة الكبسون التي تؤخذ مباشرة لوضعها فى الخرطوش فلم يصدقه يعقوب وعاد الى ام درمان واخبراخاه بان كمال الدين كاذب محتال فاحتدم التعايشى

غيظاً على كمال الدين ولكنه لم يعاقبه بعقوبة

وبلغت نفقات هذا العمل اكثر من اربعة آلاف ريال انفق كمال الدين جلها فى حاجاته الخصوصية عداما أخذه من الجواري والركائب

وبعد وقوف الخليفة على حيلة كمال الدين أصدر أمره له وللهنود الذين قدموا معه بأخذ الاهبة للعودة الى بلادهم وأعطاهم كتبا بالدعوة للمهدية وخرج لوداعهم فقال له كمال الدين انى أريد منك أن تعطينى شيأ على سبيل التذكار فاعطاه التعايشى نعله فأخذ يقبلها ووضعها فى جيبه فطلب منه القاضي احمد على رد النعل الي صاحبها فلم يفعل حتي أعطاه اربع جوار وحمارا

ثم قال القاضي لمن حوله لو طلب منى كمال الدين كل ما أملكه من حطام الدنيا لافتديت به نعل الخليفة وقصد القاضى من هذه الاقوال أن يبلغها الحاضرون للخليفة فتزداد ثقته به وسار كمال الدين ورفقاؤه الى سواكن ومنها الى الاقطار الهندية

تخريب بلاد الجزيرة

(وحشد أهلها بام درمان)

في أواخر سنة ١٣٠٤ هجرية اصدر التعايشى أمراً عاما الى جميع سكان الجزيرة من الخرطوم الى حدود الحبشة والي حدود مديرية بربر من جهة الشمال وحدود مديرية فشوده من جهة الجنوب بالوفادة الى أم درمان وتوعد من بقي فى داره ولم يهدم منزله بيده ويأت الي أم درمان وضرب لذلك أجلا هو أواخر شهر رجب من السنة المذكورة ومن لم يصدع بالامر فى ذلك الاجل عد عاصياً محاربا للمهدوية

وما اقترب الاجل حتى خربت جميع القرى والمدن التي فى الجزيرة وقدم سكانها الي أم درمان وتركوا غلالهم وحاصلات أرضهم فى البلاد مودعة فى بطون الارض فمنهم الذين ساروا فى البر حتي اجتازوا النهر الي أم درمان باجرة باهظة فرضها عليهم أصحاب الزوارق ومن سار فى السفن الشراعية أدي أجرة لا تقل عن عشرة أضعاف الاجرة الاصلية لركاب السفن الشراعية وبعد اجتماع سكان هاته البلاد فى أم درمان وهم سكان مديريات الخرطوم وسنار وفيزوغلى أنزلهم التعايشى في أم درمان في أماكن متفرقة حيث جعل سكان كل قرية أو مدينة وحدهم فهلكت ماشيتهم التى لم تجد مرعى بام درمان وانتدب التعايشي سرية من رجاله تحت قيادة (أبو أم فضالى) ليمروا على القري ويقبضوا على من تخلف عن امتثال ماأمر به التعايشي فخربت هذه السرية مابقي من القري ومد رجالها أيديهم الى الحاصلات المخبوءة تحت الارض فنهبوها ولم يبقوا على شيء منها

وكان سكان الجزيرة اكثر أهالي السودان دعة وسكونا وثروة وبسبب هذا الانتقال فقدوا ماشيتهم وثروتهم وجاء هذا العمل من اكبر اسباب تفشي المجاعة فى السودان وهي مجاعة سنتي ١٣٠٦ و١٣٠٧ اللتان أبادتا النفوس وخربتا البلاد

وبعد استقرار هذه الخلائق فى تلك المنازل استعرضها التعايشى في أم درمان مرات عديدة ثم بعد مضي بضعة شهور أذن للمزارعين بمغادرة أم درمان لمزاولة الزراعة فعادوا وقد عم الدمار بلادهم ولم يجدوا حاصلاتهم التي أودعوها فى بطن الارض فساءت حالتهم وأقاموا موسم الزراعة ولم يعودوا الي

أم درمان وسنعود الى وصف تلك المجاعة وفشت أمراض الجدرى والحميات بين أهالي الجزيرة وصارت الوفيات في كل يوم تعد بالمئات والحاصل ان أهالى الجزيرة هلك نحو نصفهم بالامراض التى تفشت فيهم وذهب الباقون الي مزارعهم بالحالة التي وصفناها

ذكر تخريب الخرطوم

ذكرنا ماكان من أمر التعايشى مع اسرى الخرطوم يوم جمعنا فى المقرن وأمرنا بمغادرة الخرطوم والسكنى بام درمان وبقي بعض الامراء ساكنين في الخرطوم ولما عزم التعايشى على تخريب مدن الجزيرة أصدر أمراً للدراويش الذين كانوا ساكنين فى الخرطوم بهدم المنازل التي يسكنونها وحمل الاخشاب لتشييد منازل بام درمان فكانوا يهدمون الدور ويأخذون الانقاض يشيدون بها منازلهم في أم درمان و هكذا تم خراب الخرطوم حتى لم يبق من المنازل غير بضعة دور حوالى (الترسانة) أبقيت لسكني عمال الترسانة وبقيت الحدائق التى على ضفة النهر عامرة يبيع بيت المال محصولاتها وتجلب منها الفاكهة والخضراوات الي أم درمان واحتكر التعايشى لنفسه حديقة سراي الحكمدارية وكان المهدي وهب أحمد شرفى احدى حدائق الخرطوم الكبيرة واختص الخليفة شريف بحديقة كنيسة الكاثوليك والحاصل ان الخرطوم صارت خرابا بلقعا ومنازلها وقصورها تلالا والدوام لله

ذكر فرار المؤلف وارجاعه الي امدرمان

في أول سنة ١٣٠٥ هجرية بعث لى صهرى عثمان فهمى باشا مائتي جنيه

انكليزى مع شخص اسمه الحاج صالح على من قبيلة العبابدة فدفع لى منها مائة جنيه واغتال المائة الثانية فاخذت المائه جنيه ولم أطلع أحدا على أمرها

وفي غضون ذلك جاءنى اعرابيان من قبيلة الكبابيش واخبرانى ان محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن ووكيل محافظة الحدود وقتئذ أوصاهما بمساعدتى على الفرار ووعدهما بمكافأة قدرها مائتا جنيه لدى وصولي الى الحدود المصرية وبعد ان تداولنا في كيفية الفرار قالا لى اننا نسافر من أم درمان على احدى السفن الشراعية قاصدين (الترعة الخضراء) التى تبعد عن أم درمان مسيرة ثماني مراحل جهة الجنوب على النيل الابيض ثم نقصد جهة (شركيله) فى الجنوب الشرقي من إقليم كردفان ثم نمتطي الجمال من هناك ونخترق اقليم كردفان من الجنوب الى الشمال حيث نكون في جنوب (صحراء بيوضه) التى نخترقها الى الشمال وينتهي سيرنا بالوصول الى حلفا

على ان اختراق الصحراء كان يستدعى مسيرة ثلاثين مرحلة بسير الهجن الحثيث عدا مسافة السير من الترعة الخضراء الى (شركيله) وجهات كردفان الشمالية وقد كانت هذه الرحلة على مافيها من الشقة كافلة لنجاتى وخلاصي من الاسر اذ المسافر فيها يأمن ان يدركه رجال التعايشي الذين لا يعرفون هذه الطريق وغاية ما يفعلونه ان يتأثروا الفارين في الطريق التى تمر على بربر والصحاري التى حولها

ولما اجمعت أمرى على الفرار مع ذينك الاعرابيين اللذين تعهدا لي بأنهما لا يأخذان شيئاً من النقود قبل ان نصل الى الحدود المصرية تركت لعائلتي خمسين جنيها من المائة جنيه ودفعت نحو عشرين جنيها كنت مدينا بها لبعض التجار ولم أخبر أحدا بامر الفرار وقلت لعائلتي انى ذاهب الى جهة

قريبة فى البحر الابيض لاعود منها بشيء من الذرة تقتاتون به وتزودت بشيء من خبز الذرة المجفف وأخذت قليلا من البصل وركبنا السفينة ومعي الاعرابيان وقد أوصياني بالابتعاد عنهما والتظاهر بعدم معرفتهما ما دمنا فى السفينة فغادرنا أم درمان وكان الفصل شتاء وليس معي غير الوعاء الذى فيه خبز الذرة وملاءة من الانسجة الخفيفة المسماة (مرمر) ومعي ثلاثون جنيها انكليزيا وضعتها فى منطقة من الجلد تمنطقت بها تحت الملابس وبعد مسيرة أربع ليال رست بنا السفينة في ساحل الترعة الخضراء فحملت وعاء الزاد ونزلت من السفينة والماء يكاد يبلغ تراقيّ والشاطيء بعيد عنا بنحو خمسمائة متر وتبعني الاعرابيان كانهما لا يعرفان من امرى شيئاً فخرجت من الماء وقد جمد الدم فى عروق من شدة البرد فلجأنا الى غابة مظلمة تزأر فيها الاسد وتتواثب فيها النمور والذئاب وسائر الضوارى فقضينا تلك الليلة حول نار أوقدناها للاصطلاء بها واتقاء السباع لأن صاحبيّ قالالي ان السباع تفر ولا تقترب منها وقضينا مدة الليل لم يزر الكرى لنا اجفانا ولم نضطجع على الثري

وفي الغداة سرنا نحن الثلاثة على اقدامنا نخترق الغابة متجهين الى جهة الجنوب الغربى وقضينا مدة النهار فى السير حتى أرخي الليل سدوله فسمعنا نباح الكلاب حيث وصلنا الى قرية (الترعة الخضراء) وهى قرية كبيرة سكانها زهاء خمسة آلاف نسمة ثم غادرناها وانتهينا الى اكواخ خربة فدخلت انا وواحد منهما في أحدها وذهب الآخر الي القرية كى يعود منها بالجمال فذهب بعد ماقطع غصنا من الشوك ووضعه على باب الكوخ فاضطجعت حتي كان الثلث الاخير من الليل جاء صاحبنا الذى ذهب الى القرية بجملين فامتطياهما

واردفني أحدهما خلفه وماسرنا نحو عشرين ميلاً وسط الفلاة ووجهتنا الجنوب الغربي حتي اسفر الفجر وهكذا ظللنا سائرين النهار كله حتي مضي الثلث الاول من الليل حيث بلغنا (شركيله) فى حدود كردفان الجنوبية وهناك نزلنا ضيوفا على اعراب حلفاء لصاحبيّ فقدموا لنا جانبا من اللبن الحامض وخبزا من الذرة وفي الغد قلت لصاحبي هيا بنا نتابع سيرنا فقالا اننا منتظران شخصين تركناهما فى أم درمان ليأتيا بأناس فارين مثلك فضقت ذرعا من هذا الكلام وأخذت في حثهما على السفر وأظهرت تخوفي من افتضاح الامر اذا عثر بنا الدراويش فلم يصغيا لقولى وأقمنا فى (شركيله) سبعة أيام ننتظر القادمين من أم درمان فلم يأتيا وفي صبيحة اليوم الثامن جلست أمام الكوخ فاذا انا بشخص راكب على حمار وخلفه عبد فأمعنت النظر فيه فاذا هو قبطي من كتبة جيش يعقوب أخي التعايشي فتقدمت للسلام عليه فترجل عن دابته وحياني وصافحني وعلامات الدهشة بادية على وجهه ثم ابتدرني بالكلام قائلا ان الخليفة فقدك وقد سير الركبان الى كل الجهات فى طلبك فقلت له انني قصدت هذه الجهة لان لي بها صديقا قديما أرجو أن أنال من رفده دريهمات ثم استحلفته على أن يكتم خبر رؤيته اياى فى ذلك المكان فحلف أن لا يذكر شيأ من هذا الامر ثم انصرفت وتابع هو سيره قاصداً كردفان وعدت الى صاحبيّ فاخبرتهما بما أنبأني به القبطي وقلت لهما إما أن تسيرا بي في هذه الليلة واما أن ترجعانى الي الترعة الخضراء فقالا لا سبيل الي السير مالم يجيء صاحبانا فألححت عليهما بارجاعى الي الترعة الخضراء وقضيت ذلك النهار وفى الاصيل رضيا باعادتى الي الترعة الخضرا فركبا هجينيهما وأردفني أحدهما خلفه وابتدأنا السير من أول النهار وفى الغلس وصلنا الي ضفة النيل الابيض عند المكان الذي رست فيه

السفينة فأراد صاحباى أن يرجعا على أعقابهما فألححت عليهما بالبقاء ريثما يتبلج الصباح ولما بدأت طلائع الصباح وولت جيوش الظلام ودّعاني وعادا فى طريقهما الى (شركيله) والسباع تزمجر حولي فحملت وعاء الزاد وسرت على ضفة النهر فوقع بصرى على زورق يشبه قوارب الصيادين فدنوت منه عساني أجد عنده أنيسا فلم أجد فقلت فى نفسى لابد لهذا القارب من صاحب يأتى اليه فمكثت نحو ساعتين ولما لم يأت احد وأدركني يأس عظيم هون علىّ حياتي التى سئمتها دخلت فى الزورق وقذفته في لجة البحر ووضعت وعاء الزاد تحت رأسي واضطجعت في الزورق الذي توسط لجة النهر وسار به التيار الي جهة الشمال وظل هكذا حتى اذا كان الاصيل أبصرت قرية على ضفة النهر الغربية فرسا الزورق عند هذه القرية فوثبت للنزول الي البر فأمسك بملابسى شخص وقال لي (ياولد الريف ياسارق) ولطمنى على وجهي عدة لطمات فأخذت أتضرع له وكنت أود أن أعطيه جنيها من الثلاثين التى معي ولكنه مد يده وسلب مني ملاءتي وعمامتي ومنطقتي ثم انصرف فدخلت القرية وسألت هل بها مصري فقيل لي ان فيها مصريا اسمه عبد الفتاح فقصدت محله فاذا هو ضابط برتبة ملازم ثان كان بحامية الخرطوم فتلقاني بالاكرام وأخبرني بان رسل الخليفة قصدت جميع الجهات فى طلبي فأخرجت بضع جنيهات وقلت له أدركني بشراء عشرة أرادب من الذرة لاضعها على ضفة النهر وأجلس بجانبها حتي اذا أدركتنى رسل الخليفة وجدتني على هذه الحال فأسرع عبد الفتاح بشراء عشرة أرادب من الذرة ووضعها على شاطىء النهر وجلست بجانبها وفى ضحوة الغد بينما كنت مضطجعا أبصرت راكبين قد أناخا هجينيهما بالقرب مني وبصرهما مصوب نحوى فعقلا جمليهما وتقدما

نحوي فوقفت لهما وصافحتهما فجلسا بين يدي بأدب ووقار فقلت لهما أأنتما قادمان من البقعة المنورة فقالا نعم فقلت لعل خليفة المهدى عليه السلام بخير فقالا نعم بخير وهو يقرأ عليك السلام فوقفت على قدميّ اجلالا لذكر الخليفة وقد طار قلبي فزعا من هذا الكلام ثم قالا لي ان الخليفة يدعوك للحضور عنده فقلت ولماذا لم تخبراني بذلك قبل التحية لان أوامر الخليفة يجب انفاذها في الحال فسألاني أين عمامتك ومنطقتك فقلت سرقهما اللصوص مني في هذا المكان فقالا وما الذي جاء بك الي هذا المكان فقلت قصدت بعض معارفي هنا فاحسنوا عليّ بهذه الذرة وها أنا مقيم لأجل حراستها ريثما تمر سفينة أحمله عليها وأقصد اذ ذاك أم درمان فقالا اننا نريد إشخاصك معنا الي أم درمان فكيف تقابل الخليفة بلا عمامة ومنطقة فارسلت فى طلب عبد الفتاح فاسرع بالحضور وقال للرسولين انه جاء الى هذا المكان بقصد أن يتحصل على شيء من الذرة يناله من أولى البر والاحسان فجمع هذا القدر من الذرة وأخيراً اعطانى عبد الفتاح عمامته ومنطقته وتركت الذرة وديعة عنده ريثما يجد سفينة يرسلها بها الىّ بام درمان ثم قمنا للسفر فاردفني أحد الرسولين خلفه وغادرنا قرية (ولد الزاكى) قاصدين أم درمان وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصلناها قبيل العصر وانخنا الجمال امام باب دار التعايشي الذى خرج علينا فقال له يوسف منصور هاهو عبدك ابراهيم فوزي فالتفت اليّ وقال الى أين ذهبت يا ابراهيم فوزي فقلت يا مولاى انى شخصت الى احدى قرى النيل الابيض لانال شيئاً من احسان أولي البر فجمعت عشرة أرادب من الذره فلم أجد سفينة شراعية تحملنى فاقمت فى حراسة الذرة حتى جاءنى هذان الرسولان وهنا قص عليه الرسولان مارأياه من حالتى فسكن جاشه وقال من الذى أذنك بالسفر فقلت أخذت اذنا من المقدم وهو قائد عشرين

مقاتلا فى ترتيب جيش الدراويش فقال لي أمثلك يكون اذنه بيد المقدم فقلت كلاّ ولكنني اضطررت لهذا السفر بسبب ما لحقني من الجوع وضيق العيش فصاح التعايشى قائلا أين القاضى أحمد على لجيء به فقال له أسلم هذا وأشار الىّ لاحد الاعراب المواظبين على الصلاة بالمسجد ليكون رقيبا عليه فاسلمنى القاضى الى بقارى كان أول كلمة سمعتها منه قوله لى (ياولد الريف لماذا أنت ضخم هكذا)فاحنيت رأسي تذللاً له وقلت(هكذا خلقنى الله) وبعد انقضاء صلاة العصر قال لي (يانوبي) وهى كلمة يقولها البقارة لكل انسان لم يكن بقاريا من جنسهم وهى تدل على ان المنادى بها رقيق الى أين تذهب فقلت الى منزلي فقال أذهب معك لأتعشى معك فقلت لا بأس فذهب مى وتناول الطعام وسأعود الي ذكر بقية أخباري مع هذا البقارى الذي ظللت أربع سنوات فى اسره وتحت مراقبته

أما نبأ غيابى فقد وصل الى الخليفة بعد غيابي ببضعة ايام من يوسف منصور الذي كان موكلا بحراستي منذ سقوط الخرطوم وهو من ضباط الحكومة وقد هال التعايشي امر غيابي حيث أيقن انني فررت الي الديار المصرية

وفي مساء يوم وصولى لام درمان أظهر التعايشى من الفرح والسرور ماحمله على أن دعا نفاخى الابواق وعازفي الطبول فقضوا ثلاث ساعات في اللهو والطرب ولم يخرج التعايشي لصلاة العشاء الا بعد منتصف الليل والحاصل أني أنفقت في بضعة شهور نحو عشرين جنيها من الثلاثين جنيها التي كانت معي فى سبيل مداراة الاعرابى الموكل بي ولولا ان الله لطف بي ووصلت الىّ نقود مرسلة من صديقي الحميم محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن لأوقعنى ذلك الرقيب فى مهاوى الهلاك وسيأتي ذكر الرسائل والله الموفق

ذكر حرف المؤلف

ذكرت اني كنت مقيما بجوار منزل يوسف منصور وبجواري ضابط برتبة يوزباشى اسمه على خير الدين كان بحامية سنار

وفى ذات يوم زارني أحد معارفي من أهالى السودان فأعطاني خمسين ريالا مجيديا وأعطي جاري على خير الدين عشرة ريالات ثم انصرف فقال لى جاري أري اننا فى حاجة شديدة الى حرفة نرتزق منهافقلت ماهى الحرفة الذى ترى اننا قادران على القيام بهافقال نفتح حانوتا نبيع فيه (القهوة) في ساحل الموردة فقلت لابأس وذهبناالي ذلك الساحل واشترينا بوصاً وأخشاباً واستأجرنا أناسا عاونونا على تشييد كوخ فرشناه (بالابراش) وهى نوع من الحصر يصنع من الخوص وفى اليوم التالي فتحنا الحانوت وما مضت ساعتان على فتحه حتى جاءناالحاج خالدالعمرابى محتسب ساحل الموردة وقتئذ وأمرنا بهدم الكوخ فأخذنا نتضرع له ونستعطفه فلم يجاوبنا بغير الشتائم القبيحة ومنها يا كفار ياأولاد الريف ياأسرى وأخيراً أمر أعوانه بهدم الكوخ فهدموه ونهبوا أدوات القهوة وأخذوا الحصر والاخشاب ولم يتركوا لنا شيأً من البوص وكانت نفقات تشييد هذا الكوخ قد بلغت عشرين ريالا مجيديا عدا ثمن أدوات القهوة فقلت لصاحبي على خير الدين ماذا نعمل فقال نبتعد عن ساحل الموردة ونشيد كوخاً آخر نبيع فيه القهوة أيضاً فقلت ان مابقى لدينا من المال لايكفي لتشييد كوخ آخر فقال ننفق مابقى عندنا من النقود أما ثمن البن فقد اتفقت مع تاجر مصري يبيع البن على أن نتداين منه ما يكفينا من البن فابتعدنا عن دائرة نفوذ الحاج خالد العمرابي وشيدنا كوخا

آخر وباشرنا بيع القهوة فيه

ولما أبصر من حولنا من الدراويش حانوتنا صاروا يترددون علينا لشرب القهوة واذا طلبنا منهم ثمنها أهانونا وضربونا وانصرفوا وبعضهم يقول لنا اتركوا ثمن القهوة (فى شان الله) اى لوجه الله فاذا قلنا لهم لا نتركه يضربوننا ويقولون انكم مازلتم كفاراً

ومكثنا نحو شهر نباشر هذه المهنة وقد بلغ ماتداينّاه من التاجر عشرين ريالا لم نتحصل منها على اكثر من ستين قرشا وما بقى ذهب بين (فى شان الله) وبين ديون على بعض دراويش لا نقوي على مطالبتهم بسدادها لاننا موقنون أننا لو ذهبنا الي مطالبتهم لقينا ماننكره وربما رمونا بتهمة الكفر وساقونا الي موقف يستحيل عودتنا منه سالمين فهدمنا الكوخ وبعنا أخشابه وحصره وأدوات القهوة وذهبنا الى التاجر لنوفيه حقه فتنازل عن النصف ودفعنا له النصف الآخر ثم زين لصاحبي عقله أن نحترف بمهنة شراء البطيخ من المزارع وبيعه فاستحضرنا ثلاثين ريالا مجيديا جعلناها رأس مالنا وذهب صاحبي الي قرية (العيلفون) واشترى بطيخا شحن به مركبا صغيرة وعاد الى أم درمان في العصر وكان ذلك في شهر رمضان فأخرجنا البطيخ من المركب ووضعناه على شاطيء النهر ريثما نبيعه للبيعة وذهبت الي منزلى وتركت صاحبي يحرس البطيخ وبينا كنت عائدا من المنزل رأيت موكب التعايشى ماراً فابصرت الدراويش الذين خلفه قد اختطفوا البطيخ وبعد ان اجتاز الموكب ذهبت الى صاحبي على خير الدين فالفيته جاثيا على ركبتيه واضعاً يديه على رأسه شاخصا ببصره الى الارض ووجدت عنده بعض بطيخ مهشم فعظم علي نهب البطيخ ولكني أخذت فى

تسليته وتهوين المصيبة ومازلت به حتي أخذته وذهبنا الى منازلنا وكان التعايشى ذاهبا بموكبه الي منزل له بالقرب من هذه الجهة وبعد ان أوصلت رفيقى الى منزله ذهبت خلف التعايشى فوجدته جالساً في المسجد فقال له أحد الحاضرين ان ابراهيم فوزي ورفيقا له كانا يبيعان البطيخ فداهمهم الانصار ونهبوا البطيخ فقال (في شأن الله) ثم قال لمخاطبه من هو ابراهيم فوزي كأنه لا يعرفنى فوقفت بين يديه فقال هل البطيخ الذى أخذه الاخوان لك فقلت نعم فقال ومن أين لك رأس المال فقلت تداينته من بعض الناس على شرط ان يكون الربح بيننا فقال وماذا قلت لما أخذه الانصار فقلت لم أقل غير (في شأن الله وفي حب سيدنا الخليفة) فتبسم وقال أهكذا قلت مع ان رأس المال دين فقلت لم أقل غير ذلك ثم حان وقت الافطار فدخل التعايشي داره وذهبت الى منزلي للافطار أيضا ثم عدت وأنا لا أشك في انه سيعطينى تعويضاً فقضيت الليل حول مقصورته حتي انتهت صلاة القيام ودخل الى منزله وبعد أيام قلائل ارسل لى مع أحد خدامه أربعين ريالا من الريال المسمى (مقبول) الذي تقدر قيمته وقتئذ بخمسة قروش

وفي اليوم التالى قال لى صاحبي على خير الدين ان كثيراً من الذين يتبايعون البقر والغنم يرغبون ان يكتبوا عقوداً بين البائع والمشتري يضمنونها أوصاف البهيمة المشتراة وان أجرة تحرير عقد بيع الراس من المعز أو الضأن قرش ومن البقر قرشان وكذا الابل فذهبت مع صاحبي الى السوق واستأجرنا مظلة من البوص وجلسنا تحتها وجاء أصحاب الماشية للبيع فاخذنا نكتب العقود فاجتمع لدينا نحو أربعين قرشا قبل ان ينتصف النهار ثم أذن لصلاة الظهر فجاء الدراويش بالسياط وأوسعونى وصاحبي ضربا وأخذوا ما جمعناه

وقالوا اذهبا الى الصلاة ومن العادة المتبعة عند الدراويش انهم يضربون الباعة وأصحاب الحوانيت بالسياط ليذهبوا لاداء الصلاة في المسجد والحقيقة انهم انما يفعلون ذلك لينهبوا ما فى الحوانيت من السلع فسرنا مع الدراويش الي المسجد ونحن نلح فى الضراعة ونلتمس الاحسان علينا بشيء من القروش التي أخذت منا وبعد اللتيا والتي اعطونا خمسة قروش بعد ان اشترطوا علينا عدم مباشرة هذه الحرفة لما فيها من كثرة الايراد وحيث اننا مصريون وكفار بزعمهم فلا يصح ان نحصل على شيء يزيد على ثمن الخبز بلا ادام

هذا وقد استطاع صاحبي على خير الدين الهرب واللحاق بمصر بعد هذه الكوارث بنحو عامين

ذكر عثمان الملقب بشيخ الدين بن عبد الله التعايشي

لما أفضت خلافة المهدوية الى التعايشي كان سن ابنه عثمان لا يتجاوز عشر سنين تقريبا

ولما كان التعايشي ذا طموح لجعل الملك وراثيا فى آل بيته مهد كل الصعوبات التي تعترض هذا السبيل وحط من قدر انجال المهدى وسائر ذوى قرابته وأخذ يعيرهم في مجالسه الخصوصية بانهم دناقلة أسافل لا يصلحون لشيء غير حراسة الابواب

وفى أواخر سنة ١٣٠٥ دعا ابنه عثمان وعمره لا يتجاوز اذ ذاك ثلاثة عشر عاما وقال على رؤس الملأ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبه بلقب (شيخ الدين) وانه مرشح ليكون خليفة رابعاً ويجلس على كرسي عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان

وبعد ان أعلن التعايشي بين أهله ترشيح ابنه عثمان للخلافة عاد فسكت عن هذه المسألة ولم يتكلم عنها بعد لان اخاه يعقوب حذره من ولوج هذا الباب وقال له انك ان فتحت باب الكلام فى أمر الخلافه أوجبت على نفسك السير على حسب ترتيب الخلفاء وإذ ذاك يجب تقديم على حلو خليفة الفاروق على ابنك الذي تريد جعله خليفة لعثمان ولا يبعد ان الخليفة على حلو يحول بين الخلافة وبين ابنك ويجعلها وراثة لأولاده اذا قدر له ان يخلفك فعدل التعايشى عن تولية ابنه الخلافة واخذ في أسباب تناسي الناس ذكري الخلافة واهمية الخلفاء فجلس ذات يوم والناس حوله وقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدى اخبروه بان لا خلافة بعده وان الملك والسلطان سيكونان بيد اقرب الناس اليه وقال مرة ان النبي صلي الله عليه وسلم اخبره بعبارة مبهمة حيث قال له انت اربعون فلم يفهم معنى الاربعين أهي اربعون عاماً ام اربعون شهرا أم أربعون يوما فاخذ من حوله من المتملقين فى البكاء وكان ابن النجومي حاضراً فقال لماذا تبكون فقالوا لقد ساءنا ان سنى حكم سيدنا أربعون سنة فقال لهم التعايشى سواء كانت سنو حكمى أربعين سنة أو اربعين شهرا أو أربعين يوما فانه لا يبقي بعدي على وجه الارض مؤمن وان الساعة لم يبق عليها غير ماهو باق من أجلى

وفى هذه السنة أي سنة ١٣٠٥ زوج التعايشي ابنه عثمان بنت عمه يعقوب وبالرغم عن التقاليد التي سنها المهدى بتخفيض مهر البكر الي عشر ريالات والثيب الي خمس ريالات وتحذيره من الاحتفالات فى ليالى الاعراس وتوعده من خالف هذه القواعد بالعقوبة الصارمة تغالى التعايشي فى إظهار الابهة فى الاحتفال بقران ابنه حيث اقيمت الافراح وادبت نحو خمسين مأدبة حضر كل واحدة نحو الالفين من المدعوين ومع بساطة الأطعمة في هذه المآدب

التي كانت قاصرة على اللحوم والتمر وبعض الخضراوات قد بلغت نفقاتها قدراً طائلا من المال

وكان لحمدان أبي عنجة دار كبيرة شيدها بالآجر واللبن الاحمر فاخذها التعايشي وأسكن فيها ابنه عثمان ومن ثم ظهر عثمان بن التعايشي بمظهر الامارة وحاول أبوه ان يوليه قيادة الجيوش ويستوزره بدل أخيه يعقوب الذي اضمر لعثمان الكراهة وأوجس خيفة من ان يشرع أخوه التعايشي في اقصائه عن منصبه ويستعيض عنه بابنه عثمان الذى أخذ يجاهر عمه يعقوب بالعداوة ويعيب أعماله ويشدد النكير عليه حتي أفضى ذلك بينهما الي مناظرات شديدة ظهر بها للتعايشي ان قبائل الاعراب البقارة سيما التعايشة شديدو التعلق باخيه يعقوب وانهم منقادون له انقياداً أعمى وكثير من القواد صنائعه وفى الحقيقة ان صفات يعقوب هى التي جذبت هؤلاء الاقوام وجمعت قلوبهم على ولائه والاخلاص له لانه كان اكرم خلقا من أخيه التعايشى وألين جانباً منه ولشدة دهائه وتفننه فى أساليب الخداع كان لا يباشر أحداً بسوء أما سياسة أخيه فكانت خرقاء ولذا كان لا يظهر بغير مظهر القوة والجبروت فامتلأت الافئدة برهبته وفزعت من قهره ومالت الى جانب أخيه يعقوب الذي كان قابضا على زمام أعطية الناس وبيده ارزاقهم فمن أرضاه منهم أمن غائلة أخيه التعايشى وتناول عطاءه وحصل على رزقه وان كان من أولى الوظائف فانه يصير آمناً على وظيفته بعد ان يؤدى الي يعقوب مايفترضه عليه من المال وسيأتي أن ما كان يتناوله يعقوب من رشا الوظائف وغيرها كان يدفع جله الى أخيه التعايشى

هذا وقد ايقن التعايشى ان محاولة اقصاء يعقوب ستكون ذات مغبة سيئة وكان يخشى أن يهب لمناوأته حيث ان القوة فى جانب أخيه

كانت ارجح منها فى جانبه فضلا عما يعلمه من سير ابنه الذى شب ولا هم له غير اللهو والتفانى فى حضور ليالى الرقص وشرب الخمر مع ان المهدوية منذ ظهورها شددت النكير على الراقصات وسنت العقوبة الشديدة عليهن كالجلد بالسياط وحلق الرأس ومصادرة الاموال وفي الحقيقة ان المهدوية بسنها هذه الاحكام أحسنت صنعاً لان عادة الرقص سيما فى الاعراس من أقبح عوائد السودان وأشدها مساساً للآداب العمومية اذ يجتمع في ليلة الزفاف عدد كبير من الشبان والفتيات يغنون بانغام مختلفة بين ثقيل ووسط وخفيف ويطنبرون باصوات مزعجة كأنها حشرجة الصدور ثم ترقص الفتيات ومن ضمنهن العروس على هذه الانغام ويحنين ظهورهن حتى تكاد رؤسهن تمس الارض واجسامهن عارية ليس عليها غير الحلى وعلى عوراتهن سيور من جلد طولها أقل من عشرين سنتمترا تري من خلالها عورة الراقصة وتسمى هذه السيور (الرهط) ويظل الرقص والغناء مستمراً فى منزل العروس مدة أربعين ليلة أولاهن ليلة الزفاف

هذا ولنعد الى ذكر عثمان شيخ الدين الذي طرح الوقار وتهتك فى حب الراقصات والي السهر فى ليالي الرقص وجمع حوله عدداً كبيراً من المغنين المطنبرين وأخذ عمه يعقوب يرفع الى والده التعايشي أخبار ما يقف عليه من قبيح سيره واسترساله في قضاء الشهوات وشرب الخمور ولم يترك بابا من أبواب الفسق الا ولجه وبالجملة انه ظهر في مرسح الخلاعة وضروب اللهو وظهور المتهتكين وامسى ولا هم له غير اغتصاب كل بنت تعجبه والتمتع بها بضع ليال وجمع حوله عدداً كبيرا من المخنثين وصار الامراء وسائر الناس يخفون أولادهم عنه حيث كان يأخذهم بصفة حراس وخدام له ولم يعمل أبوه لكبح جماحه عملا

سوى انه كان في بعض الاوقات يقبض على بعض ندمائه ويبعدهم الي جهات خط الاستواء

هـذا وقد مد عثمان يده الى الجباة وامراء الجهات فكانوا يدارونه بالهـدايا اتقاء شره وكانوا فى حيرة من أمره لان عمـه يعقوب كان يحذرهم من إعطائه شيئاً من بيت المال

وجمع التعايشي نحو أربعمائة من غلمان الاحباش الذين أخذوا أسرى في حروب الاحباش واركبهم الخيول الكريمة وجعلهم حراساً لابنه

وقد حذا حذو عثمان شيخ الدين في جميع اخلاقه واطواره شبان البقارة الذين شبوا في أم درمان وصرت تري دور أمرائهم وقوادهم غاصة بالمغنين والمطنبرين وانغمسوا كلهم فى الترف واللهو وشرب الخمور حتي صاروا يتباهون بذلك ويفاخر بعضهم بعضاً بهذه المنكرات وسيأتى الكلام على المخنثين وما كانوا يعاملون به فى ايام المهدويين ثم ماصارت اليـه حالتهم من الانقـلاب على عهد عثمان شيخ الدين واضرابه من شبان البقارة

والحاصل ان التعايشي رأى ان لا مناص له من ترك أخيه يعقوب يشاطره النفوذ والسلطان في ملكه بالرغم عن طموحه لرفع شان ابنه وترشيحه لنيل الملك من بعده وبيد الله كل شيء

الكلام علي الخراج والجباة والعمال

عقدنا هذا الباب لنأتي فيه على ذكر نظامات المهـدويين وعوائدهم فى جباية الخراج وتعيين الجباة والعمال اذ من هـذا الباب يقف القارئ على نظامات القوم ويعرف أساليب الخراج وتعيين الجباة فنقول

تنقسم البلاد السودانية فى كيفية جباية الخراج الى قسمين . القسم الاول أمراء البلاد الذين لهم شبه استقلال فى امارتهم ولا سلطة لأمين بيت المال عليهم وهؤلاء أمراء شرقى السودان كعثمان دقنه وأمير دنقلة عبد الرحمن النجومي والذين خلفوه وأمير جيش الىلابات حمدان أبى عنجة ومن خلفه وأمير دارفور وكردفان عثمان آدم ومحمود أحمد الذي خلفه بعد وفاته وكذلك أمير بربر فهؤلاء الامراء لهم شبه استقلال فى أعمالهم بحيث يقتلون وينفون فى دائرة نفوذهم لانهم يقودون جيوشا جرارة ويحكمون على عدة أقاليم ولكل واحد من هؤلاء الامراء بيت مال خاص وسجن وشرطى خاص بامارته وهو الذي يعين الجباة من طرفه وينفق ما يجتمع في بيت ماله على الحامية التي تحت إمرته وكانوا فى ظاهر الحال غير مكلفين بارسال شىء من خراج بلادهم الى أم درمان ولكن الحقيقة انهم يؤدون اكثر من نصف ما يجمعونه من الخراج الى يعقوب أخى التعايشي بصفة هدايا واذا صودرت أموال أحد الاغنياء فان القيمة التي صودرت ترسل برمتها للتعايشي وأخيه وابنه وفي جميع الاحوال كان ما يرسل الى الخليفة من نوع الذهب والفضة الخالصة ونوعي الريال المجيدى والنمساوى وان كان الذهب أحب هذه الاصناف الى التعايشى . والقسم الثاني جباة صغار يعينهم أمين بيت مال أم درمان يبلغون عشرة جباة كل جاب لا تجاوز دائرة نفوذه قسما من أقسام مديريتي الخرطوم وسنار وهذان الاقليمان هما اللذان بقيا تابعين لبيت مال أم درمان

اما الخراج الذى يجبي فهو عبارة عن عشر الحبوب وزكاة الماشية من الغنم والبقر والابل حسب الفريضة الشرعية وزكاة الفطر يأخذونها قهراً من كل من مر بهم وليس بيده قسيمة بتوقيع أحد العمال تفيد انه أدى زكاة الفطر وزكاة المال

تؤخذ قسراً من التجار ومن يظن انه ذومال

هذه موارد خراج المهدويين ومقاديرها ظاهراً لكن الحقيقة انهم كانوا يأخذون اكثر من ثلث محصول الحبوب وهـذا اذا لم يدعوا على المزكي انه شرب خمراً أو استعمل دخانا ليتوصلوا بذلك الي مصادرة أمواله كلها

ويدفع الجابي قبـل تعيينـه الى يعقوب الفي ريال من العملة القـديمة ونحو خمسمائة ريال الي أمين بيت المـال ونحو خمسمائة ريال لكـتبة يعقوب وبيت المال وحجاب يعقوب فالجملة ثلاثة آلاف ريال ثم تصدر الاوامر من التعايشى بتعيين أولئك الجباة فيغادرون أم درمان في شهر محرم من كل سنة ويعودون اليها في العشر الاولى من شهر ذي الحجة فيؤدي كل جاب اثنى عشر الف ريال الى يعقوب ونحو خمسة آلاف أردب من الغلة عدا الماشية من أنواع البقر والغنم وعدا الركائب الجيدة من الخيول والحمر الاهلية والهجن وعدا هذا وذاك الجوارى الحسان

واذا صادر الجباة أموال أحد الناس أرسلوا المال كله الى يعقوب والويل ثم الويل لمن اخفى ولو شيأ تافها

وجملة القول ان مايتناوله يعقوب كان يبلغ خمسـة وعشرين الف ريال ولا محيص للجابي عن تقـديم مثـل هـذا القدر الي بيت المال عدا مايرشى به أمين بيت المـال فيكون المجموع نحو سـتين الف ريال أما الغـلال فانها لا تدخل تحت حصر لكثرتها ثم ان الجابي وكتبتـه واعوانه يتناولون من المال مالا يقل عن نصف هذه القيمة عدا نفقاتهم مدة العمل حيث الاهلون مكلفون بتقديم الاغذية لهم والعلف لدوابهم

ولا يفوتن القارى ان ما كان يتناوله يعقوب من الرشوة كان يصل خزائن

التعايشي بحيث لاينتفع يعقوب منه الا بالطفيف

وكثير من كبار أمراء البقارة يرسلون المال رأساً الي التعايشي بدون وساطة يعقوب وللاسباب التي سردناها تحولت ثروة السودان الي خزائن التعايشي وأخيه وابنه وقبيلته وبات الاهلون يقاسون الفقر المدقع ليس لديهم من المال غير ما يحرثونه وليت المهدوية كانت تترك لهم من ثمار أرضهم ما يقوم بحوائجهم الضرورية ولا حول ولا قوة الا بالله

ذكر المخنثين

يوجد في بلاد السودان مخنثون يتشبهون بالنساء في ملابسهم وربما سدلوا شعورهم مثلهن وهم يأوون الى اماكن المومسات ليقوموا بمهنة القيادة اليهن ولا تخلو بلد من بلاد السودان من مومسات اكثرهن من الجوارى التى يفرض عليهن مواليهن ضريبة يقمن بادائها في كل شهر وقد جاء فى كتاب (السيف والنار) ذكر أولئك البغايا ومواليهن الذين هم وجوه أهل السودان واغنياؤهم ولا عيب عندهم فى ارتكاب البغايا هذا الفعل الشنيع لما ان هذه العادة قديمة متأصلة عند أهالى السودان ولذا لا يأنفون من أخذ المشاهرة من هؤلاء الجواري

ولما ظهرت المهدوية وأقيمت الحدود الشرعية على الزانى والزانية مد المهديون أيديهم الى البغايا فاغتصبوهن من ملاكهن بصفة سبايا وبقى أمر المخنثين على ما هو عليه حيث ظلوا قائمين بحرفتهم في أمكنة الفجور السرية وفي سنة ١٣٠٤ قبض التعايشى على مئات منهم وزجهم فى ظلمات السجون وعذبهم بالاشغال حتى اشرفوا على الهلاك ثم استتابهم وجعل عليهم حراساً

ورقباء وأمرهم بمواظبة الصلوات الخمس في المساجد فتركوا التشبه بالنساء وصاروا فى وجل شديد ثم انه قبض على كثيرين منهم أيضا ونفاهم الى خط الاستواء فلقوا حتفهم في الطريق قبل أن يبلغوها

ولكن مالبثنا بضع سنوات حتى رأينا لرقباء والموكلين بالمخنثين قد تركوهم وشأنهم وصرنا نري أولئك المخنثين قد عادوا الي ما كانوا فيه من التشبه بالنساء وارخاء الشعور وصار عدد ليس بقليل منهم يسكن دور عثمان شيخ الدين واضرابه من شبيبة البقارة ومنهم محمود احمد اسير وقعة اتبره وأخوه ابراهيم الخليل فتعلق الناس بالمخنثين وبعد ان كانوا لايسكنون في غير محلات الباغيات وأحياء المومسات صار مأواهم دور الامراء ومنازل القواد ولا غروفالناس على دين ملوكهم وكان محمود احمد قبحه الله تعالي فى تعلقه بالمخنثين الذين جمع منهم في منزله اكثر من عشرين واحدا منهم يرافقونه في الشخوص الي دارفور ويعودون معه لدى قفوله راجعاً الي أم درمان

والبقارة يطلقون على المخنث اسم (عقايط) ومن ثم صار المخنثون أصحاب الكلمة النافذة عندعثمان شيخ الدين ومحمود احمد وسائر الامراءوبالجملة انهم صاروا شفعاء لاترد شفاعتهم عند عثمان وسائرالامراء حتى صار أولئك الامراء المفتونون يناظرون بعضهم بأولئك المخنثين

وقد بلغ من تقريب عثمان شيخ الدين للمخنثين والانتصار لهم ان أحد الرقباء الذين كانوا موكلين بمراقبة المخنثين وكان شديد الوطأة عليهم حتي كان من أمرهم ماذكرناه رماه بعضهم عنده بتهمة أنه يود اعادة المراقبة عليهم فقبض عليه وسجنه ولم يطلقه الا بعد عناء شديد

ويزعم أولئك الامراء انهم لم يأووا المخنثين في منازلهم الا ليوكلوا اليهم

أمر تطييب نسائهم وتدريبهن على أساليب الغنج والدلال لانهم على زعمهم أعرف من نسائهم بهذه الاشياء وهو عذر ان صح نقله عنهم أقبح من الذنب لانه لا يبعد أن يتمتع أولئك المخنثون بالنساء ويشاطرون هؤلاء الامراء المغفلين الحظوة بهن كما ان العقل يستبعد سلامة أولئك الامراء من التلطخ باوضار تهمة اللواط أعاذنا الله منها

حوادث دنقلة وقتل ابن النجومي

لم نذكر من حوادث دنقلة غير وصول عبدالرحمن النجومي وهنا نذكر بقية حوادثها الي سفره منها ومهلكه بعد ان اجتاز حلفا فنقول

لما غادر عبد الرحمن النجومي ام درمان قاصدا بربر ومنها الى دنقلة كان عدد مقاتلته سبعين ألفا ولكنه لما وصل الي بربر تفرقوا عنه ولحقوا ببلادهم ولم يبق معه منهم الا عشرون ألف مقاتل عدا الجهادية الذين يبلغ عددهم نحو عشرة آلاف مقاتل وكان قد ارسلهم من بربر الى دنقلة تحت قيادة مصطفى جبارة وكيل الجيش وكان قواد أولئك الجهادية آدم كرامة وسرور وأبا عنجة اللذين كانا في جندية الحكومة في الايام السالفة ولما وطئت أقدامهما أرض دنقلة ورأوا أنفسهما قريبين من حدود الحكومة اشتد ميلهما الي اللحاق بها فتشاورا علي اضرام نار الثورة وشق عصا الطاعة على المهديين فاجتمعا بصغار القواد المرؤسين بهما وتحالفوا علي أن يباغتوا الدراويش ويأخذوهم على غرة وعينوا آدم كرامة قومندانا عاما عليهم ولقبوه بآدم (باشا) كرامة ومنحوه رتبة أمير اللواء ومنحوا سرور أبا عنجة رتبة (أمير ألاي) وسموا لواءهم اللواء

الرابع وأحسن أمير اللواء على بقية الضباط بالرتب ومن بينهم واحد اسمه عبد الله محمد كان حائزاً لرتبة ملازم ثان من الحكومة الخديوية منحه رتبة الملازم فاستاء من ذلك وعده إهانة كبرى لشخصه ولكنه لم يخبرهم باستيائه . على انه لو أخبرهم بما داخله من الغيظ لمنحوه ما يشتهيه من الرتب ولكنه سكت فخالوا سكوته رضاء

وأجمع آدم كرامة واعوانه على الوثبة على الدراويش في الغلس ورسموا كيفية الهجوم وانصرفوا الى منازلهم على ان يجتمعوا في وقت عينوه ولكن لم يتم لهم ماأردوا فقد ذهب عبد الله محمد الى مصطفى جباره واخبره بما دبره الجهادية فتقمص الجد وجمع حوله الفا وخمسمائة فارس وارسل خمسمائة مقاتل قبضوا على آدم كرامة وسرور أبي عنجة وبعد ان سئلا فانكرا استشهد بعبد الله محمد الذي قال لهما انكما دبرتما كيت وكيت ثم ضربت اعناقهما وأعناق نحو عشرين من القواد الذين معهم وأرسل مصطفى جباره يخبر عبد الرحمن النجومي بهذه الحادثة وكان عبد الرحمن يبغضه فاتخذ هذه المسألة ذريعة الى الانتقام منه فكتب الى التعايشي يبرئ الجهادية مما رماهم به مصطفى جباره وادعى انه ما قتلهم الا لقصد سيء فرد التعايشي على عبد الرحمن النجومي قائلا ان الحضرة النبوية أخبرته بصحة ماقاله مصطفى جباره وان ما فعله لم يكن عن سوء قصد كما قال عبد الرحمن النجومي الذي غادر بربر على أثر هذه الحادثة ولحق بدنقلة وتكاملت جيوشه بها

هذا وقد ألمعنا الى ان النجومي كان من حزب الخليفة شريف الذي كان التعايشي يسعى في تلاشي أمره واضمحلاله وقد كان من أمر النجومي انه رغب عن الخليفة شريف واحتقره ومال الى التعايشي الذي قابل ميله بالفتور وعده

خيانة توجب الازدراء بمرتكبها وكان ابن النجومي ذا بساطة فطرية مع بله فلم يفطن لهفوته هذه وبقي متزلفاً للتعايشي

وبعد أن وصل ابن النجومى الي دنقلة انتدب التعايشى مساعد قيدوم البقاري في بضعة آلاف مقاتل كلهم من البقارة وارسله الي دنقلة ليكون وكيلا لعبد الرحمن النجومى

ولما وصل مساعد الى دنقلة زاره النجومي ذات يوم بمنزله فقدم له شرابا من العسل دس له فيه زرنيخا فتناول منه النجومي جانبا فابتدأت فيه اعراض التسمم ولزم داره واشتدت به العلة حتي اشرف على الهلاك وبعد مدة عوفي وزال عنه الخطر واشتد النفور بينه وبين مساعد الذي كان يطالب أمين بيت المال بنفقات باهظة تعدل نفقات الجيش كله فشكاه ابن النجومى الى التعايشي الذي كان لا يجاوبه بغير العبارات المبهمة مثل أنت قائد الجيش ومساعد انما هو وكيلك والامر مشترك بينكما فاستحكم النفور بين مساعد وابن النجومي حتى خيف انتشاب الحرب بينهما وتفرقت كلمتهما وصار كل واحد منهما يستعرض جنوده على حدة

وفي ابان ذلك نمي الى ابن النجومى ان السير غرانفيل باشا سردار الجيش المصري ينوى الهجوم على معسكر الدراويش في جنوب حلفا وهو معسكر (صرص) فارسل يبلغ التعايشى الخبر ويستأذنه في التقدم الى صرص فكتب له التعايشي يقول انك لن تزال فى دور النقاهة فابعث مساعداً بجميع فرسان الجيش وهم زهاء ثلاثة آلاف فارس فانفذ النجومي مساعدا الي صرص فالتقي قبل وصوله اليها بجواسيس المهدوية قادمين من حلفا فاخبروه بان السير غرانفيل معه قوة كبيرة وانه ربما كمن لكم فى الطريق فارتاع مساعد وكان

جباناً رعديداً ثم تقدم الى صرص فلقيه جواسيس أخر اخبروه بمثل ماخبره به الاولون فترك الجيش وعاد الي دنقلة واستخلف أحد أقاربه على الجيش فتابع سيره الي صرص ولم يصادف كيداً في طريقه ثم قفل راجعاً الى دنقلة ولم يلتق بالجيوش المصرية التى قصدت صحراء (المرات) لا كتشاف آبارها

وفي سنة ١٣٠٥ استدعى التعايشى عبد الرحمن النجومي الى أم درمان واكثر من تأنيبه وتحقيره أمام الملأ حتى قال له انك رجل مغفل لا تصلح للولاية على امرأتك وأولادك فضلا عن ولايتك على جيش جرار

ولقد ذكرنا فيما مضى ان ابن النجومى كان من أعظم قواد المهدى الذين لهم عنده اكبر منزلة وقد كتب اليه مرات عديدة يقول ان الحضرة النبوية تقرأ عليك السلام وقال له يوم سقوط الخرطوم مفسراً الآية الشريفة (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) ان الذى قضي نحبه هو عبد الله بن النور الذى ذكرنا خبر قتله في واقعة (الجريف) وان الذي ينتظر هو عبد الرحمن النجومي فانظر كيف كانت منزلة عبد الرحمن بن النجومي عند المهدي وكيف سقطت الي الحضيض عند التعايشي الذي أنبأت أفعاله انه لم يكن مصدقا بشيء من دعوى المهدي وتخرصاته وانه كان واقفاً على كنه اكاذيبه بل كان مشاركا له في وضعها واختلاقها

ثم أعيد ابن النجومى الى دنقلة في أواخر سنة ١٣٠٥ وأمر باخذ الاهبة لفتح مصر فدخلت عليه سنة ١٣٠٦ ولم يتقدم اليها بل أخذ في مماطلة التعايشى وود الاستقالة من عمله

وفي أواسط سنة ١٣٠٦ فشت المجاعة في السودان واشتدت وطأتها

على أهل دنقلة فاصدر التعايشي أمراً بعزل ابن النجومي وتعيين يونس الدكيم التعايشي بدله وأمر يونس المذكور باكراه ابن النجومي على مغادرة دنقلة لفتح مصر

هذا وقد كان من الاسباب التى بعثت التعايشى لانفاذ عبد الرحمن النجومى الى فتح مصر أن بعض الجعافرة سكان مديرية أصوان كانوا يبعثون الكتب تباعا الى التعايشي يظهرون فيها ولاءهم لهوانهم ينتظرون بفروغ صبر تقدم جيش المهدوية الي بلادهم وانهم سيلقونه فى عدد عظيم من المقاتلة ويقدمون له ما يحتاجه من الاقوات وتفشي المجاعة في السودان كله مع ماظهر له من ان الاهلين يودون الخلاص من ظلمه سيما وقد تفرقت دراويشه من حوله وأمسي وليس معه منهم في أم درمان اكثر من بضعة آلاف فاشار عليه بعضهم بانفاذ جيش ابن النجومي الى حدود مصر ليظهر من الضعف قوة ومن جهة أخري كان هلاك جيش النجومي مما يسعي اليه التعايشي لانه كما تقدم لنا من القول كان من حزب الخليفة شريف وكان ابن النجومى بعد ان عاد من أم درمان قد عاوده المرض وانتكست صحته فكتب يونس لدكيم الي التعايشي يخبره بان ابن النجومى ملازم للفراش وان حالته منذرة بالخطر فاجابه بان يحملوه على نعش ويسيروا به امام الجيش لان الحضرة النبوية اخبرته بان فتح مصر سيكون على يده فحمل ابن النجومى على نعش سيروه امام الجيش كانه تابوت بني اسرائيل وشخص من دنقلة ومعه اثنا عشر الف مقاتل وعشرون الفا من النساء والصبيان وأعطي لكل مقاتل من مقاتلته كيلتين من الذرة وهو قدر لا يكفيه بضعة أيام

ولما اقتربت الدراويش من حدود الحكومة عند مكان اسمه (ارغين)

هاجمته الحامية هجوما عنيفاً فسقط في ساحة القتال نحو نصف مقاتلته الذين صاروا لشدة فتك المجاعة بهم كغنم تساق الي الذبح

ومن المضحك ان أحد قبيلة الكنوز الذين كانوا مع ابن النجومي أرسل كتابا الي بعض أقاربه في أم درمان قبل مذبحة (أرغين) جاء فيه ما يأتى

انني ذبحت فرسى في هذه الليلة وتعشيت من لحمها أنا ومن معى وادخرت الباقى للتزود به حيث صرنا على مقربة من حدود الكفار وعما قريب يأتيكم نبأ فتح مصر اه فانظر هذه الغباوة واعجب لسخانة عقل من تعشى من لحم فرسه وتزود بالباقى كيف يفتح مصر

وبعد واقعة (أرغين) سار ابن النجومى بجيشه حتى التقى بالسير غرانفيل باشا قائد الجيش في (طوشكى) حيث قتل ابن النجومى وتمزق جيشه كل ممزق

ولما كانت هذه الواقعة معلومة عند المصريين وقد وقفوا على تفاصيلها فلا حاجة لايراد شيء عنها زيادة عن هذا

اما تأثير هذا الخذلان على التعايشى فكان سيئاً ولكنه أظهر عدم الاكتراث به

ذكر زواج المؤلف باحدي نساء التعايشي

بعد أن أسلمنى التعايشى للبقاري الذي وكل اليه مراقبتي في الصلاة ببضعة شهور جلس فى محراب المسجد بعد اداء صلاة الظهر وأخذ يكلم الناس بامور زعم انه أخبره بها النبي صلي الله عليه وسلم ومن جملتها انه قال لهم سيظهر كذاب يدعى انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه وان أوصافه

كيت وكيت فقال له من حوله ان ذلك الكذاب مصري وكنت مصغيا لاقواله فسمعته يقول انه أبيض اللون قصير القامة ضخم الجثة مستدير الوجه فقال لى بعض الحضور سرا يمازحني ان هذه الاوصاف تنطبق عليك فداخلنى وجل شديد وقلت في نفسي رب واش أبلغ هذا الطاغية عني أنني مزمع على ادعاء هذه الاكذوبة وانه قال مقالته هذه ليمهد بها طريقا للقبض عليّ والايقاع بي . فتنحيت من موقفي وجلست في المسجد واسندت ظهري الي حائط وانا غارق في بحار الافكار فسمعت منـاديا يقول يا فوزى فعلمت ان التعايشي يدعوني فذهب عقلي وقمت وانا لاأشك في تحقق ماوقع في روعى واني مدعو الآن للتنكيل بي فمشيت مسرعا حتى بلغت مقصورة التعايشي فلما رآني قام على قدميه وخرج منها وأمسك بيدي ومشينا الى باب داره فقال الناس لا ريب ان الذى أمسكه الخليفة هو الذي قال عنه انه سيدعي انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه

ولما وصلنا عند الباب وقف معي وقال مخاطبا لى يافوزى فقلت نعم يا سيدي خليفة المهدى عليه السلام فقال انى أريد ان أزوجك امرأة مؤدبة مهذبة حسنة التربية حسنة الخلق متدينة متورعة وهى احدي نسائي فقلت له ياسيدى انني متزوج فقال أليس لك زوجة واحدة فقلت بلى فقال وما المانع من ان يكون لك ثلاث زوجات أو أربع فقلت لا مانع سوى أنى فقير مدقع وليس لى كسب يعاوننى على القيام بواجبات زوجتين فقال لا تلتفت الى ذلك لان الله متكفل بارزاق العباد ثم قال لي ماقولك قلت انا لا أرغب عما يختاره لي مولاى فقال بارك الله لك فيها ثم قال لى لاتخبر أحداً بشيء من هذا الحديث ثم تركنى ودخل منزله فتكأكأ الناس على يسألوني فكنت أصرفهم بالمجاملة

وأقول لهم لم يقل لى الخليفة شيأ تخشى مغبته

وبعد بضعة أيام استدعاني التعايشى الي داره فوجدته جالسا ومعه القاضي احمد على وقاضيان آخران وبعد ان قبلت يده أمرنى بالجلوس فجلست على الارض بجانب هؤلاء الثلاثة ثم قال لاحد غلمانه أحضر الطعام فجاء بقصعة مملوءة بخبز الذرة ادامها من الطبيخ الذي يصنع من البامية المجففة (الويكه) وعلى وجه القصعة خمس قطع من اللحم يبلغ وزن القطعة منها رطلا فتناول التعايشي قطعة منها وقال خذ هذه يافوزي ثم دفع لكل واحد من القضاة الثلاثة قطعة وابقي لنفسه قطعة فامسكت قطعتى بيدى اليمنى ونهشت جزأً منها فوجدتها غير ناضجة وعلمت انها من لحم الابل فامسكتها بيدى اليسرى واخذت آكل بيدى اليمين ولما فرغنا من الاكل وجدت ملابسي ملوثة بالطبيخ فصاح بى التعايشى ماهذه القطعة التى تحملها يافوزى فقلت له انني اكلت منها كفايتي واريد أن احمل الباقي الي آل بيتى ليتبركوا بقطعة اللحم التي صنعت في بيت مولاى وناولنى اياها بيده الشريفة فتبسم والتفت الى القضاة وقال لهم لاريب ان فوزى صار من خيرة انصار المهدى وانه نبذ الرفاهية ولم يلتفت الى شيء من الدنيا والتفت الىّ وبالغ في الثناء علىّ ثم تناول من القضاة مابأ يديهم من قطع اللحم وضمها الي قطعته وناولنى الاربع قطع وقال اذهب بها الى آل بيتك فحملتها في جبتي وخرجت من الدار حتي اذا صرت في طريق خالية من المارين طرحت اللحم من جبتي على الارض وذهبت الى منزلى واخبرتهم بما اتفق لي فاخذوا الجبة وغسلوها ومكثت حتى جفت اذ لم يكن لى غيرها ثم لبستها وذهبت الى المسجد

وكان للتعايشى منزل في الجهة الجنوبية لام درمان عند حصن الحكومة

القديم فركب اليه ذات يوم بعد الظهر واستدعاني بعد وصوله اليه فقال انني ذاهب الي معسكر خارج المدينة وقد أمرت الخليفة على حلو بمباشرة عقد زواجك بالمرأة التي أخبرتك بامرها وقد أمرت الخصيان ان ينقلوها الى دارك في هذه الليلة فشكرته ودعوت له وبعد غروب الشمس أرسل الخليفة على خلو خصيا الى داخل الحرم ليسأل المرأة عمن توكله فعاد قائلا له انت وكيلها وكنت انتظر ان تجري صيغة العقد طبق الشرع فلم يفعل الخليفة على شيئاً غير انه رفع يديه وقرأ فاتحة الكتاب ثم قال لي بارك الله لك فيها وانصرف فدهشت لهذا العقد الذى لم يكن فيه ايجاب ولا قبول ولا ذكر للمهر ألبتة ثم قال لي احد الخصيان أرسل حمالين لحمل متاع السيدة فاحضرت عشرة حمالين ليحملوا متاعها ولما اخرجوه اذا هو عبارة عن (عنقريب) وحصير من الخوص (برش) وصندوق من الخشب فيه ملاءتان من القماش فتعجبت من هذا المتاع وانصرفت مع حمال واحد حمله وقصدنا منزلي

على اني أقول اني كنت خائفا من هذه الزوجة حاسبا لها الف حساب اذ كنت أظن انها ستكون عينا للخليفة في بيتي ورقيبا على أعمالي في داخل منزلي ولذا امرت آل منزلي باخراج الدخان الذي أستعمله سرا في منزلي وايداعه بمنزل احد أصدقائي وبعد هنيهة جاءت العروس راكبة على حمار التعايشي يحيط بها خصيان وبعد دخولها في الدار استدعيت اربعة من جيراني المصريين وقدرنا المهر وجددنا عقد النكاح بما يطابق الشرع الشريف سرا

وقد اتفق ان منزلي كان في تلك الليلة خلوا من الطعام فقدم لي احد جيراني المصريين أطباقا مملوءة اداما وخبزا من الذرة فقدمته للخصيين فامتنعا من الاكل حيث كانا يريدان عطية من الدراهم التي لم أكن املك منها شيئا اعطيهما اياه

فقاما وشتماني وقالا (ياولد الريف) اعلم ان هـذه السيدة كانت حرم خليفة المهدي فافتح عينيك هكذا وحلقا بأصبعيهما الابهام والسبابة اشارة الي الريال فكنت أجاوبهما بأني عارف بذلك ومقدر هذه النعمة حق قدرها وأخيراً انصرفا غاضبين وبعـد نصـف الليـل دخلت منزلي كأني أساق الي الموت لشـدة ما تولاني من الفزع من هـذه الزوجة التي مكثت معي بضعة أيام لم أعرف شيئاً من أمرها ومعاملتي لها كانت بالحذر الشـديد ولم أسأ لها عن عائلتها ولا عن بلدها

وفي ذات يوم جلست لتناول الطعام معها وكان رديئاً من خبز الذرة وادامه من ورق اللوبياء فرأيت الدموع تتساقط من عينيها فقلت لها ماذا يبكيك فاشارت الي الطعام قائلة أما ترى هـذا الطعام فقلت لها هـذا طعام انصار المهـدي فخنقتها العبرة ورفعت صوتها قائلة لعن الله المهـدي وخليفتـه الظالمين الباغيين أليساهما اللذان هتكا عرضي وقتلا أهلي وسلبا نعمتي فاندهشت من كلامها ورفعت هي صوتها بالعويل والنحيب اللذين فتتا كبدي فسألتها من هم أهلك وأين كان مقامك فقالت أنا بنت حسن أغا أرناؤد وكان مقامي في الخرطوم فعجبت من ذكرها هـذا الاسم لانني اعرف أباها وانه تركي من قواد الاتراك في الخرطوم استوطن بها وصار من وجهائها وكان له ابن اسمه علي كان موظفا معي في خط الاستواء بوظيفة سامية فقلت لها ثم ماذا صار فقالت من يوم سقوط الخرطوم الي هذه الساعة ما رأيت أهلي ولا أعلم هل هم أحياء أو أموات فداخلني الريب في أمرها وظننت انها كاذبة في دعواها حيث انني أعرف والدها وأخاها وما لهما من الوجاهة وأعرف ان من أهلها من هم على قيد الحياة ومن حسن الحظ انهم كانوا يسكنون بالقرب

منا فارسلت اليهم فى الحال فجاؤا وما وقع نظرهم عليها حتى عانقوها وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب ثم قصوا عليّ حديثها وأنها أخذت منهم مسبية بعد سقوط الخرطوم فلم يقفوا لها على أثر ولم يعلموا الى أين طوحت بها المقادير وقد قالت هي انها أخذت الى بيت الطاغية التعايشي وما زالت فيه حتى أراد الله خلاصها منه وقد رزقت منها ببنت وهى فى عصمتي الي الآن

على انى كنت اخاف مستقبلا ربما كان مما يزيد فى شقائي ويضاعف على أنواع الذل وعذاب الاسر حيث انه كان لي كما تقدم زوجة غيرها وكنت أخشي ان يتسع نطاق الخلاف بينهما بسبب الغيرة فاقع بينهما فى شقاء لا يذكر في جانبه ما أنا واقع فيه من شظف العيش وذل الاسر الذى سيأتى وصف كثير من ضروبه ولكن الله من فضله كفاني ما كنت اخشاه اذ صارت زوجتاي كانهما أختان لا أثر للغيرة عندهما ولا هم لهما غير تخفيف ويلات حزنى وتسلية خاطرى من الاكدار التى تساورني فكانتا تقضيان النهار وشطراً من الليل فى خياطة بعض الملابس للدراويش باجرة طفيفة

وقد كانت حالتى المعيشية تنتقل من ردئ الى أردأ حتى سجنت ومع ذلك بقيتا على ما كانتا عليه من الصفاء والوفاق الى أن منّ الله عليّ بالخروج من السجن الذى سيأتي الكلام عليه فى مكانه

ذكر الميرالاي حسن البهنساوي بك

كان الميرالاى حسن البهنساوى بك ميرالاى اللواء المصري الخامس وأصله ضابط مصرى قضى من عمره زهاء عشرين سنة في السودان وكان لواؤه قائما بحراسة الخندق الجنوبي جهة المكان الذي دخل منه العدو يوم

سقوط المدينة وقد شرحنا كيفية دخوله وان اللذين اطلعا المهدي على عورات الخندق هما الصنجقان الخائنان عمر ابراهيم والعطا الدود ولم نعلم شيأ يدعو الى اتهام الميرالاي حسن بك البهنساوى بانه تواطأ مع المهدي على ادخال دراويشه من جهة الخندق الجنوبي اذ يستحيل وقوع مثل ذلك من مثل حسن بك البهنساوى حيث هو من خلاصة من صدقوا في ولاء الحكومة

وبعد سقوط المدينة وقع حسن بك في الاسر وعذب عذابا شديداً وصودرت أمواله وأخذت بنته مسبية وقدمها أمين بيت المال للمهدى وكانت له زوجة هي بنت رجل من مشاهير التجار اسمه عبد السلام أصله من مدينة حلب قدم السودان مشتغلا بالتجارة فاثرى وكنت أنا متزوجا باختها فاخذتا مسبيتين وماتت زوجتي غماً بعد ايام قلائل مضت بعد أخذها

وقد ذهبت يوما مع حسن بك البهنساوى الى المهدى وكلمناه فى أمر زوجتينا فامر أحد نوابه بردتينك الزوجتين فشكرناه وانصرفنا من حضرته وما كدنا نخرج من باب الدار حتى ابتدرنا جماعة من الدراويش اللذين اغتصبوا هاتين المرأتين بالضرب والاهانة وتوعدونا بما نخشاه اذا عدنا الى الشكوى فانصرفنا واقنعنا النائب باستحالة رد المرأتين ثم ذهب الى المهدي وكلمه بما جري لنا فلم يكن لكلامه أثر ومكث البهنساوى بك فى الاسر زهاء سنة ثم فر الي بلاد الحبشة ماشياً على قدميه وما بلغها الا بعد ان كادت روحه تزهق لشدة ما ناله من المشقة ثم غادر بلاد الحبشة ولحق بمصر وعلى أثر وصوله سمعنا خبراً ادهشنا وهو أن الحكومة اتهمت حسن بك البهنساوي بالخيانة وانه ادخل الدراويش مدينة الخرطوم فى حين اننا نعلم الحقيقة دون الكثيرين وقد كان الطيب الذكر غردون باشا الي الساعة الاخيرة من

اجتماعنا يقول لي ان عورات الخندق لا بد ان يكون المهدي علمها من عمر ابراهيم والعطا الدود وأنهما اللذان اطمعاه في الهجوم على الخرطوم بعد ان كان يتأهب للتقهقر الى كردفان على أثر ما أصاب دراويشه من الهزيمة والانكسار فى واقعة (أبوطليح)

وبعد ان سقطت الخرطوم ووقعنا فى الاسر تحققنا من نفس قواد المهدي ومستشاريه انهم كانوا على وشك الزحف الى كردفان لولم يقيض الله عمر ابراهيم والعطا الدود لاطلاعهم على عورات المدينة. وجملة القول ان حسن بك البهنساوى براء من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب وقد ظهرت براءته امام المجلس العسكرى العالي الذى عقد لمحاكمته وكفى بذلك حجة على ان الذين رموه بالخيانة كانوا ذوي قصد سيء به

وقد يحار الانسان من اقدام الحكومة على محاكمة البهنساوي بك مع أنها عاملت كثيرا من الخوان الذين لا يختلف اثنان فى صحة مانسب اليهم من الخيانة بالاعزاز والاكرام حتى أنها قد اغدقت النعماء على عمر ابراهيم ولم تترك وسيلة لاسترضائه الا فعلتها وقد أعجز الناس فهم مقاصدها ولم يفسره كثير من السودانيين الا بأنه من كرامات المهدي الذي تكافيء الحكومة الذين صدقوا فى ولائه ولقد قال لي واحد من السودانيين انظر الى عمل حكومتكم كيف تصنع الجميل مع الذين ادوا خدماجليلة للمهدي مما يدل على صدق مهديته وكيف عاملتكم انتم الذين بقيتم على ولائها وناوأتم المهدى فأخفني هذا القائل ولم أحر جوابا أقنعه به لانني لم أفقه كنه مقاصدها فلعلها أقصي نظراً مني

على ان الحكومة التى هدمت قبة المهدي لتقضى على الاعتقاد بمهديته

قد أحسنت معاملة جميع الذين والوه ولم تقم ببعض من كل للذين والوها وبهذا التصرف الغريب مهدت كرامة جديدة للمهدي يتمسك بها السخفاء الذين يقولون ان جثة المهدي رفعت الي السماء من قبره قبل أن ينبش ببضع سنوات وسيأتى ذكر ذلك في مكانه

ذكر مالقيه المؤلف في مقابلته بعض الامراء

من أنواع الذل التي قاسيناها وضروب الاهانة التى كنا نعامل بها من أتباع المهدي ماأورده هنا

وذلك اني كنت ذات يوم ماشيا مع يوسف منصور في الخرطوم فمررنا بمنزل أحد اتباع المهدي المسمى الحاج خالد العمراني الذي أصله من تجار الابيض فدعاني يوسف منصور للدخول عليه لاجل زيارته فدخلنا عليه فألفيناه جالسا على فروة فقام واقفا على قدميه واستقبل يوسف منصور بكل احتفاء وفرش له فروة أيضا أجلسه عليها فتقدمت للسلام عليه فانتهرني وقال لي اجلس هناك وأشار بيده الى أقصي مكان منه فجلست على الارض فجيء بالقهوة فقدمها الغلام الى يوسف منصور فقال له قدمها لفوزى فقال له الحاج خالد ولماذا تقدمه على نفسك فقال لانه ضابط عظيم وكان ضابطاً عليّ ولأنه عزيز قوم يجب اكرامه فقال كان عزيز قوم كفرة وأنت سيده وأفضل منه وهو رقيق بل من يخرج من صلبه من الاولاد أرقاء الى يوم القيامة وانه كافر يجب على كل مؤمن ومؤمنة اهانته واحتقاره واظهار كراهيته فقلت له ياسيدى الحاج خالد اذا كنت كافراً فيما مضي من عمرى فقد أسلمت على يد المهدى فأجابني بالشتم وقال بل لاتزال كافراً يحل بيعك واسترقاقك أنت

وأولادك فقال له يوسف منصور مهلاً ان هذا الكلام غير لائق بك وان المهدى عليه السلام أوصانا بمراعاة الاسرى وعدم كسر خاطرهم واشتد اللجاج بينهما فقمت من بينهما وانصرفت لسبيلي

ومن النوادر المضحكة انني كنت يوما بحضرة محمد بن البصير الحلاوي داعية المهدى فى (الحلاوين) وكان معي أيضا يوسف منصور فقال ابن البصير إن أصحاب المهدى أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك ان نبي الله الخضر شرب من هذه (الركوة) وهى إناء يصنع من الجلد ولم يشرب من ركوة أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا الى تلك الركوة وقبلناها وضممناها الى صدورنا ووضعناها على رؤسنا التماسا لبركتها فقلت لاحد الحاضرين هل أنت مصدق بهذه الا كذوبة فالتفت الي وقال يزعم التعايشى ان الخضر جاسوس له وهذا يقول انه شرب من ركوته ونحن نقول لهما صدقتما مادمنا لانقدر على تكذيبهما ثم قال لى وهل نستطيع تكذيبهما لو ادعيا على جبريل أمين الوحى باضعاف ماادعيا به على الخضر فقلت وانى لنا القدرة على تكذيبهما فقال قبل وضم وضع واسكت والسلام

ذكر نفي عبد القادر بن ام مريوم

ذكرنا ماجري بين عبد القادر بن أم مريوم والمأسوف عليه غردون باشا

ولما أفضت خلافة المهديين الي عبد الله التعايشي قرب اليه عبد القادر المذكور وأدخله في عداد النواب الذين يعاونون القاضى في نظر القضايا التى ترفع اليه مع بقائه في وظيفة قائد لعرب (الكلا كله) الذين هم أقاربه فازداد نفوذه بين أولئك الاعراب حتي صاروا يحكمونه فيما شجر بينهم

وكانوا يقصدون داره زرافات لهذا الغرض ويقدمون له الهدايا وكانت أخباره تصل الي التعايشي الذى كان يكره تزلف الناس الى غيره فيغض الطرف عنها ولا يبدي لعبد القادر شيأيكدره

وفى ذات يوم جاء رجل يحمل البريد للتعايشى من احدي الجهات فقال له عبد القادر سلمني المظروف الذي باسم التعايشى لاسلمه له فدفعه له فاخذه وذهب الي المسجد ووضعه أمامه ممايلى مقصورة التعايشي حتى اذا فرغ من الصلاة ناوله له فتركه وذهب الى منزله بعد ان قضيت الصلاة فعثر به احد حراس الخليفة وقرأعنوانه وسلمه له فاستغرب التعايشي وجود ذلك المظروف فاستدعى الذى جاء به فاخبره ان عبد القادربن أم مريوم استلمه منه ليدفعه اليه فاستاءمن ذلك ولم يكاشف عبد القادر بشيء من أمر المظروف ولكنه أعرض عنه كل الاعراض واقصاه من قربه فعمد عبد القادر الى طريقة يستجلب بها رضي التعايشي فاشار عليه احد اصدقائه بتقديم ابنته هدية للخليفة فقدمها له وكانت بارعة فى الجمال فنالت حظوة عظيمة عند التعايشي نخرج من منزله واستدعى عبدالقادر واثنى عليه وزاد فى تقريبه والاحتفاء به بما أدهش الناس اذ لم يكونوا عالمين بسبب الجفاء والابعاد الاولين كما انهم كانوا يجهلون اسباب هذا التقريب الفجائى ولكن ظهرت الحقيقة بعد ايام قلائل وصار عبدالقادربن أم مريوم أقرب مقربى الخليفة الذي آنس هو منه شدة الميل الي قضاء شهواته من الفتيات الحسان فاخبره بوجود فتاة جميلة هى بنت رجل من أهالي (الكلاكله) أقاربه فارسله الى ذويها يطلبها منهم فبعثوا بها اليه فراعه جمالها ولكنه لما اقترب منها وجد خفاضها ليس على طريق خفاض النساء في السودان فسألها عن سبب ذلك فقالت ان عبد القادر بن أم مريوم أشار

على أهلها ان يعملوا بها هذا العمل فاحتدم التعايشي غيظاً وخرج من غرفته ليلا وأمر عشرة من رجاله أن يحضروا قطعة من جلد بقر نيء ويقبضوا على عبد القادر ويضعوا قطعة الجلد على عينيه ويتركوها عليها حتى تجف ويغلوا يديه ويسافروا به الي الابيض عاصمة كردفان واعطاهم أمرا الى عامل كردفان باستلام عبدالقادر منهم وزجه في السجن فذهب الرجال الى منزله ليلاوهجموا عليه بصورة مزعجة وساقوه من بين أهله واولاده وانفذوا ما اشار به التعايشي وسافروا به ليلا قاصدين كردفان واصبح الخبر شائعا في المدينة والناس لا يعلمون اين ذهب به الذين قبضوا عليه وخرج التعايشي علينا لصلاة الظهر والغضب ظاهر على وجهه والشرر يقدح من عينيه وبعد انقضاء الصلاة عاد فدخل الى منزله ولم يتكلم بشيء يختص بابن أم مريوم ولا بغيره ثم لزم السكوت ولم يتكلم بشيء ما عن هذه المسألة وبعد نحو ثمانية عشر شهرا جاء عبد القادر بن أم مريوم الذى ظل فى سجن كردفان وعيناه معصوبتان لا يعرف فى أى بلد هو ثم بعد ثمانية أشهر أمر التعايشي بازالة الجلد عن عينيه فازيل ولكنه مكث اياما لا تبصر عيناه شيأ ومكث بعد ذلك نحو عشرة شهور فى سجن كردفان ثم اعيد الي امدرمان وأطلق سراحه ولم يعده التعايشى الي سابق قربه

ولما اعاد التعايشى عبدالقادر بن ام مريوم اعاده بهيئة مزعجة حيث بلغت اظفاره منتهي الطول وشعر رأسه ولحيته يكاد يستر جسمه وكان مسجونا فى غرفة ليس فيها غير نافذة صغيرة يناولونه الماء والخبز منها ومن أعان ظالما سلط عليه



ذكر قصتي المرأتين

المرأتان هما حماة عبد المولى صابون أمير الجهادية وشقيق حمدان أبي عنجة. وقصة الاولى هي انها كانت امرأة أحد صناجق الشايقية ولها منه بنت ذات جمال بارع أخذها المهديون سبية فاعطاها التعايشي لعبد المولى صابون الذى تغالي فى حبها وأقبل عليها وترك نساءه ولم يلتفت اليهن

وفى سنة ١٣٠٥ أصيب عبد المولى صابون بداء الجذام ولزم الفراش فجزع التعايشي عليه اذ كان يحبه وأخذ يتردد على داره ليعوده فاغتنم نساؤه فرصة وجود التعايشي عنده للايقاع بالمرأة التي حازت منزلة عند سيدها اكثر منهن حيث تركهن كما قلنا ولم يلتفت اليهن فاجتمعن وقلن للتعايشي ان مرض عبد المولى صابون مسبب من كثرة أعمال السحر والشعوذة التي تعملهما له المرأة الشايقية للاستئثار بمحبته فصدقهن التعايشي لانه كان يعتقد السحر والشعوذة ويخاف على نفسه كثيراً منهما فسأل المرأة فانكرت وقالت انها لا تخرج من دارها وأنى لها بالدجالين والمشعوذين الذين يعملون هذه الاعمال فلم يصدقها وعزم على القبض عليها فالح عليه زوجها وتضرع له ان يتركها فقيل له ان امها هى التي تذهب الي خارج الدار وتروح الى الدجالين فاستنطقها فانكرت وقالت له انني لم أصنع شيئاً من الاسحار والشعوذة ألبتة فقال لها ولماذا أصيب عبد المولى بهذا المرض اليس ذلك نتيجة أعمالك السحرية وأمر بقطع يدها فقطعت وتوفيت بعد بضع ليال

ولشدة جبن التعايشي خاف على نفسه من مثل ما أصيب به عبد المولى معتقدا أن ذلك المرض لا يحدث الا من الشعوذة والاسحار وكانت له حماة من

أهل دارفور بنتها من نسائه الأول وقد رزقت منه بولد وكان يمنع أقارب نسائه من رؤيتهن حتى ان المرأة كانت تظل عامين أو ثلاثة لا يؤذن لها بالدخول في بيته لرؤية بنتها وكان خصيان التعايشي يعظمون هذه المرأة ويكرمونها نظرا لاحفادها أولاد التعايشي ولذا كانوا يدخلونها خلسة لرؤية بنتها وفي ذات يوم رآها التعايشي لابسة تمائم كألوف عادة نساء السودان اللواتي يلبسن أحجبة كبيرة فامر بالقبض عليها وتمزيق أحجبتها التي جعل يتأمل فيها كانه يقرأ ما فيها بادية عليه علامات الدهشة والاستغراب وبعد أن أمر بسجنها نفاها الى خط الاستواء فماتت جوعا في الطريق وعاقب الخصيان أشد العقاب وقطع يد الذي اذن لها منهم في الدخول فتأمل

ذكر رسالة محمد ماهر باشا للمؤلف

كنت قد عرفت محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن منذ كنا تلميذين في المدارس واتصلت المحبة بيننا من ذلك العهد

ولما وليت على مديريات خط الاستواء كان هو وكيلا لبراوت بك الامريكاني الذي كان حاكماً على تلك الاقاليم قبلي. وفي أوائل سنة ١٣٠٦ أمر التعايشي بهدم منزلي ومنازل جيراني لتوسيع موردة أم درمان فوقعت في حيرة شديدة لما كنت فيه من الاعسار وزيادة علي ذلك انى كرهت المقام بجوار يوسف منصور فعزمت على الاقامة بجوار السوق في حي المسلمانيين ولكنني كنت غير قادر على انفاذ هذا العزم لما كنت فيه من الفقر المدقع وبينما أنا في هذه الشدة طرق باب داري طارق بعد العشاء فسألته عن اسمه فلم يجاوبني فداخلني الخوف وظننت أنه جاسوس وامتنعت من فتح الباب له

وأخيراً خفض صوته وقال لى انى آت اليك برسالة من مصر فطار عقلي ولم أشك فى أنه عين عليّ فانتهرته من داخل الباب وقلت له اذهب أيها الكاذب فاسرع الرجل بالانصراف خوفا على نفسه أيضاً وبت ليلتي وأنا خائف أترقب وفي ضحوة الغد جلست أمام بابي فجاءنى رجل بزى التجار المصريين فسلم عليّ وقال لي انني جئتك البارحة لأدفع لك نقوداً وكتابا من أخ لك في أصوان فقلت له انى أخاف أن تكون عيناً عليّ فان كنت صادقا فأقسم لي علي المصحف الشريف أنك صادق فيما تقول وانك لست بجاسوس فحلف لي على المصحف فاطمأننت وسكن روعي ثم دفع الى كتاباً ففضضت غلافه فرأيت فيه توقيع محمد ماهر باشا فقرأته فاذافيه السؤال عن صحتي وانه مرسل اليّ باربعين جنيها انكليزيا ورجاني أن أخابره عن كل مايلزمنى ثم دفع اليّ الرسول الاربعين جنيها فأحببت مكافأته باعطائه خمسة جنيهات فلم يقبل وقال لي ان الذى أرجوه منك هو أن تكتب لى كتابا الى أخيك محمد ماهر محافظ أصوان باننى أسلمت اليك الاربعين جنيها تامة لتظهر أمانتى عنده فوعدته بذلك ثم انصرف وعاد اليّ فى المساء بهدية من السكر والصابون والبن والملابس فكتبت له الكتاب بما أراد وأودعته ذكر الهدية التى قدمها لى الرجل من نفسه. فجزى الله عنى الشهم الهمام محمد ماهر باشا خير الجزاء وبلغه مأموله فى الدنيا والآخرة آمين

وعلى اثر ذلك ذهبت الى حيّ المسلمانيين وبنيت فيه منزلا انفقت عليه اكثر من مائة ريال فذهب يوسف منصور وأخبر الخليفة بانني سكنت في حي المسلمانيين وطلب منه اخلاءه عن المسؤلية اذا فررت فاستدعانى التعايشي وأمرني بالعودة الى جوار يوسف منصور فبعت المنزل بربع قيمته

ودفنت الى جوار يوسف المذكور

ومن الحوادث التي اتفقت لي بعد عودتي انه كان لي ابن اسمه محمد ولد بعد سقوط الخرطوم ببضعة شهور وكان عمره وقتئذ ثلاث سنوات وكان يراني اختبئ في قعر بيتي وأدخن السجاير وفي ذات يوم أخذ الورق الذي ألف فيه الدخان وقعد امام المنزل ولف فيه رملا على هيئة السجاير واتفق ان حسن ابن حسين أمير المصريين جاء لزيارتي وكان شديد التعلق بالمهدوية لكنه كان يحب بني جلدته المصريين ويغار عليهم ويدفع عنهم كثيراً من المصائب فخرجت للقائه فرأى ابني محمدا وبين يديه سجاير الرمل فسأله قائلا ما هذه يا بني فقال له ان أبي يصنع مثل هذه ويشعلها بالنار فيخرج الدخان من انفه وفيه ففطن حسن حسين لكلامه وادرك انى أدخن في منزلي فهالني ذلك وانتهرت ابني فقال لي أأذهب الى داخل البيت وآتي بالسجاير التي تدخنها فامسكته حسن حسين والتفت اليّ يحذرني من وخامة العاقبة اذا شاع عني ذلك ولم ينلني منه أقل مكروه لانه كان كما قدمنا مصريا لا يرضى لقومه ان ينالهم سوء من المهدوية بالرغم عن تعلقه بها وبعد انصراف الزائر أمسكت الغلام وأوجعته ضربا كيلا يعود الى مثلها

ذكر مسألة الشيخ محمد عبد الماجد وصلبه

كان في أحد أحياء أم درمان القريبة من سوقها رجل من اهالي مديرية بربر وكان ذا تدين وورع وكان ناقما على المهدوية منكراً كل أعمالها وكان الخليفة كما تقدم قد حذر الناس من الاجتماع لجمعة أو جماعة في غير مسجده وكان الشيخ محمد عبد الماجد ملازما لمنزله منقطعا عن شهود الجمعة مع المهديين

وجماعتهم وكان جيرانه وجلهم مصريون يجتمعون في منزله فيصلي بهم جماعة ثم يعظهم ويبين لهم فساد دعوي المهدوية ومخالفة مدعيها للشريعة المحمدية الغراء حتى أفتى بوجوب قتال هذه الفئة الضالة فنمي خبره الى التعايشى الذي أرسل اثنين من خاصته حضرا مجلسه وسمعا مايقوله وعادا اليه فاخبراه به فارسل اليه مائة رجل قبضوا عليه وعلى جارين له احدهما مصري وطرحوهم فى السجن وكان الوقت ليلا وفى الغد عقد مجلس اجتمع فيه القضاة كلهم برئاسة الخليفة على حلو وقدم الرجل وجاراه للاستنطاق وكان المجلس هائلا اذ كانت القضاة والرئيس محاطين بألوف من الفرسان والمشاة والسيوف مسلولة على رؤسهم فلم يهب الشيخ محمد عبد الماجد هذا المنظر الهائل بل جلس ثابت الجنان ولما سئل اعترف بكل ماسند اليه من التهم وسردها معززة بالادلة الشرعية وقال لهم هذا هو الحق وانتم فى ضلال وأنا أدعوكم الى التوبة والعدول عنه أما صاحباه فانكرا انهما يعرفانه وادعيا ان ليس بينهما وبينه علاقة وهما فى ذلك صادقان اذ أحدهما لم يكن ساكنا في هذا الحي بل جاء لزيارة الثاني الذي هو تاجر مشغول بتجارته لا علاقة له مع هذا الرجل الذى أفحم من في المجلس بادلته حتى احتدم من فيه بالغيظ والحنق عليه فامروا بالرجل وصاحبيه ان يصلبا فسيقوا يحيط بهم بضعة آلاف رجل حتي قدموا الى المشنقة فصلب الشيخ محمد عبد الماجد الذي كان من أمره انه لما اقترب من المشنقة صعد الى الكرسي ساكن الجاش وفاه بكلام يدل علي انه آثر الموت دفاعاً عن الحق وانتصاراً للملة الحنيفية فرحمه الله رحمة واسعة واكرمه بكرامة الشهداء أما صاحباه وهما عبد المجيد حسن ومحمد نور فاعيدا الى السجن وعوفيا من الصلب

ذكر تشييد قبة المهدي

سردنا كثيراً من أعمال التعايشي بعد وفاة سلفه المهدى ولما كان بعضها يدل دلالة صريحة على انه انما كان يظهر اعتقاد دعوي المهدية حرصا على سلطانه الذي ورثه من وراء هذه الدعوى ويدل على ذلك انه صادر أموال أقارب المهدي واضطهد أولاده وصار يحقرهم في مجالسه الخصوصية ويعيرهم بانهم دنقليون لا يصلحون الا لحراسة الابواب والاشتغال بمهنة ملاحة السفن وتداولت الالسن هذه الاقوال وعدها الناس دليلا ساطعا على انه لم يكن مصدقا بالمهدي وانما كان يراءى الناس عزم على تشييد قبة على قبر المهدى ليبرهن للناس على عكس ماخالج صدورهم فكلف مهندسا مصريا اسمه اسماعيل افندى فوضع رسما لهذه القبة ذا أربع زوايا يبلغ طول كل زاوية منها سبعة عشر ذراعا وجعل عرض الاساس اكثر من مترين وبعد رفع البناء نحو خمسة امتار جعلوه مثمنا ثم مستديرا وفى يوم وضع الاساس اقيم احتفال كبير وذبحت البدن والثيران والخرفان وقدمت الاطعمة للالوف من الحاضرين وامسك التعايشي بيده معولا وبدأ بحفر الاساس

أما الاحجار فانهم كانوا يجلبونها من انقاض منازل الخرطوم التى كانوا يهدمونها ومن انقاض ديوان الحكمدارية والمديرية والارصفة التي على ضفة نهر المقرن وأنقاض ماهدم من الكنيسة الكاثوليكية . وجميع البنائين الذين بنوها مصريون أما الفعلة فهم متطوعون من الدراويش والامراء وكان البناؤن يقضون اياما عديدة فى العمل ولا يعطون شيأ ما وفى بعض الايام جلس التعايشى وكلم من حوله قائلا ان الذين يباشرون بناء قبة المهدى فى الحقيقة هم الملائكة اما الذين

تروهم من البنائين والفعلة فلا عمل لهم فى الحقيقة بل هم متحركون بارادة الملائكة فقال المهندس اسماعيل أفندي للبنائين أسمعتم ما قاله الخليفة فقالوا بلى فقال لهم ان الخليفة اعتبركم ملائكة في الحقيقة وهذا الاعتبار هو الذى حال دون اعطائكم شيأ من الاجرة لان الملائكة فى غنى عن الطعام والشراب اللذين من كان منزهاً عنهما لا يعطي شيأ من أجرته فضحكوا وتعجبوا من وقاحة الخليفة وبعد سنة تم تشييد القبة ووضعت في داخلها المصابيح وفرشت بالابسطة وأحيط القبر بمقصورة من النحاس ووضع عليه تابوت من الخشب صنعه نجارون مصريون ووضع على التابوت كسوة من الجوخ وثريات من الفضة والذهب وصار الناس يقصدونها للزيارة فى كل يوم

ذكر المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و١٣٠٧

لما كانت هذه المجاعة قد لحقت السودان كله وكانت أسبابها مختلفة رأينا ان نذكر تأثيرها فى كل إقليم على حدة مبتدئين بذكرها فى أم درمان فنقول

المجاعة في ام درمان والجزيرة

من عادة أهل الجزيرة انهم يخزنون محصولاتهم من الذرة اتقاء شر المجاعات التي تنتاب البلاد بسبب انحباس المطر عنهم

وقد ذكرنا ان التعايشي لما أصدر الاوامر لاهل الجزيرة بمغادرتها وسكني أم درمان عادوا الى بلادهم فوجدوا المخزون من محصولاتهم قد نهبه الجهادية وفى سنة ١٣٠٦ لم تجد السماء عليهم بمطر فانتدب التعايشى ابراهيم عدلان أمين بيت المال ومعه عشرة من الامناء ووجههم الى الجزيرة لاغتصاب

ما بايدي الاهلين من الحبوب وأخيرا أصدر التعايشي أمره بمصادرة نصفها وترك النصف الآخر لهم فارتفع ثمن الذرة حتى بلغ ثمن الاردب منه أربعين ريالا مجيديا أى نحو سبع جنيهات انكليزية واغتال ابراهيم عدلان ومن معه من المندوبين عشرة آلاف أردب تقدر قيمتها باربعمائة الف ريال

وكانت بلاد العبيد الواقعة جنوب الخرطوم قد هطل فيها المطر بكثرة فهرع التجار اليها لجلب الغلال منها فأصدر التعايشي أمرا باخذ نصف جميع الغلال التي تجلب من خارج أم درمان بسعر ست ريالات من الريال المسمي المقبول تباع لاقاربه التعايشة الذين تقدم لنا ذكر وصولهم لام درمان فارتفعت الاسعار وعز وجود القوت وهلكت أهالي القرى الواقعة جنوب سنار وبادوا حتى صرنا ندخل القرية فلا نجد فيها دياراً والناس أموات على أسرة نومهم وداخل حجراتهم هم وأولادهم ولم تصب كردفان بشيء من هذا القحط اذ كانوا أمطروا بمطر غزير أحيي موات الارض وأنبت الزرع فهرع التجار اليها ليجلبوا غلتها كما هرعوا الي بلاد العبيد وكان ثمن الاردب من دخن كردفان لا يتجاوز ريالين ولكن لا توجد جمال للحمل وانى توجد وقد قصصنا عليك فيما تقدم ما حاق بالابل والقبائل الرحالة فكانت أجرة حمل الاردب من كردفان الى أم درمان أخذ نصفه ثم كانت النتيجة صعود الاسعار في (كردفان وفشوده) اللتين هرع الناس اليهما لجلب الاقوات منهما واشتدت وطأة المجاعة وتضاعفت ويلاتها وزاد الطين بلة تفشي الطاعون البقري في ماشية السودان تفشيا مريعاً حتى هلك جل البقر ولم يبق منه في انحاء السودان كله الا شيء قليل جداً فارتفعت أسعار اللحوم وساءت الاحوال وفي أواخر السنة هطلت الامطار فتفاءل الناس خيرا وجادت الارض بمحصول وافر ولكن قبل اوان الحصاد

ببضعة أسابيع نزل الجراد على المحصول فالتهمه ولم يبق منه شيئاً ودخلت سنة ١٣٠٧ والمجاعة لا تزال في أم درمان والجزيرة ولكن الاسعار هبطت الى النصف حيث بيع الاردب بعشرين ريالا مجيديا وليس لذلك من سبب غير فناء الناس ويقول الخبيرون ان الذين هلكوا بالمجاعة لا ينقصون عن ثلاثة أرباع السكان

المجاعة في اقليم بربر

ذكرنا ماكان من أمر عزل محمد الخير عن بربر وتولية عثمان الدكيم عليها وفي أوائل سنة ١٣٠٦ حين بدأ القحط بام درمان والجزيرة أصدر التعايشي منشوراً بمنع ارسال الاقوات الى بربر وتوعد من حملها اليها بالقتل ووضع حراسا على ضفة النهر لمنع السفن التي تحاول الوصول الى شمال أم درمان ثم أصدر أمراً الى عثمان الدكيم حاكم بربر ببث الرجال في انحاء البلاد لاتلاف الزرع قبل استوائه فقلع الزرع وطوله نحو شبرين وبعد ذلك أمر بقطع السبل ومنع أهالي بربر من مغادرة ديارهم وخطب على المنبر خطبة عدد فيها سيآت الجعليين سكان ذلك الاقليم ولم يترك وصمة الا نسبها اليهم وقال انهم اغتالوا المال يوم فتح بربر ولما أرسل لهم المهدي المنشورات وأمرهم برد ماغلوه من الغنائم كادوا يثورون على المهدي ويخرجون عن طاعته وكان الانكليز وقتئذٍ زاحفين على (بربر وابو طليح) ثم أمر أن لا يترك زرع لهؤلاء المنافقين وأن يحجر عليهم ليموتوا جوعا في بلادهم فنفذت اوامره وهلك الجعليون وماتوا في مضاجع نومهم ولم ينج منهم الا نحو العشر وبلغ ثمن الكيلة من الذرة عشرين ريالا وفقد القوت بالكلية

المجاعة في دنقلة

اما المجاعة في دنقلة فمن أهم أسبابها انخفاض النيل في تلك المديرية لان ري مزروعاتها مثل ري اطيان صعيد مصر يتوقف على زيادة النيل وزد على ذلك ان المهدوية منذ حلولها في دنقلة حافت على النفوس وصادرت الاموال وبلغ ثمن الكيلة من الذرة عشرين ريالا ولكن ساعد على تخفيف وطأة المجاعة وجود التمر بكثرة في دنقلة من محصولات النخيل

المجاعة في كسلة

ذكرنا ان التعايشي فصل مديرية كسلة عن سلطة عثمان دقنة وولى عليها قريبه حامد بن على الذى حكمها بصرامة وصادر أموال قبائلها وقطع السبل عليهم فهلكت القبائل ونزح اكثرها الى بلاد الحبشة وهلكت قبيلة الهدندوة التي كان عدد نفوسها نحو مليون نسمة . ومما يجب ذكره هنا ان حامد بن على أرسل الى التعايشي نحو مائتي ألف ريال عدا الذهب والفضة اللذين سلبهما من الاهلين

المجاعة في القضارف

ذكرنا القضارف وخصوبة تربتها وكثرة حاصلاتها ولما تفشت المجاعة في السودان فى أوائل سنة ١٣٠٦ لم تكن وطأة القحط شديدة على تلك الجهة وفي بداية سنة ١٣٠٧ زحف الزاكى طمل من القلابات بعد ان ترك بها حامية لا تتجاوز ألف مقاتل الى القضارف ووزع جنده في القرى فانتهبوا ما بايدى الناس من الغلال وجمعها فى بيت المال وأمر أن لا يباع الاردب منها الا بمائتى ريال

فهلك النـاس واكلوا الميتة والجلود واكل بعضهم أولادهم وقد حكى لي من كان بالقضارف وقتئذٍ ان احدى نساء الامراء توفيت بغتة وكانت ضخمة الجثة فتآمر أناس ممن عرفوها ونبشوا قبرها في الليل وقطعوا لحمها وانضجوه في القدور واكلوه قبـل ان يسفر الفجر وفي الغد وجد القبر منبوشا ففتشوا المنازل فوجدوا فيها لحوم الآدميين وعظامهم مما يدل على ان أهالي القضارف كانوا يقتاتون بلحوم بعضهم ولذلك لم يعرف من نبش قبر تلك المرأة

ولم ينج من مخالب المجاعـة في القضارف غير أولى اليسار ولقـد رأيت في ام درمان رجـلا من اهل القضارف متسولا وقد كان راس مال تجارته لا يقل عن مائة الف ريال وكان له نحو الفي مملوك يشتغلون بحراثة أراضيه الواسعة فذهب رأس ماله وأراضيه ومماليكه في شراء الغلة حتى خرج من تلك السـنة لا يملك شروى نقير. والحاصـل ان القضارف لم يبق فيهـا من السكان اكثر من بضعة آلاف نسمة وهلكت قبيلة (الضباينة) ايضا وهي قبيلة رحالة كبيرة تفوق قبيلة الشكرية التي تقدم ذكر فنائها ماشية ونفوسا

وأما كردفان فقد قلنا ان المطر هطل فيها بكثرة فرويت ارضها ونجت حاصـلاتها من الجراد وبالرغم عن ذلك كله وقعت في المجاعة لان التعايشي جمع اكثر من عشرة آلاف فارس من أقاربه وانفـذهم اليها فنزلوا القرى ونهبوا ما بايدي سكانها من الحبوب وذبحوا ماشيتهم فارتفعت أسـعار الحبوب وفشت المجاعة في البـلاد حتى تجاوز ثمن الاردب عشرين ريالا أما مظالم المهدوية في كردفان فحدث عنها ولا حرج اذ قد تجاوزت حد المعقول وبعد ان كان أهاليها اغني أهالي السودان لان الصمغ وريش النعام من اكثر محصـولات بلادهم صاروا في نهاية الفقر المدقع وخربت قري عديدة

وهجرها سكانها ولحقوا بالجبال التي حوالى كردفان وسكنوا بها ليبعدوا عن المهدويين وظلمهم الفاحش

وأما دارفور فقد اجتاحت الحروب بلادها وفشى القحط في ارجائها وخربت بلادها ونزح اكثر سكانها الى الجهات الغربية واستوطنوها ومنهم من اعتصم بالجبال ولحق بها . والخلاصة ان البلاد السودانية كلها قد عضت بناب القحط وحل الخراب والدمار محل العمار حتى صارت تلك البلاد كلها ينطبق عليها قول الشاعر

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا　　أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وليس لذلك من سبب سوى قصد التعايشي حلول هذه المصائب بأهالي تلك البلاد ليضعفهم ويأمن عاقبة ثورتهم عليه فانه لو لم يرسل الجهادية ويوعز اليهم بنهب محصولات الجزيرة لما وصل حال المجاعة الى الدرجة التي وصفناها لان أهالي السودان يخزنون الغلال بكثرة حتى ان الواحد منهم ليخزن في السنة غلة تقوم بقوته عدة سنوات اتقاء شر المجاعات التي تنتابهم في اكثر السنين وقد علمت ان مجاعة الجزيرة لم تصل الى الحد الذي تقدم لنا ذكره الا بعد ان صودرت غلات اهلها ومجاعات بربر لم يقصد بها التعايشي غير هلاك أهلها وكذلك مجاعتا كسلة والقضارف قد علمت أسبابهما وكل ذلك لم يقصد به التعايشي الا اضعاف الاهلين فانه لما أحس بامتعاضهم منه وخشي عاقبة ثورتهم عليه لم يغير سياسته العوجاء التي أوجبت امتعاضهم منه بل عمد الى اهلاكهم وفنائهم ليصبح آمناً على مركزه ويبيت مطمئنا على ملكه فصار مثله مثل البوم يسر بالخراب اكثر من العمران

ونقل لي ثقة أن احد مقربي التعايشي قال له يوما ان الكلب اذا جاع

لزم سيده فقال له التعايشي ان قتل الكلب ومحو اثره من الارض خير من اجاعته وكان قصد ذلك المقرب من كلامه أن يصادر التعايشى غلات رعاياه فتكون نتيجة ذلك الجوع فاجابه بان موتهم خير من هذه الطريقة

أما ماأصاب المؤلف من هذه المجاعة فانه يفوق الوصف فمن ذلك أني ذهبت يوما الى دور البقارة لالتقاط الحبوب المبعثرة حول اسطبلات الخيول وبعد ان جمعت نحومدين منها جاءني اعرابي فاخذه مني فيئست من الحياة وكدت أهلك انا واولادي لو لم تصل اليّ نقود مرسلة من صديقي الوفى محمد ماهر باشا محافظ مصر الآن اذ بها امكنني أن اتخلص من مخالب المجاعة الاولى حتى دخلت سنة ١٣٠٧ وهبطت أسعار القوت الي النصف والذين استطاعوا الخروج من هذه السنة من أولي اليسار لم يخرجوا الا فقراء لايملكون شروى نقير أما الفقراء فقد ماتوا رحمة الله عليهم

وقد ملك التعايشى كثيرا من اقاربه البقارة الأراضى التي مات اهلوها في سنتي المجاعة فانطلقت ايديهم في البلاد بالسلب والنهب وما بقي فى ايدى الاهلين من مواد الحياة اصبح عرضة لعبث البقارة ومع ذلك كله كانوا ناقمين عليه غير راضين باحكامه حتى أنهم كانوا يحنون الى ديارهم ويودون العودة اليها

ذكر فرار الغزالي وقتله

الغزالى بن احمد خوف زعيم قبيلة التعايشه وكان ذا ثروة واسعة من الماشية ونفوذ عظيم فى قبيلته وكان فارسا صنديدا تهابه القبائل وتتقي بأسه الاعداء

ولما استقدم التعايشي قبيلة التعايشة ليشد بها عضده وعد زعيمها الغزالي بان يجعله وزيره وبذلك تمكن من استمالته

وكان الغزالي بعد وصوله أمدرمان يستنجز التعايشي الوعد فلا يجد منه غير المماطلة والتسويف وكان من سياسة التعايشي ان يسند الوظائف الى ضعفاء البقارة وزعانفهم ممن تؤمن غائلته لا الى من يكون فارسا قوي الشكيمة مثل الغزالي خوفا من استمالته الناس بقوته وحزمه

ولما يئس الغزالي من نيل ما تتوق نفسه اليه من الرئاسة وشاهد مظالم التعايشي وسوء تصرفه وطن عزمه على الفرار من أمدرمان واللحاق ببلاد التعايشة في دارفور حيث يلحق بالذين تخلفوا عن مرافقته الي أم درمان من قبيلته وكان يظن ان اكثر قومه الذين جاؤا معه يرافقونه ولا يتقاعدون عنه ولكن خاب ظنه ولم يتبعه الا أحد مواليه وابن أخته فغادر الثلاثة أمدرمان في أول الليل وساروا متجهين الى جهة الغرب وفي الغد نمي خبرهم الي عبد الله التعايشي فامر نحو سبعمائة رجل ان يتأثروهم وبعد مسيرة بضع ليال ادركوهم في الطريق وقد بلغوا جهة يقال لها (كجمر) بالقرب من بلاد كردفان الشمالية فوقف الغزالي وقفة من لا يحسب للموت حسابا وأطلق على رجال التعايشي النيران من بندقيته حتي طرأ عليها خلل أوقف متابعة الاطلاق فامتشق حسامه حتي أحاطت به الخيل وقتلوه وحملوا رأسه الي التعايشي اما رفيقاه فقد وقعا أسيرين وقفل القوم راجعين الى أمدرمان . وقد ساء وقع هذه الفاجعة في قلوب التعايشة واشتد حنقهم على عبد الله التعايشي وسيأتى ذكر شيء من نتائج هذه المسألة

هذا وقد تقدم لنا ان نحو النصف من قبيلة التعايشة كرهوا ان يرجعوا

الي أم درمان فغادروا ديارهم ولحقوا ببلاد (وداى) ولولم يغتر الغزالي بسراب وعود التعايشي ويجب دعوته لما جاءالي أم درمان أحد من قبيلة التعايشي التى كان مجيئها شؤما وويلا على البلاد وعلى كل حال فان الغزالي ذهب كما ذهب غيره من الذين ساعدوا المهدوية وعاونوا المهدي وخليفته على المظالم ولا غرو فمن أعان ظالما سلط عليه

وكان يعقوب شقيق التعايشي يضمر السوء للغزالي ويخاف على مركزه منه لزعامته على قبيلة التعايشة ولذا سعى بينه وبين أخيه التعايشي حتي أوقع النفرة بينهما لينام مطمئنا في منصبه الذى كان حريصا على بقائه فيه

ذكر صلب ابراهيم عدلان امين بيت المال

ذكرنا ماكان من أمر عزل أحمد سليمان أمين بيت المال واسناد منصبه الى ابراهيم عدلان الذى كان صنيعته وأحد اعوانه في بيت المال

ولما مات المهدي وظهر مايضمره التعايشي لأحمد سليمان مال ابراهيم عدلان عنه وصار يشي به عند التعايشي حتي بوأه منصبه وقربه منه وصيره من ذوى شوراه فاستخدم هذا المنصب وجمع بسببه أموالا طائلة وقد أشرنا الى ما اغتاله من الغلال في سنة المجاعة الاولى والحاصل انه أصبح ذا ثروة كبيرة تعد بمئات الالوف وتمكن الغرور منه حتى صار ينازع يعقوب في النفوذ ويسعى به عند أخيه التعايشى الذى كان يندهش من جرأته ويخفي تأثره من وقاحته التي دفعته الى منازعة أخيه وقد رأيت ابراهيم المذكور جالساً بحضرة يعقوب غير مكترث به ولاجاث على ركبتيه كما يفعله الدراويش

وصار ابراهيم المذكور ذا نفوذ عظيم وشاد لنفسه داراً واسعة ملأها بالحظيات من الفتيات الحسان وجمع حوله عدداً كبيراً من الغلمان وتغالي في اظهار الابهة وتمادي في الغرور حتى حسده القريب والبعيد واكثروا من السعاية به عند التعايشى وكان يعقوب في طليعة أولئك الواشين

وفي أواخر سنة ١٣٠٥ قبض عليه التعايشى وزجه في السجن وصادر ما ظهر من أمواله حيث لم يهتد الى جميعها ثم اطلقه وأعاده الى منصبه

وفي جمادي الثانية سنة ١٣٠٦ نفدت الاقوات التى كان ابراهيم عدلان صادرها من أهالي الجزيرة كما ذكرناه فيما تقدم ثم دخلت سنة ١٣٠٧ وقد التهم الجراد محصولات البلاد قبل زمن الحصاد وقل ورود الغلة الى أم درمان حيث لم يجد الجباة محصولا جديداً يأخذونه لبيت المال وهلك الناس من مجاعة السنة الماضية ولم يبق غير أولي الثروة الذين نفد معظم ثروتهم ولم يبق لديهم من المحصول غير قليل من الذرة استبقوه لقوتهم وأصبح التعايشي عاجزا عن تقديم الاقوات الى أقاربه البقارة فعزم على مصادرة ثلاثة ارباع مابقي من الغلال في ايدي أهل الجزيرة فاستدعي ابراهيم عدلان وعرض عليه انفاذ هذا الامر فامتنع من قبوله وقال للتعايشى ان ما بقى بايدي الاهلين لا يقوم بحاجتهم وان مصادرة هذا القدر منهم ضربة قاضية على من فى الجزيرة من السكان فاجابه هكذا أمرت وعليك ان تسافر بنفسك لانفاذ هذا الامر فامتثل وغادر أم درمان وأقام بالجزيرة زهاء ثلاثة أشهر فتكت في خلالها المجاعة فتكا ذريعاً بالبقارة وظل التعايشي ينتظر من وقت لآخر مجيء الاقوات من ابراهيم عدلان الذي لم يوافه بشيء ما وأخيراً عاد الى أم درمان وطفق يخبر التعايشى بما استعقب المجاعة من تدمير البلاد وهلاك

السكان ظنا منه ان هذه الاقوال تكون اعظم شفيع له لدي التعايشى الذى كان لا يجهل صدق قوله ولكنه لما كان يقصد خراب البلاد وهلاك سكانها أظهر تكذيبه واستدعى القضاة فاستنطقوا ابراهيم عدلان عن سبب عدم ارساله الغلال من الجزيرة فاعتذر لهم بما تقدم فاستدعى التعايشي رجلا اسمه (أحمد السنى) من عمال بيت المال فتعهد له باحضار الغلال من الجزيرة فزوده بالاوامر وذهب اليها وبعد ايام قلائل أرسل له السفن مملوءة بالغلال. ويجىء فيما بعد ذكر بقية أخبار أحمد السني وما آل اليه أمره من الرئاسة على الجزيرة كلها ولا يعزب عن القارئ انه قام بانفاذ رغبة التعايشي حيث صادر مابقى بيد الاهلين من اسباب الحياة. على ان امتناع ابراهيم عدلان من انفاذ ما أراده التعايشى عاد بفائدة هى قرب موسم الزراعة حيث كان ما بيد الناس من الغلال يقوم ببعض ضرورياتهم ريثما يجيء زمن هطول الامطار

ثم ان التعايشى قبض على ابراهيم وكبله بالحديد وفى الغد شكل مجلسا لمحاكمته تحت رئاسة الخليفة على حلو فحكم عليه بالاعدام شنقا ونفذ ذلك الحكم بعد ساعتين من صدوره

وابراهيم عدلان هذا أصله من قبيلة حقيرة فى الجزيرة اسمها (الخوالدة) وأمه من قبيلة تسكن (ولد مدنى) يقال لها (المدنيين) وكان يتجر فى كردفان بأموال بعض تجار الاسرائيليين المصريين ثم لحق بالمهدى حينما حاصر الابيض ومن ثم اصطنعه احمد سليمان أمين بيت المال ووكل اليه بيع الارقاء والماشية التي لبيت المال ثم جوزي كما جوزى سنمار وسيأتي ان أحمد السني سعي بابراهيم عدلان عند التعايشى فكان من امره ماكان

ذكر بقية اخبار ابراهيم عدلان ومسألة مصادرة العاج

لما ألقى التعايشي القبض على ابراهيم عدلان انتدب الزاكى عثمان البقارى واحمد دىأحد كتبته لمراجعة دفاتر بيت المال وابداء رأيهم فى أعماله فقبضوا على كاتب أسرار ابراهيم عدلان وأودعوه السجن وفتشوا بيته فوجدوا ضمن أوراقه وريقة فيها رسم من نوع الرسوم التى يسميها جماعة المشعوذين (الاوفاق) أو (الخواتم) مكتوبا فيها « الملك عبد الله » أي التعايشى وفيها أيضا اسم ابراهيم عدلان فاستنتجوا من ذلك ان تلك الورقة صنعت لاستمالة قلب التعايشي لمحبة ابراهيم عدلان فعرضت تلك الوريقة ضمن أوجه الاتهام التى اتهم بها ابراهيم المذكور فقال قضاة الجهل والظلم مايأتي «ان تسمية الخليفة بالملك تدل على ان فاعلها غير مصدق بالمهدية ومن كان كذلك فهو كافر ودمه هدر وماله وأولاده غنيمة للمسلمين »

ومنذ استولت المهدوية على أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء صار عمالها يجلبون لها العاج وفى آخر عهد ابراهيم عدلان جاءت ارسالية من العاج فاصدر التعايشى أمراً ببيعها من التجار الذين أذن لهم بحملها الي سواكن لبيعها هناك فتلاعب ابراهيم عدلان في تقدير قيمتها حتي انه كان يبيعها للتجار بنصفها ويشركهم فى الربح وأثبت كاتب أسراره انه أعطى أحد أولئك التجار أربعة آلاف ريال وكتب صكاً بينهما على أن يكون رأس المال ديناً على التاجر والارباح مناصفة بينهما فاشتري التاجر بالاربعة آلاف ريال عاجا من بيت المال تقدر قيمته الحقيقية بثمانية آلاف ريال فعقد التعايشى مجلسا من القضاة وقال لهم انه لم يأذن لابراهيم عدلان فى بيع العاج وقد باعه وأنفق

ثمنه فى مصارف بيت المال العامة مع ان العاج فيء والفيء من نصيبه الخاص به واستدعى أعوان بيت المال ووبخهم على مافعله رئيسهم ابراهيم عدلان فلم يكن منهم غير الاستغفار والتضرع بطلب العفو وهم لايجهلون ان الآمر ببيع العاج هو التعايشي وفى بيت المال الامر الصادر منه ببيعه ثم أفتى القضاة بابطال بيع العاج وجواز مصادرته من التجار فأرسل مندوبين خلفهم الى سواكن أخذوا مابأيدى التجار من العاج قبل أن يتصرفوا فيه وكتب التعايشي بدفع العاج المصادر الى تاجر سواكنى اسمه (عمر كشه) ليبيعه بمعرفته ويشترى منه بعض أدوات كياوية تحتاج لها معامل الخرطوش

وبلغت قيمة ماصودر من العاج أربعمائة ألف ريال مجيدي وفقد أكثر من أربعمائة تاجر رأس مالهم وصاروا فى حالة يرثى لها ولم يبق لديهم نفقة عودتهم من سواكن الى أوطانهم

وأكثر التعايشى من البحث والتنقيب على ثروة ابراهيم عدلان فلم يعثر على شيء منها والمرجح انه غيب أمواله فى جوف الارض ولا يعرف موضعها غيره وستكون نصيب من يخدمه الحظ فيغتنم تلك الخبيئة التي تقدر بمئات الالوف من الذهب

وخلف ابراهيم عدلان فى وظيفة أمانة بيت المال النور ابراهيم الجريفاوى الذي كان أمين بيت مال بربر وقد ذكرنا فيما مضي طرفا من سيرته وأعماله

ذكر حادثة العبابدة وابعادهم

العبابدة قبيلة تسكن حوالي مدينة أصوان وهى تنقسم الى بطنين (العشاباب) و (المليكاب) وهؤلاء أقل عددا من الاولين وقوام معيشتهم

الماشية كسائر الاعراب ولكن بسبب عدم خصب البلاد التي يسكنونها لا تقوم الماشية بمعيشتهم قياما يصرف وجههم عن غيرها من سبل الارتزاق

ولما افتتح المغفورله محمد على باشاالسودان اشتغل رجال قبيلةالعبابدة بمهنة تسيير القوافل التجارية والحربية فى طريق الصحراء بين (كروسكو وأبوحمد) وبالرغم عن قلة عدد المليكاب وكثرة سواد العشاباب استأثرالمليكاب بالزعامة على القوافل التى تسير بين مصروالسودان وبالعكس ونبغ منهم رجال احرزوا الشهرة والنباهة في الازمان التى تقدمت ولاية ساكن الجنان محمد على باشا على الديار المصرية

ولما قامت ثورةالمهدويةفى السودان كان حسن ابوخليفة بن اخى حسين باشا خليفة قابضا على رئاسة تسيير القوافل بين مصر والسودان فانضم الى المهديين وكتب له المهدى أمرا بالرئاسة على قبيلة العبابدة والدعوة له حوالى مديرية اصوان وشهد بعض الوقائع التى انهزم فيها دعاة المهدى فى اقليم دنقلة

وبسبب استبداد المليكاب بالرئاسة على القوافل دون العشاباب تولدت بينهم العداوة واستحكمت الاحنة فى صدورهم ونالوا من دماء بعضهم مازاد الطين بلة والطنبور نغمة واستقرت العداوة بين تينك البطنين وتوارثها الخلف عن السلف

وقبض كثير من العشاباب على وظائف بريد التعايشي وبعض وظائف بيت المال فاشتدت المناظرة بينهم وبين المليكاب الذين ولي التعايشى رئيسهم حسن أبا خليفة الامارة عليهم ووكل اليهم رئاسةالقوافل أيضاوجعلهم مرابطين في (آبار المرات) بين كروسكو وأبوحمد

واستخدمت الحربية أيضا عدداً ليس بقليل من رجال العبابدة ليجولوا في الصحاري وناطت ببعضهم مهنة التجسس للحكومة وصار آخرون منهم يتجسسون للتعايشي فاستحكم النفور بين المليكاب والمشاباب وصار جواسيس الحكومة من المشاباب يسمون عند الحكومة بجواسيس المهدوية ويلحقون بهم المصائب اذا كانوا من المليكاب أما اذا كانوا من المشاباب فلا يتعرضون لهم وربما اعانوهم على قضاء أوطارهم وبمثل هذه المعاملة يعامل المليكاب جواسيس المهدوية فينكاون بالمشاباب ويتركون أقاربهم

ولبث المشاباب والمليكاب يحاربون بعضهم في دائرتي نفوذ الحكومة والتعايشي وينكاون ببعضهم أشد النكال وفي سنة ١٣٠٦ قويت حظوة محمد بشير كرار أحد المشاباب عند التعايشي حتى جعله قائدا لدابته يأخذ بخطامها في المواكب واتفق ان الحكومة ارسلت صالح بن حسين خليفة الى ابن عمه حسن خليفة للمخابرة فنزل عليه ضيفاً في (آبار المرات) ثم قفل راجعاً الي اصوان فنمى خبره الى التعايشي فاستشاط غيظاً وكانت وشايات قائد دابته قد تمكنت من قلبه وكتب جمع من الامراء الذين في بربر والمرابطين في أبو حمد الى التعايشي يتهمون حسن خليفة بالخيانة والميل لجانب الحكومة فاستقدمه التعايشي الي أم درمان فلما قدمها قبض عليه فيها وسجنه وأصدر أيضا أمراً بالقبض على سائر أفراد قبيلة المليكاب من ذكر وانثى وكان معظمهم يسكن حوالى بربر فقبض عليهم وصودرت أموالهم وسيقوا الى أم درمان يرسفون فى القيود والاغلال وسبيت نساؤهم وهم يبلغون بضعة آلاف

وتوفى محمد خليفة والد حسن خليفة غماً مما أصاب ابنه وقومه وكان

شيخا كبيرا وفي أوائل سنة ١٣٠٧ حملوا الى منفاهم في خط الاستواء على السفن الشراعية بغير زاد فمات النساء والاطفال جوعا وهلكت الرجال أيضاً

وعلى أثر ذلك خلا الجو للعشاباب واستأثروا بمنافع دولة التعايشى وانتقموا من اعدائهم شر انتقام وقطع دابر المليكاب من السودان فسبحان من يغير ولا يتغير

ذكر غارة العبابدة علي ابو حمد وقتل سليمان نعمان قمر

ذكرنا ما كان من أمر المجاعة التي فشت في السودان وقد خلت الحدود من المرابطين فيها وقل وجود المقاتلة حتى صار عدد الموجودين بام درمان من المقاتلة لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل وبات التعايشى خائفاً يترقب تقدم الجنود المصرية لمناجزته حيث لا يجدون من يدافع عن البلاد أقل دفاع

وزيادة على ذلك ان التعايشى أيقن بانحراف الناس عنه وميلهم لجانب الحكومة على أثر ما أرهقهم به من المظالم والمغارم

قلنا ان الحكومة وكلت حراسة (آبار المرات) الى صالح بن حسين خليفة الذى هاله ما أتاه الخليفة مع ابن عمه حسن أبى خليفة وقومه المليكاب فجمع نحو مائتى راكب من قبيلته وأغار بهم على معسكر (أبو حمد) وانتشبت الحرب بينه وبين من فيه من الدراويش ومعهم سليمان بن نعمان قمر قاتل الكولونيل ستيوارت فاقتحم سليمان صفوف العبابدة وقاتل حتى سقط قتيلاً بينهم فحزوا رأسه واحتملوها

وكانت الحكومة نشرت نشرة فحواها ان من يأتيها برأس

سليمان هذا فله جائزة عظيمة ثم ألغي امر هذه الجائزة قبل قتله ورجع المغيرون من العبابدة بعد ان قتل منهم وقتل من اعدائهم فكوفئ صالح خليفة رئيسهم على قتل سليمان نعمان براتب خمسين جنيها شهريا وقد كان أثر هذه الحادثة على التعايشي سيئا حيث وقع فى روعه ان الحكومة تنوى التقدم لفتح السودان واستدل الناس على ذلك بانه خرج بعد ان قرأ بريد (أبوحمد) فصلى بالناس صلاة العصر ست ركعات ثم سجد للسهو فعرف الناس ارتباكه اذ كانت عادته ان يسهى في الصلاة اذا فوجىء بنبأ يفزعه ثم هدأ روعه بعد ايام حيث علم انها غارة بسيطة ليس وراءها فتح

ذكر موت الحاج علي سعد

الحاج على سعد من قبيلة الجمليين وكان وضيعاً خامل الذكر ذا مهنة دنيئة

ولما دخلت دعوة المهدية فى بربر رفع محمد الخير منزلته حتي صيره أميرا على سكان القري الواقعة جنوب نهر (اتبره) ثم كان من أمره مع محمد الخير أمير بربر ماتقدم لنا ذكر طرف منه حيث سعى بمحمد الخير عند التعايشي على أمل أن يخلفه فى امارة بربر وقد وعده التعايشي بالوصول الى غايته وقضاء لبانته فبالغ في توجيه المطاعن الى محمد الخير فعزله التعايشي وولي بدله أحد أقاربه البقارة وقلب ظهر المجن لعلى سعد ثم أمره باحصاء عدد المقاتلة الذين تحت امرته فبلغوا سبعة آلاف مقاتل فأمره بأن يصحبهم الى دنقلة في أوائل سنة ١٣٠٦ لينضموا مع ابن النجومي فغادر على سعد بربر ولحق بابن النجومى فى دنقلة فأحصى من معه من المقاتلة فاذاهم ستمائة مقاتل فقط فكتب ابن النجومي الى التعايشي يخبره بأن مقاتلة على سعد ستمائة رجل فقط

لا سبعة آلاف كما قال فاستاء التعايشي وأضمر السوء لعلى سعد الذى يئس من نيل أمارة بربر وامتعض من التعايشى واخيه يعقوب الذي خدعه وأغراه علي الطعن فى محمد الخير توصلا الي عزله واقصائه عن الامارة وأطمعه فى تبوئ ذلك المنصب ثم لم ير منه وفاء بل قلب لهظهر المجن

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ استقدم التعايشى علي سعد من دنقلة وقدم له غذاء وضع فيه مادة سمية فما كاد يفرغ من تناوله حتى أحس بانحراف شديد فلزم داره وتوفى بعد ليال قليلة بعد أن ظهرت عليه اعراض التسمم

وخلفه فى وظيفته أخوه عبدالله سعد الذي خرج على التعايشي قبل فتح أم درمان فقتله الامير محمود فى من قتله ويجىء ذكر ذلك فيما يلى ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر موت عثمان آدم وتولية محمود أحمد بدله

ذكرنا ما كان من أمر عثمان آدم أمير دارفور وكيف جمع جيشاً جراراً هاجم به دارفور واستولي عليها بعد ثورة اهل سلطنتها القديمة ثم ما كان من أمر ظهوره على (أبو جميزه)

ولما فرغ عثمان من أمر أبو جميزه عم الدمار بلاد دارفور حيث اباد القحط البعض والبعض الآخر هجروا بلادهم ولحقوا بالبلاد التي فى الغرب وكانت لم تخضع للمهديين مثل بلاد (أبو ريشه) وبلاد (وداى) وغيرها وأخذ عثمان يوالى الغارة على سكان الجبال ليتحصل على نفقات جنده حيث صارت البلاد خرابا لا تقوم ببعض نفقات واقوات أولئك المقاتلة فتحصل

على شيء كثير من الاقرات والماشية ثم وجه عزيمته الي بلاد الغرب لفتح بلاد (مسلات) وبلاد (أبو ريشه) وهما مملكتان واقعتان بين (برقو ودارفور) فظفر ببعض قرى في تخوم تلك البلاد وقصد التوغل لفتح البلاد كلها حتى يقف عند حدود (برقو) فاصيب بحمى خبيثة وقضى نحبه بعد ثلاث ليال فاحتمله جنده وتقهقروا به راجعين الي دارفور وأخفوا وفاته على العامة واقاموا وكيله محمد بشاره مقامه وارسلوا بنعيه الي التعايشي الذي وقع عليه هذا الخبر وقع الصاعقة وسالت الدموع من عينيه لانه كان يحبه ويعتقد فيه الكفاءة في دفع الملمات ومقدراً نجاحه فى دارفور حق قدره

وبعد ايام يسيرة من وصول نعى عثمان آدم أعلن التعايشى نبأ تعيين ابن عمه محمود أحمد بدله

وعلى ذكر محمود هذا نأتى هنا على ترجمته تتميما للفائدة فنقول. انه ابن أحمد دى عم التعايشى وكان مولده ببلاد التعايشة بجهة (الـكاكه) وقد رأيناه بعد سقوط الخرطوم مع والده وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز خمسة عشر عاما ووجهه مشوه بآثار الجدرى والمتربة ظاهرة على اطماره البالية لا يأنف من مد يد السؤال الى أولي اليسار من الامراء والوجوه حتى وصلت خلافة المهدويين الى ابن عمه التعايشى. والحاصل أن المترجم كان مثل سائر أقاربه في الغاية القصوى من الفاقة وشظف العيش وأهالي السودان الاوسط يحتقرون سائر البقارة الذين هم في الدرجة القصوى من الهمجية والبداوة الوحشية ولغتهم مع كونها شبه عربية تكاد تكون غير مفهومة. وبالجملة ان المترجم كان بقاريا في جميع أخلاقه وأطواره ولكنه مالبث بعد ان صار قريبه التعايشى ذا سلطان على السودان حتى غير أخلاقه وعوائده وتشبه بأهل السودان

الاوسط واسترسل كعثمان ابن التعايشي في الدعارة وانهمك في حضور ليالي الرقص والغناء التي ذكرنا بعض اوصافها وتغالي في حب المومسات وجمع حوله عددا ليس بقليل من المخنثين المتشبهين بالنساء وله أخ اسمه ابراهيم الخليل حذا حذوه وسار على وتيرته

وقبيل توليته توفى والده وكان فيما يزعمون بارعا في معرفة علم الرمل ومعرفة البخت مثل ابن أخيه عبد الله التعايشي الذي كان خبيرا بهذا الفن والحاصل ان ترجمة محمود أحمد لا تختلف كثيرا عن ترجمة عثمان ابن التعايشي

وفي أوائل سنة ١٣٠٨ خرج التعايشي لتشييع محمود وسار معه أيضا مندوبون من القضاة ليعلنوا أمر توليته ويأمروا القواد بطاعته

ولما وصل الي دارفور امتعض القواد منه لانهماكه في الشهوات وعكوفه على المعاصي والدناآت وظهر لمرؤسيه الفرق بينه وبين سلفه الذي كان على نهج كبار المهدويين

والحاصل انه قبض على زمام دارفور وبقي بها حتى شغب الدنقليون أقارب المهدى على التعايشي وتحفز الاهلون كلهم للثورة عليه فاستدعاه من دارفور الي أم درمان بجيشه وسيأتى ذكر ذلك في مكانه

ذكر صفة معيشة التعايشي

كان التعايشي قبل ان يفضى اليه الملك مثل سائر بني جلدته البقارة في الدرجة القصوى من الخشونة والبداوة لا يعرف شيأ من ضروب التنعم في الاحوال المعيشية على طريقة المترفين من أهالي السودان الاوسط التي هي وان كانت عوائد بربرية غير مألوفة الا أنها تعد مدنية بالنسبة لخشونة البقارة

الذين لا يعرفون من أنواع الاطعمة غير العصيدة وادام (المندجية) الذي سبق لنا تعريفه ولحوم الصيد

وقد كان التعايشي عريقاً في هذه العوائد وكان يتطيب بكبريت العامود ذي الرائحة الكريهة التي تنقبض النفس من شمها وكان احسن الطيب عنده وهذا بخلاف اهالي السودان الاوسط فانهم يتطيبون بعطور الصندل والمحلب وغيرها من انواع الطيب التي يبتذلها المصريون وينفرون من رائحتها والحاصل أن عوائد التعايشي وقومه تباين عوائد اهالى السودان الاوسط وتختلف عنها اختلافا كبيراً وهى كما قلنا في منتهي الخشونة والبداوة

وكان قبل افضاء الخلافة اليه نحيف الجسم مقوس الظهر كانه شيخ هرم طويل الوجه غائر الصدغين المنتشر بهما آثار الجدرى

وكان يلبس مرقعة بالية ممزقة يظهر جسمه من خلال خروقها ويتعمم على قلنسوة من (الدمور)

ولم يلبث بعد ذلك حتى نبذ عوائده كلها ولبس المرقعات النظيفة وتشبه بالمهدى فى ملابسه واخذ يتطيب بعطر المحلب والصندل وصار يأكل الاطعمة المصرية التى كان يقوم باتقانها نسوة مصريات من أهل الخرطوم وجمع عنده نحو مائة وعشرين امرأة من أجمل نساء السودان وضخمت جثته وتغيرت سحنة وجهه حتى انه يخيل للناظر اليه انه شخص آخر غير التعايشي ولكن لم تمض عليه ثلاث سنوات حتى تنغص عيشه بما اعتراه من ضعف أعضاء تناسله وخمود شهوته فاستدعى طبيباً مصريا اسمه حسن زكي من أطباء الحكومة السابقين وتاجرين اسم أحدهما محمد طه الشامى واسم الثانى بنديه اليونانى وشكا لهم ما انتابه من الضعف وفقدان الشهوة وسألهم ان

يحثوا له عن الاشياء التي تقوي الباه وأكد عليهم في الكتمان فذهبوا وبعد المداولة قر رأيهم على ان يحضروا له شيأ من العنبر مضافا على نوع الحشيشة المطبوخة المسماة (قراوش) فقصدوا محل رجل كان يبيع الحشيشة سراً اسمه بكتاش أغا وعادوا بالقدر الكافي ثم طبخوه مع العنبر ووضعوه في حق وذهبوا الى دار التعايشي الذي فغمته رائحة العنبر فأمرهم ان يأكلوا منه بحضرته خشية ان يكونوا قد دسوا له فيه السم فاكلوا منه فشكرهم واجاز كل واحد منهم بعشر ريالات وأكثر من أكل هذا النوع حتى نفد فامرهم بتجهيز غيره وصار ذلك عادة له لا يقدر على تركها

ذكر حادثة البطاحين

البطاحين قبيلة بدوية تسكن شرق النيل الازرق غرب صحراء (ربره) وماشيتها من الغنم والبقر وبعض الابل ورجالها مشهورون بالشجاعة والاقدام مع قلة عددهم وكلهم لصوص وقطاع طرق ولا توجد عصابة سطو أوجمعية سلب في سائر انحاء السودان الا من البطاحين وقد أمسكت الحكومة كثيراً منهم قبل المهدوية وعاقبتهم على ما كانوا يأتونه من قتل النفوس ونهب الاموال

ولما ظهرت دعوة المهدوية كانت قبيلة البطاحين في مقدمة القبائل التي مالت اليها طمعاً في النهب والسلب اللذين هما ديدنها. ولحق بالمهدى في جبال (قدير) أحد رجال هذه القبيلة المدعو عثمان بن أحمد وكان من حفظة القرآن وهو كقومه البطاحين الذين جبلوا على الفساد وسفك

الدماء وكان ذا دهاء تمكن به من الظهور بمظهر الزهادة والتفاني في حب المهدوية والاخلاص لها فجعله المهدي نائبا من النواب الموكول اليهم النظر في القضايا الكلية فاستخدم هذه الوظيفة في سبيل اطلاق يد قومه البطاحين في النهب والسلب ووقف وظيفته لدرأ كل عقوبة يراد عقابهم بها على ما يرتكبونه من جنايات السطو والقتل وقطع الطرق فانطلقت ايديهم في النهب والسلب بلا خوف من طائلة عقاب حيث صار قريبهم نائبا من نواب المهدوية ومقربا من مقربي التعايشي وارتفعت الشكوى منهم الى التعايشي الذي كان مع ظلمه لا يرضي بجولان يد في العبث والفساد غير يده وايدى قومه البقارة فكتب الى قبيلة البطاحين يأمرها بمغادرة ديارها واللحاق بابن النجومي في دنقلة وذلك في سنة ١٣٠٥ فسافر منهم نحو الف رجل واختفى الباقون في قفار بلادهم وصحاريها حتى كانت سنة ١٣٠٦ وفشت المجاعة في السودان

وفي أواخر هذه السنة ازدادت مفاسد البطاحين وانتشروا في بلاد شرق النيل وقطعوا الطرق على القوافل التجارية والسابلة التي تجتاز الصحراء بين النيل الازرق ونهر (اتبره) وحدود الحبشة وأبادوا عدة قوافل بعد ما نهبوها وسطوا على أكثر القبائل النازلة في انحاء تلك الصحراء وكلما رفع المجنى عليهم شكواهم وأحيلوا على القضاء الذى من اكبر رجاله قريبهم عثمان السالف الذكر خرجوا ظافرين بريئين

وفي ذات يوم جلس التعايشي في محرابه وحوله القضاة والنواب فقال لهم لقد طغي البطاحون وزادت شرورهم ومفاسدهم فأجابه عثمان النائب بقوله يامولاي انهم تركوا السطو وقطع الطرق منذ بايعوا المهدى ونصروا دعوته

فقال له التعايشي كلاّ بل أخبرني الخضر عليه السلام انهم لم يتركوا شيأً مما كانوا فيه بل زادوا جرأة واقداما على السطو وقطع الطرق فسكت عثمان واذعن لقول التعايشي

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ انفذ اليهم التعايشي رسولا اسمه ابن جار النبي فذهب الى حيهم وقرأ عليهم أمراً من التعايشي بمغادرة بلادهم واللحاق برباط دنقله فقابلوا الرسول بالضرب والاهانة وهموا بقتله وألحقوا به وبمن معه جروحاً خفيفة ففر من وجوههم وقفل راجعاً الى أم درمان فلقي التعايشي خارجا من داره لصلاة المغرب فأخبره بما أصابه فأمر في الحال باعداد نحو عشرة آلاف مقاتل بين فرسان وجهادية مسلحين بالبنادق وان يغادروا أم درمان بعد صلاة العشاء تحت قيادة قريبه عبد الباقي عبد الوكيل

وبعد صلاة العشاء ركب التعايشي والابواق حوله قاصدا ضفة النهر لتوديع الجيش وتزويد القائد بالوصايا التي يعمل بها وما انتصف الليل حتي اجتاز الجيش كله النيل على البواخر والسفن وتابع مسيره في الصحراء الى المساء وبعد ثلاث ليال داهم حي البطاحين في الغلس وأمطرهم النيران الحامية فسقط منهم نحو ألفي قتيل وسيق الباقون أسرى بنسائهم وأطفالهم ونهبت ماشيتهم كلها وجيء بنحو ثلاثة آلاف أسير منهم الى أم درمان عدا الصبيان والنساء فاختار التعايشي مائة وخمسين رجلا من أعيانهم ومشايخهم وأصدر أمراً بجلب خمسين منهم في ميدان السوق وضرب أعناق خمسين أيضا وقطع أيدي وأرجل الخمسين الآخرين

وركب التعايشي في ظهر ثاني يوم وصولهم الى ميدان السوق وشهد انفاذ هذه الاحكام الفظيعة ومات أكثر الذين قطعت أيديهم وأرجلهم ونجا

الذين أدركتهم غيرة أولي الشفقة فصبوا على جراحهم الزيت المحمى بالنار لقطع نزيف الدم وقد قال التعايشي وقتئذ لمن حوله انى لم أفعل ذلك الا باذن من النبي صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدى فانهم أمروني بالامس بهذا العمل فقال رجل من الدناقلة وهو نوتي ان صدقنا انهم أمروا بالصلب وضرب الاعناق وقطع الايدي والارجل فهل نصدق أنهم أمروا باخذ النساء الحسان ونكاحهن كموطوآت بملك اليمين فسمعه بعض الحاضرين وأبلغ التعايشي مقالته فأمر باحالته على المحاكمة حيث ادعى عليه أنه لعن أبا المهدي فحكم القضاة بضرب عنقه فضربت في اليوم التالي في محل استعراض الجيش

وأخذت نساء البطاحين مسبيات ووزعن على البقارة والقواد وامتلأت أم درمان بالمتسولين منهم وكانوا كما قدمنا من أشد القبائل تشيعاً للمهدوية وممن شدوا أزرها فانتقم الله منهم بيدها ومن أعان ظالما سلط عليه

وبيعت ماشيتهم التي جلها من الضأن والبقر في أم درمان فهبطت أثمان الماشية حتى بلغ ثمن الرأس من الضأن نصف ريال

شان محمد خالد زقل بعد ذلك

ذكرنا ما كان من حوادث محمد خالد زقل في دارفور وما وقع له مع حمدان أبي عنجه الي سجنه بام درمان بضعة شهور وخروجه من السجن حيث أمره التعايشي بملازمة الصلوات الخمس في المسجد معه وكان زقل هذا ذا دهاء شديد فأخذ يتظاهر بولاء التعايشي ومحبته حتى خدعه ما يتظاهر به الي أن دخلت سنة ١٣٠٦ وكثرت الاختلافات بين عثمان دقنه وأبي قرجة الذي تولى على شرق السودان بدله

ولما استفحلت تلك الاختلافات انفذ التعايشي الشيخ الطاهر بن المجذوب ومعه محمد خالد زقل الى السودان الشرقي ليفصلا بين المختلفين فتوفى الشيخ الطاهر فى (طوكر) وقفل محمد خالد زقل راجعا الى امدرمان ومعه عثمان دقنة ثم عزل التعايشي أبا قرجة واعاد عثمان دقنة الى الامارة ثم ولى محمد خالد زقل على دنقلة زهاء سنة حتى دس له يعقوب أخو التعايشى الدسائس

وكان في دنقلة أميران من البقارة هما مساعد قيدوم الذي تقدم لنا ذكره مع ابن النجومي وكان قائد المقاتلة من البقارة وعربى دفع الله وكان قائد الجهادية المسلحين بالبنادق

وعربي هذا كان خادما عند محمد خالد زقل تربى فى منزله بدارفور ولما عين زقل أميراً على دنقلة وصار عربى تحت إمرته حفظ لزقل حق التربية فكان يتواضع أمامه ويجلس متأدبا بحضرته ولم يكن في الحسبان أن ينقلب حالهما ويتبدل صفاؤهما بالعداوة لولا مادسه يعقوب أخو التعايشي لعربي حتى دفعه الى السعي بزقل عند التعايشي . وفى ذات يوم جمع عربي رجاله وكانوا زهاء الفين وأحاط بهم منزل زقل ومنعه من الخروج فانقسم جيش دنقلة فريقين فريقاً ينتصر لزقل والآخر يظاهر عربي عليه وهذا مؤلف من الجهادية والبقارة وذاك من الدناقلة والجعليين وكان قد وصل فى غضون هذه الحوادث أحد أعداد جريدة مصرية فيه نبأ يشير الى أن زقل أمير دنقلة اتفق مع الحكومة على ان يسلمها دنقلة بغير مقاومة وأن الحكومة الخديوية وعدته بالمكافأة الحسنة فلم يبق ريب لدي التعايشي في صحة الخبر وخشي ان يكون زقل قد قرر ذلك مع من معه من القواد فانفذ اليه يونس الدكيم ومعه أمر

بانه عينه خادما يحمل نعل محمد خالد زقل فادرك سر المسألة وكتب الى التعايشي يستأذنه فى القدوم عليه ويسأله ان يعين من ينوب عنه فى دنقلة فاجابه بتعيين يونس نائبا عنه وأمره بالقدوم عليه فاستقبله بالاكرام وبعد أيام يسيرة عقد مجلساً لمحاكمته لما جاء فى الجريدة المصرية فحكم المجلس باعدامه ولكن التعايشى أوقف التنفيذ وأمر بسجنه ومصادرة أمواله ووضع فى رجليه من القيود ما اثقله حتى عجز عن المشي ونهبت أمواله وبقى فى السجن بضع سنوات ثم نفى الى خط الاستواء فى مستهل سنة ١٣١١

وكان زقل شديد البغض للمصريين مع انه كان موظفاً أميريا بدارفور كما قدمنا وحائزاً للرتبة الثالثة ولما استولى على دارفور ارسل الى المغفور له الخديو توفيق باشا كتابا ينصحه فيه بالتسليم للمهدوية واستهل كتابه بمقدمة مملوءة بالوقاحة والسفاهة والمطاعن الشخصية التي يتجافى اليراع عن رقمها. ولما ولى على دنقلة أرسل له كتابا آخر لا يختلف عن الكتاب الاول مملوأ بالمثالب والمطاعن

وقد اتصل بنا ونحن نبيض هذه السطور ان محمد خالد زقل فر من منفاه بخط الاستواء بعد هزيمة التعايشى بأم درمان ولحق بمملكة (برقو) فأمسكه سلطانها كأسير ولم يفلته حتى الآن ويقول العارفون بعادات تلك البلاد انهم لايسمحون لغريب ذهب الى ديارهم أن يعود من حيث جاء مخافة أن يكون جاسوسا يجوس خلال الديار ويعود منها مزوداً بالاسرار ومهما يكن من الحال فان زقل لم يتمتع بلذة الحكم على بلاد دارفور التى استخلصها من جنود الحكومة بالصفة التى تقدم لنا ذكرها الا زهاء سنتين كانت مغبتهما السجن ونهب ماجمعه من الاموال في خلالها ولا غرابة في ذلك فهكذا كانت معاملة المهدوية لكل من أعانها ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر استخراج الرصاص والنحاس
والكحل من معادن حفرة النحاس

تقدم لنا ان الطيب الذكر غردون باشا افتتح جهة (حفرة النحاس) المملوءة بمعادن النحاس وشرع في استخراج النحاس منها ثم أهمل خلفه أمر هذه الحفرة ولم يحفل باستخراج النحاس منها حتى دخلت بلاد دارفور فى حوزة المهدوية

وفي سنة ١٣٠٧ أنفذ التعايشي أناسا الى تلك الجهة فاستخرجوا شيأ كثيراً من الرصاص والنحاس والكحل فاستخدم الرصاص في تعبئة الخرطوش بعد ان حبطت مساعيه التي بذلها في استخراج هذا الصنف بسبب الغش الذى قطعت يد ورجل المقدم عمر الجعلى من أجله

وصنع من النحاس ظروف الخرطوش ثم لم يعد لاستخراج شيء من هذه الاصناف بعدأن حصل على كفايته منها

ذكر بنات الجعليين

الجعليين اسم قبيلة تقدم لنا تعريفها في حوادث بربر

وفي أوائل سنة ١٣٠٨ أنفذ التعايشي رجلا اسمه محمد وهبي بن حسين اداى المشهور بالرئيس وكان من موظفي الحكومه في بربر الى قرى الجعليين الواقعة بين بربر وأم درمان على احدى البواخر ليأخذ كل حسناء من بنات الجعليين ويحملها على الباخرة ويأتيه بها فمكث بضعة شهور متجولا فى شواطيء تلك القرى بباخرته ثم عاد بها وهى مكتظة بالنساء الحسان وجلهن عذاري وسمعت من أحداهن ان التعايشي كان يأمر بنزع ثيابهن عنهن لدى وصولهن

اليه فكانت الواحدة منهن تدخل عليه فى حجرته وهي عارية كيوم ولدتها أمها وبعد ان ينعم نظره فيها وهى مقبلة يأمرها ان تدبر ثم يدنيها منه فاذا أعجبته أبقاها فى داره موطوءة بملك اليمين وان لم تعجبه أمر باخراجها واهدائها لاحد أقاربه البقارة

أما دخول النساء عليه وهن عاريات فكان لا يقصد به التمتع بالنظر اليهن فقط بل كان يخاف ان يحملن تحت ثيابهن سلاحا أو مادة سامة وهو يعامل كل نسائه بهذه المعاملة الا من يثق بامانتها وقلّ ان يأمن واحدة منهن

ذكر انسحاب الجيش من القلابات

تقدم لنا ذكر ما كان من أمر محاربة الدراويش والاحباش الي قتل النجاشي يوحنا

ويقولون ان النجاشي منيليك الذي خلف يوحنا فى سلطنة الحبشة عقد مهادنة مع الدراويش على ان يكفوا عن حربه والتعدي على حدوده لانه لم يغب عنه ان المملكة الحبشية مشتغلة بدفع غارة الايطاليين عليها من جهات (أسمره) وفتحها بابا للحرب مع الدراويش يضاعف مشغوليتها ويزيد خسارتها فداهن الدراويش بل صافاهم. على انه كان موقناً بان سوء تصرفات سلفه هي التى فتحت على المملكة هذا الباب الذي كانت فى غنى عنه لكي تتفرغ للوقوف امام المغيرين على بلادها من الفاتحين الايطاليين

والتعايشي لم ينشر شيأ يدل على وقوع هذه المهادنة الا ان قرائن الاحوال تدل عليها لان بعض مصادر الاخبار تؤكد ان غارة الدراويش على الاحباش لا تخلو من يد للايطاليين في تدبيرها . وفى نفس الوقت الذي كان منيليك

يستدل فيها لمناجزة الايطاليين فى الواقعة الاخيرة بينهما كانت جيوش الدراويش أيضاً زحف من جهة أخرى لمهاجمة مراكز الايطاليين مما يدل على ان الدراويش كانوا أولا على وفاق مع الايطاليين ضد الاحباش ثم انعكس الحال فصاروا مع هؤلاء على أولئك

والحاصل ان التعايشى بعد أن ملأ القلابات خيلا ورجالا ونال جنده من الاحباش ما نالوه من الظفر حصن القلابات بسور من الحجارة وأصدر أمراً الى الزاكي طمل قائد الجيش ان يترك القلابات ويوكل حراستها الى الف رجل تحت إمرة أحمد على البقاري فصدع الزاكي بالامر وغادر القلابات وعسكر فى القضارف وارهق أهلها نهباً وصادر غلاتهم بالكيفية التي ذكرناها فى الكلام على القحط الواقع فى القضارف

وفى أواخر سنة ١٣٠٧ قدم الزاكي طمل على التعايشي ودفع له مائة وثمانين الف ريال وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة فأمره بالعودة الى القضارف وأخذ الاهبة لاختراق الجزيرة والغارة على بلاد (الشلك) باقليم فشودة

ذكر غارة الزاكي طمل على الشلك

الشلك اسم لقبيلة من العبيد تسكن اقليم فشودة وهم حفاة عراة يلبس الاغنياء والعظماء منهم قطعة من خرقة تستر أنصاف أفخاذهم فاذا جلس احدهم طوي الخرقة ووضعها على كتفيه وبقيت عورته بلا ستر

أما النساء فيأتزرن بفروة من الجلد اذا كن متزوجات أما اللائي لم يتزوجن فهن عاريات كيوم ولدتهن أمهاتهن وهؤلاء النسوة يحلقن شعر

رؤسهن مما يزيد في تقبيح مناظرهن وتشويه خلقهن والرجال يسبلون شعورهم ويدهنونها بالمواد الغروية كالصمغ ويعملون منها شكلا يخاله الرائى من بعد قبع الافرنج

وهم غلف لا يعرفون الختان ويزعمون ان الختان هو كسر أربعة أسنان من اسنان الرجل أو المرأة من الفك الاسفل ليتمكن احدهم من اخراج اللسان بغير أن يقف شيء فى طريقه

ويزين الرجال نحورهم وأذرعتهم بكثير من الخرز وأجراس النحاس الصغيرة وقطع العاج وزينة المرأة شيء من الودع والخرز على خصرها وعلى كل حال تربو زينة الرجل وحليته على زينة المرأة وحليها والرجال مع استئثارهم بالنصيب الاكبر من الزينة على ماذكرنا تراهم مع سواد بشرتهم طوال القامات حسان الوجوه مفتولى السواعد يبدو على وجوههم العجب والزهو ويحملون بأيديهم الاسلحة من المزاريق والحراب ولا يعرفون هم ولا نساءهم لبس نعل أو حذاء

وديانتهم وثنية همجية لهم صنم من الخشب اسمه (النيكامه) بتعطيش النون وأما (الكجور) فهو كعالم ديني يرجعون الى مشورته في أمور الدنيا والدين والطب وهو إن صح مانسمعه من قومه عنه لا يخلو من معرفة شيء من علم النجوم والانواء علما نظريا لانه كثيراً مايخبرهم بأخبار المطر وغيره قبل الحصول

ومما يدل على ذلك ان وظيفة الكجور لا تكون الا وراثية من الاسلاف للاعقاب وبالجملة ان الكجور عند الشلك أشبه شيء بالكاهن والعراف فى عهد الجاهلية

وأغذيتهم من لحوم الصيد وابن الماشية والبوظة المسكرة وماشيتهم من الغنم والبقر كثيرة جداً وهم يقدسون الفحل من البقر ويعلقون على قرنيه الاجراس والخرز وسائر أنواع الزينة ويسمونه (مجوك) ويخرجونه في الحفلات والمواسم حيث يكون موضع احترام الجميع

واذا خرجوا يستسقون المطر يخرجون الفحل أمامهم متوسلين به والحاصل أن (مجوك) عند الشلك يشبه العجل (أبيس) عند قدماء المصريين

وعادة الزواج عندهم ان الرجل يتزوج بما شاء من النساء بمعنى انه يتزوج ماشاء من النساء بغير قيد ولا حد

ومهر الزواج لا يقل عن ستين رأساً من البقر للمتوسطة من النساء ومائة لاهل الطبقة العالية ولا يجيزون أن يكون المهر أقل من أربعين رأسا من البقر والمهر حق لاقارب الزوجة يأخذ أبواها القسم الاكبر منه ويوزع الباقي على أقاربها من جهة الاب والام وهؤلاء ينالهم اكثر مما ينال أولئك

واذا توفي الزوج خلفه اكبر أنجاله على جميع نسائه عدا أمه والاولاد الذين يولدون له منهن يعتبرهم اخوته لانه يرى نفسه نائبا عن والده واسم (مريم) علم لجنس النساء كما ان اسم (نور) علم لجنس الرجال كلهم وتخضع قبيلة الشلك كلها الى ملك يسمونه (الملك) وحكمه نافذ فيهم وطاعتهم له عمياء وهم يعتبرونه مقدسا يستمد سلطته من معبودهم (النيكامه) كما كان قدماء المصريين يعتقدون شبه هذا الاعتقاد في فراعنتهم

وهذا الملك عاري الجسم مثلهم ولا يدنو منه احد الا بعد ان ينحني ويزحف على ركبتيه ولا يرفع احد عينه اليه بل يظلون جلوسا كأن الطير على رؤسهم ويجلس حواليه الشيوخ والكجور فاذا عقدت جلسة لمحاكمة جلس

الملك وبين يديه أنواع السلاح كلها وانما يعاقبون بالقتل وعند نهاية الجلسة يتناول الملك نوعا من السلاح الذي بين يديه يومئ به نحو الجاني وينصرف فينفذ الحاضرون العقوبة عليه بنوع السلاح الذي أومأ به

ومن دأبهم مع ماهم فيه من التوحش والهمجية حيث لافرق بينهم وبين الانعام المحافظة على الآداب حتي يظن الانسان انهم في نهاية التدين فلا توجد بينهم فاحشة ألبتة والزاني والزانية لاعقاب لهما الا القتل

ومما زاد فى اعجابي باولئك الاقوام ان المرأة منهم في نهاية الحرية تختلط مع الرجال وتجالسهم وهي محترمة عندهم كاحترامها عند الافرنج ومن عوائدهم ان الرجل اذا انتصب ذكره وهو جالس مع غيره عوقب بالقتل فى الحال مع انهم يجلسون عراة والنساء معهم

ومنازلهم اكواخ مستديرة واعاليها مستطيلة كالقبة والنظافة متوفرة فيها حتي ان أرض منازلهم مرصوفة بشيء من الحجارة يخالها الناظر لاول نظرة رخاماً وفى كل قرية مكان كبير يحرقون فيه روث البقر حتي يصير رماداً ينامون عليه ويتمرغون فيه

ويغسلون وجوههم ببول البقر ويتمضمضون به ويضعونه فى اللبن والسمن وياكلون الميتة والدم ولا يذبحون الماشية الا اذا اشرفت على الهلاك فحينئذ يذبحونها بقصد الحصول على الدم اذ هو احسن غذاء عندهم وفي بعض الاحايين يجرحون البقر فى شرايينها وينزفون الدم في آنية ثم يضمدون الجرح ويربطونه حتي يندمل

ولهم مهارة غريبة فى اقتناص الضوارى كالفيل والسبع والنمر وبقر الوحش والزرافة وسائر أنواع الوحوش . ولنذكر هنا طريقة صيد

الفيل وبقر الوحش وهى أن يجتمع اثنا عشر رجلا منهم بيد كل واحد منهم حربة طويلة ويقتربون من الفيل أو بقر الوحش ثم ينفرد واحد منهم دون رفاقه فيطمع ما يريدون صيده فى افتراسه ويتجه نحو مطاردته فيثب عليه الباقون ويطعنونه بحرابهم فى دبره قبل ان يتمكن من افتراس رفيقهم لان الطعن لا يؤثر في بقية جسمه لملاسة جلده وصلابته. أما صيد بقية الوحوش فانه دون هذا فى العناء وللملك نصيب من كل ما يصطاده الافراد فاذا كان من نوع الفيل فله العاج وأطايب اللحم أما الغزلان فانهم يقدمون له أحسن نصيب من لحمها

ومهارتهم فى صيد دواب الماء تكاد تفوق تفننهم في صيد وحوش الفلاة وذلك انه يوجد فى بلادهم فرس البحر بكثرة والتمساح والاسماك الكبيرة التى يزيد طولها عن مترين ولهم زوارق صغيرة مصنوعة من الخشب ومن العجب انهم يربطونها بالخيوط فقط اذ لا مسامير من الحديد عندهم والزوارق المذكورة محكمة الصنع متساوية الاطراف يركبونها ويحملون بايديهم مزاريق صغيرة رؤسها كالصنارة يقذفون بها الاسماك فى عمق الماء فلا تعود بغير مصيد ويندر أن يخطئ المزراق وصيد التمساح يقرب من هذه الطريقة. أما طريقة صيد فرس البحر فهي انهم يربطون حبلا متينا فى أسفل حربة رأسها كالصنارة وفى آخر الحبل حزمة من نوع خشب اسمه (العمبج) يشبه (الفلين) فى خفته وطفوه علي وجه الماء ويتربصون على ضفاف النهر بعد غروب الشمس حتي تخرج فرس البحر لتأكل الحشائش التي تنبت على الضفة فيرمونها بالحربة فى دبرها فتولى عنهم وتعود الى اليم وقد غاصت الحربة فى دبرها والحبل والعمبج خلفها وبعد أيام قلائل يتعفن الجرح فيجتمع الصيادون فى زوارقهم الصغيرة ويمسكون الحبل ويطاردون الفرس

التي تظهر على وجه الماء بعد جذب الحبل فيرشقونها بالسهام حتى يقضى عليها فيقتسمون لحمها بعد اخراج اطايبه للملك ويجففون جلدها الذي يصنع منه السياط المعروفة فى مصر

وهم يسكنون الضفة الغربية للنهر ويسكن الضفة الشرقية أمة اسمها (الدينكة) لاتختلف في شيء من العادات عن الشلك الا انهم لم يحرزوا صفات الشجاعة التي للشلك ولا يعرفون صيد البر والبحر مثل الشلك ولا ملك عندهم بل لكل قرية رئيس مطلق ولذلك يضطهدهم الشلك ويغيرون عليهم وينهبون ماشيتهم حتي ان الواحد من الشلك يطارد عشرة من الدينكة الذين لهم صنم من خشب كصنم الشلك يسمونه (دينديت) وعدد نفوس الدينكة يبلغ أضعاف الشلك وبسبب فرقة الدينكة صاروا عرضة لغارة جيرانهم الشلك الذين هم مع ماهم فيه من القوة والعزة تراهم اذلاء امام جيران لهم فى الجنوب وهم أمة اسمها (نوير) حيث يوالون الغارة على الشلك وينهبون ماشيتهم مع ان عدد نفوس الشلك يبلغ أربعة أضعاف عدد نوير والحاصل ان نوير آفة الشلك كما ان الشلك آفة الدينكة

وعوائد نوير واخلاقهم مشابهة لعوائد الشلك الا انهم اكثر ثباتا من الشلك واجرأ وقاماتهم أطول منهم

وأرض الشلك والدينكة ونوير خصبة التربة وريها بالامطار التى تهطل غزيرة جداً عندهم غير انهم كسالي لايحرثون من الارض الا شيأ قليلا يقوم بضرورياتهم

وحاصلاتهم الذرة الرفيعة والسمسم والدخان الذى يستعمله رجالهم ونساؤهم صغارهم وكبارهم ويمتاز الدينكة عن الشلك بزيادة الحاصلات وكثرة الحرثة

ولما دخلت السودان تحت حوزة مصر لم يلتفت الحكام والولاة الى تنظيم حكومة للجهات الجنوبية على النيل الابيض التى منها فشودة بل كان الشلك وغيرهم من سكان البلاد عرضة لغارة عصابات النخاسين الذين يجلبونهم ارقاء وينهبون حاصلاتهم وماشيتهم

وفي سنة ١٢٨١ اعتنى المرحوم موسى باشا حمدي حكمدار السودان بامر الجهات الجنوبية ونظم حكومة لها فكانت فشودة أول مديرية أسسها وولى عليها القائمقام حلمي بك الذى طرد النخاسين عنها ولكن الشلك قابلوه بالجفاء ونفروا منه وشهروا عليه الحرب حتى اضطر الى ان يتحصن منهم في نقطة فشودة الواقعة في وسط الاقليم واختارها عاصمة لمديريته وبعد ذلك هادنوه فقدم لهم كثيراً من الهدايا والملابس التى كان يفرغ جهده فى اقناعهم بضرورة لبسها فلم يفلح بل كان كبراؤهم يلبسون بعضها عند قدومهم الى مركز الحكومة فاذا عادوا الى قراهم خلعوها وبقوا عراة كما كانوا

ولما ولي المرحوم جعفر مظهر باشا حكمدارية السودان اهتم بشأن مديرية فشودة وبذلت الحكومة الجهد فى استئلافهم حتي صاروا يأدون لها بعض ضرائب لا تقوم بعشر معشار نفقات الحامية والادارة

ولدى تولية الطيب الذكر غردون باشا على جهات النيل الابيض أنشأ فى فشودة عدة مراكز وشاد معاقل فى الجهات الشمالية والجنوبية وكان اذ ذلك ملك الشلك من عائلة اسمها (كيكون) فاخذ ذلك الملك في أسباب التمدن وصار يلبس الثياب ويأكل على الموائد. وقد اهدى له غردون باشا عدة هدايا ومنحه لقب (بك) فزاد اخلاصاً للحكومة الا ان قومه امتعضوا منه وذموا مخالفته لعوائدهم وتشبهه بالترك واضمروا له الشر فثاروا على الحكومة عدة

ثورات قتل فى احداها يوسف بك حسن المشهور بكرده مدير فشوده وتقدمت تلك المديرية فى مدته تقدما عظيما. ولما ظهر المهدي على جند الحكومة فى جزيرة (آبا) ولحق بجبال (قدير) وحمل عليه راشد ايمن بك مدير فشوده وكان من أمره ما تقدم لنا إيراده في مكانه كان (كيكون بك) ملك الشلك معه وقتل مع من قتل فقام أحد رؤساء الشلك وأخذ معه وفداً شخص به الي المهدي فى جبال قدير فكتب له المهدى بالامارة على الشلك وسماه (عمر) واعطاه أبواقا من التى غنمها من الحكومة فعاد الى الشلك وأخبرهم بان المهدى اله وانه أخو معبودهم (النيكامه) وانه ولاه ملكا عليهم فاتبعوه لانهم كانوا يعرفون المهدي مذكان شيخا فى جزيرة (آبا) فجمع عمر قومه وشرع في مناوأة الحكومة وامتنع عن تأدية الضرائب وتوطد نفوذه بينهم وحافظ على عوائدهم التى نقموا على كيكون بك ملكهم السابق من أجل نبذها

ولما فتك المهدى بحملة الجنرال هيكس وقررت الحكومة جلاء حاميتها عن فشوده لتعزيز حامية الخرطوم خلا الجو لعمر ملك الشلك واستقل بالتصرف فى البلاد كلها

ولما توفى المهدى أعلن عمر أن المهدى استخلفه على العبيد واستخلف الحامية على العرب وهم يسمون العرب (بون) بتعطيش النون واستمر فى بلاده مستبداً بالحكم فيها حتى دخلت سنة ١٣٠٦ هجرية وفشا القحط فى السودان ونسل الناس من جميع الفجاج الي فشوده لجلب الغلة فارسل التعايشى باخرتين تقلان الف مقاتل احتلوا فشوده وكتب الي الملك عمر يأمره بتأدية عشر محصولات بلاده منذ عودته من جبل قدير أى نحو ثماني سنوات وأرسل له هدية من الجوارى الحسان والسكر وبعض ملابس فسألهم عن ثمرة

السكر فاذاقوه طعمه فقال انه لذيذ. ثم قال ان الجواري اللاتى أهداهن الي الخليفة يمنعني من قبولهن أنهن متمدنات يلبسن الثياب وكان يمكنني قبولهن لو كنت أجد لهن فى بلادي ثياباً مثل التي يلبسنها وأخشى ان يصبن بضرر اذا ألزمتهن بان يظللن عاريات مثل نسائي وأما الملابس فلا أستحسن أخذها حيث انى لم أتعود لبسها والاولى ان اردها الى الخليفة ليهديها الي من يلبسها وأما السكر فان فى بلادى عسل النحل بكثرة ويمكنني أن استعيض به عنه واني وان وجدته لذيذاً واشتهت نفسى تناوله ولكنني أمنعها عنه لانه غير موجود فى بلادى اذ أخشى أن تتعلق نفسى به فى وقت لاأجده فيه

واما الاعشار التي يطلب الخليفة منى تاديتها له فلا أدفعها اذ لست خاضعا له لانني مولى من قبل المهدى الذي هو مثل (النيكامه) والخليفة ملك العرب وأنا ملك الشلك وانا مثله فلا تلزمنى طاعته ولا تلزمه طاعتي غير انني أدفع له ألفي اردب من الغلال على سبيل الهدية ومكافأة له على هديته التي رفضت قبولها لعدم صلاحيتها لي

وكتب الملك عمر كتاباً الي التعايشى ضمنه هذا المعني وأنفذه مع رسولين من قبله فقدما على التعايشى بام درمان فعجب من وجود من يحسن الكتابة عند الشلك وأخيراً علم أن الكاتب غلام ابوه مصري وأمه من الشلك وكان مع والده فى الخرطوم حتي قتل يوم سقوطها ففر مع امه ولحق ببلاد الشلك اخواله وأمه قريبة احد رؤساء الشلك الكبار فجعله الملك كاتبا له

وحدث في بعض الايام ان أحد الدراويش أراد نهب جدى من ماشية لرجل من الشلك فلم تكد تصل يد المتعدي الى لمس الجدي حتي

طعنه صاحبه بحربة جندلته في الحال وثار الشلك كلهم ورفعوا رايات الحرب التى من عادتهم رفعها بالليل بكيفية يفهم منها اخذ الاهبة للحرب وهى ان ياخذوا قناة يدهنونها بالزيت ويشعلون النار فيها فيراها أهل القرية القريبة منها فيرفعون مثلها لاهل القرية التى تليها وهكذا حتي يعلم أهل البلاد كلها بالحرب فى ليلة واحدة ويحتشدوا في أسرع مايمكن ويرسلوا وفودهم لتلقى الاوامر بالحرب .

وبعد عناء شديد وأخذ ورد بين قائد الدراويش وملك الشلك ثاب التأثرون الى السكينة وعاد الامن الى مجراه

وكان مع الدراويش شلكي من رؤساء القري التي في الشمال ولكنه بالنسبة لقربه من بلاد العرب تشبه بهم وصار يلبس الثياب فأخذه قائد الدراويش معه بصفة دليل واسمه (ايك) بن (غرى) وهو من أقارب عائلة (كيكون) التي منها الملك كيكون بك. وحدثني احد الحاضرين ان الملك عمر أرسل خمسين مقاتلا ومعهم عشرة من الشيوخ والكجور الي منزل (ايك) وكان بجوار معسكر الدراويش فجلس العشرة معه ووقف الخمسون على بعد واخذوا يوبخونه على مخالفته عوائد الشلك وتشبهه بالعرب وانه جاء مع العرب بصفة دليل وعدوا ذلك خيانة للملك يعاقب عليها ثم وثبوا عليه وضربوا عنقه وحملوا راسه الى الملك فلم يجسر احد من الدراويش على مقاومتهم أو الذب عنه واخيراً استاء التعايشي من عصيان الشلك وغطرسة ملكهم فجهز اليهم فى سنة ١٣٠٨ الزاكي طمل امير جيش القلابات فى نحو عشرين الف مقاتل جلهم فرسان ومسلحون باسلحة رامنجتون فسار الزاكى من القضارف ثم اجتاز النيل واخترق الجزيرة حتي وصل الي اطراف فشوده

وهناك وجد البواخر التى انفذها له التعايشي وحشد الملك عمر جيشه للذود عن بلاده فهاجمهم الدراويش هجوما عنيفا وقتل الملك عمر وحملت رأسه الي التعايشي

ومكث الزاكي نحو ثلاث سنوات فى فشوده يعمل فى الشلك السيف والنار فخربت القرى التى على ضفة النهر وسالت الدماء كالانهر وصادر ماشيتهم وارسلها الى الخليفة فكان يختار منها ماهو صالح للنتاج ويؤلف منه قطعانا ينتفع بنتاجها ويبيع الباقى بواسطة بيت المال هذا عدا الارقاء الذين جلبهم منهم حتى هبط ثمن الجارية الى بضع ريالات وثمن الرأس من البقر الي ريالين وبالجملة ان الزاكى طمل خرب بلاد الشلك كلها ودمرها وجلب منها اهلها ارقاء اختار التعايشي نحو خمسة آلاف من غلمانهم جعلهم من ضمن الجهادية حراسا له وسيأتي ذكر بقية أخبار الزاكى وقتله

ذكر بقية اخبار عثمان دقنه

قلنا فى ما تقدم ان التعايشى استدعى عثمان دقنه الى ام درمان وعزز قوته بعشرة آلاف مقاتل مع أبي قرجة على أثر ماعلمه من انحراف القبائل فى السودان الشرقي ونفورهم عنه

ولما غادر عثمان دقنه طوكر اغارت عليها القبائل الخارجة عليه بمساعدة بعض جنود الحكومة ثم عادت عنها بغير جدوى اذ لامقاتلة فيها ولا جنود تدفع غارتهم عنها

وفى منتصف سنة ١٣٠٤ وصل عثمان دقنة الي سواكن معززا بقوة ابى قرجه الذي ولاه التعايشي على السودان الشرقى بدله اتقاء لثورة الاهلين ونفورهم

عن عثمان دقنه الذى شق عليه العزل ومكث في كسلة هو وابو قرجة الذى سار في الناس سيرة حسنة فثاب اكثر الثائرين على عثمان دقنة الي الطاعة

وأمن أبو قرجة السبل واعاد الصلات التجارية بين مصوع وكسلة واخذ في مخابرة القبائل التي حوالي طوكر وسواكن بلهجة سلمية وقصد بذلك ارجاعها الي الطاعة فلم تفلح مخابراته لان أنصار عثمان دقنة كانوا يذيعون في الناس أن ولاية ابي قرجة اسم بلا مسمي وأن الغرض منها تسكين الثوار حتى يعودوا الى الطاعة فاذا عادوا صاروا تحت سلطة عثمان دقنه الذى هو الآمر الناهي لابي قرجة فى باطن الامر ففشلت مساعى ابي قرجة وذهبت ادراج الرياح على أثر اذاعة انصار عثمان دقنة هذه الاقوال التى لاتخلو عن الصحة

وأنفذ ابو قرجة حملات متتابعة الى بعض القبائل التي تسكن في المنطقة القريبة من حدود الاحباش حوالي جبلي (الهيكوت والمناع) وأكثر هاته القبائل مجوس لادين لهم وهم من قبائل الزنوج القديمة واشهرها قبيلتا (الباريه والبازه) وقوام معيشة هذه القبائل لحوم الماشية والصيد والالبان ويندر بينهم من يعرف الخبز وهم مثل سائر اهالي شرقى السودان من حيث العادات حيث لا يعرفون اكل الخبز والخضراوات التى يعتبرونها غذاء الانعام يترفع عن اكلها الآدميون ويسكن معظم تلك القبائل فوق قمم الجبال الشاهقة وفي سفوحها وكهوفها التى يتخذونها معاقل اذا دهمهم عدو وهي متسعة يأوون اليها بماشيتهم التى هى الغنم والابل والبقر ورجال الباريه والبازه فرسان لا يشق لهم غبار ولا يصطلى لهم بنار يقطعون السبل ويعترضون القوافل للسلب والنهب

ولهم عادات ومراسم تقرب مما نسمعه عن طوائف اليزيدية والدروز

هذا وقد أثخن أبوقرجة في هـذه القبائل وأغار عليها إغارات كثيرة ونهب شيأ لا يحصي من ماشيتها

وبعد سـنة زحف الى طوكر واحتـل (هندوب) وهي موقع يبعد من سواكن ببضعة أميال وأغار على القبائل التى خلعت الطاعة فظفر ببعضها وفر اكثرها ولجأ الى الجبال واعتصم بالكهوف

وحصلت جملة مناوشات بين عثمان دقنة والاعراب الموالية للحكومة وبينه وبين الحكومة من جهة أخرى وقد جرح كتشنر باشا جرحا خفيفا فى احدى المناوشات وكان وقتئذ قومندان حامية سواكن وكانت الحامية في غضون هذه المناوشات مشتغلة ببناء الحصون وتشييد الاسوار على سواكن

ثم حصلت بعد ذلك واقعة بين عثمان دقنة وحاميـة سواكن قتل فيها ضابط انكليزي اسمه الـكابتن ثاب

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٥ شفى كتشنر باشا وعاد الي سواكن. وفيه هاجم عثمان دقنـه معقلى (ردوت والجيزه) وأمد أبو قرجة عثمان دقنـة بسبعة آلاف مقاتل وتعززت قوة الدراويش في هندوب ولكن خرق الخلاف اتسع بين عثمان دقنه وأبي قرجه فهذا يرى ان لا فائدة فى مناوشة سواكن والمرابطة في هندوب وذاك يخالفه ويتهمه بالجبن وعدم الاقدام بل بالخيانة والميل لجانب الحكومة واذاع عثمان دقنـة ان أبا قرجة كان يجتمع مع قواد الحـكومة ليلا فاستدعى التعايشي أبا قرجة على أثر ما علمه من عثمان دقنه الذي أعيد للامارة وخلاله الجو فى السودان الشرقى

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٣٠٥ اشتدت مضايقة عثمان دقنه لسواكن حتى

اقتربت متاريسه من الاسوار وصارت على بعد خمسمائة (يرده) فقط

وعين عثمان دقنه رجلا دنقلياً اسمه عثمان النائب قائداً للمقاتلة الذين في المتاريس الامامية وواتوا اطلاق النيران على سواكن حتى خيف سقوطها في أيديهم لولم تدركها حماية السفن الانكليزية في البحر وأحرق حصن شاته الذى كان من الشوك وضويقت سواكن وافتقرت حاميتها لى النجدة وكانت الحكومة ترى وقتئذٍ اجلاء الحامية وترك المدينة للدراويش وبعد مداولات قررت حفظها

ثم دخلت سنة ١٣٠٦ وسواكن في حالة ضيق شديد وطم العدوا كثر الآبار التي تستقي الحامية منها اذ كانت خارج الاسوار

وفي أوائل شهر صفر من السنة المذكورة وضع عثمان دقنة المدافع على حصونه وصار يطلقها على حصون الحكومة فاندهش القواد من انتظام مقذوفاتها واصابتها المرمي

وفى ربيع الثانى من السنة المذكورة وصل الى سواكن الجنرال غرانفيل باشا سردار الجيش المصري وقتئذ فارسل اليه عثمان دقنه كتابا يخبره فيه بان أمين باشا حاكم أقاليم خط الاستواء والمستر ستانلي السائح الانكليزي المبعوث لانقاذ حامية خط الاستواء قد وقعا فى أسر المهدوية وكان مقصده من ذلك الارهاب والتضليل

وبعد أيام قلائل هاجم الجنرال غرانفيل معاقل عثمان دقنة بعدة طوابير من الجيش المصرى فدمرها وقتل من فيها من المدافعين وكانوا لا يزيدون عن سبعمائة مقاتل ولكنهم ابلوا بلاء حسناً ودافعوا عن موقعهم دفاع الابطال وكانت هذه الواقعة فى أواخر شهر ربيع الثاني عام ١٣٠٦ هجرية

وعقب واقعة المتاريس تقهقر عثمان دقنة الى طوكر وعسكر بها وكانت المجاعة وقتئذ ضاربة أطنابها في انحاء السودان كله خلا طوكر فان الاقوات كانت تجلب اليها من سواكن ومكث عثمان دقنة في طوكر بقية سنة ١٣٠٦ يوالي الغارة على الاعراب الذين انحازوا الى الحكومة وشقوا عصا الطاعة عليه لاشتداد وطأته عليهم حيث زاد المكوس زيادة فاحشة وصار يقتل منهم في كل يوم عشرات فكانوا يهرعون الي الخليفة متظلمين منه فلا يجدون لديه مايشفي غليلهم وكثيراً ماأمسك المتظلمين وجلدهم بالسياط حتى أنه جلد واحداً منهم الفا وخمسمائة جلدة بسياط قد وضعت فيها حلقات من الاسلاك الحديدية حتى مات

ولما علم الاهلون ان لا انصاف من عثمان دقنة ولا راحة من مظالمه قلبوا للمهدوية ظهر المجن ووالوا الحكومة وحالفوها على حربه فوزعت عليهم الاسلحة النارية ومن ثم اشتغل عثمان دقنة بالغارة عليهم وكان في اكثرها يرجع مدحوراً متكبداً خسائر جمة

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ استقدمه التعايشي الى ام درمان عن طريق بربر ثم اذن له في العودة عن طريق القضارف فكسلة فطوكر واعطاه أمرا الى جميع الامراء ان لايعترضوا من رغب من الناس في مصاحبته

ولما وصل القضارف تبعه أناس كثيرون من أهلها فارين من المجاعة التي أناخت عليهم بكلاكلها ومنهم كثير من اسري المصريين الذين كانوا في كسلة ثم لما وصل الى كسلة تبعه كثير من المصريين أيضا ولحقوا بطوكر فرارا من المجاعة أيضا كمن تقدمهم

ووصل عثمان دقنة الى طوكر وجعل همه الغارة على الاعراب

الموالين للحكومة وسنعود الى ذكر بقية أخباره وهزيمته فى طوكر

ذكر هزيمة الدراويش من هندوب واخبار أمارأر

أمارأر اسم لقبيلة في ارباض سواكن وهى قبيلة رحالة ماشيتها من الابل والغنم ولغتها أعجمية مثل سائر سكان السودان الشرقى وكانت هاته القبيلة أول من خلع طاعة الحكومة وظاهر عثمان دقنة عليها وزعيمها أحمد بن محمود كان اكبر انصار المهدوية فى أوائل الدعوة اليها ولم يكن لذلك من سبب سوي انه كان من مريدى الشيخ الطاهر المجذوب استاذ عثمان دقنة

ثم مالبث طويلا حتي مج عثمان دقنة وبغضه بسبب مارهق به (أمارأر) قبيلته من المظالم والمغارم واشتد الخصام بينهما فتحفز عثمان دقنة للوثبة على على احمد محمود شيخ أمارأر والبطش به ففر ولجأ الى حكومة سواكن ثم فرمنها ولحق بالتعايشى بام درمان وقدم مالا طائلا الى يعقوب اخي التعايشى وسأله ان يكون وسيطا له عند اخيه ليكتب له بالامارة على قومه على أن لاتلزمه طاعة عثمان دقنة فأجاب التعايشي طلبه وكتب له بالامارة على قومه وان يجعل معسكره فى هندوب وفوض اليه أخذ العشور من التجار الذين يخرجون ببضائعهم من سواكن فغادر أحمد محمود أم درمان آيبا الي سواكن فى أواخر سنة ١٣٠٧ فتوفى فى أحد المناهل التى بين بربر وسواكن وكتب التعايشي الى أحد اخوته بان ينوب عنه في عمله

وفي أوائل شهر رجب سنة ١٣٠٨ ارسل أحد جواسيس التعايشي في أصوان عدداً من احدى الجرائد المصرية فيه أن عدة طوابير من الجيش المصري ستبحر من السويس الى سواكن لتأليف قوة حربية تهاجم معسكر الدراويش

في هندوب ثم تعود تلك القوة الى سواكن حيث تجر منها الى ثغر (ترنكيتات) ومنه الى طوكر براً

وبعد ليلتين مضتا على وصول هذا النبأ جاء الى التعايشي خبر من هندوب بان ثلاثة طوابير زحفت من سواكن على هندوب فباغتت الدراويش عند شروق الشمس وكأن شيخ (أمارأر) ومن معه من قومه كانوا على علم بهذه المباغتة فامتطوا دوابهم ولم يبدوا أقل مقاومة وولوا مدبرين من وجه الحامية المصرية التى كانت سائرة الي المعسكر بسكينة وانتظام كأنها داخلة الى احدي ثكناتها العسكرية ونجا رجال (أمارأر) ووقع في أسر الحكومة بعض اعراب من الذين يجهلون مابين الحكومة وشيخ أمارأر الذي قيل إن ... أخوه احمد محمود كان بايعاز من حكومة سواكن وان ماقدمه ليعقوب اخى التعايشى من المال كان من مصروفاتها السرية

ويدل على ذلك انهم بعد هزيمتهم من هندوب عادوا الى سواكن من طريق آخر فقوبلوا بالاكرام واجريت عليهم المرتبات وبلغني أن موت أحمد محمود لم يكن الامن سم دسه له التعايشى فى الدسم

والحاصل ان قبائل السودان الشرق التى كانت موالية لعثمان دقنة على الحكومة رجعت بالعداء عليه وصارت مع الحكومة عليه

ذكر هزيمة عثمان دقنة من طوكر

ان من يتأمل في الحالة الاولى التى كان عليها عثمان دقنة في اوائل دعوته للمهدوية وما كان يصادفه في خطواته كلها من النجاح والظفر ثم ما آل اليه أمره من الفشل والهزيمة يرى انه قضى على نفوذه بنفس السلاح الذي كان

يضرب به هام رجال الحكومة

وذلك انك ترى فيما كتبناه عنه في ما تقدم من هذا الكتاب أنه أحرز شهرة تكاد تضارع شهرة المهدي نفسه لانه قام بدعوة قبائل السودان الشرقي بالصفة التي تقدم ايرادها وكان في بداية أمره يتذرع بنفوذ استاذه الطاهر المجذوب ولكنه مع هذا النفوذ أظهر سياسة تكفلت بالتفاف القبائل حوله واستيلائه على قلوبهم حتى بلغ من أمره انه لو قال لهم خوضوا البحر الاحمر حتي تبلغوا الهند للبوا الى ذلك مسرعين

وتوجد مشابهة بين المهدي وعثمان دقنة وذلك أن المهدى عرف كيف يتمكن من التأثير على أهالي السودان بما يفتريه من الدعاوي الطويلة العريضة وهى مهارة لا يتردد أحد فى ان متوخيها عرف ان لا سبيل للتأثير على الامم الا من الجهة التى تميل اليها

وكان عثمان دقنة يتأثر المهدى الذى كان ذا طلاقة فى اللسان وتصرف فى البيان يقدر معه على التعبير عما يكنه فؤاده بجمل عامية يفهمها الجهلاء ويثملون بخمرة بلاغتها من حيث تأديتها المعنى المقصود بالفاظ عامية توافق أذواق السامعين سيما أهالي السودان الشرقى الذين لا يتكلمون باللغة العربية بل لغتهم أعجمية همجية وكان من المحال ان يبلغ المهدي غايته من التأثير عليهم فقام فيهم عثمان مقام المهدى وعرف طريقة استمالتهم بما أوتيه من البراعة فى لغتهم حتى انه كان اذا قام فيهم واعظا أو خطيبا يؤثر عليهم تأثيرا يجعلهم له أطوع من بنانه

وكان يقرأ عليهم آيات القرآن الشريف ويعقبها بتفسير معانيها . على ان أهالى السودان الشرقي كانوا لا يعرفون من الاسلام الا اسمه وكانوا في

حالة بداوة تكاد تكون قريبة من حالة الشلك التي تقدم لنا وصفها فاجتذب عثمان بعذوبة الفاظه وبلاغة كلامه أفئدتهم للاسلام حتى تمكن الايمان من قلوبهم وحكى لنا اكثر من واحد أنه جمع ذات ليلة نساء (الهدندوه) ووعظهن حاثا لهن على الصدقة وانفاق المال فى سبيل الله فما منهن واحدة الا ونزعت ما عليها من حلى ومصاغ وألقته بين يديه فاجتمع من هذه الصدقات مقدار وافر من الذهب والفضة وبلغ من حماس أولئك النسوة انهن كنّ يرافقن أزواجهن فى الغزوات يحملن الماء والزاد لغذاء المقاتلين ويجهزن على المجروحين بما يحملنه في أيديهن من السلاح حتي صرن يمثلن باشلاء القتلى تمثيلا شنيعاً وقد تقدم لنا ذكر ذلك

والحاصل ان عثمان دقنة نال حظوة فى السودان الشرقى كانت كافلة له أن يبقى بعد موت المهدي في مركزه ولو كره ذلك التعايشي الذي كان يعجز عن مناوأته ولكنه مالبث أن انفض الناس من حوله وجاهروه بالعداوة ولا غرو فان الظلم مرتعه وخيم

هذا وقد أمد التعايشي عثمان دقنه بالجيوش الجرارة بقصد ارغام الاهالي على الطاعة فلم تقرن أعماله بالنجاح ولو فرض أنه نجح في اخضاع الناس فلا يكون خضوعهم الا مداراة حيث كانت القلوب منصرفة عنه كما بات التعايشى فى أخريات أيامه تداريه الالسنة والقلوب تتربص به الدوائر لتتخلص من وطأة ظلمه الذي أرهقهم به

وأصبح عثمان دقنه اثر ذلك فريداً لا أنصار له من أهالى البلاد وكان جنده عبارة عن المقاتلة التى أمده التعايشى بهم وجلهم من مقاتلة أبى قرجة الذين بغضوه ونفروا عنه لما كان بينه وبين قائدهم أبى قرجة من المنافسة التى تقدم لنا

الالماع اليها وفر أكثر هؤلاء المقاتلة ولحقوا بديارهم فى الخرطوم لانه كان لا يعطيهم ما يقوم بحوائجهم الضرورية

ويظن كثير من الناس ان عثمان دقنه قد ندم في أخريات أيامه على ما فرط منه من متابعة المهدوية لما شاهده من أعمال التعايشي التي تخالف أعمال المهدى على خط مستقيم ولكنه كان لا يأمن جانب الحكومة بعد ان أتى ما أتاه معها

ولقد حكي لي أحد القواد الذين كانوا معه انه سامره في خلوة وقال له ان الحكومة تدعوني الي الطاعة وتعدني بكل خير ان أنا خضعت لها فما ذا تظنها تفعل بي اذا أسلمت نفسي لها فقال القائد وقد ظنه يختبر مايضمره لاتأمن جانب الكفار فاني أرى انهم اذا تمكنوا منك سجنوك وجعلوا غذاءك الغلة تمضغها كما تمضغ الخيل العلوفة وربما فقئوا عينيك وتركوك فى قعر السجن فاربدّ وجه عثمان وقال له ماقلت الا حقاً

وحكي آخر مايفهم منه ان عثمان دقنه أدرك خشونة مركبه وانه صار بلا سند فى السودان الشرقى ولذا أصبح في حاجة للاستمرار على ولاء التعايشي الذي كان يبغضه في السر وينسب الى سوء ادارته ومظالمه خراب السودان وأنه قال يوما لبعض خاصته ما يأتي

أحلف بكتاب الله هذا (ووضع يده على المصحف الشريف) انني لا أخاف الا من ثلاثة فقال جليسه ومن هؤلاء الثلاثة فقال هم الخالق عزوجل والمجذوب بن أستاذى الشيخ الطاهر والخليفة التعايشى فقال له لم أفهم قصدك وأرجو أن تفصح لي عن مرادك فأجابه عثمان انى أخشي الله تعالى لانه قادر على خذلانى فى الدنيا وعذابي في الآخرة وأما خوفي من المجذوب فلانه رجل

قليل الأدب يضيق صدري من وقاحته وأخشي أن تفرط مني كلة تغير خاطره ولو تغيراً خفيفا فاكون قد أسأت والده أستاذى الشيخ الطاهر الذى أجله وأحبه اكثر من حبي لنفسي وأفديه بأبوي وانه كما علمت أهدي اليّ الامارة وبوأنى منصبها واني أطلب من الله أن أخرج من الدنيا وتكون حياتي ومالي فداء لشراك نعل اى أحد من عترة أستاذى الشيخ الطاهر رحمة الله عليه. وأما خوفى من الخليفة التعايشى (وعندئذ تنهد عثمان وخنقته العبرة وقال يضيق صدري ولا ينطلق لسانى) فانى أخاف ان أنا خالفته ان يقبض عليّ وينفينى الي خط الاستواء (ثم سكت طويلا) فقال واقسم لك على كتاب الله انى لا أهاب الموت ولست جباناً ولكننى أتقى شماتة الاعداء

ومن هذا الحديث يفهم القاريء ماوصلت اليه حالة عثمان دقنه من الارتباك فى أيامه الاخيرة

ولما دخلت سنة ١٣٠٨ منعت الحكومة خروج الاقوات من سواكن فتصاعدت الاسعار ثم عز وجود المؤنة فى معسكر طوكر ففر من المعسكر كل من قدر على الفرار من المقاتلة وتجهز عثمان فيمن بقى معه منهم للغزو كي يحصلوا من النهب مايقوم بحاجتهم من القوت فاوغل فى وسط الجبال ونازل الاعراب الموالين للحكومة ففاجأه نبأ احتلال الجنود المصرية هندوب فاسرع الاوبة الي طوكر فبلغها قبل ان تهاجمها الجنود ببضع ليال

وفى أواخر شهر رجب سنة ١٣٠٨ هاجم هولدسميث باشا طوكر ببضعة طوابير من الجيش المصرى فخرج عثمان دقنة لالقائه في بضعة آلاف مقاتل وانتشبت الحرب بين الفريقين وحاول الدراويش إقتحام المربع

بمصدتهم المقذوفات وولوا منهزمين لايلوون على شيء وكان عثمان واقفاً وراء مقاتلتهم بعيداً عنهم بمسافة ألفي متر

وبعد الهزيمة استملوا ماخف من امتعتهم ونسائهم وقصدوا كسلة وتخلف عن مرافقتهم عدد كبير من المصريين ولم تتقدم القوة الي طوكر وخاف المصريون ان يكر عليهم عثمان فى الليل فحملوا الاسلحة واستعدوا لدفعه عنهم حتي تبلج الصباح وسار أحد أسرى المصريين الي معسكر الجنود المصرية واخبر القائد بفرار عثمان دقنه وتخلف المصريين عن مرافقته وانه ودراويشه حملوا متاعهم ونساءهم وغادروا طوكر قاصدين كسلة منذ صباح أمس ولم يبق في طوكر غير المصريين الذين كانوا مأسورين فتقدمت الحامية واحتلت طوكر ومن العجب ان الجنود مدوا أيديهم وسلبوا ممتلكات المصريين وعاثوا في أعراضهم فلا حول ولا قوة الا بالله .

شان عثمان دقنة بعد ذلك

لما انهزم عثمان دقنة من طوكر سار فيمن بقي معه من المقاتلة خائفين مذعورين يبتعدون عن الفجاج التى تقرب من العمران ويختفون فى الغابات خشية أن تشعر بهم قبائل الاعراب النازلة بين تلك الغابات والجبال وجعلوا وجهة سيرهم كسلة فهلكت دوابهم ومات اكثر الضعفاء من الاطفال والنساء ونفذت أقواتهم حتى صاروا يقتاتون بورق الشجر وكان سيرهم بطيئاً لما هم فيه من الجوع وفقدان الدواب والخوف من الاعداء

ولما وصلت أنباء هزيمتهم الى التعايشي أظهر غضبه على عثمان دقنة ونسب اليه سوء التصرف في الامور وان أنصاره ما انفضوا من حوله وتركوه

وحيداً الا بسبب فظاظته وسوء سيره

وكان عثمان دقنه مدركا لما أحدق به من الخطر بسبب غضب التعايشي الذي لا يطفئه غير الرشا التي تدفع لاخيه يعقوب

ويحسن أن أورد هنا قصة تحققت ثقة راويها وهي أن عثمان دقنة كان قد خبأ قدراً عظيما من المال في أحد الجبال القريبة من كسلة فعرج في سيره الي كسلة على ذلك الجبل وأخذ نحو مائتي الف ريال وزع منها خمسين الفا على من كان معه من الاعوان وحمل الباقي معه الى أم درمان حيث بلغها في أواخر شهر ذى القعدة فدفع منه مائة الف ريال ليعقوب أخي التعايشي الذى توسط له عند أخيه فصفح عنه. وفي أواخر شهر ذي الحجة أمر التعايشي عثمان دقنة ان يذهب الى جهة (دارامه) على نهر اتبره بين بربر وكسلة وان يجتهد هو وجنوده في زراعة الذرة ليحصلوا على قوتهم منها ودفع لهم نحو مائة رأس من البقر والغنم ليقتاتوا من نتاجها فغادر عثمان دقنة أم درمان وعسكر في (دارأمه) وأخذ يغير على أطراف سواكن للسلب والنهب ولم تعدله أهمية تذكر

حالة السودان بعد ذلك علي الاجمال

ظهر لك مما تقدم كيف استبد التعايشي بالملك وكيف قدر على التغلب على من ناوأوه وكيف أرهق البلاد بمظالم تنوء بحملها الجبال

وقد ذكرنا ماحاق ببعض القبائل الكبيرة من الهلاك والدمار ولا يظنن القاريء ان القبائل الصغيرة والعشائر التي تسكن القرى قد سلمت من ضرر هذا السيل الجارف فانها نالت نصيبا من الحيف لا يقل عما نالته القبائل الكبيرة

عدا المجاعة التى عمت السودان كله

ونحن لم نذكر تفاصيل ما أصاب القبائل الصغيرة والعشائر التي تسكن القرى لعلمنا ان ذلك يستغرق مجلدين ضخمين لا يقل حجمهما عن حجم كتابنا هذا ولكن الذى لا يدرك كله لا يترك جله. وها نحن موردون لك نزرا من تلك المظالم ليكون لك دليلا على ما أصاب السودان ونبدأ بذكر حادثة « قري وادي شعير » فنقول

هذه القرى واقعة في جنوب شرقي الخرطوم بمسيرة بضع مراحل وتبعد عن النيل الازرق بنحو عشرة أميال وأرضها خصبة تجود بمحاصيل وافرة من الذرة والقطن ذهب اليها جماعة من الدراويش لجباية الضرائب ثم دخلوا احدى القرى ومدوا أيديهم الى الماشية فذبحوا منها مازاد على كفايتهم ثم نهبوا الاغذية من داخل البيوت فلم يعترضهم السكان ولا حركوا ساكناً لمنعهم بل تركوهم وشأنهم فمدوا بعد ذلك أيديهم الى النساء وعبثوا بهن فهبّ الاهلون حينئذ ووقفوا فى وجوههم وقفة المدافع عن عرضه الذاب عن حريمه فلم ينثن الدراويش عن الاعتداء ولجوا في الطغيان وضربوا الاهلين بالاسلحة فسقط منهم قتلى وجرح منهم كثيرون ونشبت الحرب بين الفريقين وسالت الدماء واستصرخ أهالي القري بعضهم وتألبوا على قتال الدراويش الذين فروا أمامهم مدحورين حتي بلغوا ضفة النهر وهنالك بعثوا يخبرون التعايشي فأرسل خمسة من النواب توجهوا الي محل الواقعة وعادوا فاخبروه بما وقفوا عليه فأصدر أمره بمصادرة أموال سكان تلك القري وأخذ نسائهم مسبيات لانهم كفار حاربوا دراويش المهدي ولم يرضخوا لكل ما يأتونه من المنكرات

هذا ما وقع لاهالي (قرى وادي شعير) ولم توجد في بلاد السودان كلها قرية لم يقع لها مثل ماوقع لهاته القري وانما أوردنا حادثتها مثالا يقاس عليه ماحاق ببقية القري لضيق المقام عن استيعابه

وكان من العوائد المألوفة عند الدراويش انهم اذا سافروا من بلد الى خري لا يحملون زاداً ولا ميرة بل يذبحون مايصادفهم في طريقهم من الماشية ويدخلون منازل السكان ويأخذون مايجدونه فيها من الاغذية ويأخذون الحبوب لعلف دوابهم وينزل القواد في منازل الاكابر فيقدمون لهم الاغذية الفاخرة وليتهم يقفون عند ذلك بل لابد من دفع الرشا لهم فاذا تناولوا المال وأكلوا ماشاؤا من الاطعمة ورحلوا عن القرية أو البلد بدون أن ينتحلوا لها أسبابا يستحلون بها أخذ المال وسبي النساء عدّ ذلك من أكبر النعم على أهل تلك القرية وفي غالب الاحوال تكون نجاتهم هذه لاسباب منها ان لاتكون نساؤهم جميلات وأن لاتكون أموالهم الاقدر مايقوم ببعض ضرورياتهم أما اذا كانت النساء حسانا والمال زائدا عن الضروريات فلا بد لهم من يوم يذوقون فيه العذاب الاليم

ونقل اليّ واحد من المصريين سافر مع احدى السرايا الي جهة النيل الابيض وكان الدراويش زهاء ألفي مقاتل أنهم بعد ان غادروا أم درمان بمائة ميل ذبحوا مائة وخمسين رأسا من البقر ومائتي رأس من الغنم وهكذا كان فعلهم بالماشية التي تقابلهم في الطريق أما الغلال فكانوا لا يأخذون منها غير كفايتهم وفي ذات يوم وصلوا الى أحد الاسواق وفيه أجران الغلة فنهبوها وكانت نحو ثلاثة آلاف أردب

وجملة القول ان بلاد السودان في أوائل سنة ١٣٠٨ أصبحت بسبب

المجاعة فاقدة تسعة اعشار سكانها وأصبحت البلاد قاعا صفصفا وكأن التعايشي انما رضي بتلك النتيجة لانه بها أمسي آمنا على ملكه من ثورة الاهالي عليه وأخذ فى توزيع أقاربه البقارة واسكانهم فى المقاطعات الخصيبة

أما بلاد كردفان فانها لم تصب بالمجاعة فى السنتين الماضيتين لان الامطار هطلت فيها غزيرة ولكن التعايشي أرسل لها نحو اثنى عشر ألف فارس انتشروا في البلاد انتشار الجراد فالتهموا محصولاتها فى أشهر قليلة وما جاء آخر سنة ١٣٠٧ حتي تصاعدت أسعار الاقوات ودخلت سنة ١٣٠٨ والمجاعة فاشية فى اقليم كردفان وانحبس المطر عنها وهلك من هلك من السكان وفر باقيهم ولجؤا الى الجبال

ويرى الذين وقفوا على الحوادث السودانية منذ بدايتها ان المهدوية تلاشى أمرها منذ سنة ١٣٠٦ ولم تقم لها قائمة بعد ذلك وانهزمت جيوشها في أكثر الجهات ففى سنة ١٣٠٦ قتل ابن النجومى في حدود مصر وسيأتى ان الايطاليين هزموا الدراويش شر هزيمة قبل أن يحتلوا كسلة في واقعة (غردت) ثم أخذت فى التلاشي والهبوط

ومن الحقائق التي لامراء فيها ان الحكومة المصرية لو قصدت فتح السودان في سنة ١٣٠٦ أومابعدها لقدرت على الاستيلاء عليه بغير عناء يذكر بالنسبة لما صادفته في طريق فتحه فقد أرسل اليها في سنة ١٣٠٦ أكثر الامراء المرابطين فى دنقلة يعرضون خضوعهم لها ويسألونها العفو عن جرائمهم

أما التعايشي وقومه البقارة فقد انغمسوا في الترف وتنعموا بالملاذ وبذلك فقدوا ما كان فيهم من صفات الشجاعة والبداوة ومع ذلك فقد كان لا يوجد بين الاهلين خمسة فى المائة يخلصون لهم الولاء بل كان الكل يئنون

من ثقل وطأة مظالمهم ويتأففون من سوء سيرهم ولكن بقيت في قلوب الاهلين بقية من الاعتقاد بمهدوية المهدى وكانوا يلقون تبعة المظالم كلها على عاتق التعايشي ويسمون فى الخلاص من ظلمه بمبايعة أحد الخليفتين على حلو ومحمد شريف الا أن آمالهم في هذا الأخير كانت أوثق منها في ذاك نظراً لقرابته من المهدي ولان ذاك كان له بعض حظ في دولة التعايشي

ومن المضحكات ان الناس لفرط ما أصابهم من ظلم التعايشي قام كثير منهم وكل يزعم أنه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه يرومون بذلك الوصول الي سلب الملك من التعايشى اذ ظهور المسيح يعقب المهدي فكان لا يمر يوم الا ويظهر فيه كثير منهم عدا الذي ذكرنا خبره فى (القلابات) ولقد قام رجل مصري من أهالي الخرطوم اسمه (خليل جامع) مدعياً ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأنه خليفة عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان وأمره بتوزيع مافى بيت المال من الاموال فقبض عليه وسيق الى التعايشى الذي كان يعرفه حيث كان متزوجا ببنت عمه فقال له ياخليل ماهذا الذي تدعيه فانتهره وقال له هذا أمر جاءنى من الله ورسوله وأنت لاتجهله فقال التعايشى انه مجنون وان الجنى الذى مسه ساكن في بيت المال فاذهبوا به الى سجن بيت المال فمكث فيه بضع سنوات ثم أطلق سبيله. واستمر على حالة جنونه

وكان بجوار بيت المال قبطي اسمه (محروس) يسكن مع قريبة له اسمها (مصطفية) وكلاهما من أهالي الخرطوم أصيب ذلك الرجل بجنة فصعد على رابية عالية وخطب فى الناس قائلا انه (ماري جرجس) فدنت منه قريبته المذكورة وقالت له يامحروس انك بدعواك هذه تلصق بنا تهمة أننا

لانزال نصاري فأرجوك أن تترك هذه الدعوى وتدعي غيرها كما يدعي المسلمون فانتهرها وقال لها اذهبي فقالت له انتظر الموت لان أصحاب الدعاوي الملائمة لأذواق المسلمين يقتلون ويسجنون فكيف بمن يدعي مثل دعواك التي تدل على انه نصراني ثم هرع أقاربه اليه وحملوه الى داره فمات بعد أيام يسيرة

والحاصل ان اهل البلاد صاروا في حالة غريبة وجل الناس تغيرت عقيدتهم في المهدوية وتبدلت أميالهم نحوها بالنفور عنها ولم يعد التعايشي يثق بأحد من الاهالي غير أقاربه البقارة ولذا جمع ألوفا من العبيد (الجهادية) وسلحهم بالاسلحة النارية

وقد نمي الى خبر حادثة لاأري بأسا بايرادها وان كنت لاأجزم بصحتها وهي أن رجلا من التعايشة أقارب الغزالى الذى تقدم لنا ذكر قتله استأذن على التعايشي فأذن له ولمن معه وكانوا زهاء عشرين رجلا وبعدان أخذ الحراس مامعهم من السلاح دخلوا عليه وأوجعوه ضربا (ولم يشعر بذلك غلمانه لبعدهم عن غرفة جلوسه التي لايؤذن لهم في الدنو منها الااذا استدعي واحدا منهم) حتى أغمي عليه ثم تركوه وانصرفوا وكانت هذه النادرة في شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٨ وفى الغد قبض على الرجل والذين كانوا معه ونفوا الي خط الاستواء واشتد مرض التعايشي حتي أرجف الناس بموته ومكث مريضا الى العشر الاولي من شهر ذي الحجة . وقد تضاربت أقوال الناس في اسباب نفي أولئك الرجال فمنهم من يرى ان السبب فيه هذه الحادثة ومنهم من يقول ان التعايشي أسر اليهم كلاما فافشوه في ليلتهم فقبض عليهم في الغد والذين رووا الحكاية الاولى يخالفونهم ويؤيدون قولهم بمرض

التعايشي والله أعلم بالحقيقة

وقد حدث في خلال السبع سنوات التي مضت على ولاية التعايشي كثير من الحوادث التى لو اوردناها لضاق بنا المقام وأخصها مصادرة أموال كثير من الاغنياء لاسباب تافهة ان لم نقل انها مختلقة يقصد بها الحصول على أموال الناس

وقد حور التعايشي اكثر الاحكام التي وضعها المهدى فى الحدود منها أن المهدى لما كان فى جبال قدير أصدر منشوراً بشأن الدخان قال فيه ما يأتي « من استعمل الدخان مضغاً فى الفم أو حرقا بالنار أو وضعا فى الانف يجلد سبعا وعشرين جلدة بالسياط »

ثم بعد استيلائه على كردفان أصدر منشوراً آخر جعل فيه العقوبة ثمانين جلدة وحبس سبع ليال وبمثل هذه العقوبة يعاقب شارب الخمر. ولما ولي التعايشي قال للناس وهو على منبر الخطابة (من وجد في بيته ربع درهم من الدخان يجلد ثمانين جلدة ويؤخذ جميع ماله غنيمة للمسلمين) وذلك مخالف لما قاله المهدي وليست مخالفته من جهة العقوبة فقط بل ومن جهة ان المهدي اشترط ثبوت استعماله بالاوجه التي أوردناها وامتلأت البلاد بالجواسيس الذين يهجمون على المنازل لضبط الدخان مع أنهم يحملونه معهم ويدعون انهم ضبطوه في المنزل ليتذرعوا الى مصادرة أموال أولى اليسار ولهم فى ذلك حكايات يطول شرحها

ونقل لى ثقة مارايت ايراده تفكهة للقارىء وذلك ان أحد أهل العلم من أهالي الخرطوم فقد كل ما يملكه وقتل كثير من ذوى قرابته فصار في حالة تقرب من حالة الجنون. ومن نكاته المضحكة انه كان يتشاءم من يوم الاثنين الذى كان فيه سقوط الخرطوم فكان يعتكف في داره لا يخرج

منها منذ عصر يوم الاحد ويصبح منقطعاً عن كل عمل كما يفعل اليهود في السبت ومكث على ذلك زهاء سنة ثم انه ذهب يوم الثلاثاء الي النهر للاستحمام فاختطفته الامواج وكان لا يحسن السباحة فانتشل بعد أن أشرف على الهلاك فخرج من النهر وهو يقول اللهم لا اعتراض على حكمك فى يوم الأثنين عذبتنا بالقتل والنهب وفى يوم الثلاثاء عذبتنا بالغرق فتشاءم من يوم الثلاثاء أيضاً وصار يعتكف من عصر الاحد فلا يخرج الا صبيحة الاربعاء وبعد أشهر مضت وهو على هذه الحال دخل عليه في داره جماعة من الدراويش وأوسعوه ضربا بدعوي انه يستعمل الدخان وبعد اللتيا والتي خلص منهم فقال اللهم ارفع غضبك عنا ففي يوم الأثنين عذبتنا بكذا وفي يوم الثلاثاء بكذا وفي يوم الاربعاء بالضرب بالسياط وتشاءم أيضا من يوم الاربعاء وصار لا يخرج من داره الا في صبيحة يوم الخميس ثم توفى بعد ذلك رحمة الله عليه

هذا وقد انهمك التعايشي وبطانته في الترف اكثر من ذى قبل وصار في حالة من السمن بحيث يكاد الذى رآه حين افضاء الملك اليه أن لا يعرفه وقد تقدم لنا انه كان نحيف الجسم مشوه الخلقة بآثار الجدرى التي تركت فى وجهه كهوفا صغيرة زادت فى شناعة منظره أما فى سنة ١٣٠٨ فقد محيت آثار تلك الكهوف من وجهه فصار مستديراً بعد ان كان قبيحاً مستطيلا وصارت عيناه كأنهما عينا ليث يظنهما الراءى مصابتين برمد لشدة احمرار بياضهما

وقد فعل التعايشى أشياء كثيرة تخالف ما كان المهدى ينهي عنه ويحذر من استعماله بل كان يرمى مستعمليها بالمروق من جادة الحق وآداب الدين فقد كان المهدي يلبس حذاء شرقياً ويلبس نعلا عربيا سبق لنا تعريفها

وأما التعايشي فلا يوجد في بلاده الا النعال العربية فكان في بداية أمره لا يلبس غيرها وقد رأيت بعيني شقوق قدميه التي تكاد تختفي الحشرات الصغيرة فيها كل هذا ذهب وأصبح في خبر كان وصار يلبس الاحذية الشرقية والخف

وكان المهدي قد حذر من سكنى القصور وبالغ في ذلك حتى ألزم الذين يشيدون المنازل باللبن النيء ان لا يتجاوزوا في ارتفاعها أكثر من ذراع أو ذراعين وكان التعايشي شديد البغض لمن يرى داره مرتفعة عن هذا الحد وكثيراً ما أمر بهدم بعض المنازل التي يزيد ارتفاعها عن ذلك

هذا ما يعامل به الناس أما هو فقد شاد داراً واسعة شرقي الجامع واحاطها بسور من اللبن المحروق ورفع بناءها حتى كانت يخالها الانسان حصناً أو معقلا وشاد قصراً فيما يلي جدار المسجد وجعل نوافذه مطلة عليه وعلى ساحة الاستعراض « العرضة » الواقعة غربي المسجد ومنع الناس ان يقولوا انه « قصر » وكان القضاة يعزرون من يقول ذلك وقال التعايشي للناس انه ما شيده ليسكن فيه بل ليصعد عليه في كل غداة جمعة لينظر الى ساحة استعراض المقاتلة وأطلق عليه اسم « كشافة العرضة » مع ان نوافذ القصر كما قلنا مطلة على المسجد والناس يرون باعينهم المصابيح فيه وروائح العطر تفوح من نوافذه ولا يجسر أحد على القول بان التعايشي ساكن في ذلك القصر وهدم حمام سراي الحكمدارية ونقل انقاضه وأدواته من الخرطوم الى أم درمان وشاد بها حماما في داره يستحم فيه ونقل منبر مسجد الخرطوم ووضعه في مسجد أم درمان وشاد فوقه بناء شاهقاً واحاطه بمقصورة من قضبان الحديد وخصصه للخطابة

في غير الجمعة فاذا صعد عليه احتشد الناس حوله فيبدأهم بقوله « السلام عليكم يا أصحاب المهدي » فيردون تحيته ثم يكلمهم بما شاء ويأمرهم بما يريد ويعظهم ويحثهم على مواظبة الصلوات الخمس في المسجد

وجملة القول ان التعايشي تغيرت عليه قلوب الناس وتبدل ولاؤهم له بغضاً وسرت روح الثورة في جميع انحاء البلاد وبتنا ننتظر انقلابا نرجو من ورائه فرجا

ذكر تعيين المؤلف وجماعة من المصريين امراء

قلت اني لما رجعت من قرية (ولد الزاكي) في البحر الابيض اثر هروبي الى (شركيله) ورجوعي منها أسلمني التعايشي الى بقارى يقوم بحراستي في المسجد وقد ظللت خمس سنوات في اسره وسيأتي بيان ماقاسيته في تلك السنوات حتى دخلت سنة ١٣٠٩ هجرية وحالة السودان على الصفة التي بيناها

وفي عصر أحد الايام سمعنا مناديا يقول ان الخليفة يدعو جميع أولاد الريف (المصريين) الى الاجتماع ضحوة الغد في ساحة دار أخيه يعقوب ففزعنا من هذا الخبر وبتنا بليلة طويلة نتوقع في غداتها سوأ يصيبنا وذلك ان التعايشي عودنا انه لايدعونا الا لامر نكرهه وتقدم بيان بعض دعواته فيما مضى

وفي ضحوة الغد اجتمعنا في منزل أخيه يعقوب وكنت جالسا خلف المحتشدين من المصريين وكانوا زهاء خمسة آلاف رجل وبعد هنيهة جاء التعايشي فوقفنا اجلالاً له ورفعنا أصواتنا بكلمتي الشهادة فسلم على يوسف منصور رئيس الطوبجية المهدوية والسيد جمعه الذي كان مدير الفاشر ثم صار

طوبجيا مع يوسف منصور وأثني عليهما وامتدح اخلاصهما للمهدوية وقال ياحبذا لو صار المصريون كلهم مثلهما في الاخلاص للمهدوية ثم التفت الى يمينه ويساره وقال مالي لاأرى ابراهيم فوزي فأسرعت بتلبية ندائه وخرجت من الصفوف فقال لي يافوزي أما ترى الاخوين الصادقين المخلصين لنا يوسف منصور والسيد جمعه فهلا اقتديت بهما وفعلت فعلهما ألم ترهما يقضيان أكثر الوقت في بابي ولا ترتاح نفوسهما الى غير رؤيتي فقلت يامولاي اني أشد اخلاصا منهما ولكنك لاتقربني منك كما قربتهما فسكت وقال لقد ألزمتني الحجة ثم جلسنا وقدموا لنا أربع زكائب مملوءة تمرا ونثروها أمامنا على الارض فصرنا نأخذ التمر من التراب ونأكله فقلت له ياسيدى أريد أن أحمل جزأ من التمر تبركا لآل بيتي فضحك وقال ليحمل كل منكم ما شاء

وبعد الاكل استدعاني أنا واسكندر بك وأعطاني راية لاكون أميراً على جميع المصريين الذين كانوا من جند الحكومة النظاميين ودفع الى اسكندر بك راية وجعله أميرا على جماعة (الحلبة) أي الرعاع الذين يقضون حياتهم رحالة ويحترفون بالتسول بعضهم بالقردة وبعضهم بالدفوف ويتغنون على نغماتها ويضحكون الناس وهم المعروفون في مصر باسم (غجر الشام) ودفع الى رجل كردى الاصل اسمه (حسن قره شوللى) راية وجعله أميراً على الذين كانوا من جند الحكومة الغير نظاميين (باشبوزق) وكان أيضا للمصريين أمير آخر اسمه (حسن حسين) مصري الاصل كردفاني المولد والنشأة عينه المهدي أميراً على جميع (المواليد) وهم المصريون الذين ولدوا في أنحاء السودان وكان حسن حسين هذا تقياً ورعاً صالحاً يتظاهر بالاخلاص للمهدوية ذا منزلة علية عند المهدى والتعايشي وسائر الامراء وموظفى المهدوية

وكان مع ماهو فيه من شدة التمسك بالمهدوية فاطوية حسنة لقومه المصريين فكان يدافع عنهم عند التعايشي الذي كان لا يرد له قولا وكثيراً مادفع عنهم الضرر وبالجملة انه كان يريد منهم أن يتظاهروا بولاء المهدوية ليتمكنوا من داخليتها ويقبضوا على كثير من وظائفها التي لا يمكن لغيرهم القبض عليها وقد ذكرت فيما تقدم انه رأى ابني محمداً يمثل تدخين السجارة فسأله عن ذلك فأجابه بقوله هكذا يفعل أبي وأخيراً حذرني من اطلاع هذا الصبي على مثل هذا العمل ولم يصنع معي شيئاً يكدرني مع ان مثل هذه المسألة لو وقف عليها غيره لجلبت علي ضرراً بليغا

وعلى ذكر المصريين نذكر هنا حالتهم التي كانوا عليها في اسر المهدوية وهي لاتقل عن الحالة التي قاسيتها الا أن بعضهم نالوا وظائف كتابية في بيت المال وعند عمال الخراج ونال بعضهم وظائف صناعة البارود وتعبئة الخرطوش وسائر الادوات الحربية وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم وفريق منهم وأكثرهم من الضباط وذوي المراتب السامية قبل الاسر احترفوا بمهن تافهة وفتح كثير منهم حوانيت للاطعمة والخبز ومع ذلك كانوا كلهم فى حالة الاضطهاد والتحقير من جميع السودانيين ولم يكن لذلك من سبب سوي بياض بشرتهم الذى يدل على جنسيتهم

ومن الغرائب المضحكة ان رجلا كان جاويشا مصريا ثم صار يبيع « الترمس » وكان يرفع صوته فى السوق ويقول (تفرج) فأمسكه حاكم السوق وقال له انك تقصد بكلمة « تفرج » عودة حكم الترك وزوال المهدوية فتنصل من هذا التأويل وحلف انه لايقصده فأمر بجلده فجلد مائة جلدة وفى أثناء الجلد كان يصيح بقوله « لاتفرج » لاتفرج ثم إنه ترك

كلمة تفرح في ندائه على بيع الترمس واستبدلها بقوله «خليها على الله» فأمسكوه ثانيا وجلدوه بعد ان قالوا له انك تقصد بهذه الجملة مقصدك الاول ومثل هذه العبارة كثير يعد بالالوف ومنها أن امام أحد المساجد فى الجزيرة قال فى خطبة الجمعة « اللهم حوّل حالنا الى أحسن منه» فجلدوه وعزلوه وقالوا له انك تقصد عودة الحكومة السابقة فقال لهم ماذا أقول فقالوا قل (اللهم أدم علينا هذا الحال » فالتزم ذلك

على ان كثيراً من المصريين تقدموا عند المهدويين ونالوا وظائف كتابية وصناعية جمة كانوا بواسطتها في رغد من العيش الا انهم كانوا عرضة للسخرية والازدراء من العامة حيث كانت ألوان بشرتهم بيضاء وكانوا ممنوعين من السفر الي الجهات الشمالية كيلا يفروا الى مصر حتى ان التعايشي كتب منشوراً باهدار دم أي مصرى وجد في جهة (خورشنبات) شمالى بلدة أم درمان بستة أميال تقريبا

هذا وقد فاتنى ان اذكر ان التعايشي لما مثلت بين يديه فى هذه المقابلة قال يافوزي ان النصارى كتبوا لنا فى شأنك وهم على ماظن يحبونك فقطعت عليه الكلام وقلت هم يحبونني لانى خدمتهم باخلاص فيما مضى وانى أقسم بالله انى أخدمك باخلاص أشد مما خدمتهم به لانى اذا كنت خدمتهم بصدق وهم كفار فكيف لا أخدمك وأنت خليفة المهدي عليه السلام الذى هو خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم فضحك وتمايل طربا من هذا المدح وقال لي جزاك الله خيراً وبارك فيك أيها الرجل الصادق

هذا وقد فرحت بالامارة لانى رجوت بها خلاصاً من ربقة الموكلين بحراستي فى المسجد الذين سيجيء ذكر ماقاسيته من عذابهم بضع مدة سنوات

ذكر ملازمتي الصلوات في المسجد

قد تقدم انني لما فررت في أوائل سنة ١٣٠٥ عدت الى أم درمان بالكيفية التى مرّ الكلام عليها

وفي يوم عودتي الى أم درمان اسلمني التعايشى الى بقارى يقوم بحراستي في الصفوف التى خلف مقصورته ولما رآني ذلك البقاري قال (ياولد الريف) لماذا أنت ضخم الجثة ولماذا وجهك أبيض مع أنك كافر فقلت هكذا خلقنى الخالق فقال احمل سلاحي وسر خلفى فحملت سلاحه وذهب مى الى منزلي وتناول طعام العشاء معى

وفى اليوم التالي بدأت بأداء الصلوات بجانب ذلك البقارى الذى انضم اليه آخر ليكونا معاً فى حراستى فكانا يمنعاني من الخروج من المسجد ولو لقضاء حاجة الوضوء كما يمنعانى من أخذ الراحة فلا أجلس الا جاثيا على ركبتي كما يجلس المصلى وقالا لي يوما (يا ولد الريف) اعلم انك كافر وان الخليفة اسلمك الينا لنعلمك الصلاة والصوم وضيقا على حيث صرت لا أقدر على التخلف من الصلاة بالمسجد وكان منزلي يبعد عن المسجد جهة الجنوب بنحو أربعة أميال فكنت أخرج من منزلى قبل طلوع الفجر بنحو ساعتين وبعد أداء الصلاة أجلس لقراءة (راتب المهدي) حتي ترتفع الشمس ثم أعود لصلاة الظهر قبل نهاية الساعة الثامنة من النهار على الحساب العربى لانهم انما يصلون الظهر في بداية الساعة التاسعة وبعد نحو ساعتين يصلون العصر وفي بعض الاحيان لايصلون العصر الا قبل الغروب بنحو ساعة وصلاة المغرب فى الغالب تكون بعد غروب الشمس بنحو ثلث ساعة وبعد ذلك اذهب

الي منزلي الذى كنت لا أدرك فيه راحة اكثر من بضع ساعات حتى صرت في حالة يرثي لها من العذاب الاليم والحاجة الى الراحة فاتفقت مع البقاريين الحارسين على ان أدفع لهما ريالين عن كل وقت اتخلف فيه عن حضور الصلاة فقبلا بعد رجاء شديد وعدا ذلك أنهما كانا يذهبان معى الى منزلي ويتناولان معي الطعام ويكلفانى بشراء ملابس لهما ولاولادهما ونسائهما بعد كل شهرين أو ثلاثة وفى بعض الاحيان يأخذني احدهما الى الحى الذي تقيم فيه عشيرتهم فيجتمع حولي منهم نحو مائتى شخص أظل نهارى كله اكتب لهم الخطابات الى ذويهم فى جهات مختلفة واقرأ لهم الخطابات التي تأتيهم منهم وكلهم يدعوننى (النوبى الذى دفعه الخليفة رقيقاً لهم)

وتصنع نساؤهم آنية من سعف (الدوم) محكمة الاطراف الى درجة ان الماء لا يقطر منها كانها من الاجسام الصلبة ويتخذها الناس أنيـة يشربون فيها الماء فكانا يأتيانى ببضع أوانى منها فى الاسبوع ويكلفاني ببيعها والويل ثم الويل لي اذا لم أجد من يشتريها فكنت أحملها واذهب الى معارفى واكلفهم بشرائها واعود بثمنها اليهما .

وفى ذات يوم قضيت نحو نصف النهار ولم أجد من يشتري تلك الآنية فعدت بها اليهما فاغتاظا وقال لي انك لا تزال كافراً يامنحوس وسنخبر الخليفة بذلك فجمد الدم فى عروقى واسرعت الى حانوت أحد أصدقائى التجار وكان أوروبيا والدمع يسيل على خدي فاخبرته الخبر فاسرع باعطائي ثمن الاواني وأخذها لنفسه فعدت اليهما ودفعته لهما فقال لي الآن اسلمت .

وصرت بعد ذلك الح عليهما واكثر الاعتذار حتى صارا يقبلان ريالا واحداً عن كل وقت من أوقات الصلاة أتخلف عن حضورى فيه ثم بعد بضعة شهور

أعدت الرجاء عليهما حتى رضيا بثلاثة ارباع الريال ثم بنصفه وهكذا حتي صرت ادفع عن كل وقت قرشين

ولما اشتدت المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و١٣٠٧ كانا يقولان لي يظهر لنا انك في سعة من العيش فكنت أحلف لهم انى في نهاية الضنك وفقدان القوت وكنت في ذات يوم تناولت غذاء من اللحم وجئت المسجد فتجشيت فصاحابي هل تغذيت بلحم فقلت كلا فغضبا وشتماني وقالا لي انك لاتزال مصرا على الكفر وكلما اعتقدنا فيك حسن الاسلام يبدو منك مايغير هذا الاعتقاد لانك تاكل اللحم وحدك فاجتهدت في نفي هذه التهمة عني وزدت لهما الراتب وبعد عناء شديد تحصلت على رضاهما وصرت أمانع التجشي وانا جالس معهما

ومما يشبه هذه النادرة ان أحدهما قال لي يوما ان بنته مريضة وهي تشتهي السكر فقلت له انني ماذقته منذ خرجت من الخرطوم لان المهدي أوصاني بالزهد في الدنيا والسكر ذو طعم حلو لايليق بالزهاد تناوله فتعجبا من قولي وقالا لي لابد من احضار (عجل سكر) هكذا يسمون القمع من السكر فقلت لهما إن ثمنه مرتفع جداً ولا يمكنني دفعه وبعد اللتيا والتي تمكنت من إقناعهما بتركه وقلت في نفسي يكفيني تقديم الملابس لهما ومعلوم الاوقات فاذا فتحت باب السكر واللحم اكون قد جنيت على نفسي جناية ربما كانت مغبتها سيئة علي

ومكثت على مثل هذه الاحوال من سنة ١٣٠٥ هجرية الي أوائل سنة ١٣٠٩ حيث تعينت اميراً كامر

ولما تعينت أميراً امتنعت من حضور الصلاة بجانب ذينك البقاريين

فاعلما التعايشى فاستدعانى وهو جالس في مقصورته بالمسجد وقال لماذا امتنعت من حضور الصلاة مع رفيقيك فقلت له يامولاي انك عينتنى اميراً ولا ريب انك رايت في أهلية لان اكون مرشداً لمن وليتني عليهم فانا أقوم اليوم بتربيتهم وحضور الصلاة معهم فضحك وقال لذينك البقاريين اتركاه وبذلك خلصت من ربقة ذلهما وبت آمناً من وشايتهما في اكثر أوقاتى ولله الحمد من قبل ومن بعد

ويوجد مئات من الناس قضوا اكثر ايام المهدوية في مثل هذا الحال الذي وصفناه وكثير منهم فقدوا ثروة طائلة في سبيل استرضاء الموكلين بحراستهم بمثل الطريقة التي تقدم الكلام عليها مما يدل على ان المقصود الحقيقي من وضع الناس تحت المراقبة في الصلاة هو تسريب مافي جيوبهم من المال الى جيوب ضعفاء البقارة وكذلك أمر السجن فان السجان واعوانه يتناولون من المسجونين أموالا طائلة حتي أصبح السجانون ارباب أموال كثيرة

ذكر انتقاض الخليفة شريف واولاد المهدي

الخليفة شريف ابن عم المهدي وثالث الخلفاء كما مر الالماع الى ذلك وهو الذى لقب (بخليفة الكرار) وكان قبل وفاة المهدى صاحب الحظوة عنده بالرغم عن تقدم التعايشي عليه

وقد ذكرنا انتقاضه على التعايشى بعد وفاة المهدى وكان للمهدي ثلاثة أولادهم الفاضل ومحمد والبشرى وكانوا في سن الطفولية لما توفى أبوهم

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ زوج التعايشى محمد بن المهدي بنته واسكنه معه في داره فكان يظهر لها الكراهة والنفور لان التعايشى اضطهد اخوته

وأقاربه ومنع عنهم العطاء من بيت المال منذ وفاة المهدي فكان الخليفة شريف يعطى مرتباً شهريا يبلغ مائتي ريال وهو قدر زهيد بالنسبة لما كان يتناوله في ايام المهدي وليتهم كانوا ينقدونه اياه في كل شهر اذ الحقيقة انه كان لا يقبضه الا مرتين أو ثلاثا على الاكثر في السنة كلها وزد على ذلك أن التعايشي انتزع راياته من يده ووزع جيوشه التي اهمها الجيش الذي هلك مع ابن النجومي في الحدود المصرية

وكان للخليفة شريف حراس من ذوي قرابته يطلق عليهم اسم (الملازمية) يركبون الخيول الكريمة ويحملون الحراب الطويلة ويحيطون به كلما خرج من داره فانتزعهم التعايشي منه والحقهم بعثمان دقنة في السودان الشرقي وبالجملة أصبح الخليفة شريف مجرداً عن كل مميزات الخلافة التي كان حائزاً أوفر نصيب منها في أيام قريبه المهدى وكذلك أولاد المهدى الذين ذكرناهم فانهم صاروا فى نهاية الاضطهاد الا محمداً الذي تزوج بنت التعايشي فانه كان ممتنيا بشؤونها ويقدم الطعام لها ولصهره فقط

وكان للمهدي أولاد غير هؤلاء في سن الطفولية ونساء يزيد عددهن على المائة وكان الكل في نهاية الضنك يتضورون جوعا

ولما فشت المجاعة فى سنتى ١٣٠٦ و١٣٠٧ كادوا يهلكون من الجوع لولم يتداركهم ذووهم

ولما دخلت سنة ١٣٠٩ وصارت حالة السودان الى ما أشرنا اليه وتغيرت قلوب الاهلين وتحفزوا للوثبة على التعايشى اغتنم الخليفة شريف وأولاد المهدي والمضطهدون من أقاربهم هذه الفرصة وارسلوا الدعاة سراً الى بلاد الجزيرة يدعون الاهلين للانتقاض على التعايشى ومبايعة الخليفة شريف

وضربوا لذلك اجلا يجتمعون فيه بام درمان وهو السابع والعشرون من شهر رجب سنة ١٣٠٩ ودخل في هذه البيعة كثير من الوجوه والقواد واكثرهم من حزب التعايشي الذى لم يكن عالما مما دبروه حتي اذا كانت ليلة الثانى والعشرين من شهر ربيع الثاني دخل عليه أحد الجواسيس وأوقفه على المسألة فاستدعى رجلا من أهالي كردفان وهو دنقلى الاصل اسمه السيد المكى بن اسماعيل الولي وكان أول انسان بايعه يوم توفى سلفه المهدى وقال له اذهب الى الخليفة شريف وبايعه بما يريد على شرط ان تقف على مادبره وتخبرنى به فاطاعه وذهب الي شريف وعاهده على المصحف الشريف وعلم منه كل ما يريد التعايشي الوقوف عليه ثم عاد اليه واخبره به فجمع التعايشي أخاه يعقوب وذوي قرابته ليتداولوا في الامر فقر رأيهم على ان يهجم رجال التعايشي على الخليفة شريف وأولاد المهدي ويقبضوا عليهم قبل ان يحل الاجل المضروب

وكان فوزي وأحمدى ابنا محمود باريه الدنقليان كاتبين للتعايشي فاعلما الخليفة شريفا بما أجمع عليه رأى التعايشي لانهما كانا ممن عاهدوه على اتمام أمره

وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني فشا الخبر بين الناس فاصدر التعايشي أمرا الى الجهادية بالزحف من معسكرهم الى داره فخرجت الجهادية مارة على (الموردة) وما حولها من السوق فنهبوا كل ماصادفهم فى طريقهم حتى وصلوا الى دار التعايشى

واجتمع حول منزل الخليفة شريف نحو عشرة آلاف مقاتل جلهم من الدناقلة وأهالى القرى التي حول أم درمان وكان منزل التعايشى لا يبعد عن منزل الخليفة شريف باكثر من مائة متر واحتشد فى المسجد اكثر السكان الذين يظن التعايشى انهم مع عدوه فامر الجهادية بالوقوف على أبواب المسجد ومنع من به

من الخروج حتى لا ينضموا الى الخليفة شريف وحولت الازقة التى بين منزل الخليفة شريف ومنزل التعايشى الى متاريس وخطوط نار

وكان التعايشى وقتئذٍ في بيتـه فلم يخرج حتي وثق من ان مقذوفات المنتقضين لا تصل اليه وأقيمت عدة متاريس على جدار منزل المهدي الملاصق لمنزل الخليفة شريف ووقع الرعب فى قلوب البقارة وفر ثلاثمائة فارس منهم قاصدين كردفان وبلغ الحماس مبلغا عظيما من المنتقضين حتى ان النساء تسلحن مع الرجال وفى أصيل النهار هجمت مائة امرأة منهم على نحو خمسين فارسا من البقارة كانوا يسقون خيولهم على ضفة النهر فاوسعوهم ضربا بالعصى ففروا وتركوا خيولهم غنيمة للنساء المتحمسات

وبات الناس ليلتهم يحترس بعضهم من بعض والتعايشي يرسل الرسل الي الخليفة شريف ويلين له الكلام

وفى منتصف الليـل هجمت رجال الخليفة شريف على صفوف التعايشي حتي زحزحوهم عن مواقفهم ونهبوا بعض أمتعتهم

وانضم الى الخليفة شريف أحمد سليمان الذي كان أمينا لبيت مال المهدي وسعيد محمد فرج من رؤساء القبائل في دنقلة وكان قد وفد على التعايشى فى أم درمان متظلما من يونس الدكيم أمير دنقلة وانضم اليه أيضا شايب بن أحمد أحد أمراء الدناقلة المشهورين وكان مع عثمان دقنة وأخبار فروسيته وإقدامه معروفة يتحدث بها أهل سواكن

أما موقف الخليفة على حلو الملقب (بخليفة الفاروق) فى هذا الانتقاض فكان موقف خديعة للخليفة شريف ومباطنة للتعايشى لانه كان يظهر للخليفة شريف انه معه ويقـال انه هو الذى أخـبر التعايشى بامر انتقاض الخليفة

شريف عليه

وقد جمع الخليفة على حلو مقاتلته وكانوا زهاء خمسة آلاف فارس ونحو عشرة آلاف من الرجالة وكلهم من عشيرته (دغيم وكنانة) وهم الذين مر لنا الكلام على انهم اول من بايع المهدى يوم اجتاز النهر من جزيزة آبا الى الضفة الغربية وهم الذين نصروه في جبال (قدير)

وفي غداة اليوم التالي فرق التعايشي مقاتلته فأحاطوا بمنزل الخليفة شريف من جميع الجهات وابتدأ إطلاق النيران من الفريقين واستمر نحو ساعتين لم تظهر فى خلالها نتيجة غلبة أحدهما وهجم شاب احمد شاهرا سيفه على مائتين من جهادية التعايشي فولوا مذعورين

وفي ساعة وقوع القتال كان الخليفة على حلو مع الخليفة شريف يعرض عليه شروط الصلح وهى كما يأتى

أولا تعاد للخليفة شريف راياته

ثانياً يدفع له مرتب ٢٠٠٠ ريال فى كل شهر

ثالثا يدفع لكل واحد من اولاد المهدي مرتب يكفيه

رابعاً يعفو التعايشى عن كل الذين بايعوا شريفا على الانتقاض

خامسا يتعهد الخليفة على حلو بانفاذ هذه الشروط.

سادسا يعزل يعقوب أخو التعايشي عن وزارة أخيه لانه مرتش ولانه سبب جميع المظالم التي أخربت البلاد

سابعاً يعزل قاضى الاسلام أحمد على

ثامناً لا يقطع التعايشى أمراً دون مشاورة الخليفة شريف

تاسعا يطلق سراح محمد خالد زقل (الذي تقدم لنا ذكر سجنه)

وقد تم الاتفاق شفاهياً على هذه الاوجه وحلف الخليفة على حلو على المصحف الشريف أن يكون ظهيراً للخليفة شريف ان لم تنفذ هذه الشروط ثم اصطحب الخليفة شريفا معه الى منزل التعايشي الذي قابله بالتجلة والاكرام وأخذ يبكي ويعانق الخليفة شريفا ويقول له ان المهدى جاءه في الحضرة وأمره باجابة مطالب الخليفة شريف وانّ النبي صلى الله عليه وسلم أوصاه به وحلف التعايشي على المصحف أنه لا يبدل شرطا من الشروط التي اشترطها عليه الخليفة شريف وانصرف الخليفة شريف الى داره وارسل له التعايشي ثلاثة آلاف ريال وأمر الناس بالكف عن الحرب وأمر الرؤساء بالذهاب الى تجديد بيعة التعايشي فوقع ذلك على الجميع موقع الصاعقة وعلموا ان ذلك خدعة وان التعايشي سيقتص منهم فلاموا الخليفة شريفا على تسرعه في ابرام الصلح بدون مشورتهم فاخذ يؤكد لهم استحالة اقدام التعايشي على الانتقام منهم فهزؤا بقوله ولكنهم لم يجدوا سبيلا عن الكف عن الحرب والتوجه لمبايعة التعايشي الذى قابلهم بالبشاشة والاكرام وعفا عنهم وحلف لهم على الوفاء بما جاء في الشروط التي أوردناها فلم يصدقوه وايقنوا ان العاقبة وخيمة

ويقال ان الخليفة شريفا عمد الى المصالحة مضمراً الغدر حيث كان موعد الاجتماع عليه فى أواخر شهر رجب فصالح على ان يقوم بأمره عند حلول ذلك الاجل حيث يجتمع عليه الناسّ ولكن ساء فاله واتخذ التعايشي الحيطة لاحباط ذلك كله

وفى اليوم التالي ركب التعايشى فى نحو ستة آلاف فارس واجتاز الاحياء التى يسكن فيها المنتقضون مع الخليفة شريف وأمر الفرسان بنهب مافى المنازل

من المتاع ففعلوا وكانوا يجردون النساء من ملابسهن حتى المآزر

وانفذ السرايا الى الجزيرة فقبضوا على رؤساء الذين بايعوا الخليفة شريفا ونهبوا أموالهم

على ان اكثر الناس كانوا مشايعين للخليفة شريف وكانوا على يقين بان قيامه سيأتى بفائدة الخلاص من نير البقارة وأنه لولم يصالح على الشروط المتقدمة وشهر الحرب لظهر على التعايشى الذي لاقوة عنده غير الجهادية الذين اكثرهم يظاهرونه على التعايشي

والحاصل ان ثورة الخليفة شريف جاءت مغبتها سيئة عليه وعلى كثير من الذين مالوا اليه اذ يبلغ عدد من ذهبت دماؤهم هدراً بسببها بضعة آلاف شخص كلهم ماتوا فى المنفى وقتلوا بسيف انتقام التعايشي كما سيأتي ذكر ذلك كله فى مكانه فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ذكر القبض علي كبار حزب الخليفة شريف وقتلهم

تقدم لنا الكلام على المعاهدة التي انحسمت بها ثورة الخليفة شريف وقد مضت على هذه المعاهدة اثنتان وعشرون ليلة يبدى التعايشى في كل يوم منها من دلائل الاحترام للخليفة شريف ماجعله له أطوع من بنانه حتي أسلمه جميع الاسلحة النارية التى كانت عنده وكانت تبلغ زهاء الفى بندقية من طرز رامنجتون وكان التعايشى يركب فى كل يوم والى جانبه الخليفه شريف الذي غمره بكثرة عطاياه حتى وردت عليه انباء من انفذهم للقبض على رؤساء القبائل الذين لهم ضلع مع الخليفة شريف وجيء بهم مقرنين في الاصفاد فقلب له ظهر المجن وأرسل فى اليوم الثالث والعشرين لتقرير المعاهدة من قبل على أحمد

سليمان امين بيت مال المهدى وفوزي وأحمدي ابنى محمود باريه وأخويهما وسعيد محمد فرج من رؤساء قبائل دنقلة وادريس وريدي أحمد قضاة بيت المال وهو قريب فوزى واخوته وخمسة عشر رجلا من أقارب المهدى وبنى عمومته وكلهم من الذين أسسوا دعوي المهدوية وجىء بهم الى منزل التعايشى وكان جالسا ومعه القضاة والخليفتان على حلو ومحمد شريف فلما مثلوا بين يديه رحب بهم وهش وبش في وجوههم كأنهم مدعوون لوليمة عنده وأمرهم بالجلوس وبالغ فى اكرامهم ثم قال لهم يااخواني ان النبي صلى الله عليه وسلم أمرنى فى الحضرة ان ازجكم فى السجن اياما قلائل ريثما يأمرنى باطلاقكم فما قولكم فاجابه الخليفة شريف بقوله لا يمكن سجنهم لان ذلك مخالف لما تعاهدنا عليه فسكت التعايشي وأجاب الخليفة على حلو الخليفة شريفا بحدة وغضب قائلا أأنت تعارض في أمر النبي صلي الله عليه وسلم ووثب رجل من قواد (دغيم) اسمه ابن أبى بلال وانتهر الخليفة شريفا وقال له كان المهدي قريبك يحكم فى الخلق بامر الحضرة ولا يستطيع احد ان ينكر عليه فلماذا أنتم اليوم تحرمون على غيركم ما كان لكم حلالا بالامس فسكت الخليفة شريف وعلم ان الخدعة تمت عليه وترك الكلام فى أمر معارضته فى حبس رؤساء حزبه وأخذ يحتج على ما كان من اهانة ابن أبى بلال له مع ان ذلك لم يحصل منذ قامت دعوة المهدوية لانه لا عقاب لمن يتجارى على مخاطبة أحد الخلفاء باقل شيء تشم منه رائحة الاهانة غير القتل فغير التعايشي الكلام وخاطب أحمد سليمان بعبارات المحبة والتبجيل وذكر قربه من المهدى وحظوته عنده ثم قال يا اخوانى طبوا نفسا ولا تظنوا سوأ قوموا واذهبوا

الى السجن الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بادخالكم فيه وقال للخفراء الذين يحيطون بهم مروا السجان ان لا يضع في رجلي كل واحد منهم غير قيد صغير لانهم من أجل أصحاب المهدى عليه السلام وذوى قرابته ثم قال لهم هيا اذهبوا على بركة الله فودعوه وخرجوا من الباب فاحاط بهم نحو خمسمائة بقارى وضربوهم الضرب الذي يسمونه (مطرد صبت) وكيفيته ان يجتمع مائة نفر فاكثر ويضربوا بالعصى شخصاً واحداً أو عدة أشخاص

ثم سيقوا الى السجن وعاد الخفراء واخبروا التعايشى بانهم قد أودعوهم السجن فامر الناس بالانصراف الا واحداً من أقاربه فلما انصرفوا قال لاحد الخفراء عد الى السجان وقل له ضع في كل واحد عشرة قيود وزن كل قيد عشرون رطلا من الحديد ثم قال لقريبه اعلم انى منذ ست وعشرين ليلة مازار النوم اجفاني أى من يوم سمعت بامر الخليفة شريف الذي لم يكن في ظني ان مساعى تقرن في مسألته بالنجاح وتأتى بمثل هذه النتيجة المرضية ومذ حبست أحمد سليمان ومن معه شعرت براحة في نفسى وهجم النوم على جفنى فاستودعك الله لانى ذاهب الى حجرة نومي فودعه وانصرف ودخل التعايشى الى حجرة نومه فلم يستيقظ الا بعد ظهر اليوم التالي ومكث أحمد سليمان ومن معه ثلاثين ليلة في السجن ثم حملوا الى فشوده على إحدى البواخر النيلية وأرسل معهم التعايشى كتابا الى الزاكى طمل وكان معسكراً وقتئذ في فشوده لقتال (الشلك) كما قدمنا

ولما وصلوا اليه استدعاهم في مجلس غاص بقواده وخاطبهم لماذا يامعشر الدناقلة تحاربون خليفة المهدي فردوا عليه أقبح رد وقالوا له ان المهدي الذي أورثكم الملك دنقلي منا وانتم بقارة ارقاء فساءه ذلك وقال لهم لا قتلنكم كما تقتل

الكلاب وأمر أن يضرب كل واحد منهم عشرة أشخاص بالعصى الغليظة حتى يموت فمكثوا على هذه الحالة بضع ساعات حتى تهشمت رؤسهم وسحقت سحقا

ولما شرعوا في ضربهم قال أحمد سليمان لفوزي نحن الآن على شفا الموت ولا مطمع لنا في الحياة فانا أناشدك الله هل المنشور الذي يتلى كل يوم فى المسجد وفيه ان التعايشى أوتي الحكمة وفصل الخطاب مطابق للاصل الذي صدر من المهدي فقال فوزى اللهم لا بل التعايشى هو الذى أمرنى بوضع الزيادة التي زيدت فيه فقال أحمد سليمان اعلموا ان المهدي كان ينوى الفتك بعبد الله التعايشي ولم يستخلفه الا لانه كان مطلعا على كثير من اسراره وكان يظن انه ترك قوة عظيمة في يد الخليفة شريف تقدر على كبح جماح التعايشي متي أراد الخروج عن طوره ولكن يا للأسف ان الخليفة شريفا خدع في بداية الامر وأسلم راياته للتعايشى وأصبح بلا قوة ثم خدع فى هذه المرة وسيلاقي ماجنته يداه فالتفت اليهما سعيد محمد فرح وقال لهما كفا عن هذا الهذيان واعلم يا أحمد بن سليمان ان مهديكم كاذب ظالم وعقله اسخف من عقل قريبه الخليفة شريف والدليل على ذلك انه لم يختر من جميع الناس الذين تبعوه ممن هو أهل لخلافته غير بقارى أجهل من الحمار وليته كان بقاريا ذا حيثية فى قومه بل هو كما يعلم الكل دكروري من أوباش البقارة ثم طرأ عليهم كلهم ما منعهم عن الكلام فماتوا وألقيت اشلاؤهم للكلاب والذباب

وكانوا كلهم عدا سعيد محمد فرح من اكبر انصار المهدي ومن خيرة اعوانه وقد تقدم لنا كلام عن أحمد سليمان ومنزلته عند المهدى فلا حاجة لاعادته هنا وقد ذكرت أيضا مالحقنى من تعذيبه لى

أما فوزي واخوته فانهم كما قلنا دنقليون كان أبوهم قاضيا فى أحد مراكز كردفان فلحق فوزى بكتبة التعايشي حتى صار رئيسهم

وقد صودرت أموالهم وأخذت نساؤهم مسبيات وهدمت منازلهم وأصبحوا عبرة لمن يعتبر والي الله مصير كل شيء

ذكر القبض علي الخليفة شريف وحبسه

لما قبض التعايشي على احمد سليمان ومن معه لزم الخليفة شريف منزله وامتنع من الذهاب الى منزل التعايشى الذى أمر بالقبض على نحو ألفى رجل من حزب الخليفة شريف ونفاهم الى النيل الاعلى وقتل اكثرهم في الطريق

وشاع بين الناس ان التعايشي ظفر بالقائمة التى فيها أسماء من بايعوا الخليفة شريفا وجلهم من الامراء ووجوه البلاد فخافوا العاقبة وأرسلوا للخليفة شريف سرا يدعونه للفرار من أم درمان واللحاق بالجزيرة ليظهروا مبايعته ويقوموا بأمره وحينئذ يكون أحد الامرين إما الموت أو الظفر وهذا قريب من الصحة لما قدمناه من انحراف الناس عن التعايشي وسعيهم فى الخلاص من يده

ولما كان الخليفة شريف هذا بليدا لم يلتفت لما أشار به أنصاره ولم يعبأ بما عرضوه عليه من الآراء الحازمة وظل مقيما فى داره حتي شاع بين الناس ان التعايشي أوشك أن يقبض عليه فذهب واحد من خواصه وأخبره بذلك فسخر منه وقال له ان ذلك لايمكن أبداً لاني ثالث الخلفاء وان المهدى أخبرعنى فى أحد منشوراته بان المهدية لاتقوم قائمتها بغيرى

وعلى ذكر المنشور نقول انه يوجد منشور منسوب للمهدى ولكنه لم يدرج

ضمن كتاب المنشورات التي تقدم لنا ايراد بعضها لان التعايشي منع من طبعه وفي المنشور معميات وألغاز كالتي يستعملها بعض المتصوفة ومنها كلمتا (دهودي بهودي) وفيه أيضا عبارة تشبه اللغز وهي (انه لن يصح انتقالى من الدنيا حقيقية مادام الخليفة شريف موجوداً بها)

على ان بعض الناس ينكرون صدور هذا المنشور من المهدى والحاصل ان الخليفة شريفا كان آمنا على نفسه اعتمادا على هذه الخزعبلات ولذلك لم يعبأ بمشورة الذين حثوه على الفرار

وتوجد مسألة خلاف قديمة بين التعايشي والخليفة شريف وهي ان المهدي زعم فى أوائل دعواه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهداه سيفا قال له هذا سيف النصر وخاصيته أنه لا ينصر أحد على من كان حاملا له وقد جعله من ضمن الكرامات التي خص بها وقد تقدم ذلك فى كثير من المنشورات التي تقدم ايرادها

ولما توفى المهدي أمسك الخليفة شريف هذا السيف وامتنع من تسليمه للتعايشي الذى كان يلح في طلبه من الخليفة شريف لا للاعتقاد بما يقال عنه بل لانه كان يرى ان بقاء هذا السيف في يد غيره يخفض من شأنه قليلا في حقوق الخلافة اذ العامة من الدراويش تحدث بشيء كثير عن كرامات هذا السيف فيقول بعضهم انه يضطرب ويسمع له صوت كقصف الرعد اذا اقترب العدو من مدينة المهدى. ومنهم من يقول انه اذا اقترب منه الجنب ضرب عنقه بغير ضارب ولا يستطيع أحد حمله غير صاحبه المهدى الى غير ذلك من أقوال البسطاء. ونقل لي مصرى كان مقربا من المهدي انه سيف مثل سائر السيوف وليس فيه خاصية مما تحدث به العامة ويصدقه البسطاء

وشعراء المهدوية ينظمون فيه الموشحات ويذكرونه كثيرا فى قصائدهم وكان الخليفة شريف متقلده فى غضون ثورته

وفي اليوم الثالث من شهر رجب سنة ١٣٠٩ جمع التعايشي القضاة والامراء وطلب منهم ان يكتبوا محضرا يقولون فيه ان الخليفة شريفا اعتزل الجمعة والجماعة واصر على العصيان ولزم منزله فكتبوا ذلك ثم قال لهم اذهبوا مع الخليفة علي حلو وادعوه الى الحضور فى داخل قبة المهدى ثم اقبضوا عليه فذهبوا وارسل اليه الخليفة على حلو يدعوه الى الحضور فامسكه محمد أحد أولاد المهدي وقال له لاتذهب واعتذر بانك مريض فاذا أرخى الليل سدوله فاهرب الى الجزيرة فقال له لاتخف فانهم لايستطيعون ايصال الاذي الى فذهب معهم وما كاد يستقر به المجلس حتي وثب عليه من حوله وقبضوا عليه واخذوا سيف النصر من يده وأوسعوه ضربا وساقوه الى باب التعايشى وأسلموه للحراس الذين أخذوا يلطمونه ويهينونه ودخل الخليفة على حلو والقضاة على التعايشى واخبروه بما صنعوا. ويقال ان التعايشى طلب منهم ان يوافقوه على صلبه وأخيراً أمر به فسيق الي السجن وما وصله الا بعد أن بلغت روحه التراقى لكثرة مالحقه من الضرب وهناك وضعوا فى رجليه عشرة قيود من الحديد ووضعوا فى عنقه جنزيراً وزنه خمسون رطلا وسنعود الي ذكر بقية أخباره

ذكر القبض علي عبد القادر ساتي علي ومحمد عبد الكريم وقتلهما

عبد القادر ساتي علي ابن عم المهدى ومحمد بن عبد الكريم

ابن أخى عبد القادر ساتي على وكان الاول فقيها شاعراً أديباً ولد فى الخرطوم وتربى فيها ولحق بقريبه المهدى فى كردفان فاكرم وفادته وعرف منزلته وصار مبجلا عنده وعهد اليه برئاسة الامناء الذين ينوبون عنه فى نظر المسائل العمومية وجعله أميناً على خاتمه

وكان عبد القادر ساتي على شديد البغض للتعايشى يعيبه بالجهل ويرميه بالظلم وكثيرا ما طلب من المهدي اقصاءه عن منصب الخلافة وكان يمانعه فى انفاذ كثير من مآربه ويزدريه ويحقره ولا يجلس بين يديه جاثيا على ركبتيه كما هى عادة الدراويش فى آداب الجلوس عنده

ولما توفى المهدي كان أول عمل أتاه التعايشى عزل عبد القادر عن منصبه ثم بعد بضع سنوات صادر أمواله وحبسه بضعة شهور. وكان لعبد القادر معرفة بالطب فاشتغل بهذه المهنة ليحصل منها على قوته حتى اتصل بالتعايشي ان عبد القادر أصبح ذا ثروة عظيمة من مهنة التطبيب فاستدعاه الى مجلس حافل بالقضاة وقال له لا يليق بك وأنت عم الامام المهدي عليه السلام ان تشتغل بمهنة دنيئة كالتطبيب فقال له (نعم يليق بعم المهدى ان يموت جوعا) فقال له اياك ثم اياك والتطبيب واعلم أنك ان لم تنته عن هذه الصناعة تكن قد عصيت أمرى وأنت عالم بعقوبة من يعصينى فذهب الى منزله وامتنع من التطبيب خوفا على حياته حتى صار فى حالة يرثى لها من الفقر وفقدان القوت

وأما محمد عبد الكريم فانه ابن عم المهدى وكان من اكبر قواده وهو الذي فتح سنار واغتال منها قناطير مقنطرة من الذهب كما سبق الكلام على ذلك وكانت طريقته فى الازدراء بالتعايشي لا تختلف عن طريقة عمه عبد القادر وقد صادر التعايشى أمواله أيضا جملة مرات

ولما انتقض الخليفة شريف كان محمد عبد الكريم معه أما عمه عبد القادر فكان ملتزما جانب الحياد

وبعد ان قبض التعايشى على الخليفة شريف وسجنه قبض على عبدالقادر ساتى وابن أخيه محمد عبدالكريم وأرسلهماالى الزاكى طمل فى فشوده فقتلهما ضربا بالعصى كما قتل احمد سليمان ومن معه

وقد جرت بينهما وبين الزاكي طمل مكالمة تشبه التي جرت بينه وبين احمد سليمان ورفقائه وقد أظهر عبد القادر ساتى علي جلداً وشجاعة بخلاف ابن أخيه محمدعبد الكريم فانه جبن وخارت عزيمته وطمع في الحياة بالتزلف للزاكى الذى كان لامندوحة له عن انفاذ ماأمر به التعايشي

هذا وقد جئنا بذكرقتل هذين لشهرتهما بين أقارب المهدى الذين يقدر عدد من قتل منهم ومن اقاربهم بسبب هذه الحادثة بنحو ثلاثة آلاف رجل عدا الشبان الذين كانوا حراسا للخليفة شريف فقد طرح عدد كبير منهم طعمة لاسماك النيل

وكان لمحمد عبد الكريم محظيات فى نهاية الحسن والجمال فكان التعايشي يرسل الي الواحدة منهن ويجلبها الى منزله فاذا قضي منها وطره أخرجها وأعادها الى منزلها

ذكر شأن نساء المهدي مع التعايشي

ذكرنا ان المهدى مات عن نيف ومائة امرأة اكثرهن قد استحل وطأهن بملك اليمين على الطريقة التى تقدم الكلام عليها فلاحاجة لاعادتها ولما مات المهدى وأتمت النسوة عدة الموت جمع التعايشى الخلفاء

والقضاة وعرض عليهم اخلاء سبيل كل امرأة لم ترزق ولداً من المهدي لان كثيرا منهن لم يقترب منهن فعارض الخليفة شريف فى هذا الامر وقال ان نساء المهدى كنساء النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وهن أمهات المؤمنين اللواتى أمرهن الله بعدم الخروج من بيوتهن وأورد الآيات التى نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم كأنها نزلت فى نساء المهدي فقبل الحاضرون قوله وأعرضوا عما أشار به التعايشى

ومكث أولئك النسوة فى داخل بيت يسكن كل خمس منهن فى كوخ من البوص واجري التعايشي على كل واحدة منهن راتباً شهريا قدره خمس ريالات يتناولنه فى السنة كلها مرتين أو ثلاثة ووكل حراستهم الى نحو خمسين من الخصيان الذين كانوا ملكا لوجوه وأعيان المصريين فى سائر مدن السودان

وصارت حالة النساء والخصيان تنتقل من سيء الى أسوأ. وبالجملة لولم يكن لهاته النسوة أقارب يتداركوهن ببعض القوت لمتن من الجوع وكذلك الخصيان كان قوام معيشتهم من التسول ومد ايدى السؤال للامراء واعيان البلاد

وفى سنتى المجاعة مات كثير من النساء اللواتى لم يكن لهن أقارب ومات كثير من أطفالهن أولاد المهدي

وكن كلما شكون الي التعايشي ماهن فيه من شظف العيش يبكي وينتحب ويقول لهن انكن آل بيت المهدى لا نصيب لكن فى الدنيا وليس لكن غير الآخرة حتى اذا كانت سنة ١٣٠٩ وانتقض الخليفة شريف على التعايشى قام نساء المهدى بمظاهرة ولاء للخليفة شريف فاغتاظ التعايشي وأمر باحاطة منزل المهدي بسور من الحجارة ليفصله عن ملاصقة منزل الخليفة شريف وبعد أن

قبض على الخليفة شريف جاء التعايشي الى منزل المهدي ومعه ألف مقاتل مسلحون بالاسلحة النارية فاحاطوا بنساء المهدي وهن داخل ستر وضع لهن وقال لهن (انكن عصيتن الله ورسوله ومهديه وكفرتن بهم وقد حكم القضاة باعدامكن رميا بالرصاص) فرفعن رؤسهن فوجدن أفواه البنادق موجهة اليهن فصرخن ولطمن وجوههن ومنهن من هربن لتسلق الجدران التى كانت تناطح السحاب ومنهم من القت نفسها في بئر وبالجملة ان أولئك النساء روعن روعا شديداً فضلا عما هن واقعات فيه من شظف العيش وسوء الحال

ولما رأي التعايشي ماصارت اليه حالتهن وأن بعضهن ثبتن وقلن له انا لا نرهب الموت الذي تهددنا به لانك انما تقتل نسوة لا يشرفك قتلهن ومع ذلك فان قتلنا شيء لا يذكر في جانب كفرانك بنعمة المهدي الذي أجلسك على الملك فاذا كنت تنادي كل يوم وليلة على رؤس الاشهاد بان المهدي دنقلي فان قتلنا لا يذكر فى جانب هذه الشتائم

ويقال ان زينب اكبر بنات المهدي امرأة الخليفة شريف أغلظت له القول واهانته بالشتائم فانصرف وقال لنساء المهدي اني عفوت عنكن وانما قصدت بفعلي هذا ارهاب اللواتى تظاهرن منكن بولاء الخليفة شريف

والحاصل ان نساء المهدي وخصيانه مكثوا في الذل والهوان يقاسون من شظف العيش أشده حتى فتحت أمدرمان وانقشع ظلم دولة الدراويش عن السودان

ذكر سجن اولاد المهدي

لم يكتف التعايشي بما فعله بالخليفة شريف والذين بايعوه حتى أمسك أولاد

المهدي الثلاثة وهم الفاضل ومحمد والبشرى وسجنهم في منزل جدهم لامهم احمد شرفي ومنعهم من الخروج منه وكان محمد متزوجا بنت التعايشي فطلقها منه ومكث الثلاثة في الحبس ولم يخرجوا منه الا بعد استيلاء الجيش المصري على دنقلة

على ان أولاد المهدى لم يكونوا طامعين في الخلافة وانما كانوا متذمرين مما أصاب ذوي قرابتهم من الظلم والاضطهاد ثم القتل والنفى

وكان محمد كما قلنا متزوجا بنت التعايشي وكان يبغضها ويسب أباها بحضرتها ويذكر كفرانه بنعمة أبيه وعدم وفائه بعهده فكانت تخبر أباها بذلك كله حتي آل الامر لطلاقها منه

وعلى ذكر أولاد المهدى نذكر الشيخ الحسين زهرا الذي أوردنا قصيدته الهمزية التى امتدح بها المهدى ونصحه فحبسه التعايشي ثم انه بعد وفاة المهدى قدم للتعايشي قصيدة ملأها بالنصح ومن ضمنها قوله له ان استخفافك باولاد المهدى واضطهادك لاقاربه يحملان الناس على الاعتقاد بانك غير مصدق بمهديته فغضب عليه التعايشي وسجنه وبعد أيام أطلقه وأمره أن يسكن في قريته في جهات (المسلمية) على بعد ثمان مراحل من أم درمان جهة الجنوب

والحاصل ان جميع أقارب المهدي أصبحوا بين قتلى ومسجونين وكذلك الامراء والقواد الذين أسسوا دعوة المهدوية معه فقد فعل بهم التعايشي مافعله باقارب المهدي وأولاده ولا غرو فان المهدى سبب كل هذه المصائب التى حاقت باقاربه وقواده حيث استخلف التعايشي عليهم وهو لا يدرى ان عدوا عاقلا خير من صديق جاهل

ذكر مؤامرة عبد المولي صابون علي قتل التعايشي

عبد المولى صابون اخو حمدان أبى عنجة فاتح بلاد الحبشة الذي تقدم لنا ذكره وكان عبد المولى هذا قائدا للجهادية في أم درمان وفى سنة ١٣٠٥ أصيب بمرض الجذام وقدمر لنا الكلام على ان التعايشى كان يحبه وانه قد نفى أم زوجته بعد ان قطع يدها لما قيل له ان مرض عبد المولى ناتج من كثرة ماتصنعه له من الشعوذة والاسحار اللتين تقصد بهما استمالته لمحبة بنتها ولما توفى حمدان أبو عنجة في القلابات كان أخوه عبد المولي يتوق لنيل منصبه فلم يفلح وولى التعايشى الزاكى طمل بدل أبى عنجة وعزل عبد المولى أخاه من قيادة الجهادية وولى بدله أحد أقاربه البقارة فاغتاظ عبد المولي من التعايشي وأضمر له السوء وحالف الخليفة شريفا عليه لكنه لم يظهر مخالفته له وانضم اليه نفر من التعايشة أقارب الغزالي الذي تقدم لنا ان التعايشى قتله لما فر من أم درمان وتآمروا على قتل التعايشى غرة بين منزله ومنزل أخيه يعقوب حيث تعود التعايشي ان يسير بينهما بحراس قليلين وكمن المتآمرون في الطريق قبل الوقت الذي يخرج فيه التعايشى من داره الى دار أخيه يعقوب بنحو ساعة من الزمن ليفتكوا به اذ ذاك

وبينما كان التعايشي يتأهب للخروج استأذن عليه أحد المتآمرين فاذن له ولدي دخوله عليه ترامي عليه مظهرا توبته واخبره بما دبره له عبد المولى ومن معه فارسل التعايشى من قبض عليهم وأودعهم السجن ثم نفوا الى خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم

وكان عبد المولي هذا ذا فظاظة وكبر ونال من الرفعة والثروة فى أيام التعايشى

ماله خطر مع انه عبد اسود من عبيد (البنضلة) لمجاورين للتعايشة كما انه أخذ من حرائر النساء نحو خمسين امرأة من بنات الاعيان كلهن موطوآت بملك اليمين

وبعد سقوط الخرطوم بأمين كان لي عبد قد أبق ولحق بجهادية أم درمان الذين يقودهم عبد الولي هذا فذهبت اليه أسأله ان يعطيني ذلك العبد أو ثمنه فكان أول كلمة كلمني بها أن قال لماذا أنت ضخم ياولد الريف أعندك مال مخبأ تخرج منه ما تنفقه على نفسك فطار لبي من هذا الكلام وقلت له لا يا سيدى بل أنا رجل فقير أعيش من هبات سادتي الامراء امثالك فقال وهل هبات الامراء تسمنك الى هذا الحد فقلت نعم وان مولاي خليفة المهدى عليه السلام يتعاهدني باحسانه في كثير من الاوقات فانكسرت شوكة حدته وقال لي ماذا تطلب الآن فقلت أطلب عبدي فقال أنت عبده فقلت له نعم انني عبده لانه صار عبدك فشفع لي عنده أحد الحاضرين فقال انى سمحت لك باخذ العبد اكراما لخاطر من شفع فيك واحذر من ان تعود اليّ بمثل هذا الطلب فانى اذ ذلك أضرب عنقك هذا المملوء لحما فاخذت العبد وانصرفت به الى النخاس وبعته باول ثمن عرضه على فيه

ذكر قدوم محمود احمد من دارفور

مر لنا الكلام على موت عثمان آدم أمير دارفور وتولية محمود أحمد ابن عم التعايشى بدله وذلك في سنة ١٣٠٧ وقد سار محمود هذا سيرة عوجاء أوجبت انحراف القواد عنه ونفور الجنود عن ولائه واشتدت الحالة في إبان ثورة الخليفة شريف فتخوف التعايشى من هذه الحركة وكتب الى محمود

يستقدمه الى أم درمان بمن معه من المقاتلة وقصد بذلك ان يرهب أهالي الجزيرة الذين مالوا للخليفة شريف ويريهم قوته التي في دارفور وأن يوفق بين محمود والذين نقموا عليه من جنوده ومقاتلته فغادر محمود أحمد الفاشر عاصمة دارفور ومعه نحو أربعين الف مقاتل منهم بضعة آلاف من الجهادية ومثلهم من الفرسان والبقية من المشاة

وبعد ان وصلوا الى جهة (النهود) وهى أول بلاد كردفان مما يلي دارفور ثار عليه قواد الجهادية واطلقوا عليه الرصاص وكادوا يقتلونه وكانت عدة الثوار خمسة عشرة قائدا يقود كل واحد منهم مائة مقاتل كلهم مسلحون بالاسلحة النارية من طرز (رامنجتون) وانفصل الثوار عن المعسكر وابتعدوا عنه فارسل اليهم محمود قاضى المعسكر يدعوهم الى الطاعة ويعدهم بالعفو عن جريمتهم ثم دفع لكل واحد منهم الف ريال فاخذوا المال ولم يقبل العودة الى الطاعة غير ثلاثة منهم وأصر الباقون على عصيانهم وابتعدوا عن المعسكر ولجأوا بجبال (ابيه جنوب) وهى جبال واقعة في الجنوب الغربى لكردفان وسكانها من العبيد (النوبة) الذين تقدم لنا الكلام عنهم فلا حاجة لتكراره هنا

ووصل محمود الى أم درمان في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٠٧ أي بعد ان زالت مخاوف التعايشي من الخليفة شريف والذين بايعوه فخرج لاستقباله خارج البلدة واظهر سروراً عظيما بقدمه وبالغ في اكرامه الى درجة انه أمر بعمل ألعاب نارية اجريت امام محمود وجنوده وهي أول مرة صنعت فيها تلك الالعاب في ايام المهدوية

وارتفعت أسعار الاقوات على أثر قدوم محمود أحمد ومقاتلته الذين قدموا بنحو مائة الف نسمة من الارقاء باعوها في أم درمان كما تباع البهائم

وقدم محمود هذا أ. والا طائلة للتعايشي وأخيه يعقوب

ثم انه تزوج براقصة شهيرة اسمها بنت بدوى كان الشعراء يتغزلون ببراعتها في الرقص وجاهر في حفلات الزواج بشرب الخمور وأحيى ليالى الرقص بما يخالف آداب المهدية وصادر كثيرا من الجوارى المومسات وأشهرهن جارية اسمها « السكات » وجمع حوله كثيرا من المخنثين والمغنين الذين تقدم لنا الكلام عليهم وسيأتي ذكر الجارية السكات وانها اباحت قرية (الجميعاب) للجهادية فنهبوها وألحقوا بها العار

وأقام محمود بام درمان بضعة شهور ثم قفل راجعاً بجنوده الي دارفور وستجيء بقية أخباره

ذكر القبض علي امراء الجعليين ونفيهم

ذكرنا ان جل تجار كردفان من قبيلة (الجمليين) التي تسكن بربر وقد سبق لنا شرح احوالهم فلا حاجة لاعادته هنا وقد استوطنوا كردفان منذ زمن مديد وكان من أمرهم انهم أعانوا المهدي على الاستيلاء على الابيض عاصمة كردفان وكان الياس باشا أم برير في مقدمة أولئك التجار الذين تقدم لنا الكلام عليهم

وقبيل ثورة الخليفة شريف باشهر جمع التعايشي نحو أربعين من أمراء الجمليين ودفع لكل واحد منهم راية وكان من بينهم عمر بن الياس باشا الذى ذكرنا بعض ماأتاه فى دارفور لما ذهب اليها مع محمد خالد زقل

وعين التعايشي قائداً عاما على الاربعين أميراً اسمه البدوى بن العريف كان أخوه محمد بن العريف سر تجار الابيض عاصمة كردفان ومن أكبر الذين

ساعدوا المهدي على الاستيلاء عليها

ولما ثار الخليفة شريف كان هؤلاء الامراء في جملة من بايعوه من الناس فوشى بهم الى التعايشى أحد خصيان المهدى المسمى « شكر الله » ثم ذهب أولئك الامراء وأخبروا التعايشي بانهم مافعلوا ذلك الا ليقفوا على سر المسألة كى يوقفوه عليه فشكرهم وأظهر لهم عظيم الميل والانعطاف وبعد حبس الخليفة شريف بأيام دعاهم الي مجلسه وأخبرهم ان رباط كسله ذو أهمية لاتخفي وان الايطاليين يطمعون فى التقدم الى كسله وان أميرها مساعد قيدوم البقاري ضعيف الرأي وانه ينوي انفاذهم الى كسله ليقوموا بحفظ الرباط فشكروه وانصرفوا بعد ان تعهدوا له بأن يجهزوا أنفسهم ومقاتلتهم من مالهم الخاص

وبعد أيام غادروا أم درمان وخرج التعايشي لوداعهم وساروا الى قرية (رفاعة) التي تبعد عن الخرطوم بست مراحل في النيل الازرق ليضموا اليهم المتفرقين من مقاتلتهم فى قري الجزيرة وأقاموا فيها نحو شهر وبدلا من أن يجمعوا الرجال ويسيروا الى وجهتهم ضربوا على كل مقاتل ضريبة يقدمها كفدية ليتركوه فجمعوا من ذلك أموالا طائلة والتعايشي يكتب لهم في كل يوم يحثهم على مغادرة رفاعة واللحاق بكسله وهم يقدمون له الاعذار فى كل مرة وفى ذات يوم أرسل لهم مندوبين قبضوا عليهم في رفاعة ونهبوا أمتعتهم وما جمعوه من ضريبة الفدية وجيء بهم الى أم درمان يرسفون فى القيود والاغلال ونهبت دورهم التي بأم درمان

ولما أدخلوا السجن ناداهم الخليفة شريف قائلا « ان خيانتكم لم تدفع عنكم مكروها » ومكثوا فى السجن نحو شهر ثم نفوا الي خط الاستواء

وقد رأيتهم وقت خروجهم من السجن يحيط بهم الحراس والاغلال في أعناقهم والقيود في أرجلهم فكان الحراس يحملون الواحد كما يحمل المتاع ويرمونهم في عنبر السفينة كما ترمي الامتعة وهكذا ساروا الى خط الاستواء وكان ذلك في أواخر سنة ١٣٠٩ هجريه

ذكر نفي الامير ابي قرجة

ختمت سنة ١٣٠٩ وحوادث السودان فيها تحاكي ما جري على الخليفة شريف وحزبه وأقارب المهدي ودخلت سنة ١٣١٠ ولم يبق من الامراء أو أصحاب المقامات من الذين تجمعهم مع الخليفة شريف جامعة التحزب أو الجنسية غير أبي قرجة الذي تقدم لنا كلام كثير عنه حيث هو من أكبر أمراء المهدي الذين حاصروا الخرطوم وولى القيادة العامة على جيش السودان الشرقى بدل عثمان دقنه كما مر ذلك

ولما عزل أبو قرجه عن بربر أعيد الي السودان الشرقى ولما ثار الخليفة شريف كان هو غائبا لم يحضر تلك الحوادث فاستدعاه التعايشي في أوائل سنة ١٣١٠ وأظهر له رغبته فى توليته الامارة العامة على خط الاستواء لسابق خبرته بتلك الانحاء فجمع نحو ثلاثمائة مقاتل سافر بهم الي خط الاستواء على احدى البواخر وسافر معه قائد من قواد البقارة يحمل كتابا من التعايشى فحواه القبض على أبى قرجة ومن معه وزجهم فى السجن حينما يبلغون خط الاستواء ودفع التعايشي الي أبى قرجة أمرا مضمونه انه أمير عام على سائر انحاء خط الاستواء

والحاصل ان أبا قرجة سافر من أم درمان أميراً على خط الاستواء ولكنه

كان موقنا بأنه ساع الى حتفه بظلفه لانه كان ذا ذكاء وعقل

ولما وصل خط الاستواء أودع السجن هو ومن معه وقد بلغنا ونحن نهيء هذا الكتاب للطبع انه قد فر من سجن خط الاستواء ولحق باحد معسكرات بلجيكا التى فى جهات بحر الغزل ثم لحق بمملكة « برقو » فاكرم وفادته سلطانها وانزله على الرحب والسعة لكنه لم يسمح له بالعودة الى بلاده على مألوف عادة اهل تلك البلاد خشية ان يكون رائداً يجوس خلال الديار

هذا وان أبا قرجة وان كان عاملا مهما من عمال دعوة المهدية لكنه كان أقلهم شراً واكثرهم خيرا واقربهم الى العدل والاحسان

واني بسبب ما ذكرته عنه واحسانه اليّ في يوم كنت أساق فيه للموت لا يسعنى الان الا أن اتمني له نوال الخير فى غربته والخلاص من ربقة أسره

عود الي ذكر بيت المال

ذكرنا آنفاً ما كان من صلب ابراهيم عدلان أمين بيت المال السابق وتولية النور الجريفاوي بدله

وقد كان النور هذا ذا ثروة عظيمة جمعها مما نهبه من تجار المصريين في بربر كما مر ذلك وقد تناول سبعة عشرة ألف ريال من الحكومة ليشتري بها غلال فاغتالها وفر بها ولحق بالمهديين وبعد ان مضى عليه عامان فى بيت المال زادت في خلالها ثروته زيادة عظيمة أخذ يفكر فى وسيلة يتمكن بها من ترك وظيفة امانة بيت المال ليتاح له الانزواء بعيداً عن نظر التعايشي الذى كان يطمح الى ثروته فتظاهر فى أواخر سنة ١٣٠٩ بالجنون على أثر وقوعه بن جواده وأخذ يخلط فى الكلام بحضرة التعايشى

وقد روى لي ثقة ان النور هذا كان سائراً من المسجد الى منزله في ليلة حالكة الظلام منفرداً وكان الراوي متأثره وهو لا يراه فسمعه يحدث نفسه ويقول « أحلف بالطلاق ان التعايشي سيصلبني كما صلب ابراهيم عدلان ليحصل على ثروتي والاجدر بى ان أسلمه هذه الثروة واحفظ حياتي لانفرد بنفسي واحترف بادنى حرفة يتعيش منها اطفالى » ثم يعود فيقول « كلا اذا دفعت له أموالي فانه يظن انى خبأت معظمها ولم أظهر له غير جزء يسير منها واذ ذاك تحرك اطماعه ويعذبنى لاسلمه الباقى ولاشك فى انى أموت بسبب العذاب وحينئذ اكون قد جنيت على نفسى » ثم يقول « أحلف بالطلاق الثلاث ان المسألة معقدة لا يقدر أحد على حلها والاولى بي أن أتظاهر بالجنون والله تعالى يفعل بى ما يريد »

ثم انه تظاهر بالجنون مدة حتى بداله أن يتضرع الى التعايشي ليقيله من أمانة بيت المال فأجابه التعايشي الي ذلك على شرط ان يجزىء اختصاص بيت المال الى ثلاثة اجزاء احدها أمين بيت مال يختص بعامل الذخيرة (الورش الحربية) والثاني يختص بمال الفيء الذي يزعم التعايشي انه خاص به والثالث هو بيت المال العام وأن يكون النور الجريفاوي امينا لبيت المال الاول وان يكون محمد بشير كرار العبادي قائد دابة التعايشي اميناً للثاني وأن يكون العوض المرضى أميناً للثالث

وعلى ذلك صار اختصاص أمانة بيت مال (الورش الحربية) منوطا بالنور الجريفاوى وعليه ان يتفق مع التجار الذين يفدون الي الديار المصرية ليجلبوا العقاقير اللازمة لتلك المعامل ويهربونها حتي لا تظفر بها الحكومة ولهذه المسألة كلام خاص بها سنورده فى غير هذا المحل

أما اختصاص بيت مال الفيء فهو عبارة عن جميع موارد الايرادات المهمة وذلك مثل خمس سلع التجار المصريين وعشر بضائع التجار السودانيين وخمس واردات بلاد الحبشة وغيرها من البلاد الاجنبية وعشر الصادرات التي تخرج من البلاد السودانية الى البلاد الخارجية كالصمغ والعاج وريش النعام وكذلك عشر واردات التجارة التي ترد على أم درمان من داخلية السودان وأهمها الحبوب والملح والبلح والخوص الذي يصنع منه الحصر المسماة (ابراش) وكذلك ايراد السفن الشراعية التي تنقل الحاصلات من جميع الجهات التي اغتصبها التعايشي كلها وجعلها ملكا له وكذلك عوائد الزام (التعدية) فى جميع الجهات وكل هذه الايرادات مضبوطة بدفاتر وحسابات جارية لا يصرف منها فلس واحد فى غير لوازم التعايشي على يد رئيس خصيانه (عبد القيوم)

وأما اختصاص بيت المال الثالث فانه قاصر على الايرادات التي تجلب بواسطة الجباة التى تقدم لنا الكلام عنهم وله اختصاص آخر هو مصادرة أموال الاغنياء وطلب القروض المالية من التجار حيث لا ترد لهم أبداً ومن امتنع صودر ماله كله وتنفق هذه الايرادات على أقارب التعايشى فقط

والحاصل ان التعايشى استأثر بجميع ايرادات البلاد حتى أصبحت فى نهاية الفقر المدقع وأخذ يتفنن فى أساليب زيادة الخراج ومضاعفة المكوس التى صارت التجارة معها كاسدة لا تربح شيئاً وبالجملة فان الحالة كانت تنتقل من سيء الى اسوأ وبيد الله كل شيء



ذكر سور ام درمان

قبل الكلام على السورنانى بتمهيد فى تخطيط مدينة أم درمان ومواقع احيائها ليكون القاريء على بينة من ذلك فنقول

من الاصطلاحات التى جرى عليها المهدويون أن يسموا كل جهة سكن فيها المهدي باسم (البقعة) وقد يضاف هذا الاسم الي اسم المدينة الاصلى أو الجهة التى سكنها المهدى فيقال (بقعة الابيض) مثلا لان المهدي كان ساكناً فيها أو (بقعة الرهد) وهو منهل جنوب الابيض لانه كان نازلا فيه كما تقدم لنا ذكر ذلك

ولما زحف المهدي على الخرطوم كان أول معسكر اتخذه في جنوب أم درمان على بعد عشرين ميلا عند مكان اسمه (الفتيح) بعيداً عن شاطىء النهر اتقاء لمقذوفات البواخر التي كانت تحاربه فى الخرطوم ولم يجسر على الدنو من شاطىء النهر الا بعد سقوط الخرطوم فى قبضته

وقد أشرنا فيما تقدم أنه عقد مجلساً للمداولة في أمر سكناه فلم يوافقه على ذلك الامراء لانهم قالوا ان نقطة أم درمان يمكن أن نغادرها بسهولة الي كردفان اذا حدث ما يضطرنا الي التقهقر فنزل المهدى بها واختط المسجد وداره بعيداً عن ضفة النهر بنحو ميل واحد ونزل التعايشي جنوب بيت المهدى بنحو مائة متر في الجنوب الشرقى للمسجد حذاء منزل المهدى المقابل لنقطة الوسط من قبلة المسجد وكان بين منزل التعايشى ومنزل المهدي ميدان فسيح ونزل الاعراب والبقارة الذين أصلهم من جهات كردفان ودارفور وهم التابعون لرايات التعايشى جنوب منزله وامتدت مساكنهم الي الجنوب

الغربي والجنوب الشرقي الي قرب المعسكر الذى كانت به جنود الحكومة وهو (خندق أم درمان) ويبعد عن المسجد جهة الجنوب ببضعة اميال

وقد اتخذ هذا الخندق معسكراً للجهادية الذين يقيمون بام درمان وسمى معسكر أبي عنجه

ونزل جماعة من المصريين الذين كانوا بكردفان شمال هذا المعسكر عند نقطة (المواردة) وأمير هؤلاء المصريين هو حسن حسين الذي تقدم لنا الكلام عنه

ونزل يوسف منصور رئيس الطوبجية ومن معه من المصريين شمال معسكر أبي عنجه

ونزل الخليفة على حلو فى الشمال الشرقى من منزل المهدى ونزل أتباعه (دغيم وكنانة) فى الشمال الغربى من المسجد مقابلى السوق الذي نزل فيه جماعة من التجار وجلهم من اليونانيين واليهود والسوريين وأطلق على حيهم اسم (حارة المسلمانيين) ونزل الخليفة شريف شرقي منزل المهدي ونزل أقارب المهدي وسائر اتباع الخليفة شريف الذين جلهم من أهالى السودان الاوسط فى الجهة الشرقية من منزله وامتدوا الي الشمال حتى اتصلت منازلهم بضفة النهر وحد المدينة يومئذ يقف في جهة الشمال عند معسكر ابن النجومى الواقع في شمال المسجد بنحو ميلين فقط ولما أمر التعايشى بتخريب مدن الجزيرة فى سنة ١٣٠٤ وحشد سكانها فى أم درمان نزل سكانها في الجهة الشمالية لمعسكر ابن النجومي وصاروا يسمون أحياءهم بأسماء بلادهم الاصلية فيقال (حى المسلمية) و (حى رفاعة) وغيرهما من بلاد الجزيرة حتي وصل امتداد حدود المدينة الي جهة (خورشنباتة) التي تبعد عن المسجد بستة أميال

وعقب افضاء الخلافة للتعايشي وسع منزله حتى ادخل فيه الميدان الذي كان بين منزله ومنزل المهدي

ولما ثار الخليفة شريف وأقاربه وصارت مقذوفات جماعة الخليفة شريف تقع في وسط دار التعايشي خاف التعايشي عاقبة اختلاط المنازل فامر باخراج جميع اقارب المهدي واتباع الخليفة شريف من منازلهم التي هدم جلها وأسكن أقاربه البقارة فيما بقي منها ليكون منزله محاطا من جميع الجهات بمن يأمنهم على حياته

وأسكن من أخرجوا من منازلهم في الجهة الواقعة شمال معسكر ابن النجومي الذي صار لا يسكن جنوبه غير البقارة وقد قاسى الناس أهوالا شديدة من جراء اخراجهم من منازلهم وصاروا فى حالة تفتت الكبد اذ صاروا بينما يكونون فى منازلهم يدخل عليهم البقارة فيأمرونهم بالخروج منها بغير ان يتمكنوا من حمل امتعتهم التي يأخذ البقارة جلها فيخرجون وليس عليهم غير ثيابهم وما خف حمله من تافه متاعهم فيقضون على هذه الحالة التعيسة زمناً لا يستطيعون في خلاله تشييد مساكن الا ان كانوا من أولى اليسار وقليل ماهم وظل الفقراء في هذا الشقاء حينا وقد كان نصيبي من هذه المصيبة عظيماً وسيأتى تفصيله بعد حيث اخرج المصريون الساكنون بالقرب من معسكر أبي عنجه من منازلهم وكنت أنا من جملتهم

على أن بناء سور أم درمان يدل على ماخامر التعايشي من الخوف على حياته من ثورة الخليفة شريف

وفى ذات يوم رقى التعايشى منبر الخطابة وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره باخراج من أخرجهم من منازلهم وأمره ببناء سور من الاحجار يبتدىء

من ضفة النهر حتى يبلغ منزله ثم يتجه الى الشمال حيث يصير شرقي المسجد وغربي منزله ثم ينتهى الى ضفة النهر أيضا وانه صلى الله عليه وسلم أمره أن لا يأذن فى السكنى داخل هذا السور لغير البقارة والجهادية ووضع أساس السور وجعل عرضه أربعة أمتار ووزع حصصاً على القبائل ومن جملتها المصريون الذين كان الكلام كنت أحد أمرائهم فكنا نذهب الى شاطىء النهر نستخرج منه الحجارة ونحملها الي محل العمل ومكثنا على هذه الحالة نحو سنتين تم في خلالها تشييد السور بسخرة الناس وبلغ ارتفاعه فوق خمسة أمتار

ذكر قدوم الزاكي طمل من فشودة الى ام درمان

لما فرغ الزاكي طمل من قتال الشلك وأخضعهم لسلطة المهدوية حيث قتل ملكهم (عمر) الذى قيل عنه آنفا انه مولى من قبل المهدي وحمل رأسه الى التعايشي الذى أمره بمهادنة الشلك وابرام معاهدة معهم وتولية ملك عليهم يكون من اعداء عائلة الملك السابق فأقام رجلا من أطراف الشعب سماه (عبد الفضيل) ملكا عليهم غادر فشوده بجيشه قاصداً أم درمان وذلك في أوائل سنة ١٣١٠

ولما بلغ أم درمان استقبله التعايشي بالحفاوة والاكرام وقدم له الاغذية ثم قدم الزاكى للتعايشي مقدارا عظيما من المال الذى غنمه من الشلك وكثيرا من الماشية وأمره بأخذ الاهبة والاستعداد لمغادرة أم درمان الي بلدة أبو حرز

الزاكي في ابو حراز

أبو حراز قرية في الضفة الشرقية للنيل الأزرق تبعد عن أم درمان مسيرة سبع مراحل وهي مفتاح الطريق الوصل الي القضارف عن طريق الصحراء المسماة (عقبة الحنبلية) وهي موطن لقبيلة صغيرة اسمها (العركيين) ومن هذه القبيلة نبغ رجال في القرون الماضية اشتهروا بالصلاح وحازوا منزلة عالية في مشيخة الطريقة القادرية وأشهر هؤلاء النابغين (الشيخ الطريفي) وكان معاصراً على مايروونه للشيخ تاج الدين الفاكهاني من مشاهير رجال الطريقة القادرية ببغداد وقد صحبه الشيخ الطريفي وأقام معه في بغداد زهاء عشرين عاما ثم عاد الى قرية أبو حراز وانتشر نفوذه الديني في سائر انحاء السودان حتى اكرمه ملوك السودان واقطعوه الاراضي الواسعة وخلفه عدد كبير من أولاده كانوا على قدمه في الشهرة واعتقاد الناس وماتوا كلهم ولهم قبور شيدت عليها قباب

ومن نسلهم الشيخ حمد النيل العركي وكان ذا نفوذ كبير في السودان وكتب له المهدي كتاباً تقدم لنا ايراده يتوعده هو وعوض الكريم بن أبي سن زعيم قبائل الشكرية لأنهما ساعدا الحكومة على قتل داعيته الشريف احمد طه الذي تقدم ذكر قتله

ولما ولي التعايشي بعد المهدي صادر أموال الشيخ حمد النيل وقتله صبراً في سجن أم درمان

ولنعد الى ذكر الزاكي طمل فنقول انه لما وصل الى أبو حراز عسكر بها وأباحها لجنوده فأرهقوا سكانها سلباً ونهباً وأمر بقباب المشايخ فهدمت وشاد بانقاضها

ذاراً آلـمكناه وأطلق العنان لمقاتلته فانتشروا فى مدن الجزيرة كلها ونهبوا أموال الاهالى وحملوهم من المظالم والمغارم ماتنوء بحمله الجبال حتي كان آخر سنة ١٣١٠ أصدر التعايشي أمره الى الزاكى طمل بمغادرة أبو حراز واللحاق بالقضارف وهى البلاد التى ذكرنا فيما مضى أنه خربها وحمل أموالها الى التعايشى ثم من القضارف الى كسله التى اتخذها معسكراً له بقصد شن الغارة على حدود الايطاليين في مصوع

علائق التعايشي ومنليك

يدل تتبع الحوادث التي جرت بين المهدويين والاحباش على أن منليك نجاشى الحبشة الذي خلف النجاشي يوحنا الذى مات قتيلا بيد الدراويش فى واقعة القلابات التي مر الكلام عليها وعلى ماتقدمها من حروب الدراويش والاحباش على هزيمة هؤلاء وظهور الاولين

وأول هاته الادلة أن الاحباش لما انهزموا من القلابات وقتل منكم يوحنا كان المنتظر أن يعيدوا الكرة لاخذ الثار وجلاء العار فلم يفعلوا

وعلم من ذلك أن منليك الذى خلف يوحنا أيقن أن مصلحة مملكته تقضى بالكف عن مناوأة الدراويش ليتفرغ لصد الفاتحين من الايطاليين الذين اغاروا على الحبشة من جهة مصوع وانتقصوا المملكة من أطرافها وهم طامعون في الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها

وقد أشرنا فيا تقدم الي أن سبب الحرب بين المهدويين والاحباش أن النجاشي يوحنا خاف من انتشار دعوة المهدي بين مسلمي الاحباش فشرع فى اضطهادهم واجبارهم على اعتناق النصرانية دينا فساء عمله اقيال الحبشة واستهجنوه وخافوا تفرق كلمة الاحباش الذي لا تحمد عاقبته وكان منليك

قيل (التيتره) وقتئذ أول مستهجن لهذه السياسة الخرقاء وقد نصح النجاشي بالعدول عنها فلم يلتفت لنصائحه

ولما قتل يوحنا النجاشى السابق وخلفه منليك أعاد الحرية الدينية الى حالتها الاولي ومن ثم لزمت جنود الحبشة حدودها وامتنعت من الاعتداء على تخوم الدراويش وبعد سنة سحب التعايشى جيشه من القلابات كما تقدم ولم يترك لحراستها اكثر من ألف مقاتل

وقد ذكرنا أنه وجه جيش القلابات لاخضاع الشلك فى فشوده ثم وجهه الى القضارف ومنها الى كسله لمهاجمة تخوم الايطاليين من جهة مصوع وكان هذا الاستعداد فى وقت كان الايطاليون يستمدون فيه الوثبة على الاحباش فى (لاريتره) مما يدل على أن تقدم الزاكي الى كسله متفق عليه بين التعايشي ومنليك وسيجيء أن التعايشى لما أحس بدنو الحملة الانكليزية المصرية من أم درمان أنفذ سفيراً يستصرخ منليك لمعاونته

ولا مندوحة لنا عن الاشارة هنا الي أن الايطاليين كانوا حلفاء للدراويش على الحبشة وقد تمت هذه المحالفة بمعاضدة بعض رؤساء الحبشة الذين كانوا على رأي البعض معاضدين لانكلترا التي كانت ترمى بهذا الغرض لاشغال المهديين بمحاربة الحبشة عند حدود مصر حيث تجني انكلترا وايطاليا من وراء تلك الحروب أضعاف مايجني الدراويش والاحباش معاً لتقضى ايطاليا لباناتها من هؤلاء وتدرك انكلترا غايتها من أولئك

على أن ذلك كله مأخوذ من قرائن الاحوال ومن روايات بعض الذين لهم اطلاع على سياسة التعايشي الذي لم يصرح بشيء من أمر المحالفتين مما يدل علي أنهما سريتان والحاصل أن منليك أفلح في سياسته التي نهجها اذ جني

من عاقبتها اراحة الحبشة من حرب دينية كحرب الدراويش ومن جهة أخرى أن تمكن من اشغال قسم من حامية ايطاليا بدفع الدراويش عن حدود بلادهم ثم كان من وراء ذلك انتصاره الباهر فى واقعة (الاريتره) التى لا يجهلها القراء وهو ما يجعلنا في غني عن التصدي لايرادها وتدوين تفاصيلها

ذكر سجن الزاكي طمل وقتله بام درمان

الزاكى طمل هو الذى خلف القائد أبا عنجه فى قيادة جيش القلابات كما بسطنا ذلك فى مكانه وفي بداية ولايته انهزمت جيوش الحبشة فى القلابات وقتل النجاشى يوحنا ثم وجهه التعايشى لاخضاع الشلك فى فشوده فقتل زعيمها عمر وأتى فيها ما سبقت الاشارة اليه وأهله من قبيلة اسمها (البنضله) وهي التي منها أبو عنجه سلفه وهي قبيلة من العبيد المتوحشين في جنوب دارفور تساكن قبيلة (التعايشة) وقد تقدم تعريفها بأوفى من هذا فلا حاجة لتكراره هنا وكان الزاكى هذا في بداية أمره جنديا مع النخاسين الذين يعيثون الفساد في بلاد العبيد وهم المعروفون باسم (البحارة) وفي أيام المهدوية صار قائداً من قواد جيش أبي عنجه حتي صار وكيله

ولما خلف أبا عنجه في الامارة خالفه فى كثير من أحواله وصار فظاً غليظا يسفك الدماء ويقتل مرؤسيه لاقل هفوة وأخذ يتظاهر بالانغماس فى الترف وشاد اسكناه القصور في القلابات حتي أنه شاد قصراً زوج فيه ابنه وشرع فى نقشه وزخرفته بصفار بيض الدجاج وفرض على الاهالي تقديم البيض ومن تأخر عن الميعاد المضروب له عاقبه عقابا صارما فارتفع ثمن البيضة الواحدة الي بضعة قروش ورحل الناس من القضارف على ظهور الهجن الي

بلاد الجزيرة لجلب البيض حتى تم النقش والتبييض

ولما اتصل بالتعايشي خبر هذا القصر أرسل الى الزاكي يأمره بهدمه فهدم الدور الاعلى وترك الدور الاسفل وكان قد جلب له البنائين والنجارين من الخرطوم وكلهم مصريون

وبعد هدم القصر أمر التعايشي الزاكي بمغادرة القضارف واللحاق بكسله لاخذ الاهبة للغارة على الايطاليين نغادر القضارف وعسكر فى كسله

وكان الزاكى في جميع أحوال ولايته كحاكم مطلق يفعل كل مايراه واذا قدم أم درمان يستقبل بالحفاوة والاكرام ويخرج أنى سار فى موكب يحيط به خمسون حارسا مسلحون وكان بما احرزه من الانتصارات على الاحباش والشلك وما كان يقدمه للتعايشي من الاموال الطائلة يرى نفسه ذا منة على التعايشى حتي أخذ يتفوه في حديثه بانه قادر على سلب الملك من يد التعايشى ولولا هلم تقم له قائمة فسعى به الى التعايشى وبعد وصوله القضارف عظمت فيه السعاية وارتاب التعايشى فى أمره ونمي اليه انه طامح للاستقلال فارسل اليه يستقدمه فقدم عليه وخرج للقائه وبالغ في الاحتفاء به حتى انه تنازل الي معانقته وهي حفاوة لم يسبق من التعايشى مثلها وبعد بضعة أيام اجتمع فى منزل يعقوب جماعة من مشيريه أحدهم القاضى أحمد بن على واتفقوا على طريقة القبض على الزاكى فاستدعوه من منزله وجلس يعقوب داخل ثلاثة أبواب فلما دخل الزاكي الباب الاول حجبوا عنه الحراس فدخل بلا حراس ثمّ قابله القاضى أحمد وجلس معه داخل الباب الثاني ثم فارقه حيث ولج الباب الثالث الذى فى داخله يعقوب فجاء اليه جماعة بضعة رجال من حراس يعقوب وجثوا على ركبهم امام الزاكي ومد أحدهم يديه مسلما عليه فدفع له يده ليقبلها فامسكها

ووثب الآخرون وأمسكوا سيفه ثم صرعوه وغلوا يديه فأخذ يصيح مستغيثا بيعقوب الذي أمر بارساله الي السجن فوضعوا في رجليه عشرة قيود وجنزيرا كبيرا ومكث ثلاث ليال مع سائر المسجونين ثم عزل الي غرفة في السجن تسمى (غرفة الاعدام) فأجلسوه في وسطها وشبحوه بالاغلال حتي كان لا يتمكن من التزحزح عن مقعده يمنة أو يسرة وربطوا اكمام ملابسه وصار اثنان من السجانين يذهبان الى الخربات ويلتقطان العقارب ويدخلانها داخل ملابسه وقد منع عنه الغذاء والماء فمكث أربع ليال يصيح صياحا يفتت الجمادات حتي ضعفت قوته ومات في منتصف الليلة الخامسة وحملت جثته وألقيت خارج البلد غذاء للطيور والكلاب وعين أحمد علي التعايشي قائدا للجيش بدله ولحق بكسلا بعد أن تاتي أوامر التعايشي بالهجوم على الايطاليين وسيأتي ذكر هزيمة الدراويش من وجه الايطاليين

ذكر قتل صالح حسين خليفه

تقدم لنا ايراد شيء عن قبيلة (العبابدة) والمناظرات الشديدة التى بين (العشاباب) و(المليكاب) وقد أوردنا أن العشاباب نالوا اربهم من المليكاب في دولة التعايشي وتمكنوا من الايقاع بحسن أبي خليفه الذي كان معسكرا في نقطة آبار (المرات) بجيش من قبل التعايشي

ولما قبض التعايشي على حسن أبي خليفة ونفاه الى خط الاستواء كما مر ذلك احتل ابن عمه صالح بن حسين خليفه تلك النقطة برجال من قبيلته (المليكاب) الذين كانت الحكومة المصرية تدفع لكل رجل منهم رواتب من جنيه لاثنين فاخذوا يغيرون على حدود المهدويين وقد ذكرنا فيما مضي

إغارتهم على (أبو حمد) وقتلهم ابن نعمان قاتل الكولونل ستيوارت قبل سقوط الخرطوم

وفى أوائل سنة ١٣١٠ هجمت شرذمة من الدراويش على ضابط انكليزى برتبة بكباشى وآخرين فى جهة وادي حلفا وقتلوهم غرة وحملوا رؤسهم الى التعايشى وقعد صالح خليفة ومن معه بالسبل وقبضوا على كثير من جواسيس المهدوية الذين هم من مناظريهم (العشاباب) ومن بينهم رجل اسمه كرار ابن بشير كرار رئيس حملة بريد التعايشى وأسلموه للحكومة فأودعته سجن اسوان ولم تطلقه الا بعد ان كلمها فى شأنه بشير ابو جبران شيخ قبيلة العشاباب فعاد الرجل الى أم درمان وأخبر التعايشي بما يقاسيه جواسيسه من تضيق صالح خليفه عليهم وقطعه السبل عليهم فسأله التعايشي عن عدد المقاتلة الذين معه فأجابه بأنهم لا يتجاوزون المائتين فارسل التعايشى الى يونس الدكيم أمير دنقله يأمره بانفاذ خمسمائة راكب من (المرات) تحت قيادة عثمان ازرق للهجوم على صالح خليفه فانفذهم وفى صباح بعض الايام هجموا عليه ونشبت الحرب بينهم فقتل صالح خليفة وحملت أسلابه الي التعايشى الذى خطب فى الناس بأن الله تعالي قد أهلك صالح بن خليفه وقتله بيد أنصار المهدوية شر قتلة

ذكر واقعة (غوردت) بين الايطاليين والمهديين

لما وصل أحمد على الذي خلف الزاكى طمل فى القيادة الى كسله سار بجيشه وكان نحو عشرين الف مقاتل واغار على حدود الايطاليين وأثخن فى القبائل الموالية للحكومة الايطالية واستولى على أحد الحصون وفر من

وجهه الايطاليون خدعة ثم كروا عليه وهاجموه على غرة فسقط أكثر من اثني عشر الف قتيل من الدراويش وقتل أحمد على ومن معه من القواد ولم ينج غير النور عنقرة أحد القواد ومعه نحو ستة آلاف مقاتل ولوا مذعورين حتي وصلوا الى كسله وأرسلوا يخبرون التعايشى بامر الهزيمة التي ساء وقعها عنده وجزع جزعا شديدا حيث لم يبق عنده جيش يعول عليه غير جيش محمود الذى هزم فى واقعة اتبره

ذكر احتلال الايطاليين كسله

ذكرنا ما كان من أمر كسله وسقوطها في قبضة المهدويين الذين التفت القبائل حولهم فى بادي الامر عدا القبائل التي كانت قاطنة بالقرب من ثغر مصوع فانها بقيت على ولاء الحكومة حتي احتل الايطاليون ثغر مصوع وأشهر هاته القبائل قبيلتا (بنى عامر والحباب)

وكانت كسلة تابعة لامارة عثمان دقنة الذى لم يمض على سقوط المدينة في قبضته الاعام واحد نفرت فى خلاله القبائل عنه واشتدت وطأته عليهم فلجأ جلها الى ارباض مصوع واحتموا بالايطاليين

وكان الحاكم على كسله من قبل عثمان دقنه محمد بن على دقنة وهو ابن اخي عثمان دقنه وفى أيامه ثارت قبيلة الهدندوه عليه لانه سجن زعيمها وهجمت على السجن وأطلقته من اعتقاله

وعقب ذلك ولي التعايشي اباقرجة وعزل عثمان دقنه عن منصب الامارة كما مر ثم عزل اباقرجه أيضا وفصل حكومة كسله عن إمارة السودان الشرقي وولى عليها حامد بن على احد أقاربه البقارة فعمها الظلم والدمار

وهلكت قبيلة الهدندوه التي كان عدد نفوسها تربو على مليون نسمة كما هلك غيرها من القبائل التي لا يقل مجموع نفوسها عن مليوني نسمه وحمل حامد بن على القناطير المنطرة من الذهب والفضة الى التعايشي وأخيه يعقوب

وفي سنة ١٣٠٩ عزل التعايشي حامد بن على وولي عليها مساعد بن قيدوم الذي كان في دنقلة مع ابن النجومي وقد ذكرنا بعض أخباره ضمن حوادثها التي تقدم ايرادها

ثم تلا ذلك الواقعة التي قتل فيها أحمد بن على وهلك معه اثنا عشر ألفا من الدراويش

وكان مع مساعد في حامية كسله عبد الرحمن بن بان النقا الذي كان مع الجنرال هيكس وقد ذكرنا بعض أخباره هناك وأنه اصابته ضربة سيف فقأت عينه فأخبر عبد الرحمن هذا مساعد أن الايطاليين اقتربوا من المدينة فهزأ بقوله ولم يأخذ لنفسه حيطة حتي ارتفعت الشمس فاذا الايطاليون زاحفون على المدينة بانتظام حيث كانت القوة مشكلة من قلب وجناحين فانذعر مساعد ومن معه من الدراويش وأسرعوا بالفرار وتركوا نساءهم في المعسكر الذى دخله الايطاليون ووضعوا السيف في رقاب من فيه وأحرقوا الاكواخ بالبترول والنار

وتخلف عن الدراويش كثير من أسري المصريين وكذلك تخلف في المعسكر عبد الرحمن بن بان النقا الآنف الذكر فاصابته رصاصة أودت بحياته ويقال انه كان يراسل الايطاليين ويطلعهم على عورات الدراويش

هذا ما كان من أمر الايطاليين أما مساعد ومن معه من الفارين فانهم لحقوا بمكان اسمه (أصوبري) في الضفة الاخرى من نهر اتبره وعلى

بعد نحو ست مراحل من كسله وهناك أرسلوا يبلغون التعايشي الذي كاد يفقد صوابه لشدة الفزع ماجرى فأرسل الى بان النقا والد عبد الرحمن يخبره أن ابنه مات كافراً لان مساعدا لم يجد عذراً يعتذر به عند التعايشي غير اخباره بان عبد الرحمن كان يطلع العدو على عورات المعسكر ويرفع اليه أخباره واخيراً قدم مساعد الى أم درمان فقوبل من البقارة والتعايشي بالازدراء والاحتقار لفراره من وجه العدو ولكن التعايشي أصدر منشوراً قال فيه ان المهدى أخبره بامر هذه الواقعة وان مساعدا شجاع وليس جباناً ونهى الناس عن تحقيره وتعييره

وقد استولى الخوف والرعب على قلب التعايشي وخاف تقدم الايطاليين الي جهات القضارف فامر باقامة معسكر في جهة (اصوبري) على ضفة نهر اتبره

ذكر معسكر اصوبري واخبار حامد علي واحمد فضيل

(اصوبري) اسم لمكان على نهر اتبره لم يكن حوله عمران ولا بلاد وغاية الامر انه علم على جهة صحراء (ريره) التي كانت قبيلة الشكرية البائدة ضاربة أطنابها في ارجائها وهى صحراء واقعة بين النيل الازرق ونهر اتبره

ولما خلت الصحراء من أعراب الشكرية باتت اصوبرى وغيرها قفرا بلقعا ليس فيها دار ولا ديار غير وحوش الفلاة وحيوانات القفار

ولما انهزم الدراويش وأجلوا عن كسله لحق الفارون بجهة أصوبري حيث اجتازوا النهر وصاروا آمنين غارة الايطاليين الذين كانت طلائعهم تصل الي الضفة الشرقية من نهر اتبره الذى صار حدا فاصلا بين الفئتين

وبعد ان جاءت اخبار الايطاليين الى أم درمان بايام جمع التعايشي رؤساء قبيلتي (الجعليين) والدنقلايين وجلهم من التجار وأولى اليسار وخاطبهم فى المسجد « قائلا انكم انصار الدين واصحاب المهدي الاقدمون وقد توفى المهدي وهو عنكم راض وقد علمتم امر الايطاليين وأنهم قد أخذوا كسله منا ونحن نود منكم ان تكفونا ما اهمنا من أمرهم وقد جعلت لكم ميزة على غيركم وذلك انني تركت لكم الخيار فى من ترضونه أن يكون قائداً عاما عليكم وانكم لا تجهلون ما فيه بيت المال من العسر وأنتم بحمد الله موسرون فعليكم أيضا أن تقوموا بنفقة سفركم من خاصة أموالكم » وأعقب ذلك بكلام طويل فى مدح المجاهدين باموالهم وأنفسهم واستشهد بالآيات الشريفة الآمرة والمادحة للمجاهدين باموالهم وأنفسهم فقام جماعة منهم وقالوا لا نرى أهلا لهذا المنصب غير حامد بن على الذي كان أميرا على كسله وهو أخو أحمد بن على الذي مات قتيلا في واقعة اتبره فاندهشنا من كلام هؤلاء الذين لم يروا أهلا للرئاسة عليهم غير بقاري ولكنا ما لبثنا أن علمنا انهم موعز اليهم بهذا الاختيار لانه لا يمكن أن يولي الرئاسة فى دولة التعايشى غير البقارة .

فاستدعي حامد بن على وصدر نطق التعايشي الذي كانوا يسمونه ابان دولته باسم (النطق الشريف) كما كانوا يسمون بابه باسم (الباب العالى) بتعيين حامد على قائداً على الجعليين والدنقليين ومرابطا فى معسكر أصوبري

هذا وقد كنا نظن أن التعايشى يروم أن يرمي الايطاليين من هذا الجيش العرمرم بما لا قبل لهم به ولم يكن يدور فى خلدنا أن غايته الاستفادة من ثروة الجعليين والدنقليين وجعلهم كما قلنا من التجار وأولى اليسار فقد أصدر أمرا لخواه التفويض لحامد بن على في إشخاص من يري إشخاصه وترك من يري تركه

من الرؤساء والمرؤسين من الاجناد والمقاتلة فقبل الناس الى داره يقدمون له الرشا على تركهم فكانت الرشوة عن كل شخص خمسماية ريال فصاعدا كل بحسب ثروته وما يملكه من المال فغنم حامد بن على القناطير المقنطرة من الذهب والفضة وقد كان للتعايشى وأخيه يعقوب النصيب الاوفر من هذه الغنيمة

وبعد أن فرغ حامد بن على من أخذ الرشا سار في بضعة آلاف الى أصوبرى وجعل معسكره على ضفة نهر (اتبره) وأقام الناس وهم في حالة ضنك شديد لان ما حوالى اتبره لم يكن مأهولا بغير الاعراب الرحالة الذين بادوا وخلت الديار منهم منذ أعوام وكذلك كان من فى المعسكر في شظف من العيش تجلب لهم الحبوب من القضارف التي تبعد عنهم بمسيرة عشر مراحل ودواب النقل قليلة جداً وليس فى المعسكر شيء من الخضر وقس على ذلك سائر حاجيات الافراد وشاد حامد داراً واسعة لسكناه وقصر همه على مصادرة أموال من معه من المقاتلة واغتصاب نسائهم حتي جمع فى داره من المحظيات اللواتى تضرب الامثال بجمالهن اكثر من عشرين حظية ونحو أربعمائة غلام لا تتجاوز أعمارهم خمسة عشر عاما فاشتد البلاء على الذين معه من القواد وعيل صبرهم وأخذوا فى رفع الشكاوى تباعا الى التعايشي يوضحون بها سوء سلوك حامد المذكور ويخبرونه بأن معسكرهم لا أهمية له وأن الايطاليين لا يتقدمون خارج كسله

وكان فى القضارف أحمد بن فضيل البقارى ابن عمة التعايشى أميراً من قبله عليها فكتب اليه يأمره بالشخوص من القضارف الي معسكر اصوبري لتحقيق شكاوى الامراء من حامد بن على فشخص الي أصوبري وقدم له

الامراء أموالا طائلة ليسعي في خلاصهم من ظلم حامد بن علي أولا ومن معسكر أصوبري ثانياً فأمرهم بتدوين مطالبهم في عريضة يقدمونها له ففعلوا وكتب الى التعايشي يسأله اجابة التماسهم فاصدر أمره الى أحمد بن فضيل بمصادرة أموال حامد بن علي والغاء معسكر اصوبرى واضافة مقاتلته على القضارف فتناول أحمد بن فضيل أموالا طائلة من حامد وأرسلها الي التعايشي وقفل راجعاً الى القضارف ومن يومئذ ألغى معسكر اصوبرى

اجمال حال السودان بعد ذلك

رأيت من مفصلات ما سردناه أن حالة المهدوية تبدلت تبدلا عظيما وتوالى عليها الفشل في أماكن متعددة وبالجملة فانها لم تقم لها قائمة منذ سنة ١٣٠٦ ولم تجنى ثمرة انتصار في ميدان قتال بعد نصرتها على أبي جميزة فى دارفور ونجاشي الحبشة يوحنا فى (القلابات) وكلا الانتصارين كانا فى سنة ١٣٠٦

ثم تلت ذلك الفتن الداخلية والاضطرابات الاهلية كانتقاض الخليفة الشريف وغيره ممن بينا لك حوادثهم واستقصينا فيما تقدم أخبارهم

وقد أضربنا عن ذكر كثير من سفاسف الامور فراراً من التطويل ولانها كثيرة تحتاج الي مجلدات ومنها أخبار الذين حاولوا قتل التعايشي الذي صار لا هم له غير المحافظة على حياته ودفع من يريدون به السوء ولذلك زاد في عداد حراسه حتى بلغوا ثلاثين ألف مقاتل فكان اذا خرج من منزله الي المسجد أحاط به عشرون ألفا مدججون بالسلاح ثم يحيطون بالمقصورة بعد دخوله فيها فلايستطيع أحد الدنو منها

أما هو فقد انغمس فى ملاذه أكثر من ذي قبل وضخم جسمه حتي

صار أضعاف ما كان عليه قبل ذلك

أما الاهلون فقد فقدوا كل شيء ولم يبق بايديهم من وسائل الحياة سوي بعض الاراضى التي يستغلون منها الحاصلات التى يأخذ بيت المال نحو ثلاثة أرباعها

وكثر النفى والقتل فى الاعيان لاسباب غير انتقاض الخليفة شريف ومن الذين نفوا وقتلوا في منفاهم اسماعيل بن عبد القادر ابن أخت الشيخ المكي وكان فقيها أزهريا اجتمع بالمهدي فى الابيض واشتغل عدة سنوات بكتابة سيرة المهدى وتدوين وقائع المهدوية وفى أخريات أيامه صار من مقربي التعايشى فوشي به حساده بانه يعقد اجتماعا سريا ضد المهدوية فنفى الى خط الاستواء وقتل فى منفاه

وأصدر التعايشى أمرا قال فيه ان كل رجلين اجتمعا بعد صلاة العشاء خارج المسجد يعد اجتماعهما لغاية هى الانتقاض كما أصدر أمرا بابطال المنتديات العمومية (القهاوى) لان أكثر الذين يديرونها مصريون ولان الذين يجلسون فيها لشرب القهوة يتكلمون في أشياء تمس المهدوية وهذا كله كما لا يخفى خوف من الاجتماعات التى ربما اتفق المجتمعون فيها على خلع طاعة التعايشى وقد تغيرت حالة العمال والجباة الذين سبق لنا الكلام عنهم حيث عين التعايشى أحمد السني جابيا عاما على أقسام الجزيرة وألزمه بتقديم مائتى ألف ريال الى أخيه يعقوب وثمانين ألف أردب من الذرة ومائة ألف ثوب من خرقة (الدمور) وهذا عدا الهدايا والتحف والجوارى الحسان والخيول

وعلى ذكر أحمد السنى نورد هنا ترجمته فنقول هو من عشيرة صغيرة تنتسب

الى رجل اسمه مدنى السنى وأصله من عشيرة (البصيلية) فى جنوب مقاطعة قنا سكن هذا الرجل في قرية بين الخرطوم وسنار يطلق عليها اسم (ودمدنى) ثم مصرتها الحكومة ابان الفتح الاول وجعلتها قاعدة حكومة السودان وكان المترجم من رعاع وأوغاد هذه العشيرة وكان يرعي غنم المرحوم الشيخ محمد بخيت الجمل من تجار تلك المدينة

ولما خضع السودان للمهدوية وصار ابراهيم عدلان الذي تقدم لنا ذكر تعيينه أميناً لبيت مالها وكانت أمه من هذه العشيرة لحق به المترجم فلم يزال ابراهيم يرفعه رعاية لحقوق القرابة حتي صار رئيسا لقلم مبيعات بيت المال فكان جزاء ابراهيم أن أحمد السني هذا صار من ألد أعدائه الذين وشوا به عند التعايشي وكانوا السبب الاقوى في الايقاع به كما ألمعنا الى ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب

وبسبب وشاية هذا الوضيع بمن أحسن اليه ورفعه من حضيض الخمول الى ذروة العلي التي صار بها ذا حيثية فى الوجود رفعه التعايشي حيث آنس منه لؤما ودناءة هو في حاجة الى استخدامهما للنهب والسلب وأكل أموال الناس بالباطل فولاه على الجزيرة كلها فارهق أهلها ظلما يعجز عن وصفه القلم وسلب مابقى في يد الاهالى من الثروة ووسائل الحياة وجمع لنفسه أموالا طائلة تقدر بمئات الالوف

والحاصل أن حالة السودان فى هذه السنة أى سنة ١٣١١ هجرية كانت تفتت الاكباد وتنذر بسوء المصير ولاغرابة فان الظلم مدمر لكل عمران

ذكر قراءة الناس بالالواح

كان التمايشي أميا يجهل الكتابة والقراءة وكان اذا أم الناس في الصلاة الجهرية يسر في القراءة حتي لا يسمع من وراءه قراءته التي يرجح الاكثرون انها لم تكن قرآنا لانه فضلا عن جهله المركب كان بليد الفهم حتي قيل ان الذى أقرأه فاتحة الكتاب قضي معه مدة في سبيل تلقينه اياها

وفى سنة ١٣١١ شرع فى قراءة السور الصغيرة من القرآن الشريف وخطب في الناس قائلا يجب على كل فرد من أفرادكم صغيرا كان أو كبيرا أن يحضر بعد ثلاث ليال لوحا من الخشب ويبتديء في كتابة القرآن كما يفعل صبية المكاتب فاجابه أحدهم بأن كثيرا من الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلبهم ومنهم العلماء والفقهاء فالاولى أن تكون القراءة الزامية بالنسبة للاميين والذين لا يحفظون القرآن فاجابه التمايشي بان حفظة القرآن والعلماء والفقهاء لاتنفعهم معرفتهم ولاتغنى عنهم فتيلا الا اذا امتثلوا ما أشرت به عليهم فاجابوا بالسمع والطاعة وانصرفوا الى حوانيت النجارين لصناعة الالواح فارتفعت أثمان الالواح وكان الفائزمن يتحصل على لوحه قبل الميعاد المضروب لكيلا يصبح تحت طائلة العقوبة

وبعد ثلاثة أيام أحضر جل الناس الالواح فلما رآهم رقى منبر الخطابة وقال لهم هيا ابدأوا بقراءة القرآن من أوله وعلى كل أمير أن يجمع أتباعه فى المسجد بعد غروب الشمس ويوقد نارا من الخطب يحيطها الناس ويقرؤن ألواحهم على ضوئها حيث يصير الامير كفقيه يعلم الصبيان فينتهر هذا ويزجر ذاك وهكذا ثم يمر التمايشي متفقدا تلك الحلقات كأستاذ أكبر ويقف على كل حلقة

ويبدي ما يمن له من الانتقاد فانظروا الى هذه السخافة فكأن هذا الطاغية المشوم لم يكتف بما صار له من السلطان على الناس يحكم فيهم كيف شاء حتي أراد ان يجعل نفسه معلم صبيان ويجعل شعبه كاطفال يتعلمون

على أنه ربما كان الباعث له على هذا الامر هو أن والده (التمايشى) كان يعلم الصبية القرآن وقد كانت نفسه قبل نيله الملك تتوق لان يكون معلم صبيان كابيه وكان بينه وبين تلك الامنية صعوبة تعلمه القراءة والكتابة فلما قدر له أن يكون ملكا رأي أن يقضي وطره من تلك الامنية التي كان دون وصوله اليها خرط القتاد هذا ما يمكنني ان ابرر به سخافة ذلك الظالم ان كان ثمت ما يبرر السخافة والا فالناس كلهم كانوا في حيرة لايهتدون معها الي الباعث له الي هذا الامر

والحاصل أن الناس ظلوا أكثر من عامين عاكفين على القراءة فى المسجد والتمايشي يتلذذ بالتبختر حولهم وتفقد حلقاتهم التي كانوا يتكومون فيها ويرفعون أصواتهم بالقراءة

ولسنا ندرى بعد ذلك هل زالت عنه بلادة الفهم ووفق الى حفظ بضع سور من القرآن الشريف فانه استمر على القراءة سرا سواء كانت الصلاة مما يسر في قراءتها أو يجهر فيها وكان يحمل لوحا مثل بقية الناس يخرج به من منزله ويعود به وكان من جملة ما أمر به أن يحمل أرباب الحوانيت من التجار والصناع الواحا تكون معهم مدة العمل وبعد غروب الشمس يحملونها الى المسجد لينضموا الي الحلقات التابعين لها حتي ارتفعت أصوات الناس بالتذمر والشكوى وبعد اكثر من عامين أصدر أمره بمعافاتهم من القراءة فتركوها وهم فرحون

ذكر بقية اخبار سلاطين باشا وفراره

وعدت بذكر بقية أخبار سلاطين باشا التي وقفت فيها عند ذكر سجنه لما وقعت عليه تهمة مخابرة المأسوف عليه غردون باشا واقول الآن انه ظل مسجونا الي ما بعد سقوط الخرطوم حيث أطلقه التعايشي من السجن وأمره بملازمة بابه مع شرذمة من حراسه يطلق عليهم اسم (الملازمية) فظل مقيما هكذا وشاد لنفسه داراً بالقرب من منزل يعقوب أخي التعايشي وكان يقضي معظم ليله ونهاره في باب التعايشي رافعا صوته بالتهليل وكان صوته أشبه بنغمات الافرنج وكان عنده من الخيل حصان يركبه كلما ركب التعايشي وكان في بيته جوار لخدمته أهداهن له التعايشي وهن رقيبات عليه وكان يلبس الملابس الرثة اظهاراً للزهد وتمويها على اجتناب الرفاهية وكان يمشي في أكثر الاحيان حافيا وكان له حذاء من نوع النعل الذي يقال له (شقيانه) واذا ركب جواده في موكب التعايشي تعمم بعمامة حمراء وتمنطق بمنطقة حمراء مثل سائر الفرسان وفي بعض الاوقات يحمل بندقية من طرز رامنجتون من النوع المخصص للفرسان

وكان شديد الحذر والتيقظ فلا يظهر ماتكنه نفسه من المقاصد وله أصدقاء كثيرون منهم من لايصدق بدعوى المهدوية أصلا وهؤلاء لايحترس من التصريح لهم بما يوافق مشربهم وله أصدقاء أيضا من الذين يصدقون بدعوي المهدوية لكنهم ينقمون على التعايشي ويودون أن يكون سيره مطابقاً للعدالة التي تكفل عمران البلاد وتنظيم الحالة وهؤلاء يظهر لهم انه من الذين من الله عليهم بالهداية الى الاسلام وانه يود من صميم فؤاده ان تصبح دولة المهدوية من أرقى دول الارض ويتحفهم بكثير من أخبار تقدم الممالك وما

يلزم له من ضمانة العدالة والمساواة اللتين هما اس العمران وله اصدقاء غير هؤلاء واولئك وهم البقارة والذين معه في ملازمة باب التعايشي وهؤلاء يظهر لهم فى كل لحظة وحين انه من اخلص المخلصين للتعايشى وربما ألقى عليهم من المواعظ مايزيدهم تمسكا بولاء التعايشى حيث يقول لهم ان لاسلامة للانسان فى الدنيا والاخرة بغير ان يكون طائعا لخليفة المهدى فى كل ما يأمر به

والخلاصة انه صار ذا صداقة مع جل الناس ومع ذلك كله لاتجد منهم من لايحترمه ويشهد له بالعقل والدهاء

وأما علائقه مع قلم المخابرات في مصر فبالطبع انه كان يكتمها كل الكتمان ولكن يظهر انه كان ذا علاقات كثيرة معه اذ كان يوافيه ببعض الانباء مع حذر وتيقظ

هذا مجمل حال سلاطين باشا وفى اواخر سنة ١٣٠٣ كان التعايشى انفذه بمأمورية الي يونس الدكيم لما كان معسكرا فى (ود العباس) فعاد منها ويقال انه قدم للتعايشي نصائح عديدة كان البعض يظن وقوعها موقع القبول عند التعايشي فخابت ظنونهم

وأما فراره فقد تم الاتفاق عليه بين قلم المخابرات وشخص يدعى (احمد الفحل) احد أفراد قبيلة الجمليين وكان على مابلغني جاسوسا لقلم المخابرات براتب قدره عشر جنيهات وكان يتستر بالتجارة فى ذهابه وايابه الي مصر وكذلك يوجد شخص آخر اسمه (الصادق بن عثمان) كان يعاون أحمد الفحل لانجاز هذه المهمة فقدم الشخصان أم درمان وخبآ الجمال وادلاء الطريق خارج ام درمان واخبراه بالامر فلم يربدا من الفرار لانه أصبح فى خطر من

التعايشي بسبب ان بعض التجار جاء باعداد من احدي الجرائد المصرية وفيها من الاخبار أن الحكومة باذلة جهدها لانقاذ سلاطين باشا وان الجائزة التي كانت مجعولة لمن ينقذه ضوعف مقدارها فاشتري سلاطين باشا احدي تلك النسخ بمبلغ من الريالات ثم علم بوجود غيرها وانه لاسبيل الى شرائها بغير مبالغ عظيمة وذلك من جملة الاسباب التى جرأته على المخاطرة بحياته في سبيل الفرار كما قيل

اذا لم يكن غير الاسنة مركبا فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكان التعايشي وقتئذ ملازما داره لانحراف طرأ على صحته فاغتنم سلاطين باشا الفرصة وغادر ام درمان فارا الي اصوان حتى بلغها بعد جهد جهيد وبعد ما عاين الهلاك بعينيه ولا فائدة لنا بعد ذلك فى سرد مالاقاه فى الطريق من الصعوبات وما قاساه من فادح الاخطار لانه والحق يقال شجاع من الذين لايبالون بالاخطار وذو ذكاء تضرب بحذقه الامثال على انه اذا كان الفضل لكتشنر باشا فيما أبداه من الحنكة والتدريب فى فتح السودان ونجت باشا في ادارة المخابرات التى تتوقف عليها أسباب النجاح فان سلاطين باشا لايصح أن يغفل ذكره كلما ذكر هذان القائدان اذ هو صاحب المعلومات التى كان الاثنان فى حاجة لها في جميع أطوار الحملة. والخلاصة انه من الذين كانوا السبب الاكبر فى انقاذ بلاد السودان من ربقة الظلم والاستبداد وسيذكر ما ذكر هذا الفتح المجيد والى الله عاقبة كل شيء

وأما التعايشي فلم يتصل به نبأ فرار سلاطين باشا الا بعد ليلتين مضتا على فراره فاحتدم غيظا واركب خلفه الركبان الذين رجعوا بغير أن يدركوا غباره وقدكان من شدة غضب التعايشى انه أمر بسجنى خوفا من فرارى كما سيجيء

ذكر لك مفصلا فيما يأتي وكما سيجيء ذكر القبض على اللذين دبرا له الفرار وهما أحمد الفحل والصادق عثمان

ذكر نفي احمد الفحل والذين ساعدوه على فرار سلاطين باشا

قلت ان أحمد بن الفحل كان جاسوساً لقلم المخابرات المصرية يتناول راتباً قدره عشرة جنيهات ورفيقه الصادق بن عثمان كان كذلك لكنني لا أعرف مقدار الراتب الذي كان يتناوله على الجاسوسية

وأحمد الفحل هذا من قبيلة صغيرة من الجعليين تسكن قرية اسمها (الفحلاب) في الضفة الغربية للنيل وعلى بعد بضعة أميال جنوب بربر وأما الصادق عثمان فانه كان من أهالي بربر وكان من جنود الحكومة (الباشبوزق) ثم ترك الجندية وصار يتجر بالسلع ظاهراً وبالجاسوسية باطناً

ولما عقدا الاتفاق مع قلم المخابرات الذي لا بد أن يكون نقدهما شيئاً من المال يستعينان به على ابتياع الجمال وشراء الدواب واستئجار الادلاء غادرا القاهرة ولحقا ببربر ويظهر أنهما كانا غير مباليين بعاقبة ما عقدا النية على انفاذه حيث أخذا في شراء الجمال بنفسهما ومعهما الادلاء وهما في بربر وقد كنت في حيرة عسر على الاهتداء معها الى الاسباب التي ملأت قلبيهما جرأة حتي صارا في حركة كانت سببا في وقوعهما في براثن التعايشي حتى نقل الي بعضهم أن أحمد الفحل قدم رشوة من المال الي الزاكي عثمان أمير بربر يومئذ وأطلعه على ماينويه فوعده بالكف عن عرقلته حتي صار يباشر شراء الجمال غير خائف ولا متهيب حتي أن التعايشي لم يستدل على الذين هربوا سلاطين باشا الا من احد أهالي بربر كما تراه مبسوطاً في هذا الباب ويظهر جلياً للمتأمل صحة هذا

القول ولو لم يكن كذلك لما خفى على الزاكي ما يحاوله أحمد الفحل ولاستطاع أن يقبض على سلاطين باشا قبل مغادرته قرية الفحلاب وقد نقل الى مخبري أيضاً أن أحد الجواسيس أخبره بأن سلاطين باشا لما بلغ قرية الفحلاب ذهب وأخبر الزاكي بمكمنه فأمر بايداعه السجن لكيلا يذاع الخبر وبعد بضع ليال أطلقه بعد أن أمره بكتمان هذا الامر

والخلاصة انني أرجح اشتراك الزاكي في مسألة هرب سلاطين باشا وأنه تناول رشوة اذ كان أحمد الفحل صديقا حميما له ومقربا عنده. والحاصل أن أحمد الفحل ورفيقه لما غادرا بربر ولحقا بأم درمان وأوعزا الى سلاطين بالهرب وظل التعايشي في حيرة لا يعرف معها من ساعده على الهرب قدم عليه عبد الماجد بن الحاج محمد وهو ابن أخي محمد الخير الذي كان داعية المهدي في بربر فأخبره أنه رأي أحمد الفحل ورفيقه الصادق عثمان ومعهما دليل يبتاعون الجمال في بربر فأرسل التعايشي العوض المرضي أمين بيت المال الى أحمد الفحل فاستدعاه اليه وقال له اننا نريد منك أن تجلب لنا موسيقي من القاهرة فقال لهم نعم أتعهد لكم باحضارها وبينما هو في الكلام اذ هجم عليه العبيد وقبضوا عليه وأوثقوه كتافا ثم زجوه في السجن وكذلك قبض على رفيقه الصادق عثمان وعلى شخص آخر يدعي ابن أبي بشر اتهم بانه كان يعينهما ثم أرسل التعايشي الي بربر فقبضوا على الدليل الذى رآه معهم وهو عبد الماجد الآنف الذكر

ولما أوقف الدليل بين يدي التعايشي خاطبه قائلا اذا صدقتني الخبر فانت آمن على نفسك ومالك فاجابه قائلا ان أحمد بن الفحل والصادق عثمان استأجراني من بربر وجاءا بي مع الجمال التى اشترياها منها وتركاني في سفح جبل (كررى) ثم أتياني في يوم كذا بنصراني مبتور الاصبع الوسطى وقالا

لى أوصله قرية (الفحلاب) وسلمه الى أخوة أحدنا أحمد الفحل فذهبت وأوصلته لهم ثم لا أعلم ماذا صار فامر به الى السجن وبعد أيام أطلقه ولم يصبه بسوء اذ تحقق صدقه ثم أرسل نقبض على اخوة أحمد بن الفحل الثلاثة وأودعوا السجن وبعد أن مضى عليهم شهران فى السجن سجنت في خلالها معهم كما ذكر ذلك فى مكانه فما شعرت الا ونحو خمسين عبداً من حراس يعقوب دخلوا السجن وبايديهم السياط فاخرجوا أحمد الفحل والصادق عثمان وابن أبي بشر واخوة أحمد الفحل الثلاثة ونزعوا ثيابهم عنهم وقرنوهم فى الاصفاد وأخذوا يضربونهم بالسياط حتي تمزقت جلودهم وسالت الدماء منهم وكانت احدى البواخر راسية على ضفة النهر فسيقوا اليها وهى على وشك السفر الي خط الاستواء ولما وصل هؤلاء المسجونون الي ضفة النهر أغمي عليهم من شدة الضرب فكان الحراس يحملونهم كما يحمل المتاع ويلقونهم في عنابر الباخرة فكنت تسمع مصادمة اجسامهم مع جسم قاع الباخرة كانهم من نوع المتاع ثم اقلعت بهم الباخرة الي خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم فهؤلاء هم الذين ذهبوا ضحية سلاطين باشا وانا سابعهم لكنني ولله الحمد نجوت بعد عذاب قاسيته خمس سنوات في السجن كما سيأتى ذكر ذلك

ذكر سجن ابراهيم حمزة وجماعة من اعيان بربر

ابراهيم حمزة عميد قبيلة فى بربر اسمها (الانقرياب) ولما وصلت دعوة المهدي الى بربر نفر عنها ابراهيم وقومه وبقى على ولاء الحكومة حتى اكره على الخنوع للمهدوية وهو كريم جواد ذو أياد بيضاء على جل اسري المصريين وذو سعة وسيجىء في اخبار سجن المؤلف ذكر كثير من شمائله الغراء

ولما فر سلاطين باشا كما تقدم وبلغ قرية (الفحلاب) ذهب مخبر الى ابراهيم حمزة هذا واعلمه بكمن سلاطين فامتنع من القبض عليه وبعث اليه من حذره وامره بسرعة الرحيل واوصي قومه بعدم التعرض له وتظاهر بعدم العلم بامره فاتصل ذلك بالتعايشي فارسل يستقدم ابراهيم وبعض أقاربه ومنهم ابن عمه محمد الشايقي وكذلك استقدم منصوراً ومحمداً ابني العجمي وهما عميدا عشيرة في بربر أيضا

ولما قدم ابراهيم جلس التعايشي مع القضاة واهل الشورى وادخل عليه فسأله قائلا لماذا تركت سلاطين اجتاز بلادك فاجابه يامولاي اني لم اعلم بامره وانه شيطان قدر على الفرار من بابك وفلت من ايدي الالوف من حراسك فكيف لا يقدر على اجتياز بلادي التي هي فلاة مملوءة بالادغال والغابات فاطرق التعايشي ثم امر بسجنه وابن عمه وكذلك ابني العجمي ووضع في رقبة كل منهم جنزيرا من الحديد وجملة من القيود فمكثوا في السجن خمس سنوات حتي انقذهم اللورد كتشنر يوم فتح ام درمان وسنذكر بقية اخبارهم في السجن وما كان من احتفائهم بي فيه اذ لولا ما كان يبذله ابراهيم حمزة من المال في سبيل دفع أذي السجانين عني لهلكت فجزاه الله عني أحسن الجزاء

تمهيد في ذكر السجن ونظاماته واطلاق اسم الساير على كل سجن

علمت مما تقدم كيف هرب سلاطين باشا الذي لم ألبث بعد فراره الا أياما قلائل صار سجني عقبها حيث ظللت في السجن خمس سنوات ثم أطلق

اعتقالي منه اللورد كتشنر يوم دخل أم درمان

ولما كان جل ما يجيء ذكره في أخريات هذا الجزء من أخبار السجن التي قاسيتها رأيت أن أقدم هذا التمهيد في ذكر نظامات السجن وترجمة السجان المسمى (الساير) ادريس الذي اطلق اسم الساير على كل سجن من سجون المهدوية وفي الانحاء الخاضعة لها لاجله فاقول أما ترجمة الساير المذكور فانه أعرابي من قبيلة (الجمع) التى تسكن شرقى كردفان وقد تقدم لنا ذكر شيء من عوائدها التي من جملتها ان الفتاة لا تتزوج الا بعد ان تلد بضعة أولاد من الزنا ليعينوا اخاها ويطلق عليهم اسم (عينة خالهم) وكان الساير هذا من أكبر أشقياء تلك القبيلة وكان رئيس عصبة تقطع الطرق بالنهب والسلب

ولما ظهرت دعوة المهدوية في جبال قدير لحق بها الساير فقلده المهدى وظيفة سجان ومن ثم اطلق على السجن اسم الساير

وأما أوصافه فانه كان ربعة في الطول بدين الجسم ولونه نحاسي غامق ووجهه عبوس وكأن عينيه شعلة نار

وكان التعايشى لا يدفع له مرتبا ولكنه ذو ثروة عظيمة تقدر بمئات الالوف جمعها من الذين أوقعهم نكد الطالع بين يديه وسترى فيما يأتي أمثلة من ضروب ابتزازه اموال المسجونين

وأما اعوانه فهم كثيرون وجلهم من العبيد (الجهادية) ورؤساؤهم من ذوى قرابته من قبيلة الجمع

وأما السجن نفسه فانه عبارة عن سور من اللبن الاخضر على أكمة مرتفعة عند ضفة النهر وفي داخل السور العام عدة اسوار ومبان لسكنى الخفراء وجلوس السجان

وأما غرف المسجونين فهى كثيرة منها ماهو مشيد بالحجارة وجلها ليس له نوافذ لتبديل الهواء ويوجد من الغرف مايطلق عليهما اسم (الاعدام) وعلى كل حال فان السجن نوعان خفيف وثقيل أما الخفيف فهو عبارة عما يعامل به الذين يسجنهم القضاة بسبب الديون أو الحدود وغيرها وأما الثقيل فمخصوص بالذين يسجنهم التعايشى وهم فى الغالب ذوو الجرائم السياسية ومايلحق بها وسترى فيما يأتى ذكر كثير من أخبار السجن وغرائبه والله الموفق

ذكر سجن المؤلف

لما فر سلاطين باشا استدعى التعايشى القضاة وكثيراً من أهل شوراه وجلس معهم وعدد لهم ماأتاه مع سلاطين باشا من أنواع الاكرام وما غمره به من الاحسان ومع ذلك فقد كفر تلك النعماء وارتد عن الاسلام ولحق ببلاد الكفار فأجابوه بالاستغراب وقال له أحدهم انه لا أمان لمن كان وجهه أبيض خصوصا اذا كان ذا وظيفة في الحكومة وقال له آخر ان سلاطين قد كان مضمرا للكفر مظهراً للاسلام والدليل على ذلك انه كان صديقا حميما لابراهيم فوزى (المؤلف) وكانا يجتمعان في منزليهما ويشربان الخمر ويدخنان التنباك ولا بد أن يكون ابراهيم فوزى ذا ضلع في مسألة فراره فقام ثالث وقال للتعايشى انك اذا لم تأمر بسجن ابراهيم فوزى فر ولحق بسلاطين لان سلاطين أصغر منزلة في الحكومة من ابراهيم فوزى اذ هو حائز رتبة (باشا) أما سلاطين فلم يكن حائزاً الا على رتبة (بك) فصادفت هذه الاقوال أذنا صاغية من التعايشى فأرسل أحد حراسه لاحضارى

وبينما أنا في غفلة من هـذا اذ فاجأني الطلب فارتعت له وأدركت ان المصير سيئ فحاولت اخفاء ماألم بى فلم أفلح وذهبت وكأنني أودع الحياة

على أن ماقاله مشيرو السوء لم يكن له نصيب من الصحة اذ كنت لا أجتمع بسلاطين باشا الا نادراً وليس بينى وبينه غير مودة سطحية لانه كان يخاف على من تهمة كهذه ولـكن لايغنى حذر من قدر

ولما دخلت على التعايشى ألفيته جالسا على عنقريب (سرير) وحوله القضاة والمشيرون جاثين على الارض كعادتهم وسيفه موضوع علي فخذه ممسكا بيمينه على قبضته كانه يريد أن يستله والغضب باد على وجهه فخاطبنى قائلا ياابراهيم فوزى فقلت لبيك ياخليفة المهدى عليه السلام فقال أين سلاطين صاحبك فقلت لا أعلم ياسيدى وأظن انه في منزله فانتهرنى بصوت جهورى قائلا اذهب اليه وأحضره لى فمشيت بضع خطوات نحو الباب فقال لى ياابراهيم فوزى فعدت اليه فقال ألم يكن عندك خبر بهروب سلاطين فقلت كلا فقال لى انه هرب فقلت باندهاش (أهرب أهرب)فقال لي ماذا تقول في أمر هربه فقلت ياخليفة المهدى عليه السلام ان سلاطين نصرانى ارتد عن الاسلام وعاد الي دينه النصرانية وقد أبعده الله عن التمتع بمشاهدة أنوار خليفة المهدى عليه السلام في الدنيا والآخرة ومع ذلك فانه لحق بمصر التى ينوى مولانا الزحف عليها في هـذا العام ولا بد من وقوعه فى قبضة المهدية ويذوق جزاء خيانته وفراره فأطرق التعايشى الى الارض هنيهة ثم رفع رأسه وألقى علىّ الاسئلة الآتية

س ـ هل كان سلاطين يدخن التنباك ـ ج ـ لا أعلم شيئا من هـذا ـ

س ـ هل كان سلاطين يشرب الخمر ـ ج ـ أستغفر الله ياخليفة المهدى عليه

السلام أنا أعتقد أن مدينتك طاهرة مطهرة من كل رجس وليس فيها خمر أو محرم ـ س ـ هل كان سلاطين تاركا للصلوات الخمس ـ ج ـ ان سلاطين كان ملازما الخليفة المهدى عليه السلام فى أوقات الصلوات الخمس وبذا لا يكون تاركا للصلاة وهذا مانراه نحن بأعيننا أما البواطن وما تخفى الصدور فان علمها عند خليفة المهدى عليه السلام

وعند نهاية هذه الكلمة التفت التعايشى لمن حوله وقال خذوا هذا (وأشار الي) الى السجن وكان ذلك آخر عهدى بمحادثته ورؤية وجهه فاجتذبنى أربعة من الحراس الى خارج الباب وهناك اجتمع علىّ نحو خمسين منهم فاخذوا يضربوننى حتى سال الدم من أنفى وجسمى ثم نزعوا عمامتى وشدوا بها وثاقى وساروا بى الى السجن والسياط تمزق جسمى فلم أقدر أن أمشى الا بعض خطوات ثم سقطت على وجهى وقد أغمى علىّ فأمسكونى وأسندنى بعضهم والبعض الآخر يضربنى بالسياط حتى بلغت باب السجن فتلقانى حراسه بالضرب بالسياط أيضا ووضعوا فى رجلىّ ستة قيود يربو وزنها على أربعين رطلا ووضعوا فى رقبتى غلاً كبيرا (جنزيرا) وامسك الحراس عن ضربى بالسياط فالتفت اليهم وقلت اسقونى ماء فكان جوابهم الضرب بالسياط وقالوا لى مثلك لا يستحق شربة ماء ياعدو خليفة المهدى عليه السلام ثم أدخلونى السجن

اول ليلة في السجن واخبار اثنين يدعيان النبوة

كان وصولى الى دائرة السجن في أصيل النهار وبعد وضع الحديد فى رجلى ادخلت الى أودة يطلق عليها اسم (أودة الحجر) لانها مشيدة

بالاحجار وليس فيها نوافذ غير الباب الذى يدخل منه وهى مظلمة جدا فدخلت وليس على جسمى من الملابس غير السراويل فوجدت فيها نحو مائتى مسجون وهى لاتسع أكثر من ربع هذا العدد فرأيت بينهم ثلاثة رجال بيض الوجوه يكادون لفرط ماهم فيه من العذاب مع طول مدة السجن أن يكونوا أشباحا بلا أرواح فدنوت منهم وجلست بجانبهم فاذا أحدهم الموسيو شارل نيوفيلد الذى تقدم لنا ذكر خبره والآخر صيدلى مصرى اسمه خليل أفندى بسيم والثالث رجل من تجار اليهود في أم درمان فجلست بينهم وأنا اتقلب في آلام الجروح والضرب اللذين ذكرتهما قبل فاظهروا لى من المواساة والتوجع لمصابى ماكاد يعزينى واخذت أجيل نظرى في الغرفة فاذا الذين فيها جلهم مرضى مصابون بالاسهال واذا بجانب كل واحد حفرة يتغوط فيها ولضيق الغرفة كان الناس متراكمين على بعضهم ومنهم من هو واقف على فخذ غيره ومنهم من يصيح وطئت على رقبتى كل ذلك ولا منفذ يستنشق منه الهواء غير الشقوق التى في الباب

ولم يمض على أكثر من ساعة حتى أغمى على وفقدت الشعور ولم أفق الا على صوت الموسيو نيوفيلد الذى كان يصيح من داخل الباب لخفير السجن قائلا (ان الرجل الذى جئتم به قد مات) لانهم أيقنوا بموتى فلم يعبأ الخفير ولا السجانون بكلامه ولما رفعت رأسى سمعت أصحابى الثلاثة يقولون ظنناك فارقت الحياة فالحمد لله على سلامتك وكان عند كل واحد قطعة من الخرق بالية يروح بها على نفسه من شدة الحر فكان الثلاثة يروحون على بخرقهم وقد نسوا أنفسهم فجزاهم الله عنى أحسن الجزاء

وقبيل الصباح دخل علينا السجانون فأوسعونى واصحابى ضربا بالسياط قائلين لنا لماذا ياأولاد الريف يا كفار تجلسون مع بعضكم ثم وضعوا كل واحد منا فى أودة مع أناس من المسجونين فجلست بجانب عبد أسود تظهر عليه علامة المرض فبدأته بالحديث مستفهما عن جريمته فرفع رأسه وقال لى أما تعرفنى فقلت كلا فقال أنا عيسى بن مريم نبى الله ورسوله فظننته مازحا فقلت له أصحيح ماتقوله فالتفت الىّ وقال لى سترى مصداق ذلك قريبا فقلت له ان عيسى صلوات الله وسلامه عليه أبيض اللون وانت عبد أسود فأجابنى بثبات جاش ان جميع الالوان بيدى ولو شئت جعلت لونى أبيض ولكننى اخترت سواد اللون تواضعا لله تعالى ثم رأيت بجانبى رجلا آخر ذا ملابس نظيفة وهيئة مهيبة فقلت له هل سمعت مايقوله هذا الذى يزعم انه عيسى بن مريم عليه السلام فلم يرد علىّ فظننت انه مستغرب هذا الخبر وأخذت أكلمه وقلت له حقا ان هذا الامر غريب جداً وهل يظن مثل هذا الكذاب ان دعواه تقابل بالتصديق ولو من البسطاء فلم يرد علىّ بشىء بل أعرض عنى وبينما أنا متعجب اذ التفت الى خلفى فرأيت احمد الفحل ورفيقه الصادق بن عثمان اللذين سبق لنا الكلام عنهما وانهما هربا سلاطين باشا يضحكان فلم أفهم لماذا يضحكان فدنوت منهما وسألتهما عن سبب ضحكهما فقالا لى ان الرجل الذى تكلمه وتشكو له أمر المتنبي يدعى هو ايضا انه عيسى بن مريم عليه السلام فازددت تعجبا ودخل ساعتئذ أحد السجانين واسمه (ابو لباده) وقال لى ياابن الريف لماذا حبسوك فقلت لا أدرى فقال لى انكم معشر أولاد الريف لاتتركون كفركم وانكاركم على المهدى وخليفته فدنوت منه وأخذت أترامى على اقدامه ورجوته أن ينقلنى

من هذه الغرفة التى فيها متنبئان فقال لى على شرط أن تنقدنى ريالا فقلت له أأنقدك الريال مع انى لا أملك قرشا واحداً ولا في بيتى درهم ولا دينار فأخرجنى من تلك الغرفة الى غرفه أخرى فيها أكثر من مائة مسجون فقضيت بقية الليل واقفا على قدمى والناس يضجون من شدة الحر والازدحام وتوفي اثنان منهم فى تلك الليلة

ولما لاح الصباح أخرجونا من الاودة فسمعت السجانين يقولون ان (الاودة كرمت) اى أنها ضحت هذين الرجلين ثم جروا الرجلين من أرجلهما وألقوهما فى النهر

هذه أخبار الليلة الاولى فى السجن أوردتها بايجاز كثير وسأعود الى ذكر بقية الاخبار في محالها والله الهادى الى سواء السبيل

انذار المؤلف بالاعدام

وبعد خروجى من الأودة جلست مع المسجونين في حوش السجن وبعد بضع ساعات كنت أستنشق الهواء فى خلالها جاءنى أحد السجانين يدعونى للخروج الى أودة أميرالسجن فخرجت أرسف في قيودى فوجدت بها اثنين من القضاة أحدهما سليمان بن الحجاز والثانى احمد بن حمدان فقالا لى ان خليفة المهدى عليه السلام بلغه عنك انك كنت تصنع أشياء مخالفة لمنشورات المهدى عليه السلام وانه رأى وجوب قتلك فقلت ان خليفة المهدى عليه السلام أوتى الحكمة وفصل الخطاب وان المهدى عليه السلام أخبر بانه من اهل الكشف فاذا كان هذا القول من عندياته فهو صادق والا فان لى أعداء يرومون التنكيل بى من قبل زمن المهدية فهم

كذابون وعلى كل حال فأنا لا اطلب لدنياى أو آخرتي غير رضا خليفة المهدى فاذا عزم على قتلى فأنا راض بأمره واسأله أن يرضى عنى وان شاء استحيائى فانني لا أرغب في الحياة الا اذا كانت مصحوبة برضاه فذهب القاضيان له وأخبراه بما قلته وبعد ساعتين عادا الى وقالا لى ان خليفة المهدى عفا عنك واستبدل قتلك بسجنك مؤبداً فسجدت بين يديهما شاكراً لله تعالى ثم رفعت رأسي وقلت لهما أبلغا تحيتي لمولاى خليفة المهدى عليه السلام وقولا له ان عبدك طامع في عفوك ومتوسل اليك بحلمك وحنانك فذهبا ولم يعودا الا بعد سنتين وسيجيء ذكر ذلك في مكانه

ذكر قتل القاضي احمد بن علي

القاضى احمد بن على أصله من عشيرة اسمها (بنى هلبه) تسكن جنوب دارفور وكان يحفظ القرآن الشريف ويعرف قليلا من الفقه على مذهب الامام مالك وولى القضاء فى أحد مراكز مديرية (شكا) احدى مديريات دارفور ولما ظهرت دعوة المهدوية فى جبال قدير فر احمد المذكور ولحق بها وشهد مع المهدى واقعة يوسف باشا الشلالى وقدم معه الى الابيض عاصمة كردفان حتى كانت وقعة يوم الجمعة التى قتل فيها احمد بن جباره الذى كان قاضيا للمهدوية كما مر ذكر ذلك باسهاب فى الجزء الاول

وكان احمد هذا ميالا لجانب عبد الله التعايشى الذى جعله قائدا صغيرا على عشيرته "(بنى هلبه)" وأعطاه راية صغيرها تابعة لرايته الزرقاء فتكلم مع المهدى فى شأنه وسأله أن يوليه القضاء بدل احمد جباره فولاه ولقبه بلقب (قاضى الاسلام) ولكن وظيفته هذه صارت اسما بلا مسمى

وذلك لان المهدى أقام نوابا للفصل فى القضايا المهمة ونصب أمناء ينوبون عنه فى نظر مايرفع اليه من المسائل وقد تقدم ذكر ذلك فيما مر من الكتاب

وقد ذكرنا ان لكل من القاضى والنواب والامناء اختصاصا في وظيفته ولكن النواب والامناء تجاوزوا حدود اختصاصهم ولم يتركوا للقاضى اختصاصا ينظر فيه حتى صارت وظيفته اسما بلا مسمى الى أن هلك المهدى واستبد التعايشي بالملك فألغى وظيفة الامناء ثم النواب وجعل المحكمة واحدة تحت رئاسة أحمد بن على تنظر فى كل مايرفع اليها من الدعاوى والخصومات وقد أشرنا فيما مضى الى الغرض الذى كان يرمى اليه التعايشى من وراء هذا الانقلاب الذى يتوخى به الاضرار بأقارب المهدى واضطهادهم. وحاصل القول ان أحمد بن على أصبح ذا مركز سام ونفوذ عظيم ولم تقف حظوته عند القضاء فان التعايشى وأخاه يعقوب كانا لا يقطعان أمرا دون مشاورته فاستفحل أمره وتلاعب بالقضاء أىّ تلاعب وانضم الى رايته أغنياء البلاد وسراتها فى سائر أنحاء السودان وصار يكتب الى الجباة بمعافاة المنتمين اليه من أهالى البلاد من الضريبة والخراج التى صاروا يؤدونها له واقتنى عدداً كبيرا من السفن الشراعية وامتلك كثيرا من قطع الاراضى الخصبة أما الرشوة فقد كان دخله اليومى منها يقدر بالالوف من الريالات وشاد لنفسه داراً واسعةً بالقرب من ضفة النهر ملأها بالنساء الحسان من السودانيات والمصريات وجلهن قبطيات من سكان الخرطوم اللاتى استباحهن المهديون وامتلأت الفيافى وأماكن المرعى بقطعان ماشيته من الابل والبقر والغنم وبالجملة فقد أصبح ذا ثروة طائلة

ومن غرائب شعوذته في القضاء وخراب ذمته وميله الى الارتشاء ماأوردمنه هذه النكتة ليقاس عليها بقية أعماله وذلك انه في احدى السنين تشاجر جاب اسمه حسيب مع احدى قبائل البحر الابيض لاسباب طفيفة كان الحق فيها مع رجال تلك القبيلة فأمر مقاتلته باطلاق الرصاص على الحى فقتل من الرجال نحو ثلاثين رجلا عدا الجرحى فرفعت الحادثة للتعايشي فأكبرها وغضب على الجابى وأحال محاكمته على القضاء فعقدت الجلسة الاولى ثم ارجئت الى الغد وفى تلك الليلة حمل الجابى الى القاضى أحمد بن على ثلاثة آلاف ريال فأمر فى الغد بايداع المتظلمين من تلك القبيلة السجن وأفهم التعايشى انهم شهروا حربا على المهدى وخليفته وبعد عناء شديد اخرجوا من السجن وذهبت دماء المقتولين هدراً ومثل هذا كثير لايسع المقام ايراده وانما أوردنا هذا مثالا تقاس عليه حالة ذلك القاضى

وفى أواخر سنة ١٣١١ كتب التعايشى سرا الى الجباة يأمرهم بارسال الكتب التى ترد اليهم من القاضى احمد بن على يأمرهم فيها بمعافاة المنتمين لرايته من الضرائب والخراج فاجتمع عنده شيء كثير منها فجلس ذات يوم ومعه القضاة واستدعى القاضى أحمد وقال للحاضرين مايأتى

أيها القضاة أخبركم انى اجتمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدى عليهما السلام وبينما كنت معهم اذ رأيت شخصا معذبا بين السماء والارض فسألت عنه فأجابنى المهدى بانه القاضى احمد بن على فدهشت لذلك فقال لى الخضر عليه السلام انه نقض عهدك وجمع الاموال وظلم العباد فلهذا أنا آمر القاضى احمد بالتوبة والاستغفار كما آمره بالتخلى عن الرايات التى يقودها والانقطاع الى القضاء فقط اه

فقام القاضي وقبل يد التعايشي وبكى وانتحب وتاب واستغفر وخرج مع زملائه يرجوهم أن لا يذكروا شيئا مما جرى في هذه الحضرة لاحد من الناس

وبعد مضى بضعة أسابيع على هذه الحادثة ضبط محتسب السوق شخصين يدعى أحدهما عبد المجيد عبدالله الدنقلي ويدعى الآخر عبد الله سليمان يزيفان المسكوكات من نوع ريالات المهدوية وأحضرهما امام التعايشي الذى سألهما عن جنايتهما فقالا له لم نزيف بل نضرب العملة لك فتعجب من هذه الجرأة وسألهما الايضاح فقالا ان القاضي احمد بن علي هو الذى أمرهما بسك هذه النقود وأفهمهما انه مأمور من قبل التعايشي وكانا يؤديان له كل مايصنعانه منها ثم أبرزا كتابا من القاضي بختمه متضمنا هذا المعنى فأمسك التعايشي الكتاب واطلع من حوله عليه فأكدوا صحة صدوره من القاضي احمد بن علي فاستدعاه وسأله قائلا ألم يكفك مااغتلته من الاموال حتى صرت تزيف النقود فأنكر ذلك فأبرز له التعايشي الكتاب المذيل بتوقيعه ثم عاد الى الاعتراف فاحتدم التعايشي غضبا وقام من مجلسه ودخل الى أودة جلوسه واستدعى القضاة فجلسوا ولم يكلمهم بشيء بل أمر باحضار القاضي احمد ابن علي فلما حضر بين يديه أمر الحراس بايداعه فى السجن فسيق اليه ثم قال لمن حوله من القضاة سأقوم فيكم خطيبا بعد صلاة المغرب فعليكم أن تسمعوا ما أقوله لكم ومروا الناس بانتظارى لسماع ما أقوله فخرجوا من عنده وبعد صلاة المغرب صعد منبر الخطابة وقال مايأتى

ان احمد الاسود (لانه كان أسود اللون) أصله مولى قبيلة بنى هلبه ولم يكن منها وقد أفسد وظلم العباد واغتال أموال المسلمين فلذلك أرى ان موته خير من حياته فرد عليه الحاضرون بلسان واحد حسنا تفعل

ومن هذه الخطبة أيقن الناس ان القاضى احمد سيقتل

وفى اليوم التالى ذهب يعقوب أخو التعايشى الى السجن وانفرد بالقاضى احمد وخدعه بانه سيسعى فى خلاصه من السجن فانخدع له ثم سأله عن أمواله فأوضحها له وكانت شيأ كثيرا من الذهب والفضة فضبطت كلها وصودرت لجانب بيت المال

وبعد استصفاء أمواله طرح منفرداً فى احدى غرف السجن ومنع عنه الطعام والشراب حتى توفى بعد بضع ليال وكان طويل القامة بدين الجسم شديد سواد اللون وكان غير مصدق بدعوى المهدوية وكثيراً مارأيت منه محاباة لجانبى فى أمور احليت محاكمتى فيها عليه بسبب فلتات من اللسان عقوبتها الجلد بالسياط عند الدراويش

ذكر تولية الشيخ الحسين الزهراء

(القضاء وقتله صبراً)

تقدم لنا في الجزؤ الاول من هذا الكتاب شيء من أخبار الشيخ الحسين بن الزهراء وما كان من أمر قصيدته الهمزية التى نصح بها المهدى وقد نشرناها برمتها وأن المهدى أنفذه الى كسلا وقدكان التعايشى حاقداً عليه بسبب النصيحة المذكورة اما هو فقد رجع على نفسه باللائمة لما فرط منه من الميل الى دعوى المهدوية التى انكر كل اعمالها وجاهر المهدى بانكاره والمهدى يغضى عن عقابه رعاية لجلالة قدره وتقواه حتى توفى المهدى وخلفه التعايشى الذى كان ذا ميل شديد للانتقام من الشيخ الحسين المذكور

وقد كان التعايشى استقدم الشيخ الحسين من بلده فى الجزيرة وعهد اليه بالقاء دروس في علمى الحديث والمواريث فى المسجد ولما قبض على القاضى احمد بن على ولاه القضاء بدله

ولما ولى القضاء قال لخواصه اننى لاأريد المحاباة بل أريد الوقوف عند حد الشرع وكل أمر يعرض علىّ لا أقول فيه غير الحق وأنا لا أجهل ان عاقبة ذلك ستكون الموت

وبعد أن تولى القضاء عرضت عليه مسألة وهى (ان رجلاً من الموسرين اسمه عوض الكريم من أهالى قرية (المتمة) بمقاطعة بربر هجر دياره فراراً من ظلم المهدوية ولحق بالحرمين الشريفين وتوفى هناك فافتى القضاة بكفره ووجوب مصادرة أمواله) فقال الشيخ الحسين لم يكفر هذا الرجل ولا تجوز مصادرة امواله أبداً فحقد التعايشى عليه وأضمر له السوء

وفي ذات يوم دعاه ومعه قاضيان هما حسين جزو ومحمد حمدان وكلاهما من أهالى السودان الغربى لا يعرفان شيئا من الاحكام الشرعية ولكنهما يحفظان الفاظ القرآن وكانا من اكبر قضاة الجهل والظلم ومعهما أمين بيت المال ولما استقر بهم الجلوس بين يدى التعايشى خاطبهم قائلاً « أيها القضاة ان بيت المال ليس فيه نقود وان الانصار يطلبون أعطيتهم فما ذا نضع » فاجابه محمد حمدان بما يأتى

انى سمعت المهدى عليه السلام يقول ان الناس بايعونى على ان اتصرف في رقابهم واموالهم تصرف المالك فيما يملك لانى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه فيجوز لامين بيت المال ان يكره ذوى اليسار على ان يقرضوه مايطلبه منهم وليس بيت المال مازما بالسداد ولكن يعد الدائنين

بالوفاء تطييبا لخواطرهم فاحتدم الشيخ الحسين غضبا وضرب بيده محمد حمدان قائلا

استغفر الله مماقلته فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقترض ويوفي دائنيه ولا يجوز ابدا أخذ اموال الناس بالطريقة التى قلتهافساء ذلك التعايشى واحتدم غضبا وقال مخاطبا الشيخ الحسين

لقد كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يكن مازما بتأدية مايقترضه وقد اباح الله اخذ اموال الناس ثم أمرهم بالانصراف وقال للقاضيين الضالين حسين جزو ومحمد حمدان احكما بكفره لانكما قاضيان يجب انفاذ ماتحكمان به فاخذاه وذهبا به الى السجن وامرا بوضع ثلاثة قيود في رجليه وغل في عنقه ثم ذهبا الى منزل يعقوب اخى التعايشى ليتداولا في الامر ثم رفعا الى التعايشى حكما فحواه ان الشيخ الحسين كفر وان عقوبته احدى ثلاث اما ان ينفي واما ان تقطع يده ورجله من خلاف واما ان يسجن مؤبداً فاختار التعايشى هذه ظاهرا واضمر قتله فاوعز الى السجان بوضعه في احدى غرف الاعدام ومنع الاغذية عنه فنقله اليها بعد ان وضع في رجليه اثنى عشر قيدا وجنزيرين ومنعوا عنه الماءفكان يستغيث من الظمأ وفي ذات ليلةرفع صوته بالاستغاثة طالبا شربة ماء ليستعين بها على معالجة سكرات الموت فلم يعطوه شيأ وكانت ليلة شديدة الحر فلم نشعر الا بالمطر قد هطل على السجن كافواه القرب مع اننا في فصل لاتمطر السماء فيه في السودان ابدا وتداعى ركن من اركان الغرفة المسجون بها فامتلأت بماء المطرفشرب الشيخ واغتسل وتوضأ وملا ابريقه وفاض الماء حتى تجاوز ركبتيه

وفي الغد دخل عليه السجانون واوسعوه ضربا قائلين انك ساحر فقال

لهم لست بساحر ولكن الله سقانى الماء لما طلبته منه فاخذوا منه الابريق واصلحوا ماتداعى من ركن الغرفة وبعد ليلتين دخلوا عليه فألفوه في سكرات الموت بثبات جاش غريب ولما توفى أمر التعايشى بعدم غسل جثته وتكفينها ودفنها وصرح بان تلقى على وجه الارض لانه كافر بزعمه وأمر بكتمان أمر وفاته عن ذويه الذين ظلوا يروحون ويغدون الى السجن حاملين له الاطعمة والملابس فكان السجانون يأخذونها منهم ويعودون لهم قائلين ان الشيخ يأمركم باحضار كذا وكذا من الاطعمة والملابس فيسرعون باجابتهم وهم لايعلمون ان الشيخ مضت على مفارقته الحياة بضعة أسابيع وجثته قدمت غذاء للنسور وظلوا على هذا الحال زهاء شهر من الزمان حتى أمر التعايشى عقيبها بمصادرة امواله وأخذ نسائه فعلم ذووه انه فارق الحياة

أما وفاته فقد كان لها تأثير سيء عند الاهلين واظهر المسجونون حزنهم عليه وكان له تلامذة عديدون اختفوا وخافوا الايقاع بهم. ولا بأس بايراد لمعة من ترجمته اتماما للفائدة فنقول. هو من قبيلة صغيرة فى الجزيرة قدم القاهرة صغيرا وتلقى العلوم بالازهر الشريف وبرع فى العلوم العقلية وكان ذا ذكاء عظيم ودين متين حتى قال أحد مشايخه الازهريين انه لم ير سودانيا يماثله ذكاء

ولما قفل راجعا الى دياره وهبت ثورة المهدوية صادفت هوى فى قلبه لانه كان ناظرًا اليها من الوجهة السياسية وقد تقدم أنه لما قابل المهدى ونصحه بقصيدته التى أودعها مغامز كثيرة ندم ولم يعد قادرا على احتمال معاشرة المهدوية فكان يقضى اكثر أوقاته فى قريته بالجزيرة راضيا بالخمول والبعد عن المهدوية وشرورها حتى استدعاه التعايشى وكلفه قراءة درسين فى الحديث والمواريث وكان قصده من ذلك الحجر عليه بام درمان تمهيدًا

لما حل به من القضاء المحتوم

وعلى ذكر الشيخ الحسين نقول ان من الوشايات التى كان التعايشى يقبلها ويبطش بالموشى به ان يقال له ان فلانا من أهل العلم لانه يوقن اذ ذاك بان من كان عالما لا بد ان يكون غير راض بالمهدوية وفى ذات يوم قال ان العلماء مفسدون فى الارض ولا أمان لنا من مفاسدهم التى يغرسونها فى افئدة الناس الا بقتلهم ومثل العالم فى البلاد كمثل شجرة فى وسط مزرعة تاوى العصافير اليها وتقتات بثمار المزرعة وهكذا العالم يأوى اليه الناس ثم يبث فيهم معارفه التى تأكل ايمانهم وتصديقهم بالمهدوية كما تأكل العصافير ثمار المزرعة فكما انه لا سبيل لحفظ المزرعة من عبث العصافير الا بقطع الشجرة كذلك لاسبيل لحفظ عقائد الناس فى المهدوية بغير قتل العلماء

وخلاصة القول ان الشيخ الحسين كان اعلم أهل السودان ومن اكبر الذين شايعوا المهدوية فى بدايتها وقد رأيت ماحل به من الانتقام مثل كثير من الذين ساعدوا المهدى وأعانوه على دعوته ومن اعان ظالما سلط عليه

خفراء السجن

كل خفراء السجن والسجانين من أقارب الساير السجان أى من قبيلة الجوامعة التى عرفناها فيما تقدم من هذا الكتاب وجلهم من أبناء السفاح الذين يقال لهم (عينة خاله) فاذا سألت واحداً منهم عن اسم أبيه يجيبك بقوله « أنا ابن أخت فلان » ولم اسمع بواحد منهم اسمه من الاسماء المألوفة والاعلام المعروفة كمحمد واحمد وغيرهما بل لهم اعلام هى فى الحقيقة صفاتهم مثال ذلك ان احدهم اسمه (شقليب) ومعنى هذا الاسم « الصارع اى انه

يصرع كل من صارعه وآخر اسمه « كبه كاه » ومعناه ان خلاله كلها مما يمجه الانسان ولا يقبله احد وقس على هذين العلمين سائر اسماء الخفراء والسجانين

وهؤلاء لا يدفع لهم التعايشي مرتبا ولا يجرى عليهم رزقا فاذا ذهبوا الى بيت المال طالبين اعطية قابلهم موظفوه بالاستغراب قائلين كيف تطلبون عطاءً من بيت المال وعندكم من الناس المسجونين من يمكنكم ابتزاز المال منهم وضرب الضرائب عليهم وهم مرغمون على اجابة مطالبكم فكان امير السجن يفرض الضرائب على كل مسجون بما يزيد عن طاقته وكان ابراهيم حمزة عميد قبيلة (الانقرياب) الذى ذكرت امر سجنه كثيراً مايؤدى تلك الضريبة عنى اذ لم اكن املك درهما منها وكنا فى ايام الاعياد والمواسم نؤدى ضريبة فوق العادة عدا الضريبة الشهرية التى لامناص من دفعها وعدا ماندفعه كل يوم وليلة للسجانين الذين كثيرا ما كانوا يأخذون ملابسنا بدل الرشوة

ومن نظامات السجن ادخال المسجونين فى الغرف التى لا منفذ فيها ليقضوا الليل فى فصلى الصيف والربيع في الحر الشديد أما فى فصلى الخريف والشتاء فينامون تحت السماء مقرنين فى الاغلال فراشهم الارض وغطاؤهم السماء يحيط بهم السجانون بايديهم السياط ويأمرونهم بالاضطجاع على جنب واحد فاذا تحرك احدهم حركة ولو خفيفة اوسعوه ضربا بالسياط

الايام الاولى في السجن

لما ادخلونى السجن ضاعفوا قيودى حتى بلغت ستة قيود ثم انتدبونى مع آخرين لحفر بئر فى منزل امير السجن المجاور للسجن فكان

اثنان يحفران بداخل وأنا أجذب الاناء الذى يضعان فيه التراب وكان هذا الاناء من الحديد وزنه لا يقل عن خمسين رطلا والحبل الذى أجذبه به جنزير من حديد فتورمت كفاى بسبب ذلك وسالت الدماء منهما والسجانون حولى يضربوننى بالسياط فمددت يدى لهم باكيا مسترحما من ألم الجروح التى بهما فما كان منهم الا ان ضربونى بالسياط عليهما فوقعت مغشيا على فاخذوا يضربوننى ضربا مبرحا

شارل نيوفيلد

والمؤلف مقرونان فى القيود

ذكرت اننى فى الليلة الاولى التى سجنت فيها كنت مع شارل نيوفيلد ثم فرقوا بيننا وكان كثيرا ما يجتمع بى كلما لاحت له فرصة فى غفلة السجانين الذين كانوا قد تلقوا عن التعايشى تعليمات سرية بالحيلولة بيننا خشية ان نتفق على الهرب

وفى ذات يوم كان السجان الاكبر مارا فوقع نظره علينا فامر بجعلنا فى قيد واحد زيادة فى تعذيبنا وبعد بضعة أيام أصبت بحمى شديدة كادت تودى بحياتى وأصيب شارل نيوفيلد باسهال شديد يضطره الى الذهاب الى المرحاض كل خمس دقائق وأنا بسبب شدة الحمى لا أقدر على القيام من مضجعى وكان الفصل صيفا شديد الحر فنقب ثقبا فى الارض بجوار مضجعنا لقضاء حاجته فكنت على ما بى من الم الحمى فى أشد حالة من نتن رائحة المرحاض الذى بجانبى وظللنا على هذه الحالة السيئة مدة خمس ليال

ثم مرت بنا ذات يوم أم احدي نساء أمير السجن وكانت مصرية من أهل

الخرطوم فوقفت وسلمت علينا وهى باكية متحسرة وسألتنا لماذا قرنتما فى قيد واحد فقلنا لها هكذا أمر أمير السجن فذهبت متشفعة ومسترحمة لنا فقبل شفاعتها وأمر بوضع كل واحد منا فى قيود على حدته

امير السجن في منزله ونسائه

لاميرالسجن دار بالقرب من المسجد لم ينفق فى تشييدها قرشا بل كان يشغل المسجونين فى بنائها

وكان عنده من النساء خمس عشرة امرأة منهن واحدة مصرية من اللواتى أخذن مسبيات من الخرطوم والبقية من أجناس مختلفة من السودانيات

وكان له حارس اسمه طنبل الشايقى يجلس على باب المنزل وله سلطة كبيرة فى السجن اذ لايؤذن بادخال طعام الى أحد المسجونين الا اذا رآه طنبل فاذا كان جيدا أمر بادخاله الى منزل أمير السجن واذا كان متوسطا دعا بقية الخفراء الى الاكل منه وقل ان يتركوا لصاحبه ربعه

وقد أطلق المسجونون على طنبل لقب (شنقل منقل) ومعناه المنشار يأكل صاعدا ونازلاً

هذا وقد ذكرت الضريبة الشهرية التى كنا نؤديها الى أمير السجن وعدا ذلك فانه كان يجمع المسجونين كلما أراد ان يشترى محظية أو يتزوج امرأة جديدة أو يولد له ولد ويخاطبهم قائلا انكم لاتجهلون اننى لست تاجرا ولا زارعا بل انتم زراعتى وتجارتى فعليكم ان تجمعوا الى مائة ريال لاننى أريد الزواج أو ولد لى ولد ثم يضرب لهم موعدا للدفع فاذا تأخروا أمر السجانين بتعذيب المسجونين فاذا كان الفصل شتاء يكون التعذيب بصب الماء البارد

على اجسامهم ليلا مع الضرب بالسياط واذا كان الوقت صيفا وضعوا الاغلال فى اعناقهم وجردوهم من ملابسهم واجلسوهم فى الشمس مع الضرب بالسياط أيضا كل ذلك عدا ما تؤديه الى السجانين والخفراء فلكل واحد الحق فى طلب ما يريده من المسجونين مثل مطالب اميرهم التى هى الضريبة الشهرية وضريبة المواسم والاعياد وضريبة الزواج وضريبة الاولاد

وعدد الخفراء يبلغ المائة ورؤساؤهم اربعة لكل واحد منهم نوبة يوم وليلة يتصرف فى خلالها التصرف المطلق بدون ادنى معارضة من امير السجن

صلاة المسجونين

من نظامات السجن ان المسجونين يصلون الصلوات الخمس جماعة ولهم امام منهم وفى كثير من الاحيان نكون وقوفا فى الصلاة فيهجم علينا الخفراء بالسياط ويضربوننا بحجة اننا لم نحسن الصلاة فنفزع ونترك الصلاة ونهرب مذعورين

وفى احدى ليالى الصيف قمنا لصلاة المغرب التى بعد انتهائها يدخلوننا الى الغرف التى تقدم لنا وصفها فرجونا الامام ان يطيل القيام والسجود لنتمكن من استنشاق النسيم في خلالها ففعل وكأن الخفراء ادركوا ذلك فوثبوا علينا بالسياط واوسعونا والامام ضربا فتفرقنا شذر مذر واسرعنا الدخول الى الغرف

ضريبة ريال كل يوم على المؤلف

قلت ان المسجونين يدخلون الغرف فى ليالى الصيف وفى كل ليلة

يموت بعضهم اختناقا وفى احدى الليالى اتفقت مع امير السجن على ان ادفع له فى كل ليلة ريالا وهو فى نظير ذلك يأمر بتركى جالسا عند باب الغرفة لاستنشق الهواء من شقوق الباب

ولقد كنت لا أملك قرشا من هذا الريال ولكننى أقدمت على الاتفاق معه رجاء تركى تلك الليلة فنمى الخبر الى أحد معارفى وهو يونانى اسمه الخواجه مانولى دياكوينى كان تاجرا فى الخرطوم وله فى معى صداقة قديمة ومعاملات مذ كنت حاكما على أقاليم خط الاستواء وبعد سقوط الخرطوم وقع اسيراً فى قبضة المهدوية فاستعمله التعايشى فى صناعة الصابون فارسل الى أمير السجن وتعهد له بتأدية الريال فى كل يوم وان لا يطلبنى به بل يدفعه هو فى نظير مطاليب قديمة كانت لى فى ذمته وبذلك تمكنت من الجلوس خلف الباب كل ليلة واستمر الخواجا مانولى يؤدى عنى ضريبة الريال حتى من الله علىّ بالخلاص لما دخل اللورد كتشنر أم درمان فاتحا

النادرة العباسية في السجن

رأيت أن أعنون هذه النادرة بهذا العنوان لما تراه فيها من الخبر الغريب الذى أقصه عليك وقد كنت ذكرت ان التعايشى زوجنى امرأة من نساء الخرطوم اللاتى كن عنده وكانت لها أخت متزوجة بسودانى اسمه « عباس »

وفى ذات يوم دخل علىّ بضعة أشخاص من البقارة وكنت وقتئذ جالسا بالقرب من عبد منهم بقتل واسمه (عاكيش) فخاطبنى أولئك الاشخاص قائلين يافوزى فقلت نعم فقالوا أصدقنا ماهى قرابتك من عباس فقلت انه عديلى فقالوا كلا بل هو ابن أختك فقلت كلا كيف يكون ذلك وأنا

مصري وهو سوداني فقالوا وضح لنا الحقيقة فقلت لهم ان خليفة المهدي عليه السلام زوجني امرأة عباس هذا زوج أختها فقالوا يظهر انك لم تفهم كلامنا لانا نسألك عن (عباس خديوي مصر) وفي غضون ذلك كان شارل نيوفيلد قد وقف بجانبنا فالتفت اليه وقلت ان الفرق بيني وبين عباس خديوي مصر كالفرق بين خليفتكم وبين «عاكيش» هذا وأشرت الى العبد السالف الذكر فقالوا كذبت فقد علمنا انك خاله ثم انصرفوا عني وذهبوا الى امير السجن فقصوا عليه مادار بيني وبينهم من الكلام فغضب وامر الخفراء باحضاري فساقوني اليه بعد ان اوسعوني ضربا ولما وقفت بين يديه امر الخفراء بضربي حتى صرت استغيث فلا اغاث وبعد ان مزقوا جسمي امرهم بالكف عني وقال لي يا كافر انت شاك في خليفة المهدي عليه السلام فقلت ياسيدي ما الدليل على ذلك فقال انك قلت للذين كانوا يحادثونك «خليفتكم» ولم تقل خليفة المهدي عليه السلام وهذا يدل على كفرك فانكرت انني قلت هذه الكلمة واستشهدت بشارل نيوفيلد فاحضره بحالة تشبه الحالة التي احضروني بها وبعد ان اوسعوه ضربا سألوه فانكر انه سمع هذه اللفظة مني وأصر على الانكار فقال له انت تشهد لابن عمك وامر امير السجن بجلد شارل نيوفيلد خمسين جلدة وضاعفوا قيوده

اما انا فقد ضوعفت قيودي واغلالي وغلت يداي الى عنقي وامر بوضعي في الغرفة المعدة لمن يراد قتله وهي التي اعدم فيها القاضيان احمد بن علي والحسين بن الزهراء اللذان تقدم لنا ذكرهما وهم امير السجن بالذهاب الى منزل التعايشي لاستصدار امر باعدامي وفي الحقيقة لو ابلغه القصة لامره بذلك فترامى المسجونون على اقدامه يرجونه الصفح عني فقال لهم لابد من

ان يحضر عشرين ريالا فدخل على صديقاى ابراهيم حمزه ومحمد الشافعى عميدا بربر اللذان سجنا من أجل تهمة الاشتراك في تهريب سلاطين باشا وقالا ان أمير السجن وعدنا بالصفح عنك على ان تدفع له عشرين ريالا فقلت لهما كيف ذلك وانتما لا تجهلان انى لااملك قرشا من العشرين ريالا وليس عندى متاع ولا أرقاء غير عبدي المسمى «لدوم» وهو لا يبلغ ثمنه عشرين ريالا مع ان قيمته الادبية عند توازى الآلاف من الريالات لانه كما تعلمان يطوف على منازل اصدقائى واخوانى المصريين يجمع منهم ماتجود به مروءتهم لغذائى وغذاء زوجتى وولدى فاذا كان لايعفينى فاننى اختار الموت لارتاح ويبقى عبدى « لدوم » ليقوم بحمل تغذية عائلتى الشقية اذ هو ينفق كسبه عليها زيادة على مايتبرع به المصريون لى فرقا لى ورثيا لحالتى ودفعا العشرين ريالا من مالهما وخلصانى من هذه الورطة التى لاارتاب ان التعايشى يأمر باعدامى لو وصلت اليه هذه القصة فجزاهما الله خير الجزاء وعوضهما عن ثروتهما وما خسراه من الاموال الطائلة التى انفقاها في السجن خيرا أما مثار القصة فان احد اعدائى وشى بى عند اقارب التعايشى وافهمهم انى خال مولانا الخديوى عباس حلمي باشا وقصده من ذلك زيادة تعذيبى او اعدامى لان انتسابا كهذا مما يضر ضررا بليغا بل يكون سببا للهلاك فتأمل في غباوة هؤلاء المهديين وظلمهم

ذكر ابطال القهوة

من غرائب احكام التعايشي انه امر بابطال الاماكن العمومية التى تباع فيها القهوة ويجلس الناس فيها للسمر واصحابها في الغالب من المصريين وهى عبارة

عن اكواخ من الخوص فيها كراسى من الخشب والجلدتشبه (العنقريب) وفي بداية الامر اصدر امرا بابطال المقاعد وان لايجلس شاربو القهوة الا على الارض فاستعاض اصحاب القهاوى عن المقاعد بالحصر السودانية التى تسمى (برشا) ثم وشي له واش بأن الذين يتسامرون فى القهاوى جلهم من المصريين وانهم اذا جلسوا فى تلك الاماكن يخوضون ويتحدثون فى شأنك وهم يطلقون عليك اسم (الزر) فاذا جلسوا تحدثوا مع بعضهم ماذا فعل الزر فيجيبون بعضهم فعل كيت وكيت فاصدر امرا بابطال القهاوي وجرت في ذلك محادثات ومداولات كثيرة وكان التعايشي ميالا الى وضع قانون يحرم به القهوة كتحريم الدخان الا انه عاد الى الصواب وقال لولا انى رأيت المهدي يشربها لحرمتها

ولاغرابة فى ذلك فان اعراب السودان الغربى الذين منهم التعايشي لايعرفون القهوة ولا البن ولما قدموا الى الخرطوم ورأوا الكثيرين من الاهلين يشربونها كانوا يجاهرون بانكاز ذلك ويعدونه من دلائل قلة العقل وفقدان الرشد فيقولون ماهى الفائدة من شرب شيء شديد الحرارة مر الطعم أسود اللون وبعضهم يسميها « القطران » ومن الشتائم التى يشتمون بها الاهالى (ياشاربى القطران) ولهم نوادر كثيرة فى القهوة لاباس من ايراد بعضها لمافيها من التفكهة. منها ان اعرابيا قدم له «فنجال قهوة» ففتح فاه فلما وصل جوفه كان سببا فى موته ومنها أنه نزل اضياف من أهالى السودان على أحد امراء البقارة فقال لهم انتم اضيافى وانا ابذل الجهد فى اكرامكم اكراما حقيقيا اقدم لكم فيه الاغذية من الخبز واللحم واللبن والعسل اما الشيء القبيح الاسود فانه يدل على قلة عقل من يستعمله فلذلك لااقدمه لكم ابدا فضحكوا وقالوا نحن لانكلفك ذلك بل نصنعه بايدينا ونتناوله فقال لهم لو لم

يكن قدركم معظما عندي لما سمحت لكم باستعمال هذه الدنايا في منزلي وقس على ذلك وقد ذكرنا ان التعايشي كان يريد ان يحرمها لولم يعارضه الناس ويخبرونه بان تجارة البن منبع ثروة عظيمة لبيت المال وانه هو رأى المهدي يشربها ولولا ذلك لحمل الناس على تركها فتأمل

ذكر ختان المسيحيين واجبارهم
على تعدد الزوجات

كان في السودان تاجر من اهل حلب الشهباء مسيحي اسمه «جورج اسلامبوليه» يتردد بالتجارة بين الخرطوم وكردفان حتى ادركته الثورة المهدية في مدينة الابيض فغادرها واسلم نفسه للمهدي صيانة لاموالِه وجاهر باعتناق دين الاسلام ولكنه مالبث طويلا حتى نكب وصودرت امواله واتهم بانه يبطن النصرانية ويقلد اطفاله الصلبان من داخل الملابس وانه يراسل الحكومة في الخرطوم فضبط كتاب منه باحدي اللغات الاجنبية فطلب التعايشي مترجما يترجم له الكتاب فتصدي للترجمة يهودي اسمه (داود منديل) مع انه لايعرف لغة اجنبية وتوعد جورج بانه اذا لم يدفع له خمسمائة ريال ترجم الكتاب بما يوجب قتله فاسرع جورج باجابة ماطلبه اليهودى الذى ترجم الكتاب بان جورج يدعو الحكومة للتسليم للمهدوية ويحذرها مغبة عدم التسليم فسجن الرجل وصودرت امواله ثم اطلق سبيله وقدم الخرطوم مع المهدى وهناك اجتمع برجل آخر حلبي ايضا اسمه (نعوم العجبى) وتصاهرا بزواج اولادهما وكان نعوم مدعيا انه يعلم بعض العلوم الكيماوية فذهبا الى التعايشي ذات يوم وقالا انهما يعرفان

بصناعة صك النقود وانهما قادران على تحسين حالة المعاملة فقوبل طلبهما من التعايشي بالاستحسان فكتب الى أمين بيت المال يأمره بمساعدتهما على جلب مايطلبانه من القوالب بواسطه الترسانة فاخذ يماطلها ويعدهما من يوم لآخر حتى يدبر حيلة للايقاع بهما تخلصا من استيلائهما على دار الضرب الذى يتسرب من ايرادها شيء كثير الى جيب النور الجريفاوي امين بيت المال واقاربه القابضين على منابع تلك الايرادات. وبالجملة فانه اخذ يغرر بهما حتى انفقا نحو مائة جنيه من مالهما فى سبيل تهيئة القوالب واعداد المعدات

ولما يئسا وايقنا أنهما خدعهما النور الجريفاوى ذهبا متظلمين الى الطاغية التعايشي الذى استدعى النور وعنفه على ماارتكبه فاخذ يعتذر بان ابدال المسكوكات يوقع بيت المال فى أزمة مالية شديدة اذ تكون النقود القديمة بأيدى الناس ثم يطلبونها مما ضرب حديثا ثم ذيل اعتذاره بأن ذينك الرجلين لايزالان نصرانيين فسأله التعايشي كيف يكونان كذلك وما هو الدليل على صدق هذا القول فقال الجريفاوي انهما وسائر الذين أسلموا على يد المهدوية لايزالون غلفا لم يختتنوا حتى الآن وهناك دليل آخر وذلك انهم لايزالون يحافظون على توحيد الزوجة فغضب التعايشي وأرغى وأزبد واستدعى القضاة وسائر المسيحيين الذين تظاهروا باعتناق الاسلام وفي مقدمتهم جورج ونعوم فسألوهم هل أنتم غلف فاعترفوا بذلك فدخل القضاة على التعايشى وأخبروه بهذا الاعتراف فخرج على عادته متسربلا بسربال القهر وخاطبهم بعبارات التعنيف ولم يسكن غضبه حتى بالغوا فى الاعتذار بانهم لم يمنعهم من الاختتان غير الخوف من ألم الجروح فقال لهم اذهبوا واختتنوا على يد متطبب اسمه شعبان فذهبوا وهم لايصدقون بالنجاة

وشرعوا فى الاختتان وكانت عدتهم نحو أربعمائة فكان الرجل يختتن مع ابنه وأخيه ومنهم من قاسوا آلاما شديدة من الجروح ومكثوا نحو شهرين طريحى الفراش

ثم بعد ذلك ذهبوا الى التعايشي اليه متظلمين من عدم مقدرتهم على نفقات اكثر من زوجة لما هم فيه من شظف العيش والفقر المدقع فلم يقبل منهم بل توعدهم فعادوا وشرعوا يعتقون الجوارى ويتزوجون بهن لان المسلمين لا يرضون بمصاهرتهم

وعلى ذكر ختان هؤلاء نورد هنا قصة مصرى مكث عدة سنوات لاعيش له ولا كسب الا من تهديد جماعة المسيحيين بأنه سيعرض على التعايشى أنهم غلف فكانوا يدارونه ويؤدون له ماشاء من المال حتى جاءت حادثة جورج ونعوم بما لا يستطيعون دفعه فكانوا يتذمرون منهما ويسخطون عليهما زيادة على ماأصابهما من ضياع مالهما ومقاساتهما آلام الجروح وزد على ذلك اضطرارهما الي تعدد الزوجات التى لم يجدوا منه مفرا

ذكر سجن ابن المؤلف

مر الكلام على ان زوجتى كانت على وشك الوضع لماسقطت مدينة الخرطوم وفى شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٢ سكنت بالخرطوم ابتغاء الحصول على قابلة مصرية تساعدها علي الوضع وقد تقدم انى بسبب ذلك وشى بى للتعايشى واتهمت بانى انما قدمت الخرطوم لتدبير مكيدة ضد المهدوية ولذلك أمرت أنا وسائر المصريين بمغادرة الخرطوم وسكنى أم درمان التى بعد ان وصلت اليها بايام قلائل وضعت زوجتى غلاما سميته (محمد فوزى)

ولما أن سجنت كان عمره زهاء عشر سنوات فوقعت عائلتى في

الشقاء الاليم ولما مضى علي ثلاث سنوات ونصف في السجن كان سن ابنى هذا عشر سنوات وشهورا فذهب فى أحد الايام الى التعايشى باكيا مسترحما يسأله ان يطلق سراحى فرق له وقال له اذهب الى أهلك وأخبرهم انني ساطلق عقال أبيك فى الغد فاقضوا ليلتكم هذه بفرح وسرور فذهب الولد واخبر اخوته بذلك فقضوا تلك الليلة بفرح وسرور

وفى الغد ذهب الولد مستنجزا للوعد فاعرض عنه التعايشى فصار يتعرض له حتى التفت اليه غاضبا وقال لمن حوله « هل يلد الثعبان الا ثعبانا» فقالوا نعم فقال« وهل يحسن بالانسان ان يربى ابن الثعبان » فقالوا كلا فقال أليس هذا الولد ابن المنافق ابراهيم فوزى فقالوا بلى فقال لا بد من الحاقه بابيه فاستدعى كاتب أخيه يعقوب المسمى « بان النقاموسى » وقال له خذ هذا الولد الى بيتك وضع في رجليه القيود ووكل به غلمانك يحرسونه ويشغلونه بسياسة خيلك ودوابك

فأخذه بان النقا ووضع فى رجليه القيود ومع كونه كان يراعيه ويرأف به فى السر فانه كان يلاقى من عبيده وخدمه المذلة وسوء المعاملة

والسبب في اخلاف التعايشى ماوعد به وعدوله الى حبسه انه فى نفس اليوم كانت جواسيسه قبضت على واحد من جواسيس اللورد كتشنر جاء أم درمان من قبل سلاطين باشا لارسال مكاتيب الى بعض الناس وكان ذلك الجاسوس يسأل بعض الناس هل ابراهيم فوزى حي يرزق وهل شارل نيوفيلد على قيد الحياة وسأل عن بقية المسجونين بتهمة تهريب سلاطين باشا كابراهيم حمزة وغيره من الذين مر ذكرهم فقبض على ذلك الجاسوس وكانت الحملة المصرية وقتئذ في دنقلة

والخلاصة ان الولد بقي محجورا في منزل بان النقا الى يوم دخول اللورد كتشنر أم درمان ظافرا حيث أصيب بان النقا بجروح بليغة كانت من أقوى الاسباب على نجاة الولد لانه لما انهزم التعايشي وركن الى الفرار انفذ الى بان النقا يأمره باللحاق به مستصحبا الولد فلم يستطيع مغادرة فراشه بسبب الجراح

ولما دخل كثير من اخوانى الضباط المصريين منزل بان النقا ورأوا الولد فيه وضعوا الحراس علي المنزل لحفظ من عبث بعض الاعراب الموالية للحكومة وهم الذين اعملوا النهب والسلب على أثر دخول الجنود المدينة

أما تأثير حبس ابنى علىّ فكان سيئاً جداً حيث فقدت الرشد ولقد أخبرنى من كانوا حولى أنه لما فاجأني ذلك الخبر قطعت سبحتى وقلت وأنا ذاهل يا الله رضيت بيلائك فى نفسى ولزمت طاعتك شاكرا على السراء والضراء فابتليتى بحبس ابنى لاتركن الصلاة وسائر العبادات

ولما عدت الى صوابى واخبرونى بما قلت أسرعت بالتوبة والاستغفار وعدت الى ماانافيه من ملازمة الفكر والانقطاع الى الذكر ولم أعلم ان رحمة الله تعالى ستدركنى وابنى الذى صار حبسه سببا لصيانة من حبس عنده فالحمد لله الذى انقذني وابنى وجعل لنا بعد الضيق فرجا وبعد الخوف أمنا ونجاة

التعايشي قبل حملة دنقلة

لما تمكن التعايشي من قهر أقارب المهدى وسجن مناظره الخليفة شريفا كما تقدم اطلق لاقاربه البقارة العنان في البلاد يظلمون وينهبون وعكف على شهواته وصار يركب العربة التى ذكرنا في اخبار فتوحات خط الاستواء ان الطيب الذكر غردون باشا جلبها من القاهرة ليقدمها هدية الى

الملك « امتيسه » صاحب أوغنده وقتئذ

على ان هاته العربة لم تكن مقصورة على ركوبه بل كانت تسير في شوارع المدينة ليلا فيها الخصيان ليقبضوا على النساء البارعات فى الجمال ويمضوا بهن الى دارالتعايشى فيلبثن بها حتى اذا قضى وطره منهن أعادوهن الى بيوتهن وقد كانت بداية عملهم هذا اثر القبض علي الخليفة شريف وسائر أقارب المهدى الذين نفوا وقتلوا فى زمن تلك الحوادث المريعة ولا فرق بين امرأة ذات بعل أو أيم أما ذات البعل فان الخصيان يفهمون بعلها أن خليفة المهدى يريد اسماعها مواعظه التي يسمونها (المذاكرة) وأما التى لابعل لها فليسوا في حاجة الا الى أخذها وادخالها العربة

ومن اللواتي أخذن بهذه الصورة زهراء بنت محمدشقيق المهدى الذى تقدم انه قتل يوم الهجوم على الابيض عاصمة كردفان وكانت تحت أحد أقاربها الذين نفاهم التعايشي الى خط الاستواء وكذلك فعل ببنات حامد شقيق المهدى وقد مر أنه قتل فى احدى وقائع جبال قدير

وقد كان التعايشي متزوجا بأم كلثوم بنت المهدي وأولدها بضعة أولاد ثم طلقها لغير ذنب جنته غير انه أراد الاقتران باختها مريم لجمالها المفرط حيث تزوجها ودخل بها بعد وقوع الطلاق بيوم وليلة

أما المظالم فقد تضاعفت ويئس الناس من الخلاص بثورة داخلية حيث تمكن الطاغية من القضاء على كل قوة يتوقع منها القيام للخلاص من ظلمه

وبالجملة فان حلقات المصائب قد استحكمت ولم يبق للناس صبر على الخطوب المتوالية والمصائب النازلة على رؤسهم حتى انهم كانوا ينقطعون فى

الخلوات يضرعون الى الله أن يخلصهم من هذا البلاء واذا سمعوا بشيء من أخبار الحملة ظهرت عليهم علامات الفرح والسرور وبذلوا الصدقات للفقراء والمعوزين شكرا لله تعالى وقد كان التعايشي أول من أنبأ بتقدم الحملة علي دنقلة قبل تقدمها ببضعة شهور وسيأتى ذكر ذلك

جواسيس المهدوية

قلنا فيما مر ان أهالى مديرية الحدود كانوا ميالين الى دعوة المهدوية فى بداية امرها وخصوصا (البرابرة) الذين يسكنون بين أسوان وحلفا

وقد أشرنا الى العذاب المهين الذى أرهقهم به النور الجريفاوى فى بربر اذ كانت مغبته نفورهم عن المهدوية وانحراف جلهم عن موالاتها وقبل ذلك كان جلهم يتقربون الى المهدوية بابلاغها أخبار الحكومة بغلو فاحش فى اسناد العيوب اليها ونسبة الوهن الى حامياتها فى الحدود وبقى كثير منهم على الولاء حتى قتل عبد الرحمن النجومى حيث كانوا يستعدون لمعاونته والانضواء الى لوائه بالرغم عن فظائع النور الجريفاوى التى عامل بها تجارهم لولا الحيطة التى اتخذها السير غرانفيل باشا سردار الجيش المصري وقتئذ

ويقال ان الاسباب التى دعت هؤلاء الى التمسك بولاء المهدوية والانحراف عن الحكومة هى تحرير الارقاء وابطال النخاسة

واذ ذاك أى فى بداية دعوة المهدوية كان كبراء مديرية الحدود كما قلنا يراسلون أمراء المهدوية بالاخبار ويتطوعون لهم بالتجسس وفى كثير من الاحيان كانت أخبار سواكن وما يقع فيها من الحوادث تبلغ التعايشى قبل وصول بريد سواكن اليه فكانوا اذا حملها البرق من سواكن يتلقاها الروادفى

الحدود فيذهبون بها على ظهور الهجن الى بربر وقد اتهمت الحكومة كثيرين من هؤلاء الكبراء وحاكمتهم أمام المجالس العسكرية ولكنها لم تتمكن من قطع دابر جاسوسية التعايشى التى لم تعد بفائدة عليه

وفى الايام الاخيرة صار للمهدوية جواسيس بعضهم يتجسسون ليونس الدكيم أمير دنقلة وبعضهم للتعايشى وآخرون للزاكى أمير بربر

وكان من أشهر جواسيس التعايشى رجل يدعى ولد الحسين وأصله سوداني وآخر يدعى أبا شعبان وهو مصرى من سكان مديرية الحدود وللاول منهما نادرة مع سلاطين باشا وهى أنه وشى به الى التعايشى بانه على أهبة الفرار حتى خيف من التعايشى علي سلاطين باشا الذى تمكن من استمالة القضاة الى جانبه حتى وشوا بولد الحسين الجاسوس عند التعايشى فحبسه وارتاب فى صدق مارفعه اليه من الانباء

أما أبو شعبان فكان التعايشى ذاثقة عظيمة به وكان يتردد على الحدود المصرية ومع شهرته التى لايجهلها جواسيس قلم المخابرات كان يعود دون أن يصيبه مكروه حتى ذهب بعض الناس الى انه مأجور لقلم المخابرات ومتواطىء معه علي ان لايبلغ التعايشى خبرا الا بموافقته

والحاصل انه كان للتعايشى جواسيس ولكنهم قلما يرفعون اليه مايستفيد منه العلم بشيء قبل وقوعه

على ان جواسيسه رفعوا اليه قبل حملة دنقلة ببضعة شهور ان الحكومة مصممة على الزحف الى دنقلة واستدلوا على ذلك بانها جمعت الملاحين الذين لهم خبرة بالشلالات الواقعة جنوب وادى حلفا ولما اتصل به هذا النبأ أمر باخراج تجار المصريين من البلاد وضرب لهم موعداً يخرجون فيه ومن تخلف منهم

صودرت أمواله ونفى الى أعالى النيل

هذا مافعله حينما اتصل به الخبر وهو يدل علي ما مر من عدم حصول فائدة للتعايشى من هذا التجسس

ويقولون ان أغاب جواسيسه متفقون مع الحكومة عليه ومنها يتلقون مايرفعونه اليه ولا ينافى ذلك ماقلناه من ابلاغهم اياه أمر الحملة قبل حركتها ببضعة شهور اذ يحتمل انهم موعز اليهم بهذا الامر ليرى الموعزون مايكون من وراء ذلك

والخلاصة ان رواد التعايشى كان جلهم من أهالي مديرية الحدود وأخبارهم ملفقة مبالغ فيها كقولهم للتعايشي ان حكومة مصر فى رعب شديد وكلما طرق آذان رجالها ذكرك ارتبكوا وكذلك أهلوها فانهم يصرعون خوفا وجبنا كلما سمعوا بذكرك فيتمايل طربا ويظن أن ماقالوه حق

علي انه يوجد فى البلاد رواد ولكنهم قاصرون فى ارتيادهم علي ضبط السكيرين وصناع البوظة والمدخنين والذين يتاجرون بالدخان

وفى كثير من الاحوال يتناولون الرشا منهم ويتركونهم ويلفقون الدعاوى الكاذبة علي من كانوا مظنة المال ليتوصل بيت المال الى مصادرة أموالهم بمجرد اتهامهم بوجود دخان أو بوظة فى منازلهم وقد خطب التعايشي يوما فقال ان القدر الذى يوجب مصادرة المال من الدخان هو ربع درهم ومن البوظة ربع رطل وربما دفع المتهمون الالوف من المال بغية النجاة من الضرب والتعذيب والاهانة ومصادرة المال

ذكر جلب الممنوعات من مصر

ومن أنواع جواسيس التعايشى ناس يجلبون له «الممنوعات» من مصر وهى الذخائر الحربية التى منعت الحكومة ارسالها الى السودان ولذلك أطلقوا عليها اسم « الممنوعات »

وقد تقدم ان التعايشى أنشأ معامل لتعبئة الخرطوش وغيره من ذخائر الحروب

وقد مر الكلام على الرصاص فى قصة الايقاع بالمقدم عمر الجعلى وكذلك ماأتاه المسمى كمال الدين الهندي الذى أحرق رفات قتلى الخرطوم ومثل باشلائهم أبشع تمثيل مدعيا أنه يستطيع اخراج صنف البارود من تلك العظام وقد ذكرنا فشل جميع هؤلاء الدجالين ماعدا اليونانى برديقاجى فانه وفق لاستخراج صنف البارود ثم احترق هو واعوانه لما انفجرت عليهم آنية البارود

وقد كان نجاح هذا اليونانى متوقفا على ايجاد شىء كثير من العقاقير الكيماوية التى لاتوجد فى السودان لاتمام تجهيز «عجينة الكبسون» و(ملح البارود) وغيرهما من المواد القابلة للانفجار التى على محورها يدور عمل المعامل الحربية ولا سبيل الى ذلك الا بجلبها من القاهرة فاهتم التعايشي بهذا الامر واستقدم اليه النور الجريفاوى وكان يومئذ أمينا لبيت مال بربر وفاوضه فى ذلك الامر فأشار عليه بالاتفاق مع جماعة من تجار بربر وأم درمان للاستعانة بهم على التحايل على تهريب تلك «الممنوعات» وهؤلاء التجار هم (عمر كشه) وأصله من أهالى سواكن (وعلى محمود الضوى) وأصله مصري من مديرية الحدود

استوطن أبوه بربر (وعبدالرحمن منصور) من أهالى أم درمان وصهر النور الجريفاوى فصار هؤلاء التجار ينفذون أعوانهم الى مصر فيبتاعون الممنوعات ويحتالون على تهريبها بوضعها في أكياس الارز ومن العجيب ان الحكومة لم توفق لاحباط أعمالهم حتى استمروا على ذلك عدة أعوام وجلبوا مقادير عظيمة من الرصاص وغيره من العقاقير وتمكن أعوان على محمود الضوى من استحضار ذخيرة من خرطوش مدفع « المترليوز » الانكليزي الذى غنمته المهدوية من حملة الجنرال هيكس وكان التعايشي يؤدى لهم الاثمان مضاعفة ويتجاوز لهم عن مكوس سلعهم التى يصدرونها الى مصر أو يجلبونها منها تنشيطا لهم فكانوا يجلبون هذه الاشياء دفعتين فى العام وفي بعض المرات بلغ ماجلبوه مقدارا عظيما من الرصاص وارتقت همة على محمود الضوى الى انه ابتاع نحو ألف وعاء من الاوعية التى يسمونها « شنطه » وضع فى كل واحدة خمسين خرطوشة جابها من مصوع ويقال ان الحكومة لم توفق الى معرفة حيلهم واحباط أعمالهم الا فى الايام الاخيرة

والحاصل ان هؤلاء التجار كانوا من أقوى الاسباب في تقوية المهدوية وامدادها بالذخيرة التى لولاها مااستطاعت محاربة الاحباش في القلابات والشلك في فشوده وغيرهما من الحروب الاهلية التى شبت نيرانها فى دارفور واكثر انحاء السودان وكان أبو شعبان الجاسوس الآنف الذكر ممن يجلبون الممنوعات أيضا

ذكر غارة الدراويش على الواحات

لما افلح عثمان ازرق فى الغارة على (آبار المرات) وقتل صالح بك خليفة

كما مر وكان يونس الدكيم أميرا على دنقلة وقتئذ من قبل التعايشى وعثمان ازرق قائد الدراويش المعسكرين في الجهات الشمالية بالقرب من ضواحى حلفا

وكان عثمان هذا لا ينفك عن الغارة على الجهات الواقعة شمال حلفا طمعا فى السلب والنهب وكان يونس الدكيم يرسل الكتب تباعا الى التعايشى مفعمة بالثناء على عثمان ازرق واقدامه وما حازه من النصر المتتابع فى وقائعه وسطواته التى أضرب بنا صفحا عن جاهها ولم نذكر الا القليل منها اذ هى أشبه بما يجرى من عصابات السطو واللصوصية

وفى أوائل سنة ١٣١١ هجريه كتب التعايشى الى يونس الدكيم كتابا يأمره بانفاذ عثمان ازرق فى الف راكب على ظهور الابل للغارة على الواحات وكان ذلك اجابة لالتماس يونس الذى كان يشحن كتبه الى التعايشي بذكر الواحات وما فيها من المال الذى سيغنمه اذا أغار عليها فتحركت اطماع التعايشى وأمره بالغارة عليها وأوصاه أن يفاجئها تحت ظلام الليل

فسار الالف راكب يقودهم عثمان ازرق وبعد ان مضى عليهم بضع ليال فى السير واقتربوا من الواحات أنفذ عثمان العيون ليأتوه بالخبر فقضوا الليلة وعادوا فى الغد وأبلغوه ان أعراب الواحات كثيرون جدا وأن أطنابهم متدانية من بعضها وعندهم الاسلحة النارية وليس بينهم حامية للحكومة بل هناك ضابط للشرطة ومهندس لحفر الآبار فخاف عثمان ازرق مغبة محاربة أهل الواحات فعول على خديعتهم حيث زحف فى مقاتلته حتى بات قريبا من احيائهم ثم تقدم اليهم فى الغد بصفة سلمية وأفهمهم ان يونس الدكيم أمير دنقلة نازل على مسافة مرحلة من حيهم وانه قادم لفتح مصر عن طريق الواحات وانه جاء من قبله لبذل الامان لهم فانخدع الاعراب وراجت

عليهم حيلته ثم قال لخمسة عشر عميدا من رؤساء القبائل وللمهندس اذهبوا معى لمقابلة الاميرفامتطوا الحمر وذهبوا معه وهو يخدعهم بقوله هو نازل وراء هذه الربوة أو الغابة حتى مضى النهار كله وحينذاك ايقنوا بانهم خدعوا وان القصد من ذلك ايصالهم الى دنقله التى بلغوها بعد بضع ليال

ولما وصلوا دنقله استقبلهم يونس الدكيم وأطلق واحدا وعشرين مدفعا علامة الانتصار وكانوا فى حالة سيئة من شدة مانالهم من وعثاء السفر الفجائى ثم لم يلبثوا فى دنقله الا ليلة وبعض يوم ثم أرسلوا الى أم درمان تحت الحفظ

ولما مثلوا بين يدي التعايشى عاتبهم وألان لهم القول قائلا نحن واياكم اعراب وكلنا نبغض الترك الكفار وننفر منهم فلماذا لم تنضووا الى لواء المهدوية وتحاربوا الترك الكفار الذين نبذوا الشريعة وتمسكوا بالبدع وأصروا على الكفر

فأجابوه بقولهم نحن نتوب الي الله مما سلف ونحمد الله الذى قدر لنا الخلاص من ربقة الكفار ومن علينا برؤية وجه خليفة المهدى عليه السلام فأمرهم بمبايعته فبايعوه ثم استدعى أحد التجار وأمرهم بالاقامة فى داره وخصص لهم مرتبات من بيت المال فقام التاجر بكل لوازمهم بجد وسخاء أما بيت المال فانه كان اذا نقدهم مرتب شهر ماطلهم ثلاثة شهور وهذا التاجر اسمه (البلال الاسيده) وهو رجل سخي مشهور بالرأفة بالمصريين الاسرى وخصوصا المؤلف وقد مكثوا على هذا الحال زهاء عامين كانت حالتهم فيهما تنتقل من سيء الى أسوأ

وفى ذات يوم استدعاهم التعايشى الي منزله بحضرة القضاة وأهل

الشورى وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم أخبره بان سرائرهم قد ملئت بالاخلاص للمهدوية وانه عليه الصلاة والسلام امره ان يعيدهم الى اوطانهم دعاة للمهدوية وأمراء على عشائرهم ليصدعوا في الواحات بدعوة المهدية ويناوؤون الحكومة المصرية فرقصت افئدتهم طربا لما لاحت لهم بارقة النجاة ولكنهم بكوا وانتحبوا وأظهروا كراهة ان يكونوا بعيدين عن خليفة المهدي الذى كان يكثر الالحاح عليهم بوجوب الامتثال لما اشار به الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يتأسفون وينتحبون وما زال بهم حتى ثابوا الى الطاعة وكتبت لهم صكوك الامارة وتلقوا التعليمات ونقدهم بيت المال نفقات السفر وشدد عليهم فى موافاته بالضرائب التى يجلبونها من أعمالهم فغادروا أم درمان وهم وجلون لا يصدقون بالنجاة حتى بلغوا الحدود المصرية وهناك مزقوا المرقعات ودفعوا للحكومة صكوك الامارة ومنشورات الدعوة واعلموها بما وقفوا عليه من ضعف المهدوية وانحراف الناس عن طاغيتها وكانت نجاتهم فى الزمن القريب من حملة دنقلة

دنقلة قبل الحملة عليها

انتهينا في الكلام عن دنقلة فيما مضي من الكتاب الى ذكر المجاعة التى فشت فيها سنة ١٣٠٦ والى ذكر عزل عبد الرحمن النجومى عن امارتها وولاية يونس بن الدكيم

وهنا نشرع في الكلام على مدة يونس التى ابتدئت من ذلك العهد تبيينا للمظالم التى دمرتها فنقول

لما تفشت المجاعة فى دنقلة وغادرها عبد الرحمن النجومى الى حيث لاقى حتفه فى (طوشكى) ضعف أمر الاحزاب التى كانت متشيعة له وهجر أهالى دنقلة الشمالية أوطانهم فارين من وجه الظلم حيث لحقوا ببلاد مديرية الحدود

وكان يونس قد عزل كل الجباة الذين أصلهم من أهالى السودان الاوسط أى الذين لم يكونوا من البقارة وعين نحو سبعين جابيا من عبيده بدلهم

أما طريقة جباية الخراج فقد ذكرنا فيما مر من هذا الكتاب أن الضريبة فى دنقلة منذ دخول السوذان تحت طاعة مصر كانت عقارية ولما كانت بلاد دنقلة خصبة ومن حاصلاتها القمح والذرة واللوبيا التى هى متعددة الاصناف عدا التمر وريها بالآلات كالسواقى والشواديف فقد اخترع يونس لجباية ضريبة الحبوب طريقة سماها (التخريص) وهى ان الجابى يذهب الى المزرعة ويقدر ان محصولها يبلغ كذا فيلزم الزارع بتأدية نصف التخريص الذى لايقل عن ثلثى المحصول ثم يلزم صاحب الزرع بتأدية ريال مجيدى عن كل أردب من المطلوب تأديته وهذه الضريبة ليست لبيت المال بل هى للجابى ويسمونها (ضيافة العامل) وزد على ذلك أنهم كانوا يطالبون من كل زراعة تبلغ مساحتها فدانين فاقل نحو عشرة ريالات قيمة ثمن التبن اذا كان المحصول قمحا وقيمة ثمن البوص اذا كان من الذرة أو الجذور اذا كان من اللوبياء

وهناك ضريبة أخري تجبى لغذاء الامير يونس الدكيم وتتجدد كل شهرين أو ثلاثة وهى ضريبة المسلى والاغنام وهى لاتقل عن عشرة ارطال وخروفين عن كل مزرعة فيرسل السبعون جابيا للامير مايجتمع عندهم وأقل مايتحصل من ذلك عشرون قنطارا من السمن ومائة راس من الاغنام

أما الضرائب التى لاتدخل تحت قيد فكثيرة منها ماسببه اعسار بيت المال

الذى يضرب بسببه على كل شخص قدر من المال يؤدى له ونفقات البعوث والسرايا وهى أجل من أن تدخل تحت حصر

واذا سافر جيش أو سرية من الدراويش من مكان لآخر فانهم لايحملون ميرة ولا علفا لدوابهم بل ينهبون ويأكلون ويذبحون قطعان الماشية في الطرقات ولا يستطيع أحد من الاهاين منعهم أو الحيلولة بينهم وبين مايريدون

وعلى أثر ذلك استأثر يونس ومواليه بخيرات البلاد وانطلقت أيديهم في أموال الناس وبات الاهلون تحت اثقال هذا الظلم يئنون

وقد مدّ موالى يونس أيديهم الى الاعراض واستحلوا نكاح الحرائر المسلمات بملك اليمين فكنت تجد عند الواحد منهم اكثر من أربع حرائر وكانوا يبعثون بالنساء الحسان الى التعايشي وأخيه يعقوب وابنه شيخ الدين وجميع كبراء البقارة

ومكث يونس علي هذه الحالة ثلاث سنوات ثم عزله التعايشى وولى بدله محمد خالد زقل الذى كان أميرا علي دارفور وقد ذكرنا شيئا كثيرا من سيرته فشرع في تخفيف الوطأة عن الدنقلاويين لانه دنقلى منهم ولكن مدته لم تطل حيث عزل بعد سنة وسجن ثم نفى الي خط الاستواء

وقد أعيد يونس الى الولاية وعادت كل المظالم التى ابتدعها ومكث كذلك الى ماقبل الحملة عليها ببضعة شهور

ويونس هذا أصله من قبيلة (التعايشة) التى منها التعايشى وكان زوجا لام التعايشى وكان قصير القامة جدا وجسمه ضئيلا نحيفا وكان أميا لا يعرف الكتابة والقراءة يأتيه الناس فيقولون له انك شجاع وان الاسود فى آجامها تفزع منك وان ملامح وجهك ترعب من ينظر اليها

وانه اذا ذكر اسمك فى مصر ولوندره يموت الناس فزعا فينتفخ من هذا الثناء الكاذب ويلتفت لمن حوله من الرجال والمشيرين فيقول لهم أما سمعتم مايقول هذا الرجل فيقولون سمعنا فيقول وهل صدق الرجل فيقفون على أقدامهم ويرفعون أصواتهم قائلين ياسيدنا الامير اتطلب منا دليلاً على الشمس والى متى تنكر صفاتك التى لايجهلها أحد وانت فوق الاسود شجاعة وعزيمة ويحلفون انهم في حالة وجل وروع شديدين من رؤية وجهه والدنو منه فيطير سروراً ويأمر في الحال بضرب الطبول ودعوة المقاتلين للاستعراض ثم ينعم بالمال على الرجل الذي اثنى وعلي الذين ايدوا أقواله

هذا مع انه جبان لم يذكر بمنقبة فى حرب وقد ظهر جبنه فى سنة ١٣٠٣ لما أنفذه التعايشى لقتال عساكر بن كلام زعيم قبيلة (الجمع) شرق كردفان لما خلع طاعة المهدوية وكان عساكر هذا فارسا مقداما يشق صفوف الرجال ويزحزح الابطال وكان كلما حمل ليبارز يونس يختفى منه ويقول لمن حوله اياكم ان تتركونى ابارز هذا الشقى ثم يتظاهر بانه سيهجم عليه فيتعلق الناس بدابته فيرجع قائلا أما لو تركتمونى لمبارزته لجندلته لكم علي الارض بغير سلاح بل كنت اختطفه من قربوس سرجه واجلد به الارض وكان هذا حاله طول الايام التى نشبت فيها الحرب بين الجمع حيث انتهت بقتل عساكر وعودة قومه الى الطاعة

أما قسوته وغلظته فحدث عنهما ولا حرج فانه كان اذا أمر بحبس واحد أمر خمسين من عبيده بالاحاطة به وضربه بالعصي والسياط حتى يبلغ السجن وهم يسمون هذه العادة (الفرقة) أى المسافة مابين منزل الامير والسجن وهى لاتقل عن ميلين وقد لايصل المسجون حيا بل يقضي عليه وهو فى الطريق

ونقل لى أحد الثقاة ان يونس أمر بسجن على بن الامين أحد صغار القواد وابن الشيخ محمد الامين رئيس علماء السودان الذى ذكرناه مرارا فى هذا الكتاب فاحدق به مائة وخمسون عبدا وأخذوا يضربونه (الفرقة) حتى بلغوا به السجن مغشيا عليه ومكث يوما وليلة لايعى شيأ فيئسوا من حياته وبعد أيام أمر بالناقل أيضا الى السجن لذنب طفيف فاسرع الى الاقتراب منه ووقع على الارض وانكفأ علي بطنه وقال له ياسيدى الامير اتوسل اليك ان تأمر بضربى (الفرقة) أمامك ثم تحظر على الحراس أن يضربوني فى الطريق فضحك وقال أأنت خائف من الفرقة فقال كيف لا أخاف فقال له أتتوب فقال تبت الى الله والرسول والمهدى وخليفة المهدى ومولاى يونس فقال قد عفوت عنك فانهض ولا تخف .

هذا قليل من كثير من أخبار يونس التى لاتسعها المجلدات الضخمة أوردناه للدلالة علي ما كان يقاسيه الدنقليون من حيفه وسوء معاملته

وقد هلك نحو ثلاثة أرباع السكان وأمست أراضيهم قفرا بلقعا.وكانت وفودهم تشخص تباعا الي التعايشى متظلمة من جور عماله فلا تجديهم الشكوى ولا ينفعهم التظلم وكثيرا ما كان يسجن الشاكين وينكل بالمتظلمين والخلاصة انهم انقطعوا عن الشكوي وصبروا على مر البلوى حتى أراد الله تعالى انقاذهم فحملت الحكومة على دنقلة وأجلت الدراويش عنها فخرجوا منها مذمومين مدحورين كما سيأتى ذكر ذلك فى مكانه والله الهادى الى سواء السبيل

ذكر مسألة العقرب مع التعايشى

يوجد بام درمان الحشرات السامة بكثرة فوق التصور وخصوصا نوع

العقارب لانهـا كانت قبـل اتخاذها عاصمة للمهدوية برية ليس فيها زرع ولا ضرع وأرضها مكسوة بالحجارة ويستحيل نجاة من لسعته عقرب الا اذا كانت صغيرة وكثيرا مارأيت عقربا يبلغ طول مابين رأسها وذيلها عشرين سنتمترا

وفى ذات يوم وقف التعايشي لصلاة المغرب فابصر بعد تكبيرة الاحرام وقراءة أم الكتاب عقربا تدب نحوه فارتاع وصار يكرر قراءة الفاتحة ويشير بيده الى من خلفه من المصلين فلم يفهموا قصده بل ظلوا وقوفا فى الصلاة ولكنهم ادركوا انه لم يكرر قراءة الفاتحة الا لسبب قوى من الاسباب فقطع المدعو (الحاج الزبير) أحد حراسه الصلاة ولحقه فى حالة الاضطراب والفزع الشديد من العقرب ووقف بازائه فاشار بيده الى العقرب فقتلها ثم ان التعايشى خرج من الصلاة بتسليمه وهو فى خجل شديد من اعتقاد الناس جبنه الى هذا الحد فجلس مضطربا وقد بلل العرق جبينه وبعد ان ثاب اليه رشده قليلا عزم على التخلص من ذلك بوضع اكذوبة فى غاية الغرابة حيث جلس وألقى على الناس خطبة هذا نصها.

اعلموا ياأصحاب المهدى عليه السلام ان هاته العقرب لم تجسر على الدخول فى هذه المقصورة الا لان ساعة انقضاء حياتى كانت وشيكة غير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهدي والخضر عليهما السلام حضروا فى هذه اللحظة واخبرونى انهم سألوا الله عز وجل تأخير منيتى لان الامة في حاجة شديدة الى هذا التأخير وقد أمروني بقتل هذه العقرب . أما الدهشة التى ظهرت علاماتها علىّ فانها نتيجة أسرار لايمكن اخباركم بها كانوا يخبرونى بها حتى ودعوني وانصرفوا فاشرت اليكم فلم تفقهوا اشارتى حتى ألهم الله الحاج الزبير فهمها فهو من الشهداء

الكبار ومن خيرة أصحاب المهدي جعلكم الله مثله ومكث نحو ساعتين يقرر هذه الخرافة ولم يصل المغرب الا في آخر الساعة الاولى من الليل

أما الحاج الزبير هذا فانه رجل كثير التملق والاحتيال وقد ذكرنا فيما مضى ان التعايشى كان يشاوره في بداية خلافته ويستمد منه الآراء ولكن مدته لم تطل حيث نكبه وصادر أمواله بعد خلافته بعامين لظهور خيانته مع عمه عبد الله الطريفى الذي كان عاملا للمهدوية على القضارف وقد نكب عبد الله المذكور وسائر اقاربه أيضا وحبسوا وعذبوا ليظهروا خبايا أموالهم

وقد ذكرت ان عبد الله الطريفى هذا وشى بى عند التعايشى لما كان ينوي انفاذي مع دراويشه الى خط الاستواء وقد كافأته علي هذا حيث نصحت التعايشى أن لا يولى غير أقاربه البقارة

ومكث الحاج الزبير مسجونا نحو عام ثم اطلق سراحه لكنه لم يعد الى منزلته الاولى

وكان اذا ناداه التعايشى يرفع صوته قائلا (لبيك ياخليفة المهدي عليه السلام) ثم يظهر التغير فى صوته والاضطراب فى جسمه كأن هيبة خليفة المهدي ونور محياه هما اللذان نشأ عنهما ما اعتراه وقد مكث بعد اطلاقه من السجن مجفوا من التعايشى الذي لم يعده الى منزلته الاولى الا بعد حادثة العقرب التى شرحناها في هذا الباب وأخيراً توفى حتف انفه قبيل فتح أمدرمان وكان أبوه عبد الرحيم الطريفى أمينا من قبل التعايشى على احدى الورش الحربية التي تصنع بها الذخيرة والمعدات الحربية

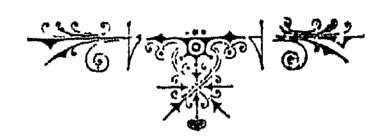
وبالجملة فان الحاج الزبير هذا هو الذي قوى عزم التعايشي علي البقاء بام درمان وثناه عما كان عازما عليه فى بداية خلافته من ان يأخذ نصيبا من الاسلحة ويغادر أم درمان ويؤسس دولته بغرب السودان

﴿ انتهى الجزء الثانى من كتاب السودان بين يدي كتشنر وغردون ﴾

« ويليه الجزء الثالث وأوله البدء بحملة دنقلة »

(كل نسخة من هذا الكتاب تكون مختومة

بختم المؤلف الذي هو هذا)





٣٠ شارع غيط العدة
عابدين : القاهرة

١ ـــ تأسست « جمعية الأخاء الجركسية » سنة ١٩٣٢ بالقاهرة . وتقيد اسمها ضمن أسماء الجمعيات المعترف بها من الحكومة .

٢ ـــ أغراضها : إيجاد رابطة تعارف وتعاون بين الأعضاء ، واتصال باخوانهم فى الأقطار المختلفة ، للتعاون الاجتماعى والثقافى ، وللعمل على دوام حسن التفاهم بين أولئك الاخوان والأمم التى يقيمون بينها .

٣ ـــ قامت الجمعية وتقوم بالصرف على طلبة العلم فى الأزهر الشريف ، وفى مختلف المدارس الحكومية والأهلية ، وفى وجوه البر والعناية بالمرضى والمحتاجين ، وبالضيافة فى دارها .

٤ ـــ أموال الجمعية تتكون من الاشتراكات والتبرعات والاعانات .

٥ ـــ لا دخل للجمعية فى السياسة .

٦ ـــ لجنة الجمعية تقرر قبول الأعضاء ومن ترى أن من المصلحة انضمامه للجمعية .

تاريخ القوقاز

هذا الكتاب هو الأول من نوعه باللغة العربية ، وهو مترجم من كتاب للمرحوم عزت باشا الچركسي الأصل ، وقائد سلاح السواري بالجيش التركي الحديث ، والذي أبلى بلاء عظيما في حرب الاستقلال التركي مع الغازي مصطفى كمال باشا .

والكتاب مدعم بالمستندات التاريخية واللغوية ، وهو صاحب النظرية التاريخية القائلة بان الحيثيين القدماء هم أجداد الچراكسة ، حيث يدلل على ذلك بالأدلة الأثرية والانتروپولوچية ، وهي النظرية التي افتت نظر المؤرخين ورجال الأنساب والآثار من علماء أوربا .

وقد أراد « أتاتورك » فيما بعد أن يجعل من وجود آثار للحيثيين في بعض جهات الأناضول سبباً لأخذ هذه النظرية وتطبيقها على تاريخ الأتراك .

والكتاب مجموعة تاريخية نفيسة عن بلاد القوقاز من عصورها الغابرة إلى هذه العصور الحديثة ، وعمن سكنها ومن لايزال يسكنها من الأمم ، وما لهم من عادات وتاريخ تليد .

وهكذا وُفقت « جمعية الأخاء الچركسية » في نشر هذا الكتاب بين الناطقين بالضاد ؟

يناير سنة ١٩٤١

